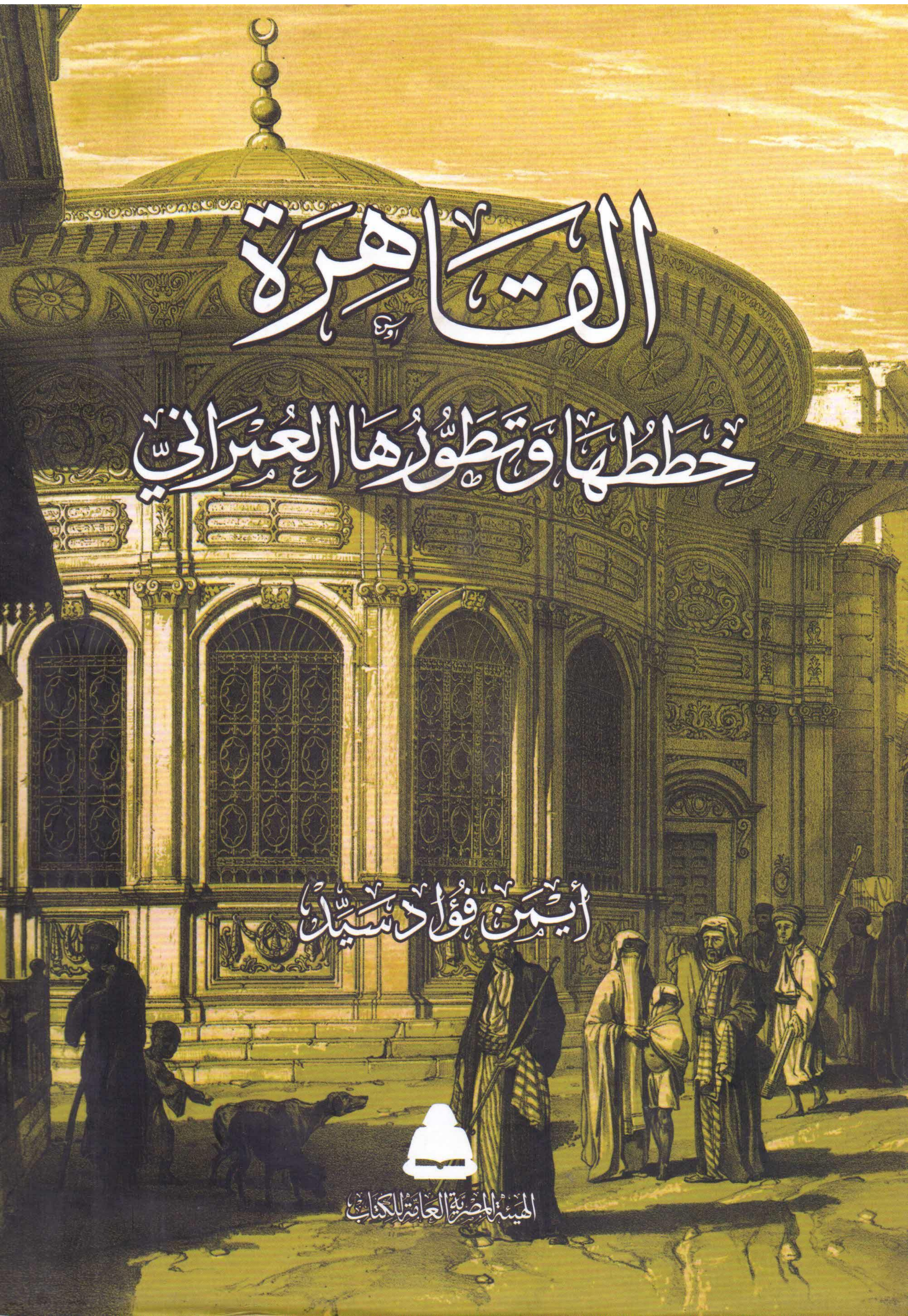
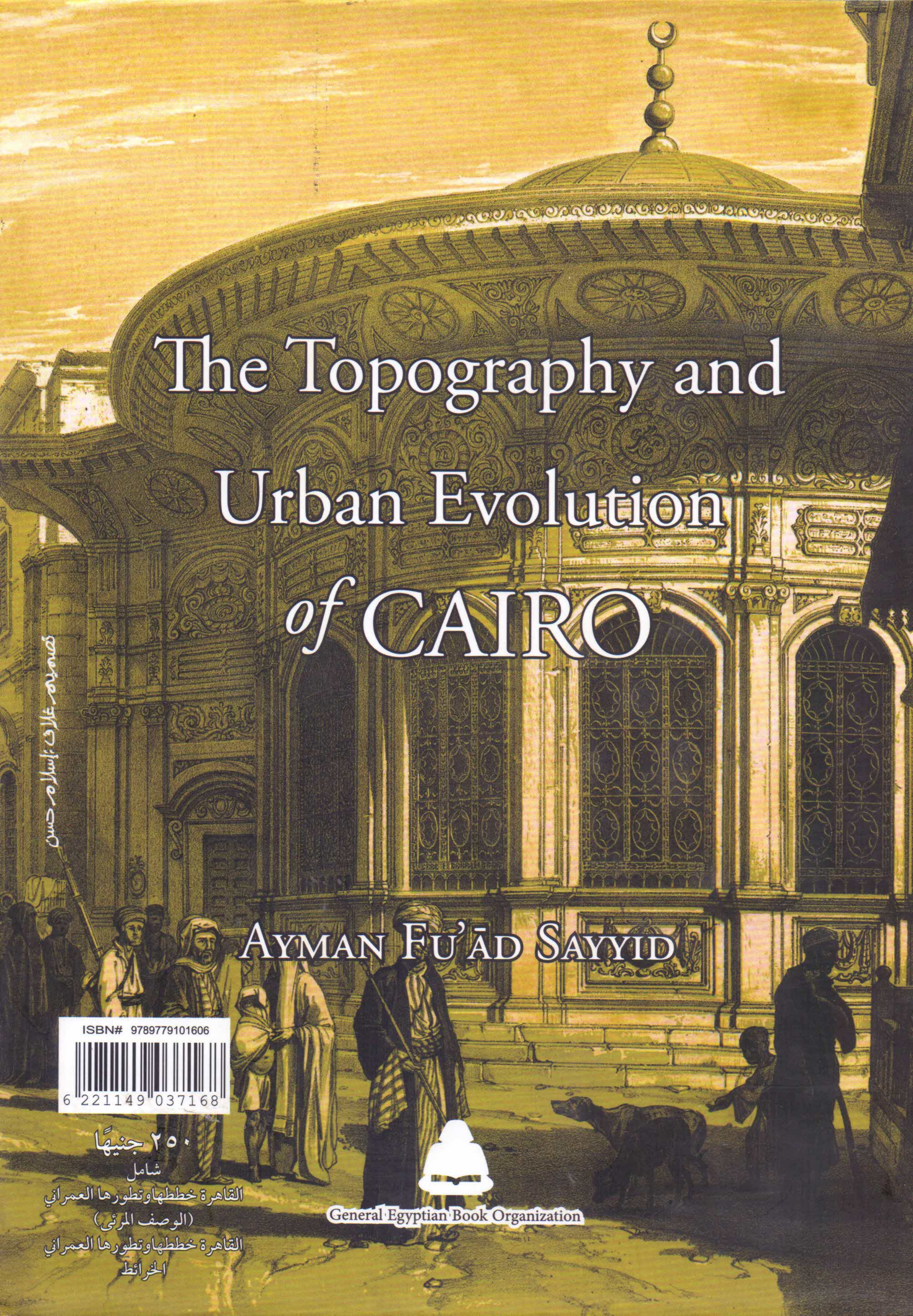


القاهرة
خططها وتطورها العمراني
أيمن فؤاد سيد
الهيئة المصرية العامة للكتاب



The Topography and
Urban Evolution
of CAIRO
AYMAN FU'ĀD SAYYID
تصميم غلاف: إسلام حسن
ISBN# 9789779101606
6 221149 037168
٢٥٠ جنيهًا
شامل
القاهرة خططها وتطورها العمراني
(الوصف المرئى)
القاهرة خططها وتطورها العمراني
الخرائط
General Egyptian Book Organization



وُلِدَ الدكتور أيمن فؤاد سيد فى القاهرة جمهورية مصر العربية عام (١٩٤٩م)، وأنهى دراسته الثانوية فى مدارس الفرير بالقاهرة، ثم التحق بكلية الآداب - جامعة القاهرة حيث دَرَسَ التاريخ بين عامىّ (١٩٦٨-١٩٧٢م)، ثم حَصَلَ من الجامعة نفسها على الماجستير فى التاريخ سنة (١٩٨٠م) فى «تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى» (صدرت فى كتاب فى القاهرة سنة ١٩٨٦م)، ثم الْتَحَقَ بجامعة باريس حيث حصل منها على دكتوراه الدَّوْلَة فى الآداب والعلوم الإنسانية سنة (١٩٨٦م) فى موضوع «عاصمة مصر حتى نهاية العصر الفاطمى: القاهرة والفسطاط - دراسة فى إعادة تخطيطها» (صَدَرَت فى كتاب بالفرنسية بعنوان:

La Capitale de l'Egypte jusqu'â l'epoque fatimide: al-Qâhira et al-Fustât. Essai de reconstitution topographique,Beirut 1998).

عمل مسئولاً عن التراث الحضارى وإرْشاد الباحثين عن المخطوطات بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) بالقاهرة (١٩٧٧-١٩٩٠م)، ومديرًا لمشروع تطوير دار الكتب المصرية ومديرًا للدار (١٩٩٢-١٩٩٨م)، ثم باحثًا مشاركًا وخبيرًا بالمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO (٢٠٠١م)، وأستاذًا للتاريخ الإسلامى ومديرًا لمركز تحقيق النصوص بجامعة الأزهر (٢٠٠٩م). ودعى أستاذا زائرا فى جامعات باريس (٢٠٠٠ و٢٠٠٢م) وطوكيو (٢٠٠٠م) والكويت (٢٠٠٧م) والملك سعود بالرياض (٢٠١٢م).

له إسهاماتٌ مهمةٌ فى دراسة تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى وتاريخ مصر الإسلامية، حيث نَشَرَ «مَصادِر تاريخ اليمن فى العصر الإسلامى» (١٩٧٤م) و«الدَّوْلَة الفاطمية في مصر - تفسير جديد» (١٩٩٢و٢٠٠٠و٢٠٠٧م) إضافةً إلى تحقيق العَديد من النُّصُوص القديمة الخاصَّة بتاريخ مصر الإسلامية للمُسَبِّحى (١٩٧٨و٢٠١٤م) وابن مُيَسَّر (١٩٨١و٢٠١٤م) وابن المأمون (١٩٨٣و٢٠١٤م) وابن فَضل الله العُمَرى (١٩٨٦و٢٠١٥م) وابن الصَّيْرَفى (١٩٩٠م) وابن الطُّوَيْر (١٩٩٢و٢٠١٥م) وابن عبدالظاهر (١٩٩٤م) والمقريزى (٢٠٠٢-٢٠٠٤م و٢٠١٠م و٢٠١٣م) ومؤخَّرًا «كتاب الفِهْرِسْت للنديم» (٢٠٠٩م و ٢٠١٤م)، إضافة إلى نقله إلى العربية «وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل» لإدم فرنسوا جومار أحد أجزاء كتاب «وصف مصر» لعلماء الحملة الفرنسية (١٩٨٨م).

وفى مجال دراسة المخطوطات نَشَرَ العديد من فهارس المخطوطات لمجموعات خاصَّة فى مصر ومالى والجزائر والنَّيْجَر، وشارك فى العديد من المؤتمرات الدولية المتخصِّصة فى التاريخ والعُمْران المدنى وعِلْم المخطوطات فى باريس ولندن وإستانبول وكمبردج وروما وبرشلونة وبولونيا وليدن، وجاء إسهامُه الأكبر فى هذا الموضوع بإصْداره كتاب «الكتاب العربى المخطوط وعلم المخطوطات» (١٩٩٧م) ونقله إلى العربية كتاب «المَدْخَل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربى» لفرنسوا ديروش (٢٠٠٥م).

وإضافة إلى ذلك نَشَرَ الدكتور أيمن أكثر من خمسين بَحثًا ودراسة فى موضوع الخطط والتاريخ الإسلامى وعلم المخطوطات باللغات العربية والفرنسية والإنجليزية فى العديد من الدوريات المتخصصة العربية والاستشراقية، وحرَر عددا من المداخل فى دائرة المعارف الإسلامية Encyclopedia of Islam التى يصدرها المستشرقون فى ليدن والتى يصدرها وقف الديانة التركى ISAM فى إستانبول.

وهو حاصلُ على جائزة الدَّوْلَة التَّشْجيعية فى التاريخ من مصر (١٩٨٣م) وجائزة عبد الحميد شومان للعلماء العرب الشُّبَّان فى العلوم الإنسانية من الأردن (١٩٨٨م) وجائزة الدَّوْلَة التَّقْديرية فى العلوم الاجتماعية من مصر (٢٠٠٦م) وجائزة الكويت للتقدم العلمى فى مجال التراث العلمى الإسلامى (٢٠٠٩م) و الجائزة العالمية للكتاب لجمهورية إيران الإسلامية (٢٠١٣م)، إضافة إلى وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى من مصر (١٩٨٦م). وهو عُضْوٌ بلجنة التاريخ بالمجلس الأعلى للثقافة وبلجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بجمهورية مصر العربية وعضو مجلس إدارة هيئة المخطوطات الإسلامية TIMA بكمبردج و رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة.

الكتاب

تُعدّ «القاهِرَة» أكبرَ المُدنِ العَربيَّة الرَّاهِنَة، وهى منذ أكثر من ألفِ عامٍ المَركزَ الرَّئيس للحَضارَة العَربيَّة الإسلامِيَّة. كما أنَّها مَدِينَة مُنفَرِدَة فى العالَمِ الإسلامِى بنَوعِيَّة آثارِها ونُقُوشِها التَّاريخيَّة ووفرَتِها، بحيث أنّنا لا نَجِدُ فى أىِّ مَكانٍ آخر هذا الكَمَّ من الآثارِ الدِّينيَّة والمَدَنيَّة والحَربيَّة التى تُتيحُ لنا طُرُزُها المِعماريَّة دِراسَة تَطَوُّرِ العِمارَة الإسلامية.

ورَغمَ أنّ القاهِرَة تمتَلِكُ وَثائِقَ ومَصادِرَ مَخطُوطَة، ونَشَرات جُزئية لهذه المَصادِر، وتحوى كذلك آثارًا ذات حَجمٍ يَفُوقُ ما تَملُكه المُدنُ الإسلامِيَّة الأخرى، فإنَّه يَنقُصُها الدِّراسَاتُ التَّفصِيليةُ لتارِيخِها. فقد كُتِبت مُجلَّداتٌ عَدِيدَةٌ حَولَ تَاريخ عاصِمَة مِصر تَناوَلت جَمِيعُها بطُرُقٍ مُتَفاوِتَةِ القِيمَة عُصُورَها التَّاريخية المُختَلِفَة، إلا أنه لم يَتطَرَق أيٌّ منها لاستِعرَاضِ التَّطوُّرِ العُمرَاني للمَدِينَة وامتِدادِها وتَوسُّعِها وتَوزِيعِ خِططِها على امتِدادِ أربَعَة عَشر قَرنًا اعتِمادًا على المَصادِرِ الأصلِيَّة والوَثائِق الرَّسمِيَّة وحُجَج الأوقاف وسِجِلَّات المحاكم الشَّرعِيَّة وأوصَافِ الرَّحالَة.

ويتناول هذا الكتابَ فى مَدخَلٍ وستَّة فُصُولٍ، مَفهُوم «المَدِينَة الإسلامِيَّة» ومَدَى انطباقه على العاصِمَة المصرية «القاهِرَة والفُسطاط» طَوال العَصرِ الإسلامى، ثم أصُولَ القاهِرَة أو تُرَاث ما قَبل الإسلام، وظُهُور العَوَاصِم الإسلامية المُتعاقِبَة: الفُسطاط والعَسكر والقَطائِع، وخَصَصتُ الفَصلَ الثَّانى لدِراسَة القاهِرَة المَدِينَة الحِصن، أوَّل مَدِينَةٍ إسلامِيَّةٍ مُسَوَّرَة كانت تُمَثِّلُ طَوالَ العَصرِ الفاطِمِى العاصِمَة السِّياسية والإدارِيَّة للدَّولَة الفاطِمِية، بينما كانت مِصرُ الفُسطَاط تُمثِّلُ العاصِمَة الاقتِصادية والتِّجارية للدَّولَة والتَّطوُّرات التى لَحِقَت بها طَوَال هذا العَصر. وكان مَوضُوع الفَصل الثَّالِث هو فَتحُ المَدِينَة الحِصن لأبوابها أمامَ الأنشِطَة الاقتِصادية وفَقدِها لخُصُوصِيَّتها بعد انتقالِ مَركز الحُكمِ إلى قَلعَةٍ حَصِينَةٍ على الشَّرفِ المُتقدِّم لجَبَلِ المُقطَّم ظَلَّ كذلك حتى قُرْبَ نِهاية القرن التَّاسِع عَشر للميلاد. وتَناولتُ فى الفَصل الرَّابع امتِدادَ المَدِينة فى العَصر المملوكى الذى يُمَثِّلُ ذُروَة ازدِهار المَدِينة والذى خَلَّفَ لنا العَدِيدَ من المُنشآت الدِّينية وذات الطَّابع الاجتماعِى ونَشأت فيه أحياءٌ جَدِيدَةٌ أضافَت مِساحات كبيرة إلى القاهِرَة. وناقَشتُ فى الفَصلِ الخامِس وَضعَ القاهِرَة فى العَصرِ العُثمانى وتَحَوُّلها من عاصِمة دَولَة كبرى إلى عاصِمَة إقليم من أقاليم الدَّولَة العُثمانية والتَّحوُّلات التى طَرَأت عليها وانتهاء هذه الحِقبَة بوُصُول الحَملَة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) وما مَثَّلَه هذا الاتِّصالُ بحَضارَةٍ جَدِيدَةٍ على وَضعِ العاصِمة المصرية. أمَّا الفَصلُ السَّادِس والأخِير فقد خَصَّصته لدِراسَة عَصر التَّحوُّلات التى انتقلَت بمصر والقاهِرَة إلى العَصرِ الحَدِيث مع مَشرُوعات التَّحدِيث التى تبنَّاها محمد على باشا وخُلَفاؤه المباشِرين، وعلى الأخَصّ الخِديو إسماعيل، الذى انتَهَز مُناسَبَة احتِفالات إفتِتاح قَناةِ السُّويس، سنة ١٨٦٩م، لإدخالِ تَغيِيرات جِذرِيَّة على النَّسِيج العُمرانى للمَدِينَة بإنشاء أحياء جَدِيدَة بالأسلُوب الذى اتَّبَعه، فألصَقَ مَدِينَةً حَدِيثَةً بالجانِب الغربى للمَدِينَة التَّاريخِيَّة مُتَمثِّلَة فى أحياء الإسماعِيلِيَّة والنَّاصِرِيَّة غَربىّ وجَنُوبىّ حَدِيقَة الأزبَكِيَّة، وشُبرَا والفَجَّالَة شَمال المَدِينَة، وفَتح طُرُقٍ تَربِطُ المَدِينَة القَدِيمة بالمَدِينَة الحَدِيثَة (شارع محمد على وشارع كلوت بك وشارع بُولاق (فؤاد الأوَّل فيما بعد)، وإدخال مُستَحدثاتٍ عَصرِيَّة إلى المَدِينَة: دار الأوبرا-القُصُور-الحَدائِق-الكباري، مع تَزوِيدها لأوَّل مَرَّة بالمياه العَذبَة وبغاز الاستِصبَاح. وتأكَّدَ هذا التَّطوُّر بعد ذلك مع الاحتِلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢م.

القاهرة

خططها وتطورها العمراني

أيمن فؤاد سيد



The Topography and Urban Evolution *of* CAIRO

AYMAN FU'ĀD SAYYID



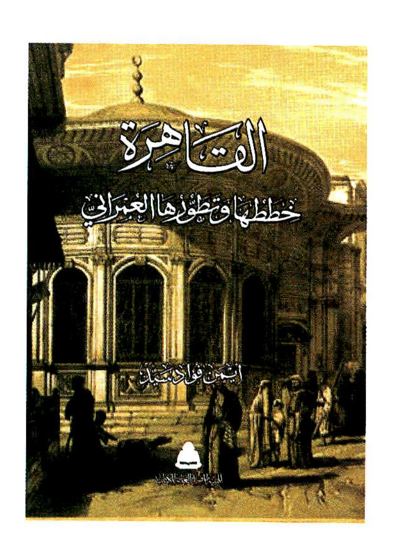
General Egyptian Book Organization

القاهرة

خططها وتطورها العمراني



الهيئة المصرية العامة للكتاب



رئيس مجلس الإدارة

د. أحمد مجاهد

الكتاب

القاهرة

خططها وتطورها العمرانى

أيمن فؤاد سيد

الإشراف الفني

على أبوالخير

الغلاف

إسلام حسن

سيد، أيمن فؤاد
القاهرة: خططها وتطورها العمرانى/ أيمن فؤاد سيد.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
٦٥٦ ص، ٢٤سم.
تدمك ٦ ١٦٠ ٩١٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القاهرة ـ وصف ورحلات
أ) العنوان
ديوى ٩١٦,٢١٦

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠١٥/٣١١٣

ISBN 978 977 910 160 6

القاهرة

خططها وتطورها العمراني

أيمن فؤاد سيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب

فهرست الموضوعات

٥°

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

من المَعْرُوفِ أنَّ « القَاهِرَة » هي أكْبَرَ المُدُنِ العَرَبِيَّة الرَّاهِنَة ، وتُعَدُّ منذ أكثر من ألْفِ عَامٍ المَرْكَزَ الرَّئِيس للحَضَارَة العَرَبِيَّة الإسْلامِيَّة . كما أنَّها تُعَدُّ مَدِينَةً مُنْفَرِدَةً في العَالَم الإسْلامِيّ بنَوْعِيَّة آثارِها ونُقُوشِها التَّارِيخِيَّة ووَفْرَتِها . فنحن لا نَجِدُ في أيِّ مَكانٍ آخَر هذا الكَمّ من الآثارِ الدِّينِيَّة والمَدَنِيَّة والحَرْبِيَّة التي تُتِيحُ لنا طُرُزُها المِعْمَارِيَّة دِرَاسَة تَطَوُّرِ العِمَارَة الإسْلامية .

وفي مُنَاسَبَة إحْيَاءِ ألْفِيَّة القَاهِرَة ، في سنة ١٩٦٩ ، أُثِيرَت قَضِيَّةُ نُدْرَة الأبْحَاث التي تَنَاوَلَت العُمْرَانَ المَدَنِيّ لمَدِينَة القَاهِرَة وقِلَّة ما نَعْرِفُهُ عن تَارِيخ تَطَوُّرِ المَدِينَة ونُمُوِّها . حقيقةً أنَّ أهَمّ مَسَاجِد القَاهِرَة كانت مَوْضُوعًا لدِرَاسَاتٍ مُسْتَقِلَّةٍ ـ ونَادِرًا ما كانت مَوْضُوعًا لدِرَاسَاتٍ مُقَارَنَة ـ كما أنَّها لم تُدْرَس إلَّا من النَّاحِيَة المِعْمَارِيَّة لا كأثَرٍ مُرْتَبِطٍ بما حَوْلَه . ومع ذلك ، فإنَّ قُصُورَ القَاهِرَة ومَنَازِلَها في العَصْرَيْن المَمْلُوكِيّ والعُثْمَانِيّ كانت مَوْضُوعَ أبْحَاثٍ وعَمَلِيَّات رَفْع [1] ، ومُؤَخَّرًا لدِرَاسَاتٍ حَرَصَت على وَضْعِها في مَضْمُونِها التَّارِيخِيّ والاجْتِمَاعِيّ [2] .

ورَغْمَ أنَّ القَاهِرَة تَمْتَلِكُ وَثَائِقَ وَمَصَادِرَ مَخْطُوطَة ، ونَشَرَات جُزْئِية لهذه المَصَادِر ، وتَحْوي كذلك آثارًا ذَات حَجْمٍ يَفُوقُ ما تَمْلُكُه المُدُنُ الإسْلامِيَّة

---

[1] J. REVAULT & B. MAURY, *Palais et Maisons du Caire du XIVe-XVIIIe siècle*. I-IV, *IFAO*, Le Caire 1975-1982.

[2] J. CL. GARCIN, *Palais et Maisons du Caire* I, Époque mamelouke, *CNRS*, Paris 1982; A. RAYMOND, *Palais et Maisons du Caire* II, Époque ottomane, *CNRS*, Paris 1983.

الأُخرىٰ ، فإنَّه يَنْقُصُها الدِّرَاسَاتُ التَّفْصِيلِيةُ لتارِيخِها . وقد خَصَّصَت المُؤْتَمَرَاتُ والنَّدَوَاتُ التي عُقِدَت في الأرْبَعِين عَامًا الأخِيرَة لدِرَاسَة المَدِينَة الإسْلامية ، أبْحَاثًا حَوْلَ المُدُنِ الإسْلامية وخَاصَّةً مُدُن الشَّمَال الأفْرِيقي والشَّام ، ولكنَّها لم تُشِر إلى القَاهِرَة إلَّا تَلْمِيحًا واعْتِبَارًا من العَصْرِ المَمْلُوكي .

ورَغْمَ وُجُودِ عَدَدٍ ضَخْمٍ من الدِّرَاسَات التي تَناوَلَت تَاريخَ مَدِينَة القَاهِرَة في العَصْرِ الإسْلامي ابْتِدَاءً من « وَصْفِ مصر » ، وأعْمَالٍ ذَات قِيمَةٍ كَبِيرَةٍ كمُؤَلَّفات بول راڤيس P. RAVAISSE، وجورج سالمون G. SALMON، وبول كازانوڤا P. CASANOVA، وستانلي لين پول S. LANE-POOLE، ومارسيل كليرجيه MARCEL CLERGET، وجاستون ڤييت GASTON WIET، ومؤخَّرًا دِرَاسَات جانيت أبو اللُّغْد JANETTE ABOULLUGHD، وأنْدْريه رِيمُون ANDRÉ RAYMOND، وسُوزَان اصْطَفَا SUZAN STAFFA، وجون كلُود جارْسان JEAN-CLAUDE GARCIN، ويُوسُف رَاغِب YUSUF RAGIB، ونِلّلي حَنَّا NELLY HANNA، ودوريس بِهْرِن أبو سيف DORIS BEHRENS - ABOUSEIF، وكارولين وِلْيَامْز CAROLINE WILLIAMS، وڤلادِسْلاڤ كوبْيَاك WILADISLAN KUBIAK، وسيلڤي دينْوا SYLVIE DENOIX، وكذلك دِرَاسَة صَمْويل جويتين S.D. GOITEIN عن « مُجْتَمَع البَحْر المُتَوَسِّط » *A Mediterranean Society* من خِلال أوْراق الجِنِيزَة ، فيمكننا القَوْلُ إنَّ دِرَاسَة الآثَار والعُمْرَان المَدَني للقَاهِرَة وتَطَوُّره مُنْذ تأسِيسِ الفُسْطَاطِ وعِلاقَته بالتَّارِيخ السِّياسِي والاجْتِمَاعِي لم تُكْتَب بعد .

ومن بين هذه الدِّرَاسَات ، التي تَنَاوَلَت بطَرِيقَةٍ مُعَمَّقَة تَارِيخَ عَوَاصِم مِصْر الإسْلامِيَّة ، ما أنْجَزَهُ فَرِيقٌ من العُلَمَاءِ الفِرِنْسِيين في نِهَايَة القَرْنِ التَّاسِع عَشْر ومَطْلَع القَرْنِ العِشْرِين ، اعْتِمَادًا على النُّصُوصِ التَّارِيخية والمُعْطَياتِ الأثَرِيَّة ، مُتَمَثِّلًا في كِتَابِ بول رَاڤيس P. RAVAISSE عن « القَصْرِ الفَاطِمِي » ، وكتابَيّ پول كازانوڤا P. CASANOVA عن « قَلْعَة القَاهِرَة » ، و« تَخْطِيط مَدِينَة الفُسْطَاط » ، وكِتَاب

جُورْج سَالْمون G. Salmon عن « قَلْعَة الكَبْش وبِرْكَة الفِيل » . ونَظَرًا إلى التَّعْدِيلات والتَّغَيُّرات الكَبِيرَة التي طَرَأت على هذه المَوَاقِع منذ ظُهُورِ هذه الدِّرَاسَات ، إضَافَةً إلى المَعْلُومَات الجَدِيدَة التي تَمُدُّنا بها المَصَادِرُ التي نُشِرَت حَدِيثًا ، فإنَّ بَحْثًا ودِرَاسَةً جَدِيدَةً لهذه المَوَاقِع يَغْدُوَان أمْرًا ضَرُورِيًّا .

وفيما عَدَا الدِّرَاسَةُ التي كَتَبَها ستانلي لين بول S. Lana-Poole سنة ١٩٠٢ بعُنْوَان The Story of Cairo (نَقَلها إلى العربية حَسَن إبراهيم حَسَن وعلى إبراهيم حَسَن وإدوارد حليم بعُنْوان « سِيرَة القَاهِرَة ») لم تَظْهَر أيَّةُ دِرَاسَةٍ شَامِلَةٍ تَنَاوَلَت تاريخَ المَدِينَة منذ تأسِيسِ الفُسْطَاط إلى العَصْرِ الحَدِيث إلى أنْ نَشَرَ مارسيل كليرجيه M. Clerget، في سنة ١٩٣٤، كِتَابَه Le Caire-Étude de géographie urbaine et d'histoire économique, وأندريه ريمون A. Raymond كِتَابَه Le Caire سنة ١٩٩٣ (نَقَلَه إلى العربية لطيف فَرَج بعنوان « القَاهِرَة - تاريخُ حَاضِرَة ») ، ثم كتاب Le Caire الذي أشْرَف عليه André Raymond وحَرَّرَ فُصُوله سِتَّةٌ من المُتَخَصِّصين في تاريخ القاهِرَة منذ بداياتها إلى العَصْر الحَدِيث والمَصْحُوب بعَدَدٍ وَفِيرٍ من الصُّوَر الفُوتُوغْرافية لأهَمِّ معالم القاهرة (باريس سنة ٢٠٠٠م) (صَدَرَت له كذلك ترجمةٌ إنجليزية عن الجامعة الأمريكية في القاهرة سنة ٢٠٠٥م) ، إضَافَةً إلى ما كَتَبَهُ عبد الرحمن زكي وفؤاد فَرَج وشِحَاتَة عيسىٰ إبراهيم .

وتُوجَدُ إلى جَانِب ذلك دِرَاسَاتٌ مُهِمَّةٌ تَنَاوَلَت عُصُورًا مُحَدَّدَةً من تاريخ المَدِينَة الطَّوِيل أو تاريخ بَعْضِ أحْيَائِها المُتَمَيِّزَة مثل : بُولاق والأزْبَكِيَّة ، كما نُوقِشَت العَدِيدُ من الرَّسَائِل الجامِعِيَّة التي تَنَاوَلَت نَشْأة وتاريخ بعض أحْيَاءِ المَدِينَة الأخْرَىٰ ، لم يُنْشَر منها أيُّ شيء .

أمَّا أعْمَالُ ماكس فان بِرْشِم Max van Berchem وكيبل أرْشِيبالْد كريزْويل K. A. C. Creswell فتَقُومُ في الأَسَاسِ على دِرَاسَةِ النُّقُوشِ والكِتَابَات الأثَرِيَّة وعِمَارَة الآثَارِ البَاقِيَة حتى الآن .

لقد كُتِبت مُجَلَّدَاتٌ عَدِيدَةٌ حَوْلَ تَارِيخ عَاصِمَة مِصْر تَنَاوَلَت جَمِيعُها بطُرُقٍ مُتَفَاوِتَةِ القِيمَة عُصُورَها التَّارِيخية المُخْتَلِفَة . ولم يَتَطَرَّق أيٌّ منها لاسْتِعْرَاضِ التَّطَوُّر العُمْرَاني للمَدِينَة وامْتِدَادِها وتَوَسُّعِها وتَوْزِيع خِطَطِها على امْتِدَادِ أرْبَعَة عَشْر قَرْنًا اعْتِمَادًا على المَصَادِر الأصْلِيَّة والوَثَائِق الرَّسْمِيَّة وحُجَج الأوْقاف وسِجِلَّات المحاكم الشَّرْعِيَّة وأوْصَافِ الرَّحَّالَة ، وهو عَمَلٌ شَاق ، فكِتَابَةُ تاريخ عُمْرَانيّ مُعَمَّق لمَدِينَة القَاهِرَة مُتَعَدِّد الجَوَانِب يَتَطَلَّبُ تَحْلِيلًا مُدَقِّقًا يتولَّاهُ فَرِيقٌ (أو أكثر من فَرِيق) مُتَعَدِّد التَّخَصُّصَات .

*

* *

رَغْمَ أنَّ فَنَّ كِتَابَة خِطَطِ المُدُن قد عُرِفَ في العَدِيد من البلادِ الإسْلامية ، فإنَّه ظَلَّ لَصِيقًا بمصر ، حَيْثُ يمكننا تَتَبُّع التَّطَوُّر الطُّبُوغْرافي لعَاصِمَة مصر بالتَّفْصِيل ، بفَضْلِ مؤرِّخِين ومؤلِّفِين عِظَام كابن عبد الحَكَم والكِنْديّ وابن زُولاق والقُضَاعِي والشَّرِيف الجَوَّاني وابن عبد الظَّاهِر وابن المُتَوَّج وابن دُقْمَاق والمَقْرِيزي وابن أبي السُّرُور البَكْري والجَبَرْتي وعلي مُبَارَك وسِواهِم [١] .

وبَلَغَ هذا الفَنُّ ذُرْوَتَه مع مُؤَلَّف المَقْرِيزي الرَّئِيس « المَوَاعِظ والاعْتِبَار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار » المعرُوف بـ « الخِطَط » ، وهو أهَمُّ وأكْمَلُ نَصٍّ وَصَلَ إلينا عن تاريخ وطُبُوغْرافية مَدِينَةٍ إسْلامية . وهذا الكتابُ هو أسَاسُ جَمِيع الدِّرَاسَات التي تَنَاوَلَت تارِيخَ مَدِينَة القَاهِرَة وسيكون كذلك أسَاسًا لدراسَتِي حتى مُنْتَصَف القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشْر الميلادي .

---

[١] راجع مقالي A. FU'ÂD SAYYID, «L'évolution de la composition du genre de *Khitat* en Egypte musulmane» in HUGH KENNEDY (ed.), *The Historiography of Islamic Egypt (C. 950-1800)*. Leiden-Brill 2001, pp.77-92.

وكَشَفَ لي البَحْثُ الطَّويل خِلالَ إعْدَادِ هذا المُؤَلَّف غِنَى وصِحَّة المَعْلُومَات الطُّبُوغْرَافية التي يُقَدِّمُها لنا المَقْرِيزيّ، خاصَّةً ما يَتَعَلَّقُ منها بالتَّوْزِيع الأَوَّل للأَحْيَاء السَّكَنِيَّة للمَدِينَة، ونُمُوّ عَوَاصِم مِصْر الإسْلامية السَّابِقَة على القَاهِرَة، وتَوْزِيع الحَارَات في هذه المَدِينَة، والشَّكْل الخَارِجي للقَصْرِ الفَاطِمِيّ عن طريق مَعْرِفَة المُنْشَآت التي حَلَّت مَحَلَّه في العُصُور التَّالِيَة، ومَوَاضِع كلِّ المُنْشآت الفَاطِمِيَّة والتَّغْييرات التي طَرَأَت عليها حتى أوَاسِط القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخَامِس عَشْر الميلادي.

وتُتِيحُ لنا المادَّةُ التي يُوَفِّرُها المَقْرِيزيُّ كذلك أنْ نَدْرُسَ تَطَوُّرَ بِنَاء المَدِينَة على امْتِدَادِ نحو ثَلاثَة قُرُون (٥٦٧ـ٨٤٣هـ/١١٧١ـ١٤٤١م) في إطَارٍ جُغْرَافي لا يَشْمَل فقط حُدُودَ القاهرة الفاطِمِية بل أيضًا امْتِدَادات المَدِينَة الجَنُوبية والشَّمالية وكذلك ضَوَاحِي القاهرة في بُولاق ومِصْر القَدِيمَة. إضَافَةً إلى التَّحَوُّلات التي طَرَأَت على مَرْكز الحُكْم الجَدِيد «قَلْعَة الجَبَل».

ولمَّا كانت النَّشَرَاتُ المختلفة لهذا الكتاب المُؤَسِّس والتي اعْتَمَدَت جَمِيعُها على النَّشْرَة المَعِيبَة التي أصْدَرَتها مَطْبَعَةُ بُولاق سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م، لا تُشَجِّعُ على مُرَاجَعتها بسَبَب سَقْطِ الكثير من نُصُوصِها وكَثْرَة أخْطائها الطِّباعية إضَافَةً إلى عَدَدٍ لا مُتناهٍ من التَّصْحيفات والتَّحْريفات، فقد قُمْتُ بإعْدَادِ نَشْرَةٍ نَقْدِيةٍ جَدِيدَة لهذا الكتاب، الذي يُعَدُّ مَصْدَرًا لا غِنَى عنه للمُشْتَغِلين بتاريخ وآثار مصر الإسْلامية، اعْتمادًا على مُسَوَّدَات المُؤَلِّف وعلى النُّسَخ المَنْقُولَة من خَطِّه، صَدَرَت عن مُؤسَّسَة الفُرْقان للتُّرَاث الإسْلامي بلندن في خمسة مجلَّدات بين سنتي ٢٠٠٢ـ٢٠٠٥م.

أمَّا المَصْدَرُ المُهِمّ الثَّاني عن تاريخ القاهرة فقد تَمَّ تَدْوينُه عند نهاية القَرْن الثَّامِن عَشْر للميلاد، وهو كتابُ «وَصْف مِصْر» الذي سَجَّلَه العُلَماءُ المُصَاحِبُون للحَمْلَة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ـ١٨٠١م) والذي تَمَثَّل الجانِبُ العِلْمِي والثَّقافي لها في

شِقَّيْن: إنْشَاء المجْمَع العِلْمِي المِصْري L'INSTITUT D'ÉGYPTE وإنْجاز كتاب « وَصْف مِصْر » *DESCRIPTION DE L'ÉGYPTE*.

كان كتابُ « وَصْف مصر »، الذي يُعَدُّ بحَقٍّ أهَمَّ كتابٍ في تاريخ مصر الحَدِيث، أهَمَّ إنْجازات المجْمع العِلْمي المصري، فلأوَّلِ مَرَّةٍ تَخْرُجُ في كتابٍ وَاحِد مُكَوَّن من عِدَّة مُجَلَّدات، العَدِيدُ من الدِّراسات المُزَوَّدة بالخَرَائِط والرُّسُوم التَّوْضِيحَية، تُغَطِّي جَمِيعَ أرْض مصر وتَجْمَعُ وتَفْحَصُ كلَّ مُنْتجاتها الطَّبِيعِيَّة وتَدْرُسُ الأرْضَ والطَّقْسَ والجُغْرافيا الطَّبِيعِيَّة والسُّكَّانَ وعَادَاتهم وتقاليدهم، وكلّ ما يَتَّصِلُ بتاريخ المجتمع وتاريخ العُلُوم والفُنُون، بحيث جَاء الكتابُ وَصْفًا مُخْلِصًا وتامًّا للمعابِد والمُنشآت والصُّرُوح التي تَزْدَانُ بها مصر منذ قُرُون والتي تَجْعَلُ منها أغْنَىٰ مَتَاحِف الدُّنْيا.

وقامَ عُلَماءُ الحَمْلَة بأخْذ قِياسَات كلّ جزءٍ من هذه المُنْشَآت بدِقَّةٍ صَارِمَة، وقَدَّمُوا لنا كذلك لَوْحَةً عن حالَةِ مصر في زَمَنِ الحَمْلَة، حيث وَضَعُوا لأوَّل مَرَّةٍ خَرَائِطَ جُغْرافِيَّة تُحَدِّدُ بطريقةٍ دَقِيقةٍ ومُفَصَّلَة، اعتمادًا على حِسابات ومُلاحَظات فَلَكِيَّة عَدِيدَة، مَوَاقِع السَّوَاحِل والمَوَانِئ والمُدُن الحَدِيثَة والقَدِيمَة، ومَوَاقِع النِّقاط المُهِمَّة الأُخرىٰ. واشْتَرَكَ في إعْدَادِ وتَحْرِير هذه الدِّرَاسَة المُهِمَّة عُلَمَاءٌ ورياضِيُّون وفَلَكِيُّون ومُهَنْدِسُون وعُلَماءُ طَبِيعَة ومُسْتَشْرِقُون ورِجالُ أدَبٍ ومِعْمارِيُّون ورَسَّامُون ومُصَوِّرُون. وفَوْرَ عَوْدَة هؤلاء العُلَماء إلى فرنسا أنْفَقُوا سَبْعَةَ عَشر عامًا في إعْدَادِ وتَصْنِيف المَوَادّ التي جَمَعُوها. وصَدَرَ هذا العَمَلُ الضَّخْمُ في طَبْعَتَيْن: الأولىٰ في تسعة مجلَّدات من الحَجْم الكبير تَشْمَل النَّصَّ وأحَدَ عَشَر مجلَّدًا ضَخْمًا للَّوْحات والأطْلَس الجُغْرافي (خَمْسَة مجلَّدات للَوْحات العُصُور القديمة، ومُجَلَّدان للتَّاريخ الطَّبِيعي ومُجَلَّدان للعَصْر الحَدِيث ومُجَلَّد يَشْتمِل على مُقَدِّمَة لفورييه FOURIER - سكرتير المجمع العلمي المصري - مع شَرْحٍ للَّوْحات، إضَافَةً إلى أطْلَسٍ جُغْرافي اشْتَمَلَ على خَرَائِط مُفَصَّلَة لمُدُن وأقاليم مصر) اسْتَغْرَقَ العَمَلُ

فيها من سنة ١٨٠٩ إلى سنة ١٨٢٢م، كُتِبَ على غُلافِ المجلَّدين الأوَّل والثَّاني أنَّها طُبِعَت، بأمْرِ صَاحِبِ الجَلالَة الإمبراطُور نابُلْيُون الأكبر»، وظَهَرَت بقيَّةُ الأجْزَاء بعد عَزْلِ نابُلْيُون فكُتِبَ على غُلافِها أنَّها طُبِعَت «بأمْرٍ من الحكُومَة»، أمَّا الطَّبْعَةُ الثَّانية المعروفة بطَبْعَة بانكوك PANCKOUKE فصَدَرَت في سِتَّة وعِشْرين مجلَّدًا صَغِير الحَجْم للنَّصّ، إضَافَةً إلى مجلَّدات اللَّوْحات والأطْلَس الجُغْرافي الإحْدَى عشر بناءً على مَرْسُومٍ ملكي من الملك لويس الثَّامِن عَشْر بين سنتي ١٨٢١-١٨٢٩م[1].

وإذا كان كتابُ «المَوَاعِظ والاعْتِبَار» للمَقْريزي يُمَثِّلُ قِمَّة ازْدِهار التَّأليف العَرَبي في الخِطَط، فإنَّ وَصْفَ القاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل ووَصْف جَزيرَة الرَّوْضَة والمِقْياس وجَامِع ابن طُولُون الذي قامَ به كلٌّ من جومار JOMARD ومارسيل MARCEL في «وَصْف مصر» يُمَثِّلُ تصَوُّرًا آخرَ لكتابَة الخِطَط كما تَرَاها عَيْنُ الأجْنَبي. وتَرْجِعُ المِيْزَةُ الأساسيةُ لهذا الوَصْف، التي تَجْعَلُ منه مُؤلَّفًا مُتَمَيِّزًا في سِلْسِلَة الكُتُب المتعلِّقة بتاريخ الخِطَط المصرية، إلى أنَّه تَسْجِيلٌ ووَصْفٌ لحالَة مَدِينَة القاهِرَة وضَوَاحِيها وقَلْعَة الجبَل وجَزيرَة الرَّوْضَة في سَنَواتٍ بأعْيانِها، بل بالتَّحْدِيد لحالَة المَدِينَة خلال الفَتْرَة من ١٠ ديسمبر سنة ١٧٩٩م إلى أواسِط فبراير سنة ١٨٠٠م، وهي الفَتْرَة التي قامَ فيها جومار JOMARD بجولته في القاهِرَة لتَسْجِيل معالِم المَدِينَة على الخَرِيطَة التي وَضَعَها المُهَنْدِسُون والجُغْرَافيون المُصَاحِبُون للحَمْلَة، يقول جومار:

«إنَّ المَعْلُومات التي سنُطالِعُها فيما يلي في مُعْظَمها نِتاجُ عَمَلٍ كلَّفَني به رَئِيسُ المُهَنْدِسين الجُغْرافِيين لاسْتِكْمال الخَرِيطَة المساحية للقاهرة لزيادة الانْتِفاع

---

[1] راجع J.-ED. GOBY, «La composition du l'Institut d'Égypte», *BIE* XXXII (1951), pp.103-29; H. PÉRÈS, «L'Institut d'Égypte et l'œuvre de Bonaparte Jugés par deux historiens arabes contemporains», *Arabica* IV (1957), pp.113-30. وكذلك أيمن فؤاد سيِّد: «دور علماء الحملة الفرنسية في دراسة خِطَط القاهرة»، المجلة التاريخية المصرية ٤٠ (١٩٩٧-١٩٩٩م)، ٣٢٣-٣٣٦.

بها . وغَرَضُنا من ذلك تَسْجِيل الأَسْمَاء الصَّحِيحَة للمباني العامَّة وللمعالم باخْتِلافِ أنْوَاعِها ، في نفس الوَقْت الذي نُسَجِّلُ فيه أَسْمَاءَ أَحْيَاء وشَوَارِع المَدِينَة على جَمِيع أجْزاء الخَرِيطَة » [١] .

وثَمَّة مَيْزَة أخرىٰ لهذا الوَصْف ، هي أنَّه لأوَّلِ مَرَّةٍ تَصْحَبُ الوَصْفَ الطُّبُوغْرافي خَرِيطَةٌ تَفْصيلِيَّةٌ هي الأولىٰ من نَوْعِها ، مُثْبَتٌ عليها حُدُودُ المَدِينَة وشَوَارِعُها الرَّئِيسَة والجانبيَة ومَعَالِمُها الرَّئِيسَة سنة ١٨٠٠م مع شَرْحٍ لما جاءَ على هذه الخَرِيطَة . وتَرْجِعُ أهَمِّيَّةُ هذه الخَرِيطَة كذلك إلى أنَّ تَغْيِيرًا كبيرًا طَرَأ على شَكْلِ المَدِينَة وعلى مَقَرِّ الحُكْم في القَلْعَة منذ وَصْفِ المَقْرِيزي في القرن التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشْر الميلادي ، كما أنَّ تَغْيِيرًا آخَرَ شَمَلَ المَدِينَة ومَقَرَّ الحُكْم في أعْقاب هذا الوَصْف أوَّلًا على يَدِ الفرنسيين أنْفُسَهُم الذين خَرَّبُوا وأزالُوا الكثير من نِقاطِ الاسْتِدْلال التي وَرَدَ ذكرُها في « وَصْفِ مِصْر » [٢] ، ثم على يد محمد علي باشا وأبْنَائه ـ وخُصُوصًا إسْماعيل باشا ـ حيث فُتِحَت طُرُقٌ كثيرةٌ أزالَت منها العَدِيد من نِقاط الاسْتِدْلال التي عَيَّنَها سواء المقريزي أو جومار ، كما رُدِمَت بِرَكُ القاهِرَة الظَّاهِرَة على الخَرِيطَة .

وآخِرُ كتابٍ خَصَّصَه مُؤلِّفُه لذكر الخِطَط هو كتاب « الخِطَط التَّوْفِيقِيَّة الجَدِيدَة » لعلي باشا مُبَارَك ، المتوفَّى سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م ، والذي بَنَى كتابَه على خِطَطِ المَقْرِيزي واتَّخَذَها نُقْطَة بَدْءٍ ، وجَعَلَ هَمَّه تَتَبُّع الخِطَط والمعالِم والآثار خِلال القُرُون الأَرْبَعَة التي تَفْصِلُ بينه وبين سَلَفِه العَظِيم وأنْ يَصِلَ حَاضِرَ القاهِرَة بماضِيها .

وبرَغْم أنَّ أهَمَّ أجْزَاء وَصْفِ جومار هو خَرِيطَةُ القاهرة وشَرْحُها والصُّوَرُ التَّوْضِيحِيَّة المُصَاحِبَة للوَصْف التي تجعل منه أوَّل «وَصْفٍ مَرْئي» للمدينة ، فقد

---

[١] جومار : وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ١٥٥ .

[٢] الجبرتي : عجائب الآثار ٣ : ٢٩-٣٤ ، ٩٧ ، ١٠٤-١٠٥ ، ١٥٩-١٦٣ .

جاءَت خِطَطُ علي مُبارَك خُلْوَةً من أيَّةِ خَرائِط تَوْضِيحِية برَغْم معرفته بوَصْفِ الحَمْلَة وبرَغْم أنَّه كان مُهَنْدِسًا وأحَدَ أفَرادِ بَعْثَة الأنْجَال.

كانت خَرِيطَةُ القاهِرَة المُصَاحِبَة لكتاب « وَصْف مِصْر » هي الأولىٰ من نَوْعِها للقاهِرَة وكانت نُقْطَة الانْطِلاق لأعْمَال رَسَّامِي خَرائِط القاهِرَة بعد ذلك. ولكن هل كانت هناك مُحَاوَلاتٌ لرَسْمِ خَرائِط للقاهِرَة سابقَة على خَرِيطَة « وَصْف مِصْر » ؟

لقد أثْبَتَ جون كلود جارسان J.-Cl. Garcin بأدِلَّةٍ قاطِعَةٍ أنَّ أوَّلَ خَرِيطَةٍ وُضِعَت للقاهِرَة ووَصَلَت إلَيْنا رَسَمَها شَخْصٌ يُرْمَزُ له بالحرفين D.R في زَمَنِ السُّلْطان المملوكي الأشْرَف قايِتْباي (٨٧٣-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)، ونُشِرَت هذه الخَرِيطَةُ المعروفة باسْم خَرِيطَة Matheo Pagano لأوَّل مَرَّة في ڤينيشيا سنة ١٥٤٩م، ثم أعِيدَ طَبْعُها مَرَّةً ثانيةً سنة ١٥٧٤م. وفي سنة ١٧١٥م وَضَعَ الأب سيكار Sicard أوَّلَ خَرِيطَةٍ للقاهِرَة العثمانية لم تُنْشَر للأسَف وما تَزَالُ محفوظةً في المكتبة الأهلية في باريس[١].

ولكن بعد وَضْعِ الخَرِيطَة المُصَاحِبَة لكتاب « وَصْف مصر » تَوَالىٰ رَسْمُ خَرَائِط القاهِرَة التي اعْتَمَدَت على هذه الخَرِيطَة، وأهَمّها خَرِيطَةٌ تُصَوِّرُ القاهِرَة سنة ١٨٦٨م نَشَرَها مارسيل كليرجيه Marcel Clerget في كتابه عن القاهِرَة، ثم الخَرِيطَة التي وَضَعَها بيير جران بك Pierre Grand Bey سنة ١٨٧٤م بناء على تَكْلِيفٍ من الخِدِيو إسْماعيل، وسَجَّلَت هذه الخَرِيطَة، التي اعْتَمَدَت في الأسَاس على خَرِيطَة « وَصْف مصر »، التَّعْدِيلات الكثيرة التي طَرَأت على القاهرة في السَّبْعِين عامًا الأولىٰ للقَرْنِ التَّاسِع عَشْر وخُصُوصًا في مَنَاطِق الأزْبَكِيَّة وعابِدين

---

١ J.-Cl. Garcin, «Une Carte du Caire vers la fin du sultanat de Qaytbay», *An. Isl.* XVII (1981), pp.272-85.

وحَيّ الإسْماعيلية وبُولاق وشُبْرَا والقَصْر العالي (جاردن سيتي الآن) بمقياس رَسْم ١/ ٤٠٠٠. وهذه الخَرِيطَةُ هي الأَسَاس الذي بَنَىٰ عليه هرتس باشا HERZ PACHA، مدير لجْنَة حِفْظ الآثار العربية ، خَرِيطَة الآثار الإسْلامية بالقاهرة في سنتي ١٩١٤ و ١٩١٦م ، وكذلك كريزويل K.A.C. CRESWELL لخَرِيطَته التي نُشِرَت مع كتاب « مَسَاجِد مصر » الذي أصْدَرَته وزَارَة الأوْقاف في جزءين سنة ١٩٤٨م ومعها فهرسٌ للآثار الإسْلامية بالقاهرة .

ووَفَّرَ النِّصْفُ الأَوَّل للقرنِ التَّاسِع عَشْر لأَوَّل مَرَّةٍ نَوْعًا جَدِيدًا من المَصَادِر هي اللَّوْحات المُصَوَّرة بالرَّسْم GRAVURES والتي تُمَثِّلُ حَالَة المباني والمعالم والشَّوَارِع وأزْيَاء النَّاس كما كانت في النِّصْفِ الأَوَّل للقرن التَّاسِع عَشْر قَبْل أنْ يَبْدأ محمد علي باشا ومن بعده إسْماعيل باشا تَغْيير مَظْهَر المَدِينَة وصَبْغ قِسْمٍ منها بالمَظْهَر الأوروبي ، وقَبْل اخْتِراع التَّصْوير الفوتُوغْرافي ، مثل : اللَّوْحات التي رَسَمَها روبرت هاي ROBERT HAY وزميلُه أوين كارتر OWEN CARTER بين سنتي ١٨٢٦ و ١٨٣٨ ونشرها HAY في كتاب ROBERT HAY, *Illustrations of Cairo* وتلك التي رَسَمَها حول الفترة نفسها داڤيد روبرتس وظَهَرَت في كتاب DAVID ROBERTS, *Egypt & Nubia from Drawings Made at Spot by*، إضَافَةً بالطَّبْع إلى اللَّوْحات المُهِمَّة التي احْتَوَىٰ عليها كتابُ « وَصْف مِصْر » . وتُمَثِّلُ هذه اللَّوْحات بقايا القاهرة المملوكية والعُثْمانية أصْدَق تمثيلٍ ، وهي بالتَّالي وَثائِق صادِقَة لا يمكن ضَحْضَها[١].

ومع نَجاح الفِرِنْسي لويس جاك داجير LOUIS JACQUES DAGUERRE (١٧٨٧-١٨٥١م) سنة ١٨٤٠م ، في اخْتراع آلَة تَصْويرٍ يمكنها إنْتاج صُورَةٍ

---

[١] راجع كتابي : المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م ، ٢٠°-٣٧° .

قياسيةٍ دائمة ، بَدَأ تَوَافُدُ المُصَوِّرين الفوتُوغْرافيين على مصر ـ التي شَغَلَت أَنْظارَ الغَرْبِيين لاسِيَّما بعد طَبْع كتاب « وَصْف مصر » ـ والْتَقَطُوا صُوَرًا نادِرَةً لمعالم مصر والقاهِرَة في زَمَنِ التَّغَيُّرات والتَّحَوُّلات المُهِمَّة التي شَهِدَتها القاهِرَة منذ نهاية عَهْدِ محمد علي باشا . ويَحْتَفِظُ مركزُ الأبحاث للتَّاريخ والفُنُون والثَّقَافَة الإسلامية (إرسيكا IRCICA) بإستانبول بمجموعة أَلْبُومات قَصْر يِلْدِز Yildiz Saray التي تُظْهِرُ المعالم الحَضَارِيَّة في مصر من خِلال عَدَسَات القرن التَّاسِع عَشْر ، حيث تَمَّ الْتقاطُ صُوَرٍ للعَدِيد من الأماكِن المُنْتَشِرَة في وِلايات الدَّوْلَة العُثْمانية المختلفة حُفِظَت في السَّرَاي العُثْماني في عَهْدِ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ، وهي وَثائِقُ تاريخية مُهِمَّة تُسَجِّلُ مَرْحَلَةً لم يَرَها المعاصِرُون ، وشَهِدَت في الوَقْتِ نفسه تَغَيُّرات مُتلاحِقَة أزالَت وحَوَّرَت الكثير من المعالم التي تُسَجِّلُها هذه الصُّوَر . وأَصْدَرَ مركزُ إرسيكا أَلْبُومًا يحوي أَهَمَّ الصُّوَر الخاصَّة بمصر في مجموعة يِلْدِز بعنوان : « مصر في عَدَسَات القرن التَّاسِع عشر » (٢٠٠١م) . كما تَحْتَفِظُ الكثيرُ من المجموعات الخاصَّة بالعَدِيد من الصُّوَر الفُوتوغْرافية التي تُسَجِّلُ حالَة القاهرة في نهاية القرن التَّاسِع عشر والعُقُود الأولىٰ للقَرْن العِشرين .

*
* *

وقَسَمْتُ الكتابَ إلى مَدْخَلٍ وسِتَّة فُصُولٍ ، تَنَاوَلْتُ في المَدْخَل مَفْهُوم « المَدِينَة الإِسْلامِيَّة » ومَدَىٰ انْطباقه على العاصِمَة المصرية (القاهِرَة والفُسْطاط) طَوَال العَصْر الإسلامي . ودَرَسْتُ في الفَصْل الأَوَّل أُصُولَ القاهِرَة أو تُرَاث ما قَبْل الإِسْلام ، ثم ظُهُور العَوَاصِم الإِسْلامية المُتَعَاقِبَة : الفُسْطاط والعَسْكر والقَطائِع ، وأَثْبَتُّ أَنَّ العَسْكَرَ والقَطائِع لم تكونا سوى حَيَّيْن كبيرين أُلْحِقَا بالشَّمال الشَّرْقي للفُسْطاط . وخَصَّصْتُ الفَصْلَ الثَّاني لدِرَاسَة القاهِرَة المَدِينَة الحِصْن ، أَوَّل مَدِينَةٍ إسلامِيَّةٍ

مُسَوَّرَة كانت تُمَثِّلُ طَوَالَ العَصْر الفاطِمِي العاصِمَة السِّياسية والإدارِيَّة للدَّوْلَة الفاطِمِية ، بينما كانت مِصرُ الفُسْطَاط تُمَثِّلُ العاصِمَة الاقْتِصَادية والتُّجارية للدَّوْلَة والتَّطَوُّرات التي لحِقَت بهما طَوَال هذا العَصْر . وكان مَوْضُوع الفَصْل الثَّالِث هو فَتْحُ المَدِينَة الحِصْن لأبْوَابها أمامَ الأنْشِطَة الاقْتِصادية وفَقْدها لخُصُوصِيَّتها بعد انْتقالِ مَرْكز الحُكْم إلى قَلْعَةٍ حَصِينةٍ على الشَّرَفِ المُتَقَدِّم لجَبَلِ المُقَطَّم ظَلَّ كذلك حتى قُرْبَ نِهاية القرن التَّاسِع عَشْر للميلاد . وتَنَاوَلْتُ في الفَصْل الرَّابع امْتِدادَ المَدِينة في العَصْر المملوكي الذي يُمَثِّلُ ذُرْوَة ازْدِهار المَدِينة والذي خَلَّفَ لنا العَدِيدَ من المُنْشآت الدِّينية وذات الطَّابع الاجْتماعِي ونَشَأت فيه أحْيَاءٌ جَدِيدَةٌ أضافَت مِساحات كبيرة إلى القاهِرَة : الرُّمَيْلَة وشَيْخون عند بركة الفيل جنوبيّ القاهرة ، وبُولاق والأزْبَكِيَّة غربيّ الخَلِيج . وناقَشْتُ في الفَصْلِ الخَامِس وَضْعَ القاهِرَة في العَصْرِ العُثْماني وتَحَوُّلها من عاصِمة دَوْلَة كبرىٰ إلى عاصِمَة إقْليم من أقاليم الدَّوْلَة العُثْمانية والتَحَوُّلات التي طَرَأت عليها وعلى الأخَصّ في البَرِّ الغَرْبي للخَلِيج حَوْلَ بِرْكَة الأزْبكية وجنوبيّ باب زَوِيلَة حَوْلَ بِرْكة الفِيل وانتهاء هذه الحِقْبَة بوُصُول الحَمْلَة الفرنسية إلى مصر (١٧٩٨-١٨٠١م) وما مَثَّلَه هذا الاتِّصالُ بحَضَارَةٍ جَدِيدةٍ على وَضْعِ العاصِمة المصرية . أمَّا الفَصْلُ السَّادِس والأخِير فقد خَصَّصْته لدِرَاسَة عَصْر التَحَوُّلات التي انْتَقَلَت بمصر والقاهِرَة إلى العَصْرِ الحَدِيث مع مَشْرُوعات التَّحْدِيث التي تَبَنَّاها محمد علي باشا ـ بعد قَضَائِه على المماليك ـ وخُلَفاؤه المباشِرين ، وعلى الأخَصّ الخِدِيو إسْماعيل ، الذي انْتَهَزَ مُناسَبَة احْتِفالات افْتِتَاح قَنَاةِ السُّوَيْس ، سنة ١٨٦٩م ، لإدْخَالِ تَغْيِيرَات جِذْرِيَّة على النَّسِيج العُمْرَاني للمَدِينَة بإنْشَاء أحْيَاء جَدِيدَة ، مُسْتَرْشِدًا في ذلك بالأسْلُوب الذي اتَّبَعَه HAUSSMANN في تَطْوير مَدِينة باريس PARIS، فألْصَقَ مَدِينَةً حَدِيثَةً بالجانِب الغربي للمَدِينَة التَّارِيخِيَّة مُتَمَثِّلَةً في أحْيَاء الإسْماعِيلِيَّة والنَّاصِرِيَّة غَربيّ وجَنُوبيّ حَدِيقَة الأزْبَكِيَّة ، وشُبْرَا والفَجَّالَة شَمَال المَدِينَة ، وفَتْح طُرُقٍ تَرْبطُ المَدِينَة

القَدِيمَة بالمَدِينَة الحَدِيثَة (شارع محمد علي وشارع كلوت بك وشارع بُولاق (فؤاد الأوَّل فيما بعد))، وإدْخَال مُسْتَحدثاتٍ عَصْرِيَّة إلى المَدِينَة: دار الأوبرا - القُصُور - الحَدَائِق - الكباري، مع تَزْويدها لأوَّل مَرَّة بالمياه العَذْبَة وبغاز الاسْتِصْبَاح. وتأكَّدَ هذا التَّطَوُّر بعد ذلك مع الاحْتِلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢م.

وقَطَعَت القاهِرَةُ شَوْطًا مُهِمًّا في اتِّجاه التَّحْدِيث مع مَطْلع القَرْن العِشْرين الذي شَهِدَ إنْشَاء ضَوَاحٍ جَدِيدَة للمَدِينَة: مصر الجَدِيدَة (هليوبوليس) وجاردن سيتي والزَّيْتُون والمعادِي والزَّمالِك، وما صَاحَب ذلك من إدْخَالِ وسائل المُوَاصَلات الحَدِيثَة وظُهُورِ المُنْشآت العامَّة مع بَدْء الحَيَاة النِّيابِيَّة والسِّياسِيَّة وإنْشَاء الجامِعَة المصرية والمَتْحَف المصري والكُتُبْخانَة الخِدِيوية ... إلخ.

هكذا أصْبَحَت القاهِرَةُ في النِّصْفِ الأوَّل للقَرْنِ العِشْرين، بفَضْلِ هذه المُؤَسَّسات الثقَّافية والتَّعْلِيمِيَّة، مَرْكزَ جَذْبٍ ثَقافي وعِلْمِي ومَصْدَرَ إشْعَاعٍ لكلِّ المَنْطِقَة العربية وقادَ هذا النَّشَّاط كَوْكَبَةٌ مُهِمَّةٌ من رِجَالِ الدِّين والأدَب والسِّياسَة والفِكر والعِلْم والصَّحَافَة والاقْتِصَاد والفَنّ.

وألْحَقْتُ بالكتابِ العَدِيدَ من الخَرَائِط التَّاريخية والرُّسُوم GRAVURES والصُّور الفُوتُوغْرافية التي تُوَضِّحُ أبْعَادَ المَدِينَة وامْتِدَاداتها وأوْضَاعَ مُنْشَآتها وما طَرَأ عليها من تَغْيير.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ﴾

أيمن فؤاد سيّد

مصر الجديدة في ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٤٣٤هـ

٢٢ أبريل سنة ٢٠١٣م

مَدْخَل

كان ظُهُورُ الإسْلام ، منذ ما يَنِيفُ على أرْبَعَة عَشْر قَرْنًا ، في قَلْبِ جَزِيرَة العَرَب إيذَانًا بتَحَوُّلٍ ديني واجْتِماعِي واقْتِصَادِي وسِياسِيّ خَطِير في تاريخ الإنْسانِيَّة . فبَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ الله ﷺ بسَنَوَاتٍ قَلِيلَة بَدَأت حَرَكَةُ الفُتُوحات الإسْلامية الكبرىٰ ، وخَرَجَ المسلمون الأوائلِ يَنْشُرُون دِينَ الله في كافَّة أرْجَاء العالَم المعروف آنَذَاك .

وتركَّزَت حركةُ الفُتُوحات الإسْلامِيَّة الأولىٰ في شَمَالِ جَزِيرَة العَرَب وغَرْبِها ، وأحَسَّ الفاتِحُون بحَاجَتِهم إلى الاسْتِقْرَار في الأقاليم المَفْتُوحَة ، فأسَّسُوا مُدُنًا جَدِيدَةً أشْبه بالمُعَسْكَرَات الحَرْبِيَّة ، اتَّخَذُوها عَوَاصِمَ لهذه الأقاليم وأطْلَقُوا عليها « الأمْصَـــار » [1] ، فكانت البَصْرَةُ والكُوفَةُ في العراق هما أوَّل الأمْصَار الإسْلامية [2] .

وأُسِّسَت هذه الأمْصَارُ ، بوَجْهٍ عام ، في مَوَاضِع بَعِيدَة عن عَوَاصِم الحُكْم القَدِيم ؛ فكانت البَصْرَةُ والكُوفَةُ في العِرَاق بَعِيدَةً عن مَدَائِن كِسْرَىٰ ، والفُسْطَاطُ والقَيْرَوَانُ في مصر وإفْرِيقِيَّة بَعِيدَةً عن الإسْكَنْدَرِيَّة وقَرْطاجَنَّة . كما أنَّها كانت قَبْلَ كلِّ شيءٍ ذات صِفَةٍ حَرْبِيَّةٍ خالِصَة ، قُصِدَ بها أنْ تكون مُعَسْكَرَات للجُنْدِ الفاتِحِين ، ونِقاطَ ارْتِكازٍ اسْتراتيجية ، ومَعْقِلًا يتَحَصَّنُون به إذا اضْطُرُّوا للُّجُوء إليها .

---

[1] المِصْر جـ. أمْصَار : الكُورة أو البَلَد . ويقال : مَصِّرُوا الموضع ، أي جعلوه مِصْرًا . (ابن منظور : لسان العرب (ط. بيروت) ١٧٢:٥) ، وهي أول وحدة إدارية وسكانية في هيكل الدولة الإسلامية .

[2] يقال للبَصْرة والكُوفَة : المِصْران ، لأنَّ عمر ابن الخطَّاب قال لأصحابها : لا تجعلوا البحر بيني وبينكم ، مَصِّروهَا ـ أي صَيروها مِصْرًا بين البَحْر وبيني ، أي حَدًّا . (ابن منظور : اللسان ١٧٦:٥) وانظر المسعودي : التنبيه والإشراف ٣٥٧ـ٣٥٨.

وإذا كان الفاتِحُون قد اضْطُرُّوا إلى إنْشَاء مُدُنٍ جَدِيدَةٍ (أمْصَار) في جَنُوبيّ العِرَاق وفي مِصْر وإفْرِيقِيَّة فإنَّهم احتَلُّوا المُدُنَ الرُّومانِيَّة التي خَلَّاها البِيزَنْطِيون في سُورَيا وفِلَسْطِين، وأبْقَوْا على تَصْمِيمِها الأصْلِي بأسْوَارِها وشَوَارِعِها وأبْوَابِها، وأضَافُوا إليها عَدَدًا من المُنْشَآت الدِّينية والاجْتِماعِية والاقْتِصادِية تَصْبغها بالصِّبْغَة الإسْلامية [1]، مثل مَدِينَة «دِمَشْق» عاصِمَة الأُمَوِيين، فهي من المُدُنِ القَدِيمَة التي اسْتَوَلَىٰ عليها العَرَبُ الفاتِحُون وطَوَّرُوها وطَوَّعُوا مُنْشآتها لتَخْدِم وَظَائِف الإسْلام الرَّئِيسَة.

كان هذا النَّوْعُ من المُدُن الإسْلامية غيرَ مُخَطَّطٍ نِسْبِيًّا، قَلِيل السُّكّان، فَقِيرًا في نَوَاحِيه الجمالية. فكانت كلُّ قَبِيلَةٍ أو جَمَاعَةٍ تَخْتَطُّ لنفسها بجِوَار المَسْجِدِ الجَامِع ودَارِ الإمَارَة اللذين تَوَسَّطا المَدِينَة، ومع مُرُورِ الوَقْتِ شَجَّعَت الخِلافَةُ الهِجْرَة إلى هذه الأمْصَار الجَدِيدَة، واسْتَقَرَّ القادِمُون الجُدُد في أحْيَاء اخْتُطَّت في أطْرَافِ الأمْصَار، وأدَّت الحاجاتُ المُلِحَّة لهذه الجَمَاعَة البَشَرِيَّة إلى جَذْبِ أعْدَادٍ كبيرةٍ من الصُّنَّاع وأهْلِ الحِـرَف إليهَا، وتَجَمَّعَ هؤلاء في الرَّحْبَة قُرْب الجامِع وحوله حَسَب مِهَنِهم. ولمَّا كانت هذه الأمْصَارُ قائِمَةً على طُرُقِ التِّجارَة القَدِيمَة فقد وَجَدَ التُّجَّارُ فُرَصًا كبيرةً للكَسْب بانْتِقالِهم إليها [2].

ولم يَمْض جِيلان حتى تَحَوَّلت هذه الأمْصَارُ إلى مَرَاكِز للنَّشَاط الفِكْري والحَضَري، وأصْبَحَت مَرَاكِزَ جَذْبٍ للمُسْلمين الجُدُد بعد أنِ اسْتَقَرَّ بها عَدَدٌ من كِبار الصَّحَابَة والتَّابِعين.

---

[1] N. ÉLISSEEF, «Physical lay - out» in *The Islamic City*, R.B. SERJEANT (ed.), Paris UNESCO 1980, p.92.

[2] 'ABD AL-'AZIZ AL-DURI, «Governe- mental Institutions» in *The Islamic City*, R.B. SERJEANT (ed.), Paris 1980, p.52.

[3] *Ibid.*, p.53.

ومع قِيام الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في أوَاسِط القَرْن الثَّاني الهِجْري ، والخِلافَة الفاطِمِيَّة في مَطْلَع القَرْنِ الرَّابع الهِجْرِي ، اسْتُعِيضَ عن المُعَسْكَرات الحَرْبِيَّة بإنْشَاء مُدُنٍ مَلَكِيَّة من نَمَطٍ آخَر جَيِّدَة التَّخْطيط ، مُحَاطَة بالأسْوَار ، مَعْنِي بمُنْشآتها ، يَغْلِبُ عليها طابَع الفَخَامَة ، اتُّخِذَتْ مَقَرًّا للخُلَفَاء أو من يَنُوبُ عنهم (بَغْدَاد ، وسَامَرَّا ، وقُرْطُبَة ، والقَاهِرَة) ، وقد بَقِيَت هذه المُدُن ، التي أُنْشِئَتْ كمَرَاكِز إدارِيَّة في الأسَاس ، خَارِجَ التَّيَّار الرَّئِيس للنَّشاط الاقْتِصادِي للمَنْطِقَة التي وُلِدَت بها بكَوْنِها مَرْكزًا للاسْتِهْلاك بَدَلًا من أنْ تكون مَرْكَز تِجَارَةٍ وإنْتَاج .

ولكن ما الذي يُمَيِّزُ المَدِينَة « الإسْلامية » عن غَيْرِها من المُدُن ؟ وإلى أيِّ حَدٍّ يمكن رَدُّ هذه المُدُن إلى الإسْلام باعْتِباره دِينًا وثَقَافَةً وأسْلُوبًا للحَيَاة ؟

لا تُعِينُنا التَّوارِيخُ العَرَبِيَّة القَدِيمَة على رَسْمِ صُورَةٍ صَادِقَةٍ لما كانت عليه المُدُن الإسْلامية في أوَّلِ نَشْأتها . ولكن ممَّا جاءَ في ثنايا هذه الكُتُب ، وفيما يتعلَّقُ بمَدِينَة بَغْدَاد بصِفَةٍ خاصَّة ، نستطيعُ أنْ نَضَعَ تَصَوُّرًا لشكل المَدِينَة الإسْلامية وما يُمَيِّزها عن غيرها من مُدُنِ العُصُور الوُسْطىٰ . فالمَدِينَةُ الإسْلاميةُ هي تجمُّعاتٌ محلِّية لها كيانُها وشَخْصِيَّتُها ومقوِّماتُها المتميِّزة التي تُعْطِيها وَحْدَتها وتكامُلها ، فسُلُوكُ سُكَّانها وتَصَرُّفاتُهم وأفعَالُهم وعلاقاتُهم الاجْتِماعية بعضهم ببعض هي التي تَرْسِمُ صُورَة المَدِينَة الإسْلامية . وعلى ذلك فقد كانت للمَدِينَة الإسْلامية شَخْصِيَّتُها أو طابَعُها الخاصّ ، وتَظْهَرُ هذه الشَّخْصِيَّةُ في كلِّ المُدُن التي أُسِّسَت في ظِلِّ الإسْلام ، وتَكْشِفُ عن وُجُودِ « روح » عامَّة ثابتة ومستمِرَّة خِلال التَّارِيخ الإسْلامي كلِّه[١] لا يُخْطِئها المَرْءُ في تنقُّله من بَغْدَاد ، إلى حَلَب ، إلى دِمَشْق ، وصَنْعَاء ، والقَاهِرَة ، وفاس .

---

[١] المدينة الإسلامية . عالم الفكر (أبريل ١٩٨٠) ٦.

ولا يَعْني هذا أنَّ الحَيَاة الحَضَرية كانت تأخُذُ نَفْسَ الشَّكْل أو الطَّابَع في المُدُن الإسْلامية المُنْتَشِرة في مُخْتَلف أنْحَاء الأرْض في الأنْدَلُس، وشَمَال أفْرِيقيا، ومصر، وسُورْيا، وآسْيا الصُّغْرَىٰ، والعِرَاق، وإيرَان، وآسْيَا الوُسْطىٰ، وشِبْه القارَة الهِنْديَّة: فالحياةُ الاجْتِماعيةُ في هذه المُدُن نِتَاجٌ لتارِيخ طَوِيلٍ تمتزِجُ فيه عَناصِرُ الإسْلام والعُرُوبَة بالعَنَاصِر المحلِّية القَوْمِيَّة المتمثِّلة في العادَات والتَّقاليد المتوارَثَة، أضِف إلى ذلك تنوُّع واخْتِلاف المَنَاخ [1]، ممَّا يَجْعَل من الخُطُورَة تَطْبِيق مِثال مَدِينَةٍ إسْلاميةٍ في العِرَاق وآسْيا الصُّغْرَىٰ على مَدِينَة إسْلامية أخْرىٰ في مصر أو شَمَال أفْرِيقْيا، فكلّ مَدِينَةٍ انْعِكاسٌ لثَقَافَة العَصْر الذي وُجِدَت فيه، مع وُجودِ أسَاسٍ ثَابِتٍ مستمِرّ بطبيعة الحال.

وكان نَمَطُ تَوْزِيع الوَظَائِف والمباني والسُّكَّان في مُدُنِ العُصُور الوُسْطَىٰ، بصِفَةٍ عامَّة، بَسِيطًا في جَوْهَرِه، يتركَّزُ حَوْلَ السُّلْطان: فكان مَقَرُّ الحاكِم ـ عادَةً ـ هو قَلْبَها، تحيطُ به قُصُورُ الأمْرَاء والكُبَرَاء، ثم التُّجَّار، ثم العامَّة وصِغَار النَّاس، حتَّى إذا وَصَلْنا إلى أطْرَافِ المَدِينَة سَادَ الزُّرَّاعُ العامِلُون في حُقُولِ المَدِينَة وظَوَاهِرِها.

وتَمَيَّزَت المُدُنُ الإسْلامية بمَجْمُوعَةٍ من الأبْنِيَة والمُنْشآت، ذَات صِبْغَةٍ دِينِيَّةٍ واجْتِماعِيةٍ، أضْفَت على المَدِينَة شَخْصِيَّتَها بحيث تُوصَفُ بأنَّها إسْلامِيَّة، هي: المَسْجِد الجامِع ـ دَار الإمَارَة ـ الأسْوَاق ـ الحمَّامات ـ المُصَلَّىٰ ـ المَقَابِر.

فقد كان الجامِعُ والسُّوقُ، وفي بَعْض الأحْيَان دَارُ الإمارة، هي المَرْكَز الجاذِب لكلّ المجموعة السَّكَنِيَّة، وكانت دَارُ الإمَارَة عادَةً ما تَفْتَح على المَسْجِد الجامِع ليؤمّ الأميرُ أو الوالِي جُمُوعَ المُصَلِّين (الفُسْطَاط ودِمَشْق والقَطَائِع). وأحاطَت الأسْوَاقُ

---

[1] A. Hourani, «The Islamic City in the Light of Recent Researchs» in *The Islamic City*, A. Hourani & S. Stern (ed.), London 1970, pp.10-11.

بالجامِع ، وجُعِلَ لكلِّ طائِفَةٍ أو صَنْعَةٍ سُوقٌ خاصٌّ بها . وحَوْلَ هذا المركز اختَطَّت القبائِلُ والجَمَاعاتُ خِطَطَها .

ودائمًا ما كان خارِجَ المَدِينَة رَحْبَةٌ مكشوفَةٌ يجتمعُ فيها المُسْلِمُون للصَّلاة في العَرَاء يَوْمَيِّ عِيد الفِطْر وعِيد الأضْحَىٰ تُعْرَفُ بمُصَلَّىٰ العِيدَيْن .

أمَّا المقابِرُ فكانت تُقَامُ خارِجَ أسْوَار المَدِينَة ، والأغْلَبُ أنْ تكون بجِوَار أحَدِ أبْوَابِها .

هذا من النَّاحِيَة التَّخطِيطِيَّة ، أمَّا من النَّاحِية التَّنْظِيمِيَّة والوَظِيفِيَّة فقد نَشْأت بظُهُور الإسْلام مَجْمُوعاتٌ من الوَظَائِف مَيَّزَت المَدِينَة الإسْلامية ، حَقِيقَةً أنَّ بعضَها كان معرُوفًا في المُدُن الرُّومانية ، إلَّا أنَّ تَعَالِيمَ الإسْلام أضْفَت عليها ثَوْبًا جَدِيدًا ، مثل وَظَائف : القاضِي ، وصَاحِب السُّوق أو المُحْتَسِب ، وصَاحِب الشُّرْطَة ، وصَاحِب المَعُونَة ، وصَاحِب العَسَس أو مُتَوَلِّي الطَّوْف لَيْلًا .

واشْتَرَطَ ابنُ خَلْدُون عند بِنَاء المُدُن ـ ولضَمَان بَقَائِها واسْتِمْرَارها ـ أنْ تُبْنَىٰ المَدِينَة على مكانٍ مَنِيع ، إمَّا في مكانٍ مُحَصَّن من الجَبَل ، أو في مُنْحَنَىٰ بَحْرٍ أو نَهْرٍ حتى يتعذَّر الوُصُولُ إليها إلَّا بعد عُبُور ، كما اشْتَرَطَ طِيبَ الهَوَاء للسَّلامَة من الأمْرَاض ، وأنْ تكون قَرِيبَةً من مَصَادِر الماء وأماكِن الزَّرْع حتى يَسْهُل نَقْلُ المُؤَن والغِذَاء إليها . وعلى ذلك فقد انْتَقَدَ بِناءَ الكُوفَة والبَصْرة والقَيْرَوان لعَدَم مُرَاعاة هذه الشُّرُوط عند بِنائِها [١] .

وبمرور الوَقْتِ وانْتِشارِ الإسْلام وقِيَام الدُّوَلِ الإسْلامية المختلفة وبِدايَة الصِّرَاع بين المَذَاهِب الدِّينية والسِّياسية الإسْلامية ، أُقِيمَت مُدُنٌ جَدِيدَةٌ نَشَأت في كلِّ الأحْوال لخِدْمَة أغْرَاضٍ عَسْكَرِيَّة ، ولتكون مَقَرًّا لسُلْطانٍ جَدِيد . وتَحَدَّدَ مَوْقِعُ هذه المُدُن وشَكْلُها ، ولو جزئيًا ، بمتَطَلَّبات السُّلْطَة الجَدِيدَة ، مع الالْتِزَام من ناحِيَةٍ أخرىٰ

---

[١] ابن خلدون : العِبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق إبراهيم شبوح ، ٢ : ١١ ـ ١٢ .

بمتطلَّبات الإسْلام نفسه كدين ، فكانت تُبْنَىٰ بحيث تَضْمَنُ حِمَايَة السُّلْطان وتُوفِّر مَظَاهِرَ إسْلامية مُعَيَّنَة تُسَاعِدُ سكَّانها على أنْ يَحْيَوا الحَيَاة الإسْلامية بكلِّ مَعَانِيها وقُوَّتها وعُمْقِها .

فكان التَّغْيِيرُ الجَدِيد الذي دَخَلَ على تَطَوُّر شَكْل المَدِينَة الإسْلامية مع إنْشَاء المُدُن الأمِيرية الجَدِيدَة أو المَلَكِية ، فبعد مُرُور أكثر من مائة وخَمْسِين عامًا على قِيَام الدَّوْلَة العَرَبِيَّة الإسْلامية كان قد طَرَأ عليها تَطَوُّرٌ خَطِيرٌ فيما يخصُّ نُظُمَها وحَضَارَتَها ، وتأثَّرت بحَضارَات المُدُن والدُّوَل المجاوِرَة ، وخاصَّةً البِيزَنْطِية . ولمَّا قامَت هذه المُدُنُ الملكية في الأساس لتُعْلِن عن قِيام نِظَامٍ جَدِيدٍ يتربَّصُ به عَدَدٌ من المُنَافِسِين والمُخَالِفين ، فقد بُنِيَت لتُحَصِّن هؤلاء الحكَّام وتَعْزِلَهُم عن بَقِيَّة الشَّعْب ، فكان أنْ أبْقَت دَاخِلَ أسْوَارِها على كِبارِ رِجَالِ الدَّوْلَة وطَوائِف الجُنْد المختلفة ، في حين اسْتَبْعَدَت عَامَّة الشَّعْب والحِـرَفِيِّين والتُّجَّار ورِجَال الصِّنَاعَة إلى خَارِج أسْوَارِها ومَنَعَتْهُم حتى من الدُّخُول إليها إلَّا بإذْنٍ خاصّ .

فأُقِيمَت الأسْوَاقُ خَارِجَ أسْوَار المَدِينَة في حيٍّ خاصّ أُنشئ ليكون سَكَنًا لهذه الطَّبَقَات ومكانًا يُمَارِسُون فيه نَشَاطَهم ، وأوَّلُ من فَعَلَ ذلك الخَلِيفَةُ المَنْصُور العبَّاسِي ، حيث أخْرَجَ أسْوَاقَ بَغْدَاد من المَدِينَة وجَعَلَها في الكَرْخ ، وبنىٰ لأهْلِها مَسْجِدًا يجتمعون فيه لصَلاةِ الجُمُعَة حتى لا يُمَكِّنَهم من دُخُول المَدِينَة ، وقد دَلَّه على ذلك وَفْدٌ من بِيزَنْطَة أمَرَ أنْ يُطافَ بهم في المَدِينَة ، فنبَّهوه إلى أنَّ وُجُودَ الأسْوَاق دَاخِل المَدِينَة من شأنه أن يُمَكِّن غير المَرْغُوب فيهم من التَّسَلُّل إليها ، كما أنَّ التُّجَّارَ ، وهم كثيرو السَّفَر والتَّنَقُّل ، قد يَنْقِلُون أخْبَارَ عاصِمَته ، فيَكْشِفُون لمنافِسيه نِقاطَ ضَعْفِه [1] ، وفَعَلَ الخَلِيفَةُ الفاطِمِيُّ المَهْدِي لدين الله الشيءَ نفسه عندما جَعَلَ سُوقَ مَدِينَة المَهْدِيَّة التي أنشأها بإفْرِيقِيَّة بين سنتيّ

---

[1] الخطيب البغدادي : تاريخ مدينة السلام ، تحقيق بَشَّار عَوَّاد معروف ، ١ : ٣٩٠ـ ٣٩١.

٣٠٢-٣٠٨هـ/٩١٥-٩٢٠م في رَبَضِ زَوِيلَة خارِج المَدِينَة .

ولعلَّ القاهِرَة الفاطِمِيَّة هي أوْضَح مِثال لهذا النِّظام ، فقد أُنْشِئَت كمَدِينَةٍ خاصَّة تعتمدُ اعْتِمادًا كليًّا في تَوْفِير احْتِياجاتِها على الفُسْطَاط ، المركز التُّجَارِي والصِّنَاعِي لمصر في ذلك الوَقْت .

وتُعَدُّ كلٌّ من بَغْدَاد العبَّاسِيَّة والقاهِرَة الفاطِمِيَّة أوْضَحَ نماذِج المُدُن الملكية ، ولا يُعبِّر الشَّكْلُ العُمْرَانِي لهما في بِدَايَة أمْرِهما عن عُمْرَان المَدِينَة الإسْلامية تَعْبِيرًا حَقِيقِيًّا ، فكلتا المَدِينتين كانتا في بِدَايَة إنْشَائِهما عِبَارَة عن قَصْر مَلَكِيّ كبير لا مَدِينَة بالمعنىٰ المَفْهُوم للكلمة ، لذلك فقد شَغَلَ القَصْرُ فيهما الحَيِّزَ الأكْبَر والرَّئِيس والمَرْكَزِي . وفي كِلْتا المدينتين بُدئَ ببِنَاء القَصْر ، ثم زِيدَ على ذلك المَسْجِد الجامِع الذي شَغَلَ مَوْقِعًا هامِشِيًّا في عُمْرَان المَدِينَة .

وأمَّا الصُّورَة النَّمُوذَجِيَّة للمَدِينَة الإسْلامية في عَصْرِ ازْدِهارِها فكانت تحتوي على :

١ - حَيّ مَلَكِي أو مَدِينَة مَلَكِيَّة ، وأحْيانًا يُسْتَعَاضُ عنه بِبِنَاء قَلْعَةٍ تَقُومُ على مَوْضِعٍ له طَبِيعَة دِفاعِيَّة . ويضمُّ هذا الحَيّ أو المَدِينَة الملكية قُصُورَ الأمَرَاء ، والإدَارات الحكومية والدَّواوِين ، وأماكِن لسُكْنَىٰ الحَرَس .

٢ - مَرْكَز للمَدِينَة ، يَضُمّ المَسْجد الجامِع والمَسَاجِد الكبرىٰ ، والمَدَارِس الدِّينية ، والأسْوَاق المَرْكَزية ، وكثيرًا ما كان تَوْزِيعُ الأسْواق يتحدَّد بالنِّسْبة للجامِع والمَدَارِس حَسَب الدَّورُ الدِّينِي للسِّلَع التي كانت تُبَاعُ فيها ، كما كانت تُقَامُ فيه أيضًا مَسَاكِنُ الطَّبَقَة الثَّرِيَّة وكبارِ رِجال الدِّين . أي أنَّ هذا الحَيّ المركزي كان يَضُمُّ المُشْتَغِلين بالنَّشَاط الاقْتِصادي مُمَثَّلين في طَبَقَة التُّجَّار ، وبالنَّشاط الدِّيني ممثَّلين في طَبَقَة العُلَمَاء .

---

[١] W. MARCAIS, «L'islamisme et la vie urbaine» dans *Articles et conferences* (publ. de l'*IEOA*, Paris 1961), p.65-66.

٣ ـ ويأتي بَعْد ذلك مَنْطِقَةُ الأَحْياء السَّكَنِيَّة التي كانت تَعْكِس الرَّوَابِط الدِّينية والحِرَفية إلى جانب الاسْتِقْلال النِّسْبي لكلّ حَيٍّ من هذه الأَحْياء ، حيث يَمِيلُ أَبْنَاءُ الدِّين الواحِد أو الحِرْفَة الوَاحِدَة إلى التَجَمُّع معًا .

٤ ـ ثم تأتي الضَّوَاحِ أو الأَحْيَاء الخَارِجيَّة التي كان يُقِيمُ بها الوَافِدُون الجُدُد ، وحيث يُصَرَّحُ بممارَسَة بَعْض الأعْمال ، والقِيَام ببَعْض الصِّنَاعات التي قد تُلَوِّثُ جَوَّ المَدِينَة .

٥ ـ وأخيرًا تأتي أَضْرِحَةُ الأَوْلِياء والمَدَافِن ، التي كانت تُقامُ ـ في الأَغْلَبِ ـ وَرَاءَ أَسْوَارِ المَدِينَة [١] .

ولعلَّ المَسْجِدَ الجامِع والسُّوق ثم الحَمَّامات هي أهمُّ ما يُضْفي على المَدِينَة الإسْلامية طابعها الإسْلامي . وبعد القَرْن الخامِس الهِجْرِي ومع ظُهُور السَّلاجِقَة وحَرَكَة الإحْيَاء السُّنِّي ، ظَهَرَت مُؤَسَّسَاتٌ جَدِيدَةٌ مَيَّزَت المُدُن الإسْلامية في العُصُور المتأخِّرَة ، لعَلَّ أهَمَّها « المَدَارِس » التي بَدَأها نِظَامُ المُلْك في سَنَة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م وقَصَدَ بها تَدْرِيس مَذَاهِب السُّنَّة ومُحَارَبَة مَذَاهِب الشِّيعَة ، وكذلك « دُور الحَدِيث » و « دُور القُرْآن » ، ثم الأَسْبِلَة والكَتَاتِيب ، كلّ ذلك بالإضَافَة إلى المُؤَسَّسات الاقْتِصَادية ، مثل الوَكالات والفَنَادِق والقَيْسَارِيَّات والخَانَات ، والمُؤَسَّسات ذات الصِّبْغَة الاجْتِماعية ، مثل البِيمارِسْتانات والحَمَّامات وأَمْثَالِها .

وما كان يُمْكِن لهذه المُؤَسَّسَات الاجْتِماعِيَّة والاقْتِصَادِيَّة بوَجْهٍ خاصّ أنْ تَسْتَمِرَّ في أدَاءِ مُهِمَّتها دُون وُجُودِ نِظامِ « الوَقْف » أو « الأَحْبَاس » ، فبفضله أمْكَنَ صِيَانَة هذه المُؤَسَّسَات والصَّرْف على أرْبابِها ومُتَوَلِّيها ، وإعَانَة الفُقَرَاء والمُعْوَزِين ، ورِعَايَة المجْذُومِين والأَيْتَام .

---

[١] A. HOURANI, *op.cit.*, pp.19-21.

فكان المَسْجِدُ الجامِع في المُدُن الإسْلامية الأولىٰ (الأمصار) يتوسَّطُ المَدِينَة وبجواره دَارُ الإمَارَة ، لأنَّ صَاحِبَ السُّلْطان هو صَاحِب الصَّلاة ، وكان من أهَمّ وَظَائِف المَسْجِد أنَّه يُنَظِّم حَيَاة المَدِينَة بفَضْلِ الصَّلَوات الخَمْس . فكان « الأذَان » يُحَدِّدُ الوَقْتَ لأهْلِ المَدِينَة ـ كما تَفْعَلُ أبْرَاجُ السَّاعات في الميادِين الكبرىٰ في المُدُن الحَدِيثَة ـ وأصْبَحَ ضَرُورَةً حياتِيَّةً لهم ، فكانت الأعْمَالُ تَبْدَأُ وتَنْتَهِي ، واللِّقاءاتُ تتمّ والحاجاتُ تُقْضَىٰ تَبَعًا لوَقْتِ الصَّلاة ، وخاصَّةً بعد قَضَاء الفَرِيضَة [١] .

وقد شَبَّه Levi Provençal مكانَة المَسْجِد الجامِع في المَدِينَة الإسْلامية بمكانَة الآجورا Agora أو الفُورُوم Forum في المَدِينَة اليُونانِيَّة والرُّومانِيَّة [٢] . فكانت الأخْبَارُ الرَّسْمِيَّة والمناشِيرُ وغيرها تُلْقَىٰ على النَّاسِ من فَوْق مِنْبَر المَسْجِد الجامِع [٣] ، وظَلَّ لوَقْتٍ طَوِيل المقرَّ الوَحِيد لمجْلِس القاضِي [٤] ، والمَرْكَز الوَحِيد للتَّعْلِيم الدِّينِي إلى أنْ أنْشِئَت المَدَارِسُ الدِّينِيَّة .

والجامِعُ كذلك هو المَرْكَز الحَقِيقي الذي يُعَدُّ قَلْبَ المَدِينَة الإسْلامية الخَفَّاق ، فهو ليس بَيْتُ عِبَادَةٍ فحَسْب ، ولكنه المركز الذي تَدُورُ حَوْلَه الحَيَاةُ الدِّينية والعَقْلِيَّة والسِّياسِيَّة في المَدِينَة . وكان يكفي أنْ يُعْلِنَ المُنادِي « أنّ الصَّلاةَ جَامِعَة » حتى تَسْعَىٰ جُمُوعُ المُسْلِمين بالمَدِينَة إلى الجامِع ، فلابُدّ أنَّ شيئًا جَلَلًا قد حَدَث ، ففي المَسْجِد الجامِع كان يُبايَعُ السُّلْطانُ أو الخَلِيفَة ، وفيه كان يُؤْخَذ قَرَارُ الحَرْب ، وتُناقَشُ شُئُونُ المُسْلِمين .

---

[١] سعد زغلول عبد الحميد : « الحياة الدينية في المدينة الإسلامية » ، عالم الفكر (١١ أبريل ١٩٨٠) ٦٢.

[٢] L. Provençal, «Les villes et les institutions urbaines» in *Conference sur l'Espagne musulmane*, Le Caire 1951, p.102.

[٣] المسبحي : أخبار مصر ٤، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥: ٤١٧.

[٤] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢، المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٢٨، واتعاظ ٢: ٢٢٤.

لم يكن يُؤَدَّىٰ في المَسْجِد الجامِع ـ عادَةً ـ سِوَىٰ صَلاة الجُمُعَة ، التي كانت تُؤَدَّى باحْتِفَالٍ عَظِيمٍ يَشْهَدُه السُّلْطانُ أو الخَلِيفَة أو من يُنِيبه ، أمَّا الصَّلَواتُ اليومية فكانت ـ وما زَالت ـ تُؤَدَّى طَوَال أيَّام الأسْبُوع في المَسْجِد القَرِيب من الدَّار ، إنْ لم يكن في الدَّار أحْيَانًا [١] . أمَّا صَلاةُ العِيدَيْن فكانت تُؤَدَّىٰ باحْتِفالٍ مماثِلٍ لاحْتِفال صَلاةِ الجُمُعَة ، ولكن ليس في الجامِع ، بل في مُصَلَّىٰ العِيدَيْن خارِجَ المَدِينَة .

أمَّا السُّوقُ فهو جَوْهَرُ الحَيَاة الاقْتِصادِيَّة للمَدِينَة الإسْلامية ، وكان يَقَعُ دائمًا إلى جِوَار المَسْجِد الجامِع ، حتى ذَهَب ماسينيون MASSIGNON إلى أنَّ المَدِينَة الإسْلامية بُنِيَت في الأسَاس على فِكْرة السُّوق [٢] التي أدَّت إلى نُشُوء ما يُمْكن أنْ نُطْلِقَ عليه « الطَّوَائِف المِهَنِيَّة » . ويُضِيفُ GOITEIN أنَّ السُّوَقَ هو الشيء الجَدِيد حَقًّا في مَدِينَة الشَّرْق الأدْنَىٰ في العُصُور الوُسْطَىٰ ، فهو في رَأيه ظَاهِرَة جَدِيدَة تمامًا وفَرِيدَة من النَّاحِيَة الطُّبُوغْرافية والنَّاحِية الاقْتِصادية والاجْتِماعية .

وكان سُوقُ المَدِينَة مُقَسَّمًا بين التُّجَّار وأرْبَاب الحِرَف والصَّنْعَة ، فكان كلُّ أصْحَابِ حِرْفَة يَضُمُّهم مكانٌ واحِد . كذلك لم تَخْلُ المَدِينَة من « سُوَيْقات » في كلِّ حيّ تمدّ أهْلَه بحاجاتِهم اليومية الضَّرورِيَّة .

ولمَّا كان كثيرٌ من العُلَمَاء العَرَب يَمْتَهِنُون صَنْعَةً أو تِجَارَةً إلى جانِب عَمَلهم العِلْمِي ، حتى كان منهم : الفَرَّاء ، والزَّجاج ، والخَيَّاط ، والصَّيْرفي ، والجَوْهَرِي ، والعَلَّافَ ، والكُتُبي ، أصْبَح كثيرٌ من أسْوَاق المُدُن الإسْلامية امْتِدَادًا لأسْواقِ العَرَب في الجاهِلِيَّة ، مكانًا يجتمع فيه الأدَبَاءُ والعُلَمَاءُ والشُّعَرَاء .

هكذا كانت الأسْوَاقُ جُزْءً حَيَوِيًّا مُهِمًّا في حَيَاةِ المُدُن الإسْلامية ، وفي وَسَطِ مُجْتَمَع السُّوق نَشَأت فِكْرَةُ « الطَّوَائِف المِهَنِيَّة » التي ألَحَّ على دِرَاسَتها كثيرٌ من

---

[١] سعد زغلول : المرجع السابق ٦٥.

[٢] L. MASSIGNON, «Les corps de métiers et la cité islamique», *Opera Minora*, I, p.370.

الباحِثِين الأوُروبيين، كتَنْظِيم يَهْدِفُ إلى حِمَايَة أنْوَاع الصِّنَاعَات والحِرَف والمتاجِر المختلفة، ورِعَايَة حُقُوق المُشْرِفين عليها والعامِلِين بها [١].

أمَّا الحَمَّامُ فهو مُنْشَأةٌ اجْتِماعيةٌ ذات أهَمِّيَّة كبيرة في المَدِينَة الإسْلامية، فالصِّلَةُ وَثِيقَةٌ بين الحَمَّام والمَسْجِد: هي الصِّلَة بين الطَّهَارَة والصَّلاة. وكان كلُّ شَارِعٍ أو حَيّ لا يَخْلُو من حَمَّامٍ أو اثنين، وكان يُفْتَحُ يوميًّا قبل الفَجْر بساعتين ويستمرّ حتى مَوْعِد صَلاة العِشَاء [٢]. وقد عَدَّ الشَّرِيفُ محمَّد بن أسْعَدَ الجَوَّاني أنَّ الفُسْطَاطَ في العَصْر الفاطِمِي كان بها نحو ١١٧٠ حَمَّامًا [٣]. كما أنَّ بَغْدَادَ كانت تَحْوِي في عَصْرِ الرَّشِيد ستين ألْف حمَّام، وكان بها بإزاء كلّ حَمَّامٍ خَمْسَةُ مَسَاجِد.

وأُفْرِدَت حَمَّاماتٌ للرِّجال وأخْرَىٰ للنِّسَاء، وفي بَعْض العُهُود أُفْرِدَت حَمَّاماتٌ لأهْل الذِّمَّة بَعِيدَة عن حَمَّامات المُسْلِمِين، وكان الحَمَّامُ أيضًا مكانًا لالْتِقاءِ النَّاس وتَنَاوُلِ الحَدِيث، وكان جُزْءٌ من طُقُوس الزَّوَاج يتمّ فيه.

وتَبْقَىٰ كَلِمَةٌ لابُدّ منها لفَهْمِ طَبِيعَة المَدِينَة الإسْلامية. فقد ظَهَرَت في الأربعين سنةً الماضِيَة سِلْسِلةٌ من الدِّرَاسَات وأعْمَال المُؤْتَمرات التي خُصِّصَت في أوروبا وأمريكا لدِرَاسَة المَدِينَة الإسْلامية، اهْتَمَّت جَمِيعُها بدِرَاسَة المُدُن الإسْلامية في العُصُور الوُسْطَىٰ المتأخِّرَة حيث الموادّ المكتوبة مُتَوَافِرَة، والآثار المادِّية باقِيَة، وحَظِيَتْ مُدُنُ شَمَال أفْرِيقيا والشَّام بالنَّصِيب الأوْفَر من هذه الدِّرَاسَات.

فكيف فَهِمَ الأوروبيون طَبيعَة المَدِينَة الإسْلامية؟

---

[١] راجع، أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر ـ تفسير جديد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠م، ٥٠١ـ٥٠٤ وما ذكر من مراجع.

[٢] A. Mazahiri, *La vie quotidienne des muslmans au moyen âge X au XIII siècles*, Paris 1951, pp.18, 175.

[٣] ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٦٦، المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ١٢٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٤.

ذَهَبَ أكثرُ هؤلاء الدَّارِسِين إلى أنَّه لم تُوجَد في الإسْلام المَدِينَةُ المُكْتَمِلَةُ ذاتيًا أو المُنَظَّمَةُ اجْتِماعيًا، في الوَقْت الذي عَرَفَت فيه أوروبا هذا النَّمَط من المُدُن، باعْتِبار المُدُن الأوروبية امْتِدادًا للمَدِينَة اليُونانية والرُّومانية، وجاءَت أحْكامُ المُسْتَشْرِقين غير سَلِيمَة في أغْلَبها، لأنَّهم حاوَلوا أنْ يَدْرسُوا المَدِينَة الإسْلامية في ضَوْء مَعْرِفَتِهم للمُدُنِ الغَرْبِيَّة ونُظُمها الاجْتِماعِية والاقْتِصَادية والسِّياسية، فطَبَّقُوا بذلك على المُدُن الإسْلامية مَعايِير ومَقَايِيس لا تَصْدُقُ إلَّا على المُدُن الأوروبية، وخَلَصُوا إلى الزَّعْم بأنَّ المَدِينَة الإسْلامية ليست مَدِينَةً بالمعنىٰ الدَّقِيق للكلمة، لافْتِقارِها إلى تلك المُقَوِّمَات.

وبَدَاءَةً لابُدّ أنْ نميِّزَ بين نَشْأة المَدِينَة الأوروبية ونَشأة المَدِينَة الإسْلامية، فأغْلَبُ المُدُن الأوروبية قَدِيمَة لم تُؤَثِّر فيها المَسِيحِيَّة وَقْت انْتِشَارِها في أوروبا، كما أنَّها كانت تَمْلِك بفَضْل نِظامِها البُرْجُوَازِي الإقْطاعِي قُوَّةً اقْتِصادِيَّةً وسِياسِيَّةً كبيرَةً وتَسْعَىٰ دَائمًا لتَوْكِيد اسْتِقْلالِها وذَاتِيَّتها، وليس أدَلّ على ذلك من المُدُن الإيطالية التي لَعِبَت دَوْرًا كبيرًا في تِجَارَة البَحْر المُتَوَسِّط في العُصُورِ الوُسْطَىٰ. فلم تَظْهَر الدَّوْلَةُ بمعناها الوَاسِع في أوروبا إلَّا مع بِدَايات عَصْرِ النَّهْضَة.

أمَّا في الشَّرْقِ فإنَّ الإسْلامَ كان دائِمًا دِينًا ودَوْلَة، ونَشَأت المُدُنُ الإسْلامية مع ظُهُور الإسْلام نفسه، وكانت دائِمًا تَجْسِيدًا لكافَّة الدُّوَل الإسْلامية المتعاقِبَة ورَمْزًا لسِيادَتِها، وبمعنىً آخَر: أنَّها نَشَأت كنَتِيجَة مُبَاشِرَة ولازِمَة لتَكْوِين الدَّوْلَة الإسْلامية، وبالتالي فإنَّ تأثيرَ الدَّوْلَة على المَدِينَة كان قَوِيًا، حتى لتَبْدُو المَدِينَةُ الإسْلاميةُ وكأنَّها خاضِعَة وتابِعَة للسُّلْطَة الحاكِمَة، مُنْعَزِلَة عن العالَم الخَارِجِي، غير مُهْتَمَّة بالمُشْكِلات العامَّة. وحَقِيقَة الأمْر أنَّ سُكَّانَ المُدُن الإسْلامية كانت لديهم القُدْرَة على تَنْظيم أنْفُسِهم والمُحَافَظَة على وُجُودِهم الجَمَاعِي في وَجْه القُوَىٰ السِّياسِيَّة بفَضْلِ الدَّوْر الفَعَّال لطَبَقَة الأعْيَان والعُلَماء، الذين كانوا ـ برَغْم تعاوُنهم مع الحُكَّام ـ يُمَثِّلون في الوَقْتِ نفسه الشَّعْب ويعبِّرُون عن آمالِه وآلامِه ومُتَطَلَّباته،

وبذلك يُمْكِن اعِتْبارِهم « زُعَمَاء » أو « قَادَة » لسُكَّان المُدُن ، وفي الوَقْتِ نفسه ممثِّلين لهم ومَسْئُولين أمامَهم [١].

ويَصْدُقُ ذلك على الأخَصّ على سُكَّان المُدُن العامَّة ، فقد كان كثيرٌ من المُدُن الإسْلامية عند نَشْأتِها مُجَرَّدَ مَرَاكِز إدَارِيَّة وعَسْكَرِيَّة يَقْطُنُها مجموعَةٌ من الرَّسْمِيين والإدِاريين والجُنُود يُمَثِّلُون مُجْتَمَعًا اسْتِهْلاكِيًّا صِرْفًا ، يعتمد في تَوْفِير احْتِياجاتِه المعيشية على مَدِينَة مُجَاوِرَة ، هي المَرْكَز الرَّئِيس للصِّنَاعَة والتِّجارَة . هكذا كان الحالُ بين بَغْدَاد والكُوفَة ، والقاهِرَة والفُسْطَاط ، وفاس القَدِيمَة وفاس الجَدِيدَة ، لذلك كانت « الحَيَاةُ البَلَدِيَّة » في هذه المدُن - التي كانت مَرَاكِز للتِّجَارَة والصِّنَاعَة والأعْمالِ - مُسْتَقِلَّةً تمامًا عن الحُكَّام ، وخارِجَةً عن مَجَالِ تأثِيرِهم .

ويَنْقَسِمُ دِرَاسَةُ تارِيخ المَدِينَة الإسْلامية إلى نَوْعَيْن رَئِيسيْن ، يتطَّلبُ كُلٌّ منهما مَصَادِرَ وأدَوات وطَرِيقَة تَنَاوُل مُخْتَلِفَة :

النَّوْع الأوَّل: دِرَاسَة تَخْطِيط المَدِينَة ونُمُوّها ، ويَعْتَمِد هذا النَّوْع في الأسَاس على المَصَادِر التَّارِيخِيَّة ، وكُتُب الرَّحَلات ، وكُتُب الخِطَط ، إضَافَةً إلى نَتَائِج الحَفَائِر الأثَرِيَّة ، وما تبقَّى من مُخَلَّفات الماضِي . وعادَةً ما يتناوَل هذا النَّوْع من الدِّرَاسَة : نَشْأة المَدِينَة ونُمُوَّها وتَخْطِيطَها (أحْيَاؤها ، وطُرُقُها الرَّئِيسَة والفَرْعِيَّة ، والميادِين والرِّحَاب ، الأسْوَاق ، وظَوَاهِر المَدِينَة ، والمَقَابِر) ، وعِمَارَة المَدِينَة ومُنْشَآتها العَسْكَرِيَّة (الأسْوَار ، القِلاع ، الأبْرَاج) والمَدَنِيَّة (القُصُور والدُّور والوَكالات والرِّباع ...) والدِّينِيَّة (الجَوَامِع والمَسَاجِد والمَدَارِس والخانْقاوَات ...) والمُنْشَآت ذَات الطَّابَع الاجْتِماعي (الحمَامات والبِيمَارِسْتانات والأسْبِلَة والكَتَاتِيب) ، وعَلاقَة هذه المُنْشآت بالنَّسِيج العُمْرَاني المَوْجُودَة فيه وَقْتَ إنْشَائها ، والأحْدَاث التارِيخِيَّة التي وَاكَبَتْ تارِيخَ المَدِينَة ، والتي أثَّرَتْ على نُمُوّها وتَطَوُّرها في فَتْرَةٍ زَمَنِيَّةٍ مُحَدَّدَة .

---

[١] A. HOURANI, *op. cit.*, p.19.

ويتناوَلُ النَّوْعُ الثَّاني : « دِرَاسَة العُمْرَان المَدَني للمَدِينَة الإسْلامية » : كَيْفِيَّة إدَارَة شُئُون المَدِينَة ، ومَرَافِق المَدِينَة وتَنْظِيماتِها البَلَدِيَّة (النِّظَام العام ، إدَارَة الطُّرُق ، الخَدَمات : تَزْوِيدِها بالمِيَاه ووَسَائِل الانْتِقَال) ، والوَظَائِف الرَّئِيسَةِ بالمَدِينَة (الوالي - صَاحِب الشُّرْطَة - القاضِي - المُحْتَسِب ...) ودَوْرُهم في إدَارَة المَدِينَة ، والأنْشِطَة المِهَنِيَّة والاقْتِصادِيَّة للمَدِينَة (الأسْوَاق والوَكالات والخَانَات والفَنَادق) وسُكَّان المَدِينَة وطَبَقَاتهم (الحُكَّام - الأرِسْتُقْرَاطِيَّة - البُرْجوازِيَّة - العُلَمَاء - التُّجَّار - الحِرَفِيين - الأقَلِّيَّات - الأجَانِب) [١].

---

[١] راجع عن الدّراسات الخاصّة بتاريخ المدينة الحَديثة التي تناولتها » ، المجلة التاريخية المصرية ٤٠
الإسْلامية مقالي : « المَدِينَة الإسْلامية والدّراسات (١٩٩٧-١٩٩٩م) ، ٥٩-٦٣.

الفصل الأوّل

حَتميّة الموقع

أوّلًا ـ أُصولُ القَاهِرَة أو مِيراثُ ما قَبْل الإسْلام

تحتَلُّ «القَاهِرَةُ» عند رَأْسِ الدِّلْتَا وفي نُقْطَةِ الْتِقَائِها بحَنُوبِ الوَادِي (المحْوَر الشَّماليّ الجَنُوبيّ للبلاد) مَوْقِعًا فَرِيدًا حَتَّمَتْهُ طَبِيعَةُ الأَرْضِ المصرية واسْتِمْرَارُ حركة التَّاريخ. وكانت هذه المَنْطِقَةُ وظَلَّت مع الزَّمَن مَرْكزًا عُمْرانِيًّا ودِينيًّا مِصْريًّا نَشَأت وتَطَوَّرَت فيه العَدِيدُ من الشَّعَائِر المَحَلِّيَّة المُهِمَّة. لذلك فإنَّ العَوَاصِمَ المصريَّة ظَلَّت تَدُورُ في هذا المَوْقِع وتَنْتَقِلُ فيه من مَوْضِعٍ إلى آخر (مَمْفِيس ـ أون (عَيْنُ شَمْس) ـ بابِلْيُون) ولكنَّها لم تَخْرُجُ عنه إلَّا في فَتَرَاتٍ عابِرَةٍ وشَاذَّةٍ في التَّاريخ القَوْمي[١].

ففي ضَواحِي القَاهِرَة الحَدِيثَة اسْتَوْطَنَ المصريُّ القَدِيمُ في وَاحِدَةٍ من أوَائِل المُسْتَوْطَنات المَدَنِيَّة في العَالَم قَبْلَ خَمْسَة آلاف عام، عندما فَرَضَت المملكةُ الجَنُوبِيَّةُ سَيْطَرَتَها على المملكة الشَّمَالِيَّة ووَحَّدت مصر متَّخِذَةً من مَدِينَة مَمْفِيس Memphis بالقُرْب من التقاء الوادي بالدِّلتا على الشاطئ الغرْبي للنِّيل أوَّلَ عَاصِمَةٍ مِصْرِيَّةٍ في التَّارِيخ. وتَرْقُدُ أطْلالُ هذه المَدِينَة على نحو خمسة وعشرين كيلو مترًا جَنُوب القَاهِرَة الحالية في مُقَابَلَتها على الضَّفَّة الغَرْبِيَّة للنِّيل وعلى بُعْدِ نحو ثلاثة

---

[١] A. Zivie, «La région de Memphis et d'Héliopolis carrefour religieux», *Bulletin de la Société Ernest - Renan* XXX (1981), pp. 239-40.

كيلو مترات غَرْب النَّهْر ، وهي تُطابِقُ قَرْيتيّ مِيت رَهِينَة والبَدْرَشِين الحالية عند سَفْحِ هَضَبَةِ سَقَّارَة[١].

وفي عُصُورٍ متأخِّرةٍ، عندما أصْبَحَت مصرُ مجرَّد مستعمرةٍ في مملكة اليُونَان، اغْتَصَبَ مِينَاءُ « الإسْكَنْدَرِيَّة » ALEXANDRIA لَقَبَ المَدِينَة الأولىٰ من مَمْفِيس وطِيبَة وظَلَّ أشْبَه بجَزِيرَةٍ غَرِيبَةٍ من الأرْخَبِيل اليُونانيّ نُقِلَت وأُلْصِقَت بالسَّاحِل المصريّ سياسيًّا وبَشَرِيًّا ، بينما ظَلَّ اسْتِمْرارُ اسْتِيطانِ المصريين بجانب مَمْفِيس مُؤَكِّدًا على أهَمِّيَّة مَوْقِعها الاسْتراتيجي ؛ فعندما زَارَ سترابو STRABO مصر في سنة ٢٤ ق.م ، بعد سَنَواتٍ قليلةٍ من الغَزْوِ الرُّومانيّ ، وَجَدَ مَمْفِيس مَدينَةً مُزْدَهِرَةً مَلِيئَةً بالسُّكَّان وتأتي في المَحَلِّ الثَّاني بعد الإسْكَنْدَرِيَّة[٢].

وسَهَّلَ وُجُودُ مَمْفِيس MEMPHIS على الضَّفَّة الغربية للنِّيل اتِّصالَها بالدِّلْتا من ناحية ، وبالوَادِي من ناحيةٍ أخرىٰ ، حيث يَقَعُ المعمورُ الزِّراعيُّ في سَوَادِه الأعْظَم على ضَفَّةِ النِّيل الغربية . وفي الوَقْتِ نفسه كان مَوْقِعُها في غَرْبِ النِّيل يَتَّفِقُ مع الأفْكار الدِّينية للمِصْريين القُدَمَاء[٣].

أمَّا مَدِينَةُ « أُون » OUN أو « هِلْيُوبُوليس » HELIOPOLIS، حيث الامْتِدادِ الشَّمالي للقاهرة الحالية ، فهي أوَّلُ مَدِينَةٍ تُقَامُ على الضَّفَّة الشَّرْقِيَّة للنِّيل في المَوْضِع الذي عَرَفَه العَرَبُ بـ « عَيْنْ شَمْس » ، وظَلَّت بقايا هذه المَدِينَة حتى قَدِمَت جيوشُ الفَتْح العَرَبِيّ الإسْلاميّ في سنة ٢٠ للهجرة/ ٦٤١م . ويَقُومُ اليوم في ضَاحية المَطَرِيَّة ، شمال القَاهِرَة ، مِسَلَّةٌ مصريةٌ مُنْعَزِلَةٌ هي كلّ ما تَبَقَّى من مَدينَة أُون أو هِلْيوبوليس القديمة[٤].

---

[١] C. M. ZIVIE, *Lexikon der Ägyptologie*, art. *Memphis* IV, p. 23-41.

[٢] J. L. ABU-LUGHOD, *Cairo : 1001 years of the City Victorious*, Princeton 1971, p. 5.

[٣] جمال حمدان : القاهرة الكبرى ـ دراسة فى جغرافية المدن ، القاهرة ١٩٦٩، ١٧.

[٤] C. H. BECKER, *EI*[2] art. *'Ayn Shams* I, p. 811-12.

وإلى الجَنُوبِ من مَدِينَة هِلْيوبوليس ، وفي مُوَاجَهَة مِمْفيس ، كانت هناك مَدِينَةٌ ذات شأْنٍ في التَّاريخ القَدِيم ، ولكن مَعْلُومَاتِنا عنها تَرْجِعُ فَقَط إلى القَرْنِ السَّادِس ق.م. فمَدينَةُ « بابِلْيُون » BABYLONE التي أسَّسَ العَرَبُ المُسْلِمُون في الفَضَاءِ المُجَاوِر لها أوَّلَ عَاصِمَةٍ لمصر الإسْلامية ، اخْتَلَفَ الجُغْرافيون القُدَمَاءُ والباحِثُون المُحْدَثُون في تحديد أُصُولِها . فتَبَعًا لديُودُور الصِّقِلِّي DIODORUS SICULUS (حوالي ٨٠ - حوالي ٣٠ ق.م) فإنَّ مُتَمَرِّدي الأَسْرَىٰ ذوي الأُصُولِ البابِلِيَّة والكِلْدانِيَّة الذين أُتِيَ بهم إلى مصر ، في زَمِنِ الأُسْرتين ١٨ و ١٩، أَسَّسُوا على الضَّفَّة الشَّرْقِيَّة للنِّيل مُسْتَعْمَرَةً محميةً اتَّخَذَت اسْمَها « بابِلْيون » من أصْلهم البابِلِيّ [١].

أمَّا يُوحَنَّا النِّقْيوسي ، وهو مُؤَرِّخٌ قِبْطيٌّ عَاشَ في القرن السَّابع الميلاديّ ، فيُشيرُ إلى أنَّ هذا التَّجَمُّع السُّكَّاني القائم في ناحية بابِلْيون نشأ في القَرْنِ السَّادِس ق.م. في زَمَنِ الغَزْو الفَارِسِيّ لمصر تحت قِيَادَة نَبُوخَذ نَصَّر ، وهو الرَّأيُ الذي أخَذَ به مُؤَرِّخُ مصر المَقْريزي [٢].

ولكنَّ الرِّوَايَة الثَّابتة التي يمكننا الاعْتماد عليها هي أنَّ أَحَد الفَيَالق الرُّومَانِيَّة الثَّلاثَة المُكَلَّفَة بحماية مصر عَسْكَرَ قُرْبَ هذا المَوْقِع في الأَراضي المُرْتَفِعَة التي تُشْرِفُ على مِمْفِيس عَبْرَ النَّهْر ، كما تُشْرِفُ في الوَقْتِ نفسه على بَابِلْيُون . ولمَّا أرادَ الإمْبراطُور تراجَان TRAJAN أنْ يُعَزِّزَ قَلْعَته عند رأسِ الدِّلْتا تَرَكَ هذا الحِصْنَ القَدِيم ، وأنْشَأ حِصْنًا جَدِيدًا على شاطئ النِّيل مُبَاشَرَةً ليُسَهِّل على حامِيته الاتِّصَالَ بسَائِر جِهَات القُطْرِ المصريّ وهو الذي عُرِفَ

---

١ E. LOUKIANOFF, «La forteresse romaine du vieux-Caire», *BIE* XXXIII (1950-51), p. 285-93; C. H. BECKER, *EI*² art. *Bobalyon* I, p. 867-68.

٢ *Ibid.*, p. 286.

فيما بعد بـ « قَصْرِ الشَمْع » والذي يَحْتَفِظُ إلى اليوم ببعض آثاره[١].

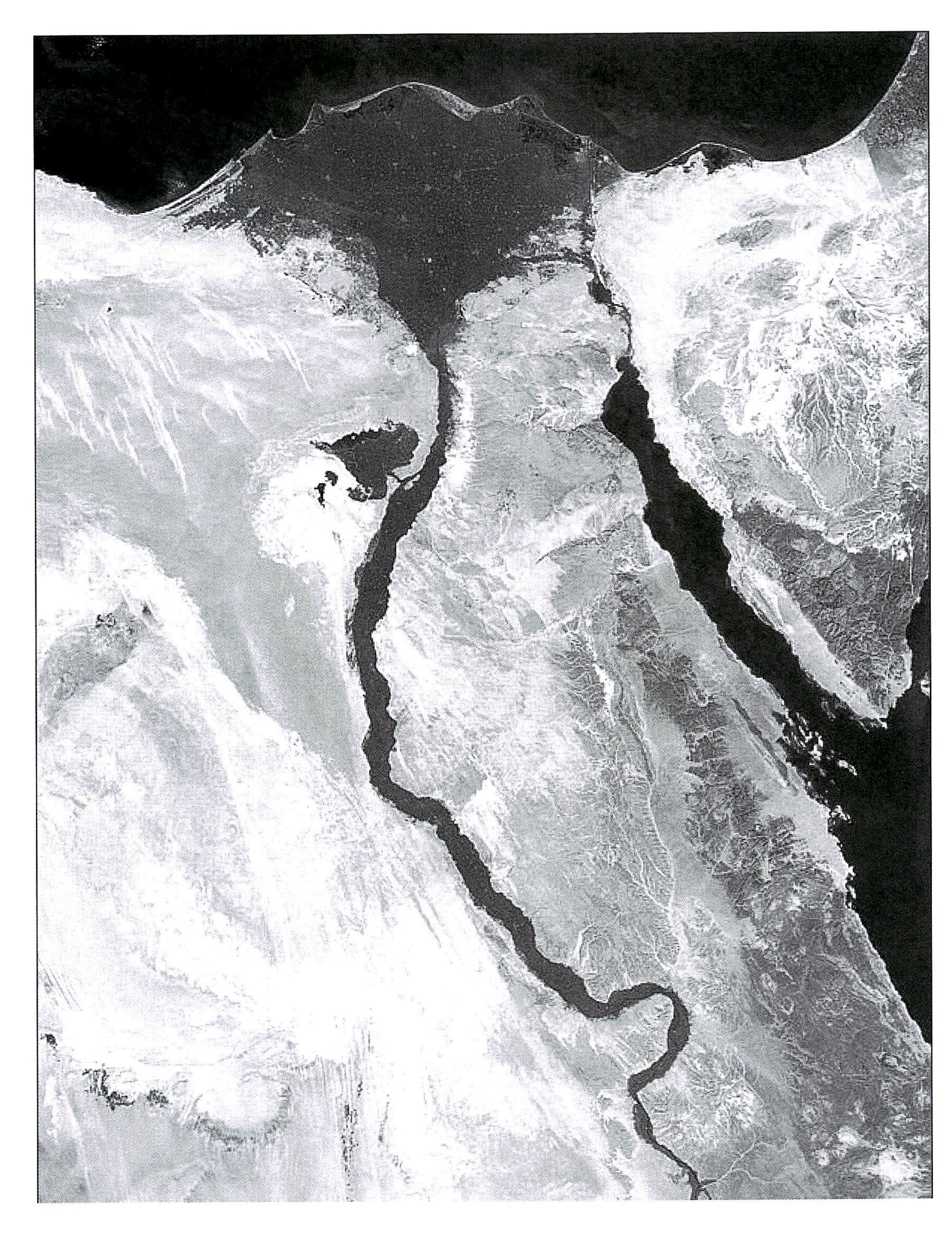
وشَهِدَت هذه المَنْطِقَةُ تَقَلُّبَات بالِغَة الأهَمِّيَّة مع بِدَايَة ظُهُورِ وانْتِشَارِ المَسِيحِيَّة ، وما تَزَالُ بَعْضُ هذه التَّقَلُّبَات باقِيَةً حتى الآن مُتَمَثِّلَةً في عَدَدٍ من الكَنَائِس المُقَامَة فوق الحِصْن : كنِيسَة أبي سِرْجَة وكنِيسَة السِّتّ بَرْبَارة والكنِيسَة المُعَلَّقَة[٢]. كما أنَّ حَقِيقَة جماعَة السُّكَّان الذين أقَامُوا في هذا القِطَاع من المَدِينَة القَدِيمة وطَبِيعَتها ونَوْعِيَّتها ما تَزَالُ في حَاجَةٍ إلى دِرَاسَةٍ مُتَعَمِّقَة من جَانِب مُتَخَصِّصي الدِّرَاسَات البيزَنْطِيَّة . وكانت أطْلالُ هذه المُنْشَآت دون شك ذات تأثيرٍ كبيرٍ على اخْتِيَارِ المُسْلِمين لمَوْقِع الفُسْطَاط ، فجَاءَ تأسِيسُ الفُسْطَاط على أطْلالِ هذا المَوْقِع نَوْعًا من الاسْتِمْرارية ، ولكنَّ إعْمَارَها تَمَّ في ظُرُوفٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وإنْ احْتَفَظَ الفاتِحُون ببَعْض التَّقَاليد التي كانت سَائِدَةً قَبْل الإسْلام مثل طُقُوس « فَتْح الخَلِيج » أو التَّقَاليد المُرْتَبِطَة بزيارَة « سِجْن يُوسُف » ، حيث ظَلَّتْ مِصْرُ الفِرْعَوْنِيَّة مَوْجُودةً دائمًا في خَلْفِيَّة المَظَاهِر الاجتماعية والاحتفالية للمصريين[٣].

---

[١] A. J. BUTLER, *Babylone of Egypt. A Study in the History of Old Cairo*, Oxford 1914, p.62.

[٢] ولمزيد من التَّفصيلات عن هذه الكنائس راجع CH. COQUIN, *Les édéfices chrétiens du Vieux-Caire. Bibliographie et topographie historique*, Le Caire-IFAO 1974.

[٣] A. ZIVIE *op. cit., p. 240.*



خَرَيطَة مصر بالساتليت تُوَضِّح مَوْقِع القاهِرَة عند رأس الدِّلْتا

ثانيًا ـ الفَتْحُ العَرَبِيُّ الإسْلامِيُّ

بِدَايَةُ عَصْرٍ جَــدِيد

سَجَّلَ الفَتْحُ العَرَبِيُّ الإسْلاميُّ لمصر بِدَايَة مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ في تاريخها الطَّوِيل، مَرْحلةٍ مازالت مستمرَّةً حتَّى العَصْرِ الحَاضِر. فقد فَصَلَ هذا الفَتْحُ نهائِيًّا بين حَضَارَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْن تمامًا دِينِيًّا واجْتِماعِيًّا وعُمْرَانِيًّا.

تَطَوُّرُ عَاصِمَةِ مِصْر الإسْلامِيَّة

١ ـ الفُسْــطَاط

عندما فَتَحَ العَرَبُ المُسْلِمُون مِصْر، في سَنَة ٢٠هـ/٦٤١م، بُنِيَت «الفُسْطَاطُ» كأوَّلِ مَدِينَةٍ إسْلاميةٍ في مصر وأفْرِيقْيا في الفَضَاءِ المُجَاوِر لبابِلْيُون القَدِيمَة. وبعد نحو قَرْنٍ، مع وُصُولِ العَبَّاسيين إلى قِمَّةِ السُّلْطَة، أُضِيفَ إليها في الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ حَيٌّ كانت به دَارُ الإمَارَة العَبَّاسِيَّة ومُعَسْكَرَاتُ جُيُوشِهم سُمِّيَ «العَسْـكَر». ثم أضِيفَت إلى الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ منه ضاحِيَةٌ جَدِيدَةٌ أو مَدِينَةٌ أمِيرِيَّةٌ صَغِيرَةٌ بَنَاهَا، نحو سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، أحمدُ بن طُولُون أوَّلُ حَاكِمٍ مُسْلِمٍ اسْتَقَلَّ بحُكْمِ مِصْر عن الخِلافَة العَبَّاسِيَّة، وسُمِّيَت هذه المَدِينَة «القَطَـائِع» لأنَّها قُسِمَت إلى أحْيَاء مُنْفَصِلَةٍ أُقْطِعَت لفِرَقِ الجُـنْدِ المُخْتَلِفَة.

ولم تَلْبَث هذه المُـدُنُ الثَّلاث أنْ أصْبَحَت مَدِينَةً وَاحِدَةً من النَّاحِيَة العَمَلِيَّة، كانت الفُسْطَاطُ هي مركز نَشَاطِها التِّجَاريّ والاقْتِصاديّ والاجْتماعيّ.

وكانت الخُطْوَةُ الرَّابِعَةُ في تَطَوُّرِ هذه العَاصِمَة في اتِّساعٍ آخر نحو الشَّمَال الشَّرْقِيّ أيضًا، وفي هذه المَرَّة تُرِكَت مِسَاحَةٌ كبيرةٌ بينها وبين القَطَائِع ـ التي كانت

قد تَهَدَّمَت إلى حَدٍّ كبيرٍ جدًّا ـ حتى يتَوَافَر الأمْنُ والعُزْلَةُ للأئِمَّة (الخُلَفَاءِ) الفاطِميين الذين بُنِيت باسْمِهم المَدِينَةُ الرَّابعة التي أصْبَحَت « القَـاهِرَة » الحَقِيقِيَّة ، ولكنَّها لم تكن أكثر من قَصْرٍ فَخْمٍ وثُكْنَاتٍ للجُنُود ومَقَرٍّ للحُكُومَة ، وظَلَّت الفُسْطَاطُ سُوقًا للتجارة ومركزًا للثَّقافة والأعْمال .

ولم تَصْبَح « القَـاهِرَة » الحَاضِرَة الحَقِيقِيَّة ومَرْكَز الحُكْم في مصر الإسلامية إلَّا بعد أنْ أُحْرِقَت الفُسْطَاطُ عَمْدًا في سنة ٥٦٤هـ/ ١٠٦٨م . وجَاءَ سُورُ صَلاحِ الدِّين ليُجَسِّدَ الوِحْدَة الحَقِيقِيَّة للعَاصِمَة ، فصُمِّمَ لا ليُحِيطَ بالقاهِرَةِ وَحْدَها ، بل وبقَلْعَةِ الجَبَل ـ مركز الحُكْم الجَدِيد ـ وبما تَبَقَّى من مَدِينَتَيّ الفُسْطَاط والقَطَائِع .

فكيف اخْتِيرَ مَوْقِعُ الفُسْطَاط الأصْل الأوَّل للقاهِرَة ؟

لم يكُن اخْتِيَارُ عَمرو بن العَاص لمكانِ عاصِمَةِ الفَتْح اعْتِباطًا ، بل جَاءَ اخْتيارًا طَبِيعِيًّا . فعندما وَصَلَ العَرَبُ المُسْلِمُون إلى مصر وَجَدُوا بها مَدِينَتَيْن مُهِمَّتَيْن : « الإسْكَنْدَرِيَّة » على شاطئ البحر المُتَوَسِّط وتُعَدُّ العَاصِمَة الأولىٰ لقُرْبِها من الإمْبراطورية الرُّومانية الشَّرْقِيَّة صَاحِبَة السِّيادَة وَقْتَذَاك ، و « بابِلْيُون » وتُعَدُّ العاصِمَة الثَّانية وتَقَعُ عند رأْسِ الدِّلْتَا بحيث تُشْرِفُ على الوَجْهَيْن البَحْريّ والقِبْليّ ، وعلى شاطئ النِّيل ممَّا يُسَهِّل اتِّصالَها بكلِّ أطْرافِ القُطْرِ المصريّ ، بالإضافة إلى تَوَسُّطِها بين النِّيل غَرْبًا ـ وهو مَوْرِدُ ماءٍ لا يَنْفَد ـ وبين الجَبَلِ المُقَطَّم شَرْقًا ، وهو حَدٌّ طَبِيعِيٌّ لحمايتها .

وبعد أنْ تَمَّ للفَاتِح العَرَبيّ المُسْلِم الاسْتِيلاءُ على حِصْنِ بابِلْيُون ـ كما يُسَمِّيه المُؤَرِّخُون العَرَب الأوَائِل ـ تَرَكَ فيه حَامِيةً وتَوَجَّه إلى الإسْكَنْدَرِيَّة ـ عَاصِمَة البِلاد ـ وتَمَّ له فَتْحُها بعد أنْ حَاصَرَها ستة أشهر[١] ، وكان على عَمْرو بعد ذلك أن يَتَّخِذَ لنفسه عاصِمَةً يستقرُّ بها مع جُنُودِه الفَاتِحين ، وفي أوَّلِ الأمْر لم يُرد الفَاتِحُ الكَبِير أنْ

---

[١] المقريزي : المواعـظ والاعتبار ١ :٤٤٦ـ ٤٤٨.

يُكَلِّفَ نفسه عَنَاءَ البِنَاء، فَوَقَعَ اخْتيارُهُ على مَدِينَة الإسْكَنْدَرِيَّة لمَّا وَجَدَ بُيُوتَها وبِنَاءَها مَفْرُوغًا منه وقال : « مَسَاكِنَ قد كُفِيْنَاها »[١]، غير أنَّ تَوْجِيهَ الخَلِيفَة عُمَر بن الخَطَّاب إلى قُوَّادِهِ الفَاتِحِين جَمِيعًا « بأنْ لا يَجْعَلُوا بينه وبين المُسْلِمين مَاءً » ، جَعَلَ سَعْدًا بن أبي وَقَّاص يتحوَّلُ من مَدَائِن كِسْرىٰ إلى الكوفَة ، وصَاحِبَ البَصْرَة يتحوَّلُ من المَوْضِع الذي كان فيه إلى البَصْرَة ، وعَمْرو بن العَاص يتحوَّلُ من الإسْكَنْدَرِيَّة إلى مَوْضِع الفُسْطَاط[٢].

عَادَ عَمْرو من الإسْكَنْدَرِيَّة إلى المَوْضِع الذي تَرَكَ فيه حامِيَتَه بجوار قَصْرِ الشَّمْع وبالقُرْبِ من مَوْضِع بابِلْيُون القديمة ، وكان يُحِيطُ بهذه المَنْطِقَة وقُرْب منها مَسَاكِنُ للنَّصَارَىٰ وعِدَّةُ كَنَائِس وأدْيِرَة في مَوْضِعِ رَاشِدَة وفي مَوْضِع الحَمْرَاء ، بَقِيَ قِسْمٌ منها حتَّى هُدِمَ في سَلْطَنَة الملك النَّاصِر محمد بن قَلاوون في النِّصْفِ الأوَّل من القَرْنِ الثَّامِن الهجريّ/ الرَّابع عشر الميلاديّ .

وهكذا فإنَّ تَوْجِيهَات الفَتْح العَرَبيّ الإسْلاميّ وحَصَانَة مَوْقِع بابِلْيُون وقَصْرِ الشَّمْع بين جَبَلِ المُقَطَّم شَرْقًا والنِّيل غَرْبًا ، جَعَلَت عَمْرو بن العَاص يتَّخِذُ من الفَرَاغ المُجَاوِر للحِصْن مَرْكَزًا للفَاتِحِين وقاعِدَةً للقِيَادَة والإدَارَة.

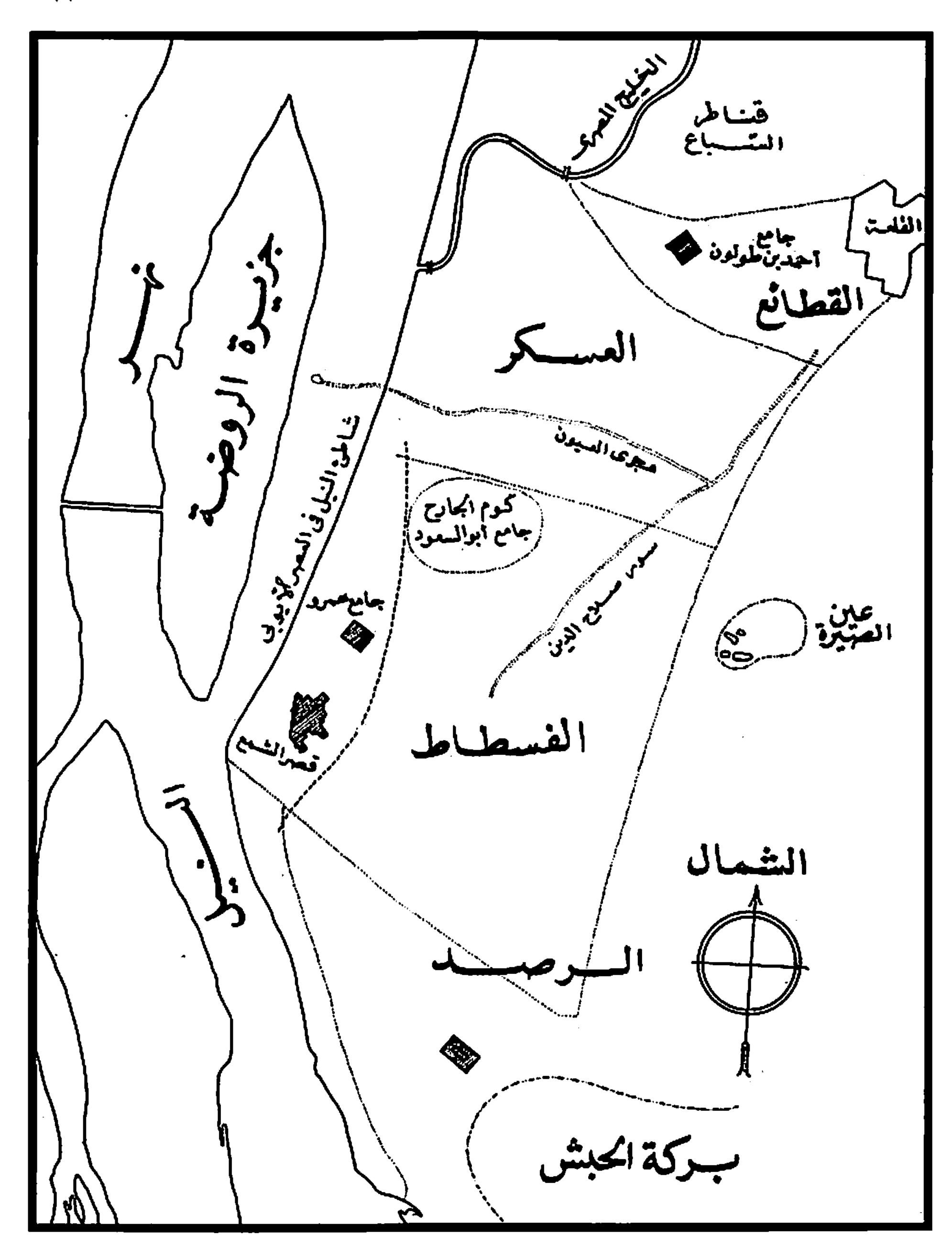
فهذا المَوْقِعُ ، الذي أصْبَحَت « القاهِرَةُ » امْتِدَادًا له بعد نحو ثلاثَة قُرُون ، تَوَافَرَت له الشُّرُوطُ اللَّازِمَة لإقَامَةِ المُدُنِ وضَمَانِ اسْتِمْرارِها[٣] وجَاءَ اخْتِيَارًا مُوَفَّقًا من جَمِيعِ الوُجُوه ، ففَضْلًا عن وُقُوعِه عند رأسِ الدِّلْتا مُشْرِفًا على الوَجْهَيْنِ البَحْريّ والقِبْليّ ممَّا يَجْعَل منه مَرْكَزًا إداريًّا قَادِرًا على السَّيْطَرَة على البلاد ، فإنَّ وُقُوعَهُ

---

[١] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩١؛ المسعودي : التنبيه والإشراف ٣٥٨ـ٣٥٩؛ ابن سعيد : المغرب (قسم الفسطاط) ٣٩؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٣٠.

[٢] نفسه ٩١؛ نفسه ٣٥٩؛ نفسه ٣٩؛ نفسه ٢ : ٣١.

[٣] ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢: ١١ـ ١٢.



خَرِيطَةٌ تُوَضِّحُ مَوْضِعَ عَوَاصِم مِصْر الإسلامية وتَنَقُّل شاطئ النِّيل

بالقُرْبِ من الأراضي الزِّراعية سَهَّلَ وُصُولَ الأقْوات والغِذَاء الضَّروريّ إليه ، أَضِفْ إلى ذلك أنَّ وُقُوعَهُ على الضَّفَّة الشَّرْقِيَّة للنِّيل جَعَلَ عاصِمَة الفَتْح أسْهَل اتِّصالًا بمركز الخِلافَة في « المَدِينَة » . كما أنَّه جَعَلَ المَدِينَة الجَدِيدَة في مَوْقع حَصِين يَسْهُل الدِّفَاعُ عنه وحِمَايَتُه ، فهي في مَكانٍ مُرْتَفِع لا يَغْمُرُه النِّيلُ في زَمَنِ الفَيَضَان ، ويحدُّها شَرْقًا سَلاسِلُ تِلالٍ تَقْتَرِبُ من النَّهْر في الجَنُوب وتَنْفَرِجُ بِعَيدًا عنه كلَّما اتَّجَهْنا شَمَالًا ، هي تِلالُ المُقَطَّم[١] الذي ينتهي في الشَّمال بالجَبَل الأحْمَر قُرْب العبَّاسِيَّة الحالية ، وتَخْرُجُ من هذه السِّلْسِلَة بُرُوزاتٌ ناتِئَةٌ نحو الغَرْب كتُلُولٍ ثانوية هي من الجنوب : عَيْنُ الصِّيرَة ثم زِيَنْهُم ثم قَطْعُ المَرْأة . ويَنْحَدِرُ سَطْحُ الجَبَل كلَّما اتَّجَهْنا من الصَّحْرَاءِ إلى النَّهْر ، أي أنَّ قِطَاعَهُ الشَّرْقيَّ أكثر ارْتِفاعًا من قِطاعِه الغَرْبيّ .

أمَّا من الغَرْبِ فيَحُدُّها النِّيلُ ، وهو المَوْرِدُ الذي يَضْمَن تَزْوِيد المَدِينَة بالماء من ناحيةٍ ، ويجعل الوُصُولَ إليها غير مَيْسُورٍ إلَّا بعد عُبُورِ جِسْرٍ أو قَنْطَرَةٍ من ناحيةٍ أخرىٰ .

ومن ذلك نرىٰ أنَّها محميةٌ من ثَلاثِ جِهَات : بالتَّلِّ شَرْقًا ، والنِّيل غَرْبًا ، والْتِقَاء التَّلِّ مع النَّهْر جَنُوبًا ، ومَفْتُوحَةٌ فَقَط من الشَّمَال ، الأمْر الذي وَفَّرَ لها مَكانًا يَطَّرِدُ فيه اتِّساعُها هو الذي قامَت فيه بعد ذلك العَسْكَرُ والقَطَائِعُ والقاهِرَةُ وضَوَاحِيها الحالية . كذلك فإنَّ التِّلالَ الشَّرْقِيَّة وفَّرَت للمَدِينَة مَادَةَ بِنَاءٍ ثَمِينَةٍ هي الحَجَر ، مثلما وَفَّرَ لها النَّهْرُ خاصَّةَ الطُّوب .

بَدَأ القائِدُ عمرو في اخْتِطاطِ مَدينته بأنْ وَضَعَ أَسَاسَ جَامِعِه المعروف بـ « الجامع العَتِيق » و « تاج الجَوامِع » ، واخْتَطَّت القَبَائِلُ العَرَبِيَّة التي تألَّفَ منها جَيْشُه حَوْلَ

---

[١] راجع عن جَبَل المُقَطَّم المُشْرف على القَرَافَة ومصر والقاهرة من شرقيها (ياقوت : معجم البلدان ٥:١٧٦-١٧٧؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ١:٣٣٥-٣٣٨؛ D. Behrens-Abouseif, *EI*[2] art. *Mukattam* VII, pp. 509-11; Y. Ragib, «Le site Muqattam», *An. Isl.* 33 (1999), pp. 159-84.

جامِعه ودَارِه فاخْتير لكلّ جَمَاعَةٍ « خِطَّه » تَنْزِلُ بها . وكان جُمْلَةُ سُكَّان هذا المعسكر ١٥,٥٠٠ هم عَدَدُ الجُـنُود المشاركين في الفَتْح ، القسم الأكبر منهم من العَرَب الجَنُوبيين . وعلى ذلك تأسَّسَت مَدِينَةُ « الفُسْطَاط » أوَّلُ عَوَاصِم مصر الإسْلامية ونُسِبَت إليه بحيث أصْبَحَ يُقَالُ لها « فُسْطاط عَمْرو » ، فكيف اخْتِيرَ لها هذا الاسْم ؟

تَميلُ كثيرٌ من الرِّوَايات التَّاريخية إلى الذَّهَاب إلى أنَّ هذه المَدِينَة سُمِّيت بذلك نِسْبَةً إلى فُسْطاطِ عَمْرو ـ الذي كان يَقَعُ عند دَرْبِ حَمَّام شَمُول بخُطّ الجَامِع ـ بسبب قِصَّة اليَمامَة المشهورة[١]. ويقْضِي علينا البَحْثُ التَّاريخيّ أنْ نَسْتَبْعِدَ هذه الرِّوَايَة ، وكذلك ما يَذْهَبُ إليه الأُورُبِيُّون من أنَّ كلمة « الفُسْطَاط » اشْتُقَّت من الكلمة الإغْريقية FOSSATUM، ومَعْنَاها المُعَسْكَرُ الذي يُحِيطُ به خَنْدَق . ذلك لأنَّ كلمة « الفُسْطَاط » مَوْجُودَةٌ في اللُّغَةِ العَرَبِيَّة وتَعْني ، إلى جَانِب معنى الخَيْمَة ، « مُجْتَمَع أهْلِ المَدِينَة »[٢]، يَقُولُ ابنُ قُتَيْبَة : « كلُّ مَدِينَةٍ فُسْطاط »، وعليه فقد أُطْلِقَ على البَصْرَة الفُسْطَاط على التَّشْبيه بفُسْطَاطِ مصر . فيكون مَعْنَىٰ الفُسْطَاط هو المَكَانُ الذي يَجْتَمِعُ فيه المُسْلِمُون حَوْلَ جامِعهم وحَوْلَ مَنْزل قائِدهم[٣].

جَامِعُ عَمْرو

كانت نُقْطَةُ الانْطِلاقِ في تَشْييد المَدِينَة الإسْلامِيَّة هي وَضْعُ أسَاسِ المَسْجِد الجامِع الذي عُرِفَ بـ « الجَامِع العَتِيق » و « جَامِع عَمْرو » و « تَاج الجَوَامِع » .

---

[١] راجع ابن عبد الحكم : فتوح مصر ٩١؛ ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب (قسم مصر) ٣٩ـ ٤٠؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ : ٢؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ :٣٠ـ ٣١.

[٢] ابن منظور : لسان العرب ٩ :٢٤٦ـ ٢٤٧؛ الزبيدي : تاج العروس ٥ :١٩٨ـ ١٩٩.

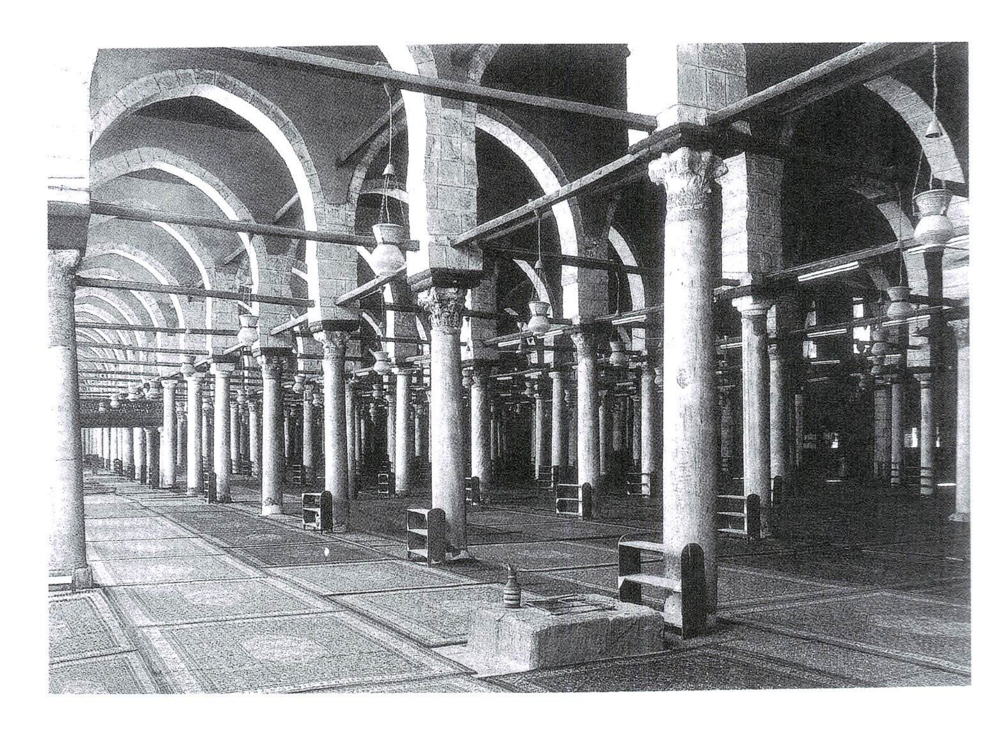
[٣] ابن قتيبة : غريب الحديث ١ : ٣١٨؛ المقريزي : المواعظ ٢ :٣١ـ ٣٢.

وقد أُنْشِئ هذا الجَامِعُ، تَبَعًا لأَغْلَبِ الرِّوايات، في سنة ٢١هـ/٦٤٠م. وأهَمُّ مَصْدَرٍ يَتَنَاوَلُ تاريخَ هذا الجَامِع وما طَرَأ عليه حتى مُنْتَصَفِ القَرْنِ الرَّابع الهجريّ كتابُ «أَخْبَار مَسْجِد أَهْلِ الرَّايَة الأَعْظَم وأوَّل أمْرِه وبِنَائه وزيادَة الأمَرَاء فيه وغيرهم ومَجَالِس الحُكَّام والفُقَهَاء منه وغير ذلك» لأبي عُمَر محمد بن يُوسُف بن يَعْقُوب الكِنْدِيّ، المتوفَّى سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م، وهو كِتَابٌ لم يَصِل إلينا ولكنَّه أحَدُ مَصَادِر المقريزيّ في «المَوَاعِظ والاعْتِبَار». وهو وَصْفٌ تاريخيٌّ لجامِع عَمْرو الذي أُنْشِئ وَسَطَ خِطَّة أَهْلِ الرَّايَة، وهم جَمَاعَةٌ من قَبَائِل مختلفة اشْتَرَكت معًا وَقْتَ الفَتْح لتكوين خِطَّة حَوْل رَايَة القَائِد الفاتِح حيث وُضِعَ أسَاسُ المَسْجِد الجَامِع في مَوْضِعِ مَنْزِل قَيْسَبَة بن كُلْثُوم التُّجِيبي أحَد الذين شَهِدُوا الفَتْح.

ووَقَفَ على إقَامَة قِبْلَة هذا المَسْجِد الجامِع ثمانُون رَجُلًا من أَصْحَابِ رَسُول الله ﷺ فيهم: الزُّبَيْرُ بن العَوَّام والمِقْدَادُ بن الأَسْوَد وعُبَادَةُ بن الصَّامِت وأبو الدَّرْدَاء، رضي الله عنهم، ولم يكن له في أوَّلِ الأمْرِ مِحْرَابٌ مُجَوَّفٌ وأوَّلُ مَنْ جَعَلَه هو قُرَّة ابن شَرِيك في نهاية القرن الهجريّ الأَوَّل، أمَّا أوَّلُ مَنْ زَادَ فيه فمَسْلَمَةُ بن مَخْلَد الأَنْصاريّ سنة ٥٣هـ/٦٧٢م، من جهتيه الشَّرْقِيَّة والبَحْرِيَّة، كما جَعَلَ للمَسْجِد أرْبَع صَوَامِع في أرْكانِه الأرْبَع وفَرَش فيه الحُصْر. وأُعِيدَ بِنَاءُ الجَامع وتَوْسِعَتُه في زَمَنِ وِلاية قُرَّة بن شَرِيك (٩٠-٩٦هـ/ ٣٠٨-٧١٤م)، كما زَادَ فيه صَالِحُ بن عليّ بن عبد الله في خِلَافَة أبي العَبَّاس السَّفَّاح، ثم موسىٰ بن عيسى الهَاشِمِي سنة ١٧٥هـ/٧٩١م، وضَاعَف عبد الله بن طَاهِر بن الحُسَيْن مِسَاحَة الجَامِع من غَرْبِيه سنة ٢١١هـ/٨٢٦م. ووَقَعَ حَرِيقٌ بمُؤَخَّر الجَامِع سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م فأمَرَ خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولُون بعِمَارَته وإعَادَته إلى ما كان عليه[1].

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٨-٢٢.



إيوانُ القِبْلَة بجامِع عَمْرو

وزارَ مصر الرَّحَّالَةُ والجُغْرافيُّ المَقْدِسِيّ البِشَاري، في بِدَايَة العَصْرِ الفَاطِمِيّ، فوَصَفَ جَامِعَ عَمْرو بن العَاص وما حَوْلَهُ بالعِبَارَة التالية:

«وسَمِعْتُهُم يَذْكُرون أنَّه يُصَلِّي قُدَّامَ الإمَام يوم الجُمُعَة نحو عَشْرَة آلاف رَجُل، فلم أصدِّق حتى خَرَجْتُ مع المُتَسَرِّعَة إلى سُوقِ الطَّيْر، فرَأيْتُ الأمْرَ قَريبًا ممَّا قَالُوا. وأبطأتُ يومًا عن السَّعْي إلى الجُمُعَة فلقيت الصُّفُوفَ في الأسْوَاقِ على أكثر من ألْفِ ذِرَاعٍ من الجَامِع ورأيتُ القَياسِرَ والمَسَاجِدَ والدَّكاكين حَوْلَه مملُوءَةً من كُلِّ جانِبٍ من المُصَلِّين».

وأضَافَ المَقْدِسِيُّ أنَّ هذا الجَامِع سُمِّيَ في وَقْتِه «الجَامِعَ السُّفْلاني» للتَّمْييز بينه وبين «الجَامِع الفَوْقَاني» الذي بَنَاهُ أحمد بن طُولُون في القَطَائِع، ووَصَفَهُ بأنَّه حَسَنُ البِنَاء في حِيطانِه شيءٌ من الفُسَيْفِسَاء على أعْمِدَة رُخَام أكبر من جَامِع دِمَشْق، والازْدِحَامُ فيه أكثر من الجَوَامِع السِّتّ قد التَفَّت عليه الأسْوَاقُ إلَّا أنَّ بينها وبينه من نحو القِبْلَة دَارُ الشَّطّ وخَزائِنُ ومَيْضَأة وهو أعْمَرُ مَوْضِعٍ بمصر. أمَّا الجَامِعُ

الفَوْقاني (أي جَامِع ابن طُولُون) فذَكَر أنَّه أكبر وأبْهَىٰ من السُّفْلاني على أساطين وَاسِعَة مُصَهْرَجَة وسُقُوفُه عالية ، في وَسَطِه قُبَّة على عَمَلِ قُبَّة زَمْزَم فيه سِقَايَة وله زِيادَاتٌ وخَلْفُهُ دَارٌ حَسَنَة ومَنَارَتُه من حَجَرٍ صَغِيرَة دَرَجُها من خَارِج [1].

واكتفىٰ مُعَاصِرُهُ ابن حَوْقَل بالقَوْلِ بأنَّ بمصر الفُسْطاط مَسْجِدَان لصَلاةِ الجُمُعَة ، بَنَى أَحَدَهما عمرو بن العاص في وَسَطِ الأسْوَاق ، والآخَر بأعْلىٰ المَوْقِف بَنَاهُ أبو العَبَّاس أحمد بن طُولُون [2].

ثم يُقَدِّم لنا نَاصِرُ خُسْرُو بعد ذلك بنحو ثلاثة أرْباع القَرْنِ وَصْفًا أكثر تَفْصيلًا يقول :

« هذا الجَامِع قَائِمٌ على أرْبَع مائة عَمُود من الرُّخَام ، والجِدَارُ الذي عليه المِحْرَابُ مُغَطَّىٰ كُلُّه بألْوَاحِ الرُّخَام الأبْيَض التي كُتِبَ القُرْآنُ عليها بخَطٍّ جَمِيل . ويُحِيطُ بالجَامِع من جِهَاتِه الأرْبَع الأسْواقُ وعليها تَفْتَحُ أبْوَابُه . ويُقِيمُ بهذا الجَامِع المُدَرِّسُون والمُقْرِؤون ، وهو مَكانُ اجْتِمَاع سُكَّانِ المَدِينَة الكَبِيرة ولا يَقِلُّ مَنْ فيه في أيِّ وَقْتٍ عن خَمْسَة آلافٍ من طُلَّابِ العِلْم والغُرَبَاء والكُتَّاب الذَّين يُحَرِّرُون الصُّكُوكَ والعُقُودَ وغيرها » [3].

وقد تَبَدَّلَ هذا الحالُ بعد ذلك في نِهَايَة العَصْرِ الأيُّوبي حَيْثُ يَصِفُ ابنُ سَعِيد المغربيّ الجَامِع بعد أنْ دَخَلَ إليه بقَوْله :

« فعايَنْتُ جَامِعًا كَبِيرًا قَدِيم البِنْيَة غير مُزَخْرَف ولا مُحْتَفَل في حُصْرِه التي تَدُورُ مع بَعْض حِيطَانِه وتُبْسَط فيه . وأبْصَرْتُ العَامَّة رِجالًا ونِسَاءً قد جَعَلُوه مَعْبَرًا بأوْطِئَة أقْدَامهم يَجُوزُون فيه من بَابٍ إلى باب ليُقَرِّب عليهم الطَّرِيق . والبَيَّاعُون يَبِيعُون فيه أصْنَاف المُكَسَّرَات والكَعْك وما جَرىٰ مجرىٰ ذلك ، والنَّاسُ يأكُلُون فيه في أماكن عِدَّة غير محتشِمين لجَرْي العادَة عندهم بذلك ،

---

[1] المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ١٩٨-١٩٩.

[2] ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٦.

[3] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٢.

وعِدَّةُ صِبْيَان بأواني ماء يطُوفُون على مَنْ يأكُل وقد جَعَلُوا ما يَحْصُل لهم منهم رِزْقًا ، وفَضَلَاتُ مآكلهم مَطْرُوحَةٌ في صَحْنِ الجَامِع وفي زَوَاياه والعَنْكَبُوتُ قد عَظُم نَسْجُهُ في السُّقُوف والأرْكان والحِيطان ، والأطْفال يَلْعَبُون في صَحْنِه ، وحِيطانُه مكتوبَةٌ بالفَحم والحُمْرَة بخُطُوطٍ قَبيحَة مُخْتَلَّة من كَتْب فُقَرَاء العَوَام ... وأحْسَنْتُ ما أبْصَرْتُهُ فيه من حِلَقِ المُتَصَدِّرين لإقْرَاءِ القُرْآن والفِقْه والنَّحْو في عِدَّةِ أمَاكِن »[١].

خِطَطُ الفُسْطَاط

لا شَكَّ أنَّ الفُسْطاطَ نَشَأت على غير مِثالٍ سَابِقٍ ، وجَاءَت نَمَطًا غَرِيبًا تمامًا لم يُتَّبَع في بِنَائِها العَادَاتُ المَحَلِّيَّة . ونحن نَجْهَلُ هل كانت المُدُنُ المَوْجُودَة في مصر زَمَن الفَتْح مثل : بابِلْيُون وعَيْنُ شَمْس وأمّ دُنَيْن ، شَدِيدَة الشَّبَه بالمُدُنِ المصرية القَدِيمَة أَمْ كانت ذات طِرَازٍ يُونانِيّ - رُومَانِيّ بَحْت مثلها مثل الإسْكَنْدَرِيَّة . ولكنَّ المُؤكَّد أنَّ العَرَبَ المُسْلِمين لم يتأثَّروا بهذه المُدُن وأشْبَاهِها وهم يَبْنُون الفُسْطاط ، فقد جَاءَ الفاتِحُون المُسْلِمُون من بِيئَةٍ مختلفةٍ كلَّ الاخْتِلاف عن البِيئَة المِصْرِيَّة ، لها تَقَالِيدُها ونُظُمُها الخاصَّة والتي أضْفَىٰ عليها الإسْلامُ خَصَائِصَ أصْبَحَت تُمَيِّزُ كلَّ المُدُنِ الإسْلامية النَّاشِئَة ، بحيث يمكننا القَوْل أنَّ الفَتْحَ الإسْلاميّ لمصر وَضَعَ حَدًّا فَارِقًا بين حِقْبَتَيْن مُخْتَلِفَتَيْن تمامًا ، فلم يكن هذا الفَتْحُ يعني مُجَرَّدَ إحْلالِ حُكُومَةٍ مكان أخرىٰ ، وإنَّما كان بمَثَابَة انْقِلابٍ دِيني وثَقَافي واجْتِماعي ولُغَوي بَعِيد المَدَىٰ صَحِبَه تَحَوُّلٌ ظاهِرٌ في نِظام الحُكْم خَلَقَ مَوْقِفًا جَدِيدًا تمامًا ، فقَطَعَت مصر منذ هذا التَّأريخ كلَّ صِلَةٍ لها بأسْلُوبِ البِنَاءِ المصريّ القَدِيم وتَبَنَّت طُرُزًا معماريةً مختلفةً . حَقِيقَةً أنَّ هذا التَّحَوُّل لم يَحْدُث في يوم ولَيْلَةٍ ولكنَّه كان سريعًا ، كما أنَّ نِسْبَةَ

---

[١] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ٧.

كبيرةً من المُشارِكين في الفَتْح كانت من القَبَائِل اليَمَنِيَّة الجَنُوبِيَّة وهم لهم خِبْرَةٌ سابِقَةٌ بفُنُونِ البِنَاء[١].

كانت الفُسْطَاطُ عند إنْشَائِها أشْبَه بالمُعَسْكَر منها بالمَدِينَة بالمعنىٰ الصَّحِيح ، شأنها في ذلك شأن الأمْصار الإسلامية الأخرىٰ التي أُنْشِئَت زَمَن الفَتْح : البَصْرَة والكُوفَة . كما أنَّ خِطَطَها الأولىٰ كانت تتَّفِقُ مع تَخْطِيط هذه الأمْصَار ، فالمَسْجِدُ الجَامِعُ ودَارُ الإمَارَة في مَرْكَز المَدِينَة وحَوْلَها الأسْوَاقُ والحَمَّامَاتُ التي نَشَأت مع الوَقْتِ لتَلْبِيَة حَاجَات السُّكَّان ، تُحِيطُ بها خِطَطُ القَبَائِل المختلفة ، ثم مَوْضِع المُصَلَّىٰ الذي كان يُعْرَف بمُصَلَّىٰ خَوْلَان . وفي طَرَفِ المَدِينَة الشَّرْقِيّ كانت مَقَابِرُ المَدِينَة وهي التي عُرِفَت في مصر اعتبارًا من القَرْنِ الرَّابع الهجريّ بـ « القَـرَافَة » نِسْبَةً إلى بَطْنٍ من قَبِيلَة المَعَافِر اليمنيَّة يُقَالُ لهم بَنُو قَرَافَة[٢].

وأُطْلِقَ على الخِطَطِ أسْمَاءُ القَبَائِل التي سكنتها ، يَقُولُ القُضَاعِيّ : لمَّا رَجَعَ عَمْرو من الإسْكندرية ، ونَزَلَ مَوْضِعَ فُسْطَاطِه ، انْضَمَّت القَبَائِلُ بعضُها إلى بعض وتَنَافَسُوا في المَوَاضِع ، فولَّى عَمْرو على الخِطَطِ : مُعَاوِيَة بن حُدَيْج التُّجِيبي وشُرَيْك ابن سُمَيّ الغُطَيْفي وعَمْرو بن قَحْزَم الخَوْلانيّ وحَيْويل بن ناشِرَة المَعَافِرِيّ ، فكان هؤلاء الذين أنْزَلُوا النَّاسَ وفَصَلُوا بين القَبَائِل . واشْتَمَلَت خِطَطُ الفُسْطَاط الأولىٰ على الخِطَطِ الآتية :

خِطَّةُ أهْلِ الرَّايَة ، وهي الخِطَّةُ المحيطةُ بالجامِع من جميع جَوَانِبه والتي اشْتَمَلَت فيما بعد على زُقَاقِ القَنَاديل ، أشهر أسْوَاقِ الفُسْطاط ؛ وخِطَّة مَهْرَة وكانت قِبْليّ الخِطَّة السَّابقة ، ثم تليها خِطَّةُ تُجِيب وفيها دَرْبُ المَمْصُوصَة ؛ وبعدها خِطَطُ لَخْم

---

[١] J. Cl. Vadet, «L' 'Acculturation des sud-arabiques de Fustat au lendemain de la conquête arabe», *BEO* XXII (1969), pp.7-14.

[٢] ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤ : ٣١٧ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٨٤٦ـ ٨٤٩ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١ : ٣٦.

ورَاشِدَه واللَّفِيف وغَافِق والصَّدْف وخَوْلان والفارِسيين ومَذْحج وغَطِيف ويَحْصُب ورُعَيْن وذي الكِلاع والمَعَافِر إلى أنْ نَصِلَ إلى خِطَطِ أَهْلِ الظَّاهِر شَمالًا والحَمْرَاوَات الثَّلاث (الدُّنْيا والوُسْطىٰ والقُصْوَىٰ) التي عُرِفَت بذلك لنُزُولِ الرُّومِ بها [١].

ويَذْكُرُ ابنُ حَوْقَل (نحو سنة ٣٧٠هـ/٩٨١م) أنَّ بالفُسْطَاطِ قَبَائِل وخِطَط للعَرَب تُنْسَبُ إليها محالُّهم كالكوفَة والبَصْرَة ، إلَّا أنَّها أَقَلُّ من ذلك في وَقْتِهِ وقد بَادَ أكثرُها بظاهِرِ المَعَافِر [٢].

ومن المُؤْسِفِ أنَّ أغْلَبَ هذه الخِطَط قد دَرَسَ وزَالَ قَبْل الاهتمام بالتَّأليف في الخِطَط ممَّا جَعَلَ تَحْدِيدَ مَوَاضِعها ، خاصَّةً بعد حَريق الفُسْطَاط وخَرَابها ، أمْرًا تكتنفه الكثيرُ من الصُّعُوبات إلَّا إذَا كان هناك أثَرٌ مُتبَقٍّ مُتَعَارَفٌ عليه يُسْتَدَلُّ به على تَحْدِيد وَصْفِ القُدَمَاء.

وامْتَدَّت الفُسْطاطُ على شاطِئ النِّيل الشَّرْقِيّ بينه وبين الجَبَل ، وبعد الفَتْح بأعْوَامٍ وفي سَنَة ٦٩هـ/٦٨٩م انْحَسَرَ مَاءُ النِّيل عن أرْضٍ تجاه الحِصْن والجَامِع العَتِيق اسْتَغَلَّها المُسْلِمُون مَوْقِفًا لدَوَابِّهم ، ثم اخْتَطُّوا فيها المَسَاكِنَ شيئًا بعد شيء ، حتى صَارَ سَاحِلُ البَلَدِ حَيث المَوْضِع الذي عُرِفَ زَمَن المَقْرِيزيّ بالمَعَارِيج [٣].

ومع اطِّرَادِ اتِّسَاع المَدِينَة أصْبَحَت مُقَسَّمَةً إلى قِسْمَيْنْ : عَمَل فَوْق وعَمَل أسْفَل. فـ« عَمَلُ فَوْق » هو قِسْمُ المَدِينَة الشَّرْقِيّ الممتدُّ حتَّى المَقَابِر القَدِيمَة في سَفْحِ المُقَطَّم ، وتُمَثِّلُ بِرْكَةُ الحَبَش (حيث تُوجَدُ اليوم ضَاحِيَةُ القاهرة الجَنُوبية

---

[١] القضاعي تضمين عند المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢:٣٢ـ ٣٩.

[٢] ابن حوقل: صورة الأرض ١٤٦.

[٣] المقريزي: المواعظ ٢:٥ـ٦، ١٥٨، ٣: ٤٣٧؛ محمد رمزي: «الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة: شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليهما من التحويلات من الفتح العربي لمصر إلى اليوم»، مجلة العلوم ٣ (١٩٤٢) ٥٠٠ـ٥٠٢.

البَسَاتِين) الحَدَّ الجَنُوبِيّ الطَّبِيعيّ لهذا القِسْم ؛ أمَّا حَدُّهُ الشَّماليّ فكان يمتدُّ إلى ما يلي الخَلِيج في منطقةٍ يَصْعُبُ تَحْدِيدُها تُعَادِلُ مَيْدَانَ السَّيِّدَة زَيْنَب الحالي ، وهو يَشْغَلُ أرْضًا غير متساوية تتكوَّن من هَضَبَةٍ صَخْرِيَّةٍ تَنْحَدِرُ بمَيْلٍ تجاه النِّيل وتُحِيطُ بها مجموعةٌ من التِّلال يَحُدُّها من الجَنُوب الشَّرَفُ المعروف بالرَّصْد (إسْطَبْل عَنْتَر الآن). ولأنَّ هذا القِسْم أكثر ارْتِفاعًا من القِسْم الغَرْبِيّ أُطْلِقَ عليه « المَوْقِف » أو « عَمَل فَوْق » ، وهو أكثر اتِّساعًا من القِسْم الغَرْبِيّ وكَوَّنَ حَيًّا سكنيًّا يكادُ يَخْلُو من المراكز التِّجارية والحِرَفِيَّة التي تَرَكَّزَت في الجانِب الآخَر من المَدِينَة [١].

أمَّا « عَمَلُ أسْفَل » فهو قِسْمُ المَدِينَة الغَرْبِيّ الوَاقِعُ على شاطئ النِّيل ، وبالرَّغْم من أنَّه أكثر رُطُوبَة وأقَلّ صِحِّيَة من القِسْم الآخَر ، فقد اشْتَمَلَ على أهَمّ مُنْشآت المَدِينَة : المَسْجِدُ الجَامِع ودَارُ الضَّرْب والأسْوَاقُ والقَيَاسِرُ ، وكان شَاهِدًا على جَمِيع الأحْدَاث التي مَرَّت بها الفُسْطاط .

كان « عَمَلُ فَوْق » بمَثَابَة إطارٍ يُحيطُ بالمَدِينَة من الشَّرْق والجَنُوب ، بينما مَثَّلَ « عَمَلُ أسْفَل » المَدِينَة بمعنى الكلمة [٢].

ويمكننا كذلك أنْ نُقَسِّمَ مَوْضع الفُسْطاط في الوَضْع الرَّاهِن إلى قِسْمَيْن : شَرْقِيّ وغَرْبِي ، فالشَّرْقِيُّ هو مَوْضِع الفُسْطاط الأصْلِيَّة الذي شَمِلَه الحَرِيقُ في سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م وكان حتَّى فَتْرَةٍ قَرِيبَةٍ فَضَاءً وأرْضًا مَشْغُولَةً بالتِّلال والكيمان يتخلَّلُ بعض أجْزَائها الحَفَائِرُ التي بَدَأها عام ١٩١٢ علي بك بَهْجَت وألبير جبرييل Albert Gabriel، تَمَّ تَقْسيمها في السَّنَوَات الأخيرة وإنشاء مَدِينَة سَكَنية على أنْقَاضِها، والقِسْمُ الغَرْبِيّ ، المعروف اليوم بمصر القَدِيمَة ، يحدُّه من الشَّرْقِ القِسْمُ

---

[١] A. Fu'ad Sayyid, *La capitale de l'Égypte jusqu'â l'époque fatimide.*, p. 595.

[٢] A. Fu'âd Sayyid, *op.cit.*, p.594; W. Kubiak, *Al-Fustat, its Foundation and Early Urban Development*, pp.34-36.

الشَّرْقِيّ ، ومن الغَرْب مَجْرَىٰ سَيَّالة جَزِيرَة الرَّوْضَة ، ومن الشَّمَال المَوْضِع المُقَامُ عليه الآن مَجْرَىٰ قَنَاطِر العُيُون عند فَمّ الخَلِيج .

ظَلَّت الفُسْطاطُ مَقَرَّ وُلَاةِ مِصر حتَّى سُقُوطِ الخِلافَة الأُمَوِيَّة وانْتِصَارِ العَبَّاسِيين ، ولم يكن بها ، في أوَّلِ الأمْرِ ، مَقَرٌّ مُعَيَّنٌ لدَار الإمَارَة ، بل كان كلُّ أميرٍ يَنْزِلُ في دَارِه على القُرْبِ من الجَامِع[1]. وفي سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م بنى عبدُ العَزيز بن مَرْوان ، زَمَن إمَارَته ، دَارًا بالفُسْطَاط سمَّاها « دَارَ الذَّهَب » كانت تُعْرَفُ « بالمَدِينَة » لسَعَتِها[2]، لعلَّها أوَّلُ بِنَايَةٍ إسْلاميةٍ كبيرةٍ في مصر وَصَلَ إلينا نَبَأُ زَخْرَفَتِها .

وبَلَغَ عَدَدُ أمَرَاء مصر الذين سَكَنُوا الفُسْطَاط إلى أنْ بُنِيَ « العَسْكَرُ » ، العَاصِمَة الثَّانية ، تِسْعَةً وعِشْرين أميرًا[3].

*

* *

وأثْبَتَ جورج سكانلون George Scanlon بعد سَنَواتٍ من الحَفَائِر المُتَّصِلَة بمَوْقِع الفُسْطَاط التَّاريخية أنَّه لا يمكن القِيامُ بحَفَائِر في مَنَاطِق الفُسْطَاط الأكثر مركزيَّة واكْتِظاظًا بسَبَب الكثَافَة السُّكَّانِيَّة لهذه المَنْطِقَة بَدْءً من النِّصْف الثَّاني للقَرْنِ الثَّامِن عَشْر الميلادي وحتَّى الآن . بينما تُمَثِّلُ الأجْزَاءُ التي كَشَفَت عنها الحَفَائِرُ ما يُشْبِه ضاحِيَة المَدِينة أو رَبَضَها .

وقَدَّرَ فيلادسْلاف كوبياك Wladyslaw Kubiak، بعد دِرَاسَةٍ على الأرْضِ للفُسْطَاط ، أنَّ كُلًّا من قِسْمَيّ المَدِينَة يَتَطَلَّبُ مَنَاهِجَ بَحْثٍ علمية مختلفة . فالفَارِقُ بين القِسْمَيْن ليس فقط فارقًا طُبُوغْرافيًا ، وإنَّما يرجعُ أيْضًا إلى الأحْدَاث التَّاريخية التي شاهَدَاها . فالقِسْمُ الغربيُّ ، أو عَمَلُ أسْفل ، رَغْم أنَّه دُمِّرَ أكثر من

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٣١.

[2] الكندي : الولاة والقضاة ٤٩؛ ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٥؛ ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ٣؛ القلقشندي : صبح ٣: ٣٣١.

[3] المقريزي : المواعظ ٢: ٤٠ـ ٥٦.

مَرَّة ، فإنَّه أُعِيدَ بناؤُه ولم يَفْقِد أبَدًا أهَمِّيَّتَه كمركزٍ تجاريّ وحِرَفِيّ وإدَارِيّ ، وظَلَّ كذلك حتَّى نهاية العَصْرِ المملوكيّ حيث كان يُمَثِّلُ المَدِينَة الثَّانية في الإقليم ، بعد القَاهِرَة ، بسَبَب قُرْبِه من شَاطئ النِّيل ، وكان هو القِسْمُ الذي رَكَّزَ على ذكره بوُضُوحٍ مؤرِّخُون مثل ابن سَعِيد وابن دُقْماق والمقريزيّ . ولكن لأنَّ هذا القِطَاع من المَدِينَة كان دائمًا عامِرًا بالسُّكنىٰ حتى العَصْرِ الحَدِيث فإنَّ أغْلَبَ شَوَاهِد الماضِي التي وُجِدَت به دَثَرَت آثارُها [١] .

وعلى العَكْسِ من ذلك فإنَّ القِسْمَ الشَّرْقيّ للفُسْطَاط ، أو عَمَل فَوْق ، كما تُثْبِتُ المَصَادِرُ التَّاريخية والحَفَائِرُ الأثَرِيَّة ، قد دُمِّرَ تَمَامًا ولم تُعَاوِد سُكْنَاهُ منذ النِّصْفِ الثَّاني للقَرْنِ الخَامِس الهِجْريّ/ الحادِي عَشْر الميلاديّ بسَبَبِ الأوْبِئَة والمجاعات والاضْطِرَابات التي اجْتاحَت مصر كلَّها في هذا العَصْر ، والتي كانت مَحْسُوسَةً في الفُسْطاط أكثر من غيرها من المَوَاضِع ، أعْني بها الشِّدَّة العُظْمَىٰ أو الشِّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة .

لكلِّ ذلك فقد تَخَرَّبَ جَمِيعُ القِسْم الشَّرْقيّ للمَدِينَة (أو عَمَل فَوْق) ـ فيما عَدَا مَنْطِقَة القَرَافَة الكبرىٰ ـ وأعِيدَ اسْتِخْدَامُ الأنْقَاضِ المُتَخَلِّفَة عنه في بِنَاءِ أحْيَاءَ جَدِيدَة في إطار عَمَلِيَّة إعادَة البِنَاء والإعْمَار الوَاسِعَة التي أمَرَ بها أمِيرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجماليّ دَاخِل أسْوَار القاهرة ، وتابَعَها الوزيرُ المأمُونُ بن البَطائِحيّ بعد ذلك بِنِصْف قَرْنٍ ، ولكن خارج أسْوار القاهرة في الفَضَاء المَحْصُور بين بابِ زَوِيلَة شمالًا ومَشْهَدِ السَّيِّدَة نَفِيسَة جَنُوبًا .

يَتَّضِحُ ممَّا تقدَّم أنَّ المُؤَرِّخين القُدَمَاء ، وعلى الأخَصِّ في العَصْرِ المملوكيّ المتأخِّر ، لم يَعْرِفُوا خِطَطَ القِسْم الشَّرْقي للفُسْطاط خَيْرًا مِنَّا . ومن حُسْنِ الحَظِّ أنْ عَوَّضَت الحَفَائِرُ الأثَرِيَّةُ التي بدأت منذ نحو القَرْنِ فَقْرَ المَصَادِر التَّاريخية .

---

[١] W. KUBIAK, «The Circulation Traks of al-Fustat. One Aspect of the Physionomy of a mediaeval Arab City», *Africana Bulletin* XXVIII (1979), pp.11.

٢ ـ العَسْكَر

AL-'ASKAR

العَصْرُ العَبَّاسِي

فَوْرَ نَجَاحِ الثَّوْرَة العَبَّاسِيَّة، في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، فَرَّ مَرْوَانُ بن محمَّد ـ آخِرُ الخُلَفَاء الأُمَوِيين ـ إلى مصر، ولكنَّه وَجَدَ أهْلَ الإسْكَنْدَرِيَّة والوَجْهِ البَحْريّ قَد صَارُوا مُسَوِّدَةً[١]، فقَرَّر أن يَعْبُر نَهْر النِّيل إلى الجِيزَة ويحاول الاخْتِفَاء في صَعِيد مصر. وفي طَرِيقه إلى الجِيزَة أشْعَلَ مَرْوَانُ النَّارَ في الفُسْطَاط وأحْرَقَ الجِسْرَ الذي كان يَصِلُها بجزيرة الرَّوْضَة وفَرَّ إلى الشَّاطئ الغَرْبِيّ للنِّيل. ولم تَكُن التَّدَابِيرُ التي اتَّخَذَها لتُعِيقَ جُيُوشَ العبَّاسيين عن مُطَارَدَتِه فسُرْعَانَ ما وَجَدُوا الوَسَائِلَ لعُبُور النَّهْر ولَحِقُوا به عند بَلْدَة بوصِير جَنُوب الجِيزَة. وكان الطَّوَافُ برأسِه في المُدُنِ دَلَالَةً على زَوَالِ عَهْدٍ وقِيَامِ عَهْدٍ جَدِيد.

من الممكن أنْ يكون الوُلَاةُ العَبَّاسِيُّون قد بَحَثُوا عن مَوْضِعٍ جَدِيدٍ لإقَامَتهم بسَبَبِ الدَّمَار الذي تعرَّضَت له الفُسْطَاطُ أثْنَاءَ مُطَارَدَة مَرْوَان بن محمد. لذلك اسْتَقَرَّت قُوَّاتُ القَائِد العَبَّاسِيّ صَالِح بن عليّ ومُعَاوِنه أبي عَوْن عبد الملك بن يزيد في الفَضَاءِ المُمْتَدّ في الشَّمَالِ الشَّرْقِيّ للفُسْطَاطِ. كان هذا الفَضَاءُ يُعْرَف في صَدْرِ الإسْلام بالحَمْرَاء القُصْوَىٰ[٢]، وهناك اتَّخَذُوا مَسَاكِنَهم وأقَامُوا دُورَهُم فتكوَّنَ من مَجْمُوعِها مَدِينَةُ «العَسْكَر» أو «المُعَسْكَر» العَاصِمَة الثَّانِيَة لمصر الإسْلامية[٣].

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣١٦.

[٢] المقريزي: المواعظ ٢: ٥٦؛ ٤: ٥٦.

[٣] يَبْدو أن اسم هذه المدينة كان في أوَّل الأمر «المُعَسْكَر» ـ وهو الأقْرَب إلى الصَّوَاب ـ ثم =

كان مَوْقِعُ العَسْكَر في الشَّمَالِ الشَّرْقِيّ للفُسْطَاط مُمْتَدَّة على شاطئ النِّيل (٥٠٠ مترًا غَرْب موقعه الآن) يحدُّها جَنُوبًا كُوم الجَارِح (مَنْطِقَة أبي السُّعُود الجَارحيّ الآن) وشَمَالًا جَبَل يَشْكُر حيث سيُقامُ فيما بعد جَامِعُ ابن طُولُون، وغَرْبًا بين شَارِع السَّدّ البَرَّاني وشَارِع الدُّيُورة، وشَرْقًا خَطٌّ وَهْميٌّ يمتدُّ من مَسْجِدِ الجَاوْلي (المُسَجَّل في الآثار برقم ٢٢١) بشَارِع عبد المجيد اللَّبَّان إلى بَابِ مَسْجِد السَّيِّدَة نَفِيسَة.

وخُطِّطَت العَسْكَرُ على مِثَال تَخْطِيط المُدُنِ الأميرية لتكون عاصِمَةً دَائِمَةً لوُلَاة العَبَّاسِيين في مصر، قَلْبُها هو دَارُ الإِمارَة، المَقَرّ الرَّسْمِيّ للحُكْم مع المَسْجِد الجَامِع والأَسْوَاق المتركِّزة حوله، ويُحيطُ بهذه «النَّوَاة التَّقْليدية» مَنازِلُ أَفْرَاد الإدَارَة العَبَّاسِية ومَنَازِلُ الجُنْد.

فقد بَنَىٰ صَالِحُ بن عليّ دَارَ الإمَارَة بحيث تَتَوَسَّط دُورَ الجُنْد، وحَدَّدَ المَقْرِيزيُّ مَوْقِعَها فيما بين جَامِع ابن طُولُون وكُوْم الجَارِح[1] (جَنُوب مجرىٰ العُيُون الحالي). وظَلَّ أُمَرَاءُ مصر ينزلون في هذه الدَّار، ورُبَّما سَكَنَ بعضُهم الفُسْطاط، حتى قَدِمَ ابنُ طُولُون، في أوَاسِط القَرْنِ الثَّالِث الهجريّ/ التَّاسِع الميلاديّ، وتَوَلَّى إمَارَة مصر، فأصبحت هذه الدَّارُ في أيَّام ابنه خُمارَوَيْه دِيوانًا للخَرَاج، ثم عَادَت مرَّةً أخرى دارًا للإمارَة بعد سُقوطِ دَوْلَة الطُّولُونيين[2].

ظَلَّ سُكَّانُ العَسْكَر يُؤدُّون صَلَواتهم في جَامِع عَمْرو بالفُسْطَاط إلى أن بَنَىٰ الفَضْلُ بن صَالِح «جَامِعَ العَسْكَر» في سنة ١٦٩هـ/٧٨٥م بجوار دَارِ الإمَارَة ومَقَرِّ الشُّرْطَة العُلْيا، وكان أحَدُ أبْوابِ دَارِ الإمَارَة يَفْتَحُ على الجَامِع ليُمَكِّن الأميرَ

= صُحِّف إلى العَسْكَر. (راجع، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤: ١٢٣؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ١٠، ٣٤؛ المقريزي: المواعظ ٢: ٥٦-٥٧، ٤: ٥٧).

[1] المقريزي: المواعظ ٤: ٥٧.

[2] البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٥٣؛ المقريزي: المواعظ ٤: ٥٧.

من إمَامَة المُصَلِّين[١]. وقد ضَاعَ أثَرُ هذا الجامِع وكُلُّ ما يَتَعَلَّق بمَدينَة العَسْكَر منذ زَمَنٍ بعيد، حتى لقد ضَنَّ علينا المؤرِّخون بكلِّ ما يتعلَّقُ بوَصْفِه ولم يتركوا لنا سوى اسْمه، كما أنَّنا لا نملكُ تاريخًا وَاضِحًا لدَوْر هذه المَدِينَة في الوَقْتِ الذي كانت فيه عاصِمَةً لمصر العَبَّاسِية.

ولم تكن العَسْكَرُ سوى حَيًّا كبيرًا للمُوَظَّفِين ورِجَالِ الإدَارَة العَبَّاسِية، تُشْبِه أنْ تكون ضَاحِيَةً كبيرةً أو امْتِدَادًا للفُسْطَاط نحو الشَّمال الشَّرْقِيّ، ولكنَّها لم تُقَلِّل إطْلاقًا من أهميَّة الفُسْطاط كمركزٍ مُهِمٍّ وحَيَوِيّ للتِّجَارَة والاقْتِصَاد والعِلْم، بل سُرْعَانَ ما اتَّصَلَت هذه المَدِينَةُ بالفُسْطَاطِ وأصْبَحَتا مَدينَةً كبيرةً.

وفي أوَائِل القَرْن الرَّابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ ـ بَعْد زوال الدَّوْلَة الطُّولُونِيَّة ـ كانت العَسْكَرُ آهِلةً بالسُّكَّانِ إلَّا أنَّ اسْمَها كان قد زَالَ وأصْبَحَت جزءًا من الفُسْطاط التي أخَذَت في النُّمُو والازْدِهار ولم يَعُد النَّاسُ يَذْكُرون سوى اسْم الفُسْطَاط والقَطَائِع، بعد أنْ كانت العَسْكَرُ مَدِينَةً ذَاتَ مَحَالٍّ وأسْوَاقٍ ودُورٍ عَظِيمَة حتى كان النَّاسُ يَقُولُون، في زَمَنِ ازْدِهَارِها: «كنَّا بالعَسْكَر، وخَرَجْنا إلى العَسْكَر، وكُتِبَ من العَسْكَر»[٢].

خِطَطُ العَسْكَر

اشْتَمَلَت هذه المَدِينَة، أو الضَّاحِيَة المُتَّسِعَة، على ثَلاثَة عَمَائِر مَشْهورَة على الأقَلّ، ضَاعَ كلُّ أثَرٍ لها منذ زَمَنٍ بعيد هي: دَارُ الإمَارَة، والشُّرْطَةُ العُلْيَا، وجَامِعُ العَسْكَر. كانت تَقَعُ جَمِيعُها في وَسَطِ المَدِينَة.

كانت «دَارُ الإمَارَة» تَقَعُ في وَسَطِ دُور الجُنْدِ ولها بابان، أحَدُهُما بالحارَة المعروفة بحَوْضِ أبي قَدِيرَة والذي عُرِفَ فيما بعد ببَابِ الخاصَّة، والآخَر مُلاصِقٌ

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٥.
[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٥٦.

للشُّرْطَة العُلْيَا . واسْتُخْدِمَت هذه الدَّارُ في أيَّام هَارُون بن خُمَارَوَيْه بن أحمد بن طُولُون دِيوَانًا للخَرَاج .

وكان إلى جِوَارِ دَارِ الإمَارَة « دَارُ الشُّرْطَة » التي عُرِفَت بالشُّرْطَة العُلْيَا تَمْييزًا لها عن الشُّرْطَة السُّفْلَىٰ المَوْجُودَة بالفُسْطَاط .

أمَّا «جَامِعُ العَسْكَر» فقد بَنَاهُ الوالي الفَضْلُ بن صَالِح سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م بجوار دَارِ الإمَارَة ، بما أنَّ المَقْرِيزيَّ يَذْكُر أنَّه كان لهذه الدَّار بَابٌ يَفْتَحُ على الجَامِع . وزَادَ عبدُ الله بن طاهِر في عِمَارَة هذا الجَامِع في رَبِيع الأوَّل سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م . وكان سُكَّانُ العَسْكَر وسُكَّانُ الأحْيَاء الشَّماليَّة للفُسْطاط يُصَلُّون فيه الجُمُعَة قَبْلَ بِنَاء أحمد بن طُولُون لجَامِعِه المَعْرُوف بالقَطَائِع في سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م. واسْتَمَرَّ وُجُودُ هذا الجَامِع إلى نَحْو نِهَايَة العَصْر الفاطِمِيّ وإنْ تَغَيَّر اسْمُه إلى « جَامِع سَاحِل الغَلَّة » حيث يَذْكُر ابنُ المأمُون ، في حَوَادِث سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ، أنَّه كان من بين المَسَاجِد التي كان يُطْلَقُ لها جُمْلَةٌ كثيرةٌ من الزَّيْت في لَيالي الوَقُود الأرْبَعَة [١] .

٣ ـ القَطَــائِعُ

AL-QATÂ'I'

بِدَايَةُ الاسْتِقْلال

في الوَقْتِ الذي تَمَّ فيه التَّعايُشُ بين الفُسْطاط والعَسْكَر بدأ انْحِلالُ الخِلافَة العَبَّاسية واسْتِقلالُ الوُلاة بأطْرافِها البَعيدَة . فقد زَادَ عُنَصُرُ التُّرْك في الدَّوْلَة العَبَّاسِية وقَوِيَ أمْرُهُم حتى شَغَلَوا مَنَاصِبَ الدَّوْلَة الكبرىٰ ومنها وِلايات الأقاليم ، في

---

[١] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٩.

الوَقْتِ الذي طَبَّقَ فيه المُوَفَّقُ طَلْحَة ـ أخو الخَلِيفَة المُعْتَمِد ـ نِظامَ الإِقْطَاع الإِدَارِيّ العَسْكَرِيّ[١] فمَنَحَهُم بذلك سُلْطَةً كاملةً على الشُّؤُون الضَّرائبية لهذه الوِلايات مُقَابِلَ دَفْعِ مَبْلَغٍ مُتَّفَقٍ عليه من دَخْلِ هذه الوِلايات إلى الخَزِينَة المركزية . واتُّبِعَت هذه الطَّرِيقَةُ في مَنَاطِق كانت الحكومَةُ بحَاجَةٍ ماسَّةٍ إلى تَوْطِيد سُلْطانِها فيها بصُورَةٍ أشَدّ حَزْمًا[٢] . وفَضَّلَ بعضُ الوُلاة البَقَاءَ في بَغْداد وأنْ يَعْهَدوا إلى من يَثِقُون به بتقَلُّد الوِلايَةِ نِيابَةً عنهم ويحمل إليهم إيرادَ هذه الإقْطاعات الغَنِيَّة دون أنْ يكَلِّفُوا أنْفُسَهم عَنَاءَ الاشْتِغال بأمُور الحُكْم . هكذا أرْسَلَ باكْبَاكُ التُّرْكي ، صَاحِب إقْطاع مصر ، في سنة ٢٥٤هـ/٨٦٨م ، زَوْجَ ابنته أحمد بن طُولُون ليَحْكُمَ مصر نِيابَةً عنه[٣].

وَصَلَ أحمدُ بن طُولُون ، الذي نَشَأ في سَامَرَّا (سُرَّ مَنْ رَأى) ، إلى مصر والِيًا عليها ونَزَلَ في دَارِ الإمارَة بالعَسْكَر، وكان في ذلك الوَقْتِ شَابًا طَمُوحًا لم يتجاوَز الثَّالثة والثَّلاثين من عمره فعمل على اسْتِغلال تَفَكُّكِ الخِلافَة العَبَّاسِية وثَوَرَات الأقاليم الشَّرْقية وبِدايَة حَرَكَة الزَّنْج ليُعْلِن اسْتِقلالَه بمصر بعد أن تَخَلَّص من مُنافَسَة أحمد بن المُدَبِّر مُتَوَلِّي خَراجِها[٤].

لم تَزِد طُمُوحاتُ أحمد بن طُولُون على تأسيس أسْرَةٍ حاكمةٍ مستقلَّةٍ في مصر ، ولم تكن لَدَيْه أهْدَافٌ اسْتراتيجيةٌ كتلك التي أسَّس من أجْلها الفَاطِمِيُّون

---

[١] راجع حَوْلَ نظام الإقْطَاع الإداري مقال كاهن المهم CL. CAHEN, «L'évolution de l'iqtâ' du IX° au XIII° siècle, contribution à une histoire comparée des sociétés médiévales», *Annales ESC* VIII (1953), pp. 25-52.

[٢] M. A. SHABAN, *Islamic History A. D. 750-1055 (A.H. 132-448). A New Interpretation*, Cambridge 1976, p.109.

[٣] الطبري : تاريخ ٩: ٣٨١؛ البلوي : سيرة أحمد بن طولون ٤٢؛ المقريزي : المواعظ ٢: ٨١.

[٤] المقريزي : المواعظ ٢: ٩٧.

القَاهِرَة بعد قَرْنٍ من الزَّمَان، ولكنَّه كان مُؤَسِّسَ أوَّلِ دَوْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ في مِصْر الإسْلامية وإنْ دَانَت بالوَلَاء للخِلافَة العَبَّاسِية هي «الدَّوْلَة الطُّولُونية»[١].

لم تكن دارُ إمارَة العَسْكر لتُرْضي طُمُوحَات ابن طُولُون، فأَخَذَ يَبْحَث عن مَوْقِعٍ يَصْلُحُ لِبنَاءِ مَقَرِّ حُكْمٍ جَدِيدٍ، فوَقَعَ اخْتِيارُه على مَنْطِقَةٍ منعزلةٍ تَقَعُ شَمَال شَرْقِيّ العَسْكَر في سَفْحِ جَبَلِ المُقَطَّم تحت الشَّرَفِ الذي بُنِيَت عليه فيما بعد قَلْعَةُ الجَبَل.

وفي الفَضَاءِ الممتدِّ بين جَبَلِ يَشْكُر جَنُوبًا وسَفْحِ المُقَطَّم شَرْقًا ـ حيث مَوْقِع القَلْعَة الآن ـ وبين الرُّمَيْلَة تحت القَلْعَة ـ حيث جَامِع السُّلْطان حَسَن ـ وبين مَسْجِد زَيْنِ العَابِدِين في منطقة تِلالِ زِينْهُم، وهي مِسَاحَةٌ تَبْلُغ نحو الميل المُرَبَّع، اخْتَطَّ ابنُ طُولُون قَصْرًا كبيرًا في حِمايَة الجَبَل، بعد أن أزالَ قُبورَ اليَهُود والنَّصَارَىٰ المُنْتَشِرَة في هذا الفَضَاء، وجَعَلَ من السَّهْلِ الممتدّ بين القَصْرِ وجَبَل يَشْكُر مَيْدانًا كبيرًا يَضْرِب فيه بالصَّوالِجَة، ويَسْتَعْرِضُ فيه جُنودَه، وجَعَلَ للمَيْدَانِ تِسْعَة أبْوَاب وأطْلَق على كلِّ بابٍ منها اسْم[٢].

---

[١] حَكَمت الدَّوْلَةُ الطُّولُونيةُ بين سنتي ٢٥٤ـ٢٩٤هـ/٨٦٨ـ٩٠٥م راجع عنها البلوي: سيرة أحمد بن طولون، دمشق ١٣٥٨هـ؛ ابن سعيد: المغرب (قسم الفسطاط) ٧٣ـ١٤٦؛ Z. M. HASSAN, *Les Tulunides, étude de l'Égypte musulmane à la fin du IX^e siècle 868-905*, Paris 1933; ID., *EI*[2] art. *Ahmad b. Tûlûn* I, pp. 287-88; M.S. GORDON, *EI*[2] art. *Tûlûnides* X, pp.662-65; TH. BIANQUIS, «Autonomous Egypt from Ibn Tûlûn to Kâfûr 868-969», *The Cambridge History of Egypt*, pp. 86-119؛ سيدة إسماعيل كاشف وحسن أحمد محمود: مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين؛ القاهرة ١٩٦٠؛ حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني، القاهرة د.ت.

[٢] البلوي: سيرة أحمد بن طولون ٥٤ـ٥٥؛ ابن سعيد: المغرب (القاهرة) ٢١ـ٢٢؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ١٢١؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣٣١ـ٣٣٢؛ المقريزي: المواعظ ٢: ٨٠، ٨٦، ٣: ٦٢٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٣: ١٤، ١٦.

خِطَطُ القَطَـائِع

لمَّا أَتمَّ ابنُ طُولُون بِنَاءَ قَصْرِه أَبَاحَ لِعَساكِره أَنْ يخْتَطُّوا حَوْلَ القَصْر والمَيْدَان ، وأَفْرَدَ لكلِّ طائِفَةٍ من العَسْكَر « قَطيعَةً » سُمِّيتَ كلُّ وَاحِدَةٍ باسْم الأمير الذي نَزَلَ فيها أو باسْم الطَّائِفَةِ التي سَكَنَتْها واتَّصَلَ بناؤها بعِمَارة الفُسْطَاط وسُمِّيَت أسْوَاقُها حيث وُجِدَ بها : سُوقُ العَيَّارين الذي جَمَعَ العَطَّارين والبَزَّازين ، وسُوقُ الفامِيين الذي جَمَعَ الجَزَّارين والبَقَّالين والشَّوَّائين ، وسُوقُ الطَّبَّاخِين الذي جَمَعَ الصَّيَارِف والخَبَّازين والحَلْوانِيين [١] . وتَكَوَّن من مجموعها مَدِينَةُ « القَطَـائِع » التي جَاءَ اسْمُها لِيَعْكِس نِظَامَ الإقْطَاعِ الذي سَادَ في هذا العَصْر . يقولُ المقريزيّ : «القَطَائِعُ عِدَّةُ قِطَعٍ تَسْكُنُ فيها عَبِيدُ ابن طُولُون وعَساكِرُهُ وغِلْمانُه ... وكانت كلُّ قَطِيعَةٍ لسُكْنَى جَمَاعَةٍ بمَنْزِلَةِ الحارَات التي بالقَاهِرَة» [٢] .

أَصْبَحَت القَطَائِعُ ثالِثَة عَواصِم مصر الإسْلامية ، وأوَّل عاصِمَةٍ يُرَاعىٰ في تَخْطيطها اتِّباعِ القَواعِد الفَنِّيَّة في إنْشَاء المُدُن ، خاصَّةً تلك التي اتُّبِعَت عند تأسِيس مَدِينَة سَامَرَّاء (سُرّ مَنْ رَأى) في العراق التي نَشَأ فيها ابنُ طُولُون ، فجاءَت القَطائِعُ كبيرة الشَّبَه بها [٣] .

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢: ٨٥، ٨٧.

[٢] المقريزي : المواعظ ٢: ٨٠.

[٣] راجع ، CORBETT, «The Life and Works of Ahmad ibn Tulun» *JRAS* (1891), pp.527-62; G. SALOMON, Études sur la topographie du Caire: La Kal‘at al-Kabch et la Birkat al-Fîl, Le Caire-IFAO 1902.

القَناطِرُ

كان مَوْقِعُ القَطَائع على تَلّ جَبَل يَشْكُر يَضْمَن لها حَصَانَةً طَبِيعِيَّةً كما يَجْعَلها في مأمَنٍ من فَيَضَان النِّيل، غير أنَّ انْحِرافها إلى الشَّمال الشَّرْقِيّ جَعَلَها تَبْعُد عن مَجْرىٰ النِّيل بنحو أرْبَعَة كيلومترات وكانت في الوَقْتِ نفسه تُشْرِفُ على بِرْكة الفِيل، ممَّا جَعَلَ أمْرَ تَدْبِير نَقْلِ المِيَاه العَذْبَة إليها ضَرورَةً مُلِحّة. والوَاقِعُ أنَّ القَصْرَ والمَيْدَان هما اللَّذان كانا بحاجَةٍ إلى تَوْفير المياه فارْتِفَاعُ مَنْسُوب مَوْقِعهما جَعَلَ من الصُّعَوبَة الحَصُول على المِيَاه الجَوْفية من الآبَار وعَدَمِ اسْتِساغَة طَعْمها، بينما كان مَنْسُوبُ الأرْض حَوْلَ جامِع ابن طُولُون ينخفض بكثيرٍ عن مَنْسُوبِ المَيْدَان والقَصْر ولا يَعْلُو إلَّا قليلًا عن شاطئ الخَلِيج ممَّا كان يَسْمَحُ



أطْلال قَنَاطِر ابن طُولُون

بحَفْرِ الآبار بسُهُولَة نسبية[١]. وقد أمْكَنَ حَلّ هذه المشكلة عن طَرِيق بِنَاءِ قَنَاطِر تَحْمل الماءَ إلى القَصْر والمَيْدان من بِرْكَة الحَبَش جَنُوبي الفُسْطاط عَبْرَ الصَّحْرَاء الممتدَّة في سَفْحِ المُقَطَّم. وقد بَلَغَ مجموعُ ما أُنْفِقَ على بِنَاءِ هذه القَناطر ١٤٠,٠٠٠ دينار[٢].

البِيمَارِسْتَان

ولمَّا وَجَدَ ابن طُولُون أنَّ تَجَمُّعًا سُكَّانِيًّا كبيرًا كالفُسْطاط وضاحيته العَسْكَر لا يَحْوي مُؤَسَّسَةً علاجيةً واحدة، فَكَّرَ في بناء بيمارِسْتَان، هو الأوَّل من نَوْعه في مصر الإسْلامية، وشَرَعَ في بنائِه في الفترة ما بين سنتي ٢٥٩ و ٢٦١هـ/ ٨٧٣ و ٨٧٥م، وبَلَغَت تكلفةُ بنائه وتجهيزه ستين ألف دينار. وخَصَّص ابنُ طُولُون هذا البِيمارِسْتانِ لعلاج أفراد الشَّعْب، فأقامه لذلك في مَوْضِع العَسْكَر بالقُرْبِ من بِرْكَة قارُون (خُطّ البَغَّالَة الآن بقسم السَّيِّدَة زَيْنَب)، ووَقَفَ عليه أوْقافًا كثيرةً مثل دَخْل دُورِه التي في الأساكِفَة والقَيْسارية وسُوق الرَّقيق، وشَرَطَ أنْ لا يُعَالَجُ فيه جُنْديٌّ ولا مَمْلُوك، ووَفَّرَ به خِزانَةً للشَّراب وأخرىٰ للأدْوِيَة، وعَيَّنَ له طَبِيان يَجْلِسَان على بَابِه في كلِّ يوم جُمُعَة لمُعَالَجَة الضُّعَفَاء والفُقَرَاء، ولعلّ عَمَلَ ابنُ طُولُون هذا هو البدايات الأُولىٰ لِنظام الوَقْفِ في مصر الإسْلامية[٣].

---

[١] فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية ١: ٥٠٥-٥٠٧، ٥١٠.

[٢] راجع عن هذه القناطر، زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر ٦٤-٦٦؛ Z. M. HASSAN, *Les Tûlûnides* pp.295-97؛ فريد شافعي: العمارة العربية ١: ٥٠١-٥١٠؛ K.A.C. CRESWELL, *EMA* II, pp.329-32.

[٣] راجع البلوي: سيرة ٣٥٠؛ الكندي: الولاة والقضاة ٢١٦؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ٩٩؛ القلقشندي: صبح ٣: ٣٤٣؛ المقريزي: المواعظ ٢: ٥٦-٥٧، ٢: ٦٩١-٦٩٢؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٣: ١٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١: ١٦٤؛ أحمد عيسىٰ: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ٦٧-٧٣.

وللأسَف فإنَّنا لا نَعْلَمُ الكثير عن تخطيط هذا البيمَارِسْتان ، الذي أُهْمِلَ وضَاعَ أثَرُهُ مع الخَرَاب الذي عَمَّ بالعَسْكَر والفُسْطَاط في القَرْن الخَامِس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ ، ثم أصْبَحَ مَوْضِعُه كيمانًا تُلْقَى بها المُخَلَّفاتُ في القَرْن التَّاسِع الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ.

الجَامِعُ

على أنَّ الأَثَرَ الذي خَلَّدَ اسْمَ ابن طُولُون حَقًّا هو جَامِعُه الذي بَقِيَ وَحْدَه من مَدينَة القَطَائِع بعد أن خَرَّبَها جُنُودُ العَبَّاسيين وفَعَلَ فيها الإهْمالُ فِعْلَه. فعلى قِمَّة جَبَلِ يَشْكُر في وَسَطِ القَطَائِع بدأ أحمدُ بن طُولُون ـ سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٧م ـ في وَضْعِ أسَاسِ جَامِعٍ كبيرٍ بَلَغَ جُمْلَة ما أنْفَقَهُ عليه ما يَرْبو على ١٢٠ ألف دينار ، وكان من الممكن أنْ تتجاوز نَفَقَاتُ البِنَاء هذا القَدْر بكثيرٍ لو لم يُبْنَ الجامِعُ على الصَّخْر ، نظرًا لما كان يجب أنْ تكون عليه أُسُسُه وخُصُوصًا أسَاسُ مِئْذَنَته الضَّخْمَة. واسْتَغْرَقَ بناؤه نحو سنتين وافْتُتِحَ للصَّلاة في رَمَضَان سنة ٢٦٥هـ/ ٨٨٠م[١].

---

[١] يَدُلُّ على ذلك النَّصُّ التَّذْكاريّ لإنْشَاء الجامِع الموجُودُ الآن على أحد دِعاماتِه تجاه القِبْلَة ونَصُّه : « بِسْم الله الرَّحمن الرَّحيم ـ الآيات ١٨ سورة التوبة و ١٠٦ سورة آل عمران و ٢٩٥ سورة الفَتْح و ٢٥٦ سورة البقرة ـ أمَرَ الأميرُ أبو العبَّاس أحمد بن طُولُون مولىٰ أمير المؤمنين أدَاَ الله له العِزّ والكرامَة والنِّعْمَة التَّامَّة في الآخرة والأولىٰ ، ببناء هذا المَسْجِد المبارك الميمون من خالِص ما أفَاءَ الله عليه وطَيِّبه لجماعة المسلمين ابتِغاءَ رِضْوَان الله والدَّار الآخِرَة وإيثارًا[١] لما فيه تسنية الدِّين وأُلْفَة المؤمنين ورَغْبَةً في عِمَارَة بُيُوت الله وأدَاء فَرْضِه وتِلاوَة كِتابِه ومُدَاوَمَة ذكره إذْ يقول الله تَقَدَّسَ وتعالىٰ ـ الآيات ٣٦ـ٣٨ سورة النُّور ـ في شهر رَمَضَان من سنة خَمْسٍ وستين ومائتين ـ الآيات ١٨٠ـ١٨٣ سورة الصَّافات ـ اللَّهم صَلِّ على محمَّد وعلى آلِ محمد وارْحَم محمَّدًا وآلِ محمَّد وبَارِك على محمَّد وعلى آلِ محمَّد كأفْضَلِ ما صَلَّيْت وتَرَحَّمْت وبارَكت على إبراهيم ... وعلى آلِ إبراهيم وأنْعِم إنَّك حميدٌ مَجيد ».

كان أوَّل مَنْ نَشَرَ هذه الكتابة ج. مارسيل

وهذا الجَامِعُ أَقْدَمُ آثارِ مصر الإسلامية المُحْتَفِظَة بتَفَاصِيلها المِعْمَارية وهَيْكَلها الأَصْلي رغم ما تَعَرَّض له من إهْمال ، ويُعَدُّ نُقْطَة تَحَوُّلٍ مُهِمَّة في تاريخ العِمارَة الإسْلامية ، فقد بُني من مَوَادّ جديدة تمامًا وليس من أسْلاَبِ الكنائس والمعابِد القديمة ، حيث اسْتُخْدم في بِناءِ عُقُودِه ودَعَائمه الآجُرّ بَدَلًا من اسْتِخْدام الرُّخام من أجْل أن يقاوم الحَرِيق، وبالفِعْل فقد قَاوَمَ هذا الجَامِعُ النِّيرَانَ التي دَمَّرَت سَائِرَ مباني القَطَائِع على أَيْدي الجُنُود العَبَّاسِيين في سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م . وعندما خَرِبَت القَطَائِعُ تمامًا في سَنَوات الغَلاء والقَحْط أيَّام المُسْتَنْصِر بالله الفاطِمِيّ في أوَاسِط القَرْن الخَامِس الهجريّ/ الحادي عَشْر الميلاديّ ، هَجَرَ السكَّانُ هذه الأماكِن وصَارَ ما حَوْلَ الجامِع خَرَابًا وتَشَعَّثَ الجامعُ مع مُرُورِ الأيَّام حتى جَعَلَه صَلاحُ الدِّين ، في نِهَايَة القَرْن السَّادِس الهجريّ/ الثَّاني عَشْر الميلاديّ ، مأوىً ينزل به المغارِبَةُ ويُقيمون فيه بمتاعهم عندما يمرُّون بمصر في طريقهم إلى الحَجّ ، ثم جُعِلَ شُونَةً للغِلَال في زَمَنِ السُّلْطانِ الظَّاهِر بَيبَرْس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٣م) إلى أنْ عَمَّرَهُ وجَدَّدَهُ السُّلْطانُ المملوكيّ حُسَامُ الدِّين لاجِين ، سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م ، وأقامَ فيه الشَّعائِر الدِّينية ، وقد شاهَدَ الرَّحَّالَةُ المغربيُّ القاسِمُ بن يُوسُف التُّجِيبي ، المتوفَّى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م ، الأعْمالَ التي قَامَ بها السُّلْطانُ المَنْصُورُ لاجِين في الجامِع ، وأشارَ إليها في «رِحْلَتِه» ، من أهَمِّها إعَادَةُ بِنَاء مِئْذَنَته ، وبِنَاءُ القُبَّة المَوْجُودة في صَحْنِ الجامِع وتَجْدِيدُ مِنْبر خَشَبيّ للجامِع[1] تُوجَد بقاياهُ الآن بمتحف فيكتوريا وألْبِرْت بلندن . إلَّا أنَّ الخَرَابَ عَادَ مَرَّةً أخرى إلى الجامِع فجُعِلَ

=في كتاب «وَصْفَ مصر» J. J. MARCEL, «Inscriptions, monnaies et médailles», *Description de l'Égypte*, État moderne, planches t. II (Paris 1817), Plan f et g MAX VAN BERCHEM, *CIA* Égypte I, n° 10; وانظر كذلك G. WIET, *CIA* Égypte II, pp. 73-81; ID, *RCEA* II, n° 682؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ١ : ٤٠-٤١.

[1] التجيبي : مستفاد الرحلة والاغتراب ٧.

مَصْنَعًا لعَمَل الأحْرِمَة الصُّوفِيَّة في العَصْر العُثْماني، وحُوِّلَ في سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٦م إلى مَلْجأ للعَجَزَة، وظَلَّ كذلك حتَّى تألَّفت لجَنْةُ حِفْظِ الآثار العربية سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م فقامَت بتَرْميمه وإصْلاحِه إصْلاحًا كاملًا وأعادَت إليه سَابِقَ رَوْنَقه وأزالت الأبْنِيَة المحيطَة به وعلى الأخَصّ من الجهة البَحْرِيَّة. ونَظَرًا لصُعُوبَة صِيانَة الجامِع لاتِّسَاع مساحته (١٧٢٤٤ مترًا مُرَبَّعًا) فقد عادَ إليه الإهْمالُ مَرَّةً ثانيةً إلى أنْ تَوَلَّى المجلسُ الأعلى للآثار مَشْرُوعًا متكاملًا لتَرْميمه وإصْلاحِه أتَمَّه في سنة ٢٠٠٧م.

وتُحيطُ بالجامِع من خارِجِه ـ ما عَدَا جِهَة القِبْلَة ـ ثَلاثَةُ أرْوِقَةٍ خارجية مَكْشُوفَة على شَكْلِ طريقٍ حَوْلَ الجامِع تُعْرَف بـ «الزِّيادَات» مجموعُ مساحتها ٩٠٣٧ مترًا مربَّعًا فتكون المِسَاحَةُ الإجماليةُ للجامِع مع الزِّيادات الخارجية ٢٦٢٨١ مترًا مربعًا تُعادل ستَّة أفْدِنة ورُبْع فَدَّان، فيُعَدُّ بذلك مع جَامِع الحاكِم بأمْر الله الواقِع داخل بابِ الفُتُوح وجَامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس الواقع في مَيْدان الظَّاهِر خارج سُور القاهرة الشَّماليّ أكبر المَسَاجِد الجامِعَة في مصر مِسَاحَةً[١].

---

[١] راجع عن تاريخ الجامع ووَصْفه وتخطيطه، البلوي: سيرة أحمد بن طولون ١٨٢ـ١٨٣؛ ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٧٦ـ ٨٥؛ ابن دقماق: الانتصار ٤:١٢٢ـ١٢٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٣٤٠ـ٣٤١؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣:٥٩ـ٨٠ والسلوك ٢: ٨٢٧؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٣٢٦، ٣: ٨، ٨:١٠٦ـ١٠٧ وتعليقات محمد رمزي عليها؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٤:٤٥ـ٤٨؛ G. SALMON, *Études sur la topographie du Caire* pp.12-27; Z. M. HASSAN, *Les Tulunides* pp.298-338؛ محمود عكوش: تاريخ ووصف الجامع الطولوني، القاهرة ١٩٢٧؛ زكي محمد حسن: الفن الإسلامي في مصر ٣٧ـ ٤٧؛ L. HAUTCOEUR, *Les mosquées du Caire* I, pp.208-16; G. WIET, *CIA Égypte* II, pp.73-90; E. PAUTY, *La mosquée d'Ibn Toulun et ses alentours.* K. A. C. C CRESWELL, *EMA* II, pp.332-56؛ عبد العزيز مرزوق: مساجد مصر قبل عصر المماليك ٢٧ـ ٥٢؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١:٣٢ـ٤٦؛ A. FATTAL, *La mosquée d'Ibn Tulun au Caire*, Beyrout 1960؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها

وعُرِفَ جَامِعُ ابن طُولُون في القَرْنِ الرَّابع الهجريّ/ العاشِر الميلاديّ بـ « الجَامِع الفَوْقَاني » تَمْيِيزًا له عن « الجَامِع السُّفْلاني » ، أي جَامِع عَمْرو بن العاص في الفُسْطَاط [١].

نِهَايَةُ الطُّولُونِيين

وطَوال حُكْم الطُّولُونيين (٢٥٤-٢٩٢هـ/ ٨٦٨-٩٠٤م) كانت القَطَائِعُ مَدينةً كبيرةً عامِرَةً بالحَمّامات والأفْران والطَّوَاحين، كثيرة الأسْوَاق العامِرَة بمختلف أنْواعِ المتاجِر وسُمِّيَت أسْواقُها، واتَّصَلَت مَبانيها بمباني العَسْكَر حتى هَجَرَ النَّاسُ اسْمَ العَسْكَر وصَارَ يُقَالُ: « مَدينَةُ الفُسْطاط والقَطَائِع » [٢].

وفي سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م وَصَلَت جُيُوشُ العبَّاسيين إلى مصر يقودُها محمد بن سليمان الكاتِب لتَضَع نِهَايَةً لدَوْلَة الطُّولُونيين الذين استقلُّوا بحكم مصر نحو ٣٧ عامًا، فهَدَمُوا قَصْرَ ابن طُولُون وقَلَعُوا أسَاسَه حتى لم يَبْق له أثَرٌ ألْبَتَّة، ثم أشْعَلُوا النَّارَ في القَطَائِع، ونَهَبُوا الفُسْطاط وارْتَكَبوا مع أهْل مصر كلَّ قَبيح [٣].

ورغم نَشْأة ابن طُولُون في سامَرَّا (سُرّ مَنْ رَأى) وتأثُّره الكبير بها لم يَتَّضح هذا التأثير إلَّا في بِنَاءِ الجَامِع ومِئْذَنَتِه، أمَّا تَخْطيطُ القَطَائِع نفسه فلم يتأثَّر بتَخْطيط مَدِينَة سَامَرَّا، فقد خَضَعَت سَامَرَّا - كما يتَّضح من نَتَائِج الحَفَائِر التي تمَّت بها - لنُظُمٍ هَنْدَسِيَّة وتَصْمِيمات مَدْرُوسَة، بينما سَارَت القَطَائِعُ على نفس النِّظَام المُتَعَرِّج

=(المدخل) ١٠١-١٣٦؛ فريد شافعي: العمارة العربية في مصر ٤٦٣-٤٩٥؛ TAREK SWELIM, *The Mosque of Ibn Tûlûn*, PH. D. Harvard University 1994.

[١] المقدسي: أحسن التقاسيم ١٩٩.

[٢] المقريزي: المواعظ ٢: ٥٧؛ ٤: ٥٨.

[٣] المقريزي: المواعظ ٢: ١٠٣-١٠٤، والمقفى الكبير ٥: ٧٠٢-٧٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٣: ١٣٧-١٣٨.

على غير هُدًى الذي سَارَ عليه من قَبْل تَخْطيطُ كلٍّ من الفُسْطاط والعَسْكَر بأزِقَّتها ودُرُوبها. ولعلَّ الشيءَ الوَحِيد الذي شَابَهَت فيه القَطائِعُ مَدينَة سَامَرَّا، بالإضافَة إلى تَخْطِيط الجَامِع وطِرَاز المِئْذَنَة، هو اتِّفاقهما في وُجودِ شَارِع رَئيسٍ يَخْتَرِقُ المَدِينَة يَصِلُ بين قَصْر ابن طُولُون وجَامِعه سُمِّي بالشَّارع الأعْظَم، تَشْبِيهًا له بالشَّارِع الأعْظَم الذي كان يَخْتَرِق سَامَرَّا (سُرَّ مَنْ رَأى) ويمتدُّ عِدَّة كيلومترات إلى قَصْر بَلْكُورا وجَامِع أبي دُلَف في شَمَال سَامَرَّا (سُرَّ مَنْ رأى)، وهذا الشَّارِعُ هو على الأرْجَحُ شَارِعُ الصَّلِيبَة الحالي.

وبِبِنَاء القَطَائِع أصْبَحَت العَاصِمَةُ المصريةُ تمتدُّ على هَيْئَة شَرِيطٍ من الأرْضِ يَضُمّ المُدُنَ الثَّلاثَة: الفُسْطَاط والعَسْكَر والقَطَائعُ مُتداخِلَةً في بَعْضِها.

*

* *

لم يَكْشِف قِيَامُ الدَّوْلَة الطُّولُونِيَّة في مصر عن تَغَيُّر سياسيّ في وَضْعِ مصر كوِلايَة، وإنَّما كذلك الانْتِقَال من طاعَةٍ مُباشِرَة للخِلافَة العبَّاسِيَّة إلى مُجَرَّدِ تَبَعِيَّةٍ للسِّيادَة الاسْمِيَّة للخِلافَة. وصَحِبَ هذا التَّعْديل في وَضْع مصر تَجْديدٌ في الأسْلُوب المعماريّ وفي الفُنُونِ الإسْلامية يَعْكِسُ التَّحَوُّلَ الذي طَرأ على العِمَارَةِ والفُنُونِ في العِرَاق في أعْقَابِ تأسِيس سَامَرَّا (سُرّ مَنْ رَأى).

فلم يَصِل إلينا تَقْرِيبًا أيُّ أثَرٍ مُتَمَيِّزٍ في الفُنُونِ والعِمَارَة من عَصْرٍ ما قَبْل الطُّولُونيين، فيما عَدَا جَامِعُ عَمْرو بالفُسْطَاط ـ الذي لا يُمَثِّلُ أيَّ أهَمِيَّةٍ أثَرِيَّةٍ سوى أنَّه شَاهِدٌ تاريخيٌّ على مَوْقِع الجَامِع ـ ومِقْيَاسُ النِّيل الذي أُعِيدَ بِنَاؤه في سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م. أمَّا التَّاريخُ الحقيقيّ للعِمَارَة الإسْلامية في الفُسْطَاط فلم يَبْدَأ بالفِعْل إلَّا مع الطُّولُونِيين واسْتَمَرَّ تأثِيرُهُ حتى النِّصْفِ الأوَّل من عَصْرِ الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة.

*

* *

وفي أعْقَابِ سُقُوطِ الطُّولُونِيين عَادَ أمَرَاءُ مصر العَبَّاسيين ثم الإخْشِيدِيين للنُّزُول بدَار الإمارَة بالعَسْكَر . فبَعْدَ أنْ خَرَّبَ محمَّدُ بن سليمان الكَاتِب قَصْرَ ابن طُولُون ومَيْدانَه احْتَفَظَت العَسْكَرُ ببَعْض مَسَاكِنها المبنية في العَصْر الطُّولُونيّ واسْتَمَرَّت عَامِرَةً إلى أنْ قَدِمَ الفَاطِمِيُّون إلى مصر في مُنْتَصَفِ القَرْن الرَّابع الهجريّ/ العاشِر الميلاديّ وإنْ هَجَرَ النَّاسُ اسْمَها منذ زَمَنٍ ، فأنْزَلَ الإمَامُ (الخَلِيفَة) المُعِزُّ لدين الله عَمَّه أبا عليّ في دَارِ الإمَارَة [1]، بينما جَلَسَ يَعْقُوبُ بن كِلِّس وعُسْلُوج بن الحَسَن في جَامِع ابن طُولُون للنِّدَاء على الضِّيَاع والنَّظَرِ في المَظَالِم واسْتِخْرَاجِ أمْوَالِ الخَرَاج [2].

وتَسَرَّبَ الخَرَابُ إلى مَدينتي العَسْكَر والقَطَائِع بعد بِنَاءِ الفَاطِمِيين مَدِينَة القَاهِرَة ، فابنُ حَوْقَل ـ الذي زَارَ مصر نحو سنة ٣٧٠هـ/٩٨٠م ـ يقول : « وكان خَارِجَ مصر أبْنِيَةٌ بَنَاهَا أحمدُ بن طُولُون مِسَاحَتها ميلٌ في مثله يَسْكُنها جُنْدُهُ تُعْرَفُ بالقَطَائِع كبِنَاء بني الأغْلَب خَارِج القَيْرَوَان لرَقَّادَة وقد خَرِبَا جَمِيعًا في وَقْتِنَا هذا » [3]. كما أنَّ الرَّحَّالَة الفَارِسِيّ ناصِر خُسْرُو ـ الذي زَارَ مصر بعد ذلك بسَبْعِين عامًا ـ لا يَعْرِفُ أيَّ شيءٍ عن القَطَائِع أو العَسْكَر اللذين انْدَمَجَا مع الفُسْطَاط وأصْبَحَا جُزْءًا منها في وَقْتِه . على أنَّ الخَرَابَ قد عَمَّ مَوْضِع هاتين المَدِينَتَيْنْ نهائيًا في أعْقَابِ الأزْمَة الاقْتِصَادِيَّة التي اجْتَاحَت مصر في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخَامِس الهجريّ/ الحادي عَشْر الميلاديّ ، حيث هَلَكَ جَمِيعُ سُكَّانِ هذه المَنْطِقَة وهُجِرَت مَنَازِلُها ممَّا حَمَلَ الوَزِير الفَاطِمِيّ الحَسَن بن عليّ اليازوريّ على بِنَاءِ سُورٍ بطُولِ

---

[1] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٥٧، ٤ : ٥٨.

[2] نفسه ١ : ٢٢١، ٣ : ١٤-١٥.

[3] ابن حوقل : صورة الأرض ١٤٦.

الطَّريق المُوَصِّل من القَاهِرَة إلى الفُسْطَاط ليَحْجِبَ مَنْظَرَ هذه الخَرَائِب عن نَظَرِ الإمَام (الخَلِيفَة)، وتَحَوَّلَت أطْلالُها إلى مَحْجَرٍ يُزَوِّدُ النَّاسَ بمَوَادِّ البِنَاءِ التي اسْتَعَانُوا بها على إعَادَة إعْمَار ما تَهَدَّم من مَبَاني الفُسْطاط. يقولُ ابنُ سَعِيد في مُنْتَصَف القَرْن السَّابع الهجريّ: «ولم يَبْق الآن أثرٌ لمَدِينَة القَطَائِع غيْرَ جَامِع ابن طُولُون، وهو خارج القَاهرة وحَوْله المباني من غير سَوْرٍ يدُورُ عليها»[1].

٤ ـ العَوْدَةُ إلى العَسْكَر

(٢٩٢ـ٣٢٣هـ/ ٩٠٤ـ ٩٣٤م)

في أعْقَابِ سُقُوطِ الطُّولُونِيين وتَدْمِيرِ عاصِمَتِهم القَطَائِع اسْتَرَدَّت الفُسْطَاطُ مَرَّةً أخرىٰ مكانَتَها كعاصِمَةٍ لمصر. وأجْبِرَ الوُلاةُ العَبَّاسِيُّون على الإقَامَة في دَارِ الإمَارَة القَدِيمَة بالعَسْكَر. وكان في العَسْكَر في هذا الوَقْت مُنْشَآتان تحملان اسْم «دَارِ الإمَارَة»: دَارُ الإمَارَة القَدِيمَة التي حَوَّلَها خُمارَوَيْه بن أحمد بن طُولُون إلى دِيوَان الخَرَاج، ودَارُ بَدْرٍ الخَفِيفيّ غُلام ابن طُولُون التي أقَامَها بالقُرْبِ من المُصَلَّىٰ القَدِيم حيث الكُوم المُطِلّ على قَبْرِ القَاضِي بَكَّار. واستمرَّ الأمَرَاءُ ينْزلون بهذه الدَّار حتَّى قُدُوم جَوْهَر القَائِد إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م.

---

[1] ابن سعيد: المغرب (القاهرة) ٢٢.

٥ ـ العَاصِمَةُ المِصْرِيَّة في زَمَنِ الإخْشِيدِيين

(٣٢٣ ـ ٣٥٨هـ/ ٩٣٤ ـ ٩٦٩م)

كان استيلاءُ الإخْشِيدِيين على السُّلْطَة في مصر عَوْدَةً إلى النُّظَام الطُّولُونيّ. فقد أرَادَت الخِلافَةُ العبَّاسِيَّةُ أنْ تَفْرِضَ في مصر وُجُودًا لقُوَّةٍ عسكريةٍ قَوِيَّةٍ لإيقافِ المُحَاوَلات المُتَتَالِيَة للفَاطِمِيين لفَتْحِ مصر [١].

وتألَّفَت عاصِمَةُ مصر في زَمَنِ الإخْشِيديين (٣٢٣ـ٣٥٨هـ/٩٣٤ـ٩٦٨م) من الفُسْطاط والعَسْكَر وما تَبَقَّى من قَطَائِع ابن طُولُون، وكوَّنَت هذه الأحْيَاءُ الثَّلاثَةُ الكبرىٰ مجموعًا مُسْتَمِرًّا من المُنْشَآت التي نَمَت على الجَانِب الأيمن لنَهْرِ النِّيل بين النَّهْرِ وجَبَلِ المُقَطَّم. ورَغْم اسْتِمْرَار الدَّوْلَة الإخْشِيدِيَّة في الحُكْم نحو ٣٥ عامًا ـ مِثْلُها في ذلك مِثْل الدَّوْلَة الطُّولُونية ـ فإنَّها لم تُخَلِّف أيَّ أثَرٍ عُمْرانيّ بسَبَبِ الفَوْضىٰ السِّياسية والأزَمَات الاقْتِصادية، ولكننا نَعْرِفُ من خلال المَصَادِر خَبَر وُجُود خَمْس مُنْشآت تَرْجِع إلى هذا العَصْر فُقِدَت كذلك هي الأخرىٰ هي: البُسْتان الكافوري، داخل حُدُود القَاهرة الفَاطمية فيما بعد، ومَيْدَان الإخْشيد إلى الشَّمَال من البُسْتان، ودار الفيل على بِرْكَة قَارُون، والمارِسْتان الكافُوري في مصر الفُسْطاط، ومَشْهَد آل طَبَاطَبَا وهو الأثَر الوَحِيد البَاقي من هذا العَصْر والذي يقع الآن على بُعْد خمس مائة مترًا غَرْب مَشْهَد الإمام الشَّافِعي و ٢٣٠ مترًا شمال عَيْن الصِّيرَة [٢]. ويَنْسِب المَقْرِيزي إلى الوَزِير الإخْشِيدي أبو الفَضْل جَعْفَر بن

---

[١] راجع حول هذه المحاولات Y. Lev, «The Fatimids and Egypt 301-358/914-969», *Arabica* XXXV (1988), pp.187-93.

[٢] A. Fu'âd Sayyid, *La capitale de l'Égypte*, pp. 68-73.

الفَضْل بن الفُرَات بِنَاء السَّبْع سقايات التي كانت تقع غَرْب بِرْكة قارُون وبينها وبين الخَلِيج بخُطّ الحَمْرَاء وحَفِظَ لنا النَّصّ التَّأسيسي لإنْشَائها وهو :

«بِسْم الله الرحمن الرَّحيم ، لله الأمْرُ من قَبْل ومن بَعْد ، وله الشُّكْرُ وله الحَمْدُ ، ومنه المَنّ على عَبْده جَعْفَر بن الفَضْل بن جَعْفَر بن الفُرَات ، وما وَفَّقَهُ له من البِنَاء لهذه البِئْر وجَرَيانها إلى السَّبْع سِقايات التي أنْشَأها وحَبَسَها لجَمِيع المسلمين ، وحَبَسَهُ وسَبَّلَهُ وَقْفًا مُؤَبَّدًا لا يَحِلّ تَغْيِيره ولا العُدُول بشيءٍ من مائِه ، ولا يُنْقَل ولا يَبْطُل ولا يُسَاقُ إلّا إلى حَيْثُ مَجْراه إلى السِّقايات المُسَبَّلَة ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . وذلك في سَنَة خَمْسٍ وخمسين وثلاث مائة ، وصَلَّى الله على نَبِيّه محمَّد وآلِه وسَلَّم» [١].

وتُعَدُّ هذه الكِتَابَةُ التَّاريخيةُ أقْدَمَ حُجَّة وَقْفٍ في مصر وَصَلَت إلينا . وقد كُشِفَ عن قِطْعَةٍ من الحَجَر الرَّمْلي الوَرْدِي اللَّوْن تحمل خمسة أسْطُر من الكتابة الكوفيه المُزْهِرَة مُدْمَجَة في حائط بَيْتٍ خَرِب على ارْتِفاع مِتْرٍ من سَطْح الأرْض في حَيّ الصَّلِيبة عند مَدْخَل الحارَة التي كانت تَقُودُ من شارع الصَّلِيبَة إلى جَامِع ابن طُولُون ، قَبْل فَتْح المَيْدَانِ الواقِع الآن أمام الجَامِع . وتحمل هذه القِطْعَة الأثرية (المُسَجَّلَة بالآثار برقم ٤٣٢) بِدَايَة نَصّ النَّقْش الذي ذكره كامِلًا المَقْرِيزي في المَوَاعِظ [٢].

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٤٥١ .

[٢] راجع كذلك M. van Berchem, *CIA Égypte* I, p. 76 n° 48; G. Salmon, *Études sur la topographie du Caire*, pp. 44-46; G. Wiet, *CIA Égypte* II, pp. 91-93 n° 570; Id, «Une inscription d'un vizir ikhshidides», *Der Islam* V (1914), pp.171-73; Id., RCEA V, n° 1620.

الجَزِيرَةُ أو جَزِيرَةُ مِصْر

عندما فَتَحَ المُسْلِمُون مصر في سنة ١٩هـ/٦٤٠م كانت تَفْصِلُ بابِلْيُون البيزنطية (الفسطاط فيما بعد) ـ الوَاقِعَة على شاطِئ النِّيل الأيْمَن ـ عن الجِيزَة ـ الوَاقِعَة على شاطِئ النِّيْل الأيْسَر ـ جَزِيرَةٌ عَرَفَتْها المَصَادِرُ العَرَبِيَّة باسْم «الجَزِيرَة» أو «جَزِيرَة مِصْر»[١]. وكان لهذه الجَزِيرَة، إبَّان الفَتْح، أهَمِّيَّةٌ عَسْكَرِيَّةٌ فقد لجَأ إليها البِيزَنْطِيون يَحْتَمُون بها أمامَ هُجُوم الفَاتِحِين[٢]، كما كانت تكوِّن مع بابِلْيُون نُقْطَةً دِفَاعِيَّةً تَحْمي المُرُورَ في النِّيل. وقد دُمِّرَت جَمِيعُ التَّحْصِينات التي وُجِدَت في الجَزِيرَة في أعْقَابِ الفَتْح.

١ ـ جِسْرُ المَرَاكِب

كان لجُوءُ البيزَنْطِيين إلى الجَزِيرَة عن طَرِيق جِسْرٍ خَشَبِيّ كان يَرْبِطُ بابِلْيُون بالجَزِيرَة. ولكنَّنا لا نَمْلِكُ أيَّة مَعْلُومات عن وُجودِ جِسْرٍ مُمَاثِل يَرْبِط الجَزِيرَة بالجِيزَة في زَمَنِ الفَتْح.

كان فَرْعُ النِّيل الوَاقِع بين الفُسْطَاط والجَزِيرَة، في زَمَنِ الفَتْح، أعْرَضَ من الفَرْع الوَاقِع بين الجَزِيرَة والجِيزَة، إلَّا أنَّ انْحِسَارَ النِّيل المُتَتَالي تجَاه الغَرْب منذ مُنْتَصَف القَرْنِ الهِجْرِي الأوَّل حَوَّلَ هذا الوَضْعِ تَمامًا بحيث أضْحَىٰ فَرْعُ النِّيل الغَرْبي

---

[١] لم تُعْرف الجَزِيرة باسْم «جَزِيرَة الرَّوْضَة» إلَّا بعد أن أنْشأ فيها الوزير الأفْضَل شَاهِنْشَاه بُسْتان الرَّوْضَة في مطلع القرن السَّادِس الهجري.

[٢] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٦٤.

أعْرَضَ بكثيرٍ من فَرْعِه الشَّرْقِيّ وظَلَّ الحالُ كذلك حتَّى يَوْمِنَا هذا [١].

ولا نَدْري إذا كان هناك تَجَمُّعٌ سُكَّانيٌّ قد نَشَأ في الجَزِيرَة في أعْقَابِ الفَتْح ، فلا تُحَدِّثُنا المَصَادِرُ عن أيّ اخْتِطَاطٍ للقَبَائِل العَرَبِيَّة بها ، بينما نَعْرِفُ أنَّ قَبِيلَة هَمْدَان اخْتَطَّت خِطَّةً لها بالجِيزَة مِمَّا اسْتَلْزَم إيجاد مَسْجِدٍ لهم [٢].

والذي لا شَكَّ فيه أنَّ الجَزِيرَة قامتْ بدَوْر المَعْبَر بين الفُسْطَاطِ والجِيزَة خِلال العَصْرِ الإسْلامي الأوَّل وكان الانْتِقالُ بين الفُسْطَاط والجَزِيرَة يتمّ بوَاسِطَة جِسْر خَشَبِي ، وقد أحْرَقَ هذا الجِسْرِ مَرْوَان بن محمّد ، آخِر خُلَفَاء الأمَوِيِّين ، عند هُرُوبه أمامَ جَحَافِلِ العَبَّاسِيين في سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م ليعُوقَهم عن اللَّحَاق به [٣]. وقد أُعِيدَ إصْلاحُ هذا الجِسْر فيما بعد وظَلَّ يُسْتَخْدَم حتى زِيَارَة الخَلِيفَة المأمُون العَبَّاسِي لِمِصْر في مَطْلَع القَرْنِ الثَّالِث الهِجْري . وفي هذا الوَقْت تَمَّ عَمَلُ جِسْرٍ جَدِيد يَمْتَدّ على سَطْحِ النِّيل يَرْبِط الفُسْطاط بالجِيزَة مُرُورًا بالجَزِيرَة واحْتَفَظَ في الوَقْتِ نفسه بالجِسْرِ القَدِيم . إلَّا أنَّه بعد أنْ غادَر المَأمُون مصر في سنة ٢١٦هـ/٨٣١م هَبَّت عاصِفَةٌ حَطَّمَت الجِسْر القَدِيم وأصَابَت مَرَاكِب الجِسْرِ الجَدِيد الذي تمَّ إصْلاحُه وأُهْمِلَ نِهائِيًا اسْتِعْمالُ الجِسْر القَدِيم [٤].

ويَصِفُ الكِنْدِيُّ ، في أوَاسِط القَرْنِ الرَّابِع الهجري ، الجَزِيرَة بقَوْلِه : «جَزِيرَةُ الفُسْطَاط التي بين الجِسْرَيْن» [٥]. وَقَبْل الكِنْدِيّ ، نَجِدُ المَسْعُودِيّ يُؤَكِّد كذلك وُجُودَ هذين الجِسْرَيْن في سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م يقول : «الجَزِيرَةُ التي بين الفُسْطَاط والجِيزَة والعُبُور إليها من الفُسْطَاط على الجِسْر ، ثم منها على جِسْرٍ آخَر إلى

---

[١] تعليقات محمد رمزي على النجوم الزاهرة ٨:٢٨٣ـ٢٨٥.

[٢] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ١٢٨ـ١٢٩.

[٣] أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١: ٣١٦.

[٤] الكندي : الولاة والقضاة ١٩٢.

[٥] نفســه ٧٨، ٢١٨.

الجِيزَة»[١]. ويَذْكُرُ القُضاعِيّ في القَرْنِ الخَامِس أيضًا وُجودَ هذين الجِسْرَيْن بينما نجدُ مُعَاصِرَه الرَّحَّالَة الفَارِسي نَاصِر خُسْرُو يذكر أنَّ الفُسْطَاط فقط هي التي كان يَرْبطها بالجَزِيرَة جِسْرٌ مكوَّن من ٣٦ سَفِينَة بينما لا يُوجَد جِسْرٌ يَرْبِط الجَزِيرَة بالجِيزَة وأنَّ انْتِقَالَ النَّاس بينهما كان يتّم إمَّا بالزَّوَارِق أو بالمَعَابِر، التي يُضِيفُ أنَّها كانت كَثِيرَةً في مِصْر أكثر ممَّا في بَغْدَاد أو البَصْرَة[٢]. وتَبَعًا لما وَرَد لدى مُؤَرِّخي القرنين الرابع والخَامس للهجرة كان يُوجَدُ جِسْرٌ خَشَبِيّ يَرْبِطُ الفُسْطَاط بالجَزِيرَة والجَزِيرَة بالجِيزَة كان يُسْتَخْدَمُ يوميًّا في عُبُور النَّاس ودَوَابِّهم كان يتكوَّن من سُفُنٍ مُصْطَفَّة بعضها بحذاء بعض وهي مُوثَقَة ومن فَوْقِها أخْشَابٌ مُمْتَدَّة فَوْقَها تُرَاب، وكان عَرْضُ هذا الجِسْر ثَلاثَ قَصَبَات (نحو عَشْرَة أمْتَار ونِصْف)[٣].

وتَعَطَّلَ هذا الجِسْرُ فَتْرَةً قَصِيرَةً في زَمَنِ الفَتْح الفَاطِمِيّ، فقد دُمِّرَ في أعْقَاب عُبُور جَيْشِ جَوْهَر الصَّقْلي في سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م وظَلَّ مَهْجُورًا لا يُسْتَعْمل لعِدَّة سَنَوَات إلى أنْ أُعِيدَ إصْلاحُه في سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م[٤].

٢ ـ دَارُ الصِّناعَة

اسْتَغَلَّ المُسْلِمُون هذه الجَزِيرَة في إقَامَة دَارٍ للصِّنَاعَة، في عام ٥٤هـ/٦٧٤م، هي الأولىٰ من نَوْعِهَا ـ تَبَعًا لما ذَكَرَه الكِنْدِيّ ـ في أعْقَابِ هُجُومٍ للبِيزَنْطِيين على مَدِينَة البُرُلُّس لَقِيَ فيه المُسْلِمُون خَسَارَةً كبيرةً، وقد أُعِيدَ بِنَاءُ «دَارِ الصِّنَاعَة» في عَصْر الطُّولُونِيين ثم في زَمَنِ الوالي العَبَّاسي أبو مُوسَىٰ تَكِين سنة ٢٩٧هـ/٩١٠م وسنة ٣٢١هـ/٩٣٣م. وأُحْرِقَت هذه الدَّارُ بوَاسِطَة بعض الخَارِجِين في زَمَن

---

[١] المسعودي: مروج الذهب ٢: ٧١.

[٢] ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٤.

[٣] نفسه ٢: ٧١.

[٤] ابن ميسر: أخبار مصر ١٦٧.

محمَّد بن طُغْج الإخْشِيد الذي أمَرَ، في سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م، بإقَامَةَ دَارٍ أخْرَىٰ في شَمَالي مَدِينَة الفُسْطَاط على الشَّاطئ الأيْمَن للنِّيل، وقد اسْتَمَرَّت هذه الدَّارُ بَعْد تَحْسِينَات كثيرةٍ أُدْخِلَت عليها في العَصْرِ الفَاطِمِيّ. واسْتَغَلّ الإخْشيديُّون مَوْقِعَ الجَزِيرَة وأقامَ بها محمد بن طُغْج مَنْظَرَةً وبُسْتانًا للنُّزْهَة عُرِف باسْم «بُسْتان المخْتَار»[1].

لا شَكّ أنَّ وُجُودَ مُجْتَمَع سكنيّ في الجَزِيرَة لم يَبْدَأ بصُورَة وَاضِحَة إلَّا بعد بِنَاء دَارِ الصِّنَاعَة في سنة ٥٤/٦٧٤هـ وإنْشَاء المِقْيَاس في سنة ٩٦هـ/٧١٤م وأنَّ سُكَّانَ الجَزِيرَة كانوا يُؤَدُّون صَلاةَ الجُمُعَة في جَامِع عَمْرو وَظَلُّوا كذلك لفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ. وكانت العادَةُ في أغْلَبِ المُدُن الإسْلامية، عند زِيَادَة الكَثَافَة السُّكَّانية، اللُّجوء إلى تَوْسِيع المَسْجِد الجَامِع ليَسْتَوْعِب جُمُوع المُصَلِّين المُتَزَايِدَة، وعَدَم اللُّجُوء إلى بِنَاء مَسْجِدٍ جَامِعٍ ثانٍ والمَثَلُ الوَاضِح لذلك هو مَسْجِدُ قُرْطُبَة الذي وُسِّعَ أكثرَ من مَرَّة.

ومن المُرَجَّح أنَّه في أعْقَابِ تَوَسُّع الفُسْطَاط وامْتِدَادِها في العَصْرِ العبَّاسي ومع الطُّولُونِيين وبعد أنْ قامَ ابنُ طُولُون بِبِنَاءِ حِصْنٍ له في الجَزِيرَة أنْ تَزَايَد سَكَنُها وعلى الأخَصّ من الأجْنَاد ممَّا اسْتَدْعَى بِنَاءَ مَسْجِدٍ جَامِعٍ لهم هو دون شَكّ المَسْجِدُ الجَامِع الذي أشَارَ إلى وُجُودِه في حَدِّ الجَزِيرَة الجَنُوبي بالقُرْب من المِقْيَاس الرَّحَّالَة المَقْدِسِي في أوائِل العَصْر الفاطِمِي[2].

وإذا كُنَّا غير متأكِّدين من حَجْم سُكَّان الجَزِيرَة قَبْل الفَتْح الفَاطِمِي فإنَّنا نَعْرِف يَقِينًا أنَّ سُكَّانَ الجَزِيرَة قد تَزَايَدُوا في أعْقَابِ هذا الفَتْح وخاصَّةً إبْتِدَاءً من فَتْرَة خِلافَة الخَلِيفَة الحاكِم بأمْر الله، ممَّا دَعَا القائِد غَبْن، الذي قَلَّدُه الحاكِمُ بأمْرِ الله في سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م أمْرَ الشُّرْطَتَيْنِ العُلْيَا والسُّفْلَىٰ والحِسْبَة بالقَاهِرَة ومِصْر

---

[1] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ١٦٠-١٦١.

[2] المقدسي : أحسن التقاسيم ٢٠٠.

والجَزِيرَة ، إلى بِنَاء أوَّل مَسْجِدِ جَامِعٍ وَصَلَ إلينا خَبَرُه تَفْصِيلًا بالجَزِيرَة ، وقد دَفَعَ ازْدِيَادُ السَّكن بالجَزِيرَة الإدَارَة الفَاطِمِيَّة ، كما يذكر ابنُ رِضْوَان الطَّبِيب إلى تَعْيِين والٍ وقاضٍ مُخْتَصّ بها [١].

وللأسَف فإنَّنا لا نَمْلِكُ مَعْلُومات تَفْصِيلِيَّة عن «جَامِع غَبْن» الذي ذَكَرَتْهُ المَصَادِرُ في إشَارَات عَابِرَة . ويَبْدُو أنَّ هذا الجَامِع قد أُزِيل في أوَاسِط القَرْنِ السَّابع الهجري عندما أقَامَ المَلِكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب قَلْعَتَه بالجَزِيرَة .

*

* *

وظَلَّ حَالُ الجَزِيرَة في تَزَايُدٍ وازْدِهَار إلى أنْ قَدِمَ إلى مِصْر أميرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجَمَالي [٢]. وبعد أنْ أعَادَ تَحْصِين مَدِينَة القَاهِرَة وبَنَى سُورَها وأبْوَابَها القَائِمَ بَعْضُها إلى الآن بَيْنَ سنتي ٤٨٠ و ٤٨٥هـ/١٠٨٧هـ ـ ١٠٩٢م وَجَّهَ عِنَايَتَه إلى عِمَارة مِقْياسِ الجَزِيرَة وانْتَهَزَ هذه الفُرْصة وقامَ في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ببِنَاء مَسْجِدٍ جَامِعٍ بها مُلاصِق للمِقْياس رُبَّما في مَوْضِع المَسْجِد الذي ذَكَرَه المَقْدِسِي قَبْل هذا التأريخ بأكثر من مائة عَام .

ومن الغَرِيب أنَّ المَقْرِيزي لا يَمُدُّنا بأيَّة تَفْصِيلاتٍ عن جَامِع المِقْيَاس ، ففي الفَصْلِ الذي عَقَدَه للحَدِيث عن جَوَامِع القَاهِرَة وظَوَاهِرها ذَكَرَ لنا جَامِع المِقْيَاس إلَّا أنَّه لم يَمُدَّنا عنه بأيَّة مَعْلُومات وتَرَكَ مكانَه بَيَاضًا في جَمِيع نُسَخ الكِتَاب [٣]. أمَّا ابْنُ دُقْماق ـ الذي كَتَبَ كِتَابَه قَبْلَ المَقْرِيزي ـ فإنَّه نَسَبَ بِنَاءَ هذا الجَامِع إلى

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامه ١٠٤؛ المقريزي: المواعظ ٤:١٨١.

[٢] لم تمدُّنا المصادر بأيَّة تفصيلات عن تأثُّر الجَزِيرَة بالأزمات التي اجتاحت مصر في منتصف القرن الخامس الهجري.

[٣] المقريزي : المواعظ ٤:١٤٨ .

الأَفْضَل بن أمِير الجيُوش ولكنَّه تَرَكَ بَيَاضًا في مَحَلِّ تَأريخ البِنَاء [١].

ومنذ هذا التَّأريخ لا نَجِدُ أيَّة مَعْلومات مُبَاشِرَة تُحَدِّثُنا عن وُجُود هذا الجَامِع إلى أنْ قَدَّمَ لنا ج. مارْسِيل J. Marcel، أحَدُ عُلَمَاء الحَمْلَة الفِرنْسِية في آخِر القَرْن الثَّامِن عَشْر، وَصْفًا تَفْصِيليًا يُؤَكِّدُ الوُجودَ التاريخي لهذا الجَامِع الذي كان يكوِّن جُزْءًا من مَجْمُوعَة عَمَائِر أقامَها أميرُ الجيُوش بَدْرٌ الجَمَاليّ في رَجَب سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م حَوْلَ المِقْيَاس عند الطَّرَفِ الجَنُوبيّ للجَزِيرَة [٢].

وللأسَفَ الشَّديد فإنَّ جَمِيعَ هذه العَمَائِر، فيما عَدَا المِقْيَاس، قد اخْتَفَت بعد وَصْفِ مارْسِيل Marcel لها بنَحْو نِصْف قَرْن ليَحِلّ مَحَلّها قَصْرٌ كبيرٌ بَنَاه في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م حَسَن باشَا فؤاد المَنَاسْتِرْلي.

وعلى ذلك فلم يَبْقَ لنا من هذا الجَامِع إلَّا الوَصْفُ التَّفْصِيلي الذي أمَدَّنا به مارْسيل Marcel مع مُخَطَّطٍ غايَة في الدِّقَّة من عَمَلِه أيضًا.

وتَبَعًا لهذا الوَصْف، كان يُدْخَلُ إلى الجَامِع وإلى بَقَايا قَصْرِ السُّلْطان الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب عن طَرِيق فِنَاء وَاسِع كانت تَمُرّ من تَحْتِه القَنَاطِرُ التي تَحْمِل مِيَاه النِّيل إلى حَوْض المِقْيَاس. وبَعْد أنْ يَجْتَازَ المَرْءُ مَدْخَلًا مُكَوَّنًا من خَمْسة عَشْر دَرَجَة عَرْض كلٍّ منها ٢٥سم وبطُول مترين يَصِل إلى بَوَّابَة الجَامِع في الشَّمَال والتي كان يُوجَدُ فَوْقَها نَقْشٌ من الكِتَابَة الكُوفِيَّة على لَوْحَةٍ حَجَرِيَّة بعَرْض ٦٧سم وارْتِفاع ٩٠سم.

ومِثْل الجَامِع الأَقْمَر وجَامِع الصَّالِح طَلائِع كان جَامِعُ المِقْيَاس يتكوَّن من بَيْتٍ للصَّلَاة مكوَّن من ثَلاثَة أسَاكِيب مُوَازِيَة لحَائِط القِبْلَة.

---

[١] ابن دقماق: الانتصار ٤:١١٥.

[٢] J.J. Marcel, Mémoire sur le Meqyase de l'île de Rodah, *Déscription de l'Égypte*, Etat Moderne XV, Paris 1826, pp.459-64.

٣ ـ المِقْيَـاس

كان النِّيلُ دَائِمًا هو شُرْيَانُ الحَيَاة لمصر، اهْتَمّ به حُكَّامُها منذ العَصْرِ الفِرْعَوْني، وأقامُوا على امْتِدَادِه العَدِيدَ من المَقَايِيس لمعرفة ارْتِفَاعِ مَنْسُوبِ النِّيل لتَحْدِيد خَرَاجِ الأرْض.

وفي العَصْرِ الإسْلامي كان أوَّلُ مِقْيَاسٍ أُقِيمَ بها في جَزِيرَة الرَّوْضَة، سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م، أقَامَهُ أُسَامَةُ بن زَيْد التَّنُوخِيّ عَامِلُ خَرَاجِ مِصْرِ في زَمَنِ الخَلِيفَة الأُمَوِيّ سُلَيْمَان بن عبد المَلِك، وأُقِيمَ هذا المِقْيَاسُ في الطَّرَفِ الجَنُوبِيّ للجَزِيرَة وتَمَّت صِيَانَتُه في عَام ١٩٩هـ/ ٨١٤م في زَمَنِ الخَلِيفَة المأمُون العَبَّاسِيّ [١].

وفي زَمَنِ الخَلِيفَة العَبَّاسِيّ المُتَوَكِّل شَهِدَ المِقْيَاسُ تَجْدِيدًا كامِلًا على مرَّتين، الأولىٰ عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٧م والثَّانية عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م. وعُرِفَ المِقْيَاسُ الذي أُعِيدَ بِنَاؤُه في زَمَنِ المُتَوَكِّل بـ «المِقْيَاسِ الهَاشِمِيّ» و «المِقْيَاسِ المُتَوَكِّلِيّ». «وهو آخِر مِقْيَاس بُنِيَ في دِيَار مصر» كما يقول المَقْرِيزي [٢].

كانت إدَارَةُ المِقْيَاس والإشْرَافُ عليه حتَّى هذا الوَقْت يَتَوَلَّاها الأقْبَاطُ، ولكن اعْتِبَارًا من عام ٢٤٧هـ/ ٨٦١م تولَّىٰ هذه المُهِمَّة عبدُ الله بن عبد السَّلام بن أبي الرَّدَّاد مُؤَذِّن جَامِع عَمْرو ورَشَّحه لهذه المُهِمَّة القاضِيَ بكَّار ابن قُتَيْبَة [٣]، وظَلَّت هذه الوَظِيفَةُ حِكْرًا على أسْرَتِه يَتَوَارَثُها أبناؤُه حتى العَصْرِ العُثْمَانِيّ.

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢: ٣٠٩.

[٢] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣: ١١٣ـ ١١٤؛ المقريزي: المواعظ ١: ١٥٢، ٣: ٥٨٨.

[٣] نفســه ٣: ١١٢.

وأجْرِيت على المِقْيَاس إصْلاحاتٌ متعدِّدَة كان أهَمُّها الإصْلاح الذي قامَ به أميرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجَمَالي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م والذي أضْفَى على المِقْيَاس الهَيْئَة التي نُشَاهِدُ عليها المِقْيَاس الآن .

ومازال المِقْيَاسُ قائمًا عند الطَّرَف الجَنُوبي لجَزِيرَة الرَّوْضَة (مُسَجَّل بالآثار برقم ٧٩) . وهو عَمُودٌ من الرُّخَام الأبْيَض قائِمٌ في وَسَط بِئْر مربَّع يُهْبَط إليه بواسطة دَرَجٍ مُحِيطٍ بجدَارِه وقُطْر هذا العَمُود ٢٠ إصْبَع ، ومَنْحُوت إلى ثمان شُقَق تَحْمِل ١٦ تقسيمًا إلى أذْرُع ، الأذْرُع العَشر العُلْيا فقط مُجَزَّأة إلى سِتَّة أشْبَار يُمَثِّل كلٌّ منها أرْبَع أصَابع ، أي أنَّ به ٢٤ إصْبَعًا لكلِّ ذِرَاع ، أمَّا الأذْرُع السِّتّ السُّفلىٰ فغير مُجَزَّأة [١] .

---

[١] راجع K.O. GHALEB, *Le Miqyâu on Nilomètre de l'Ile de Rodah, MIE* LIV (1951)؛ وانظر كذلك محمد عبد العزيز : «جزيرة الرَّوْضَة وآثارها الدَّارِسَة حتى نهاية العَصْر المملوكي» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م .

الفصل الثاني

القاهرة

المدينة الحصن

الفَاطِمِيُّون في مِصْر

كان وُصُولُ الفَاطِميين إلى مِصْر في أواسِط القَرْنِ الرَّابع الهجريّ/ العَاشِر الميلاديّ انْقِلابًا غير عادِيّ وتَطَوُّرًا خَطِيرًا في خَرِيطَة العَالَم الإسْلامي آنَذَاك. فلأوَّلِ مَرَّةٍ في التَّاريخ الإسْلامِيّ تَنْشَأ مُنافَسَةٌ حقيقيةٌ على حُكْم العَالَم الإسْلامِي، وتَتَجَاذَبُ السَّيْطَرَةَ عليه خِلافَتان في وَقْتٍ وَاحد: خِلافَةٌ سُنِّيَّةٌ في بَغْدَاد وأخرىٰ شِيعِيَّةٌ في القَاهِرَة، كلٌّ منهما تَرَىٰ في نفسها أحَقِيَّةَ حُكْمِ هذا العَالَم. ولم تُشارِكُ الخِلافَةُ الأُمَوِيَّةُ السُّنِّيَّة في الأنْدَلُس في هذه المُنَافَسَة بل اكْتَفَت بفَرْضِ نُفُوذِها وسَيْطَرَتها على الحَوْضِ الغَرْبِيّ للبَحْر المُتَوَسِّط، فانْحَصَرَت بذلك المُنافسةُ الحَقِيقيَّةُ بين الخِلافَة العَبَّاسِية السُّنِّيَّة والخِلافَة الفَاطِمية الشِّيعِيَّة في المَشْرِق.

وفَوْرَ أنْ أتَمَّ جَوْهَرُ الصَّقْلَبِيُّ، قائِدُ الخَلِيفَة المُعِزّ لدين الله الفَاطِميّ، فَتْحَ مصر في سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، أخَذَ في تَنْفِيذ تَعْليمات الخَلِيفَة الفَاطِمِيّ له بأنْ يُؤَسِّسَ في مصر مَدينَةً تكون بالنسبة للفُسْطاط كالمَنْصُورية بالنسبة للقَيْرَوان في إفْرِيقِيَّة بقَصْدِ أنْ تكون مَدِينَةً ملكيةً وعَاصِمَةً للدَّوْلَة العَالَمِيَّة الشَّامِلَة التي حَلَمَ بها الفَاطِمِيُّون لتَضُمّ جَمِيعَ الأراضي الإسْلامية.

فلم يكُن الفَتْحُ الفاطِمِيُّ لمصر يَعْني قِيَامَ حُكُومَةٍ مَكانَ أُخْرىٰ، بل كان بمَثَابَةِ انْقِلابٍ دِينيّ وثَقَافِيّ واجْتِماعيّ بَعِيد المدىٰ، صَحِبَهُ تَحَوُّلٌ ظَاهِرٌ في نِظَامِ الحُكْم

خَلَقَ مَوْقِفًا جَدِيدًا تمامًا. فلأوَّلِ مَرَّةٍ تُحْكَمُ مصر بدَوْلَةٍ لا تَدِينُ حتَّى بالوَلاءِ الاسْمِيّ للخِلافَةِ الإسْلامية السُّنِّيَّة في بَغْدَاد؛ فمَعَ وُصُولِ الفَاطِميين إلى مصر تَزَايَدَ دَوْرُها في العَالَم الإسْلاميّ وتَحَوَّلَ بشَكْلٍ أساسيّ. حَقِيقَةً أنَّ الطُّولُونيين والإخْشِيدِيين (الدَّولتَيْنِ المُسْتَقِلَّتين اللَّتَيْنِ حَكَمَتَا مصر قَبْل وُصُولِ الفَاطِمِيين) بدأوا سِيَاسَةً جَدِيدَةً خَاصَّةً بمصر ووَضَعُوا أُسُسَ نَوَاةٍ حَرْبِيَّةٍ قَامَت بدَوْرٍ في المَنْطِقَة، إلَّا أنَّ طُمُوحَاتِهم كانت مَحْدُودةً في بعض الأَطْمَاعِ الشَّخْصِيَّة وكانوا يَدُورُون في فَلَكِ السِّيَاسَة العَبَّاسية. أمَّا الفَاطِمِيُّون ـ الحُكَّامُ الجُدُد ـ فكانُوا يَتَزَعَّمُونَ حَرَكَةً دِينِيَّةً فَلْسَفِيَّةً اجْتماعيةً عُظْمىٰ كان هَدَفُها لا يَقِلُّ عن تَحْوِيل وتَجْدِيد كلِّ الإسْلام، وكانُوا يَرَوْن في أَنْفُسِهم الأئِمَة الأحِقَّاء بحُكْم العَالَم الإسلاميّ بمُقْتَضىٰ الحَقّ الإلَٰهيّ في الحُكْم، فهم أبْنَاءُ السَّيِّدَة فاطِمَة بنت رَسُول الله ﷺ. ومهما قيل في صِحَّة نَسَبِهم أو عَدَمِه وهل كانوا يَنْتَسِبُون حَقًّا إلى السَّيِّدَة فاطِمَة أو كانوا مُجَرَّدَ أدْعِيَاءَ مَهَرَة، فالحَقِيقَةُ الثَّابِتَةُ أنَّ عَدَدًا غَيْرَ قليلٍ من الأتْبَاعِ قد آمَنُوا بقَضِيَّتِهم ودَافَعُوا عنها.

كان تَوَلِّي الفَاطِميين الحُكمَ بمصر وتأسِيسُهم خِلافَةً مُسْتَقِلَّةً بها مُنَافِسَةً للخِلافَة الإسْلامية السُّنِّيَّة ببَغْدَاد، عَوْدَةً إلى وَضْعٍ جُغْرافيّ وسِيَاسِيّ أنْشَأَتْهُ الوَقَائِعُ وثَبَّتَتْهُ أحْدَاثُ التَّاريخ. فقد كان العَالَمُ الإسلاميُّ في حَاجَةٍ دائمًا إلى مَرْكَزٍ مُتَوَسِّطٍ كانت تَشْغَلُهُ الإسْكَنْدَرِيَّةُ في العَصْرِ الرُّومانيّ البِيزَنْطِيّ، ولا شَكَّ أنَّ الفاطِميين تَنَبَّهُوا إلى ذلك، كما وَجَدُوا مصر بسَعَة مَوَارِدِها وكَثْرَةِ أرْزَاقِها ومَكانِها من القَلْبِ بالنِّسْبَة للعَالَم الإسْلاميّ قادِرَةً على تَحْقِيقِ أهْدَافِهم الاسْتراتيجية في يومٍ من الأيَّام.

وإذا كان الفاطِمِيُّون قد فَشَلُوا في كَسْبِ كُلِّ العَالَم الإسْلامِيّ لصَفِّهم لتَمَسُّكِهم بتحدِّيَّاتهم الإيديُولُوجية التي عَزَلُوا أنْفُسَهم بسَبَبِها عن إجْماعِ المُسْلِمين، فإنَّ « القَـاهِرَة » التي أرَادُوا أنْ يَحْكُمُوا منها العَالَم الإسْلاميّ سَجَّلَ

لها التَّاريخُ بعد ذلك دَوْرَها في قِيَادَة هذا العَالَم أمَامَ كُلِّ التَّيَّارَات الأَجْنَبِيَّة ، بَعْدَ سُقُوطِ بَغْدَاد ، بَدْءًا من المَدِّ الصَّلِيبيّ ومُرُورًا بالغَزْوِ المُغُوليّ وحتى العَصْرِ الحَدِيث ، وأثْبَتَت بُعْدَ نَظَرِ الفَاطِمِيين عندما اخْتارُوا مصر ليُحَقِّقُوا من خِلالِها أهْدَافَهُم .

نَبَعَت قُوَّةُ الدَّوْلَة الفاطِمِيَّة كذلك من قُدْرَتها على الاسْتِفَادَة من إمْكانَات كلِّ الأفْرَاد المُنْتَمِين إلى مُخْتَلَفِ التَّكَتُّلات العُنْصُرِيَّة والاجْتِماعية التي كانت تُؤَلِّفُ مجموعَ الشَّعْبِ المصريّ ، اسْتِفَادَةً لم يَسْبِق لها مَثِيلٌ من قَبْل . فقد أدْرَكَ الفَاطِمِيُّون أنَّ مَذْهَبَهم الإسْماعيليّ لم يَتَجَذَّر في إفْرِيقِيَّة بعد عَشَرَاتِ السِّنِين من الدِّعَايَة بسبب مُقَاوَمَة فُقَهَاء المالِكِيَّة لهم ، كما أنَّ مِصْرَ بما فيها من ذِمِّيين ومُسْلِمين على مَذْهَبِ السُّنَّة لن تكون أرْضًا خِصْبَةً للتَّبْشِير .

لم يَعْمَد الفَاطِمِيُّون منذ وُصُولِ المُعِزّ إلى نَشْرِ الدَّعْوَةِ الإسْماعيلية في مصر إلَّا في أضْيَقِ الحُدُود ، فنَادِرًا ما جَرَت أيَّةُ مُحَاوَلَةٍ لحَثِّ الشَّعْبِ المصريّ على اعْتِنَاقِ المَذْهَبِ الإسْماعيليّ ، وإنَّما لجأ الفاطِمِيُّون إلى الاسْتِعَانَةِ بالعَنَاصِر الأَجْنَبِيَّة ، لاسِيَّما المَغَارِبَة والأتْرَاك والدَّيَالِمَة والسُّودَان والأرْمَن ، والاستِفَادَة بخِبْرَة أهْلِ الذِّمَّة ، ولاسيَّما بمعرفة الأقْبَاط بالمَسَائِل الماليَّة ، فعَهَدُوا إليهم أو إلى منْ يَعْتَنِق مَذْهَبَهُم بالوَظَائِف الرَّئيسة في الدَّوَاوِين التي أُبْعِدَ عنها المسلمون السُّنِّيُّون . وعلى ذلك فإنَّه بعد أكثر من مائتيّ عام من الحُكْمِ الفَاطِمِيّ في مصر لم يكُن بها إسْمَاعيليٌّ وَاحِدٌ سوى من ارْتَبَطَ بالسُّلْطَة الحَاكِمة . فقد انْتَهَجَ الفَاطِمِيُّون سِيَاسَةً اتَّسَمَت بـ « البراجْماتية » مع أهْلِ الذِّمَّة الذين يَحِقُّ لهم ـ إذا اسْتَثْنَيْنا ما تَعَرَّضُوا له في زَمَنِ الحَاكِم بأمْر الله ـ أنْ يَعْتَبِرُوا العَصْرَ الفَاطِمِيّ عَصْرَهُم الذَّهَبِيّ بسبب سَعْي الفَاطِمِيين إلى كَسْبِ وُدِّهم بَدَلًا من تَحْوِيل مُسْلِمي مصر إلى المَذْهَبِ الإسْمَاعيليّ ، ممَّا مكَّنهم من الانْدِمَاج الحَقِيقيّ في الحَيَاة السِّياسِيَّة العَامَّة للدَّوْلَة في مصر ، وهو أمْرٌ لم يتمتَّع به

حتى المُسْلِمُون من أَهْلِ السُّنَّة . فقد كان الفَاطِمِيُّون يَدُورُون في حَلْقَةٍ مُفْرَغَةٍ ، فمن حيثُ إنَّهم فَشَلُوا مَبْدَئيًا في كَسْبِ كلِّ العَالَم الإسلاميّ لصَفِّهِم ، نَرَاهُم في الوَقْتِ نفسه مُضْطرِّين للحِفَاظِ على تَحَدِّياتهم الإيديُولُوجِية ، الأمْرُ الذي عَزَلَهُم عن إجْمَاعِ المُسْلِمِين ، وبهذا تَسَبَّبُوا في إلْحَاقِ الهَزِيمَة بأنْفُسِهم وفي اخْتِفَائهم من المَسْرَحِ السِّيَاسيّ .

ولاشَكَّ أنَّ مصر في العَصْرِ الفَاطِمِيّ قد أصْبَحَت ، بفَضْلِ سِيَاسَة الفَاطِمِيين الاقْتِصادية المُتَفَتِّحَة ونِظَامِهم الضَّرَائِبِيّ الذي كان حَجَرَ الأَسَاسِ في نَجَاحِهم وفَشَلِهم مَعًا ، أكْثَرَ مُفْتَرَقَاتِ الطُّرُقِ التُّجَارِية نَشَاطًا في العَالَم الإسْلاميّ ، فقد تَبَنَّى الفَاطِمِيُّون مَبْدأ حُرِّيَّة المَشَارِيع . فانْتَقَلَ لذلك حَجْمُ التِّجَارَة الإسْلامية منذ أوَاخِر القَرْنِ الرَّابع الهجريّ/ العَاشِر الميلاديّ تَدْرِيجيًّا من العِرَاق والخَلِيج الفَارسيّ إلى مِصْر والبَحْر الأحْمَر ، وخَدَمَت المُتَغَيِّراتُ في أراضي الخِلافَة العَبَّاسِيَّة سِيَاسَةَ الفَاطِمِيين ، فكانت الاضْطِراباتُ المُتَالِيةُ في جَنُوبيّ العِرَاق بالإضَافَة إلى عَدَمِ الأمَانِ المُتَزَايد في الخَلِيج عَامِلًا في صَالِح المَوَانئ المصرية والتِّجَارَة الفَاطِمِية .

وهَجَرَ كثيرٌ من النَّاسِ بَغْدَادَ والعِرَاقَ خَوْفًا من هذه الاضْطِرابات وفَرُّوا إلى مصر . كان المُسْتَفِيد الأوَّل من ذلك « مَدِينَةُ الفُسْطَاط » عاصِمَة مصر التُّجارية ومَرْكزها الاقْتصاديّ في زَمَنِ الفَاطِمِيين ، بحيث كانت البَضَائِعُ القادِمَةُ من أوروبا والبَحْر المُتَوَسِّط إلى الإسْكَنْدَرِيَّة أو من الهِنْد والبَحْر الأحْمر إلى عَيْذَاب تُحْمَلُ منهما إلى الفُسْطَاط التي جَعَلَ لها الجُغْرافِيُّ المَقْدِسِيّ ، في أوَاخِر القَرْن الرَّابع الهجريّ ، مكانَةً تَسْبِقُ بَغْدَاد في هذا الوَقْتِ وأصْبَحَت المركزَ الحَيَوِيّ للنَّشَاطِ الاقْتِصَادِيّ والتُّجَارِيّ في المَنْطِقَة .

كانت الفُسْطاطُ طَوالَ العَصْرِ الفَاطِمِيّ مَدِينَة مِصْر الرَّئِيسَة ومَرْكز نَشَاطِها الاقْتِصَادِي والتُّجاريّ والعِلْمِيّ ، بينما كانت القَاهِرَةُ هي مَقَرّ الحُكُومَة الفَاطِمِيَّة

ومَرْكز الدَّوْلَة الإدَارِيّ والسِّيَاسِيّ والمَعْقِل الرَّئِيس لنَشْر الدَّعْوَة الإسْمَاعِلِيَّة ، وكَوَّنَ مَجْمُوعُ المَدِينَتَيْنِ العَاصِمَة المِصْرِيَّة في العَصْرِ الفَاطِمِيّ [١].

تأسِيسُ القَـاهِرَة

في اللَّيْلَة نَفْسها التي عَبَرَ فيها جَوْهَرُ بقُوَّاتِه من الجِيزَة إلى الفُسْطَاط (١٧ شَعْبَان سنة ٣٥٨هـ/ ٦ يوليو سنة ٩٦٩م) أَنْزَلَ جُنُودَهُ عند بِرْكَة الفِيل بالقُرْبِ من الجَامِع الطُّولُونيّ ، ووَقَعَ اخْتيارُه على السَّهْلِ الرَّمْليّ ، الذي يَحُدُّه خَلِيجُ أمير المُؤْمنين من الغَرْب والجَبَلُ المُقَطَّم من الشَّرق ، ليَضع فيه أسَاسَ المَدينَة الجَدِيدَة .

كان هذا السَّهْلُ الرَّمْليّ خاليًا من العِمَارة ، قد اسْتَغَلَّ الإخْشيديُّون منطقةً منه مُلاصِقَةً للخَليج وأقامُوا عليها بُسْتانًا كَبِيرًا ، كان المُتَّجه من الفُسْطَاط إلى نَاحِيَة عَيْنِ شَمْس أو إلى طَريق الشَّام يَمْشي بحذائِه على حَافَةِ الخَلِيج (البُسْتان الكافُورِي) ، ولم يكن أحَدٌ يَمُرُّ بالسَّهْلِ الرَّمْليّ ، الذي أُقيمت عليه القاهِرَة ، مِمَّا يَسَّرَ أنْ يُقَامَ عليه دَيْرٌ للنَّصَارَىٰ عُرِفَ بـ « دَيْر العِظَام » ، كان يَشْغَل مَكَانَ حَوْضِ الجَامِع الأقْمَر الآن . وكانت قَبِيلَةُ بني عُذْرة قد أقَامَت بهذا السَّهْلِ ، منذ زَمَنٍ ، مَكانًا ثالثًا عُرِفَ بقَصْرِ الشَّوْك أدْخَلَهُ جَوْهَرُ عند بِنَاء القَاهِرَة في جُمْلة القَصْر الكبير وأُطْلِقَ اسْمُه على أحَدِ أخْطَاطِ القَاهِرَة . وأَطْلَقَت كُتُبُ الخِطَط على المَوْضِع الذي أقَامَ عليه جَوْهَرُ مَدِينَة القَاهِرَة « المَنَـاخ » .

---

[١] راجع عن تاريخ مصر في العصر الفاطمي كتابي : الدَّوْلَة الفاطمية في مصر ـ تَفْسِيرٌ جَدِيد ، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠م والهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧م.

كان « الخَلِيجُ » يَفْصل بين مَوْضِع القَاهِرَة والقرية التي كان يُقالُ لها « أُمُّ دُنَيْن » ثم عُرِفَت بعد ذلك بالمَقْس (مَيْدَان رَمْسيس الآن) وأصْبَحَت مَوْضِع دار الصِّناعَة في العَصْرِ الفَاطِميّ حيث كان النِّيلُ يمرُّ قديمًا (شَارِع عِمَاد الدِّين الآن)، وكانت المِسَاحَةُ المحصورةُ بين الخَليج وسَاحِل النِّيل الشَّرْقيّ أرْضًا زِرَاعِيَّةً كلُّها بساتين تُعْرَف ببَسَاتِين الفُسْطاط.

فلماذا اخْتارَ جَوْهَرٌ هذا المَوْقِع ليبني عليه القَاهِرَة؟ وما هو الغَرَضُ من بِنائِها فيه؟

إنَّ بِناءَ مَدِينَةٍ جَديدَةٍ لا يتمّ بالطَّبْع في يَوْمٍ ولَيْلَة، بل لابُدَّ أنْ يَسْتَغْرِقَ عِدَّةَ سَنَوَات، كان يجب أن يُوفَّر خلالها مكانٌ يُعَسْكر فيه الجَيْشُ الفَاتِحُ ويستقرُّ فيه مُؤَقَّتًا، ويَضْمَنُ له في الوَقْتِ نفسه تَوْفِير احْتياجَاته اليومية، والقِيَام بتَدْريباته العسكرية الدَّوْرية.

كان المَوْضِعُ الذي نَزَلَت فيه جُيوشُ الفاطِميين، في شَمال الفُسْطاط وجَنُوب مَوْضِع القَاهِرَة الحالية، مُناسِبًا لذلك تمامًا. فقد مكَّنَهم من الإشْرَاف على مصر الفُسْطَاط ـ العَاصِمَة القَدِيمَة ـ حتى يَحْتَفِظُوا بسيطرتهم عليها، وأمدَّتهم الفُسْطاطُ بكافَّة احْتياجاتهم الرَّئيسة، وأتاحَ لهم هذا المكانُ القِيَامَ بتَدْريباتهم العَسْكَرية الدَّوْرية في مَوْضِعِ مَيْدانِ ابن طُولُون القَدِيم، كما كانوا يُقِيمُون صَلَواتَهم في الجَامِع الطُّولُونيّ القريب. ورُبَّما أقامَ القَائِدُ جَوْهَر نفسه في دَارِ الإمَارَة القَدِيمَة بالعَسْكَر. ومن هذا المكان أيْضًا كان من السَّهْل عليهم مُتابَعَة أعْمَالِ البِنَاء التي كانت قائِمَةً على قَدَمٍ وسَاقٍ في تَشْييد القَصْرِ وأسْوارِ المَدِينَة الجَديدَة.

ولم يكن في نِيَّة جَوْهَر أو مَوْلاه المُعِزّ تأسيسَ مَدينَةٍ بالمعنى العَادِي المعروف لهذه الكَلِمَة. فقد أوْضَحَ ابنُ دُقْماق والمَقْريزيُّ الغَرَضَ الذي رَمَى إليه جَوْهَرُ من بِناء القَاهِرَة. فتَبَعًا لابن دُقْماق فقد تَرَكَ جَوْهَرٌ مَسَافَةً مُنَاسِبَةً بين المَدِينَة الجَديدَة والفُسْطاط ليكون الخَليفَةُ (الإمَامُ الفاطِمِيّ) وأهْلُه وأعْوَانُه وجُيُوشُه بمَعْزِلٍ عن عَامَّة

الشَّعْب [١]، ويُضِيفُ المَقْرِيزيُّ إلى ذلك أنَّ القَاهِرَة « إنَّما بُنيت لتكون مَنْزِلَ سُكْنَى للخَليفَة وحُرَمِه وجُنْدِه وخَوَاصِّه، ومَعْقِلَ قِتالٍ يُتَحَصَّنُ بها ويُلْتجأ إليها » [٢]. وأضافَ المَقْرِيزي أنَّها «لم تَزَل دَارَ خِلَافَةٍ ومَنْزِل مُلْكٍ ومَعْقِل قِتَالٍ، لا يَنْزِلُها إلَّا الخَلِيفَةُ وعَسَاكِرُهُ وخَوَاصُّه الذين يُشَـرِّفُهُم بقُرْبِه فقط» [٣]. ويرى هنري كاسل كاي H. C. Kay أنَّ ذلك كان خَاضِعًا لسُنَّةٍ كان قد اسْتنَّها الفاطِميون من قَبْلٍ، فعندما أسَّسُوا « المَنْصوريَّة » ـ عاصِمَتَهم في إفْرِيقِيَّة ـ كانت مُنْعِزلَةً بقدرٍ كافٍ عن القَيْرَوانِ [٤]. ولاشَك أنَّ المَنْصُوريَّة كانت الأُنْموذج الذي أُنْشِئَت على مِثَالِه مَدينَةُ القَاهِرَة.

هكذا كانت القاهِرَةُ في أوَّلِ عَهْدِها « حِصْنًا » يَشْتَمِلُ على قَصْرٍ فَخْمٍ وثُكْنَات للجُنُود ومَقَرٍّ للحُكْمِ، خُطِّطَت لتكون العاصِمَة الإدَاريَّة والعسكرية للنِّظام الفَاطِمِيّ ومركزًا للدِّعَاية الدِّينية والثَّقافية للمَذْهَبِ الإسْماعيليّ، على أنْ تكون مِصْر الفُسْطاط ـ التي بَلَغَت قِمَّة ازْدِهَارِها في أوائل القَرْنِ الخَامِس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ ـ هي العاصِمَة التجارية والاقتصادية للبلاد (Metropole).

وهذا الأمْرُ ليس جَديدًا فقد اتُّبِـعَ من قَبْل عند تأسيس مُدُنٍ أميريَّة ومَلَكِيَّةٍ سَابِقَة، فقد كان هذا هو حَالُ بَغْدَاد وسامَرَّا (سُرّ مَنْ رَأى) والقَطَائِع والمَهْدِيَّة والمَنْصُورية، وهو النِّظامُ نفسه الذي اتَّبَعَه صَلاحُ الدِّين فيما بعد عندما بَنَى قَلْعَةَ الجَبَل فانْتَقَلَ إليها مَقَرُّ السُّلْطان وثُكْنَاتُ الجَيْش ودَوَاوِينُ الدَّوْلَة، وأصْبَحَت القَاهِرَةُ منذ هذا التأريخ مَدينَةً بكلّ معنى الكلمة ويُسْمَحُ للنَّاسِ بدُخُولها والإقَامَة فيها، واتَّخَذُوا بها الأسْواق ورَاجَت فيها التِّجارةُ حتى حَلَّت نِهائيًا مَحَلَّ

---

[١] ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٦.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ١٧١، ٢٢٢.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٢٠.

[٤] H. C. Kay, «Al-Qâhira and its Gotes», *JRAS* XV (888), p.233.

الفُسْطاط . وقد عَزَّ ذلك على المَقْرِيزي فنجده يقول : « ... فصَارَت القاهِرَةُ مَدينَة سُكْنَىٰ بعدما كانت حِصْنًا يُعْتَقَلُ به ودَار خِلَافَةٍ يُلْتَجَأُ إليها فهَانَتَ بعد العِزّ وابْتُزِلَت بعد الاحْتِرَام »[١].

*
* *

بَدَأ القائِدُ جَوْهَرُ في لَيْلَة وُصُوله إلى مصر في وَضْعِ أسَاسِ قَصْرٍ كبيرٍ وسُورٍ يُحيطُ بالقصر ويُحَدِّدُ مَوْضع المدينة الجديدة . ولمَّا كانت أعْمالُ الحَفْرِ الأوَّليَّة ووَضْعُ الأسَاسَات قد تَمَّت في أثْناء اللَّيْل وبعَجَلَةٍ كبيرةٍ ، حتى إنَّ أعْيَانَ الفُسْطاط عندما أتَوْا في صَبَاحِ اليوم التَّالي لتَهْنِئَة جَوْهَر وَجَدوا أنَّ أُسُسَ البِنَاء الجَدِيد قد حُفِرَت ، ولاحَظَ جَوْهَرٌ وُجُودَ ازْوِراراتٍ في تَخْطيط القَصْر وأنَّ خُطُوطَه لا تَسِيرُ على اسْتقامَةٍ وَاحِدَة[٢]، وبالطَّبْع كانت هذه أيضًا حالَةُ أسْوَارِ المَدِينَة ، ومع ذلك فقد كَوَّنت مُرَبَّعًا مُنْتَظِمًا تُوَاجِهُ أضْلاعُه الجِهَات الأرْبَع الأصْلية .

كانت مِسَاحَةُ القَاهِرَة عند بِنَائِها أقَلَّ بكثيرٍ من المِسَاحَة التي تَحُدُّها الآن أبْوابُ القَاهِرَة البَاقِيَة في سُورها الشَّماليّ والجنوبيّ ، فكانت تمتدُّ طُولًا من شَمَال الحَدِّ الشَّماليّ لجامِع المؤيَّد ـ الذي بُني داخِل باب زَوِيلَة الكبير ـ إلى الحَدِّ الجَنُوبيّ للجامع الحاكِميّ الذي بُني في الأسَاس خارِج أسْوَارِ المَدِينَة الشَّمالية . أمَّا حَدَّاها الشَّرْقِيّ والغَرْبِيّ فلم يَخْتَلِفا كثيرًا عن الحَدِّ الذي أُنْشِئَت عليه .

وبفَضْلِ المُؤَرِّخ المصريّ ابن زُولَاق ، الذي عَاصَرَ سَنَوَات الفَتْح الفاطميّ ، حَفِظَ لنا المَقْرِيزيُّ خَبَرَ بِناءِ القاهِرَة . ولكنَّنا ، في الوَقْتِ نفسه ، لا نَمْلِكُ أيَّة معلومات عن طَرِيقَة وكيفية هذا البِنَاء ، ولا أسْمَاء المُهَنْدِسِين الذين وَضَعُوا تَصْميم

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢: ١٧١، ٢٢٣.
[٢] نفسه ٢: ٢١٢.

المَدِينَة ، ولا جِنْسية العُمَّال والحِرَفِيين الذين أتمُّوا هذا العَمَل .

ولابُد أنَّ البَدْءَ في البِنَاء قد اسْتَغْرَقَ بَعْضَ الوَقْت لإعْدَاد المَوَادّ الضَّرورية له ، وتَجْهيز الطُّوب اللَّبِن اللَّازِم بالمقاييس المناسبة ، الذي تَمَّ إعْدادُه من طِينٍ أُخِذَ من الخَلِيج ، ثم نَقْله إلى مَوْضع البِنَاء . وعلى ذلك فإنَّ ما تمَّ في الأيَّام الأولىٰ للفَتْح لم يتعدّ عَمَلِيَّات الحَفْرِ وإعْدَادِ المَوْقِع .

وأُنْجِزَت الأعْمالُ الرَّئِيسَة في بِنَاءِ القاهِرَة في السَّنتين التاليتين للفَتْح ، قبل هُجُوم القَرَامِطَة على مصر في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م . فقد بُني في خِلالِ هذين العامَيْن القِسْمُ الأكْبَر من القَصْر وتمَّ بِنَاءُ السُّور الذي أحَاطَ بالمَدِينَة ووُضِعَ أسَاسُ « جَامِع القاهِرَة » الذي عُرِفَ فيما بعد بـ « الجَامِع الأزْهَر » ، كما عَهِدَ جَوْهَرٌ إلى كلِّ أميرٍ من أُمَرَائِه هو وعَسَاكره مَسْئُولية بِنَاء قِسْمٍ من المَدِينَة يتَّخِذُونَه مَنْزِلًا لهم [1].

١ ـ تَخْطِيطُ المَدِينَة الأوَّل

عَرَفَ القُدَمَاءُ أشْكالًا مُتَعَدِّدَةً لتَخْطِيط المُدُن . فكان التَّصْمِيمُ المُرَبَّعُ والمُسْتَطِيلُ هما القاعِدَة في المَنَاطِق التي تَقَعُ غَرْبِيّ نَهْر دِجْلَة ، بينما كان التَّصْميمُ الدَّائريّ من سِمَات البُلْدَان الوَاقِعَة إلى الشَّرْقِ من هذا النَّهْر . وكان ذلك الاتِّفَاقُ في مجرَّدِ شَكْل المُحِيط أو الإطَار الذي يُحَدِّدُ هذه المُدُن ، بينما اخْتَلَفَ التَّصْميمُ الدَّاخليّ الذي ملأ السَّطْحَ الذي حَدَّدَه هذا الإطَار من مَدِينَةٍ إلى أخرى [2].

---

[1] انظر كذلك K. A. C. CRESWELL, «The Foundation of Cairo», *Bull. of the Fac. of Arts. Univ. of Egypt* I (1933), pp. 258-81; ID., «The Founding of Cairo», *CIHC*, pp. 125-30.

[2] N. ELISSEEFF, «Physical Lay-out», I in *The Islamic City* (ed. by R. B. SERJEANT), Paris 1980, p.93.

ومن مُمَيِّزَات الشَّكْل المُرَبَّع والمُسْتَطيل أنَّه يُوَفِّر للمُخَطِّط أضْلاعًا مستقيمةً وزَوَايا قائِمةً، ممَّا يُيَسِّر عَمَلِيَّات البِنَاء وقِيَاسِ مِسَاحَة الأرْض، ويُوجِد - في الوَقْتِ نفسه - تَقَاطُعًا مُتعامِدًا يُحَدِّد وَسَطَ المَدِينَة ويوفِّر مَوَاقِع مُقَسَّمَة ذات أبْعَادٍ مُتَسَاوِيَة [1].

واتَّخَذَ تَخْطيطُ القَاهِرَة، في أوَّلِ الأمْر، الشَّكْلَ المُرَبَّع، وبعد نحو مائة وعشرين عامًا عندما وَسَّعَ بَدْرٌ الجَمَاليّ أسْوَارَ المَدِينَة الجَنُوبية والشَّمالية ونَقَلَها إلى حَيْثُ يَدُلُّ على مَوْقِعِها الأبْوَابُ البَاقِية منها إلى الآن، تحوَّلَ شَكْلُها إلى الشَّكْلِ المُسْتَطِيل.

كان يَخْتَرِقُ المَدِينَة شَارِعٌ رَئيسٌ يمتدُّ من بَابِ زَوِيلَة جنوبًا وحتى بابِ الفُتُوح شمالًا في موازاة الخَلِيج، أُطْلِقَ عليه «الشَّارِع الأعْظَم» وفي مَرحلة لاحِقَة «قَصَبَة القَاهِرَة» (شَارِعُ المُعِزّ لدين الله الآن) قَسَمَ المَدِينَة قِسْمين شِبْه مُتَساوِيين، ومع ذلك لم تَسْتَفِد القَاهِرَةُ أبَدًا من مَيْزَات التَّخْطِيط المُتَعَامِد الذي وَفَّرَه لها الشَّكْلُ المُرَبَّع ثم المُسْتطيل، فلم تكن المَوَاقِعُ التي قُسِّمَت إليها القَاهِرَة مُتَسَاوِيَة المِسَاحَة، ولم تَشْهَد أبَدًا وُجودَ شَوَارِع مُتَعَامِدَة على الشَّارِع الأعْظَم، إلَّا عندما فُتِح شارعُ الأزْهَر، في سنة ١٩٣٠م، فَقَسَمَ المَدِينة الفَاطِمية إلى أربعة أقسام شِبْه مُتساوية [2].

٢ - أسْوَارُ القَاهِرَة الأولىٰ

إذا كانت الصَّحْرَاءُ تمثِّلُ سُورًا طَبيعيًا لمصر فإنَّها لم تكن كذلك بالنِّسْبَة للقَاهِرَة، فقد كان السُّورُ ضَرُورَةً استراتيجيةً لها منذ البِدَايَة. كما أنَّ مُدُنَ الفَاطِميين الأولىٰ: المَهْدِيَّة والمَنْصُورية، كانت كلُّها مُدُنًا مُسَوَّرة.

---

[1] N. ELISSEEFF, *op.cit.*, p.13.

[2] عن الأشْكال المختلفة للمدينة القديمة ومَيْزَات كلّ شَكْلٍ منها، راجع L. MUMFORD, *La Cité à travers l'histoire*, Paris 1964; ED. PAUTY, «Villes spontannées et villes créés en Islam», *AIEO* IX (1951), pp.52-75 وفيما يلي ٢٤٥، ٤٢٩.

وبَنَىٰ جَوْهَرٌ سُورَ المَدينَة الأوَّل من اللَّبِن[١] على شكل مُرَبَّع طُول كلّ ضِلْع من أضْلاعِه ألْف وثمانين مترًا ، فكانت مِساحَةُ القَاهِرَة في أوَّلِ تأسيسها ١,١٦٦٤٠٠ مترًا مربعًا ، منها ٢٤٠,١٤١ مترًا مربعًا للقصر و ١٢٠,٠٥٠ مترًا مربعًا مِساحَةَ البُستان الكافوري ومثلها للميادين ، وأقيم على الباقي وقدره ٦٨٦,٠٠٠ مترًا مربعًا حارَات المَدِينَة وجُعِلَ قسمٌ منه فَراغًا تَحَسُّبًا للزِّيادِة مع الأيَّام .

وكان قِسْمٌ كبيرٌ من هذا السُّور اللَّبِن ، في ناحيته الشَّرْقية ما يزالُ قائمًا في زَمَنِ المَقْريزيّ يَقَعُ خَلْفَ سُورِ صَلاح الدِّين بنحو ٥٠ ذِرَاعًا (٢٨,٩٠ متر) فيما بين بَابِ البَرْقِيَّة ودَرْبِ بَطُّوط هُدِمَ في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م . وقد أبدَىٰ المقريزيُّ دَهْشَتَه من حَجْم الطُّوب المُستخدم في البِنَاء ، وذَكَرَ أنَّ طُولَ الطُّوبَة الواحِدَة ذِراعٌ وعَرْضَها ثُلُثَيّ ذِرَاع (٥٨×٣٤سم) ، وأنَّ سُمْكَ هذا السُّور كان كافيًا لأن يَمُرَّ فوقه فارِسان جَنْبًا إلى جَنْب[٢].

ولم تكن سَماكَةُ السُّور بغير مُبَرِّر ، فقد كان القَصْدُ منها هو تمكين الرِّجَال المكلَّفين بالدِّفاع عنه من سُرْعَة التَّجَمُّع عند أي نقطة معرَّضة لأن يَتَسوَّرها الأعْداءُ أو يُهاجِمونَها ، فإذا لم تكن هذه الاسْتِحْكامات سَميكَةً سُمْكًا كافيًا لما اسْتطاعَ المُحَاصَرون أنْ يُقاوِمُوا صَفًّا واحِدًا من الرِّجَال المهاجمين للحِصْن .

كان السُّورُ الجَنُوبيّ المواجه لمَدِينَة الفُسْطاط ، والسُّورُ الشَّمَاليّ المواجِه للصَّحَرَاء الممتدَّة إلى الرَّيْدَانية (العبَّاسية الحالية) والمَطَرِيَّة ، هما السُّورَيْن الرَّئيسيين للمدينة واللذين جَرَىٰ دَعْمهما وتَقْويتهما في فترات مُتتالية ، فهما مواجهان لمواطِن الخَطَر التي كان يُخْشَىٰ منها على القاهرة ، بينما كان جَبَلُ المُقَطَّم في شَرْقيّ المَدِينَة يكْفُلُ لها حِمايَةً طَبيعِيَّةً ، والخَليجُ والنِّيلُ في غَرْبيها يَضْمَنَان لها حِمايَةً مماثلة .

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢: ٢١٢: ١٨، ٢٥٤. صبح الأعشى ٣: ٣٤٩.

[٢] نفســه ٢: ٢٥٥؛ وكذلك القلقشندي :

وجَعَلَ جَوْهَرٌ للمَدِينَة تسعة أبْوَاب دَرَسَت جَمِيعُها ولا يُوجَد منها الآن أيّ أثَر ، وإنْ كان يُمْكِنُنَا أن نُعَيِّنَ مَواقِع بعضها بكثير من الدِّقَّة بفَضْل الأوْصَاف التَّفْصيلية التي أمَدَّنا بها مؤرِّخو الخِطَط المصرية [١].

ولم تكن الأبْوابُ الأولىٰ التي شَيَّدَها جَوْهَرٌ تُشْبِهُ أبْوابَ الحُصُون ، بل كانت مُجَرَّد أقْواسٍ يُعْبَر من خِلالِها وتُغْلَقُ أبْوابُها على المَدِينَة كلَّ مساء .

ففي وَسَطِ السُّور الجَنُوبيّ بَنَى جَوْهَرٌ بابَيْنْ مُتلاصِقَيْنْ أطْلَقَ عليهما بَابَا زَوِيلَة ـ نِسْبَةً إلى إحْدَىٰ قَبَائِل البَرْبَر الوَاصِلَة من المَغْرِب مع جَوْهَر ـ وكانا عِبَارَة عن قَوْسَيْنْ مُتَجَاوِرَيْن كان مَوْضِعُهُما عند إنْشَائهما عند رَأسِ حَارَة الرُّوم . وعندما وَصَلَ المُعِزُّ إلى مصر ودَخَلَ القَاهِرَة ، دَخَلَ من القَوْسِ الأيْمَن فازْدَحَم النَّاسُ عليه وتَجَنَّبُوا الدُّخول من القَوْسِ الأيْسَر وأشَاعُوا بينهم أنَّ مَنْ دَخَلَ منه لم تُقْض له حَاجَةٌ [٢]. ويمكن تَحْدِيدُ مَوْضِعَ القَوْسِ الأيْسَرَ في الرُّكْن الشَّماليّ للجَامِع المُؤَيَّد الآن ، أمَّا القَوْسُ الأيمن فقد ظَلَّ بَاقِيًا إلى أيَّام المَقْرِيزيّ عند المَسْجِد الذي تُسَمِّيه العامَّةُ مَسْجِدَ سَام بن نُوح ، وهو زاوية مازالَت تُقامُ فيها الصَّلاةُ إلى اليوم بجوار سَبِيل العَقَّادِين (المسجل بالآثار برقم ٤٠١) ، في أوَّل شارع الغُورِيَّة من جِهَة باب زَوِيلَة القَائِم الآن على يمين الدَّاخِل منه . فيكونُ ما بين بابِ القَوْس وباب زَوِيلَة الكبير الذي أقامَه بَدْرٌ الجماليّ (أي المَسَافَة بين الباب وسبيل العقَّادين) ليس من حُدُودِ المَدِينَة التي أسَّسَها جَوْهَر .

وكان بالسُّور الشَّماليّ بابان مُتَبَاعِدَان : بابُ الفُتُوح على يَسَار الخَارِج من القاهِرَة ، وبَابُ النَّصْر على يَمِين الخَارِج منها . وظَلَّ قَوْسُ بَابِ الفُتُوح الأوَّل بَاقِيًا

---

[١] راجع حول هذا الموضوع دراسة محمد أبو العمائم المهمة : «أسْوَارُ مدينة القاهرة وخِطَطُها : سُورُ جَوْهَر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م» ، حوليات إسلامية ٣٦ (٢٠٠٢) ، ٢٣-٩٤.

[٢] القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٤٩؛ المقريزي : المواعظ ٢: ٢٦٧.

إلى أيَّام المَقْرِيزيّ الذي شَاهَدَ عِقْدَه وعِضَادَتَه اليُسْرىٰ وعليه أسْطُرٌ من الكتابة بالقَلَم الكوفيّ [١]. وكان مَوْضِعُه عند رأس حارَة بَهَاء الدِّين (حارَة بَيْنَ السَّيارِج الآن) وتُحدِّد زِيَادَةُ الجَامِع الحاكمي ـ الذي بُني خَارِج أسْوَار جَوْهَر ـ مَوْضِعَ بَابِ الفُتُوح الأوَّل. ومازَالَت هذه الزِّيادَةُ بَاقِيةٌ تحت اسْم زَاوِيَة الشَّيْخ أبي الخَيْر الكُلَيْبَاتي (مُسَجَّلَة بالآثار برقم ٤٧٧).

أمَّا قَوْسُ بَابِ النَّصْر فقد أدْرَكَ منه المَقْرِيزيُّ أيْضًا قِطْعَةً من أحَدِ جَانِبَيْه كانت تِجَاهَ الرُّكْنِ الغَرْبِيّ للمَدْرَسَة القَاصِدِيَّة [٢]، ومازالَت هذه المَدْرَسَةُ قَائِمَةً إلى الآن باسْم الزَّاوية القاصِدِيَّة وتَقَعُ في شارع الجَمَالِيَّة (باب النَّصْر سَابِقًا) بين حَارَة العُطُوف وجَامِع الشُّهَدَاء (مُسَجَّلَة بالآثار برقم ١٠).

وكان سُورُ القَاهِرَة الغربيّ مُحاذِيًا لشَاطئ الخَلِيج، وفَتَحَ فيه جَوْهَرٌ في أوَّلِ الأمْر بَابَان: بَابُ الفَرَج وبَابُ سَعَادَة. يرىٰ CRESWELL أنَّ بابَ الفَرَج كان يَقَعُ في نقطةِ الْتِقَاء سُور القاهِرَة الجَنُوبِيّ بسُورِها الغَرْبِي في المَوْضِع الذي تَشْغَله الآن مديريةُ أمْنِ القَاهِرَة ومحكمة جَنُوب القَاهِرَة بميدان أحمد ماهر [٣].

أمَّا بابُ سَعَادَةَ فيَقَعُ إلى شَمَال بَاب الفَرَج عُرِفَ بذلك نِسْبَةً إلى سَعَادَة بن حَيَّان، أحَد قُوَّاد المُعِزّ، الذي قَدِمَ إلى مصر في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م ودَخَلَ القَاهِرَة من هذا البَاب لأنَّه أقْرَبُ الأبْوابِ المُوَصِّلَه إلى القَصْرِ الذي كان الوَاجِبُ يَدْعُوه للتَّوَجُّه إليه. وحَدَّدَ CRESWELL مَوْضِعَ هذا الباب بالقُرْبِ من جَامِع السُّلْطان جَقْمَق [٤] (المُسجل بالآثار تحت رقم ١٨٠) (نِهَايَة شَارِع دَرْبِ سَعَادَة من جِهَة شَارِع الأزْهَر).

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢١٣، ٢٥٠، ٢٧٢.

[٢] نفسه ٢: ٢١٣، ٢٥٣، ٢٧١.

[٣] K.A.C. CRESWELL, *MAE* I, p.31.

[٤] *Ibid.*

وعندما بدأ تَهْديدُ القَرامِطَة لِحُدُودِ مصر وخُشِيَ منهم على القَاهِرَة ، أقَامَ جَوْهَرٌ في سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م في أقْصَىٰ شَمَال السُّور الغَرْبِيّ ، المواجِه لمَوْضِع الأزْبَكِيَّة اليوم ، بَابًا أُطْلِقَ عليه بَابُ القَنْطَرَة لأنَّه بَنَى أمَامَه قَنْطَرَةً على الخَلِيج ليَعْبُر منها إلى المَقْس ليُنازِلَ القَرامِطَة بعيدًا عن القَاهِرَة . ويمكن تَحْدِيدُ مَوْضِعَه عند مَدْخَل شارع أمير الجُيُوش الجُوَّاني تجاه مَدْرَسَة باب الشَّعْرِية الآن [1].

وكان في السُّور الغَرْبِيّ بَابٌ رَابِعٌ يُعْرَفُ ببَابِ الخُوخَة ، اخْتَلَفَ مُؤرِّخُو الخِطَط في تَحْدِيد الزَّمَن الذي بُني فيه والمكَان الذي أُقِيمَ عليه . فالقَلْقَشَنْديُّ يَظُنُّ أنَّه من بِنَاءِ الفاطِميِّين ، والمَقْرِيزيُّ يَرَى أنَّه حَدَثَ بعد جَوْهَر . وفي النُّصُوصِ التي وَصَلَت إلينا من تاريخ ابن المأمُون ما يَدُلُّ على أنَّ هذا البَابَ كان مَوْجُودًا منذ زَمَنِ الفاطِمِيين وإنْ كنَّا نَجْهَلُ تَحْدِيدَ مَكَانِه بدِقَّة ، ويَظُنُّ القَلْقَشَنْدِيُّ أنَّه كان على القُرْبِ من قَنْطَرَة المُوسْكي [2].

أمَّا السُّورُ الشَّرْقيُّ للقاهِرَة فإنَّنا نَجْهَلُ عنه كلَّ شيءٍ تَقْرِيبًا ، حتى المَقْرِيزيّ نفسه - وهو دَلِيلُنا في كلِّ مَعْلُومَاتِنا الطُّبُوغْرافية - لم يَذْكُر عنه سوى أنَّه كان به بَابَان أحَدُهُما يُعْرَفُ ببَابِ القَرَّاطِين ، والآخر إلى الشِّمال منه ويُعْرَفُ ببَابِ البَرْقِيَّة وتَرَكَ مَوْضِعَه بَيَاضًا جَاءَ في جَمِيعِ نُسَخِ مَخْطُوطات « المَوَاعِظ والاعْتِبار » ، وإنْ كان المَقْرِيزيُّ قد أدْرَكَ بنفسه قِسْمًا كَبِيرًا من هذا السُّور ، كان هو القِسْمُ الوَحِيدُ المتبقي من أسْوَارِ جَوْهَر ، مُجَاوِرًا لبَابِ البَرْقِيَّة هُدِمَ في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م [3] ، وذَكَرَ في مَوْضِعٍ آخَر أنَّ أحَدَ بَابَيّ السُّور الشَّرْقِيّ كانت أسْكُفَّتُه مَوْجُودَةً إلى زَمَنِه [4].

---

[1] K.A.C. Creswell, *op.cit.*, I, p.272.

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٧، ١٠٠؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٥٠؛ المقريزي : المواعظ ٢: ٢٠٩، ٢١١، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٦٧، ٥٣٠، ٦٩، ٧١.

[3] المقريزي : المواعظ ٢: ٢٥٥.

[4] نفسه ٢: ٢١٣.

وشَاهَدَ سُورَ القَاهِرَة الرَّحَّالَةُ ابنُ حَوْقل بعد بِنَائِه بنحو خَمْسَة عَشْر عامًا وذَكَرَ أنَّه يَزِيد على ثَلاثَة أضْعَافِ ما بُنِيَ بالمَدِينَة [1]، التي لم يكُن بها حينئذٍ سِوى القَصْر والمَسْجِد الجَامِع والبُسْتَان الكافُوريّ وحَارات الوَاصِلِين مع جَوْهَر والمُعِزّ، وتُرِكَت هذه المِسَاحَاتُ الفَضَاءُ من أجْلِ التَّوَسُّع المَعْقُول في المُسْتَقْبَل.

ويَبْدُو أنَّ هذا السُّور الأوَّل لم يُعَمِّر طَوِيلًا، فنَاصِرُ خُسْرو ـ الذي زَارَ القَاهِرَة في أوَائِل خِلَافَة المُسْتَنْصِر ـ لا يُشِيرُ إليه إطْلاقًا، وإنْ كان يَعْرِفُ أسْمَاءَ خَمْسَة من أبْوَابِ المَدِينَة هي: بَابُ النَّصْر وبَابُ الفُتُوح وبَابُ القَنْطَرَة وبَابُ زَوِيلَة والبَابُ الخَامِس سَمَّاهُ باب الخَلِيج(؟). فهو يَقُولُ: « ولَيْس للمَدِينَة قَلْعَةٌ » [2]. وتَدُلُّ هذه الإشَارَةُ على سُرْعَة تَهَدُّم سُورِ القَاهِرَة الأوَّل وفَقْد المَدِينَة بَعْض حَصَانَتِها ممَّا يُفَسِّر لنا لماذا لم يستطع أعْوَانُ الخَلِيفَة المُسْتَنْصِر الدِّفَاعَ عنها أمَامَ الأتْراك الطَّامِعِين في الخَلِيفَة وفي الدَّوْلَة، وعَدَم قُدْرَتِهم على السَّيْطَرَة على الحُرُوب الدَّائِرة بين طَوَائِف الجُنْدِ دَاخِل القَاهِرَة نفسها، الأمر الذي دَفَعَ بَدْرًا الجَمَاليّ إلى إعَادَة بِنَاءِ هذا السُّور وتَقْوِيَة دَعَائِمه وتَحْصِين أبْوَابِه بين سنتي ٤٨٠ و ٤٨٥هـ/ ١٠٨٧ و ١٠٩٢م.

تَسْمِيَةُ المَدِينَة

وقَبْل أنْ أتَعَرَّض لوَصْفِ المُنْشَآت التي أحَاطَ بها السُّورُ، وتلك التي أُقِيمَت في خَارِجه لابد من مُنَاقَشَة تَسْمِيَة المَدِينَة وكيف اخْتِيرَ لها هذا الاسْم؟

فمثلما اخْتَلَفَ المؤرِّخُون في تَحْدِيدِ أصْلِ تَسْمِيَة الفُسْطَاط، أوَّل عَواصِم مصر الإسْلامية، فقد تَكَرَّرَ الشيْءُ نفسه بالنِّسْبَة لتَسْمِيَة القَاهِرَة. وكما اسْتَبْعَدْتُ أنْ تكون رِوَايَةُ اليَمَامَة التي أفْرَخَت في فُسْطَاطِ عَمْرو سَبَبًا لهذه التَسْمِيَة، فإنِّي أسْتَبْعِدُ أيضًا رِوَايَةَ المُنَجِّمين والغُراب وأنْ تكون سَبَبًا مَقْبُولًا لإطْلاقِ اسْم كَوْكَب

[1] ابن حوقل: صورة الأرض ١٤٧.

[2] ناصر خسرو: سفرنامة ٩٠.

المُشْتَري ، وهو القَاهِر ، على المَدِينَة . فهي رِوَايَةٌ أوْرَدَ المَسْعُوديُّ رِوَايَةً مُشَابِهَةً لها عند حَدِيثِه عن تأسيس مَدِينَة الإسْكَنْدَرِيَّة [1] . حَقِيقَةٌ أنَّ اليَعْقوبيّ ذَكَرَ أنَّ العَبَّاسِيين قد جَمَعُوا المُنَجِّمين عند تأسيس بَغْداد لاخْتِيَار طَالِعٍ مُنَاسِب لبَدْء وَضْع أسَاسِ المَدِينَة [2] ، إلَّا أنَّ الفاطِمِيِّين مع مالَهُم من إيمانٍ ومَعْرِفَةٍ بعلْم النَّجَامة والفَلَكَ لم يتَّبِعُوا هذا التَّقْليد عندما أسَّسُوا مَدِينَتي المَهْدِيَّة والمَنْصُوريَّة في إفْرِيقِيَّة .

وتَبْقَىٰ رِوَايَتَان تُكمِلُ كلٌّ منهما الأخرىٰ . فالمُعِزُّ عندما خَرَجَ لوَدَاعِ جَوْهَر وهو في طَرِيقه لفَتْحِ مصر ، الْتَفَتَ إلى المَشَائخ المُصَاحِبين له وقال : « والله لو خَرَجَ جَوْهَرٌ هذا وَحْدَه لفَتَحَ مصر وليَدْخُلَنّ إلى مصر بالأرْدية من غير حَرْبٍ ، ولينزلَنّ في خَرابَات ابن طُولُون ويَبْني مَدينَة تُسَمَّى القَاهِرَة تَقْهَرُ الدُّنْيا » [3] . فهذا تَوْجِيهٌ وَاضِحٌ من الخَلِيفَة إلى قَائِده عَيَّنَ له فيه الاسْم الذي أرَادَ أنْ يُطْلِقَه على عَاصِمَة خِلافَتِه في مصر .

وظَنَّ جَوْهَرٌ بعد أنْ أتَمَّ بِناء القَصْر والجَامِع وأدَارَ عليهما السُّور ، أنَّه يتقرَّبُ إلى مَوْلاه لو أطْلَق على المَدِينَة الجَدِيدَة اسْم « المَنْصُوريَّة » تَشَبُّهًا بعَاصِمَة الفاطِمين التي أسَّسَها المَنْصُور والد المُعِزّ في إفْريقية .

وعندما وَصَلَ الخَلِيفَةُ المُعِزُّ إلى مصر في آخر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م كان مُتَلَهِّفًا إلى رُؤْيَة عاصِمَتِه الجَدِيدَة والقَصْر الذي أُعِدَّ لسُكْناه ، فلم يَدْخُل المُعِزُّ الفُسْطاط التي زُيِّنَت له واسْتَعَدَّت لاسْتِقْبَالِه ، بل عَبَرَ النِّيلَ من الجيزَة مُبَاشَرَةً إلى حيث مَوْضِع القَاهِرَة ودَخَلَ إليها من بابِ زَوِيلَة الأيْمَن وتَوَجَّه مُبَاشَرَةً إلى حَيْث القَصْر الخِلافيّ فخرَّ سَاجِدًا وصلَّىٰ مع مرافقيه ركعتين شكرًا لله ، وسألَهُ أشْرَافُ مصر

---

[1] المسعودي : مروج الذهب ٢: ١٠٠-١٠١؛ المقريزي : المواعظ ١: ٤٠٤.

[2] اليعقوبي : البلدان ٢٣٨.

[3] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة ١٢-١٣؛ ابن أيبط : كنز الدرر ٦: ١٣٩؛ القلقشندي : صبح ٣: ٣٤٥؛ المقريزي : اتعاظ الحنفا ١: ١١٤ والمواعظ ٢: ٢٥٦ والمقفى الكبير ٣: ٨٧.

عن نَسَبِه ، فوَعَدَهُم بعَقْدِ مَجْلِسٍ يَسْرِدُ لهم فيه نَسَبَهُ ، ولمَّا اسْتَقَرَّ بالقَصْر جَمَعَهُم في مَجْلسٍ عام وقال لهم : « هل بقي من رُؤسائِكم أحَدٌ ؟ »، فقالوا : « لم يَبْقَ مُعْتَبر » . فسَلَّ عند ذلك لهم نِصْفَ سَيْفه وقال : « هذا نَسَبي » ، ونَثَرَ عليهم ذَهَبًا كثيرًا وقال : « هذا حَسَبي » . فقالوا بأجْمَعهم : « سَمِعْنا وأطَعْنا » [1]. ولمَّا اسْتَفْسَرَ من قائده عن اسْمِ المَدِينَة الذي أطْلَقَهُ عليها لم يَرُقْه تصَرُّفه وإطْلاقه اسْم « المَنْصُوريَّة » عليها ، فَغَيَّر اسْمها إلى « القَاهِرَة » كما أرَادَ اعْتِقَادًا منه بأنَّ هذا الاسْم سيكون فألًا حَسَنًا وأنَّها سَتَقْهَرُ الدُّنْيا ويحكم منها العَالم الإسْلامي [2].

لم يكْتَف المُعِزُّ بتَغْيير اسْمِ المَدِينَة بل إنَّه لم يَعْجبه مَوْضِعَها نفسه وعَتَبَ على قَائِده أنَّه لم يَبْنِ « القَاهِرَة » على ساحِل النِّيل في مَوْضِع المَقْس (مَيْدَان رَمْسِيس الآن) ، أو على الشَّرَفِ المعروف بالرَّصْد جَنُوبيّ الفُسْطاط (إسْطَبْل عَنْتَر الآن) لتكون من هذا المَوْضِع قَلْعَةً لمصر [3].

والمُعِزُّ مُحِقٌّ في بعض ما ذَهَبَ إليه ، فطبيعةُ أرْضِ القَاهِرَة ، حتى اليوم ، تُرابيّة سَبِخَة . فالجَبَلُ المُقَطَّمُ يَرْدِمها دائمًا بالتُّرَابِ ، ممَّا يجعل جَوَّها كَدِرًا بما تُثيرُه أرْجُلُ السَّيَّارَة والدَّواب من تُرَاب ، ويجعل الفَسَادَ يَعْجَلُ إلى مَبَانيها . كما أنَّها عُرْضَةٌ لأنْ تُغْرقها المياهُ المنحدرة من تِلالِ المُقَطَّم الأمْر الذي دَفَعَ الخَلِيفَة الحاكِم بأمْر الله ، في نِهايَة القَرْنِ الرَّابع الهجريّ/ العَاشر الميلاديّ ، إلى أنْ يأمُر النَّاسَ بإلْقَاءِ أتْربَة القاهرة وما يَخْرُجُ من بُيُوتها خَلْفَ سُورِ المَدِينَة الشَّرْقيّ لتَمْنَع السُّيُول ـ إذا أتَت ـ من دُخُولِ المَدِينَة ، فتكَوَّن من هذه الأزْبَال الكِيمَان التي عُرِفَت بكِيمَان البَرْقِيَّة [4]، في موضع الدَّرَّاسَة الحالية ، وقد ظَلَّت هذه الجِهَة خَالِيَةً من العِمَارَة طَوَال حُكْم الدَّوْلَة الفاطِمِيَّة لهذا السَّبَب .

---

[1] المقريزي : المواعظ ٢:٢٥٤ واتعاظ الحنفا ١: ١١١.

[2] ابن ظافر : أخبار الدول المنقطعة ٢٧ـ٢٨؛ ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٤.

[3] المقريزي : المواعظ ٢: ٢٥٥.

[4] نفسه ٢: ٢٢٢.

٣ ـ حَارَاتُ القَاهِرَة الأولَىٰ وأخْطَاطُها

تَمَيَّزَ تأسيسُ المُدُن الإسْلامية الأولىٰ في العِراق ومصر باخْتِطاط «الخِطَط» (مفردها خِطَّة) وتَوْزيعها على الجُنْد الفاتِحِين. وهي تَعْنى حِصَّةً من الأَراضي تُمْنَحُ للفاتِحِين القادِمين سَواءً بشَكْلٍ شَخْصيّ أو جَماعيّ[١]. ولكن ما مَيَّزَ خِطَط الفُسْطاط، العَاصِمَة الإسْلامية الأولى، هو وُجُودُ دُورٍ للأعْيانِ تَجَمَّع حَوْلَها مَوالي أصْحَابِ هذه الدُّور، يقول القَلْقَشَنْدِيُّ: «واعْلَم أنَّه كان في خِلال هذه الخِطَط دُورُ جَماعَةٍ كثيرةٍ من الصَّحَابَة ـ رِضْوَانُ الله عليهم ـ ممَّن حَضَرَ الفَتْح»[٢]، وتَخَلَّلَ كلَّ خِطَّةٍ منها «دُرُوبٌ وأزِقَّةٌ وسَقائِف»[٣].

ومع تأسيس مَدينَة القَطائِع الطُّولُونِيَّة في منتصف القرن الثَّالِث الهجريّ/التَّاسِع الميلاديّ، قَسَمَ أحمد بن طُولُون مَدينَته الجَدِيدَة إلى عِدَّةٍ قِطَعٍ سَكَنَها عَبيدُه وعَساكِرُه وغِلْمَانُه، وجَعَلَ كُلَّ قَطيعَةٍ لطائِفةٍ[٤]، وهي تَعْكِسُ النِّظامَ الإداريّ الجَدِيد الذي بدأ يَسُودُ في هذا العَصْـر. ونَظَرًا لأنَّ القَطائِع قد زالَت آثارُها ولم يَبْقَ لها رَسْمٌ يُعْرَف قبل عَصْر المَقْريزيّ بزَمَنٍ بعيد[٥]، فإنَّنا لا نَملك تَصَوُّرًا واضِحًا لما كانت عليه، وإنْ كان المَقْريزيُّ قد شَبَّهها بحارات القاهِرَة.

ثم كان تَأسِيسُ مَدِينَة القاهِرَة سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م بِدايَةَ مَرْحَلَةٍ جَديدَةٍ في هذا السِّياق، فاعْتبارًا من هذا الحَدَث بدأ مُصْطَلَحٌ جَديدٌ يَظْهَرُ في كِتاباتِ المُؤَرِّخين

---

[١] ابن عبد الحكم: فتوح مصر ٩١ـ١٢٨؛ ابن دقماق: الانتصار ٤:٣ـ٥؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣:٣٢٧ـ٣٣١؛ المقريزي: المواعظ ٢:٢٣ـ٣٩.

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٢٩.

[٣] ابن دقماق: الانتصار ٤: ٣٨.

[٤] المقريزي: المواعظ ٢: ٨١، ٨٥.

[٥] نفسه ٢: ٨٠.

المِصْريين، هو مُصْطَلَحُ «حَــارَة»، الذي لم نُقابِله في مصر من قبْل. وبدأ المُؤَرِّخون وكُتَّابُ الخِطَط في اسْتِخْدامِه للتَّدْليل على المناطِق السَّكَنِيَّة (الأحْيَاء) التي شَغَلْتها الفِرَقُ المختلفةُ للجَيْشِ داخِل أسْوار الحِصْنِ الفاطِميّ، وأخَذَت كُلُّ حارَةٍ اسم الجماعَة أو القَبِيلَة التي سَكَنَتْها. ومع امْتِداد المَدينَة أُطْلِقَ على التَّجَمُّعات التي نَشَأَت خارج أسْوارِها أيضًا اسم «حَــارَة».

وسُرْعان ما اخْتارَت فِرَقُ الجَيْشِ الفاطِميّ التي لم تجد لها أماكِنَ تَشْغَلها داخِل سُور المَدِينَة، أن تَخْتَطَّ حاراتٍ خَارِجَ بابِ زَوِيلَة شَمال شَرْقيّ بِرْكة الفِيل، وخارج بابِ الفُتُوح جَنُوبيّ الخَنْدَق. وإلى إحْدىٰ هذه الحارات الواقعة خارج باب زَوِيلَة، والتي كان يُقيمُ بها العَبيدُ، تُحِيلُ أقْدَمُ إشارةٍ مُؤَكَّدَةٍ وَصَلَت إلينا من العَصْر الفاطميّ إلى الحارات الفاطمية، هي إشارَةُ المُسَبِّحِيّ - في حَوادِث سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م - إلى حارات العَبيد خارج باب زَوِيلَة[١]. وسُرْعان ما أخَذَت هذه الحاراتُ أهميَّتها كضاحيةٍ جنوبية حتى خَرَّبَها السُّلْطانُ صَلاحُ الدِّين[٢].

وبِرَغْم وُجُود فَقَراتٍ مُطَوَّلةٍ وَصَلَت إلينا لمُؤَلِّفين عاشُوا في الخمسين عامًا الأولىٰ للحُكم الفاطِميّ في مصر مثل: ابن زُولاق والمُسَبِّحِيّ، فإنَّ أقْدَم شَهادَةٍ وَصَلَت إلينا عن حارات القاهِرَة كُتِبَت بعد نَحْو ثلاثة أرْباع القَرْن من تأسيس المَدِينَة، هي ذِكْرُ الرَّحَّالة الفارسيّ نَاصِر خُسْرو - الذي زَارَ القاهِرَة سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٦م - لحاراتِ القاهِرَة العَشْر، ولكنَّ ناصِر خُسْرو يُطْلِقُ عليها على الفَوْر «المَحَلَّات» يقول: «ولِمَدِينَةِ القاهِرَة عَشْرُ مَحَلَّاتٍ، وهم يُسَمُّون المَحَلَّة حَــارَة»[٣]. ويَبْدو الأمْرُ كما لو أنَّ المُصْطَلَح غَريبٌ عليه أو مُسْتَهْجَنٌ أو مصريٌّ صِرْف. ولا يَظْهَر مُصْطَلَحُ «حَــارَة» كذلك في كِتابات جُغْرافِيِّ القَرْن الرَّابع الهجريّ/ العَاشِر

---

[١] المسبحي: أخبار مصر ٨٧.

[٢] المقريزي: المواعظ ٣: ٥٣.

[٣] ناصر خسرو: سفرنامة ٩٩-١٠٠.

الميلاديّ (الإصْطَخْريّ والمَقْدِسيّ وابن حَوْقَل) سوى مَرَّةٍ واحِدَةٍ عند ابن حَوْقَل في إطار وَصْفِه لمَدينَة بَلِرْم ، قَصَبَة صِقِلِّيَّة ، بأنَّها «خَمْس حارات مُتجاوِرَة غير مُتباينة ببَعيد مَسافَة ، وإن كانت حُدُودُهَا ظاهِرَةً بيِّنَة»[١]. إضافَةً إلى ذلك فإنَّ لَفْظيّ : حَـارَة وحَوْمَة كانا أكْثر اسْتِخْدامًا في المَغْرِب والأنْدَلُس بمعنى «الرَّبَض» ، أي الأحْيَاء الوَاقِعَة خَارِج المَدينَة ، واسْتُخْدِمَت أيضًا بمعنى الأحْيَاء الموجودة داخِل الأسْوار . فهل اتَّبَعَ جَوْهَرُ الصَّقْلَبيّ مُؤَسِّسُ القاهِرَة في ذلك تَقاليدَ مغربية شاهَدَها أثناء فُتوحاتِه في المغرب الأقْصَىٰ[٢]؟ وهل كان المَشْرِقُ الإسلاميُّ في ذلك الوَقْت يجهل تمامًا مُصْطَلَح «الحـارَة»؟ لقد ذَكَرَ ابنُ القَلانِسيّ ، المتوفَّى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، في إطار ذكره لأحَدِ المُوَاجَهات التي دارَت في دِمَشْق سنة ٣٦٣هـ/ ٩٧٣م بين أهْل المَدِينَة والجُنُود الفاطِميين ، أنَّ «الفَسَادَ انْتَشَرَ في سائِر الضِّياع والجِهات وطُرِحَت النَّارُ في الأماكِن والحارات»[٣]. وإذا سَلَّمْنا أنَّ هذه الرِّوايَةَ تستعيدُ ألْفاظًا من القَرْن الرَّابع الهجريّ ، فإنَّنا نجد أنْفُسَنا أمامَ شَاهِدٍ جَديدٍ على وُجُود حاراتٍ أخرىٰ . ولكن هذا النَّصّ ـ المُتأخِّر نِسْبِيًّا ـ ليس دَليلًا مُؤَكَّدًا على معرفَة الشَّام للحَارَات قبل وُصُولِ الفاطِميين .

ولتَحْديد ما هي حارات القاهِرَة وما المَقْصُودُ بها يجب علينا أن نُراجِعَ كِتابات مُؤَرِّخي الخِطَط المصرية المتأخِّرين أمثال : ابن عبد الظَّاهِر وابن دُقْماق والمَقْريزيّ ؛ فأقْدَمُ هؤلاء ابنُ عبد الظَّاهِر ، المتوفَّى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م ، يقول : «ولمَّا نَزَلَ القائِدُ جَوْهَـرٌ بالقاهِرَة اخْتَطَّت كُلُّ قَبِيلَةٍ خِطَّةً عُرِفَت بها»[٤]. وهذا النَّصّ نَقَلَه عنه

---

[١] ابن حوقل : صورة الأرض ١١٨.

[٢] J.-CL. GARCIN, «Toporymie et topographie urbaines médiévales à Fustat Caire», *JESHO* XXVII (1984), p.124.

[٣] ابن القلانسي : ذيل تاريخ مدينة دمشق ٩.

[٤] ابن عبد الظاهر : الروضة البهية ١٦.

جَمِيعُ المُؤَرِّخِينَ المتأخِّرين [١]، وأضافَ ابنُ عبد الظَّاهِر إنَّ هذه الخِطَّة أُطْلِقَ عليها في القاهِرَة لَفْظُ «حَـارَة». ومع ذلك فإنَّنا نَجِدُ المُؤَرِّخ ابن دُقْمَاق، المتوفَّى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، يستمرُّ في اسْتِخْدام المُصْطَلَح المُسْتَخْدَم في الفُسْطاط ويُسَمِّي حارات القاهِرَة بـ«الخِطَط» [٢]!

أمَّا المَقْريزيُّ فهو الوَحِيدُ الذي قَدَّمَ لنا تَعْرِيفًا للحـارَة، يَصْعُب أن نُؤَكِّد إنْ كان ينْطَبِقُ على الحارَة الفاطِمِيَّة المُبَكِّرَة أو يصف الحارَة القاهِرِيَّة في القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلاديّ، لأنَّه تَعْرِيفٌ لُغَوِيٌّ اسْتَمَدَّه من لُغَوِيٍّ أنْدَلُسيٍّ عاشَ في القرن الخامِس الهجريّ/ الحادي عَشْر الميلاديّ هو ابنُ سِيدَه صاحِبُ كِتاب «المُحْكَم والمُحِيط الأعْظَم»، الذي يُحيلُ إليه المَقْريزيُّ في كُلِّ تَعْريفاته، يقول التَّعْرِيفُ: «الحارَةُ كلُّ مَحَلَّةٍ دَنَت مَنازِلُهُم، والمَحَلَّةُ منزل القَوْم» [٣]، وهو يستخدم مَرَّةً أخرى لَفْظَ مَحَلَّة لِوَصْفِ هذه التَّجَمُّعات السُّكانِيَّة، ممَّا يجعلنا نظنُّ أنَّ لَفْظَ «حَـارَة» له معنًى يُعادل لَفْظَ «مَحَـلَّة» الذي اسْتَخْدَمه جُغْرافيو القَرْنِ الرابع الهجريّ/ العاشر الميلاديّ وناصِر خسْرو في القَرْنِ الخامِس الهجريّ/ الحادي عَشْر الميلاديّ!

وعلينا أن نُلاحِظَ أنَّ المَقْريزيَّ عندما يَصِفُ المَدِينَة الفاطِمِيَّة وحاراتها فإنَّه يكْتب عن حَقائِقَ عُمْرَانية تَفْصِلُهُ عنها ما بين ثلاثة وخمسة قُرون، كما أنَّ مُصْطَلَحَ الحارَة في عَصْرِه كان في طريقه إلى تَغَيُّر مَدْلُوله، وكانت العَديدُ من

---

[١] ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ٦: ١٤٠؛ ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٦؛ المقريزي: المواعظ ٣: ١٠؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٤: ٣٧.

[٢] ابن دقماق: الانتصار ٥: ٣٧، وقارن مع S. Denoix, *Décrire le Caire Fustat Misr d'après Ibn Duqmaq et Maqrîzî*, Le Caire IFAO 1992, pp. 17-18.

[٣] ابن سيدة: المحكم والمحيط الأعظم ٣: ٣٨٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٣.

الحارات الفاطِمِيَّة الأولىٰ قد اخْتَفَت مثل: الحـارَة المِرْتاحيـة والحـارَة الفَرْجِيَّة، وأوْرَثَت حاراتٌ أخرىٰ اسْمَها إلى دَرْبٍ من الدُّرُوب مثل: حَـارَة الأتْراك وحَـارَة الفَرْجِيَّة، أو تَقَلَّص حَجْمُها ودَخَلَت في تَجَمُّعٍ أكبر مثل حَـارَة كُتامَة وحَـارَة الطَّوارِق، وإنْ احْتَفَظَت بعضُ المواضِع التي وَرَدَت في حُجَجِ الوَقْف المملوكية بأسْمَاء الحارات الفاطِمِيَّة مثل: حَـارَة زَوِيلَة وحَـارَة الدَّيْلَم وحَـارَة الرُّوم وحَـارَة بَهَاء الدِّين وحَـارَة الهِلالِيَّة وحَـارَة الجَوْذَرِيَّة [١]، وكان يُضافُ إليها أحيانًا كلمةُ «خُـطّ» كأنْ يُقالُ: «خُطُّ حَـارَة الدَّيْلَم» أو يَحلُّ لَفْظُ «خُـطّ» مَحَلّ لَفْظ «حَـارَة» مثل: خُطّ الوَزيرية وخُطّ الجَوْذَرِيَّة وخُطّ اليانِسِيَّة وخُطّ المحمودية [٢].

كانت «حَـاراتُ» القاهِرَة الفاطِمِيَّة، مثلها مثل «خِطَط» الفُسْطاط و«قطائع» ابن طُولُون، معزولَةً بعضها عن الآخر ويَتَخَلَّلُ كُلًّا منها شَبَكَةٌ من السِّكَك والدُّرُوب ولكُلٍّ منها أسْواقُها وحَمَّاماتُها ومَساجِدُها، ولم تَخْتَلِف هذه الصُّورَة كثيرًا طَوَال العَصْر الإسْلاميّ، ولكنَّها فَقَدَت فقط صِبْغَتَها العسكرية التي مَيَّزَتْها في العَصْر الفاطِمِيّ. كما أنَّ وُجُودَ القَصْرِ والبَلاطِ الفاطِميّ في وَسَطِ المَدِينَة الحِصْن تَطَلَّبَ وُجُودَ مِساحاتٍ مَفْتوحَةٍ لاسْتِعْراضِ الجَيْش ومَسْلَكِ المواكِبِ الاحْتِفالية. ولكن مع الأزْمَة الاقتصادية والإدارية التي اجْتاحَت مصر في منتصف القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ والتي أدَّت إلى اسْتِدْعاء الإمام المُسْتَنْصِر بالله للقائِد العَسْكري بَدْر الجَمالي من عَكَّا ليُعيدَ الأمْنَ والنِّظامَ إلى البِلاد، فَقَدَت القاهِرَةُ بَعْضَ طابَعها الرَّسميّ و«أباحَ بَدْرٌ للنَّاس من العَسْكَرِيَّة والمِلْحِيَّة والأرْمَن وكلِّ مَنْ وَصَلَت قُدْرَتُه إلى عِمارَة، أن يُعَمِّرَ ما شاءَ في القاهِرَة مِمَّا خَلا من دُور الفُسْطاط بمَوْتِ أهْلِها. فأخَذَ النَّاسُ في هَدْم المساكِن

---

[١] J.-Cl. Garcin, *op. cit.*, p.126 n.39.

[٢] *Ibid.*, p.132 n.74.

ونحوها بمصر وعَمَّروا بها في القاهِرَة، فكان هذا أوَّلَ وَقْتٍ اخْتَطَّ النَّاسُ فيه بالقاهِرَة»[١].

ومن خِلال وَصْفِ ناصِر خُسْرو لكُلٍّ من القاهِرَة والفُسْطاط فإنَّنا نَلْحَظُ فَرْقًا واضِحًا في مَظْهَر وتَرْكيب كلٍّ من المَدينتين اللتين كوَّنتا العاصِمة المصرية في العَصْرِ الفاطِميّ. ففي الواقِع فإنَّنا أمامَ تَجَمُّعين مُخْتلفين تمامًا، فبينما تُمَثِّلُ الفُسْطاطُ مَدِينَةً يَقْطُنُها عامَّةُ الشَّعْبِ وطَوائِفُ العُلَماءِ والتُّجارِ والحِرَفِيين وتختصُّ بالنَّشَاط العِلْميّ والاقتِصاديّ والحِـرَفـيّ، نجد القاهِرَة تُـمَثِّلُ نَمَطَ المُدُن الملكية المُقَسَّمَه إلى حاراتٍ مُنْعَزِلة ويسكنها الصَّفْوَةُ التي تُمارِسُ أغْلَبَ السُّلْطَة الإدارية. وتُمَثِّلُ كلُّ حارَةٍ من حارَات القاهِرَة تكتُّلًا عِرْقِيًّا كما يَدُلُّ عليه اسْمُها، وتعكس في الوَقْتِ نفسه الرَّوابِطَ الاجتماعية لطَبقاتِ المجتمع القاهِريّ الذي يأتي على قِمَّتِهِ القَصْرُ الخِلافيّ ثم قُصُورُ ودُورُ الأُمَرَاء ثم حاراتُ الجُنُود والفِرَق العسكرية المُوَزَّعَة بطريقة عِرْقِيَّة، إلى أن نَصِل إلى سُور المَدينَة[٢].

وللأسَفِ فإنَّنا لا نَعْرِفُ على وَجْهِ الدِّقَّة عَدَدَ حارات القاهِرَة التي اخْتُطَّت وَقْتَ تأسيس المَدِينَة، ولكنَّنا نعرف أنَّ المَدِينَةَ كانت مُقَسَّمَةً وَقْت زيارَة ناصِر خُسْرو إلى عَشْرِ حَارات هي: حَارَةُ بَرْجَوان، وحَارَةُ زَوِيلَة، وحَارَةُ الجَوْذَرِيَّة، وحَارَةُ الأُمَرَاء، وحَارَةُ الدَّيالِمَة (الدَّيْلَم)، وحَارَةُ الرُّوم، وحَارَةُ الباطِلِيَّة، وحَارَةُ قَصْر الشَّوْك، وحَارَةُ عَبيد الشِّراء وحَارَةُ المَصامِدَة[٣]. ويبدو لي أنَّ عَدَدَ حَارات القاهِرَة الأولىٰ كان ستَّ حَارات تقَعُ جَميعُها بالقُرْب من أبْوابِ المَدِينَة هي: حَارَةُ زَوِيلَة، وحَارَةُ البَرْقِيَّة، وحَارَةُ كُتامَة، وحَارَةُ الباطِلِيَّة، وحَارَةُ الرُّوم البَرَّانية،

---

[١] المقريزي: المواعظ ١: ٩-١٠، ٢: ٢٢٢.

[٢] انظر تفصيل ذلك في كتابي A. Fu'ad Sayyid, *La capitale de l'Égypte jusqu'à l'époque fatimide*, Beirut 1998.

[٣] ناصر خسرو: سفرنامة ٩٩-١٠٠.

وحَارَةُ الرُّوم الجُوَّانِيَّة التي تُمَثِّل العَناصِرَ الرَّئيسَة التي شارَكت في الفَتْح الفاطِمِيّ لمصر والتي صاحَبَت سَواءً جَوْهَر الصَّقْلَبيّ أو المُعِزّ لدين الله . أمَّا بَقِيَّةُ الحارات فأخَذَت في الظُّهور مع نُمُوّ المَدينَة ووُصُول عَناصِرَ جَديدَة اسْتَعانَ بها الأئِمَّةُ الفاطِمِيُّون لدَعْم الجَيْش الفاطميّ مثل : الأتْراك والدَّيْلَم والسُّودان والأرْمَن .

ومع ذلك فإنَّ ما يذكره ناصِرُ خُسْرو ، نحو سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٦م ، عن حَارات القاهِرَة العَشْر تَنْقُصُهُ الدِّقَّة ، فقد ذَكَرَ المُسَبِّحِيُّ ، المتوفَّى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م ، حاراتَ أخرى مثل : المَحْموديَّة والبَرْقِيَّة والعُطُوفِيَّة والجُوَّانِيَّة والمَيْمونِيَّة والفَرْحِيَّة والعَبيد [١]. والحاراتُ المُتَّفِقَة بين الاثنين هي فقط : زَوِيلَة والجَوْذَرِيَّة وعَبيد الشِّراء .

وبتَتَبُّع مُعْطياتِ المَقْريزيّ في «الخِطَط» نجد أنَّ هناك على الأقَلّ أرْبَع حارات اخْتُطَّت في عَصْر العَزيز بالله ، ثَلاثَة داخِل سُور المَدينَة هي : الوَزيرِيَّة والأتْراك والدَّيْلَم ، وواحِدَة خارج باب زَوِيلَة هي : اليانِسِيَّة . كما أنَّ هناك نحو ستّ حارات اخْتُطَّت زَمَن الحاكِم بأمْر الله بينها خَمْس داخِل الأسْوار هي : بَرْجوان والجَوْذَرِيَّة والعُطُوفِيَّة وقائِد القُوَّاد والمَحْمُودِيَّة ، وواحِدَة خارج باب الفُتُوح هي حارَةُ عَبيد الشِّراء «الحُسَيْنِيَّة» . أمَّا حارَةُ العَبيد التي ذَكَرَها المُسَبِّحِيُّ فقد نَشَأت في السَّنَوات الأولىٰ لحُكْم الخَليفَة الظَّاهِر ، خارج باب زَوِيلَة ، لتَضُمَّ العَناصِرَ السُّودانية التي اسْتَعانَت بها بعَدَدٍ كبيرٍ زَوْجَةُ الإمام الظَّاهِر بأمْر الله .

ولا يمدُّنا المَقْريزيُّ ـ الذي ذَكَرَ التَحَوُّلَ المُهِمّ في شَكْل المَدِينَة في أعقْابِ إباحَة بَدْرِ الجَماليّ للنَّاسِ بالبِناء داخِل أسْوار المَدينَة ـ بأيَّة تَفاصيل تُعينُنا في هذا الموضوع . أمَّا بقيَّةُ الحارات التي نَشَأت في النِّصْف الأخير من عُمْر الدَّوْلَة الفاطِمِيَّة ـ فيما عَدا حارتيّ الصَّالِحِيَّة ـ فقد نَشَأت خارج بَاب زَوِيلَة وفي البَرّ الغَرْبِيّ للخَليج .

---

[١] المسبحي : أخبار مصر ٢٠، ٢١، ٢٢، ٨٧.

ويَبْدو من أوْصافِ المَقْريزيّ أنَّه لم يكن هناك فَرْقٌ واضِحٌ بين مَفْهوم وشَكْل التَّجَمُّعات السَّكَنِيَّة التي نَشَأت في كُلٍّ من الفُسْطاط والقَطائِع والقاهِرَة! يقول المَقْريزيُّ: «اعْلَم أنَّ الخِطَط التي كانت بمَدينَة فُسْطاط مصر، بمنزلة الحارات التي هي اليوم بالقاهِرَة، فقيل لتلك في مصر خِطَّة، وقيل لها في القاهِرَة حارَة»[1]؛ وعند ذِكْر قَطائِع ابن طُولون كَتَبَ يقول: «فكانت كُلُّ قَطيعةٍ لسُكْنى جَماعَةٍ بمَنْزِلَة الحارات التي بالقاهِرَة»[2].

ولكن مَفْهُوم وشَكْل الحارَة القاهِرِيَّة تَطَوَّر واخْتَلَف عَبْر الزَّمَان، حيث ظَهَرَ في العَصْرَين الأيُّوبيّ والمملوكيّ، بعد أن فَتَحَت القاهِرَةُ أبْوابَها للأنْشِطَة التِّجارية والحِـرَفِيَّة وانْتِقال مَرْكز الحُكْم إلى قَلْعَة الجَبَل، مُصْطَلَحٌ جَديدٌ هو «الخُطّ» (جـ. أخْطاط) والذي ضَمَّ أحْيانًا عَدَدًا من الحارات الفاطِمِيَّة[3]. ولكن مُصْطَلَحَ الحارَة لم يَخْتَف تمامًا بل تَحَوَّل مَدْلولُه، يقول جُوَمار Jomard في نهاية القرن الثَّامِن عشر: إنَّ أحْياءَ المَدِينَة الثلاثة والخمسين والتي تَبْدأ بكلمة «حـارَة» تَتَمَيَّزُ بأسْمَاء الأُمَم المختلفة وأنْواع الصُّنَاع والحِـرَفِيين والتُّجَار الذين يُقِيمُون فيها، أو تُنْسَب إلى المنشآت الرَّئِيسَة الموجودة بها. وهي عبارَة عن نِطاقاتٍ من المنازل تَتفاوَتُ في الاتِّسَاع وعادَةً ما تكون مُغْلَقَةً بأبْوابٍ تُقْفَل في أثناء اللَّيْل لضَمانِ أمْنِ المَدِينَة، عَدا شهر رَمَضان وبعض الأعْياد الليلية. وتَصُبُّ كُلُّ السِّكك الموجودة بها في «عَطْفاتٍ» تَتَّصِلُ بدَورها بالشَّارع الرَّئيس للحيّ الذي تستمدُّ عادَةً اسمها منه، ويُطْلَقُ على العَديد منها «خُطّ»، كما أنَّ بعض هذه الأحْيَاء مثل: بَيْن القَصْرَيْن وتَحْت الرَّبْع لا تَسْبِقُها كلمتيّ حارَة أو خُطّ[4].

---

[1] المقريزي: المواعظ ٢: ٣٢.

[2] نفسه ٢: ٨٠.

[3] نفسه ٣: ٦٩.

[4] جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ١٦١-١٦٢.

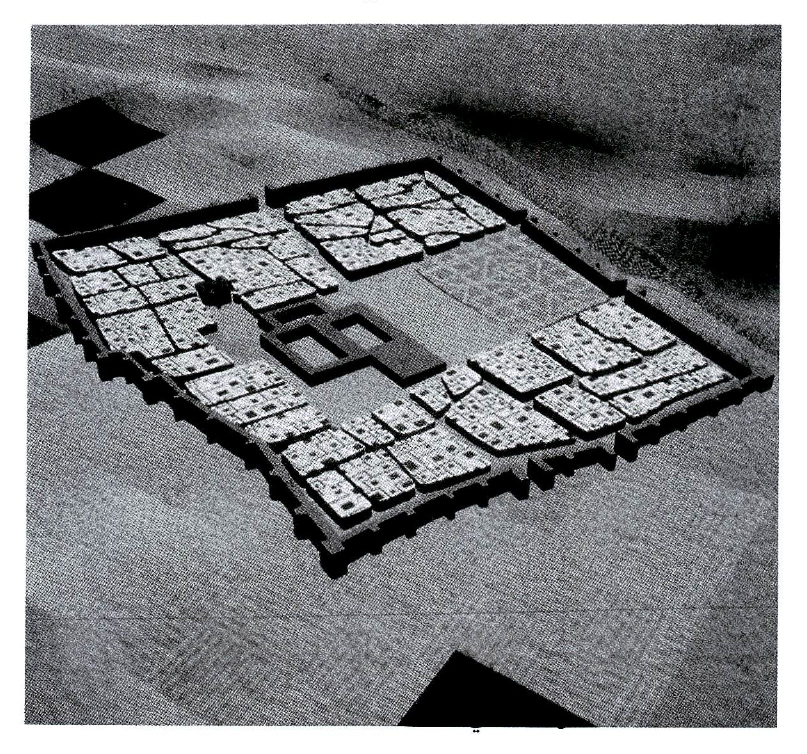
القاهِرَةُ دَاخِلُ الأَسْوَار Intra Muros

كان داخِلَ السُّورِ الفاطِمِيّ «القَصْرُ الشَّرْقِيّ الكَبِير» ـ الذي قَامَ في الجُزْء الشَّمالي الشَّرْقيّ من المَدينة ـ مُحْتَلًا المكانَ الذي يحدُّه اليوم المَشْهَدُ الحُسَيْنيّ وحيّ خَان الخَلِيليّ في الجَنُوب، وخانْقَاه بَيْبَرْس الجاشَنْكِير والجَامِع الأَقْمَر في الشَّمال. وفي دَاخِل مَبَاني هذا القَصْر تَوَزَّعَت القَاعَاتُ والخَزَائِنُ المُخْتَلِفَةُ ودُوَاوِينُ الحُكُومَة. وإلى الجَـنُوبِ من هذا القَصْر كان قائِمًا جَامِعُ القَاهِرَة (جَامِعُ الأَزْهَر) في قِسْمٍ من المكان الذي يشْغُلُه الآن. أمَّا إسْطَبْلاتُ الخُيُول ومَخازِنُ الغِلال (الأَهْرَاء) فكانت مُنْعَزِلَةً فيما بين القَصْرِ وسُورِ المَدِينَة الشَّرْقيّ.

وفي الجزء الغَرْبيّ من المَدِينَة أُقِيمَ «القَصْرُ الغَرْبيّ الصَّغيرُ» في مُوَاجَهَة القَصْر الكَبِير في المكان المَحْصُور الآن بين بِيمَارِسْتَان قَلاوُون جَنُوبًا وحَارَة بَرْجَوان شَمَالًا، وكان له جَنَاحَان بَارِزَان في كِلا طَرَفَيْه ليمتدّ بينهما وبين القصر الشَّرْقيّ الكَبِير «مَيْدانُ بَيْنَ القَصْرَيْن». أمَّا المَسَافَةُ بين القَصْرِ الصَّغِير وسُورِ المَدِينَة الغَرْبيّ فكان يَشْغَلُها «البُسْتانُ الكافُورِيّ» ومن خَلْفه «مَنَاظِرُ الخُلَفَاء» المُطِلَّة على الخَلِيج. وحَوْلَ القَصْرين كان هناك عَدَدٌ من الرِّحَاب والمَيَادِين تَفْصِلُ بين القَصْرِ الكَبِير وجَامِع القَاهِرَة (الأَزْهَر) وبينه وبين «دَارِ الوَزَارَة الكبرىٰ» من جهة وبَيْنَ القَصْرِ الصَّغير والجزء الشَّماليّ الغربيّ من المَدِينَة من جهةٍ أخرىٰ.

أمَّا بَقِيَّةُ المَدِينَة فكانت تَحْتَلُّها حَارَاتُ فِرَقِ الجَيْش الفاطميّ المختلفة والمَسَاجِدُ والأَسْوَاقُ والحَمَّاماتُ التي أُقِيمَت مع اضْطِّرادِ نُمُوِّ المَدِينَة الفَاطِمِيَّة.

وعلى عَكْسِ ما نَعْرِفُهُ عن خُصُوصِيَّة مَدِينَة القَاهِرَة في العَصْرِ الفَاطِمِيّ، نَجِدُ ناصِرَ خُسْرُو ـ الذي زَارَها بين سنتي ٤٤١هـ/١٠٤٩م و ٤٤٤هـ/١٠٥٢م ـ يُقَدِّرُ أنَّ بها ما لا يَقِلُّ عن عِشْرين ألف دُكَّان، كلّها مِلْكٌ للسُّلْطان (أي الخَلِيفَة) وأنَّ



«تَصَوُّر بالحاسُوب عن نِزَار الصَّيَّاد»

كثيرًا منها يُؤَجَّر بعَشْرَة دَنَانِير مَغْرِبِيَّة في الشَّهْر، وأنَّه ليس بينها ما يَقلُّ أجْرَتُه عن دينارَين، كما أنَّ الأرْبِطَة والحَمَّامات والأبْنِيَة الأخْرىٰ كثيرة لا يَحُدُّها الحَصْر وكلّها كذلك مِلْكٌ للسُّلْطان، إذْ ليس لأحَدٍ أنْ يَمْتَلِكَ عَقَارًا أو بَيْتًا غير المَنَازِل وما يكون قد بَنَاهُ الفَرْدُ لنَفْسِه. وسَمِعَ ناصِرُ خُسْرُو أثناء إقامته بالقَاهِرَة أنَّ للسُّلْطان ثمانية ألْف بَيْتٍ في القَاهِرَة ومِصْر وأنَّه يُؤَجِّرُها ويُحَصِّلُ أجْرَتَها كلَّ شهر[١].

ثم يُضِيفُ نَاصِرُ أنَّ أبْنِيَة المَدِينَة أقْوىٰ وأكثر ارْتِفاعًا من القَلْعَة، وكلّ قَلْعَةٍ حِصْن، ومُعْظَم أبْنِيَتِها تتألَّفُ من خَمْس أو سِتّ طَوَابِق وأنَّ هذه البُيُوت كانت من النَّظَافَة والبَهَاء بحيث يمكن القَوْلُ إنَّها بُنِيَت من الجَوَاهِر لا من الجَصّ والآجُرّ

[١] ناصر خسرو: سفرنامة ٨٨-٨٩.

والحِجَارَة ، ووَصَفَها بأنّها بَعِيدَةٌ بَعْضها عن بَعْض بحيث لا تَنْمُو أشْجَارُ بَيْتٍ على سُورِ بَيْتٍ آخَر وبحيث يستطيعُ مَالِكُ كلِّ بَيْتٍ أنْ يُجْري عليه ما يُريدُه من هَدْمٍ أو إصْلاحٍ دونَ أنْ يُضَايِقَ جارَه [١].

*

* *

إذا كان المَسْجِدُ الجَامِعُ على العُمُوم ، لا مَقَرُّ الحُكْم ، هو الذي يجب أنْ يُتَّخَذَ مُفْتَاحًا لكلِّ دِرَاسَةٍ طُبُوغْرافيةٍ أو تاريخيةٍ في أي مَدينةٍ إسْلامية ، فإنَّ الوَضْعَ بالنِّسْبَة للقَاهِرَة مُخْتَلفٌ ، فقد كان القَصْرُ الفَاطِمِيُّ هو قَلْبَ المَدِينَة والشيءَ الوَحِيدَ الذي حَرَصَ المُعِزُّ على أنْ يَضَعَ تَصْميمَه بنفسه وأمْلاهُ على قَائِدِه جَوْهَر ، وكان المَنْدُوبون يَفِدُون إلى مصر يُتَابِعُون ما أُنْجِزَ من مَبانيه [٢] ، وشَغَلَ نَحْو سَبعين فَدَّانًا تُمَثِّل نَحْو خُمْس مِسَاحَة القَاهِرَة ، فهو رَمْزُ سِيَادَة الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة والأثَرُ الذي ضَمَّ بين جَنَبَاتِه رَوائِعَ الفُنُونِ الفَاطِمِيَّة ، وتَبَارَىٰ الفَنَّانُون في زَخْرَفَته وتَصْويره ، وأثارَ إعْجَابَ زُوَّارِه وأحَارُوا في وَصْفِه ، حتى إنَّ منهم مَنْ خَافَ أن يُتَّهَم بالكَذِب إذا وَصَفَ ما شَاهَدَهُ في القَصْرِ أو تَحَدَّثَ عنه [٣].

حَقيقَةً أنَّ « جَامِعَ القَاهِرَة » ، الذي عُرِفَ فيما بعد بـ« الجامِع الأزْهَر » ، كان المَرْكَز الذي اعْتَمَدَ عليه الفَاطِمِيُّون في نَشْرِ الثَّقافة الفَاطِمِيَّة وبَثِّ الدَّعْوَة الإسْماعيلية ، إلَّا أنَّ القَصْرَ شَارَكَهُ في هذه المهمَّة ، فقد كان دَاعِي الدُّعَاة يَعْقِد مَجَالِسَ الدَّعْوَة التي يُلْقِيها على المُؤْمِنين من أتْبَاع المَذْهَب في مَوْضِع

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامة ٩٠ـ ٩١.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٢٨٤ـ ٢٨٥.

[٣] G. SCHLUMBERGER, *Campagnes du roi Amoury Ier de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle*, Paris 1906, p.118.

منه يُعْرَفُ بـ « المُحَـوّل » كان الإمَامُ (الخَلِيفَةُ) الفَاطِمِيّ يَشْهَدُ جَانِبًا منها في بَعْضِ الأَحْيَان [١].

كما أنَّ هذه هي أوَّلَ مَرَّةَ ، منذ الفَتْح العربيّ الإسلاميّ ، تَشْهَدُ فيها مصرُ قَصْرًا خِلافِيًّا وبَلاطًا للخُلَفَاء ، لم يَكْتف فقط بمنافَسَة بَلَاطِ خُلَفَاء بَغْدَاد بل تَفَوَّق عليه بمَظَاهِر التَّرَفِ والبَذَخِ والأُبَّهَة التي اسْتَغَلَّ الفَاطِمِيُّون في إضْفَائِها عليه كلَّ إمْكانَات مصر الحضَارية وما تميَّزَ به مَذْهَبَهُمُ العَقَائِديّ الخاصّ . بحيث أنَّ مصر لم تَعْرف منذ عَهْدِ الفَرَاعِنَة والبَطَالِمَة بَلاطًا يتميَّزُ بجِدَّتِه وبَذَخِه كالبَلاطِ الفَاطِمِيّ .

والقَصْرُ الفاطِمِيُّ هو المَوْضِعُ الوَحِيدُ داخِل القَاهِرَة ، بالإضَافَة إلى المَسَاجِد الفَاطِمية البَاقِيَة ، الذي يمكننا أنْ نُحَدِّدَ مَكَانَه بدِقَّةٍ ونَسْتَدِلَّ به على تَنْظيم المَدِينَة الفَاطِمِيَّة ، ونُعَيِّن عن طَرِيقِه سَائِرَ مَواضِعها التي نَشَأَت مع نُمُوّ المَدِينَة وتَطَوُّرها . وبفَضْلِ مُؤَرِّخي الخِطَط المِصْرِيَّة ، وخَاصَّةً ابن عبد الظَّاهِر ـ أوَّل من أَلَّفَ في خِطَط القَاهِرَة ـ تمكَّنَ شَيْخُ مُؤَرِّخي مصر الإسْلامِيَّة التَّقِيُّ المَقْرِيزيُّ من أنْ يُضَمِّن كِتابَه « المَوَاعِظ والاعْتِبار » فَصْلًا من أرْوَعِ فُصُولِه بَلَغَت عَدَدُ صَفَحَاتِه أكثر من مائتي صَفْحَة في نَشْرتي للكتاب ، في وَصْفِ هذا القَصْرِ وقَاعَاتِه وأبْوَابِه ودَهَالِيزه وما آلَت إليه حتَّى عَصْرِه .

ولن أتَعَرَّضُ في وَصْفِ هذا القَصْر إلى ذِكْر نُظُمِه ورُسُومِه [٢]، إلَّا مالَه عِلاقَة مُباشِرَة بطُبُوغْرافِية القَاهِرة ، وإنَّما سأقْصر وَصْفي فقط على ذِكْر مَكَان هذا القَصْر ومَوْقِعِه من القَاهِرَة وما آل إليه أمْرُهُ بعد زَوَالِ الدَّوْلَةِ الفَاطِمِيَّة واسْتيلاءِ الأيُّوبيين السُّنْيين على مَقَالِيدِ الأمُور في مصر ، وما قَامَ في مَوْضِعِه من مُنْشآتٍ ـ في العَصْرَين

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٣٠٥.

[٢] راجع في هذا الموضوع كتابي : الدولة الفاطمية في مصر ، P. SANDERS, *Ritual Politics, and the City in Fatimid Cairo,* New York 1994.، وكتاب عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورُسُومهم في مصر ، القاهرة ١٩٥٥.

الأيُّوبيّ والمملوكيّ ـ مازالَ بَعْضُها قَائِمًا إلى اليوم يُسْتَدَلُّ به على مَوْضِع القَصْرِ الفَاطِمِيّ الكَبِير.

القَصْرُ الفَاطِمِيّ الشَّرْقِيّ

في قَلْبِ مَدِينَةِ القَاهِرَة القَدِيمَة وفي مُواجَهَة المَآذِنِ الشَّاهِقَة للمَسَاجِد المَمْلُوكِيَّة الضَّخْمَة الكائنة الآن في شَارِع المُعِزّ لدين الله، كانت تَقُومُ منذ أكثر من أَلْفِ عامٍ ولمدَّةٍ تَزيدُ على قرنين ونِصْف القَرْن الوَاجِهَةُ الغَربية (الرَّئِيسَة) للقَصْرِ الفَاطِمِيّ الشَّرْقِيّ الكَبِير.

والقَصْرُ الفَاطِمِيُّ الشَّرْقِيُّ مجموعةٌ من الأبْنِيَة والقُصُور الصَّغِيرة أُطْلِقَ على مجموعها «القُصُورُ الزَّاهِرَة»، ولم تكن هذه الأبْنِيَةُ وَلِيدَة عَامٍ واحِدٍ أو من عَمَلِ حاكِمٍ واحِدٍ. فقد اخْتَطَّ جَوْهَرٌ القَصْرَ في اللَّيْلَة نفسها التي وَضَعَ فيها أسَاسَ المَدِينَة، اعْتمادًا على التَّصْمِيم الذي وَضَعَه الخَلِيفَةُ المُعِزُّ بنفسه، وبالطَّبْع فإنَّ هذا التَّصْمِيم لم يكن يَتَضَمَّن نِصْفَ الأبْهَاء الفَخْمَة التي نَقَلَ المَقْرِيزِيُّ وَصْفَها عن ابن المأمُون وابن الطُّوَيْر. فقد وَسَّعَ الخُلَفَاءُ والوُزَرَاءُ هذا القَصْر بعد ذلك وعَدَّلُوا فيه. ونَسْتَطِيعُ أنْ نَقُولَ باطِمْئنانٍ إنَّ القَصْرَ الفَاطِمِيّ الكَبِير اكْتَمَل بناؤه في زَمَنِ المُسْتَنْصِر بالله في مُنْتَصَف القَرْنِ الخَامِس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ، فيما عَدَا بعض إضَافَات صَغِيرة أُلْحِقَت بالقَصْرِ في زَمَنِ الإمام (الخَلِيفَة) الآمِر بأحْكام الله ووَزَارَة المأمُون بن البَطَائِحيّ (٥١٥ـ٥١٩هـ/ ١١٢٢ـ١١٢٥م).

وكانت أوَّلُ إضَافَةٍ إلى القَصْرِ من عَمَلِ الخَلِيفَة المُعِزّ لدين الله نفسه، فقد أمَرَ فَوْرَ وُصُولِه إلى القَاهِرَة بِبِنَاء تُرْبَةٍ في الرُّكْنِ الجَنُوبِيّ الغَرْبِيّ للقَصْرِ ليَدْفِن فيها تَوابِيتَ آبَائِه (المَهْدِي والقَائِم والمَنْصُور) التي اصْطَحَبَها معه من إفْرِيقِيَّة، ولتكون

تُرْبَةٌ يُدْفَنُ فيها الخُلَفَاءُ وأَهْلُهُم وأَوْلادُهُم فيما بعد [١].

وتمَّت أكبرُ الإضَافَات إلى القَصْرِ في زَمَنِ خَليفَتِه العَزيز بالله فقد بَنَى «قَصْرَ الذَّهَب» و«الإيوَانَ الكَبِير»، وشَيَّدَ في مُوَاجَهَة القَصْر الشَّرْقيّ، في المَوْضِع الذي تَقومُ فيه الآن مَجْمُوعَةُ قَلاوُون الشَّهِيرَةُ، «قَصْرَ البَحْر» أو «القَصْرَ الصَّغِير الغَرْبيّ» الذي قال عنه المُسَبِّحِيُّ إنَّه «لم يُبْنَ مِثْلُهُ في شَرْقٍ ولا في غَرْب» [٢].

وتَوَالَت الإضَافَاتُ إلى القَصْرِ بعد ذلك، فأَنْشَأ الإمَامُ (الخَلِيفَةُ) الحاكِمُ بأمْرِ الله بابَ البَحْر في أقصىٰ شَمَال الوَاجِهَة الغَرْبِية للقَصْر [٣]، وبعد نحو مائة عَامٍ أقَامَ الوَزِيرُ المأمُونُ البَطَائِحيّ (٥١٥-٥١٩هـ/١١٢٢-١١٢٥م) ثَلاثَ مَنَاظِر بين بَابِ الذَّهَب وبَابِ البَحْر أطْلَق عليها: الزَّاهِرَة والفَاخِرَة والنَّاضِرَة [٤].

وتكوَّنَ القَصْرُ من ثَلاثَةِ مَبانٍ كَبِيرَة مَسْتَطِيلَة الشَّكْل مختلفة الأحْجَام تُكَوِّن في مَجْمُوعِها ثَلاثَة أرْباعِ المُرَبَّع، أمَّا الرُّبع الرَّابع، الكائن في الشَّمال الشَّرْقيّ للقَصْر، فكان رَحْبَةً كَبِيرةً: بُنِيَ في مَوَاجَهَتها فيما بعد دَارُ الوَزَارَة الكبرىٰ (جَامِعُ بَيْبَرْس الجاشَنْكير بشَارِع الجَمَالِيَّة الآن)، كان يبدأ منها الاحْتِفالُ بصَلاةِ العِيدَيْن حيث يتوجَّه مَوْكِبُ الخَلِيفَة إلى مَوْضِعِ المُصَلَّىٰ خارِج بَابِ النَّصْر.

والقَصْرُ طَلْقٌ من جَمِيعِ جِهَاتِه لا يَتَّصِلُ به أيُّ بناءٍ، مُرْتَفِعُ الأبْنِيَة بحيث تُرَىٰ من خَارِجِ المَدِينَة، غير أنَّ المَرْءَ حينما كان يَقْتَرِبُ منه قَلَّما كان يَتَبيَّن منه شَيْئًا لارْتِفَاعِ الأسْوَارِ التي أحَاطَت به [٥].

---

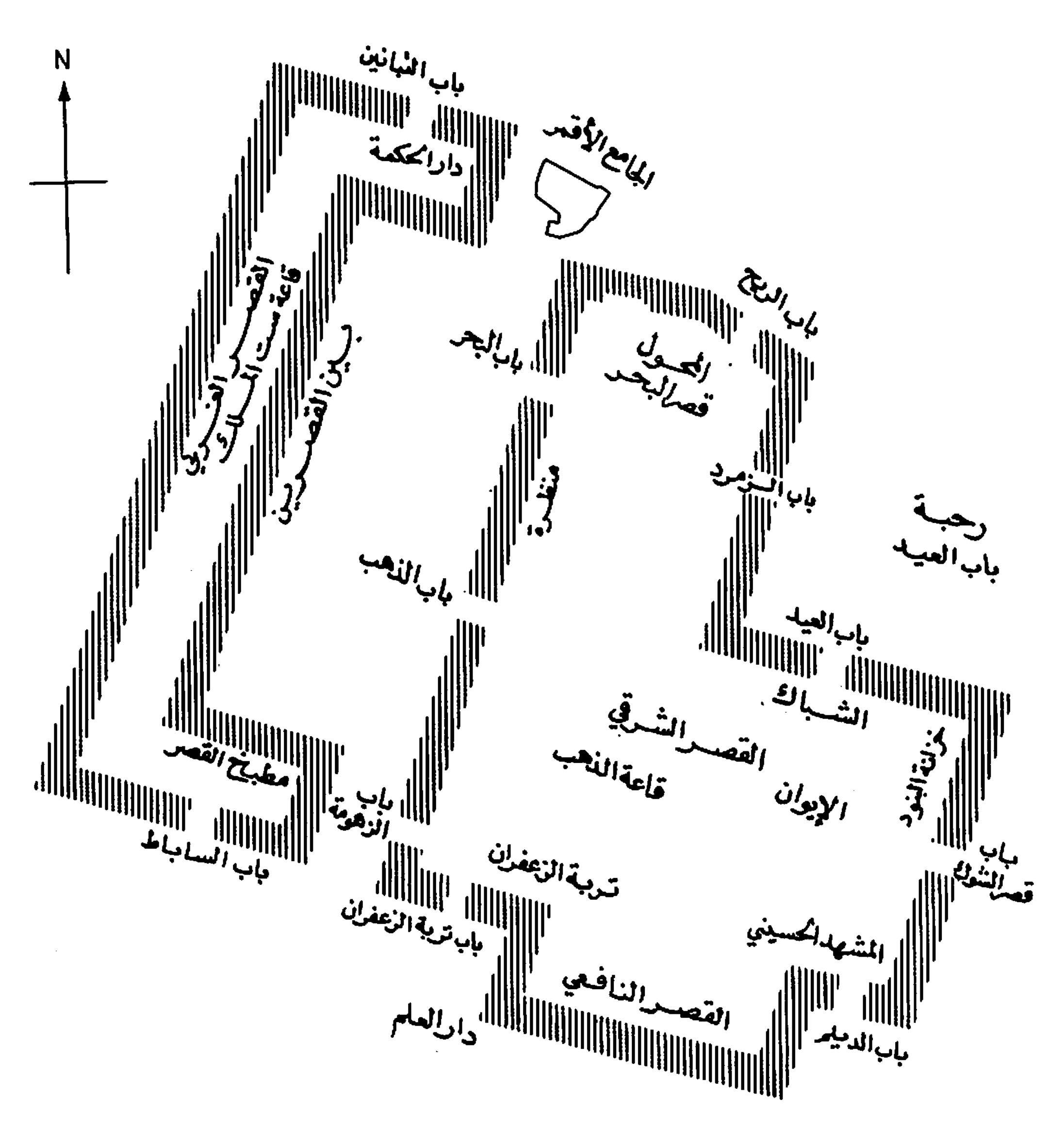
[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٣٥١.

[٢] نفسه ٢: ٤٩٥.

[٣] نفسه ٢: ٤٢٥.

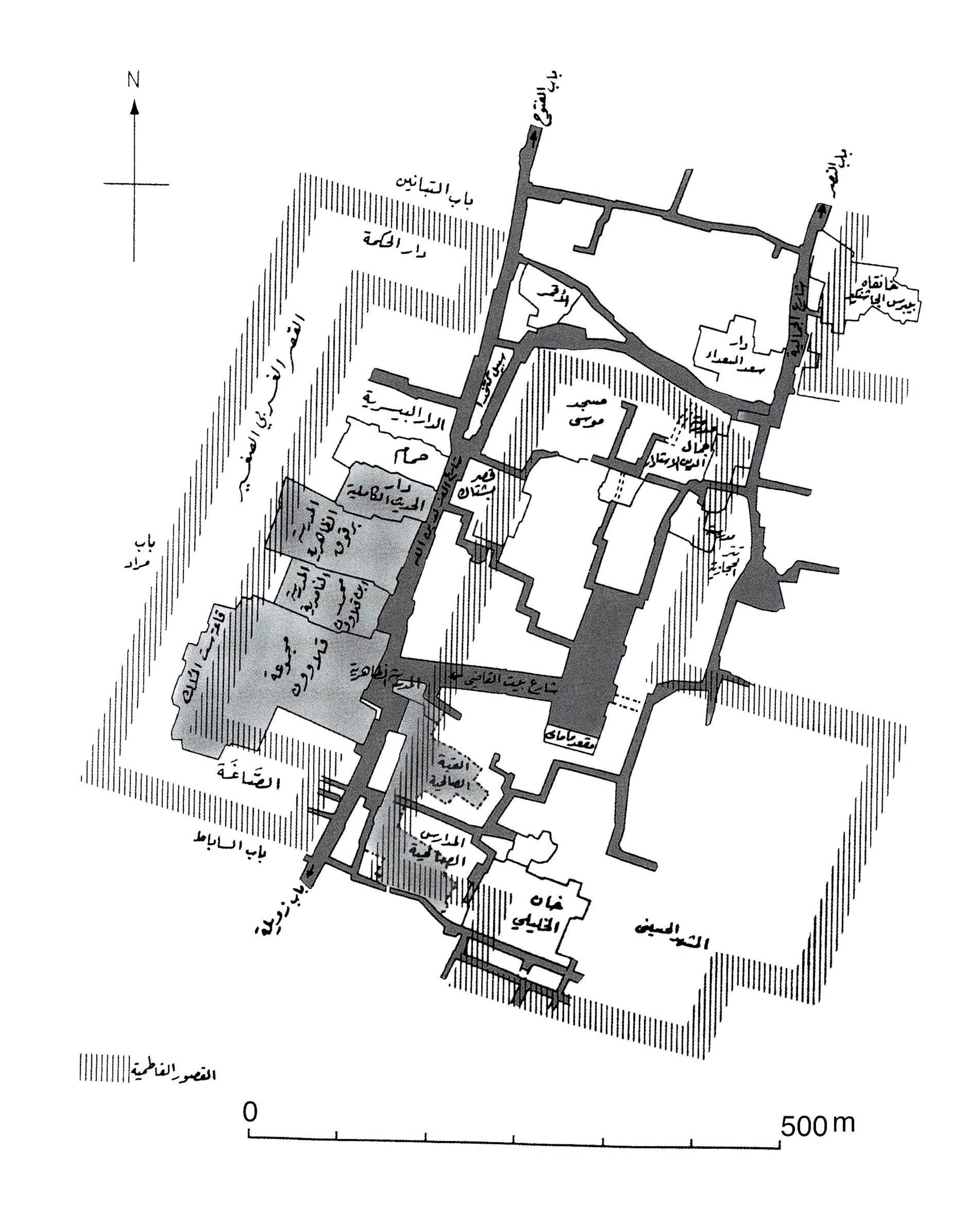
[٤] نفسه ٢: ٣٤٣.

[٥] ناصر خسرو: سفرنامة ٨٩.



شكل ١ - القصور الفاطمية

القَصْران الفاطميّان



مَوْقِع القصرين الفاطميين من القاهرة الآن

وتَبَعًا لنَاصِر خُسْرُو ـ الذي زَارَ القَاهِرَة بين سنتي ٤٣٩ ـ ٤٤٢هـ/١٠٤٧ ـ ١٠٥٠م ـ فقد تَكَوَّنَ القَصْرُ من اثني عشر جَوْسَقًا، غُرِسَت أَسْطُحُها بالأَشْجَارِ حتَّى صَارَت كالمُتَنَزَّهات، وانْتَشَرَت في أَفْنِيَتِه البَسَاتِينُ وقد نُصِبَت عليها السَّوَاقي لرَيِّها، واحْتَوَت على عَدَدٍ من أَحْوَاضِ المِيَاه (فَسَاقي) جُعِلَت للاسْتِمْتَاع وإنْعَاشِ الجَوّ وللاسْتِعانَة بها في إطْفَاء الحَرَائِق في حالَة ما إذا شَبَّ حَرِيقٌ في القَصْر [١].

واتَّخَذَ الفَاطِمِيُّون عَدَدًا من السَّرَادِيب والمَمَرَّات المَبْنِيَّة تحت الأَرْض، كان الخُلَفَاءُ يَنْزِلُون إليها من القَصْرِ ويَسِيرُونَ فيها بالدَّوَابِ يَصْحَبُهم عَدَدٌ من الجَوَاري يَتَوَجَّهُون منها إلى القَصْرِ الصَّغِير والبُسْتان الكافُورِي والمَنَاظِر المُطِلَّة على الخَلِيج، بحَيْثُ لا تَرَاهُم الأَعْيُنُ في تَنَقُّلاتهم الخَاصَّة [٢].

وطَوَال العَصْرِ الفَاطِمِيّ كان لهذه السَّرَادِيب اسْتِخْدَامَاتٌ كثيرةٌ، فمن خِلاَلِها حُمِلَ جُثْمَانُ الأَئِمَّة (الخُلَفَاء): الآمِر والحَافِظ والفَائِز الذين وافَتْهُم المَنِيَّةُ بجَزِيرَة الرَّوْضَة وبمَنْظَرَة اللُّؤْلُؤة على الخَلِيج إلى القَصْرِ الكَبِير، وتَمَّ نَقْلُ رَأْسِ الإمَام الحُسَيْن ـ رَضِيَ الله عنه ـ عندما قُدِمَ بها من عَسْقَلاَن، سَنَة ٥٤٩هـ/١١٥٤م، إلى القَصْرِ ومنه إلى المَشْهَدِ الذي أُعِدَّ لدَفْنِهَا في الجَانِب الآخَر من القَصْر. وعندما حُوصِرَ الأميرُ حَسَن بن الخَلِيفَة الحَافِظ في القَصْرِ الصَّغِير عَبَرَ عن طَرِيقِ أَحَدِ هذه السَّراديب إلى القَصْر الكَبِير ليَحْتَمِيَ بوَالِدِه الخَلِيفَة [٣].

وبعد أنْ زَالَت الدَّوْلَـةُ الفَاطِمِيَّة، وأُنْشِئَت المَدَارِسُ في مَوْقِع القَصْر (في القَرْنَين السَّابع والثَّامن للهجرة/ الثَّالِث عشر والرَّابع عشر للميلاد)، اتُّخِذَت هذه السَّرَادِيبُ أَسْرِبَةً للمَرَاحِيض، يَقُولُ المَقْرِيزِيُّ: «وهي بَاقِيَةٌ إلى يَوْمِنَا هذا تَصُبُّ في الخَلِيج» [٤].

---

[١] ناصر خسرو: سفرنامة ٨٩.

[٢] نفسه ٩٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٥٠؛ المقريزي: المواعظ ٢: ٤٩٦-٤٩٨.

[٣] المقريزي: المواعظ ٢: ٤٠٨.

[٤] نفســه ٢: ٤٩٨.

وقد حَدَّدَ أحمد زكي باشا طُولَ هذه السَّرَادِيب بنحو ٥٠٠ مترًا [١].

وشارك الوُزَرَاءُ الخُلَفَاء في اتِّخاذ السَّرَادِيب ، فعندما سَكَنَ الوَزيرُ العَادِلُ رُزِّيك ابن الصَّالح طَلائِع في دَارِ سَعِيد السُّعَدَاء فَتَحَ من دَارِ الوَزَارَة الكبرىٰ إليها سِرَدَابًا تحت الأرض ليمرّ فيه [٢].

وطَوال العَصْر الفَاطِمِيّ كان القَصْرُ الشَّرْقِيُّ الكبير هو مَقَرَّ دَار الخِلَافَة ، ومَوْضِعَ سَكَن الأئِمَّة الخُلَفَاء ومَحَلَّ حُرَمِهم ، والمَوْضِعَ الذي يَسْتَقبلُ فيه الإمَامُ (الخَلِيفَةُ) كِبَارَ رِجَالِ الدَّوْلَة وسُفَرَاء الدُّوَل الأجْنَبِيَّة ، كما كان مَقَرَّ الدَّوَاوِين وبَيْتِ المال وخَزَائِنِ السِّلَاح .

وحَدَّدَ لنا كلٌّ من القَلْقَشَنْدِيّ والمَقْرِيزِيّ مَوْضِعَ هذا القَصْر اعتمادًا على ما أُقِيمَ في مَوْضِعِه من مُنْشَآت وُجِدَت في القَرْنِ التَّاسع الهجريّ/ الخَامِس عَشْرَ الميلادِيّ ـ إذْ زَال كلُّ أثَرٍ له في هذه الفَتْرَة ـ ، بحَيْث إذا جَعَلَ المَرْءُ المَدْرَسَة الصَّالِحِيَّة ـ التي في بَيْنَ القَصْرَيْن ـ على يَسارِه ومَضَىٰ إلى حَيْث السَّبْع خُوَخ ثم إلى المَشْهَدِ الحُسَيْنِيّ ثم إلى رَحْبَةِ الأيْدُمُريّ ثم إلى الرُّكْنِ المُخَلَّق ثم إلى بَيْنَ القَصْرَيْن حتى يأتي إلى بَابِ المَدْرَسَة الصَّالِحِيَّة من حيث ابْتَدَأ ، كان ما على يَسَارِه في جَمِيعِ هذه الدَّوْرَة هو مَوْضِعَ القَصْرِ الكَبِير [٣].

ونَسْتَطِيعُ اليوم أنْ نَقُوم بهذه الدَّوْرَة أيضًا ، فقِسمٌ كَبِيرٌ من هذه المَعَالِم التي شاهَدَها القَلْقَشَنْدِيّ والمَقْرِيزِيّ مازَالَ بَاقِيًا ، والقِسْمُ الآخَر من السَّهْلِ الاسْتِدْلال على مَوْضِعِه .

---

[١] AHMAD ZAKI PACHA, «Les nouveaux égouts du Caire et les passages souterrains des Khalifes fatimides», *BIE* 5° Série VI (1912), pp.1-10, 195-97.

[٢] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٤١ .

[٣] القلقشندي : صبح ٣ : ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

والسُّؤالُ الذي يُلِحُّ علينا قَبْل أن نَبْدأ هذه الدَّوْرَة هو : هل كان يُحِيطُ بالقَصْرِ الفَاطِمِيّ سُورٌ ، أمْ أنَّ أبْوَابَه كانت تَفْتَحُ مُبَاشَرَةً على قَاعَاتِه المُخْتَلِفَة ؟

بما أنَّنا لا نَمْلِكُ أيَّ وَصْفٍ للقَصْرِ الفَاطِمِيّ في أوَّلِ إنْشَائه ، فإنَّنا مُضْطرُون إلى قَبُولِ رِوَايَة نَاصِر خُسْرُو الذي وَصَفَ القَصْرَ بعد بِنَائِه بثَلاثَة أرْبَاعِ القَرْن ، وتَبَعًا لرِوَايَتِه فقد تكوَّن القَصْرُ من عِدَّة مَبَانٍ شَاهِقَةٍ كانت تُرَىٰ من خَارِج المَدِينَة ، بينما تَعَذَّرَت رُؤْيَتُها من دَاخِل المَدِينَة بسبب إحَاطَة سُورٍ مُرْتَفِعٍ بهذه المباني [١]. ثم أشارَ المَقْريزيُّ ـ نَقْلًا عن مَصْدَرٍ لم يُحَدِّدُه ـ إلى أنَّ الوَزِيرَ رِضْوَان بن وَلَخْشِي عندما فَرَّ من مَحْبَسِه في القَصْرِ نَقَبَ في سُورِه ما قِيَاسُه ٣٥ ذِرَاعًا [٢]، ولا يتأتَّى ذلك إلَّا إذَا كان حَائِطُ القِسْم الذي حُبِسَ فيه يُمَثِّل قِسْمًا من سُورِ القَصْر نفسه . أمَّا ابنُ دُقْمَاق فيُشيرُ صَرَاحَةً إلى أنَّ القَائِدَ جَوْهَر بعد أنْ وَضَعَ أسَاسَ القَصْرِ عَمَّرَ عليه سُورًا دائِرًا [٣]، لكنَّه لم يُحَدِّد المَصْدَرَ الذي اعْتَمَدَ عليه في إيْرَادِ هذه الرِّوَايَة .

ويَتَّضح لنا من ذلك أنَّه كان هناك سُورٌ مُحِيطٌ بالقَصْر ، إلَّا أنَّه لم يكن مُنْفَصِلًا عنه بل يُمَثِّل الوَاجِهَة الخَارِجيَّة لِمَباني القَصْر ، بحيث أنَّ أبْوَابَ القَصْرِ كانت تَفْتَحُ مُبَاشَرَةً على دَهَاليز تَقُودُ إلى قَاعَاته وملحقاته .

وقد زالَ الآن وإلى آخِرِ حَجَرٍ كلُّ أثَرٍ للقَصْرِ الفاطِميّ الشَّرْقيّ الكَبير منذ عَصْرِ المَقْريزي ـ مَصْدَرنا الوحِيد في إعَادَة بِنَاء القَصْر ـ في القرنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلادي والذي اعْتَمَدَ في رَسْم صُورَة القَصْر الفَاطِميّ على مَصَادر كُتِبت في العَصْرِ الفاطميّ أو بعده بقليل مُقَارِنًا ما تُقَدِّمُه من مَعْلُومات بما حَلَّ محلَّها في وَقْتِه .

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامة ٨٩.

[٢] المقريزي : المواعظ ٢: ٢٠١.

[٣] ابن دقماق : الانتصار ٥: ٣٦.

أبْوَابُ القَصْر

عندما اكْتَمَلَ بِنَاءُ القَصْرِ كانت له تِسْعَةُ أبْوَابٍ، ثَلاثَةٌ في الحَائِط الغَرْبيّ هي: بَابُ الزُّهُومَة وبَابُ الذَّهَب وبَابُ البَحْر، ومِثْلُها في الحَائِط الشَّرْقيّ هي: بَابُ قَصْرِ الشَّوْك وبَابُ الزُّمُرُّد وبَابُ العِيد؛ واثْنَان في الحَائِط الجَنُوبيّ هما: بَابُ الدَّيْلَم وبَابُ تُرْبَةَ الزَّعْفَرَان، ووَاحِدٌ في الحَائِط الشَّماليّ هو بَابُ الرِّيح، كان أعْظَمُها وأكبرُها هو بَابُ الذَّهَب الوَاقِعُ في وَسَطِ الوَاجِهَة الرَّئيسَة للقَصْر.

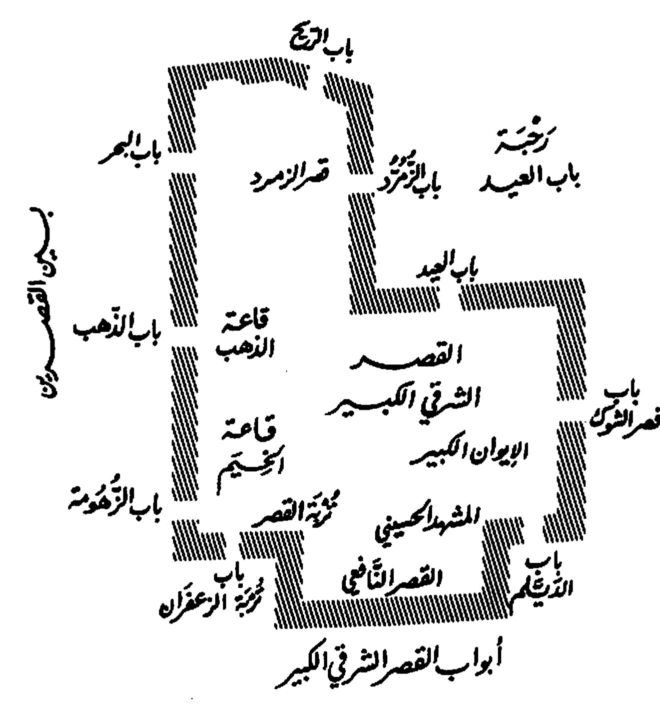
وهذه الوَاجِهَة هي الجُزْء الوَحِيد من القَصْرِ الذي يمكننا أنْ نُحَدِّدَه ونُعِيدَ بِنَاءَهُ بكلِّ الدِّقة، فقد كان يُمَثِّلُ الحَدَّ الشَّرْقِيّ لخُطِّ بَيْنَ القَصْرَيْن الذي كان يُطْلَقُ عليه إلى وَقْتٍ قَرِيب شَارِع النَّحَّاسين، وأصْبَح اليَوْم جزءًا من شَارِع المُعِزّ لدين الله.

فقد حَلَّ مَحَلَّ هذا الحَائِط في القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلاديّ من الجَنُوب إلى الشَّمال: المَدارِسُ الصَّالحِيَّة ثم قُبَّةُ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب ثم المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة العَتِيقَة ثم سُوقُ السِّلاح والمَدْرَسَةُ السَّابِقِيَّة وأخِيرًا قَصْرُ بَشْتاك. ومازَالَت بَقَايَا المَدَارِس الصَّالِحِيَّة قائمَةً إلى اليَوْم هي وقُبَّة الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب، أمَّا المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة العَتِيقَة فقد ضَاعَ قِسمٌ كَبِيرٌ منها مع فَتْحِ شَارِع بَيْتِ القَاضِي سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م، وحَلَّ سَبِيلُ النَّحَّاسِين الذي بَنَاهُ محمد عليّ باشا والدَّكاكين المُجَاوِرَة له إلى حَارَة بَيْت القَاضِي مَحَلَّ سُوقِ السِّلاح، ومازَالَت بَقَايَا المَدْرَسَة السَّابِقِية قائمةً دَاخِل دَرْبِ قِرْمِز، وأطْلال قَصْر بشتاك بعد تَرْميمها قَائِمَة إلى اليَوْم تُطِلُّ على شَارِع المُعِزّ لدين الله وعلى سَبِيل عبد الرحمن كَتْخُدا، المُنْشَأ في القَرْن الثَّاني عَشْر للهجرة/ الثَّامِن عَشْر للميلاد، الذي يَتَفَرَّع عنده الشَّارِعُ إلى قِسْمَيْن حيث يَسْتَمِرُّ شَارِعُ المُعِزّ لدين الله على يَسَاره إلى بَابِ الفُتُوح، ويَبْدَأ

شَارِعُ التُّمْبُكْشِيَّة على يَمِينِه لِيَدُورَ حَوْلَ مَوْضِع القَصْرِ الفَاطِمِيّ الكَبِير .

أمَّا بَقِيَّةُ حَوَائِط القَصْرِ فسنتعرَّف عليها ونحن نُعَيِّنُ مَوَاضِعَ أبْوَابِ القَصْرِ التِّسْعَة ، ولكن قَبل ذلك يجب أن نَعْرِفَ متى زَالَ القَصْرُ الفَاطِمِيّ ، ومتى حَلَّت هذه المُنْشَآتُ في مَكَانِه ؟

فَوْرَ أنْ نَجَحَ صَلاحُ الدِّين في إسْقَاطِ الدَّعْوَة الإسْماعِيلِيَّة من مِصْر ، وقَضَىٰ على آخِر خُلَفَاء الفاطِمِين بها ، عَمِلَ على تَغْيير رُسُوم الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة وعلى



مَوْضِع أبْوَابُ القَصْر

الإقْلال من شَأن القَصْرِ الفَاطِمِيّ ، بما أنَّه كان المَرْكَز الذي دَارَت فيه وحَوْلَه أغْلَبُ هذه الرُّسُوم ، فأسْكَنَ فيه أُمَرَاءه وقسَمَهُ بَيْنهم ، بينما نَزَلَ هو نفسه في دَارِ الوَزَارَة ، فأصْبَحَ مَوْضِعُ القَصْرَيْن في زَمَنِ صَلاحِ الدِّين وخُلَفَائِه هو سَكَنَ الأرِسْتُقْراطية الذين اشْتَغَلُّوا مُخَلَّفَات هذه القُصُور في بِنَاء قُصُورِهم الجَدِيدَة .

وحتى يُمَكِّنُ صَلاحُ الدِّين أمَرَاءَه ورِجَالَه من الإقَامَة في القَصْر ، أخْلاهُ لهم من أهْلِهِ وسُكَّانِه ، فكان جُمْلَةُ من أخْرَجَهم منه ١٢,٠٠٠ نَسَمَة أسْكَنَهم في دَارِ المُظَفَّر بحَارَة بَرْجَوَان وهي يَوْمَئِذٍ دَارَ الضِّيافَة [١].

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٦٠٨-٦١٢.

وفي الوَقْتِ نَفْسه أنْزَلَ صَلَاحُ الدِّينَ والِدَهُ نَجْمَ الدِّين أيُّوب في مَنْظَرَةِ اللُّؤْلُؤة على الخَلِيج [١]، وأعْطَىٰ لأخِيه المَلِك العَادِل سَيْف الدِّين أبي بكر القَصْرَ الغَرْبِيّ فسَكَنُه وفيه وُلِدَ له ابنُه الكامِل محمَّد.

ولم يَطْرأ التَّغْيير الكامِل على مَوْضِع هذه القُصُور إلَّا في سَلْطَنَة المَلِك الظَّاهِر بَيْبَرْس (٦٥٨ـ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ـ١٢٧٧م) فقد أشْهَدَ في سَنَة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م أبْنَاءَ وحَفَدَة الخَلِيفَة العَاضِد بأنَّ القَصْرَ وما حَوْلَه والمَنَاظِر ودَارَ الفِطْرة وكلَّ بَقَايَا آثَارِ الفَاطِمِيِّين قد أصْبَحَت مِلْكًا لبَيْتِ المَال « مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ شَرْعِيّ لا رَجْعَة لهم فيه » . فبِيعَت تلك الأمَاكِن شَيْئًا بعد شيء ونُقِضَت وابْتُنِيَ في مَوَاضِعِها، حتَّى لم يَبْق منه في القَرْن التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلاديّ سوى خَزَائن السِّلاح والمارِسْتَان العَتِيق (الذي بَنَاهُ صَلاح الدِّين مكان إحْدَىٰ قَاعَاتِه) والقُبَّة التي تُقابل السَّالِك من هذا البيمارِسْتان إلى رَحْبَة بَابِ العِيد، وما في دَاخِل المَشْهَدِ الحُسَيْنِيّ وبَعْض التُّرْبَة، يقول المَقْرِيزيّ: « لا أعْلَمُ شَيْئًا من آثَار القَصْرِ مَوْجُودًا سوى ذلك » [٢].

وقد وَجَّهَ المَقْرِيزيُّ نَقْدًا شَدِيدًا لما فَعَلَهُ الأيُّوبيُّون في مُمْتَلَكات الفَاطِميين واتَّهَمَهُم بالسَّرِقَة والغَصْبِ، في مَعْرِض حَدِيثِه عن إخْرَاج السُّلْطَان قَلاوُون لمُؤْنِسَة خَاتُون من الدَّارِ القُطْبِيَّة ليبني في مَحَلِّها القُبَّة المَنْصُوريَّة، وأضَافَ مُتَحَسِّرًا « بأنَّ القَوْمَ ما هُم إلَّا سَارِقٌ من سَارِق، وغَاصِبٌ من غَاصِب ...» [٣].

ولنَبْدأ الآن دَوْرَتَنا حَوْلَ القَصْر من حيث مَوْضِع بَابِ الذَّهَب ـ البَابِ الرَّئيس للقَصْرِ الفَاطِمِيّ الكَبِير ـ سَالِكين عَكْس الطَّريق الذي أشَارَ إليه القَلْقَشَنْديّ، بحيث يكون ما على يَمِيننا في هذه الدَّوْرَة هو مَوْضِعُ القَصْرِ الكَبِير الشَّرْقيّ.

---

[١] المقريزي: المواعظ ٢: ٥٣٢.

[٢] نفسه ٢: ٦١٠.

[٣] نفسه ٤: ٧٠٠.

بَابُ الذَّهَب

أعْظَمُ أبْواب القَصر ، كان يُؤَدِّي إلى قاعَة (قَصْر) الذَّهَب التي بَنَاهَا العَزيزُ بالله وجَدَّدَها المُسْتَنْصِرُ بالله ، سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٧م ، وبها كان السَّرِيرُ الذَّهَب (عَرْشُ الأئِمَّة الفَاطِمِيين) ، ومَوْضِعُ جُلُوسِهم لاسْتِقْبَالِ العَسَاكِر وكِبَارِ رِجَال الدَّوْلَة في يوميّ الاثْنَيْنِ والخَمِيس ، وفيها كان يُعْمَل سِمَاطُ شَهْر رَمَضَان للأُمَرَاء وسِمَاطُ العِيدَيْن ابتداءً من عَهْدِ الآمر بأحْكام الله في مَطْلَعِ القَرْنِ السَّادِس الهجريّ ، ومن هذا البَاب كان دُخُولُ سُفَرَاء الدُّوَل الأجْنَبِيَّة إلى القَصْرِ لِلِقَاء الخَلِيفَة ، ومنه دَخَلَ رَسُوليّ الملك عَمُوري الأوَّل Amaury I^er^، مَلِك مملكة بَيْتِ المَقْدِس المَسِيحِيَّة ، يَصْحَبْهُما الوَزِيرُ شَاوَر لمُقَابَلَة الخَلِيفَة العَاضِد .

وعُرِفَ هذا البَابُ بهذا الاسْم لأنَّ الخَلِيفَة المُعِزّ عندما قَدِمَ إلى مِصْر حَمَلَ معه أرْحِيَة الذَّهَب (الذي جَمَعُوه فَتْرَة إقامتهم بإفْرِيقِيَّة) وجَعَلَها على ظُهُورِ الجِمَال التي بَلَغَ عَدَدُها خمس مائة جَمَل على كلِّ جَمَلٍ ثَلاثَة أرْحِيَة ، وقد عُمِلَت عِضَادَتِيّ هذا البَاب من تِلْك الأرْحِيَة وَاحِدَةً فَوْق الأخرىٰ فسُمِّيَ «بَاب الذَّهَب» لهذا السَّبَب . وفي زَمَنِ الغَلاءِ الذي وَقَعَ في خِلافَة المُسْتَنْصِر اتَّخَذَ النَّاسُ مَبَارِدَ حَادَّة أخَذُوا يبْرُدُون بها الذَّهَب من على عِضَادَتِيّ البَاب حتى أخَذُوا أكْثَرَه ، ثم تمكَّنَ الخَلِيفَةُ من حَمْلِ ما تَبَقَّى منه إلى دَاخِل القَصْرِ فظَلَّ به ولم يَعُد إلى مَكانِه أبدًا .

وكان يَعْلو هذا البَاب مَنْظَرَةٌ ، كان الإمَامُ الفَاطِمِيّ (الخَلِيفَة) يُشْرِفُ منها في أوْقَاتِ الاحْتِفَالات .

وبعد زَوَالِ الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة صَارَ هذا البَابُ يُقابِلُ دَارَ الأمير فَخْر الدِّين جَهَارْكَس الصَّلاحِيّ التي عُرِفَت بعد ذلك بالدَّارِ القُطْبِيَّة ثم حَلَّ مَحَلَّها البِيَمارِسْتان المَنْصوريّ .

وعندما بَنَى الظَّاهِرُ بَيْبَرْس البُنْدُقْدَارِيّ مَدْرَسَته الظَّاهِرِيَّة بخُطّ بَيْنَ القَصْرَيْن سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م ، احْتَلَّت مَوْضِعَ قَاعَتَيِ السِّدْرَة والخِيَم من القَصْر الكَبِير ، وصَارَ مِحْرَابُ هذه المَدْرَسَة في مَوْضِع بَابِ الذَّهَب . ومع فَتْح شَارِع بَيْتِ القَاضِي سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م ، ضاعَت أجْزَاءٌ كَبيرةٌ من المَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة ، وإنْ كانت بَقَايَاهَا مازَالَت مَوْجُودَةً في عَطْفَة طَاهِر على يمين الدَّاخِل من شَارِع بَيْتِ القَاضِي من جِهَة شَارِع المُعِزّ لدين الله ، ومُسَجَّلَة بالآثار برقم ٣٧.

وهذا يَعْني أنَّ مَوْضِعَ بَابِ الذَّهَبِ كان بَعِيدًا عن مَوْضِع الشَّارع القَائم الآن بنحو سَبْعين مترًا بخِلافِ عَرْضِ الشَّارِع نفسه الذي يَقْرُب في وَقْتِنا الحَاضِر من خَمْسَة عَشْر مترًا في أوْسَعِ أنْحَائِه فيَصِلُ عَرْضُ الشَّارع إلى خَمْسَة وثمانين مِتْرًا . ولمَّا كان هذا المَوْقِعُ مَيْدَانًا ، يَسْتَعْرِضُ فيه عَشْرَة آلاف جُنْدي ، فلابد أنَّ عَرْضَه في زَمَنِ الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة كان بالأقَلّ مائة مترًا ، وعلى ذلك يكون المارِسْتانُ المَنْصوريُّ ـ المُواجِه للمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة ـ قد زَحَفَ عن أصْلِ بِنَائِه القَدِيم (الدَّار القُطْبِيَّة) ودَخَلَه شيءٌ كثيرٌ من أرْضِ المَيْدَان [1].

بَابُ البَحْر

وإذا تَرَكَ المَرْءُ بَابَ الذَّهَبِ على يَمينه ومَضَى في طَرِيقِه بَجِدُ على بُعْد ١١٠ مِتْرًا من هذا البَاب ، بَابَ القَصْرِ المعروف بـ « بابِ البَحْر » . وهو البَابُ الذي أنْشَأهُ الخَلِيفَةُ الحَاكِمُ بأمْرِ الله وكان يَفْتَحُ على المَجْلس المَعْروف بـ « المُحَوَّل » والمُجَاوِر لقَاعَة الذَّهَب . والمُحَوَّلُ هو مَجْلسُ دَاعي الدُّعَاة الفَاطِمِيّ الذي يُلْقي فيه مَجَالِسَ الدَّعْوَة على المُؤْمِنين ثم يُصَلِّي بهم في رِوَاقِه .

---

[1] راجع المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٢١ـ٤٢٥ ، A. FU'ĀD SAYYID, *La Capitale de l'Égypte*, pp. 239-46.

وفي سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٧م أنْشَأ المَلِكُ الكَامِلُ محمَّد بن أيُّوب في مُوَاجَهَة هذا البَاب مَدْرَسَته التي عُرِفَت بدَارِ الحَدِيث الكَامِلِيَّة ، فلَمَّا زَالَ هذا البَابُ أصْبَح يُسْتَدَلُّ بالمَدْرَسَةِ على مَوْضِعِه .

وظلَّ بَابُ البَحْر قَائمًا إلى أنْ هَدَمَهُ في سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس البُنْدُقْداريّ ليَسْتَخْدِمَ بَعْضَ عُمُدِه في إقَامَة أحَدِ مُنْشَآتِه . ثم اشْتَرَىٰ الأميرُ بَكْتَاش الفَخْريّ الصَّالحيّ النَّجْميّ المعروف بأمِير سِلاح الأرْضَ التي خَلَّفَهَا هَدْمُ بَابِ البَحْر والقَاعَات الوَاقِعَة خَلْفَه ، وأقَامَ في مَوْضِعِها قَصْرًا صَغِيرًا عُرِفَ بـ « قَصْر أمير سِلاح » وإلى جِوَارِه إسْطَبْلات لخُيُوله ومَسَاكِن لحَوَاشِيه . فلمَّا تُوفِّيَ اشْتَرَى الأميرُ بَشْتَاك هذه الأمَاكِن من وَرَثَتِه وأضَافَ إليها قِطْعَةَ أرْضٍ من أصْلِ القَصْرِ الفَاطِمِيّ كانت من حُقُوقِ بَيْتِ المَال فمَنَحَها له السُّلْطانُ النَّاصِرُ محمَّد بن قَلاوُون ، فهَدَمَ ما كان عليها من آثَارٍ للفَاطِمِين فيما عَدَا مَسْجِدًا عَمَّرَهُ وصَارَ يُعْرَف بمَسْجِد الفِجْل ، ثم أقامَ على أنْقَاضِ هذه المَوَاضِع قَصْرًا فَخِيمًا أتَمَّ بَنَاءَه في سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م ، كان في وَقْتِه من أعْظَم مَبَاني القَاهِرَة وَضَعَ له أسَاسًا قَوِيًّا وبَلَغَ ارْتِفَاعُ القَصْر نَفْسه أكْثَر من أرْبعين ذِرَاعًا (نَحْو ثَلاثَة وعشرين مترًا) وتأنَّقَ في زَخْرَفَتِه وعَمِلَ له شَبَابِيكَ من حَدِيد تُشْرِفُ على بَيْنَ القَصْرَيْن ، وأنْشَأَ في أسْفَلِه حَوانِيتَ كان يُبَاعُ فيها الحَلْوَىٰ .

ومازَالَت بَقَايَا قَصْر بَشْتَاك بعد تَرْمِيمِها قائِمَةً إلى اليوم بشَارِع المُعِزّ لدين الله على نَاصِية دَرْبِ قِرْمِز (مسجَّلة بالآثار برقم ٣٤)[١].

أمَّا بَقِيَّةُ الوَاجِهَةُ الغَرْبية للقَصْرِ الكَبِير فكَانَت تمتدُّ إلى حيث المَوْضِع المعرُوف بالرُّكْنِ المُخَلَّق الذي كان وَاقِعًا تِجاه حَوْض الجَامِع الأقْمَر على يَمِين من أرَادَ الدُّخُولَ إلى المَسْجِد المعروف بزاوية مَعْبَد مُوسَىٰ.

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٢٥ـ ٤٢٧؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.246-51.

بَابُ الرِّيح

وإذا تَرَكَ المَرْءُ مكانَ المَسْجِد المَعْروف بِزَاوِيَة مَعْبَد مُوسَىٰ على يَمِينه فإنَّ امْتِدَادَ شارع التُّمْبَكْشية الحالي يُوَصِّله إلى مَوْضع رَحْبَة بَابِ العِيد محدِّدًا بذلك الوَاجِهَة البَحْرية للقَصْرِ الفَاطِمِيّ الكَبير.

لَمْ يكن في هذه الوَاجِهَة سِوَى باب وَاحِدٍ يُعْرَف بـ « بَابِ الرِّيح » كان يَقَعُ في رُكْنِ القَصْر المُقَابِل لدَارِ سَعِيد السُّعَدَاء على يَمِين السَّالِك من الرُّكْنِ المُخَلَّق إلى رَحْبَةِ بَابِ العِيْد، كان يَدْخُلُ منه أَتْبَاعُ الدَّعْوَة الفَاطِمِيَّة إلى حيث المَجْلِس المَعْرُوف بالمُحَوَّل ليَسْتَمِعُوا إلى مَجَالِس الدَّعْوَة التي كان يُلْقيها عليهم دَاعي الدُّعَاة.

وفي زَمَنِ الدَّوْلَة الأيُّوبية سَكَنَ هذه القَاعَة الصَّاحِبُ مُعِين الدِّين حُسَيْنُ بن شَيْخ الشُّيُوخ وَزِير المَلِك الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب فعُرِفَ هذا المكانُ بقَصْرِ أوْلاد الشَّيْخ، وعُرِفَ بَابُه بين النَّاسِ ببَابِ القَصْر، وظَلَّ قائِمًا حتى أدْرَكَه المَقْرِيزِيُّ وهو على حَالِه له عِضادَتان من حِجَارَة ويَعْلُو أسْكُفَّتَه حَجَرٌ محفُورٌ فيه عِدَّةُ أسْطُرٍ بالقَلَم الكُوفيّ لم يَتَهَيَّأ له قِرَاءَتها. وهو بَابٌ مُرَبَّعُ الشَّكْل يَفْتَحُ على دِهْلِيزٍ مُسْتطيلٍ مُظْلِم يَقُودُ السَّالِكَ فيه إلى حَيْث المَدْرَسَة السَّابِقِيَّة وقَصْر بَشْتاك، قدَّرَ المَقْرِيزِيُّ أنَّ عَرْضَهُ يتجاوَز العَشْرَة أذْرَع ـ أي نحو الستة أمْتَار ـ وكان يَعْلُوهُ دُورٌ أُعِدَّت للسَّكن تُشْرِفُ على الطَّرِيق. ولمَّا أنْشَأ الوَزِيرُ جَمَالُ الدِّين يُوسُف الأُسْتَادَّار مَدْرَسَته برَحْبَة بَابِ العيد اغْتَصَبَ لها أمْلاكَ النَّاسِ المُجَاوِرَة للمَدْرَسَة فهَدَمَ بابَ الرِّيح في صفر سنة ٨١١هـ/ يولية ١٤٠٨م وبَنَى في مَكانِه وفي مَكانِ الدِّهْلِيز المُظْلِم قَيْسارِيَّةً كبيرة، لم يُحَدِّد المَقْرِيزِيُّ اسْمَها ولم يَذْكُرها عندما ذَكَرَ القَيَاسِر.

وحَدَّدَ عليّ مُبَارَك مَكانَ بَابِ الرِّيح في مَوْضِع الزُّقاق الذي بين مَدْرَسَة جَمَال الدِّين الأُسْتَادَّار (المُسَجَّلة بالآثار برقم ٣٥) ووَكَالَة الكَتْخُدا المعروفَة بوَكالَة ذي

الفِقَّار، وهي اليَوْم العَقَار رقم ٢٥ بشارع التُّمبكْشية تِجاه الجَانِب القِبْلِيّ لجَامِع سَعِيدِ السُّعَدَاء [١].

*

* *

إذا كُنَّا قد تمكَّنَّا من إعَادَة تَصَوُّر شَكْل الوَاجِهَة الغَرْبِيَّة الرَّئيسَة للقَصْر الفاطِمِيّ بفَضْلِ مُعْطَيَات المَقْريزيّ، فبالمقابل فإنَّ مُعْطَيات هذا المُؤَرِّخ فيما يتعلَّق بالوَاجِهَة الشَّرْقِية شَحِيحَةٌ في معلوماتها الطُّبُوغْرافية ولا تُعينُنا على إعَادَة تَصَوُّر ما كانت عليه هذه الوَاجِهَة بدِقَّةٍ في عَهْدِ الفاطميين.

وَنَتَبَيَّن من خِلال هذه المَعْلومات القليلة أنَّ الوَاجِهَة الشَّمَالية اخْتَلَفَت عن سَائِر وَاجِهَات القَصْر فقد اقْتُطِعَ قِسْمٌ من الجانِب الشَّماليّ الشَّرْقيّ مُخَلِّيًا أمَامَهُ مَوْضِعًا احْتَلَّته رَحْبَةٌ وَاسِعَةٌ عُرِفَت باسْم «رَحْبَة بَابِ العِيد» وكانت الاحْتِفَالاتُ المَوْكِبِيَّة الخاصَّة بصلاةَ عيدىْ الفِطْر والنَّحْر في العَصْر الفاطميّ تَنْطَلِقُ منها. وكان يَفْتَحُ عليها بابان من أبْوابِ القَصْر: بَابُ الزُّمُرُّد وبَابُ العِيد.

بَابُ الزُّمُرُّد

سُمِّيَ بذلك لأنَّه كان يُتَوَصَّلُ منه إلى قَصْرِ الزُّمُرُّد، وهما من إنْشَاء جَوْهَر الصَّقْلَبِيّ. وتَبَعًا لما أوْرَدَهُ أبو المكارِم سَعْدُ الله وابنُ إياس، فإنَّ قَصْرَ الزُّمُرُّد كان مَوْضِعَ سَكَن الخَلِيفَة. وكان في مُوَاجَهَة هذا القَصْر في العَصْرِ الفاطِمِيّ دُورٌ يَسْكُنُها كبارُ الأُمَرَاء مثل: دَار الأستاذ غَبْن، مُتَوَلِّي الشُّرْطَة ومُحْتَسِب القَاهِرَة في

---

[١] المقريزي: المواعظ ٢:٤٢٧ـ٤٢٩، ٣: pp.253-59.
A. FU'ÄD SAYYID, *op. cit.*, ١٤٩؛

زَمَن الحاكِم بأمْر الله . كان هذا البابُ يَفْتَح في الجانِب الشَّرْقيّ المُكَوِّن للرَّحْبَة حيث تقوم الآن المَدْرَسَةُ الحِجَازِيَّة .

ولمَّا زَالَت الدَّوْلَةُ الفَاطِمِيةُ صَارَ قَصْرُ الزُّمُرُّد من جُمْلَة ما صَارَ بيد مُلُوكِ بني أيُّوب حَيْثُ وُلِدَ به ، في سنة ٥٧٨هـ/١١٩١م ، الملكُ الأشْرَفُ مُوسىٰ بن الملك العادِل أبو بكر . وفي ٢٨ رَبيعِ الأوَّل سنة ٦٨٢هـ/١٣٨٣م مَنَحَهُ الملكُ المَنْصُورُ قلاوُون إلى مُؤنِسَة خَاتُون ابنة الملك العَادِل عِوَضًا عن الدَّارِ القُطْبِيَّة التي أخَذَها منها ليُقِيمَ في موضعها المارِسْتَان المَنْصُورِي . وظَلَّ كذلك إلى أنْ اشْتَرَاهُ الأميرُ بَدْرُ الدِّين أمير مَسْعُود بن خَطِير الحاجِب من أوْلادِ الملوك بني أيُّوب . ولمَّا عُيِّنَ نَائِبَ السَّلْطَنَة بمَدِينَة غَزَّة ، سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م ، مَلَكَهُ الأميرُ سَيْفُ الدِّين قُوصُون « فشَرَعَ في عِمَارَتِه سَبْعَ قاعات لكُلِّ قاعَةٍ إسْطَبْل ومَنَافِع ومَرَافِق » ومَاتَ قُوصُون قَبْل أنْ يُتِمَّ بِنَاءَه . ثم اشْتَرَتْهُ خَوَنْدُ تَتَر الحِجَازِيَّة ، ابنة الملك النَّاصر محمد بن قلاوون وزَوْج الأمير مَلَكْتَمُر الحجازي ، « فعَمَّرَتْهُ عِمَارَةً مُلُوكية » وتأنَّقَت فيه تأنُّقًا زَائِدًا وأجْرَت الماءَ إلى أعْلاه ، وعَمِلَت تحته إسْطَبْلًا كبيرًا لخيول خُدَّامها وسَاحَةً كبيرةً تُشْرِفُ عليها من شبابيك حَدِيد ، فجاء ـ كما يقولُ المَقْريزي ـ « شَيْئًا عَجَبًا حُسْنُهُ » . وأنْشَأت بجوار القَصْرِ مَدْرَسَتَها المَعْرُوفَة بـ« المَدْرَسَة الحِجَازِيَّة » لتَدْرِيس المَذْهَبَيْنِ الشَّافِعِيّ والمالِكِيّ وجَعَلَت بها خِزَانَة كُتُب » وإلى جوارها مكتبًا للسَّبِيل فيه عِدَّةٌ من أيْتَام المسلمين ، وجَعَلَت بداخلها قُبَّةً لتُدْفَنَ فيها . ويَرْجِعُ تأريخُ إنْشَاءِ هذه المَدْرَسَة إلى سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م .

وبَعْدَ وَفَاةِ خَوَنْد تَتَر تَوَالى سَكَنُ الأمَرَاء لهذا القَصْر بالأُجْرَة إلى مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخامسِ عَشْر الميلاديّ عندما تولَّى الأميرُ جَمالُ الدِّين يُوسُف الأسْتادَّار أسْتادَّارِيَّة الملك النَّاصِر فَرَج بن بَرْقُوقٍ وعَمَّرَ دَارَهُ المجاورة للمَدْرسة السَّابِقِيَّة بدَرْبِ قِرْمِز ، فصَارَ يَجْلِسُ برَحْبَة هذا القَصْر والمَقْعَد الذي كان بها . وعَمِلَ القَصْرَ سِجْنًا يَحْبِسُ فيه مَنْ يُعاقِبُه من الوُزَرَاء والأعْيَان فصَار مُوحِشًا وأخَذَ

يَتَشَعَّث ، وبدأ يَظْهَر شَرَهُ جَمال الدِّين الأُسْتادَّار في اغْتِصَابِ الأَوْقاف ، فحكَمَ له قاضي القُضَاة كمال الدِّين عُمَر بن العَدِيم الحَنَفي باسْتِبْدَالِه فقَلَعَ رُخَامَه وصَارَ مُعَطَّلًا مُدَّة ، وشُرِعَ في سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م في تَحْويله إلى سِجْنٍ لأَرْبابِ الجَرَائم فأزيل كثيرٌ من معالمه ثم عُدِلَ عن ذلك وتُرِكَ على ما بَقِيَ فيه . ثم أَخَذَه الأَميرُ سَيْفُ الدِّين مَامَاي الأَشْرَفِيّ فعَمَّرَهُ وزَخْرَفَهُ وتأَنَّقَ فيه .

وقد زال الآن كلُّ أثَرٍ لهذا القَصْر الذي كان يَشْغَلُ مِسَاحَة عَشْرَة فَدَادِين (٥٩٢٥٠ مترًا مربعًا) ، أي أنَّه كان يَمْتَدّ إلى مَوْضِع بَيْت القاضي الحالي ، ويقوم في مَوْضِعِه الآن مَصْلَحَةُ التَّمْغَة والموازين والمكاييل وقِسْمُ شُرْطة الجمالية ، ويَحُدُّها من الشَّرْقِ شَارِعُ بَيْتِ المال وشارعُ حَبْس الرَّحْبَة ومن الشَّمَال عَطْفَةُ القَفَّاصِين ومن الغَرْب مَيْدانَ بَيْتِ القَاضي .

وعند فَتْحِ شارع بَيْت القاضي ، سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م ، وهَدْمِ الأماكِن التي حَلَّ محلَّها ، ظَهَرَ من آثار هذا القَصْر سُورٌ كبيرٌ مَبْني بأحْجَارٍ ضَخْمَة عبارة عن حائطين سُمْكُ الواحدة أرْبَعَة أمْتار وبينهما فَضَاءٌ مَشْغُولٌ بقَنَاطِر تَرْبِط الحائِطين بسَعَة أربعة أمتار أيضًا ، يقولُ علي مُبَارَك ، الذي عاصَرَ هذه الأعْمَال : « وقد أُخِذَ من هذه الأحْجَار في بِنَاء القَرَاقُول المُسْتَجَدّ بجوار المَشْهَد الزَّينبِيّ ، وفي عِمَارَة مَجْلِس الأحْكام الذي بجوار بَيْت القاضي » . وما يزال قِسْمُ شُرْطَة السَّيِّدَة زَيْنَب قائمًا إلى الآن في مَيْدان السَّيِّدَة زَيْنَب بجوار المَشْهَدِ الزَّيْنَبِي .

أمَّا المَدْرَسَةُ الحِجَازِيَّة فما تَزَالُ قائِمَةً في عَطْفَة القَفَّاصِين ، بين قِسْم شُرْطَة الجمالية وشارع حَبْس الرَّحْبَة ، (مُسَجَّلَة بالآثار برقم ٣٦) وتُعْرَف بـ« جَامِع الحِجازِيَّة » [1].

---

[1] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٢٩؛ A. Fu'ād Sayyid, *op. cit.*, pp.261-63.

بَابُ العِيد

كان يَقَعُ في الوَاجِهَة الشَّمالية الشَّرْقية للقَصْرِ الفَاطِمِيّ الكبير في شُقَّة الجِدَار المُوَاجِه للوَاجِهَة الجَنُوبية لدار الوَزَارَة الكُبرىٰ (خَانْقاه بِيْبَرْس الجاشَنْكير الآن). وعُرِفَ بذلك لأنَّ مَوْكِبَ الخَلِيفَة الفاطميّ كان يَخْرُجُ في يَوْمَيّ العِيد للذَّهاب إلى المُصَلّىٰ خارج بابِ النَّصْر.

ولا يَفْتَحُ هذا الباب على قاعَةٍ أو قَصْرٍ، كما هي طَبِيعَةُ أغْلَب أبْوَابِ القَصْر الفَاطمي، وإنَّما كان ـ كما يقُولُ المُسَبِّحِيّ ـ يَسْتَخْدمه النَّاسُ للدُّخُول على الخَلِيفَة الفَاطميّ وهو جَالِسٌ في مَجْلِسِه بقَصْر (قَاعَة) الذَّهَب فيبدو أنَّ الرَّسْمَ لم يَسْمَح لغير الرَّسْميين بدُخُول قَصْر (قَاعَة) الذَّهَب إلَّا من هذا الباب.

وظَلَّ هذا البَابُ قَائِمًا في دَاخِل دَرْبِ السَّلامِي (شَارع قَصْر الشُّوق الآن) بخُطِّ رَحْبَة بَابِ العِيد، وكان عَبَارَةً عن عَقْدٍ مُحْكم البِنَاء تَعْلُوهُ قُبَّةٌ عُمِلَت مَسْجدًا، وتحتها حَانُوتٌ كان يشكنُه سَقَّاءٌ ويَقابِلُهُ مَسْطَبَةٌ، إلى أنْ نَقَلَهُ السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بِيْبَرْس وجَعَلَهُ بابًا لخانِ السَّبِيل الذي أنْشَأهُ بظاهر مَدِينَة القُدْس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م.

وشَغَلَ مَوْقِعَ هذا البَاب مَسْجِدٌ صَغِيرٌ بداخله ضَرِيحُ وَلِيّ يُعْرَفُ بالشَّيْخ مُوسىٰ، وقد زال هذا الضَّرِيحُ وحَلَّ مَحَلَّه وكالةُ السِّتُّ نَفِيسَة المشهورة بوَكالة عَبْدُه، وزَالَت كذلك هذه الوَكالَة وحَلَّ محلَّها في ستينيات القَرْنِ العِشْرين مَدْرَسَةٌ ابْتِدَائيةٌ تُعْرَف بمَدْرَسَة عُمَر مَكْرَم.

أمَّا رَحْبَةُ بَابِ العِيد فكانت رَحْبَةً كبيرةً تَقَعُ بين جِدَارَيّ القَصْر الذي يَفْتَح فيهما بَابُ الزُّمُرُّد وبَابُ العِيد، تَتَّسِعُ ليصْطَفّ فيها العَسَاكِرُ فارسُها وراجلُها في أيَّام مَواكِب الأعْيَاد انْتظارًا لرُكوبِ الخَلِيفَة وخُرُوجه من بَابِ العِيد في طريقه إلى المُصَلّىٰ خارج بَابِ النَّصْر.

وظَلَّت هذه الرَّحْبَةُ خاليةً من البناء إلى ما بَعْد القرن السَّادِس الهجريّ/ الثَّالِث عشر الميلاديّ ، يقول المقريزيّ : « فاخْتَطَّ فيها النَّاسُ وعَمَّروا فيها الدُّور والمَسَاجِد وغيرها ، فصَارَت خِطَّةً كبيرةً من أجَلِّ أخْطاطِ القَاهِرة وبقي اسْمُ رَحْبَة بابِ العِيد باقيًا عليها لا تُعْرَفُ إلَّا به » .

ومن خِلالِ ما ذكره المقريزيُّ في « خِطَطِه » اخْتُطَّ في فَضَاءِ رَحْبَةِ بابِ العِيد أرْبَعُ طُرُقٍ متوازية : خُطُّ خَرَائِب تَتَر ودَرْبُ خَاصّ تُرْك ودَرْبُ قَرَاصْيا ودَرْبُ السَّلامي ، إضافَةً إلى رَحْبَة الحِجَازِيَّة ورَحْبَة أبي البَقَاء .

كان دَرْبُ السَّلامي يَقَعُ في جَنُوب أرْض الرَّحْبَة وحَلّ محلَّه الآن شارعُ قَصْر الشُّوق الذي يمتدّ الآن من دَرْبِ المَسْمَط ودَرْبِ الطَّبْلاوي إلى دَرْبِ القَزَّازين ، أو من مَسْجِد محمود محرَّم إلى جَامع مُغُلْطاي الجمالي ثم يَنْعَطِفُ إلى أنْ يلتقى مع دَرْبِ القَزَّازين . أمَّا خُطّ خَرَائِب تَتَر فيَدُلُّ عليه الآن الحارَةُ المعروفة بحارَة المُبَيِّضَة في مُوَاجَهَة دَارِ سَعِيد السُّعَدَاء .

وكان فيما بين بَابِ العِيد وبَابِ قَصْرِ الشَّوْك ، أو بين رَحْبَةِ بَابِ العِيد ورَحْبَةِ المَشْهَدِ الحُسَيْنِيّ ، أحَدُ أهَمّ خَزَائِن القَصْرِ المعروفة بـ« خِزَانَة البُنُود » [١] .

بَابُ قَصْرِ الشَّوْك

آخِرُ أبْوَابِ الوَاجِهَة الشَّرْقِية للقَصْر الذي يَفْتح على قَصْرِ الشَّوْك ، أحَد مَباني القَصْر التي أنْشَأها جَوْهَرُ القَائِد ، وظَلَّت بقاياهُ مَوْجُودَةً إلى أيَّام المَقْريزي حيث يقول : « وأدْرَكْتُ منه قِطْعَةً من أحَدِ جانبيه كانت تِجاه الحمَّام التي عُرِفَت بحَمَّام الأيْدَمُري ، ثم قيل لها في زَمانِنَا حَمَّامُ يُونُس بجوار المكان المعروف بخِزَانَة البُنُود ، وقد عُمِلَ مَوْضِعَ

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٣٠ ؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.263-66.

هذا الباب زُقَاقٌ يُسْلَكُ منه إلى المارِسْتان العَتيق وقصْر الشَّوْك ودَرْبِ السَّلامي » .

ويُضِيفُ المَقْريزي : والعَامَّةُ تقول : قَصْرُ الشُوق ، وأدْرَكْتُ مكانه دَارًا اسْتُجدَّت بعد الدَّوْلَة الفَاطِمية هَدَمَها الأميرُ جَمالُ الدِّين يُوسُف الأَسْتادَّار في سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م ليُنْشِئها دَارًا ، فمات قَبْل ذلك ، وكان هذا القَصْرُ في زَمَنِ الدَّوْلَة الفَاطمية يُشْرِفُ على إسْطَبْل الطَّارِمَة .

ويمكننا أنْ نُحَدِّدَ بالتَّقْريب أنَّ بَابَ قَصْرِ الشَّوْك كان يَقَعُ في مَدْخَلِ حَارَة دَرْبِ القَزَّازين الحالية التي تُؤدِّي إلى شَارِع أمّ الغُلام خَلْف المَشْهَد الحُسَيْني .

وكان يُسْلَكُ من بَابِ قَصْر الشَّوْك إلى بَابِ الدَّيْلَم الذي يَدُلُّ على مَوْضِعِه المَشْهَدُ الحُسَيْنيّ . وكان هذا الجزء من سُور القَصْر يُشْرِف على رَحْبَةٍ عَظِيمَةٍ تُعْرَفُ بـ « رَحْبَة قَصْر الشَّوْك » أوَّلها من رَحْبَة خِزَانَة البُنُود وآخرها حيث المَشْهَد الحُسَيْني .

وبعد زَوَالِ الدَّوْلَة الفَاطمية وخَرَاب القَصْر الفَاطميّ بدأ النَّاسُ يخْتَطُّون في هذه الرَّحْبَة شيئًا بعد شيء حتى لم يَبْق منها سوى قِطْعَةٍ صغيرةٍ عُرِفَت بـ « رَحْبَة الأيْدَمُري » . ومن بين المُنْشآت التي أقيمت في أرْض الرَّحْبَة مَدْرَسةُ آل مَلِك الجُوكَنْدَار والمَدْرَسة البَيْدَرِيَّة ودار الأمير بَدْرِ الدِّين بَيْلَبَك الأيْدَمُري أحَد أمَرَاء الملك الظَّاهِر بَيْبَرْس [١] .

بَابُ الدَّيْلَم

ينتهي شارعُ أمّ الغُلام حَاليًّا أمامَ مَيْدَان حَسَن العَدَوي ، وتَفْصِلُ مجموعَةٌ من المَنَازل الحَدِيثَة هذا المَيْدَان عن شَارِع الباب الأخْضَر الذي يَهْبِط تجاه الشَّمال مُتَلَقِّيًا عن يَمينه ويساره شارعَ المَشْهَد الحُسَيْني ومُحَازِيًا من يساره المَشْهَد الحُسَيْني نفسه .

ويُسَمَّى البابُ الذي يَقُودُ الدَّاخِل الآن إلى المَشْهَد الحُسَيني « البَاب الأخْضَر »

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٣٠ ؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.270-74.

(مسجّل بالآثار برقم ٢٨) وهو يُحَدِّدُ مَوْضِعَ باب القصْر الفَاطميّ المعروف بـ « بَابِ الدَّيْلَم ».

كان بابُ الدَّيْلَم يُفْضي ، بين ما يُؤدِّي إليه من القَصْر ، إلى قُبَّة الدَّيْلَم ، التي اسْتَمَدَّت اسْمَها من حَرَسِ الخَلِيفَة الخاصّ الذين كانوا من الدَّيالِمَة ، بحيث عُرِفَ هذا البابُ كذلك بـ « بَابِ دِهْلِيز الخِدْمَة » ، الأمْرُ الذي يَجْعَلُنا نَفْتَرِضُ وُجودَ مَرْكزٍ دائمٍ للحِرَاسَة من الدَّيالِمَة عند هذا المَدْخَل .

وفي أعْقَابِ حادِثةٍ دينيَّة الطَّابع ، تَمَّت في مُنْتَصَفِ القَرْنِ السَّادِس الهجريّ/ الثَّاني عشر الميلاديّ ، أضْحَت قُبَّةُ الدَّيْلَم ـ التي لا نَعْرِفُ طَبِيعَة غَرَضِها ـ المكانَ الذي دُفِنَت فيه رَأسُ الإمام الحُسَيْنُ بن عليّ ، رضي الله عنه ، بعد أنْ اسْتَنْقَذَها الفَاطِمِيُّون من الفِرنْج في عَسْقَلَان سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م .

يقولُ المَقْريزيُّ : فكان كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الخِدْمَة يُقَبِّلُ الأرْضَ أمامَ القَبْر ، وكانوا يَنْحَرُون في يوم عَاشُوراء عند القَبْر الإبِل والبَقَرَ والغَنَم ويُكْثِرُون النَّوْحَ والبُكاء ويَسُبُّون مَنْ قَتَلَ الحُسَيْن ، ولم يَزالُوا على ذلك حتى زَالَت دَوْلَتُهم .

ولمَّا مَلَكَ السُّلْطانُ الملكُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب جَعَلَ به حَلْقَةَ تَدْرِيسٍ وفُقَهاء ، وفَوَّضَها للفَقِيه البَهَاء الدِّمَشْقِي ، وكان يَجْلِسُ للتَّدْريس عند المِحْرَاب الذي الضَّريحُ خَلْفَه . فلمَّا وَزَرَ مُعِينُ الدِّين حَسَن بن شَيْخ الشُّيُوخ بن حَمَوَيْه (سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م) ورُدَّ إليه أمْرُ هذا المَشْهَد بعد إخْوَتِه ، جَمَعَ من أوْقافِه ما بَنَى به أيوانَ التَّدْريس الآن وبُيُوت الفُقَهَاء العُلْوِيَّة خاصَّةً .

وبفَضْلِ الرَّحَّالَة الأنْدَلُسِي ابن جُبَيْر ، الذي زَارَ مصر سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م ، نَمْتَلِكُ وَصْفًا تَفْصِيليًا للمَشْهَد الحُسَيْني بعد أقَلّ من ثلاثين عامًا من نَقْلِ الرَّأس الشَّريف إليه من عَسْقَلان ، يقول : « فمن ذلك المَشْهَدُ العَظيم الشَّأن الذي بمَدِينَة القَاهرة حيث رأس الحُسَيْنُ بن علي بن أبي طالِب ، رضي الله عنهما ، وهو في تَابُوت فِضَّة مَدْفُون تحت الأرْض قد بُنِيَ عليه بُنْيانٌ حَفِيل بَقْصُر الوَصْفُ عنه ولا

يُحيطُ الإدْرَاكُ به ، مُجَلَّل بأنْوَاع الدِّيباج مَحْفُوف بأمْثَال العُمُد الكبار شَمْعًا أبْيَض ومنه ما هو دون ذلك ... وعُلِّقَت عليه قَنَادِيلُ فِضَّة ... فيه من أنْوَاع الرُّخَام المُجَزَّع الغَرِيب الصَّنْعَة البَدِيع التَّرْصِيع ما لا يتخيَّله المُتَخَيِّلون »[١].

وبعد هذا الوَصْفِ بنحو ثَلاثَة أرْبَاع القَرْن ، في سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ، في زَمَنِ السُّلْطانِ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب احْتَرَقَ هذا المَشْهَدُ لأنَّ أحَدَ خُزَّانِ الشَّمْع دَخَلَ ليأخُذَ شَيْئًا فسَقَطَت منه شُعْلَةٌ .

وفي الوَقْتِ الذي حَرَّرَ فيه المَقريزيُّ كتابَ الخِطَط لم يَتَبَق أيُّ أثَرٍ لهذا البَابِ يقولُ : « ومَوْضِعُه الآن دَرَجٌ يُنْزَلُ منها إلى المَشْهَد تِجاه الفُنْدُق الذي كان دارَ الفِطْرَة ولم يَبْق لهذا الباب أثَرٌ ألْبَتَة » .

أمَّا المَشْهَدُ الحُسَيْنيُّ الحالي فهَو بِنَاءٌ جَدِيدٌ يَعُودُ إلى الفَتْرَة بين سنتيّ ١٢٧١هـ/١٨٥٤م و ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م ، ولم يتبق من مبنى المَشْهَد الفَاطِمِيّ الأصْلي سوى قَطْعَةٌ من الزَّخْرَفَة الموجُودَة أعْلى الباب الجنوبي الشَّرْقي للمَشْهَد .

وفي العَصْرِ الفَاطِمِيّ كان الأئِمَّةُ الخُلَفَاءُ يخْرُجُون من هذا الباب إلى الجامِع الأزْهَر ، يتوصَّلُون إليه من الخُوَخ السَّبْع الموجُودَة بين إسْطَبْل الطَّارِمَة والجَامِع الأزْهَر .

وإذا ما انْتَقَلْنا إلى الوَاجِهَة الجنوبية للقَصْر الفَاطمي سنجدُ أنَّ أهَمَّ مكوِّناتها هو « القَصْر النَّافِعِيّ » الذي كان يقَعُ من جِهَة بين الخُوَخ السَّبْع ، ومن جِهَة أخرى بين تُرْبَة القَصْر وكان مُخَصَّصًا لإقامَة عَجَائِز الفَاطِميين وأقارب الأشْرَاف . ولا نَعْرِفُ على وَجْه الدِّقَّة إذا كان هذا القَصْرُ مُنْفَصِلًا عن القَصْر الكَبِير أو يُعَدُّ ضِمْن مُلْحقاته ، فالمَصَادِرُ لا تُعينُنا على تَوْضيح ذلك ، ولكنها تُفيدُنا أنَّه يَقَعُ في جُزْءٍ من خُطِّ الزَّرَاكِشَة العَتِيق (خَان الخَلِيلي الآن) ، واشْتَرَى بَعْضَه ، لمَّا بيع بعد زَوَال

---

[١] ابن جبير : الرحلة ١٩.

الدَّوْلَة الفَاطمية ، الأميرُ ناصِرُ الدِّين عثمان بن سُنْقُر الكامِلي المِـهْمَنْدَار (أحَد مماليك السُّلْطان الأيُّوبي الكامل محمد) وعَمَّرَهُ فُنْدُقًا عُرِفَ بفُنْدُق المِـهْمَنْدَار . واشْتَرىٰ بَعْضَه الآخَر الأميرُ حُسَامُ الدِّين لاجين الأيْدَمُري وعَمَّرَهُ إسْطَبْلًا ودَارًا عُرِفَت بخَوَاجا عبد العَزيز ثم حُوِّل الإسْطَبْلُ إلى خَانٍ عُرِفَ بخان مَنْجَك ، فزَال كُلُّ أثَرٍ للقَصْر النَّافِعِيّ ، ولكنَّنا نَستطيعُ أنْ نُحَدِّدَ مَوْضِعَه الآن في مكان المباني الواقعة بين المَشْهَدِ الحُسَيْنِيّ شَرْقًا وشارع جَوْهَر القائِد جَنُوبًا وشارع خان الخَلِيلي شَمالًا وسِكَّة خان الخَلِيلي غَرْبًا [١] .

بَابُ تُرْبَة الزَّعْفَرَان

كان بِنَاءُ التُّرْبَة المُعِزِّيَّة ، التي عُرِفَت بعد ذلك بتُرْبَة القَصْر وبتُرْبَة الزَّعْفَرَان ، أوَّلَ إضَافَةٍ أمَرَ المُعِزُّ لدين الله بإضَافَتِها إلى القَصْرِ الفَاطميّ في الزَّاوية الجَـنُوبية الغَرْبية للقَصْرِ حيث دَفَن بها تَوَابِيتَ آبَائِه التي حَمَلَها معه من إفْرِيقِيَّة ، والتي دُفِنَ هو نفسه فيها بعد ثَلاثِ سَنَوات ، ثم اسْتَقَرَّت مَدْفَنًا يُدْفَنُ فيه الخُلَفَاءُ الفَاطِمِيُّون وأوْلادُهُم ونِسَاؤُهم طَوَال العَصْر الفَاطميّ .

وكان من الرَّسْم أنَّ الخَلِيفَة الفَاطِميّ كُلَّما رَكِبَ بمِظَلَّة وعَادَ إلى القَصْر لابُدَّ أنْ يَدْخُلَ إلى زيارَة آبائه بهذه التُّرْبَة ، وكذلك في أيَّام الجُمَع وفي عيديّ الفِطْر والأضْحَىٰ ، ويَصْحَبُ ذلك تَوْزِيعُ صَدَقَاتٍ ورُسُوم مَعْرُوفَة .

كانت التُّرْبَةُ مُزْدَانةً بقَناديل الذَّهَب وبالآلات ، مثل المَدَاخِن والمجَامِر وحُلِيّ المحَارِيب ، التي اسْتولى عليها الأتْرَاكُ في زَمَنِ الشِّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة .

وكان يُوجَدُ كذلك مَكانٌ مُخَصَّصٌ لدَفْنِ أفْرَادِ البَيْت الفَاطِميّ من أقَارب الخُلَفَاء جَنُوبيّ القَرَافَة الكبرىٰ بجوار جَامِع القَرَافَة الذي شَيَّدَتْهُ السَّيِّدَةُ تَغْرِيد وَالِدَة

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٣١ ؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.274-80.

العَزِيز بالله سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م ، والذي يمكن أنْ نُحَدِّد موضعه الآن بأطْلالِ ما كان يُعْرَف بجامِع الأوْلِياء أو حُوش أبي علي . وفي ثلاثينيات القَرْن العشرين كُشِفَ في القَرَافَة الكبرىٰ عن نَقْشٍ جُزئي (مَحْفوظ الآن بمتحف الفَنّ الإسلامي بالقاهرة برقم ١٦٤٩٨) يُفِيدُنا بأنَّ السَّيِّدَة تَغْريد شَيَّدَت ، في سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م ، في القَرَافَة الكُبرىٰ بجوار جَامِع القَرَافَة مَشْهَدًا لم تحتفِظ لنا المصادرُ باسْمِه ، ويُؤَيِّدُ نَصٌّ عند ابن الزَّيَّات والسَّخَاوِي هذا النَّقْش ، يقول : « وتُرْبَةٌ كانت بها أَلْوَاحُ رُخَامٍ تَشْهَدُ أنَّ بالقُبُورِ التي فيها أقارِبَ الخُـلَفَاء الفَاطِميين » .

كان المَوْضِعُ الذي شَغَلْته تُرْبَةُ الزَّعْفَرَان مُتَّسِعًا ، حتى إنَّه حَلَّ مكانه فيما بعد القِسْمُ الأكبر من خُطِّ الزَّرَاكِشَة العَتِيق . وعندما بنى الأميرُ جَهَارْكس الخَلِيليّ ، في زَمَنِ السُّلْطان الظَّاهِر بَرْقُوق (٧٨٧ـ٨٠١هـ/١٣٨٢ـ١٣٩٩م) ، في هذا الخُطِّ الخَانَ الذي نُسِبَ إليه أَخْرَجَ العُمَّالُ ما شَاءَ الله من عِظَام الخُلَفَاء المَدْفُونين بها ، فأُلْقِيَت في المَزَابِل على كِيمانِ البَرْقِيَّة (الدَّرَّاسَة الحَالِية) .

كانت هذه التُّرْبَةُ تَمْتَدُّ في الوَاقِع من المَدْرَسَة البُدَيْرِيَّة الواقِعَة شَرْق المَدَارِس الصَّالِحِية وحتى خَان المِهْمَنْدَار ، الذي يُعَادِلُ تَقْرِيبًا مَوْضِع خَان الخَلِيلي الآن .

والمَدْرَسَةُ البُدَيْرِيَّة ، المعروفة كذلك بجامِع بَدْر الدِّين العَجَمي ، أنْشَأها ناصِرُ الدِّين أبو عليّ محمَّد بن محمَّد بن بُدَيْر العَبَّاسيّ ، سنة ٧٥٨هـ/١٣٥٧م ، بعد أنْ نَبَشَ قُبُورَ الخُـلَفَاء الموجُودة هناك . وما تَزَال بَقايا هذه المَدْرَسَة المسجلَّة بالآثار برقم ٣٩، قَائِمةً بالقُرْبِ من خَانِ جَعْفَر .

وبالرَّغْم من كُلّ هذه الانْتِهاكات التي تَعَرَّضَت لها تُرْبَةُ القَصْر يقولُ المَقْرِيزيُّ ، في مُنْتَصف القَرْن التَّاسع الهَجْري : « وبها إلى اليَوْم بَقايا من قُبُورِهم » .

فأين كان يَفْتَحُ بَابُ تُرْبَة الزَّعْفَرَان في مَوْضِع خُطِّ الزَّرَاكِشَة العَتِيق ؟

كان خُطُّ الزَّرَاكِشَة العَتِيق ـ كما رأينا ـ يَمْتَدُّ في مَوْضِع الوَاجِهَة الجَنُوبية للقَصْر الفَاطِمِيّ الكَبِير . وكان على حَافَّة هذا الخُطّ في الأصْل دَارُ العِلْم الجَدِيدَة

والقِسْمُ الأكْبر من القَصْر النَّافِعيّ (الذي حَلَّ محلَّه في القَرْن التاسِع الهجري فُنْدُق المِهْمَنْدَار) وتُرْبَةُ الزَّعْفَرَان ، وينتهي من الجَانِب الغربيّ بين خِزَانَة الدَّرَق وبَاب الزُّهُومَة . وكان دَرْبُ السِّلْسِلَة يُمَثِّلُ امْتِدَاد الشَّارع الأعْظم الذي كان يَنْتهي عند مستوى القَصْرين الفَاطميين . يقولُ المَقْرِيزيُّ : « باب تُرْبَة الزَّعْفَرَان : مَكانُه الآن بجوار خَان الخَلِيليّ من بَحْرِيِّه مُقابِل فُنْدُق المِـهْمَنْدَار الذي يُدَقُّ فيه وَرَقُ الذَّهَب ، وقد بُنِيَ أعْلاه طَبَقَة ورِواق ، ولا يكادُ يعرفه كثيرٌ من النَّاس وعليه كِتَابَةٌ بالقَلَم الكُوفي » .

ونحن لا نَعْرِف متى أُزِيلَ هذا البابُ ، على الأَرْجَح بعد عُقُودٍ قليلة من تأليف كتاب « الخِطَط » ، بما أنَّ المؤلِّفين اللاَّحِقين على هذا المؤلِّف مثل ابن تَغْري بِرْدي وابن إياس لا يذكرون عنه شيئًا .

ويمكننا أنْ نُحَدِّدَ مَوْضِعَ هذا الباب جَنُوب المَدْرَسَة البُدَيرِيَّة غير بعيد من الجَانِب الغربيّ لبَابِ خَان الخَلِيلي الحالي ، (المسجّل بالآثار برقم ٥٤) ، والذي يَطلّ على سِكَّة البادِسْتَان [١] .

بَابُ الزُّهُومَة

كان الطَّرَفُ الجَنُوبيّ لبَيْنْ القَصْرَيْن يَقَعُ بين مَبَاني القَصْر الفَاطِمِيّ الكَبير التي يُفْضِي إليها بابُ الزُّهُومَة والجَنَاح الجنوبي للقَصْر الغَرْبي الصَّغير . وكان المَمَرُّ الذي يَفْصِل القَصْرين جَنُوبًا في المَوْضِع الذي كان يقعُ فيه دَرْبُ السِّلْسِلَة ، أضْيَق أقسام مَيْدان بَيْنْ القَصْرَيْن . وكان مَطْبَخُ القَصْر يَقَعُ داخِل جَنَاح القَصْر الصَّغير الغربي المُوَاجه لباب القَصْر المعروف بـ« بَاب الزُّهُومَة » .

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢ : ٤٣١؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.291-98.

ومن ناحيةٍ أخرى كانت الزَّاوِيَةُ الجَنُوبيةُ الغَرْبيةُ للقَصْر الكَبير تُقابِلُ خِزَانَة الدَّرَق، وكان يقعُ بها كذلك بابُ الزُّهُومَة وفي مُوَاجَهَتِه دَرْبُ السِّلْسِلَة. ويُوَضِّحُ الوَضْعُ الخاصّ لهذا الباب في شُقَّة جِدَار مقطوعَة كيف يمكن أنْ يَفْتح في وَقْتٍ واحد في مُوَاجَهَة خِزَانَة الدَّرَق ودَرْبِ السِّلْسِلَة وكذلك مَطْبخ القَصْر.

وقد حَلَّ خانُ مَسْرُور مَحَلّ خِزانَة الدَّرَق، وظَلَّ قائمًا حتى مَطْلَع القَرْنِ العِشْرين باسْم وَكالَة رَخَا. أمَّا دَرْبُ السِّلْسِلَة فقد اسْتَمَرَّ لبعض الوَقْت بعد العَصْرِ الفَاطِمِيّ. وعُرِفَ بذلك لوُجُودِ سِلْسِلَةٍ كانت تُرْمَى عند المَضِيق جَنُوب بَيْنَ القَصْرَيْن فيَنْقَطِعُ المارُّ من ذلك المكان إلى أنْ تَضْرِبُ البُوقيَّة سَحَرًا قُرْبَ الفَجْر فتُرْفَع السِّلْسِلَةُ ويجوزُ النَّاسُ من هناك.

وسُمِّيَ هذا البابُ بَابَ الزُّهُومَة، أي بَاب الزَّفَر، «لأنَّ اللُّحُومَ وحَوَائِج الطَّعَام التي كانت تَدْخُل إلى مَطْبَخ القَصْر كان يُدْخَلُ بها من هذا الباب».

وهُدِمَ هذا البابُ في أوَاسِط القَرْن السَّابع الهجريّ/ الثَّالث عَشْر الميلادي وحَلَّ مَحَلَّه قاعَةُ شَيْخ الحَنَابِلَة بالمَدَارِس الصَّالِحِيَّة تِجاه فُنْدُق مَسْرُور الكبير. وللأسَف الشَّديد فقد زال الآن كلُّ أثَرٍ لهذه القَاعَة التي كانت تَبَعًا لمُعْطيات المَقْريزي تُكَوِّنُ الزَّاوية الجَنُوبية الغَربية للمَدَارِس التي تُحَدِّدُ في أغْلَبِ الظَّنّ الزَّاوِية الجَنُوبية للقَصْرِ الفَاطميّ الكَبير.

أمَّا مَطْبَخُ القَصْر فقد حَلَّ مَحَلَّه بعد ذلك «الصَّـاغَة» التي أُنْشِئَت في مُوَاجَهَة المَدَارِس الصَّالِحِيَّة، ولم يُحَدِّد المقريزيُّ تأريخَ بِنَاءِ الصَّاغَة، وإنْ كان دون شَكٍّ بعد بِنَاء المَدَارِس الصَّالحية بوَقْتٍ قَصير بما أنَّ المَقْريزيّ يذكر أنَّها كانت وَقْفًا على المَدَارِس الصَّالِحِيَّة وَقَفَها الملكُ السَّعِيدُ بَرَكَة خَان بن السُّلْطان الظَّاهِر بَيْبَرس على الفُقَهَاء والطَّلَبَة المُقَرَّرين بالمَدَارِس.

وقَدَّمَ لنا ناصِر خُسْرُو أوَّلَ وَصْفٍ لمَطْبخ القَصْر يَقولُ: «ومَطْبَخُ السُّلْطان خارِج

القَصْر، ويَعْمَل فيه دائمًا خَمْسُون غُلامًا، ويَصِل القَصْرُ بالمَطْبَخ طَرِيقٌ تحت الأرْض »[١].

كان المَطْبَخُ مُخَصَّصًا لطَبْخ اللُّحُوم وما يتَعَلَّقُ بها من الأطْعِمَة الحارَّة، يقولُ ابنُ عبد الظَّاهِر: إنَّه كان يَخْرُج منه في مُدَّة شَهْر رَمَضان ألف ومائتا قِدْرَة في كلِّ يوم من جَمِيع الألْوَان والأطْعِمَة المُفْتَخَرَة فتُفَرَّقُ على أرْبابِ الرُّسُوم والضُّعَفاء والفُقَرَاء[٢].

وأنْفَقَ الخُلَفَاءُ الفاطميون مَبالِغَ كَبيرة على الأطْعِمَة فيذكر المَقْريزيُّ أنَّ رَاتِبَ مَطْبَخ العَزِيز بالله ومَائِدَته في كلِّ يومٍ بَلَغَ مالًا عَظِيمًا، « فلم يكن أحَدٌ من الأتْرَاك والعَبِيد إلَّا وله وَظِيفَةٌ رَاتِبَةٌ كلّ يوم ». وفي عَهْدِ الآمِر بأحْكام الله، بعد ذلك بأكثر من مائة عام، « كان المُنْفَقُ في مَطَابِخه وأسْمِطَته شيءٌ كثير، فكان عِدَّةُ ما يُذْبَح له في كلِّ شهر خَمْسَة آلاف رأس من الضَّأن، سوى ما يُذْبَح ممَّا سوى ذلك، وثَمَن الرأس منها ثلاثة دَنانير ».

وكان يَخْدِمُ في المَطْبَخ دائمًا خمسون غُلامًا، كان بينهم دون شَكٍّ عَدَدٌ من النِّسَاء، فابنُ سَعِيدِ المَغْرِبي يَذْكُر أنَّه كان بمصر جَوَارٍ طَبَّاخَات أصْلُ تعليمهن من قُصُورِ الخُلَفَاء الفَاطِميين لهنّ في الطَّبْخ صِنَاعَةٌ عجيبة[٣].

---

[١] ناصر خسرو: سفرنامة ١٠٨.

[٢] ابن عبد الظاهر: الروضة البهية ٥٨.

[٣] المقريزي: المواعظ ٢: ٤٣١؛ A. FU'ĀD SAYYID, *op. cit.*, pp.235-39.

القَصْرُ الفَاطِمِي الغَرْبي

في المَوْضِع الذي تَحْتَلُّه الآن مَجْمُوعَةُ قَلاوون (مَدْرَسَة وقُبَّة ومارِسْتَان) كان يُوجَد منذ أكثر من أَلْف عام الوَاجِهَةُ الشَّرْقِيَّة للقَصْر الفاطميّ الغربي في مُوَاجَهَة القَصْرِ الفاطِمِي الكَبِير، كان هذا القَصْرُ يَمْتَدُّ من مَوْضِع المارِسْتان المَنْصُوري جَنُوبًا وحتى مَدْخَل حَارَة بَرْجَوَان في الشَّمَال في مَوَاجَهَة مَدْخَل الجامِع الأَقْمَر وما وَرَاء هذه الأماكن إلى الخَلِيج [1].

وهو بِنَاءٌ أَقَلُّ مِسَاحَةٍ من القَصْر الكَبِير ذو جِنَاحَان يَتَقَدَّمان تجاه الشَّرْق. وإذا كنَّا نَعْرِف التَّأريخ الصَّحِيح لبناء القَصْر الشَّرْقي فليس الأَمْر كذلك بالنِّسْبَة للقَصْر الصَّغير، نَعْرِف فقط أنَّه شُيِّدَ في زَمَن الخَلِيفَة العَزِيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٥-٩٩٦م) وجَعَلَه لابنته سِتّ المُلْك الأُخْت الكبرىٰ للحاكم بأمْر الله. وذكر ابن أبي طَيّ أنَّ الخَلِيفَة المُسْتَنْصِر بالله جَدَّدَ بناءَه سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٧م ليَجْعَلَه مَنْزِلًا للخَلِيفَة القائم بأمْرِ الله صَاحِب بَغْدَاد بعد إقامَة الدَّعْوَة للفاطميين في بَغْدَاد [2].

وقد ضَاعَ كلُّ أثَرٍ للقَصْر في العَصْر المملوكي الأَوَّل وحَلَّت محلَّه أوَّلًا مجموعةُ قلاوون وجامِع النَّاصِر محمد ثم جَامِع ومَدْرَسَة الظَّاهِر بَرْقُوق.

كان يُوجَدُ لهذا القصر أربعَةُ أبْوَاب: بابُ السَّاباط جَنُوبًا، وبابُ التَّبَّانين في طَرَفِه الشَّمالي، وبابُ الزُّمُرُّد الذي حَلّ محله إسْطَبْل القُطْبية، وبابُ مُرَاد الذي يَفْتَح في الوَاجِهَة الخَلْفِيَّة للقَصْر.

وحَفِظَت مُنْشَآتُ السُّلْطان قلاوون التَّخْطِيطَ الأَصْلِي لقاعَة ستّ المُلْك وكَشَفَت عنها الحَفَائِرُ التي تَمَّت بمَوْقِع مجموعة قلاوون في مَطْلَع القَرْن العِشْرين،

---

[1] المقريزي: المواعظ ٢:٤٩٥.

[2] نفسه ٢:٤٩٥.

وهو تَخْطِيطٌ مُتَعَامِدٌ مُتأثِّرٌ بتَخْطِيط دُور ومَنَازل الفُسْطاط .

ولكن هل تُوجَد بَقَايا للقَصْر الفاطمي الغربي ؟

ظَلَّ العلماءُ يَظُنُّون أنَّ القَصْرَ الفاطميّ قد زَالَ إلى آخِر حَجَر إلى أنْ اكْتَشَفَ ماكس هرتس باشا MAX HERZ PACHA منذ أكثر من تسعين عامًا قِطَعًا من الزَّخْرَفَة الدَّاخِلِيَّة للقَصْرِ الصَّغِير ، أثناء أعْمال تَرْميم بقُبَّة مَدْرَسَة قلاوون ، حيث وَجَد أنَّ أحَدَ الأفاريز الخَشَبية تحمل على وَجْهها الخَلْفِي نُقُوشًا تُعَبِّر عن وُجُوه آدمية وحيوانات وأفراد يعزفون على آلات موسيقية كانت مستخدمَةً دون شك في القَصْر الفاطمي الصَّغير ثم أعيد اسْتِخْدَامها في القُبَّة على ظَهْرِها ، هي الأثَر الوَحِيد الباقي من القُصُور الفاطمية [١].

ظَاهِرُ القَاهِرَة EXTRA MUROS

كان اسْمُ « القَـــاهِرَة » يُطْلَقُ في أوَّل الأمْر على كلِّ ما أحَاطَ به السُّورُ اللَّبِن الذي بَنَاهُ جَوْهَر ثم ما حَازَه السُّورُ الحَجَر الذي بَنَاه بَدْرٌ الجَمَاليّ ، أمَّا ما خَرَجَ على هذه الأسْوَار وأُضِيفَ مع اطِّرادِ اتِّساعِ المَدِينَة فقد أُطْلِقَ عليه « ظَاهِرُ القَاهِرَة » .

ولم يكن خَارِجُ أسْوَار المَدِينَة في أوَّلِ عَهْدِها سوى « مُصَلَّىٰ العِيدَيْن » الذي بَنَاهُ القائِدُ جَوْهَر خَارِجَ السُّور الشَّماليّ بالقُرْبِ من بَابِ النَّصْرِ في شهر رَمَضَان سنة ٣٥٨هـ/ أغسطس سنة ٩٦٩م . وسمَّاهُ ابنُ زُولاق « مُصَلَّىٰ القَاهِرَة » تَمْييزًا له عن مُصَلَّىٰ آخَرَ أقامَهُ جَوْهَرُ بالقَرافَةِ لأهْلِ الفُسْطاط . وبعد عِشْرين عَامًا جَدَّدَ العَزِيزُ بالله « مُصَلَّىٰ القَاهِرَة » وبَنَىٰ بينه وبَيْنَ القَصْرِ الشَّرْقيّ عِدَّةَ مَصَاطِب ليقف عليها

---

[١] راجـع M. HERZ, «Boisseries Fatimides aux scu;ptures figurales», *Orientalisches Archiv* III (1913), pp.170-71؛ وراجع لمزيد من التفاصيل A.F. SAYYID, *op.cit.*, pp.300-320.

المُؤَذِّنُون والفُقَهَاءُ حتى يَتَّصلُ التَّكْبيرُ من المُصَلَّىٰ إلى القَصْر . وبقى قِسمٌ من هذا المُصَلَّىٰ حتى شَاهَدَهُ المَقْريزيُّ في القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلادِيّ وقد اتُّخِذَ في جَانِبٍ منه مَوْضِعَ مُصَلَّىٰ الأمْوَات في زَمَنِه .

وكانت « مَقَابِرُ أهْلِ القَاهِرَة » خَارِجَ سُورِ المَدِينَة الجنوبيّ على يَسَار الخَارِج من بَابِ زَوِيلَة في الفَرَاغ المُمْتَدّ أمَامَهُ وحتَّى سَفْحِ جَبَلِ المُقَطَّم ، والذي أصْبَح يَشْغَلُهُ فيما بعد جَامِعُ الصَّالِح طَلائِع وجَامِعُ المارِدَاني في المنطقة المَعْرُوفَة اليوم بالتَّبَّانَة وشَارِع الدَّرْبِ الأحْمَر حتَّى بابِ الوَزِير [١].

تَطَوُّرُ القَاهِرَة في القَرْنِ

الفَاطِمِيّ الأوَّل

كانت أوَّلَ مُنْشَأة تُقامُ في القَاهِرَة ، بعد القَصْر الفَاطِمِي وجَامِع القَاهِرَة (الجَامِع الأزْهَر) ، « دَارُ الوَزارَة القَدِيمَة » التي أقامَها الوزيرُ يَعْقُوبُ بن كِلِّس سنة ٣٦٨هـ/٩٧٩م .

فعندما عَهِدَ الخَلِيفَةُ العَزيزُ بالله ، في هذه السَّنَة ، إلى ابن كِلِّس بالوَزارَة شَيَّدَ في حَارَة الوَزيريَّة جَنُوب غَرْبيّ القَاهِرَة بالقُرْب من باب سَعَادَة دَارًا للوَزارَة نَقَلَ إليها دَوَاوين الدَّوْلَة وجَعَلَ بها خَزَائِن للكُسْوَة وللمال وللكُتُب وللشَّرَاب وعَمِلَ على كلِّ خِزانَةٍ ناظِر ، وأضَافَ إلى ذلك عِدَّة مَطَابِخ لنفسه ولغِلمانِه ولحَواشِيه [٢].

---

[١] راجع كذلك ، المقريزي : المواعظ ٢ : ٢١٠ـ٢١١ ، ٢٢٠ـ٢٢٢ .

[٢] المقريزي : المواعظ ٣ : ٢١ .

أمّا إقامَةُ الوزير نفسه فكانت في دَارٍ بجوار إسْطَبْل الجُمَّيْزَة من غَرْبيه ، كان أوَّل من أنْشَأها الوزير يَعْقُوب بن كِلِّس ثم سَكَنَها بَعْدَه الوزيرُ النَّاصِرُ للدِّين الحَسَنُ بن عليّ اليازُورِي نحو سنة ٤٤٢هـ/١٠٥٠م . ومازَالَت سَكَنَ الوُزَرَاء إلى أنْ قَدِمَ من عَكَّا أميرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجمالي سنة ٤٦٦هـ/١٠٧٣م فأنْشَأ دَارَه بحَارَة بَرْجَوَان وسكنها .

وعُرِفَت هذه الدَّار بعد ذلك بـ« دَار الدِّيباج » حيث صَارَ يُعْمَل بها الحَرِيرُ الدِّيبَاج ويتولَّاها الأمَاثِلُ والأعْيان . وبعد زوَال الدَّوْلَة الفَاطمية حَلَّ مَحَلَّ دَار الدِّيباج المَدْرَسَة السَّيْفِيَّة وما وَراءها من المواضِع المعروفة بدَرْب الحَرِيري . وصَارَ خُطّ دار الدِّيباج يُعْرَف في القرن التَّاسِع الهجري بـ« خطّ سُوَيْقَة الصَّاحِب »[١] .

وفي رَمَضَان سنة ٣٨٠هـ/ ديسمبر سنة ٩٩٠م بَدَأ العَزيزُ بالله في تَشْييد جامِعِه خارِج باب الفُتُوح القَدِيم ، وأمَرَ ابنه الحاكِم بأمْر الله باستكمال بِنَائِه في سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م وافْتُتِح للصَّلَاة يوم الجُمُعَة ٦ رَمَضَان سنة ٤٠٣هـ/ مارس سنة ١٠١٣م . ولاشَكّ أنَّ أعمالَ البِنَاء الأُساسية للجامِع قد تَمَّت في أيَّام العزيز بالله ، بينما تَمَّت جَميعُ الأعمال الثَّانوية وبِنَاء المِئْذَنتين في أيام الحاكم بأمْر الله[٢] .

وفي سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م أيضًا أمَرَ الحَاكِمُ بأمْرِ الله بِبنَاء جَامِعَيْنِ آخرين ظاهِر القَاهِرَة : جَامِع المَقْس على شاطئ النِّيل (مَيْدَان رَمْسِيس الآن) والذي حَلَّ محلَّه فيما بعد جَامِعُ أوْلاد عِنان ثم جَامِع الفَتْح الآن ، والجامِع الثَّاني يُعْرَف بـ« جَامِع رَاشِدَة » بَنَاهُ في مَحَلِّ كَنِيسَةٍ قديمة ومَقَابِر لليَهُود والنَّصَارَىٰ في خِطَّة رَاشِدَة جنوبي الفُسْطاط ، زَالَت كلُّ معالمه الآن[٣] .

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢:٥١٩ .

[٢] نفســه ٤:١٠٨-١١١.

[٣] نفســه ٤:١٢٦-١٣٢ .

وأقامَ الحَاكِمُ بأمْر الله كذلك في الفَضَاء الوَاقِع خَارِج بابيّ زَوِيلَة القَدِيم « البَاب الجَدِيد » على يَسْرَة الخَارَج من الباب على شاطئ بِرْكَة الفِيل ، ليُحَدِّدَ لطَوَائِف الجَيْش المختلفة الحَدَّ الأقْصَىٰ من أراضي الأطْرَاف الممنوحَة لهم ، واخْتَطَّ في المَسَافَة الوَاقِعَة بين بابيّ زَوِيلَة القَدِيم والباب الجَدِيد عِدَّةٌ من الطَّوَائِف مثل : المَصَامِدَة واليَانِسِيَّة والمَنْجَبِيَّة والهِلالِيَّة . وأدْرَكَ المَقْرِيزيّ عَقْد هذا البَاب عند رأس المَنْجَبِيَّة بجوار سُوق الطُّيُور وكان يُعْرَفُ بباب القَوْس [١].

وتَبَعًا لرِوَايَة أوْرَدَها الجُغْرافيُّ الأنْدَلُسيّ أبو عُبَيْد البَكْرِيّ ، المتوفَّى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م وأيَّدَتْها مَصَادِرُ أخرىٰ ، شَيَّدَ الحَاكِمُ بأمْر الله في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين القَاهِرَة والفُسْطاط ثَلاثَة مَشَاهِد ليَنْقِل إليها رُفات النَّبِيّ ﷺ ورُفات أبي بكر وعُمَر ، رضي الله عنهما ، من المَدِينَة . وهي مُحَاوَلَةٌ كُتِبَ لها الفَشَل ، كان يَهْدِفُ من ورائها إلى تَحْوِير الجُغْرافية الرُّوحِيَّة والدِّينِيَّة للعَالَم الإسْلامي عن طَرِيق حِرْمان المَدِينَة من أكثر رُمُوزها تَقْديسًا بتحْويل قَوَافِل الحَجّ إلى العاصِمَة الفَاطِمِيَّة . كان المَوْقِعُ الذي شُيِّدَت فيه هذه المَشَاهِد الثَّلاثَة يَقَعُ بالقُرْبِ من جَامِع ابن طُولُون ، وقد زَالَ الآن كُلُّ أثَرٍ لهذه المَشَاهِد [٢].

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٥٥، ٥٧، ٥٨.

[٢] A. FU'ÂD SAYYID, *op. cit.*, pp.356-61.

بَدْرٌ الجَمَالي وتَغْيِيرُ وَضْعِ القَاهِرَة

يُسَجِّلُ وُصُولُ أمِير الجُيُوش بَدْرِ الجَمَالي إلى قِمَّة السُّلْطَة، في سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، مَرْحَلَةً مُهِمَّةً في تَطَوُّر العَاصِمَة المصرية تَتَمَثَّل في:

- فَتْح أبْوَابِ الحِصْنِ الفَاطِمِيّ لمُخْتَلَف طَبَقَاتِ الشَّعْب والسَّمَاح لهم بالبِنَاء دَاخِل أسْوَارِ المَدِينَة، ففَقَدَت القَاهِرَةُ بذلك مَيْزَتها كمَدينةٍ رَسْمِيَّةٍ وبَدَأ التَّنَافُسُ الحَقِيقي بينها وبين الفُسْطَاط.

- تَوْسِيع المَدِينَة الحِصْن وتَرْمِيم تَحْصِيناتِها.

لقد خَرَّبَت الشِّدَّةُ العُظْمَىٰ أغْلَبَ الدُّور الواقِعَة في مَنطِقَة «عَمَل فَوْق» شَمَال شَرْقيّ الفُسْطاط، وهَلَكَ مَنْ كان فيها من السُّكّان وكان بها ما يَزِيدُ على مائة ألف دار [1]، «فأبَاحَ بَدْرٌ الجَمَالي للنَّاس من العَسْكَرِيَّة والمِلْحِيَّة والأرْمَن وكلّ مَنْ وَصَلَت قُدْرَتُه إلى عِمَارَة أنْ يَعْمُر ما شَاءَ في القَاهِرَة ممَّا خَلا من دُورِ الفُسْطَاط بمَوْتِ أهْلِها، فأخَذَ النَّاسُ في هَدْمِ المَسَاكِن ونحوها بمصر وعَمَّرُوا بها في القَاهِرَة، فكان هذا - كما يَقول المَقْريزيّ - «أوَّلَ وَقْتِ اخْتَطَّ النَّاسُ فيه بالقَاهِرَة» [2].

واسْتَفَادَ بَدْرٌ من عَملية الإخْلَاء الشَّامِل لهذه المَنْطِقَة فرَمَّمَ جَامِعَ ابن طُولُون الذي كان قد تَخَرَّبَ بشِدَّة، كما تَدُلُّ على ذلك الكتابَةُ التَّارِيخية المُثْبَتَةُ أعلىٰ البَاب الشَّمالي الشَّرْقي للسُّور الخَارِجي للجَامِع والمُؤَرَّخَة في صَفَر سنة ٤٧٠هـ/ سبتمبر سنة ١٠٧٧م، وجَاء فيها:

«أمَرَ بتَجْدِيد هذا البَاب وما يَليه عند عُدْوَان النَّار على ما أبْدَعَه المارِقُون فيه السَّيِّدُ الأجَلُّ أميرُ الجُيُوش سَيْفُ الإسْلام ناصِرُ الإمَام أبو النَّجْم بَدْر المُسْتَنْصِري

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٥٧، ١١٢.
[2] نفســه ١: ٩-١٠، ٢: ٥٨، ١٤٢، ٢٢٢.

أدَامَ الله قُدْرَتَه وأعليٰ كلمته ابْتِغَاء ثَوَاب الله وطَلَب مَرْضَاته »[١].

ويُعَدُّ هذا النَّقْشُ أقْدَمَ النُّصوصِ الإنْشَائية التي تُسَجِّلُ السِّلْسِلَة الطَّوِيلَة من المُنْشآت التي أمَرَ بِبنَائِها بَدْرُ الجَمَالي في القَاهِرَة.

وبَدَأت، اعْتبارًا من هذا التأريخ، الأساليبُ المعماريةُ والفَنِّيَّة الفَاطِمِية في الانْتِشَار وفي التَّأثير في أسْلُوبِ المَسَاكِن الإسْلامية في مصر. فنحن نَعْرِفُ أنَّ الأسَالِيبَ السَّائِدَة في بِنَاء الدُّور خِلال القَرْنِ الفَاطِمِيّ الأوَّل كانت الأسَالِيبَ الطُّولُونِيَّة، بحَيْثُ يُعَدُّ عَصْرُ بَدْر الجَمَالي نُقْطَة الانْطِلاق نحو المَرْحَلَة الثَّالِثة لعِمَارَة الدُّور الإسْلامية في مصر بعد المَرْحَلَة المُبَكِّرَة والمَرْحَلَة الطُّولُونِيَّة.

دَارُ المُظَفَّر

لم يَشَأ بَدْرٌ الجَمَالي منذ وُصُولِه إلى مصر أنْ يَتَّبِعَ نَفْس طُرُق سابقيه، ولم يُرِد حتى أنْ يَشْغَلَ الدَّارَ التي شَغَلَها الوُزَراءُ السَّابِقُون. فشَيَّدَ في حَارَة بَرْجَوَان، شَمَال القَصْر الفاطِمِيّ الغربي، دَارًا اشْتَهَرَت باسْم « دَار المُظَفَّر » واسْتَمَرَّ يَشْغَلُها طَوَالَ الواحِد والعِشْرين عامًا التي قَضَاها كوزيرٍ للمُسْتَنْصِر بالله الفاطمي حتى وفاتِه سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[٢]. ونَظَرًا لأنَّ وَلَدَه الأفْضَل شَاهِنْشاه الذي خَلَفَه في رُتْبَة الوَزارَة فَضَّلَ الانْتِقال من هذه الدَّار، فقد آلَت إلى ابنٍ آخَر لبَدْرٍ هو أبو محمَّد جَعْفَر المعروف بالمُظَفَّر، فعُرِفَت الدَّارُ باسْمِه. ولمَّا تَوَلَّىٰ الوَزَارَة الوزيرُ المأمُون البطائِحي، سنة ٥١٥هـ/١٠٢١م، حَوَّلَها إلى « دَارٍ للضِّيَافَة ». وفي هذه الدَّار اعْتَقَلَ صَلاحُ الدِّين بقايا الأسْرَة الفاطِمِيَّة في أعْقابِ انْقِلابه على الخَلِيفَة العَاضِد. ومع نِهَاية القرن الثَّامِن الهجري/الرَّابع عَشْر الميلادي كان قد زَالَ كلُّ أثَرٍ لهذه الدَّار.

---

[١] G. Wiet, *RCEA* VIII, n° 2716.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٥٠٨-٥٠٩.

سُورُ بَدْرِ الجَمَالي

لقد زَالَ القِسْمُ الأكْبر من سُور القَاهِرَة الذي شَيَّدَه القَائِدُ جَوْهَر مع التَّطَوُّر المُتنامِي للمَدِينَة قَبْل زِيَارَة الرَّحَّالَة الفَارِسي ناصِر خُسْرُو سنة ٤٣٩هـ/١٠٤٧م. وتتابَعَت المَبَاني خارِج الأسْوَار الجَنُوبِيَّة والشَّمالية للمَدِينَة والأحْيَاء (الحَارَات) الجَدِيدَة التي وُجِدَت اعْتبارًا من عَصْرِ الخَلِيفَة الحَاكِم بأمْرِ الله.

ولم يَبْدَأ مَشْرُوعُ بَدْرِ الجَمَالي لتَدْعِيم سُورِ القَاهِرَة وتَحْصِين المَدِينَة إلَّا بعد أنْ انْتهىٰ نهائيًا من إعَادَة النِّظَام للبلاد والقِيَام بالعَدِيد من الإصْلاحات الإدَارية وحَدَّدَ مَرَاكِز وِلايَات الأقاليم المُتَحكِّمة في مصر العُلْيا والسُّفْلَىٰ بهَدَفِ تأمِين الطُّرُق المُؤدِّية إلى العَاصِمَة إضَافَةً إلى العَدِيد من المُنْشآت الدِّفاعِيَّة المُتَقَدِّمَة التي تَضْمَن الأمْنَ لمَنْع أي أخْطارٍ تُهَدِّدُ البلاد.

ويَرْجِعُ سُورُ القَاهِرَة المَوْجُود الآن إلى عَصْرين: سُور بَدْرِ الجَمَالي في زَمَنِ المُسْتَنْصِر بالله (٤٨٠ـ٤٨٥هـ/١٠٨٧ـ١٠٩٣م) وسُور بَهَاء الدِّين قَرَاقُوش في زَمَنِ صلاحِ الدِّين (٥٦٦هـ/١١٦١م و ٥٧٢هـ/١١٧٦م). ونَسْتِطيعُ أنْ نُمَيِّز بوُضُوحٍ بين كلٍّ من السُّورَيْن[١].

بَدَأ أميرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجَمَالي، في المحرَّم سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م، مَشْرُوعًا كَبِيرًا لتوسيع وتَحْصِين القَاهِرَة ببِنَاء أوَّل سُور جَدير بهذا الاسْم وفَتْح أوَّل أبْوَاب مُحَصَّنَةٍ عَسْكريًا في هذا السُّور، وأدْخَلَ في نِطاقِ السُّور الجَدِيد كلَّ المَسَاحَة المَحْصُورَة بين أبْوَابِ جَوْهَر وأبْوَابِ سُورِه الجَدِيد، أي في الجَنُوب المَسَافَة التي تَفْصِل بابَيّ زَوِيلَة الأوَّل عن باب زَوِيلَة القَائم الآن، وفي الشَّمَال المَسَافَة التي تَفْصِل باب الفُتُوح

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٦٠، ٢٦٤.

القَديم (قُرْب حارَة بَهَاء الدِّين الآن) عن بابِ الفُتُوح الحالي ، وأضَافَ من جِهَةِ بَابِ النَّصْر الرَّحْبَة التي كانت ، في عَصْرِ المَقْريزي ، تِجَاه جَامِع الحَاكِم إلى بابِ النَّصْر الحَالي . وتَمَّ الانْتِهَاءُ من هذا المَشْرُوع مع تَشْيِيد بابِ زَوِيلَة الكَبِير في سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م[١] .

ومازَالَ باقيًا من هذه التَّحْصِينَات ثَلاثَةُ أبْوَابٍ ضَخْمَة (بَابُ النَّصْر وبابُ الفُتُوح وبابُ زَوِيلَة) إضَافَةً إلى باب البَرْقِيَّة في شَرْقيّ المَدِينَة[١] . ولهذه التَّحْصينَات أهَمِّيَّةٌ كبرىٰ حيث تُمَثِّلُ أُنْمُوذَجًا مُتَمَيِّزًا للعِمَارَة العَسْكرية في العَالَم الإسْلامي قَبْل الحُرُوب الصَّلِيبِيَّة . وتُحَدِّدُ الأقْسَامُ البَاقِيَة إلى الآن من هذا السُّور الحُدُودَ الشَّمالية والجَنُوبية للمَدِينَة الفَاطِمية وهي الشَّاهِد الأثَرِيّ الحَقِيقي لهذا العَمَل (مُسَجّل بالآثار برقم ٣٥٢) .

بَابُ النَّصْر (العِزّ)

يقولُ المَقْريزي : عندما عَمَّرَ بَدْرٌ الجَمَالي سُورَ القَاهِرَة « نَقَلَ بَابَ النَّصْر من حيث وَضَعَهُ القَائِدُ جَوْهَر إلى حَيْث هو الآن ، فصَارَ قَرِيبًا من مُصَلَّىٰ العِيد ، وجَعَلَ له باشُورَةً أدْرَكْتُ بَعْضَهَا إلى أنْ احْتَفَرَت أخْتُ الملك الظَّاهِر بَرْقُوق الصِّهْرِيج للسَّبِيل تِجاه بابِ النَّصْر ، فهُدِمَت وأقامَت السَّبِيلَ مكانه . وعلى بابِ النَّصْر مكتوبٌ بالكُوفي في أعْلاه : « لا إلَه إلَّا الله محمدٌ رَسُولُ الله ، عَليٌّ وَلِيّ الله ، صَلَواتُ الله عليهما »[٢] .

ومازَالَت هذه الكتابةُ مَوْجُودَةً على أسْكُفَّة البَاب في إطارٍ مُسْتَطِيلٍ تُفِيدُ بأنَّه بُدئ بَعَمَل الباب في المحرَّم سنة ثَمانين وأرْبَع مائة .

---

[١] راجع ST. PRADINE, O. TALAAT, «Les fortifications fatimides du Caire: Bâb al-Tawfiq et l'enceinte en briques de Badr al-Gamâlî», *An. Isl.* 41 (2007), pp.229-74.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢٧١ ؛ A. FU'ÂD SAYYID, *op.cit.*, pp.399-405.

بَابُ الفُتُوح (الإقْبَال)

يقولُ المَقْريزيّ : « والبابُ المعرُوف اليَوم ببَابِ الفُتُوح من وَضْعِ أمير الجيُوش وبين يَدَيْه باشُورَة قد رَكِبها الآن النَّاسُ بالبُنْيان لمَّا عُمِّر ما خَرَجَ من بابِ الفُتُوح » . وقال ابنُ عبد الظَّاهِر : « وعلى البَدَنَة التي تُجَاوِرُ باب الفُتُوح وبعض البُرْج مكتوبٌ أنَّ ذلك بُنِي سنة ثَمانين وأرْبَع مائة في زَمَنِ المُسْتَنْصِر بالله ووَزَارَة أمير الجيُوش » . وهو شَرِيطٌ ارتفاعه ٣٤سم يَمْتَدُّ لمسافة ٥٨,٩٢ مترًا ، مازَالَ مَوْجُودًا إلى الآن [١] .

بَابَ البَرْقِيَّة (التَّوْفِيق)

من الغَرِيب أنَّ مُؤلِّف الخِطَط لا يُقَدِّمُ لنا أيَّ وَصْفٍ طبوغرافي أو تاريخي لبَاب البَرْقِيَّة . وتَمَّ الكَشْفُ عن هذا البَاب بالصُّدْفَة في عام ١٩٥٧م أثناء رَفْع التِّلال التي كانت تَفْصِلُ المَدِينَة عن قَرَافَة المماليك لفَتْح طَرِيق صَلاح سالم وشَارِع الدَّرَّاسة ـ امْتِدَاد شَارع جَوْهر القَائِد ـ وشَارع المَنْصُورِيَّة الذي يُحَدِّد تَقْرِيبًا الحَدَّ الشَّرْقيّ للمَدِينَة . كان البابُ مَدْفُونًا تحت كيمان المُخَلَّفَات الوَاقِعة شَرْقيّ الجَامِع الأزْهَر على بُعْد ثلاثين مترًا خَلْف الزَّاوِيَة التي تُكَوِّن شارعيّ الدَّرَّاسة والمَنْصُورِيَّة . كَشَفَت هذه الأعْمال عن أَحَد الأبْواب الشَّرْقية لسُور بَدْر الجَمَالي هو باب البَرْقِيَّة الذي يَحْمل نَصًّا تأسِيسيًّا يُفيد بناء بَدْر الجمالي للباب في المحرَّم سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م . ولا يُقَدِّمُ لنا هذا البَاب الهَيْئَة الضَّخْمَة لأبْوَابِ القَاهِرَة الثَّلاثَة الأخرىٰ في الوَاجِهَتَيْن الشَّمالية والجَنُوبِيَّة ، فعلى العَكْس من هذه الأبْوَاب فإنَّ أقْوَاسَ هذا الباب مكسورَة [٢] .

والنُّصُوصُ الإنْشَائية لهذه الأبْوَاب الثَّلاثَة مُتَشَابِهَة وأُنْشِئَت جَمِيعُها في المحرَّم سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م . وكلُّ نَصٍّ منها يُعْطِي اسْمًا لكلِّ بابٍ ، ولكن الغَرِيب أنَّها

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢:٢٧٢ـ ٢٧٤؛ *Ibid.*, pp.405-17

[٢] *Ibid.*, pp.418-24.

ليست التَّسْمِيَة المُعْتَادَة التي نَعْرِفُها لهذه الأبْوَاب . فأُطْلِقَت على بابِ النَّصْر (باب العِزّ) وعلى بابِ الفُتُوح (باب الإقْبَال) وعلى بابِ البَرْقِيَّة (باب التَّوْفِيق) . ومن المُؤَكَّد أنَّه لو كان وَصَلَ إلينا النَّصُّ الإنْشَائي لبابِ زَوِيلَة لحُفِظَت لنا التَّسْمِيَة الجَدِيدة للباب .

ومن المُرَجَّح أنَّ جَمِيعَ الأبْوَاب التي شَيَّدَها بَدْرٌ الجَمَالي في السُّور الجَدِيد أُطْلِق عليها أسْمَاءٌ جَدِيدَة . ولكن للأسَف يَظلّ ذلك مَجْهُولًا لنا لأنَّ هذه الأبْوَاب قد زَالَت حتى آخِر حَجَر . وتَعْكِسُ هذه الأسْمَاءُ الجَدِيدة الطَّبِيعَة الملكية لهذه الأبْوَاب وتُعْلِي المكانَة التي وَصَلَ إليها بَدْرٌ الجَمالي وتُذَكِّر بأهَمِّية الخَدَمات التي قَدَّمها للدَّوْلَة الفَاطِمية والتي بفَضْلِها تأخَّرَ إعْلانُ سُقُوطِ الدَّوْلَة لمائة عامٍ أخرىٰ . ومع ذلك استمرَّ المَقْرِيزيّ الذي قَرَأ على الأقَلّ النُّصُوصَ التَّأسِيسِيَّة لبابِ النَّصْر وبابِ الفُتُوح وبابِ زَوِيلَة ، يُطْلِقُ عليها الأسْمَاء القَدِيمَة ولا يُشِيرُ إطْلاقًا إلى هذه الأسْمَاء الجَدِيدَة .

بَابُ زَوِيلَة

يَرْتَبِطُ تاريخُ القَاهِرَة بهذا الباب ، ففَوْر الفَرَاغ من تأسِيسه أضْحَىٰ أكثر أبْوَابِ المَدِينَة اسْتِخْدَامًا فهو حَلْقَةُ الوَصْلِ بين المَدِينَة وضَوَاحِيها الجَنُوبية حتى الفُسْطَاط ، وهو المَنْفَذُ الوَحِيدُ الذي سيَصِلُ المَدِينَة في العُصُور التالية بقَلْعَةِ الجَبَل .

يقول ابن مُيَسَّر : فيها [أي سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٣م] بَنَىٰ أميرُ الجُيُوش بَدْرٌ الجَمَالي بابَ زَوِيلَة الكَبِير ، وهو باقٍ إلى الآن ، وعَلَّىٰ أبْرَاجَه ولم يَعْمَل له باشُورَةً ، كما هي عادَةُ الحُصُون أنْ يكون فيها عَطْفَةٌ حتى لا تَهْجِم عليه العَسَاكِرُ في وَقْتِ الحِصَار ويَتَعَذَّر سَوْق الخَيْل ودُخُولها جُمْلَةً ، بل عَمِلَ في بَابِه زَلَّاقَة من حِجَارَة صَوَّان حتى إذا هَجَمَ العَسَاكرُ لا تَثْبُتُ قَوَائمُ الخَيْل على الصَّوَّان . وبَقِيَت الزَّلَّاقَةُ

إلى أيَّام الكَامِل محمد بن العَادِل فزَلِقَ فَرَسُهُ عليه فأمَرَ بنَقْضِها »[١].

ويُضيفُ المَقْرِيزي : « ومَنْ تأمَّلَ الأسْطُر التي قد كُتِبَت على أعْلاه من خَارِجِه ، فإنَّه يَجِد فيها اسْمَ أمير الجُيُوش والخَلِيفَة المُسْتَنْصِر وتأريخ بِنَائِه »[٢]. وقد زَالَت للأسَف هذه الكِتَابَة وإنْ كُنَّا نُشَاهِدُ الآن أعْلىٰ القَوْس الخَارِجي بين البَدَنتين إطارٌ مُسْتَطِيلٌ كان يَحْوي الحَجَر المَنْقُوش فيه هذه الكِتَابَة .

والطِّرَازُ الذي بُنِيَت عليه هذه الأبْوَاب الثَّلاثَة طِرازٌ جَديدٌ يُذَكِّر بأسْلُوب البِنَاء المعروف في سوريا الشَّمالية والتحْصينات البِيزَنْطِيَّة ، ويَذْكُر أبو المكارِم سَعْد الله أنَّ المُهَنْدِسَ الذي صَمَّمها يُعْرف بيُوحَنَّا الرَّاهِب[٣]، بينما يَذْكر المَقْريزي « أنَّ ثَلاثَة إخْوَة قَدِمُوا من الرُّها بَنَّائِين بَنُوا بابَ زَوِيلَة وبابَ النَّصْر وبابَ الفُتُوح ، كلُّ وَاحِدٍ بَنَى بَابًا »[٤].

*

* *

ومن أهَمِّ مُنْشَآت القاهِرَة التي تَعُودُ إلى زَمَنِ بَدْر الجَمَالي : « المَشْهَد الجُيُوشي » الذي مازَال قَائِمًا يُشْرِف على جَنُوبيّ القَاهِرَة من أعلىٰ جَبَلِ المُقَطَّم . وقد أنْشَأ بَدْرُ الجَمَالي هذا المَشْهَد في المحرَّم سنة ٤٧٨هـ/ مايو سنة ١٠٨٥م . ورغْم أنَّنا لا نَمْلِكُ مَعْلُومات تَاريخية تُشِيرُ إلى مَنْ بُنِيَ له هذا المَشْهَد ، فلا نستطيعُ إلَّا التَّفْكير في بَدْر الجَمَالي باني المَشْهَد الذي رُبَّما بَنَاهُ ليُدْفَن فيه ، ولكن لأسبابٍ غير معلومة عندما تُوفِّي بعد ذلك بعَشْرَة أعْوَام دُفِنَ في تُرْبَةٍ تَقَعُ خَارِج بَابِ النَّصْر .

ويرىٰ يُوسُف رَاغِب أنَّ مَشْهَدَ الجُيُوشي ليس إلَّا مُصَلًّىٰ بَسِيط أقامَه بَدْرٌ الجَمَالي فوق قِمَّة الجَبَل احْتِفاءً بانْتِصارِه على الخَارِجين وعلى الفَوْضَىٰ ، وبالتَّالي

---

[١] ابن ميسر : أخبار مصر ٥١ .

[٢] المقريزي : المواعظ ٢:٢٧٠ .

[٣] أبو المكارم : تاريخ الكنائس ٥١ظ .

[٤] المقريزي : المواعظ ٢:٢٦٩ .

يجب حَذْفُه من قَائِمَة المَشَاهِد رَغْم أنَّ نَصَّهُ التَّأسيسي يذكر أنَّه « مَشْهَد » [١].

وفي عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م قامَ بَدْرٌ الجَمَالي بتَرْميم مَشْهَد السَّيِّدَة نَفِيسَة ، وهو أوَّل تَرْمِيم رَسْميّ تَقُومُ به الدَّوْلَةُ الفَاطِمية لأحَدِ مَشَاهِد آل البَيْت ، فقد أضْحَىٰ هذا المَشْهَدُ الذي يحتوي على رُفاتِ أوَّل شَخْصية من آل البَيْت تُدْفَنُ في أرْضِ مصر : السَّيِّدَة نَفِيسَة بنت الحَسَن الأنْوَر بن زَيْد الأبْلَج بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالِب ، المتوفَّاة سنة ٢٠٨هـ/٨٢٣م . وبُنِي هذا المَشْهَدُ نحو سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م ، وفي عَهْدِ المُسْتَنصر بالله ضَاق هذا المَشهد عن استقبال العَدَد الكَبير من الزَّائرين ، فلقي لذلك تَحَوُّل مهم في رَبيع الآخر سنة ٤٨٢هـ/ يونية سنة ١٠٨٩م ، حَيْث شَيَّدَ أميرُ الجُيُوش بَدْرُ الجَمَالي على القَبْر مَشْهَدًا يليقُ بمكانتها ، وقد حَظِي هذا المَشْهَدُ بالعَدِيد من الإصْلاحات بعد ذلك بحيث أنَّه لم يَبْق أيُّ أثَرٍ من المَبْنَى الفاطِمي الذي كان مَوْجُودًا منه قِسْمٌ على الأقَلّ في زَمَنِ المَقْريزي الذي شَاهَدَ لَوْحًا من الرُّخَام على بابِ ضَرِيحها الذي كان مُصَفَّحًا بالحَدِيد يَحْمِلُ كتابَةً تاريخيةً تُسَجِّلُ هذا الحَدَث ، فُقِدَت اليوم مع المَشْهَد الفَاطِمي ولا يُوجَدُ لها أيُّ أثَر ، إلَّا أنَّ النَّصَّ الإنْشَائي الذي يُسَجِّلُ هذا الحَدَث حَفِظَه لنا كلٌّ من المُوَفَّق بن عُثْمان والمَقْريزي ونُور الدِّين السَّخَاوِي ، وجَاءَ فيه :

« .... أمَرَ بعِمَارَة هذا البَاب السَّيِّدُ الأجَلُّ أميرُ الجُيُوش سَيْفُ الإسْلام ناصِرُ الإمام كافِلُ قُضَاة المسلمين وهادِي دُعاة المُؤْمنين عَضَّدَ الله به الدِّين وأمْتَعَ بطُولِ بقائِه أمير المُؤمنين وأدَامَ قُدْرَتَه وأعْلىٰ كلمتَه وشَدَّ عَضُدَهُ بوَلَده الأجَلّ الأفْضَل سَيْف الإمَام جَلال الإسْلام شَرَف الأنام ناصِر الدِّين خَليل أمير المُؤمنين زَادَ الله في عَلائِه وأمْتَعَ أمير المؤمنين بطُولِ بقائِه في شهر رَبيع الآخِر سنة اثنتين وثمانين وأربع مائة » [٢].

---

[١] A. FU'ÂD SAYYID, *op.cit.*, pp.433-440.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٨٤٢ ؛ A. FU'ÂD SAYYID, *op.cit.*, pp.441-44.

تُرْبَةُ بَدْرِ الجَمَالي

كانت مَقَابِرُ أَهْل القَاهِرَة في النِّصْف الأَوَّل من تارِيخ الدَّوْلَة الفَاطمية تَقَعُ خَارج بابَيّ زَوِيلَة في المَوْضِع الذي يَشْغَلُه الآن جَامِعُ الصَّالح طَلَائِع وشارعُ الدَّرْب الأحمر وامْتِدَادُه حتى مَيْدان الرُّمَيْلَة واسْتُخْدِمَت هذه المَقَابِر بكثرة أثناء الشِّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة منْتَصَف القَرن الخَامِس الهجري/ الحادي عَشْر الميلادي . ثم أَنْشَأَ بَدْرُ الجَمَالي بعد سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م أَثْنَاء إعَادَة تَحْصِين المَدِينَة « تُرْبَةً عَظِيمَةً بَحْري مُصَلَّىٰ العِيد خارِج باب النَّصْر فيها قَبْرُه هو ووَلَدُه الأَفْضَل بن أمير الجُيُوش وأبو علي كُتَيْفات بن الأَفْضَل وغيره ، يقول المَقْريزي : « وهي باقيةٌ إلى يَوْمنا هذا ، ثم تَتَابَعَ النَّاسُ في إنْشَاء التُّرَب هناك حتى كَثُرَت ، ولم تَزَل هذه الشُّقَّة مَوَاضِع للتُّرَب ومَقَابِر أَهْل الحُسَيْنِيَّة والقَاهِرَة إلى بعد السَّبْع مائة » ، وإلى وَقْتنا هذا وتُعْرَف بـ « قَرَافَة بَاب النَّصْر » .

وتُوجَدُ الآن في المَقَابر الممتدة شماليّ باب النَّصْر في سَفْح تَلّ الشَّيْخ شَعْبَان في مَقْبَرَة الدِّيْر ضَرِيحٌ معروفٌ باسْم « قُبَّة يُونُس السَّعْدِي » . وتَحْتَفِظُ قُبَّتُهُ القَدِيمَة بعَنَاصِر معمارية وزُخْرُفية تَضَعُها دون الْتِباس بين مُنْشآت العَصْرِ الفَاطِمي .

وتَوَصَّلَ يُوسُف رَاغِب اعتمادًا على « خَرِيطَة وَصْفِ مِصْر » إلى أنَّ قُبَّة يُونُس السَّعْدِي تَظْهَر فيها باسْم « زَاوِيَة السَّيِّد بَدْر » وبالتَّالي فإنَّ هذه الوَثِيقَة التي لا تَقْبَل الدَّحْض تُؤَكِّدُ لنا أنَّ ضَرِيحَ يُونُس السَّعْدِي هو ضَرِيحُ بَدْرِ الجَمَالي ، وأنَّه تَبَدَّل اسْمه بعد نهاية القرن الثَّاني عَشْر للهجرة/ الثَّامِن عَشْر للميلاد أَغْلَب الظَّن في أَعْقَابِ تَعَدٍّ على المكان [١] .

---

[١] A. Fu'ād Sayyid, *op.cit.*, pp. 451-53.

وذلك إضَافَةً إلى عِنايَتِه بمقْيَاس النِّيل بالجَزِيرَة وتَشْييده جَامِعًا بالقُرْبِ من المِقْيَاس عند الطَّرَفِ الجَنُوبيّ للجَزِيرَة [١].

القَاهِرَة في عَصْرِ الأَفْضَل بن بَدْرِ الجمالي

يَلْحَظُ الدَّارِسُ للوَهْلَة الأُولىٰ وُجُودَ تَبَايُن بين نَوْع المُنشآت التي شَيَّدَها بَدْرٌ الجمالي وتلك التي أقامَها وَلَدُه الأَفْضَل شَاهِنْشَاه . فقد حَرَصَ بَدْرٌ على اسْتِتْبابِ النِّظام والأَمْن عندما أباحَ للطَّوَائف الجَدِيدَة التي صَحِبَتْه الإقامة في القَاهِرَة وعندما أعَادَ تَحْصِين المَدِينَة بإقامَة سُورٍ جَدِيدٍ حَصِين بغَرَضِ مَنْع عَوْدَةِ مَظَاهِر الفَوْضَىٰ التي سَادَت بها قَبْل قُدُومِه إلى مصر .

ونتيجةً للهُدْوء الذي غَلَبَ على العَاصِمَة الفَاطِمية قَامَ وَلَدُه الأَفْضَل شَاهِنْشَاه بالاهْتِمَام بمُتْعَتِه وإرْضَاء ذَاتِه ، فعَمِلَ على مُضَاعَفَة عَدَدِ مَنَاظِر النُّزْهَة سَوَاء في القَاهِرَة أو في الفُسْطاط . ولم يُخَلِّف الأَفْضَلُ كثيرَ شيء في القَاهِرَة باسْتِثْنَاء « دَار الوَزارَة الكبرىٰ » التي زَالَت اليوم والمِحْرَاب الجَصِّي الذي أضَافَهُ لجامِع ابنُ طُولُون .

ما أنْ تَوَلَّىٰ الأَفْضَلُ الوَزَارَة خَلَفًا لوالده حتى تَرَكَ الإقامَة في دَارِ أبيه بحَارَة بَرْجَوَان وشَيَّدَ مَبْنًى ضَخْمًا فَخْمًا فَسِيحًا في القِسْم الشَّمالي الشَّرْقي للقَاهِرَة بالقُرْبِ من باب النَّصْر وفي مُوَاجَهَة الزَّاوِية الشَّمالية الشَّرْقية للقَصْرِ الفَاطمي الشَّرْقي تَفْصِلُه عنه رَحْبَةُ باب العِيد . وأُطْلِقَ على هذه الدَّار « الدَّار الأَفْضَلِيَّة » نِسْبَةً إليه كما عُرِفَت بـ« دَار القِبَاب » [٢]. وعُرِفَت بـ« دَار الوَزَارَة الكبرىٰ » بعد

---

[١] فيما تقدم ٥٧-٥٨.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٤٣٨، ٥١٩.

أنْ أقامَ فيها خَلَفُه الوزيرُ المأمُون البَطَائِحي (٥١٥-٥١٩هـ)، حيث تَعَاقَبَ على الإقامَة فيها وُزَرَاءُ الخُلَفَاء الفَاطِميين المتأخِّرين، كما أقامَ فيها صَلاحُ الدِّين وخُلَفاؤه المباشِرُون قبل أنْ يتمّ بِنَاء قَلْعَة الجَبَل ويَنْتَقِلُ إليها نهائيًا السُّلطانُ الكامِلُ محمد، وعُرِفَت خلال هذه الفَتْرَة بـ «الدَّار السُّلْطانية»، وأخِيرًا تَحَوَّلَت إلى دَارٍ للضِّيَافَة لاسْتِقبال سُفَرَاء الدُّوَل الأجْنَبِيَّة[1].

كانت السُّلْطَةُ الفِعْلِيَّةُ في مصر، في أعْقابِ وَفَاةِ الخَلِيفَة المُسْتَنْصِر بالله، في يَدِ الوَزير القوي الأفْضَل شَاهِنْشَاه الذي حَجَرَ سواء على الخَلِيفَة المُسْتَعْلِي بالله أو ابنه الآمِر بأحْكام الله حتى وفاته سنة ٥١٥هـ/١٠٢١م. وقد فَكَّرَ في أوَّلِ الأمْر في نَقْلِ مَرْكز الحُكْم لأوَّلِ مَرَّة خَارِج القَاهِرَة، فأنْشَأ في سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م «دَارَ المُلْكُ بمصر» وتَحَوَّل إليها من دَارِ القِباب بالقَاهِرَة وسَكَنَها وحَوَّلَ إليها الدَّوَاوِين من القصر وجَعَلَ فيها الأسْمِطَة واتَّخَذَ بها مَجْلِسًا سَمَّاهُ «مَجْلِس العَطايا». وبعد مَقْتَلِ الأفْضَلِ سنة ٥١٥هـ/١٠٢١م صَارَت دَارُ المُلْك من جُمْلَة مُتَنَزَّهات الخُلَفَاء، وجَعَلَها الكَامِلُ محمد الأيُّوبي في مَطْلَعَ القرن السَّابع دَارَ مَتْجَرٍ وتَحَوَّلَت في أيَّام الظَّاهِر بَيْبَرْس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) إلى دَارٍ وَكالَة. وأقِيمَ إلى جِوَارِها المَدْرَسَةُ المُعِزِّيَّة[2] التي حَلَّ مَحَلَّها الآن جَامِعُ عابِدي بك جنوبيّ مصر القديمة، فيكون مَوْضِعُ دَار المُلْك مجموعة المباني المُجاورة للجامِع المذكور.

ولكن اعتبارًا من وَزارَة المأمُون بن البَطَائحي عادَت دَارُ الوَزارَة الكبرىٰ مَقَرًّا للوُزَرَاء الفَاطِميين وظَلَّت كذلك حتى سُقُوط دَوْلتهم.

كانت دَارُ الوَزَارَة تتكوَّن من مجموعة قاعات لا نَعْرِفُ عَدَدَها على وَجْهِ التَّقْرِيب، وإنْ احْتَفَظَ لنا عُمَارَة اليمني بأسْمَاء، بعضها مثل: «قاعَة البَحْر»

---

[1] المقريزي: المواعظ ٢: ٤٣٨.
[2] نفسه ٢: ٥٧٣.

و « قاعَة السِّرّ » و « قاعَة البُسْتَان » [١]. وكان تَخطِيطُ هذه الدَّار يَشْتمل على صَحْنٍ أوْسَط يُحيط به أرْوِقَة تُؤدِي إلى القاعات المختلفة. وكان مُلْحَقًا بالدَّار حَمَّامٌ اسْتولى عليه بعد زَوَال الدَّوْلَة الأمير تَتَر، أحد مماليك أسَد الدِّين شِيرْكوه، فعُرِفَت به هي وما حَوْلها وصارَ يُطْلَقُ على المَوْضِع « خُطّ خَرَائِب تَتَر » [٢].

وكان تَوْزيعُ المياه دَاخِل الدَّار، الذي يَتَوَافَق دون شَكّ مع ما كان مَعْمُولًا به في القُصُورِ الفَاطِمية وغيرها من دُورِ القَاهِرَة، بوَاسِطَة مائة وعِشْرين مَقْسَمًا تُوَزّع الماء الذي يجري في بِرَكها [٣].

وتَقَعُ دَارُ الوَزَارَة الكبرىٰ على يمين من يَخْرُج من رَحْبَة باب العِيد قاصِدًا باب النَّصْر، الذي يُعادِلُ الآن المكان الوَاقِع بين حَارَة المُبَيِّضَة جَنُوبًا ووَكَالَة عُطَيّ شَمالًا ويَحُدُّها غَرْبًا شَارِع الجَمالية الحالي. وهذا المكان يحتلّه الآن المَدْرَسَةُ القَرَاسُنْقُرِيَّة وخانْقاه بَيْبَرْس الجاشَنْكِير.

وبَنَىٰ الأفْضَلُ في وَقْتِ وَزَارَتِه كثيرًا من المَسَاجِد والجَوَامع منها: جَامِع الفِيَلَة جَنُوبِيّ الفُسْطَاط وجَامِع الجِيزَة وبَنَى ثلاث مآذِن لجامِع عَمْرو بالفُسْطَاط، وهو الذي أنْشَأ بُسْتَانَ البَعْل والمُنْتَزَه المَعْروف بالتَّاج والخَمْس وُجُوه والبُسْتَان الكَبِير ببُولاق وجَدَّدَ بُسْتَانَ الأمِير تَميم ببِرْكة الحَبَش وأنْشَأ الرَّوْضَة بحريّ الجَزِيرَة [٤].

---

[١] عمارة اليمني: النكت العصرية ٦٢، ١٠٠.

[٢] المقريزي: المواعظ ٣: ٢٦٤.

[٣] نفســه ٢: ٤٤٢.

[٤] ابن ميسر: أخبار مصر ٨٤ـ ٨٧.

مَنَاظِرُ القَاهِرَة

الفَاطِمِيَّة

انْتَشَرَت بالقَاهِرَةُ وظَوَاهِرُها في العَصْرِ الفَاطمي نحو تِسْع مَناظِر ، كان الخُلَفَاءُ الفَاطِميون يَتَرَدَّدُون عليها في أَوْقاتِ الصَّيْف على الأَخَصّ ، وهذه المَنَاظِر هي : مَنْظَرَة الغَزَالَة ومَنْظَرَة الدِّكَّة ومَنْظَرَة المَقْس ودَار الذَّهَب والبَعْل والتَّاج والخَمْس وُجوه ومَنْظَرَة السُّكَّرَة ، ولكن أَقْدَم هذه المَنَاظِر والتي كان يُكْثِر الخُلَفَاءُ التَّرَدُّد عليها هي دون شك مَنْظَرَة اللُّؤْلُؤة .

كان يُوجَدُ بين بابي سُور القَاهِرَة الغربي ، باب القَنْطَرَة شَمَالًا وباب سَعَادَة جَنُوبًا ، وبين الخَلِيج بَرَاحٌ كانت تَقَعُ فيه في العَصْرِ الفَاطِمِيّ مَنْظَرَتان للخُلَفَاء الفَاطِميين : مَنْظَرَةُ اللُّؤْلُؤة بالقُرْب من باب القَنْطَرَة ، ودارُ الذَّهَب إلى الجَنُوب منها قَليلًا . وكان الخُلَفَاءُ يَتَوَصَّلُون إلى هاتين المَنْظَرَتَيْن إمَّا عن طريق باب القَصْر الفاطمي الغربي المعروف بـ« باب مُرَاد » أو عن طريق السَّرَادِيب التي تَرْبِطُ القَصْرَ الفاطمي الشَّرْقيّ بالخَلِيج وتَمُرُّ أسفَلَ القَصْرِ الغربيّ سواء للتوصُّل إلى هذه المناظِر أو إلى البُسْتَان الكافُوري [١] .

ويَتَوَافَقُ مَوْضِـعُ مَنْظَرَة اللُّؤلُؤة الآن مع المَوْضع المُقام عليه مَدْرَسَة القِديس يُوسُف St. Joseph (الفرير) بالخُرُنْفِش .

وكان يُجاوِرُ اللُّؤْلُؤة مَنْظَرَةٌ يقالُ لها « مَنْظَرَة الغَزَالَة » على شاطئ الخَلِيج ، حَلَّ محلَّها في عَصْر المَقْريزي رَبْعٌ يُعْرَف بـ« رَبْع غَزَالَة » إلى جَانِب قَنْطَرَة المُوسكي [٢] .

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ :٥٢٨-٥٣٣.

[٢] نفســه ٢ :٥٣٣-٥٣٤.

أمّا دَارُ الذَّهَب فكانت تَقَعُ غَرْبِيّ القَاهِرة بين باب الخُوخَة وباب سَعَادَة على شاطئ الخَلِيج على يَسْرَة الخَارِج من باب الخُوخَة فيما بينه وبين باب سَعادَة، وهي من بِنَاء الأَفْضَل شَاهِنْشَاه بن بَدْر الجَمَالي كان يستريحُ بها إذا كان الخَلِيفَةُ باللُّؤلُؤة. وحَلَّ محلَّها في العَصْر المَملوكي دَارٌ تَعْرَف بدار بَهَادُر الأَعْسَر شَاهَدَ منها المَقْريزي عَقْدًا بجوار دار الأَعْسَر يُعْرَف بقَبْو الذَّهَب من خُطّ بين السُّورَيْن [١].

وكان يُوجَدُ في غربي الخَلِيج مَنْظَرَةُ السُّكَّرَة يَجْلِسُ فيها الخَلِيفَةُ يوم فَتْح الخَلِيج وكان لها بُسْتَانٌ عَظِيم، وهي من بناء العَزيز بالله. ذَكَرَ المَقْريزيّ أنَّه يُشْبِهُ أنْ يكون مَوْضعها المكان المعروف بالمَرِيس والذي يَدُلُّ عليه الآن المنطقة التي يحدّها من الشَّرْق شارع بورسعيد ومن الغَرْب شارع علي يُوسُف بالقرب من القَصْر العيني [٢].

وكان يُوجَدُ خارج باب القَنْطَرة، في مُوَاجَهَة هذه المناظِر على البَرّ الغربي للخَليج، مَكانٌ فَسِيحٌ يَتَّصِلُ من شَرقيه بعَدْوَة الخَلِيج ومن غَربيه بالمَقْس يُعْرَف بـ « مَيْدَان القَمْح » وبـ « مَيْدَان الغَلَّة »، كان مَوْضِعًا للغِلال عندما كان المَقْسُ سَاحِلَ القاهِرَة، حتَّى أنَّ صُبَرَ القَمْح وغيره من الغِلال كانت تُوضَعُ من جانِب المَقْس إلى باب القَنْطَرَة عَرْضًا، وتَقِفُ المراكِبُ من جَانِب المَقْس إلى مُنْيَة السِّيرج طُولًا [٣].

وقد تَغَيَّر هذا الوَضْع في العَصْر المملوكي مع انْحِسَار شاطئ النِّيل غَرْبًا وكشْفِه عن أراضٍ جَدِيدَة أدَّت إلى نُشُوء مِينَاء بُولاق ليَحِلّ مَحَلّ مِيناء المَقْس في أوَاسِط القَرْن الثَّامِن الهجري/الرَّابع عَشَر الميلادي.

ويَدُلُّ على مَوْضِع « مَيْدَان القَمْح » الآن النِّصْفُ الشَّرْقي من منطقة باب البَحْر التي يَشْغَلُها لآن سِكَّةُ الفَجَّالَة وشَارِع الطَّوَاشِي حتى مَيْدَان بِرْكة الرَّطْلي شمالًا.

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢:٥٣٦ـ ٥٣٧.

[٢] نفسه ٢:٥٣٥ـ٥٣٨.
REDA, *The Manzara: its Form and Function in Fatimid Egypt*, M. A. dissertalion AUC 1998.

[٣] نفسه ٣:٤١٣ـ٤١٤، وانظر كذلك J. I.

ازْدِهارُ العاصِمَة الفاطِمِيَّة

واتِّصَالُ المَدِينَتَيْن في القَرْنِ السَّادِس الهِجْرِيّ

تُعَدُّ الفَتْرَةُ التي تَوَلَّىٰ فيها المأمُونُ بن البَطَائِحيّ الوَزَارة للخَلِيفَة الآمِر بأحْكام الله (٥١٥-٥١٩هـ/١١٢٢-١١٢٥م) من أزْهَىٰ فَتَرَات التَّارِيخ الفَاطِمِي في مصر، فقد كان الآمِرُ مَفْتُونًا بعَظَمَة الاحْتِفالات وفَخَامَتها ويَرْجِعُ إليه الفَضْلُ - كما يقولُ المَقْريزي - «في تَجْدِيد رُسُوم الدَّوْلَة وإعَادَة بَهْجَتها إليها»[١]، حيث أخَذَت رُسُومُ الفَاطِميين شَكْلَها النِّهائي على يَدِ هذا الخَلِيفَة الذي أعادَ وطَوَّرَ الكثيرَ من الاحْتِفالات الفَاطِمية التي انْقَطَعَت بسبب ما تَعَرَّضت له البِلادُ في أعْقَابِ الأزْمَة الاقْتصادية وتَسَلُّط الوَزير القَوِيّ الأفْضَل شَاهِنْشَاه على الدَّوْلَة.

واسْتَلْزَمَ ذلك أنْ يُعِيدَ هذا الخَلِيفَة إلى العَاصِمَة سَابِقَ ازْدِهَارِها بَعْد الخَرَابِ الذي لَحِقَ بالفُسْطَاط ومَوْضِع العَسْكَر والقَطَائِع وظَاهِر مصر مِمَّا يلي القَرَافَة بسَبَبِ هذه الأزْمَة. ففي البِدَايَة نُقِلَت الأنْقَاضُ التي تخلَّفَت في مَوْضِع العَسْكَر والقَطائع عن الخَرَاب الذي لَحِقَ بالمَنْطِقَة المُمْتَدَّة جَنُوبًا بين بابِ زَوِيلَة والمَشْهَد النَّفِيسي واسْتَعَانَ به الذين سَمَحَ لهم بَدْرٌ الجَمَالي بالبِنَاء دَاخِل القَاهِرَة المُحَصَّنَة حتى تَحَوَّلَ هذا المَوْضِعُ إلى فَضَاءٍ وكيمانٍ بين مصر الفُسْطَاط والقَاهِرَة وبين الفُسْطَاط والقَرَافَة[٢].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار.

[٢] نفســه ٢: ١٤٢.

فأمَرَ الآمِرُ وَزِيرَه المأمُون أنْ يَدْعُو النَّاسَ إلى تَعْمِير مَوْضِع هذا الخَرَاب ليُعِيدَ إلى العَاصِمَة سَابِقَ رَوْنَقِها وتألُّقِها . فأمَرَ بالنِّدَاء مُدَّة ثَلاثَة أيَّام في القَاهِرَة ومصر : « بأنَّ مَنْ كان له دَارٌ في الخَرَاب أو مَكانٌ فلْيَعْمُرْه ، ومَنْ عَجَزَ عن عِمَارَتِه يبيعُه أو يُؤَجِّرُه من غير نَقْلِ شيءٍ من أنْقَاضِه ، ومَنْ تأخَّرَ بعد ذلك فلا حَقَّ له ولا حِكْرَ يَلْزَمُه ، وأباحَ تَعْمِيرَ جَمِيعَ ذلك بغَيْر طَلَبِ حَقّ »[١]. ويُضِيفُ المَقْرِيزِيّ : « فعَمَّرَ النَّاسُ حتى صَارَت مصر والقَاهِرَة لا يتخلَّلُهما خَرَابٌ حتى صَارَ المُتَعَيِّشُون بالقَاهِرَة والمُسْتَخْدَمون يُصَلُّون العِشَاءَ الآخِرَة بالقَاهِرَة ويَتَوَجَّهُون إلى سَكَنِهم في مصر ولا يَزَالُون في ضَوْءٍ وسَرْجٍ وسُوقٍ مَوْقُودٍ إلى بابِ الصَّفَا (قُرْب كوم الجَارِح) والمَعَاشُ مستمرٌّ في اللَّيْل والنَّهَار »[٢].

ويَرْجِعُ إلى هذه الحِقْبَة كذلك أوَّلُ إعْمَارٍ للمَنْطِقة الوَاقِعَة غربيّ الخَلِيج قُبَالَة الخَرْق (شَارع حَسَن الأكْبر وأرْض شَرِيف الآن) . وكان أوَّل من عَمَّرَ بها ابنُ التَّبَّان ، رئِيسُ المَرَاكِب في الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة ، وأنْشَأ بها مَسْجِدًا وبُسْتانًا ودَارًا ، فعُرِفَت الخِطَّة به وصَارَ يُطْلَقُ عليها : « بَرّ ابن التَّبَّان » . وتَوالىٰ بعد ذلك البِنَاءُ ، حيث بنىٰ والي القَاهِرَة سَعْدُ الدَّوْلَة الأحْدَب ووكيلُ المأمُون البَطَائحي الشَّيْخ أبو البَرَكات محمد بن عُثْمان « واتَّصَلَت العِمَارَةُ بالآجُر والسُّقُوف النَّقِيَّة والأبْوَاب المَنْظُومة من بابِ بُسْتان العِدَّة على شاطئ الخَلِيج الغَرْبي إلى بُسْتانِ أبي اليُمْن (مَدْخَل شارع مجلس الشَّعْب تجاه المَدْرَسَة الخِدِيوِيَّة الآن) . ثم ابْتَنَى بعد ذلك جَمَاعَةٌ غيرهم على التُّرَاع التي تَنْصَرِفُ من الخَلِيج إلى الزُّهْريّ والبَسَاتين (البِرْكَة النَّاصِرِيَّة غَرْب مَيْدان السَّيِّدة زَيْنَب) ، العَدِيدَ من المَنَازِل والدَّكاكِين في المَوْضِع الذي عُرِفَ فيما بعد بـ« شَقّ التُّعْبَان » و« سُوَيْقَة القَيْمَري » (شارع حَسَن الأكبر

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٥٨، ٣ : ٥٧.

[٢] نفســه ٣ : ٣٣٣، ٤ : ٥٨-٥٩.

الآن) إلى أنْ وَصَلَ البِنَاءُ إلى قُبَالَة المَوْضِع الذي عُرِفَ في العَصْرِ المَملوكي بـ « المَيْدَان الظَّاهِرِي » (المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين شارعيّ عِمَاد الدِّين وباب اللُّوق الآن) [١].

وفي دَاخِل القَاهِرَة الفَاطِمية نفسها أنشأ الآمِرُ مُقَابِل رُكن القَصْر الكَبير الشَّرْقيّ الشَّمَالي المعروف بـ « الرُّكْن المُخَلَّق » ، « الجَـامِع الأقْمَر » الذي افْتُتِح للصَّلاة في سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م ، وهو أوَّل جَامِعٍ يُشَيَّدُ دَاخِل القَاهِرَة منذ أنْ أتَمَّ الخَلِيفَةُ الحاكِمُ بأمْر الله في سَنَة ٤٠٣هـ/١٠١٢م بِنَاءَ « الجَامِع الأنْوَر » الذي بَدَأهُ وَالِدُه العَزِيزُ بالله سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، وعلى العَكْس من تَخْطِيط الجامع الأنْوَر جَاءَت وَاجِهَةُ الجَامِع الأقْمَر مُتَوَافِقَةً مع اسْتِقَامَة الطَّرِيق بخِلافِ المَسْجِد نفسه الذي احْتَفَظَ بتَوَجُّهه تِجَاهَ القِبْلَة ، وأمْلَىٰ هذا التَّوَافُق مع اسْتِقَامَة الطَّرِيق الوَضْعُ الخاصّ للمَنْطِقَة التي تُحِيطُ بمَوْقِع الجَامِع والتي فَرَضَت كذلك الزَّخْرَفة الرَّائِعَة لوَاجِهَة الجَامِع نفسه [٢].

حَارَاتُ القَاهِرَة خَارِج باب زَوِيلَة

كانت المَنْطِقَة المُحِيطَة بِبِرْكة الفِيل في الأصْل بَرَاحًا مُتَّسِعًا غير مَسْكُون. وأقِيمَت في أوَّل العَهْدِ الفَاطِمِي بَعْضُ البَسَاتِين على جَانبيّ البِرْكة ، خاصَّةً على الجانِب الشَّرْقيّ . وسَرِيعًا ما اخْتارَت فِرَقُ الجَيْش الفَاطِمِيّ التي لم تَجِد مَكانًا دَاخِل الحِصْنِ الفَاطِمِيّ الاسْتِقْرارَ في الأراضي الواقعَة خَارِج باب زَوِيلَة شماليّ بِرْكة الفِيل .

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣٨٠.

[٢] نفســه ٤: ١٥٠ـ ١٥٦؛ ابن ميسر : أخبار مصر ٩١، وكذلك D. Behrns-Abouseif, «The Facade of the Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial», *Muqarnas* IX (1992), pp.29-38.

هكذا نَشَأت حارَاتٌ خارج باب زَوِيلَة حَوْل بِرْكة الفِيل بَلَغَ عَدَدُها ثمان حَارَات هي : حارَة الهِلالِيَّة ، والحارَة المُنتَجَبِيَّة والحارَة اليانِسِيَّة والحارَة المَنْصُورية وحَارَة المَصَامِدَة وحَارَة حَلَب وحَارَة الحَمْزِيين وحَارَة العِيدانِية . تكونَّت الحاراتُ الأرْبَعُ الأولى في بِدَاية القَرْنِ الخامِس الهجري/ الحادِي عشر الميلادي قَبْل بناء الخَلِيفَة الحَاكم بأمْر الله للبابِ الجَدِيد . بينما نَشأت الحاراتُ البَاقِية في بِدَايَة القَرْن السَّادس الهجري عندما قَرَّرَ الوزيرُ المأمُونُ إعْمَار هذه المَنْطِقَة [1].

ويَدُلُّ على مَوْضِع هذه الحارات الآن المَنَاطِقُ المعرُوفَة باليَكَنِيَّة والسُرُوجِيَّة والحَبَّانِيَّة والسُّيُوفِيَّة ويَخْتِرقُها الآن شَارِعُ القَلْعَة (محمد علي) عند حَمَّام أَلْدُود وحتى شَارع نُور الظَّلام بالحِلْمِيَّة الجَدِيدَة .

وأمَرَ الوَزيرُ المأمُون بن البَطائِحي وَكِيلَه أبا البَرَكات محمد بن عُثْمان أن يَتَوَجَّه ، في رَبِيعِ الأوَّل سنة ٥١٦هـ/ مايو سنة ١١٢٢م ، إلى المَسَاجِد التِّسْعَة التي بين الجَبَل والقَرَافَة ، وأوَّلها مَشْهَد السَّيِّدَة زَيْنَب وآخرها مَشْهَد السَّيِّدَة كُلْثُوم ويُجَدِّد عِمَارَتها ويُصْلِح ما تَهَدَّمَ منها ويَجْعَل على كلّ مَشْهَدٍ لَوْحًا من رُخَامٍ عليه اسْمُه وتأريخُ تَجْدِيده [2].

وحَرَصَ الفَاطِمِيُّون على مُوالاة العِنَايَة بهذه المَشَاهِد بوَاسِطَة ديوان الأحْبَاس . فقد عُدَّت هذه الأعْمال من أعْمال البِرّ التي حَرِصَ الفَاطِمِيُّون على القِيام بها خِلال شهر رَمَضَان . فيَذْكر الشَّرِيفُ الجَوَّاني في كتاب « النُّقَط » أنَّ القُضَاة بمصر كانُوا إذا بَقِيَ لشَهْرِ رَمَضَان ثَلاثَةُ أيَّام يَطُوفُون يَوْمًا على المَشَاهِد والمَسَاجِد بالقَاهِرَة ومصر فيَبْدَأون بجَامِع المَقْس ثم بجَوَامِع القَاهِرَة ثم بالمَشَاهِد ثم بالقَرَافَة ثم بجَامِع

---

[1] A. FU'ĀD SAYYID, *op.cit.*, pp.500-507.

[2] ابن ميسر : أخبار مصر ٩١.

مصر ثم بمَشْهَد الرَّأس (زَيْد بن زَيْن العَابِدين)، لنَظَر حَصِير ذلك وقَنَادِيله وعِمَارته وإزَالَة شَعْثِه[١].

وفي العام التَّالي يوم الجُمُعَة الثاني من رَجَب سنة ٥١٧هـ/ ٢٦ أغسطس سنة ١١٢٣م تَوَجَّه المأمُون بمُوْكِبه لزِيَارَة مَشْهَد السَّيِّدَة نَفِيسَة وما بعده من المَشَاهِد ثم جَامِع القَرَافَة قَبْل أنْ يُصَلِّي الجُمُعَة بالجامِع العَتِيق بمصر[٢].

وفي شَوَّال عام ٥١٦هـ/ ديسمبر عام ١١٢٢م أنْشَأ الوزيرُ المأمُونُ بن البَطَائِحيّ «دَارَ الضَّرْب» التي عُرِفَت بـ«الدَّار الآمِريَّة» بالقَشَّاشِين قُبَالَة المارِسْتان (شارع الصَّنادِقِيين الآن تِجاه الجامِع الأزْهَر)، وهي أوَّل دَارِ ضَرْبٍ تُنْشَأ في القَاهِرَة وصَارَ دِينَارُها أعْلىٰ عِيَارًا من جَمِيع ما يُضْرَبُ بجميع الأمْصَار، واخْتَارَ المأمُونُ إنْشَاءَها في القَاهِرَة لكونها مَقَرّ الخِلافَة ومَوْطِن الإمَامَة[٣].

وفي الشَّهْر نَفْسه أنْشَأ المأمُون كذلك دَارًا للوَكَالَة بجانِب دار الضَّرْب لمن يَصِل من العِرَاقِيين والشَّامِيين وغيرهما من التُّجَّار، ولم يُسْبَق إلى ذلك[٤].

وكان مَحَلُّ إقامَة الوزير المأمُون بن البَطَائحي في دَارٍ أنْشَأها جنوبيّ القصْر الغربي الصَّغير بجوار دَرْبِ السِّلْسِلَة عُرِفَت بـ«الدَّار المأمُونِيَّة»، وقد أقام فيها بعد ذلك الوزير عَبَّاس الصِّنْهاجي وَزِير الظَّافِر بأمْر الله قَبْل أن تَتَحَوَّل إلى مَدْرَسَة وَقَفَها السُّلْطانُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين على فُقَهَاء الحَنَفِيَّة عُرِفَت بـ«المَدْرَسَة السُّيُوفِيَّة»[٥]، وحَلَّ محلَّها في العَصْر العُثْماني الجَامع المعروف بجَامِع الشَّيْخ مُطَهَّر بشارع المُعِزّ لدين الله على يَسَار الدَّاخِل من جِهَة السِّكَّة الجَدِيدَة.

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤:١٧٥.

[٢] نفسه ٢:٥٢٦.

[٣] نفسه ٢:٤٥٩-٤٦٠.

[٤] نفسه ٢:٤٧٨.

[٥] نفسه ٢:٥١٢، ٤:٤٦٠.

*

*　*

وأضِيفَ إلى القاهرة قَبْل نِهاية العَصْر الفاطِمي جامِعَان مُهِمَّان الأوَّل شَيَّدَه الإمام الظَّافِر بأمْر الله سنة ٥٤٣/١١٤٨م في وَسَط سُوق السَّرَّاجِين القديم الذي عُرِفَ في زَمَن المَقْريزي بسُوق الشَّوَّائين، عُرِف بـ «الجَامِع الأفْخَر»[١]. وقد تأثَّر هذا الجَامِع بشِدَّة بزِلْزَال سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م وتولَّى إصْلاحَه أحَدُ أمَرَاء المماليك كما أضَافَ إليه إضافات مُهِمَّة العالم المُفَسِّر جلال الدِّين محمد بن أحمد المَحَلِّي. وللأسَف الشَّديد فقد أعِيدَ بِنَاء الجَامِع سنة ١١٨٤هـ/١٧٣٦م، وأشْرَفَ عليه الأمير أحمد كتْخُدَا مُسْتَحْفَظَان الخَرْبُوطْلي[٢] ولم يَتبق من الجامع الفاطِمِي سوى الباب الرَّئيس الذي أعيد تركيبه مَرَّةً أخرى. ويَقَعُ هذا الجامع الآن في القِسْم الجَنُوبي من شَارِع الغُورِيَّة بالقُرْب من سَبِيل العَقَّادِين عند مَدْخَل حَارَة خُشْقَدَم.

والجَامِعُ الثَّاني هو آخِر جَامِع فاطِمِيّ في القاهرة أنْشَأه الوزيرُ الصَّالِحُ طَلائِعُ بن رُزِّيك خَارِج باب زَوِيلَة، سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠م[٣]، ويقعُ الآن عند ناصِيَة شارع قَصَبَة رِضْوَان وشَارِع الدَّرْب الأحْمَر، وهو بذلك أوَّلُ مَسْجِدٍ فاطمي يُشيَّدُ خارِج أسْوَار المدينة الفاطمية.

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٦٤-١٦٦.

[٢] الجبرتي: عجائب الآثار ١: ٢٨٦، ٥٤٨.

[٣] المقريزي: المواعظ ٤: ١٦٦-١٦٨.

العِمَارَةُ الدِّينِيَّة حتى نِهَايَة العَصْرِ الفاطِمِيّ

إنَّ أهَمَّ ما يُمَيِّزُ المَدِينَة الإسْلامية ويُمَثِّلُ ، مع دارِ الإمارَة والسُّوق والحَمَّام ، النَّواةَ الرَّئيسَة لهذه المَدينَة ، «المَسْجِدُ الجَامِع» الذي كان عادَةً يتَوَسَّطُ المَدينَة . و «المَسْجِدُ» اسْمُ مَكانٍ مُشْتَقٌّ من الفِعْلِ «سَجَدَ» ، أي مكان السُّجُودِ عند مُبَاشَرَةِ الصَّلاةِ [1] .

وأهَمُّ ما يُمَيِّزُ «المَسَاجِدَ الجَامِعَة» هو وُجُودُ «المِنْبَر» [2] الذي يَعْتَلِيه الخَطيبُ لإلْقَاءِ خُطْبَةِ الجُمُعَة ، فيكون الفَرْقُ بين «الجَامِع» و «المَسْجِدِ» هو وُجُودُ المِنْبَر في الأوَّلِ . وفي القُرُونِ الإسْلاميةِ الأولىٰ لم يكن يُوجَدُ في المَدينَة الإسْلاميةِ سوىٰ مَسْجِدٍ جَامعٍ واحِدٍ تُؤَدَّى فيه صَلاةُ الجُمُعَة ، بينما تَعَدَّدت مَسَاجِدُ الأحْياء والخِطَط . ومع تنامي أهْلِ المَدينَة كانت تَتِمُّ تَوْسِعَةُ هذا الجَامِع ، أو إضَافَةُ زياداتٍ إليه حَوْل جُدْرانِه الخارجيةِ ، عَدَا ما وَرَاء جِدار القِبْلَة ، تُضاعِفُ من مِسَاحَتِه .

وعلى ذلك كان بالفُسْطاطِ ـ العَاصِمَة الإسْلامية الأولىٰ في مصر ـ جَامِعٌ واحدٌ هو : «جَامِعُ عَمْرو» أو «الجَامِعُ العَتيق» ، وبالعَسْكَرِ «جَامِعُها» الذي ضَاعَ كُلُّ أثَرٍ له الآن ، وبالقَطَائِع : «جَامِعُ ابن طُولُون» الأثَرُ الوَحيدُ الباقي من هذه المَدينَة

---

[1] راجع حول المَسْجد بصفة عامّةٍ المقال الشَّامِل الذي كتبه PEDERSEN في دائرة المعارف الإسلامية PEDERSEN, *EI*² art. *Masdjid* VI, pp. 629-64.؛ حسين مؤنس : المساجد ، عالم المعرفة ـ ٣٧ ، الكويت ١٩٨١؛ *The Mosque History, Architectural Development and Regional Diversity*, Edited by MARTIN and HASSAN-UDDIN KHAN, London 2002.

[2] راجع GOLMOHAMMADI, J., *EI*² art. *Minbar* VII, 74-80؛ وانظر كذلك رسالة نعمت محمد أبو بكر : المنابر في مصر في العصرين المملوكي والتركي ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٥.

المَلَكِيَّة. وفي القاهِرَة كان «جَامِعُ القاهِرَة» ـ الذي عُرِفَ فيما بعد بـ «الجَامع الأزْهَر» ـ هو جَامِعُ المَدينَة الذي اسْتَمَرَّ إلى الآن باعْتباره «الجَامِع الأعْظَم» أو «الجَامِع الكبير» للقاهرة. وكان الجامِعُ الوَحيدُ الذي أُضيفَ إلى القاهِرَة في العَصْرِ الفاطِمي الأوَّل هو «جَامِعَ الخُطْبَة»، الذي بدأ في بنائِه خارج بابِ الفُتُوح الأوَّل الخَلِيفَةُ الفاطمي الثَّاني العَزيزُ باللهِ سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٠م، وأتمَّه وافْتَتَحه للصَّلاةِ خَلَفُه الحاكِمُ بأمْرِ الله بين سنتي ٣٩٣هـ/ ١٠٠٣م و ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م، وأصْبَحَ يُعْرَف بـ «جَامِع الحاكِم»، و «الجَامِع الأنْوَر»، وهي تسميةٌ بدأت في الظُّهُورِ في العُقُودِ الأولىٰ للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث أَطْلَقَ الفاطِميون صِيغَةَ أفْعَل التَّفْضيل على المساجِدِ التي أنْشَأها الأئِمَّةُ الخُلَفَاء؛ فأصْبَحَ «جامِعُ القاهِرَة» يُعْرَفُ بـ «الجَامِع الأزْهَر» و «جَامِعُ الخُطْبَة» يُعْرَفُ بـ «الجَامِع الأنْوَر»، إضافَةً إلى «الجَامِع الأقْمَر» الذي أُنْشِئ بين سنتي ٥١٥هـ/ ١١٢١ و ٥١٩هـ/ ١١٢٥م، و «الجَامِعُ الأفْخَر» الذي أُنشِئ سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

كان الأُنْمُوذَجُ الذي خُطِّطَت على أسَاسِه «المَسَاجِدُ الجامِعَة» بالأمْصَارِ هو تَخْطِيطَ «المَسْجِدِ النَّبَوي» بالمَدِينَة المُنَوَّرَة: صَحْنٌ أو فِناءٌ أوْسَط يُحيطُ به ظُلَّةٌ أو عَدَدٌ من الظُّلَّاتِ اصْطُلِحَ على تَسْميتها بالمُقَدَّم والمُؤَخَّر والمُجَنَّبتين، وكان كِبَرُ المِسَاحَة التي يَشْغَلُها المَسْجِدُ أو صِغَرُها مُرْتَبطًا بتِعْدادِ أهالي المَنْطِقَة التي شُيِّدَ فيها المَسْجدُ، وكانت تُضافُ إليه في بعض الأحْيانِ زِياداتٌ حَوْلَ جُدْرانِه الخارجية ـ عَدَا ما وَراءَ جِدَارِ القِبْلَة ـ مثلما حَدَثَ مع جَامِع ابن طُولُون. وكان الشَّكْلُ الخارِجي للمَسْجِدِ يتراوح بين الشَّكْلِ المُرَبَّع والشَّكْلِ المُسْتَطيل. كذلك كان عَدَدُ أرْوِقَتِه يختلف في ظُلَّةِ القِبْلَة (المُقَدَّم) وفي الظُّلَّات الأخرىٰ على جَوانِب الصَّحْن الباقية، كما كان اتجاهُ صُفُوفِ الأعْمِدَة أو البائكات التي تَفْصِلُ بين الأرْوِقة

يختلفُ بين المُوَازَةِ للقِبْلَة أو التَّعامُدِ عليها [١].

وفي مصر لا نَعْرِفُ على وَجْهِ التَّدْقيق التَّخْطيطَ الأوَّلِ لل «جَامِع العَتيق»، ولكن من خِلالِ وَصْفِ المُؤَرِّخين له نَعْرِفُ أنَّ سَقْفَ الجَامِع كان مَحمولًا على أعْمِدَةٍ قائمةٍ على هَيْئَة صُفُوفٍ، لكنَّنا لا نَدْري إن كانت هذه الصُّفُوفُ مُمْتَدَّةً بمُوازَةِ جدارِ المِحْرابِ أم كانت عَمُودِيَّةً عليه، كذلك فإنَّنا لا نَعْلَمُ أكان الجَامِعُ مَسْقُوفًا بأكمله، أم كان المَسْقُوفُ جزأه المُقَدَّم فقط؟ وهل كان له صَحْنٌ تُحيطُ به الأرْوِقَةُ الأربعة أو كان مَسْقُوفًا كلّه [٢]؟

وأقْدَمُ «المَساجِدِ الجَامِعَة» التي احْتَفَظَت بتَخْطيطِها الأصْلي وتَفاصِيلها المعمارية في مصر، «جَامِعُ ابن طُولُون» الذي بُنِيَ سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م، على طِرازِ جَامِعِ سَامَرَّاء (سُرَّ مَنْ رَأى) في العِراق مع مِئْذَنَتِه الفَريدَة، وأصبح نَظِامُ هذا الجَامِعِ هو الأنْمُوذَج الذي أثَّرَ فيما بعد في تَخْطيطِ وبناءِ المَساجِد الجامِعة ذات الأرْوِقَةِ في مصر الإسلامية حتى «جَامِع المُؤَيَّد شَيْخ» ـ الذي بُدِئَ في بِنائِه سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م ويُعَدُّ آخِرَ هذه النوعية من المَساجِد في العَصْر المملوكي. ويُعَدُّ جَامِعُ ابن طُولُون كذلك نُقْطَة تَحَوُّلٍ مُهِمَّة في تاريخ العِمارَة الإسلامية، لأنَّه بُنِيَ من مَوادّ جَديدَة تمامًا وليس من أسْلابِ الكنائِس والمعابِد القَديمَة، حيث اسْتُخْدِمَ في بناءِ عُقُودِه ودَعائمه الآجُر بَدَلًا من اسْتِخدام عَواميد الرُّخَام حتى يتمكّن من مُقاوَمَة الحَريق.

ويُشْبِهُ التَّخْطيطُ الأصْلي لـ «جَامِعُ القاهِرَة» ـ الذي عُرِفَ فيما بعد بـ «الجَامِع الأزْهَر» ـ تَخْطيطَ جَامع ابن طُولُون وتَخْطيطَ جَامِع المَهْدِيَّة، أوَّل جَامِعٍ شَيَّدَه الفاطِمِيُّون في شَمالِ أفريقيا. والجامِعُ الذي نَرَاهُ اليوم ليس كلّه بالجامِع الفاطِمِيّ

---

[١] فريد شافعي: العمارة الإسلامية في مصر الإسلامية ٢٤١.

[٢] محمود أحمد: جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٤.

الذي وضَعَ أسَاسَه جَوْهَر الصَّقْلبيّ سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٠م، بل هو مجموعةٌ من المباني ضُمَّت إليه في أزْمِنَةٍ لاحقَةٍ هي من الغَرْب: الرِّواقُ العَبَّاسيّ والمَدْرَسَةُ الطَّيْبَرْسِيَّة ومَدْخَلُ قايتْباي والمَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّة ثم المَيْضَأةُ والمَدْرَسَةُ الجَوْهَرِيّةُ، ثم جَميعُ الإيوان المُضَاف خَلْف المِحْراب الفاطِميّ والذي أقَامه، في القرنِ الثَّاني عشر الهجريّ / الثامن عشر الميلاديّ، عبدُ الرَّحْمَن كَتْخُدا، الذي يُوجَد ضَريحُه في الجهة الجنوبية الغربية للجَامِع. ولم يَبْقَ من الجَامِع الفاطِميّ سوى المَجَازِ أو الرِّواقِ الأَوْسَط المُتَّجه إلى المِحْرابِ الفاطميّ وعُقُودِه، وهي الجزءُ الوَحيدُ الباقي من العُقُودِ القديمة.

أمّا «جَامِعُ الحاكِم» ـ الذي يُعْرَفُ أيضًا بـ «الجَامِع الأنْوَر» ـ فيَجْمَعُ في تَخْطيطِه بين عَناصِرَ إفريقيّة وعناصِرَ مصريَّة؛ فتَخْطيطُ الجَامِع - بلا جِدالٍ - يُماثِلُ تَخْطيطَ جَامِع ابن طُولُون. ويَفْتَحُ مَدْخَلُ الجَامِع الرَّئيس في منتصف جِدارِ مُؤخَّرِ الجامِع في مَوْضِعٍ يُقابِلُ المِحْراب، وهو يَتَّفِقُ في ذلك مع مَدْخَلِ جَامِع المَهْدِيَّة. ويَبْرُزُ المَدْخَلُ الرَّئيس خارِج سَمْتِ جِدارِ المُؤَخَّر، مُتَّخذًا هيئة بُرْجَيْن يتوسَّطهما مَمَرٌّ يُؤَدِّي إلى بابٍ، بحيث أصْبَحَ شَكْلُ المَدْخَلِ يُماثِلُ البَوَّابَة بالمعنى المُصْطَلَح عليه في عِمارَة الأسْوار، بينما كانت المَداخِلُ الرَّئيسة قَبْل ذلك تَفْتَحُ عادَةً في الجِدارَيْن الجانبيين غير جِدارَي القِبْلَة والمُؤَخَّر كما هو الحَالُ في جَامِعِ ابن طُولُون؛ وقد تَكَرَّرَ هذا الطِّرازُ في الجَامِع الأقْمَر (٥١٩هـ/ ١١٢٥م) وجَامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، ولكن بأبْعادٍ مختلفة. ومِئْذَنَتا هذا الجامِع طِرازٌ فريدٌ بين المآذِن في مصر الإسلامية وقد بُنِيَتا من الحجارَة: واحِدَةٌ في الرُّكْنِ الغربيّ الشَّماليّ، والأخرىٰ في الرُّكْنِ الشَّماليّ الشَّرْقيّ على شَكْلِ مِحْورٍ أُسْطوانيّ تُحيطُ به كُتْلَةٌ مُرَبَّعةُ الشكل أُضِيفَت في مَطْلَعِ القرنِ الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ، ونجد أُنْمُوذَجًا متكرِّرًا لهذه المِئْذَنَة في مَدْرَسَة الصَّالح نَجْم الدِّين أيُّوب (٦٤١هـ/ ١٢٤٣م)، وزَاوِيَة الهُنُود (٦٣٨هـ/ ١٢٥٠م)، وخانْقاه بَيْبَرْس الجاشنكير

(٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، وهو الطِّرازُ الذي عُرِفَ باسْم «المَبْخَرَة» [١]. وتُمَثِّلُ الزَّخْرَفَةُ ذات الأشْكال الهَنْدَسِيَّة والنَّباتية على قاعِدَة هاتين المِئْذَنتين وعلى المَدْخَلِ الرَّئيس للجامِع مَرْحَلةً حاسِمَةً في شَكْلِ الزَّخْرَفَة الإسلامية [٢].

ولم تَظْهَر الحِجارَةُ في العِمَارَة القاهِرية الفَاطِمِيَّة إلَّا عند بِنَاءِ جَامعِ الحاكِم، وبذلك أصْبَحَ من الممكن الاسْتِغْنَاءُ عن الاسْتِعاضَةِ بالطِّلاءِ الجَصِّي في غِطاءِ المُسَطَّحَات الجِدارِيَّة وتَسْوِيَتها؛ وقد أضافَت الزَّخْرَفَةُ المنحوتَةُ على الحِجارَة أهَمِيَّةً إلى واجِهاتِ المساجِدِ الفاطِمية تَظْهَرُ بوُضُوحٍ في الجَامع الأقْمَر وجَامِع الصَّالِح طَلائِع، وبعد ذلك في واجهة المَدْرَسة الصَّالِحِيَة التي أنْشِئت في نهاية العصر الأيُّوبي.

ومُنْذُ بِنَاءِ جَامِع الحَاكِم لم يُبْنَ في القَاهِرَة أيُّ مَسْجِدٍ، وكان أوَّلُ مَسْجِدٍ يُبْنىٰ بعد ذلك هو «الجَامِع الأقْمَر» الذي شُيِّدَ في آخِر عام ٥١٥هـ/ ١١٢١م وافْتُتِحَ للصَّلاةِ في عام ٥١٩هـ/ ١١٢٥م في أيَّام الخَلِيفَة الآمِر بأحْكام الله ووَزَارَة المأمُون

---

[١] عن مآذن القاهرة عُمُومًا راجع، K. A. C. CRESWELL «The Evolution of the Minaret with special refernce to Egypt», *The Burlington Magazine* XLVIII (1926), pp. 134-40, 252-58, 290-98; SANUEL HASSID, *The Sultan's Turrets. A Study of the Origin and Evolution of the Minaret in Cairo*, Cairo 1939، وهي في الأصل رسالة مُقَدَّمَة إلى جامعة لندن سنة ١٩٣٥ بعنوان: *The Evolution of Minarets Design in the Mosques of Cairo*؛ السيد عبد العزيز سالم: المآذن المصرية ـ نظرة عامَّة عن أصلها وتَطَوُّرها من الفتح العربي حتى الفتح العثماني، الإسكندرية د. ت؛ D. BEHRENS - ABOU-SEIF, *The Minarets of Cairo*, AUC Cairo 2010؛ عبد الله كامل موسىٰ: تطور المئذنة المصرية بمدينة القاهرة من الفتح العربي وحتى نهاية العصر المملوكي – دراسة معمارية زخرفية مقارنة مع مآذن العالم الإسلامي، رسالة دكتوراه بآثار القاهرة ١٩٩٤.

[٢] K.A.C. CRESWELL, *MAE* I, pp.65-66؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ١:٨٣–٨٥؛ J. M. BLOOM, «The Mosque of al-Hakim in Cairo», *Muqarnas* I (1983), pp.15-36; A. FU'ÂD SAYYID, *La Capitale de l'Egypte*, pp. 334-46.

ابن البَطائِحي ـ ويُعَدُّ أحَدَ أهَمِّ آثَارِ مصر الإسْلامية . ورَغْم صِغَرِ مِسَاحَة هذا الجَامِع فإنَّه يستمدُّ أهَمِيَّته من واجِهَتِه التي تَمَيَّزَت أوَّلًا بتوافُقِها مع اسْتِقامَةِ الطَّريق المُقامَة عليه ، بخِلافِ المَسْجِدِ نفسه الذي احْتَفَظَ بتوجُّهه نحو القِبْلَة ؛ ثانيًا أنَّها أقْدَمُ واجِهَةٍ حَجَرِيَّةٍ باقيةٍ في عَمائِر القاهِرَة غُني بِبنائِها وزَخْرَفَتِها بسَخَاء ، ولا تَقْتَصِرُ هذه الزَّخْرَفَةُ على بَوَّابَتِها فقط بل تَشْمَل واجِهَة المَسْجِد كلَّها ، وهي واجِهَةٌ كانت تَحْوي في الأصْلِ جَناحَيْنْ مُتماثِلَيْنْ على يمين ويسار المَدْخَل البارِز عن سَمْتِ الجِدار تَظْهَرُ فيها أشْكالُ «المُقَرْنَصات» لأوَّلِ مَرَّةٍ في عِمارَة القاهِرَة . وأمْلَىٰ تَوافُقَ واجِهَة الجَامِع مع اسْتِقامَة الطَّريقِ الوَضْعُ الخاصُّ للمنطقة التي تُحيطُ بمَوْقِعِ الجامِع والتي فَرَضَت كذلك الزَّخْرَفَة الشَّامِلَة الرَّائِعَة للواجِهَة نفسها ، فقد كان الجَامِعُ مُلاصِقًا تمامًا للقَصْرِ الفاطِميّ الكبير لا يَفْصله عنه سوى مَمَرٍّ ضَيِّقٍ ، فأصْبَحَ بذلك في قَلْبِ الطُّقُوسِ الاحْتفالية للمَدينَة في العَصْرِ الفاطِميّ المُتَأخِّر [١] .

ورَغْمَ أنَّه يُعْرَف في المَصَادِر بـ « الجَامِع » فلم يكن جَامِعًا في الأصْل لأنَّه ـ كما يَذْكر المقريزيّ ـ لم تكن به خُطْبَة .

وللأسَفِ الشَّديد فإنَّه ـ باستثناء مِئْذَنة جَامِع الحاكِم ومِئْذَنَة مَشْهَدِ الجُيُوشي أعلى المُقَطَّم ـ لم تَبْقَ أيَّةُ مآذِن تَرْجِع إلى القَرْنِ الخامِس الهجري / الحادي عَشْر الميلادي ، كما أنَّ المِئْذَنة القائمة عند مَدْخَلِ الجَامِع الأقْمَر فُقِدَت واسْتُبْدِلَت بأخرى من عَمَلِ يَلْبُغا السَّالمي في نهاية القرن الثَّامِن الهجريّ/الرَّابع عَشْر الميلاديّ . والمِئْذَنَةُ الوَحيدَةُ الباقيةُ من هذا القَرْنِ هي مِئْذَنَةُ أبي الغَضَنْفَر (زَاوِيَة سيدي مُعَاذ)

---

[١] راجع على الأخَصّ ، C. WILLIAMS, «The Cult of ʿAlid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo, Part I «The Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp. 37-52; D. BEHRENS - ABOUSEIF, «The Façade of al-Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial», *Muqarnas* IX (1992), pp. 29-38؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية في مصر ٦١٨-٦٢٠.

الواقعة في نهاية شارع جَوْهَر القائد من الجهة الشرقية (أثر رقم ٣) وهو مَسْجِدٌ لم يذكره المَقْريزيُّ.

والمُلاحَظُ على تَخْطِيطِ الجَوامِع الفاطِمية صِغَرُ حَجْم الجَوامِع التي شُيِّدَت في القرنِ السَّادِس الهجريّ / الثَّاني عَشْر الميلاديّ: «الجامِعُ الأَقْمَر» و «الجامِعُ الأَفْخَر» و «جَامِعُ الصَّالِح طَلائع» خارج بابِ زَوِيلَة، وكذلك اتِّساعُ أُسكُوبِ المِحْراب وبَلاطَتِه، وذلك لتَمْهيدِ قاعِدَةٍ مُرَبَّعَةٍ للقُبَّة التي تُقامُ أَمامَ المِحْرابِ على تَقاطُعِ أسْكُوبه ببَلاطَتِه. وقد اسْتَوْجَبَت قاعِدَةُ القُبَّة المُرَبَّعَة تساوي ضُلُوعِ هذه القاعِدَة وأصْبَحَت بذلك عُنْصُرًا جَديدًا في تَخْطِيطِ المساجد [1]. وعَرَفَ العَصْرُ الفاطميّ كذلك ظُهُورَ المَساجِد المُعَلَّقَة المَبْنِيَّة فَوْقَ صَفٍّ دَكاكين وحَواصِل، والتي يُمَثِّلُها الجامِعُ الأَقْمَر داخِل المَدينَة وجَامِعُ الصَّالِح طَلائع خارِج المَدينَة الفاطمية في مُوَاجِهَة باب زَوِيلَة.

وإذا كان عَدَدُ «المَساجِد الجامِعَة» التي شُيِّدَت في العَصْرِ الفاطميّ لا يَتَعَدَّىٰ الخمسة جَوامِع، فإنَّ عَدَدَ «مَساجِد» الصَّلَوات الخَمْس، أي مَساجِد الأَحْيَاء التي لا يُوجَد بها مِنْبَرٌ وبالتالي لا تُقَامُ بها الجُمَع، بَلَغَ عَدَدًا ضَخْمًا، يقول المُسَبِّحِيُّ في حَوادث سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م: «وأحْصَىٰ أميرُ المُؤْمِنين الحاكِمُ بأمْرِ اللهِ المَساجِدَ التي لا غَلَّةَ لها فكانت ثمان مائةٍ وثلاثين مَسْجِدًا، فأَطْلَقَ لها في كُلِّ شهرٍ من بَيْتِ المالِ تسعة آلاف ومائتين وعشرين دِرْهمًا، على أنَّ لكلِّ مَسْجِدٍ في كُلِّ شهرٍ اثني عشر دِرْهمًا» [2]. وذَكَرَ القُضَاعِيُّ أنَّه كان بمصر الفُسْطاط من المَساجِد ستة وثلاثون ألف مَسْجِد وهو رَقْمٌ غير واقِعِي - رَغْم أنَّه تَكَرَّر عند ياقُوت الحَمَوي والشَّريف الجَوَّاني وابن دُقْماق [3] - ويبدو أنَّه سَقَط منه حَرْفُ «واو» قَبْل ألْف، أي

---

[1] أحمد فكري: المرجع السابق ١: ١٢٦، ١٣٧.

[2] المسبحي: نصوص ضائعة ٣١.

[3] ياقوت: معجم البلدان ٤: ٢٦٦؛ ابن دقماق: الانتصار ٤: ٩٢.

أنَّ صَوابَه ١٠٣٦ مَسْجِدًا (؟) وأضَافَ المَقْريزيُّ أنَّ ابْنَ المُتَوَّج ذَكَرَ أنَّ عِدَّةَ المساجِد بمصر في زَمَنِه ـ أي في النِّصفِ الأوَّل للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي[1] ـ أربع مائةٍ وثمانون مَسْجِدًا ذَكَرَها ؛ بينما لم يَذْكر المَقْريزي في الفصْلِ الذي عَقَدَه لذِكْرِ المَسَاجِد سوى اثنين وعشرين مَسْجِدًا فقط .

وقد لَفَتَ ضَخَامَةُ عَدَدِ مَساجِد الصَّلَواتِ الخَمْس في المُدُنِ الإسلامية المختلفة انْتِباهَ العَديد من المُؤرِّخين والرَّحّالَة ، فاليَعْقُوبيّ ، في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، يَذْكُر أنَّه كان ببَغْداد وَحْدَها ثلاثون ألف مَسْجِدٍ[2]؟ كما يَذْكُر الرَّحّالَةُ الأنْدَلُسي ابن جُبَيْر الذي زَارَ الإسْكَنْدَرية في زَمَنِ صَلاحِ الدِّين ، أنَّها أكثر بلادِ الله مَسَاجِدَ وقَدَّرَ ما بها من المَسَاجِدِ بين اثني عشر ألف مسجدٍ وثمانية آلاف مَسْجد[3] ، وهو أيضًا رقَمٌ مُبالَغٌ فيه ؛ ولكن كثرة عدد هذه المساجد كان ظاهرةً واضحةً حتى قال عنها القَلْقَشَنْدي إنَّها : «أكثر من أن تُحْصَى وأعَزُّ من أن تُسْتَقْصَى»[4] .

ويَدُلُّ هذا على أنَّه في القُرون الإسلامية الأولىٰ كانت جَميعُ الصَّلَواتِ تُؤدَّى في المَسَاجِد ، وأنَّ كُلَّ حَارَةٍ أو خِطَّةٍ كان لها مَسْجِدُها الخَاصّ الذي يجتمع فيه أهْلُ الحارَة أو الخِطَّة لصَلاةِ الصَّلواتِ الخَمْس جَمَاعَةً .

*
* *

وعَرَفَت القَاهِرَة في العَصْرِ الفاطميّ نَوْعًا آخَر من المُنْشآتِ الدِّينية هو «المَسْجِدُ ذو الضَّريح» أو «المَشَاهِد» ، وهي مَشَاهِدُ أُقِيمَت لإحْياءِ ذكرى آلِ البَيْتِ ، ويَقَعُ

---

[1] هي التي ذكرها ابن دقماق في الانتصار ٤: ٧٩- ٩٢.

[2] اليعقوبي : البلدان ٢٥٠.

[3] ابن جبير : الرحلة ١٧.

[4] القلقشندي : صبح الأعشى ٣: ٣٦٥.

أغْلَبُها في المنطقة المعروفة بـ«المَشَاهِد» بين القاهِرَة والفُسْطاطِ. وعادَةً ما يَحْتَفِظُ المَشْهَدُ، أو المَسْجِدُ المُسْتَخْدَمُ ضَريحًا، بجميع العَناصِر التَّخْطيطية للمَسْجِد. وأهَمُّ هذه المَشَاهِد: مَشْهَدُ السَّيِّدَة سُكَيْنَة، ومَشْهَدُ عَاتِكة والجَعْفَري، ومَشْهَدُ السَّيِّدَة رُقَيَّة، ومَشْهَدُ إخْوَة يُوسُف، ومَشْهَدُ اللُّؤلُؤة، والمَشَاهد التِّسْعَة والقِبَاب السَّبْع بالقَرَافَة. ويمكن أن نُضِيفَ إلى هذه المَشَاهِد المَسْجِدَ الذي شَيَّدَه بَدْرُ الجمالي فَوْقَ جَبَلِ المُقَطَّم والمَعْروف بـ«المَشْهَد الجُيُوشِيّ»، وهو أوَّلُ مَسْجِدٍ يحمل في نَصِّه التَّأسيسيّ كلمة «مَشْهَد»[١]. وسيَشْهَدُ نَمَطُ القُبَّة الضَّريحية تَطَوُّرًا مُهِمًّا في نهاية العَصْر الأيُّوبي وفي العصر المملوكيّ مع إنْشَاءِ المَدارِس[٢].

العِمَارةُ المَدَنِـيَّـةُ حتَّى نِهَايَة العَصْرِ الفَاطِمِيّ

لم يُقَدِّم لنا المَقْريزيُّ في الفَصْل الذي عَقَدَهُ لِذِكْر الدُّور والقُصُور المُنْتَشِرَة في القاهِرَة في وَقْتِه، أيَّ وَصْفٍ مِعْماريٍّ لهذه الدُّور والقُصُور، واكتفى فقط بذِكْر من أمَرَ بإنْشائِها والسَّنَة التي أُنْشِئَت فيها وأحْيانًا تَكْلِفَة بِنائِها، ثم تَحْديد مَوْضِعها من القاهِرَة؛ وفَعَلَ الشَّيءَ نفسه عند ذِكْرِه للدُّور التي أنشأها الطُّولُونِيُّون في القَطائِع والقُصُور الزَّاهِرَة التي أنشأها الفاطِميُّون في القاهِرَة. الأمْرُ الذي يَتَطَلَّبُ الإشَارَة إلى نَمَطِ البِنَاء الذي سادَ في مصر في الفُسْطاط والقَطائِع، وكيف عَرَفَ هذا النَّمَطُ طَريقَه إلى القاهِرَة أوَّلًا في زَمَنِ الفاطِميين، ثم الأساليب الجَديدَة في البِناء التي بدأت مع الأيُّوبيين مُتَمَثِّلَةً في بِناء قَلْعَة الجَبَل والقاعَة التي شَيَّدَها

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٨٨١، وراجع كذلك Y. Ragib, «Les Mausolées fatimides du quartier d'al-Mashâhid», *An. Isl.* XVII (1981), pp.1-30.

[٢] انظر دراسة محمد حمزة الحدَّاد: القِباب في العمارة المصرية الإسلامية ـ القُبَّة المَدْفَن حتى نهاية العصر المملوكي، القاهرة ١٩٩٣.

السُّلْطانُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب في قَلْعَةِ جَزيرَةِ الرَّوْضَة والتي كان لها التأثيرُ الكبير على تَخْطِيط القاعات في العَصْر المملوكي . فقد أسْفَرَت الحَفَائِرُ التي قامَ بها علي بك بَهْجَتٍ وألبير جابرييل ALBERT GABRIEL في الفُسْطاط بين سنتي ١٩١٢ و ١٩٢٠، وكذلك الحَفَائِرُ التالية التي قامَت بها لَجْنَةُ حِفْظ الآثار العربية سنة ١٩٣١ والهَيْئَةُ العامَّةُ للآثار سنتي ١٩٦٤ و ١٩٧٢، ثم الحَفَائِرُ التي قادَها بعد ذلك چورچ سكانلون GEORGE SCANLON وفلاديسلاف كوبياك WLADYSLAW KUBIAK بين سنتي ١٩٦٦ و ١٩٨٢، عن الكَشْف عن عَدَدٍ من الدُّور التي يَرْجِعُ تأريخُها إلى العَصْرَيْن الطُّولونيّ والفاطِميّ . وتتكوَّنُ هذه الدُّورُ في معظمها من نِظامٍ هَنْدَسيّ قائِم على محورين مُتعامِدَيْن يلْتَقيان في وَسَطِ «صَحْنٍ» مكشوفٍ ، مُرَبَّع أو مُسْتَطيل ، في كُلِّ جَنْبٍ من جَوانِبِه «رِواقٌ» ذو ثلاثِ فَتَحات تختلفُ في الضِّيق والسَّعَة ، فالفَتْحَةُ الوُسْطىٰ أوْسَعُ من الفَتْحَتَيْن الجانبيتين ويَفْصِلُهُما عنهما كِتفان مَبْنيان بالآجُرّ ، ويتراوَحُ عَرْضُ هذا الرِّواقُ بين مترٍ وثمانين سم ومترين . وفي سَمْتِ الرِّواق «القــاعَةُ» ، وهي قاعَةٌ كبيرةٌ يزيدُ طُولُها عن عَرْضِها وتكتنفُها من جانبها حُجْرَتان صغيرتان منعزلتان عنها ، أي أنَّها مجموعةٌ مكوَّنَةٌ من رِواقٍ داخله قاعَةٌ ؛ وفي الجوانِب الثَّلاثة الأخرى من الصَّحْنِ وفي محور كُلِّ جانِبٍ «أوَاوِين» تختلف في الامْتِداد إلى الداخِل فتكون منها تارَةً قاعاتٌ وتارَةً أخرى ـ وهو الأغْلَب ـ أواوينُ صغيرة أو صُفَف [١] .

هكذا وَصَفَ علي بك بهجت شَكْلَ الدُّور التي كَشَفَت عنها حَفائِرُ الفُسْطاط والتي تَرْجِعُ إلى العَصْرَيْن الطُّولُوني والفاطِمي ، وقد أطْلَقَ عالمُ الآثار الإنجليزي

---

[١] علي بهجت وألبير جبريل : حفريات الفسطاط ، القاهرة ١٩٢٨، ٨٥- ٨٩؛ A. GABRIEL, *Les fouilles d'al-Foustat et les origines de la maison arabe en Égypte*, Paris 1921؛ وانظر كذلك عباس حلمي كامل : تطور المسكن المصري الإسلامي من الفتح العربي حتى الفتح العثماني ، رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة .

كريزويل CRESWELL على العُنْصُر الذي وَصَفَهُ بهجت بأنَّه إيوانٌ مَفْصُولٌ عن الصَّحْن برِواقٍ ذي ثلاث فتحات، The T-Plan - أي المُخَطَّط على شكل الحرف T اللاتيني - أو «البَيْت السَّامَرَّائي» أي المبني على طِراز سامَرّا في العراق [١].

وقد استمدَّت المُنْشآتُ الملكيةُ الطُّولونِيَّة والفاطِمِيَّة، مثلها مثل الدُّور التي كُشِفَت في الفُسْطاط، ولكن بنِسَبٍ أكبر، طِرازَها من طِراز سامَرَّا (سُرَّ مَنْ رَأى) في البِناء الذي أدْخَلَ على فَنِّ العِمارَة الإسلامية ذلك الأُسْلوب الذي يَنْسِبُ المُؤَرِّخُ والجُغرافيُّ عليُّ بن الحُسَيْن المَسْعوديّ، المتوفَّى سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م، إحْداثَه إلى الخَلِيفَة المُتَوَكِّل العَبَّاسِيّ (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٦هـ-٨٦١هـ)، فقد ذَكَرَ أنَّ المُتَوَكِّلَ:

> «أحْدَثَ في أيَّامِه بِناءً لم يكن النَّاسُ يعرفونه وهو المعروف بـ«الحيري والكُمَّيْن والأرْوِقَة»، فكان الرِّواقُ فيه مَجْلِسُ المُلْك وهو «الصَّدْر»، و«الكُمَّان» مَيْمَنَةً ومَيْسَرَةً، ويكون في البيتين اللذين هما الكُمَّان مَنْ يَقْرُب إليه من خَواصِّه، وفي اليمين منهما خِزانَةُ الكُسْوَة وفي الشِّمال ما احْتِيجَ إليه من الشَّراب؛ والرِّواقُ قد عَمَّ فَضاؤه الصَّدْر، والكُمَّان والأبْواب الثلاثة على الرِّواق فسُمِّي هذا البُنْيانُ إلى هذا الوَقْت بـ«الحيري والكُمَّيْن» إضافَةً إلى الحِيرَة، واتَّبَعَ النَّاسُ المُتَوَكِّل في ذلك ائْتِمامًا بفعله واشتهر إلى هذه الغاية» [٢].

وقد اعْتادَ الباحِثُون على القَوْلِ بأنَّ هذا الطِّراز من البِناء هو عبارَة عن إيوانٍ مُصَمَّمٍ على شَكْل حَرْف الـ T اللاَّتيني ومُدَعَّم بغرفتين ملاصقتين واقعتين على جانبيّ القسم الرَّئيس للإيوان والممتدُّ إلى الدَّاخِل والذي يُطْلَقُ عليه «الصَّدْرُ» والذي يُماثِلُ ذَيْل حرف الـ T، وهو الجزء الذي يُرَتَّب فيه مكانُ الاجتماع

---

[١] K. A. C. CRESWELL, *MAE* I, pp.121, 128.

[٢] المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر ٥: ٦.

والمعروف بـ «المَجْلِس» . وإذا كان الرِّواقُ حَقًّا هو الطَّابع المُمَيِّز لِطراز سامَرَّا فيمكننا القَوْلُ بأنَّ «بَيْتَ الذَّهَب» الذي عَمَلَه خُمارَوَيْه في دارِه بالقَطائِعْ ، كان على هذا المِثال ، بما أنَّ المَقْرِيزيَّ يصفه بأنَّه مَجْلِسٌ عَمِلَه برِواقٍ دَارٍ [١].

ولاشَكَّ أنَّ «قاعَةَ الذَّهَب» الملحقة بالقَصْرِ الفاطِميّ الكبير ، حيث كان الخُلَفَاءُ الفاطِميُّون يجلسون الجُلُوسَ العامّ يوم الاثنين والخميس [٢]، كانت مُصَمَّمَةً على هذا الطِّراز الذي انْتَقَلَ إلى عَمائِر القاهِرَة من الفُسْطاط . ويبدو أنَّ هذا التَّصْميم كان الطِّرازَ السَّائِدَ في هذا العَصْر ، فقد كَشَفَت الحَفائِرُ التي أُجْرِيَت في مَدينَة صَبْرَة المَنْصورية بتُونُس قُرْب القَيْرَوان ، عن قاعَةٍ في قَصْر الخَلِيفَة المَنْصور بالله الفاطِمِيّ تُشْبه القاعات الموجودة في دُور الفُسْطاط والمبنية على طِراز سامَرَّا [٣].

وكان لا يمكن مُشاهَدَةُ الجزء الرَّئيس للقاعَة أو الصَّدْر في القَصْر الفاطِميّ ـ حيث كان يُعْقَد المجْلِس ـ من الصَّحْن ، إلَّا بعد فَتْح بابِ المَجْلس ورَفْع السِّتْر الموجود عليه بإشارةٍ من صاحِب المجْلِس ، ولا يتمُّ ذلك إلَّا إذا تهيَّأ جُلوسُ الخَلِيفَة على السَّرير في صَدْر المجْلِس [٤]. ولم يكنْ طُولُ قاعَة الذَّهَب بعُمْق القَصْر عَموديًّا على بابِ الذَّهَب الذي يُفْضِي إليها ، وإنَّما كان مُوازِيًا لواجِهَة القصْر الرَّئيسَة الغربية فيما بين باب الذَّهَب والمحُوَّل الذي كان يُدْخَل إليه من باب البَحْر ، وهو البابُ الذي يلي باب الذَّهَب من ناحية الشَّمَال . وكان يَسْبِقُ القاعَة دِهْليزٌ يُعْرَف بـ «دِهْليز العَمُود» ، يبدو أنَّه رِواقٌ بأَعْمِدَةٍ ممَّا يُعْطي انْطباعًا بأنَّ القاعَة كانت في غاية الاتِّساع وأنَّه كان من الضَّروري وُجودُ دَعائِمَ لرَفْعها مُكَوَّنَةً من عَدَدٍ من

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٨٩.

[٢] نفســه ٢: ٢٨٨، ٢٩٠.

[٣] S.M. Zbiss, «Mahdia et Sabra Mansouriyya. Nouveaux documents d'art fatimide d'Occident», *JA* CCXLIV (1956), pp. 85-88.

[٤] المقريزي : المواعظ ٢: ٢٩١.

الأعْمِدَة ، وكانت تقودُ إليها «دَهاليزٌ طَويلَةٌ وضَيِّقَةٌ ذاتَ أقْبِيَةٍ حالِكَة الظُّلْمَة لا يستطيعُ الإنْسانُ أن يَتَبَيَّنَ فيها شَيْئًا» [١].

وإذا كُنَّا قد فَقَدْنا كلَّ أثَرٍ للقَصْر الفاطمي الكبير ، وبالتالي لقاعَة الذَّهَب . فقد حَفِظَ لنا الزَّمَنُ مُخَطَّطَ «قاعَةِ سِتِّ المُلْك» [٢] - إحدى قاعات القَصْر الفاطِميّ الغَرْبيّ الصَّغير - حَفِظَها لنا اتِّصالُها بمجموعة قَلاوون الشَّهيرَة بمنطقة بَيْن القَصْرَيْن التي بُنِيَت على جُزءٍ من أرْض القَصْرِ الصَّغير الغَرْبي ؛ فقد تَمَكَّنَ ماكس هِرتس باشا Max Herz Pacha خِلال حَفْرياتِه بمارِسْتان قَلاوون ، في مطلع القرن العشرين ، من اكْتِشاف التَّخْطيط الأصْليّ لهذه القاعَة ، وهو يُثْبِتُ بما لا يَدَعُ مَجالًا للشَّكِّ أنَّها بُنِيَت على طِرازِ سامَرّا الذي بُنِيَت عليه قاعَةُ الذَّهَب [٣].

ورَغْم أنَّ التَّرْتيبَ العامّ للقُصُور الفاطِمِيَّة يجعلنا نَجْهَل الأشْكال المعمارية الأخرىٰ التي يمكن أن تكون قد انْتَشَرت في هذا العَصْر ، فإنَّه يمكننا تَصَوُّر وُجُود أنْمَاطٍ أخرىٰ للقاعات والأرْوِقة رُبَّما تكشِفُ عن اسْتِمْرار التاثير المحَلّي إلى جانِب التأثير الخارجي [٤]. ويُمْكننا أن نضيف إلى هذه الأنْماط النَّمَطَ الذي خُطِّطَت على أساسِه القاعَةُ المعروفة بـ «قاعَة الدَّرْدير» - الواقِعَة الآن في شارع الكَعْكِيِّين بالغُورِيَّة والتي يَدُلُّ موقعُها على أنَّها جُزءٌ من دَارِ الوَزير الفاطِميّ الصَّالِح طَلائِع بن رُزِّيك

---

[١] Schlumberger, G., *Campagnes du Roi Amaury Ier de Jérusalem en Égypte au XIIe siècle*, p. 118 .

[٢] المقريزي : المواعظ ٢: ٤٩٩.

[٣] Herz, M., *Die Baugruppe des Sultans Qalaum in Kairo*, Friederichsen - Hamburg 1919, pp. 25-26; Gabriel, A., *op.cit.*, pp. 64-68.

[٤] J. Revault, «L'architecture domestiqus au Caire à l'époque mamelouke XIIIe - XVIe siècles», dans *Palais et Maisons du Caire I. Epoque mamelouke*, Paris - CNRS 1982, p. 32.

التي كانت تَقَعُ في حَارَة الدَّيْلَم[١] ـ وهي قاعَةٌ مستطيلةٌ مغلقةٌ تمامًا تستمدُّ هَواءَها وإضاءَتَها من قُبَّةٍ أو مَنْوَرٍ يَعْلُو مركزها . ويُمَيِّزُ الشَّكْلَ الرَّئيس لهذه القاعَة : الإيوانَان المُتَقَابِلان في طَرَفَيِّ القاعَة ، والفَضَاءُ الأَوْسَط (أو الدُّرْقاعَة) الذي يفصل بينهما [٢].

وظَلَّ مُصْطَلَحُ «الحيري والكُمَّيْنْ» مُسْتَخْدَمًا للتَّدْليل على القاعَة والمَجْلس حتى نهاية القَرْن السَّابع الهجريّ/ الثالث عشر الميلاديّ . فقد ذُكِرَ المَجْلِسُ في حُجَّتي وَقْفٍ مؤرَّختين في سنتي ٦٥٨هـ/١٢٦٠م و٦٨٤هـ/١٢٨٥م باسم «المَجْلِس الحِيري بكُمَّيْنْ» [٣]، ولكن كان يُكْتفى في أَغْلَبِ الأحْيان بإطْلاقِ لَفْظِ «المَجْلِس» فقد للتَّدْليل على طِرَاز «الحِيري والكُمَّيْنْ» الذي أحْدَثَه المُتَوَكِّل [٤]؛ يَدُلُّ على ذلك ما ذكره الأميرُ أسامَةُ بن مُنْقِذ في سيرته الذَّاتية يقول إنَّه أثناء إقامَتِه بالقاهِرَة انْهَزَمَ رَجُلٌ سُودانيٌّ إلى عُلُوِّ دارِه والرِّجالُ بالسُّيُوف خَلْفَه ، فأَشْرَفَ على «القــاعَة» من ارتفاعٍ عَظيم ... ثم قَفَزَ من السَّطْح على شجرة نَبْقٍ في الدَّار «ثم نَزَلَ ودَخَلَ من «كُمّ مَجْلِسٍ» قريبٍ منه ...» [٥]، كما أنَّ أحَدَ أوْراق الجِنيزَة المؤرَّخَة في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م تَصِفُ إحْدَىٰ دُور الفُسْطاط بأنَّها تحوي قَاعَةً عَرِيضَةً مكوَّنَةً من مَجْلِسَيْن مُتقَابِلين ، وتُشيرُ كذلك إلى الكُمَّيْن والأبْواب ولكنها لا تُشيرُ إلى الرِّواق الذي يبدو أنَّه اسْتُعِيضَ عنه بلَفْظِ «قاعَة» ، وهو اللَّفْظُ الذي أصبح يَدُلُّ فيما بعد على المَجْلِس [٦].

---

[١] المقريزي : المواعظ ٣: ٢١٨.

[٢] J. Revault, *op.cit.*, 32.

[٣] Sayed, H. I., «The Development of the Cairene *Qâ ʿa* : Some Considerations», *An.Isl.*, XXIII (1987), p. 36.

[٤] *Ibid.*, p. 38.

[٥] أسامة بن منقذ : الاعتبــار ٣٢.

[٦] J.- Cl. Garcin, «Habitat médiéval et histoire urbaine», dans *Palais et Maisons du Caire* I. Époque mamelouke, Paris - CNRS 1982, p. 171.

دُورُ الفُسْطَاط

لَفَتَت بُيُوتُ الفُسْطَاط ودُورُها الوَاقِعَة في وَسَطِ المَدِينَة انْتِباهَ جَمِيع الرَّحَّالَة الذين زَارُوا مصر خِلالَ القَرْنِ الرَّابع الهجريّ/ العَاشِر الميلاديّ. يقولُ المَقْدِسِيّ (كان مَوْجُودًا بها سنة ٣٧٧هـ/٩٨٨م): «ودُورُهُم ارْبَعُ طَبَقَات وخَمْسٌ كالمنايِر يَدْخُلُ إليهم الضِّيَاءُ من الوَسَطِ، وسَمِعْتُ أنَّه يَسْكُن الدَّارَ الوَاحِدَة نحو مائتي نَفْس»[١]. ويُضِيفُ مُعَاصِرُهُ ابنُ حَوْقَل: «والدَّارُ تكون بها طَبَقاتٌ سَبْعًا وسِتًّا وخَمْس طَبَقات، ورُبَّما سَكَنَ في الدَّارِ المائتان من النَّاسِ... ومُعْظَمُ بُنْيانِهم بالطُّوبِ وأكثرُ سِفْلِ دُورِهم غير مَسْكُون». وأشَارَ إلى دَارٍ كبيرةٍ بالمَدِينَة تُعْرَفُ بدَارِ عبد العَزيز بن مَرْوَان يُصَبُّ لمن فيها في كلِّ يَوْمٍ أرْبَع مائة رَاوِيَة ماء»[٢].

أمَّا نَاصِرُ خُسْرُو ـ الذي زَارَ المَدِينَة بعد ذلك بنحو ثلاثَة أرْباع القَرْن ـ فيَذْكُر أنَّ بها بيوتًا مكوَّنَةً من أرْبع عَشْرَة طَبَقَة وبيوتًا من سَبْع طَبَقَات، وأنَّه سَمِعَ من ثِقَاتٍ أنَّ شَخْصًا غَرَسَ حَدِيقَةً على سَطْحِ بَيْتٍ من سَبْعَة أدْوَار وحَمَلَ إليها عِجْلًا رَبَّاهُ فيه حتى كَبُرَ ونَصَبَ فيها ساقيةً كان هذا الثَّوْرُ يُديرُها ويَرْفَعُ الماءَ إلى الحَدِيقَة من البِئْر. وزَرَعَ على هذا السَّطْح شَجَرَ النَّارِنْج والتُّرُنْج والمَوْز وغيرها وقد أثْمَرَت كلُّها، كما زَرَعَ فيها الوَرْدَ والرَّيْحان وأنْوَاعَ الزُّهُور الأخْرَىٰ[٣].

ويَبْدُو من هذا الوَصْفِ أنَّ الرَّحَّالَة الفارسيّ لم يَدْخُل هذه الدُّور، فالغَالِبُ أنَّ هذه المَساكِن كانت مرتفعةَ الأسْقُف ومُضَاءَةً، مثل مَنَازِل رَشِيد ـ على شاطيء البَحْر المتوسِّط ـ البَاقية إلى الآن، والتي بكلِّ طابِقٍ منها صَفَّان من الشَّبابيك واحِدٌ

---

[١] المقدسي: أحسن التقاسيم ١٩٨.

[٢] ابن حوقل: صورة الأرض ١٤٦.

[٣] ناصر خسرو: سفرنامة ١٠١، وكذلك علي بن رضوان: دفع مضار الأبدان ١٥٧ وفيه: «وأزِقَّةُ الفُسْطَاط وشَوارِعُها ضَيِّقَة وأبْنِيتُها عالية».

فَوْق الآخر ، فظَنَّ أنَّ كلَّ صَفٍّ من الشَّبابيك يُعادِلُ طَبَقَةً مستقلَّة . وحَقِيقةُ الأمْر أنَّ هذه الدُّور ليست إلَّا دُور ذات سَبْع طَوَابِق تأثَّرَت دون شَكّ بتأثِيرَاتٍ عربية جنوبية ما تَزَالُ ماثِلَةً في بيوت صَنْعَاء باليمن .

وأخْبَرَهُ كذلك تاجِرٌ ثِقَةٌ أنَّ بها دُورًا فيها حُجُراتٌ للاسْتِغْلال ، أي للإيجار ، ومِسَاحَتَها ثلاثُون ذِرَاعًا في ثَلاثين ، وتَسَع ثلاث مائة وخمسين شَخْصًا[1] ، ويُشْبهُ هذا الوَصْفُ وَصْفَ الرِّباع (وهي المَسَاكِنُ المُشْتَرَكَة التي تُؤَجَّر لأكثر من ساكِن) وكان إيجارُها يستحقُّ مُشَاهَرَةً على حَسَبِ السَّنَة الهِلالية[1] .

وكَشَفَت الحَفَائِرُ التي قَادَها الباحِثُ الفرنسيُّ رولان بيير جيرو - Roland Pierre Gayraud في منطقة إسْطَبْل عَنْتَر جَنُوبي الفُسْطاط في العَقْدين الأخيرين للقَرْنِ العِشْرين عن طَبَقَات تَرْجِعُ إلى العَصْرِ العَبَّاسِيِّ تُثْبِتُ أنَّ هذه الأحْيَاء الوَاقِعَة على الحُدُود الجَنُوبية كانت كذلك مُكْتَظَّةً بالسُّكَّان منذ زَمَنٍ مُبَكِّر .

وأثْبَتَت هذه الحَفَائِرُ كذلك أنَّ الدُّور القائمة بها كانت مَنَازِل متلاصِقَة مُنْخَفِضَة ذات مستويين على أكثر تقدير وغالبًا ما يتوسَّطها صَحْنٌ[2] .

---

[1] ابن الطوير : نزهة المقلتين ٩٣هـ[1] .

[2] R.-P. Gayraud, «Istabl ʿAntar (Fostat) 1986-1994 - Rapport des fouilles», *An. Isl* XXII (1985) - XXIX (1995).

خَرَابُ الفُسْطاط

ظَلَّت الفُسْطاطُ منذ فَتْح عَمْرو بن العاص مصر سنة ١٩هـ/٦٤٠م مَدِينَة الإِقْليم، فقد كانت مَحَلّ الأمَرَاء ومَنْزِل مُلْكِهم، وإليها تُجْبَى ثَمَرَاتُ الإِقْليم وتأوِي الكافَّة. وبَلَغَت من وُفُور العِمَارَة وكَثْرَة النَّاس وسَعَة الأَرْزَاق والتَّفَنُّن في أَنْوَاعِ الحَضَارَة والتَّأَنُّق في النَّعِيم ما أَرْبَت به على كلِّ مَدِينَةٍ في المعمور حَاشَا بَغْدَاد، فإنَّها كانت سُوقَ العالَم وإنْ زَاحَمَتْها مصر الفُسْطاط وكادَت أنْ تُسامِيها إلَّا قَليلًا. واسْتَمَرَّت مكانًا لسُكْنَىٰ الرَّعِيَّة حَتَّى تَغَلَّبَ الفِرِنْجُ على سَوَاحِل البلاد الشَّامِيَّة ونَزَل مُرِّي Amaury Ier مَلِك الفِرِنْج بجُمُوعه الكثيرة على بِرْكَة الحَبَش يُرِيدُ الاسْتِيلاء على مملكة مصر وأَخْذِ الفُسْطَاط والقَاهِرَة، فعَجَزَ الوزيرُ شاوَر بن مُجِيرِ السَّعْدِيّ عن حِفْظِ البَلَدَيْن مَعًا، فأَمَرَ النَّاسَ بإخْلاء مَدِينة الفُسْطاط واللَّحاق بالقَاهِرَة للامْتِناع من الفِرِنْج، فارْتَحَلَ النَّاسُ من الفُسْطاط وسَارُوا بأُسَرِهِم إلى القَاهرة تاركين أَمْوَالهم وأثقالَهم، وبَلَغَ كِرَاءُ الدَّابَة من مصر إلى القَاهِرَة بِضْعَة عَشْر دينارًا وكراءُ الجَمَل إلى ثلاثين دينارًا، ونَزَلُوا في القاهِرَة في المَسَاجِد والحَمَّامَات والأَزِقَّة وعلى الطُّرُقات، فصَارُوا مَطْرُوحِين بعِيالِهم وأَوْلادهم، وأَمَرَ شَاوَرُ فأَلْقىٰ العَبِيدُ النَّارَ في الفُسْطَاط فلم تَزَل به بِضْعًا وخمسين يومًا حتَّى احْتَرَقَت أكثرُ مَسَاكِنه. فلمَّا رَحَلَ مُرِّي عن القاهِرَة واسْتَوْلَىٰ شِيرْكوه على الوَزَارَة، تَرَاجَعَ النَّاسُ إلى الفُسْطاط ورَمُّوا بَعْضَ شَعْثِه يقولُ المقريزيّ: «فمن حينئذٍ خَرِبَت مِصْرُ الفُسْطاط هذا الخَرَابَ الذي هو الآن كيمان مصر وتَلاشَىٰ أَمْرُها»[١].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٤، ١٤٤-١٤٥، ٢٠٧.

هذه هي رِوَايَةُ المَقْرِيزي عن أسْبَابِ حَرِيق الفُسْطَاط سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م الذي أدَّى إلى خَرَابِ مصر الفُسْطَاط.

ولكنَّا نَجِدُ رِوَايَةً مخالِفَةً تمامًا لأسْبَابِ ودَوَافِع هذا الحَرِيق في الملاحَظَات التي أوْرَدَها أبو المكارِم سَعْد الله، وهو مُؤَرِّخٌ قِبْطي كَتَبَ كتابَه «تاريخ الأدْيِرَة والكنائِس» في صَدْرِ الدَّوْلَة الأيُّوبِيَّة، حَيْثُ يُؤَكِّدُ وُقُوعَ الحَرِيق في زَمَنِ وَزارَة شَاوَر في صَفَرَ سنة ٥٦٤هـ/ نوفمبر سنة ١١٦٨م ولكنَّه يُقَدِّمُ لنا تَفْسِيرًا مُغايرًا تمامًا. فَتَبَعًا لرِوايتِه كان هناك حَرِيقٌ آخَر قَبْل ذلك بأرْبَعَة أعْوام، أي في جُمادَىٰ الأولىٰ سنة ٥٥٩هـ/ مارس ـ أبريل سنة ١١٦٤م، قامَت به عَنَاصِرُ من الأكْرَاد والغُزّ المُصَاحِبين للجَيْش الأوَّل الذي أرْسَلَهُ نُورُ الدِّين محمود إلى مصر، ولم تَمْتَدّ آثارُ هذا الحَرِيق مثل الحَرِيق الثَّاني [1]. فقد تَمَّ إشْعَالُ النَّار في بعض الكنائِس التي احْتَلُّوها وامْتَدَّت دون شَكّ إلى بَعْضِ المنازِل المُجاوِرَة. ويُمَيِّزُ نَصُّ أبي المكارِم ـ على غُمُوضِه ـ بُوضُوحٍ بين حَرِيقَيْن، فإضَافَةً إلى حَرِيق سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م يُشيرُ في ثَلاثَةِ مَوَاضِع إلى حَرِيق سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م مُحَدِّدًا تأريخه ولكنَّه لا يُشيرُ في أيٍّ منها إلى أنَّه قد تَمَّ بناءً على أوَامِر الوَزِير شاوَر، فيُكرِّر في مَوْضِعين أنَّه تَمَّ «في صَفَر سنة ٥٦٤هـ في الخِلافَة العَاضِدِيَّة ووَزَارَة شَاوَر بيد عَوَامّ المُسْلِمين من المصريين والإسْكَنْدَرانِيين» [2].

وتَبَعًا لأبي المكارِم فإنَّ سَبَبَ حَريق كَنِيسَة مَرْقُورْيُوس (أبو سيفين) بالحَمْرَاء الدُّنْيا «أنَّ النَّصارَىٰ كانوا يحملون إليها أرْزاقًا كثيرة ويَعْمَلُون لها من الأواني الفاخِرَة أشْيَاءَ كَثِيرة، فأرَادَ عَوَامُّ النَّاس نَهْبَ ما كان فيها فلم يَقْدِرُوا، فاجْتَمَعَ جَمْعٌ كبيرٌ منهم وتَعَصَّبُوا وأحْرَقُوا البِيْعَة وبَقِيَت جُدْرَانُها قائمةً وبداخلها كَنِيسَةٌ

---

[1] أبو المكارم: تاريخ الكنائس والأديرة ٢: ٣١، ٣٨.

[2] نفســه ٣٤، ٤١، ٤٥.

صغيرةٌ لم تُحْتَرِق تُعْرَفُ بكَنيسَة يوحَنَّا المَعْمَدَان صَارَ القُدَّاسُ فيها مستمرًا »[١].

ولا تَتَّفِقُ هذه الرِّوايةُ مع الرِّوايات التي أوْرَدَها المُؤرِّخون المُسلمون ، وعلى الأخَصّ رواية المقريزي ومُعاصِرِيه . فَتُقَدِّمُ لنا هذه النُّصُوص ـ كما سَبَقَ وأوْضَحْت ـ وَصْفًا مُخالِفًا تمامًا على الأخَصّ من الناحية السِّياسِيَّة . ويرى فلادِسْلاف كوبْياك W. KUBAIAK أنَّ للرِّواية الإسلامِيَّة قَصْدًا سياسيًّا واعِيًا يَشْرَح بطَرِيقَةٍ مَنْطِقية ويُبَرِّر القَرَارَ غير المحْسُوب للوَزير شَاوَر باسْتِغْلال الجماعات الخارِجَة على القانُون والجنود المُتَذَمِّرين الذين لم تستطع الحكومَة غير القَوِيَّة أنْ تكبَحَهُم ، وحاولوا إظهار ذلك كتَضْحِيَة وَطَنِيَّة ضرُورية وعَدِيمَة الشَّفَقَة[٢].

وما ذكره الرَّحَّالَة الأنْدَلُسي ابن جُبَيْر ، الذي زارَ الفُسْطاط بعد هذا الحَرِيق بأرْبَعَة عَشْر عامًا ، ذا دَلالَة ، فهو يُؤكِّدُ الرِّوَايَة التي سَاقَها أبو المكارِم مُشِيرًا إلى أنَّ آثارَ التَّدْمِير الذي شاهَدَهُ بها ناتِجٌ عن « الإحْرَاق الحادِث بها وَقْت الفِتْنَة ... سَنَة أرْبَع وستين وخمس مائة ، وأكثرها الآن مُسْتَجَدّ والبُنْيانُ بها مُتَّصِل »[٣]. فابنُ جُبَيْر ، وهو ليس مُؤرِّخًا ، يُرَدِّدُ في الأغْلَب ما رَواهُ له النَّاسُ خِلال إقامَته في الفُسْطاط ، وهو لا يَرْبط بالتَّأكيد الحَرِيق بالدِّفاع ضِدّ الإفْرِنْج .

ومع ذلك فإنَّ هذا المَظْهَر من الحَدَثِ ذو أهَمِّيَّة محدودة ، ويكفي القَوْلُ إنَّ هناك أحْدَاثًا تَشْهَدُ بقُوَّة ضِدّ الرِّوايَة الإسلامِيَّة ذات الصِّبْغَة الرَّسْمِيَّة . فإذا كانت هذه حَرَكَةً عسكرِيَّةً مُتَعَمَّدَة ومُعَدَّة إعْدَادًا جَيِّدًا ، كما تُظْهِرُ رِوَايَةُ المَقْرِيزي ، فلماذا لم يُصِب الحَرِيقُ الجُدْرَان الحَصِينَة لجامِعَيّ عَمْرو بن العاص وابن طُولُون وقَصْر الشَّمْع؟ وهي أفْضَل الأماكِن دَاخِل مصر الفُسْطاط التي

---

[١] أبو المكارم : تاريخ الكنائس والأديرة ٤٥.

[٢] W. KUBIAK, «The Burning of Misr al-Fustat in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp. 57-58.

[٣] ابن جبير : الرحلة ٢٩.

يمكن للفِرِنْج التَّحَصُّن بها والالْتِجَاء إليها [١].

وإذا كان بِإمْكانِنا أنْ نُفَسِّر بَقَاءَ هذه المَسَاجِد بأسْبابٍ دِينِيَّة ، فليست هي الحالَة نفسها بالنِّسْبَة لأحْيَاء النَّصَارَىٰ واليَهُود . ويُثارُ هنا سؤالٌ مُهِمٌّ : ما هو حَجْمُ الامْتِدَاد الحقيقي للخَسَائِر التي سَبَّبَها الحَرِيقُ؟

علينا أنْ نأخُذَ في الاعْتِبار أنَّ الجُزْءَ الأكْبر من المَدِينَة كان قد هُجِرَ وتُرِكَ خَرَابًا قَبْل زَمَن الحَرِيق فلا يمكن إطْلاقًا إحْرَاقُه . ويَرْجِعُ تأريخُ هذا الخَرَابُ إلى عَصْرِ المُسْتَنْصِر بالله قَبْل ذلك بنحو مائة عام وتَسَبَّبَت فيه الأزْمَةُ الاقْتصادِيَّة المَعْرُوفَة بـ « الشِّدَّة العُظْمَىٰ » ، وهي بالتَّأكيد أحَدُ أشْنَع الكوارِث التي عَرَفَتْها البلاد . فقد أدَّت المَجَاعَةُ المَصْحُوبَة بالوَباء والتي اسْتَمَرَّت أكثر من سَبْعَة أعْوَام (٤٥٧-٤٦٤هـ/١٠٦٥-١٠٧١م) إلى إبادَة للسُّكَّان أدَّت إلى هِجْرَة جماعِيَّة لمن تَبَقَّى منهم . ونَتَجَ عن ذلك هَجْرٌ كامِلٌ لجَمِيع أحْيَاء الفُسْطاط الشَّرْقِيَّة والجنُوبِيَّة وهو ما أكَّدَتْه كذلك نَتَائِجُ الحفْرِيَّات الأثَرِيَّة الحَدِيثَة [٢] ، يُضَافُ إلى ذلك قائِمَة خِطَط المَدِينَة التي هُجِرَت في أعْقابِ هذه الأحْدَاث والتي يَذْكُرُها ياقوتُ الحَمَوي ، نَقْلًا عن الشَّرِيفِ الجَوَّاني ، يقول : « كان في مصر من المَسَاجِد سِتَّة وثَلاثُون ألْف مَسْجِد وثمانية آلاف شَارِع مَسْلُوك وألْف ومائة وسَبْعُون حَمَّامًا » [٣].

ولا تَسْمَحُ لنا النُّصُوصُ التَّاريخية والأبحاثُ الأثرية أنْ نُحَدِّدَ بدِقَّة الخَطَّ الفاصِل بين الخَرَاب - وفقًا لمُصْطَلَح المؤرِّخين المسلمين - والقِسْم الذي أعِيدَ بناؤه من المَدِينَة واسْتَمَرَّ بعد ذلك . ويبدو ، من ناحِيَةٍ أخرىٰ من خِلالِ أوْراق جِنِيزَة القَاهِرَة التي دَرَسَها صمويل جويتين S.D. GOITEIN أنَّ النَّهْبَ والحَرِيقَ الذي اجْتاحَ الفُسْطَاط في صَفَرَ سنة ٥٦٤هـ/ نوفمبر سنة ١١٦٨م لم يَضُرّ بطريقةٍ مَحْسُوسَة

---

[١] W. KUBIAK *op. cit.*, p. 58. pp.621-25.

[٢] A. FU'AD SAYYID *op. cit.*,

[٣] ياقوت الحموي : معجم البلدان ٤ : ٢٦٦.

الأحْيَاءَ التي كان يَقْطُنُها اليَهُود [١]، وتُظْهِر الخمسون وَرَقَة من أوْراق الجِنِيزَة، المُمْتَدَّة بين سنتي ٥٦٤-٥٩٧هـ/١١٦٨-١٢٠٠م، والتي دَرَسَها مُؤَخَّرًا مويس جيل M. Gil المتعلِّقة بالدُّور المملوكة للقُوديش Qodesh (مُؤَسَّسَة خيريَّة يهودِيَّة يمكن مقارنتها بمؤسَّسَة الوَقْف الإسْلامي) فيَبْدُو من خِلالِ هذه الأوْراق أنَّ أرْبَعَة عَشْر منْزِلًا تَنْتمي إلى هذه المُؤَسَّسَة نَجَت من الحَرِيق [٢]. وتُشِيرُ أوْراقُ الجِنِيزَة الممتدّة بين الفَتْرَة من ٥٥٩-٦١٢هـ/١١٦٤-١٢١٥م إلى تسعين مَنْزِلًا سيكون من غير المَعْقُول أنْ تكون جَمِيعُها أعِيدَ بِنَاؤها بعد الحَرِيق [٣].

حَقِيقَة الأمْر أنَّ مَدِينَة الفُسْطاط في القَرْن السَّادِس الهجري/ الثَّاني عَشْر الميلادي، بالرَّغْم من تَرَاجُعها وفَقْدِها لنحو رُبْع مِسَاحتها الدَّاخلية، ظَلَّت مع ذلك مَرْكزًا عُمْرانِيًّا مهمًا مأهُولًا بالسُّكَّان وبالصِّناعات المُتَطَوِّرَة ويَفُوق حَجْمُ تجارتها حَجْم تجارة القَاهِرة، إلَّا أنَّ حُدُودَها تَرَاجَعَت كثيرًا عن ما كانت عليه الفُسْطاط في القرن الرَّابع الهجري/ العاشِر الميلادي، بينما نَمَت مدينة القَرْن السَّادِس الهجري/ الثَّاني عَشْر الميلادي في شَرِيطٍ ضَيِّق على شاطئ النِّيل [٤].

---

[١] S. D. Goitein, *A Meditarranean Society* I, pp. 18-19; II, p.141.

[٢] M. Gil, «Maintenance, Building, Operations and Repairs in the House of the Qodesh in Fustat», *JESHO* XIV (1971), p. 145.

[٣] W. Kubiak, *op. cit.*, p. 62.

[٤] A. Gabriel, *Les fouilles d'al-Fustat*, p.27.

وراجع كذلك عن أصْل مدِيْنة الفُسْطاط وآثارها الدراسة الجديدة لبيتر شيهان P. Sheehan, *Babylon of Egypt. The Archaeology of old Cairo and the Origins of the City*, Cairo-AUC 2010.

التَّنظِيمُ المَدِيني والإدَارِي

للعَاصِمَة في العَصْرِ الفَاطِمِيّ

كان مِمَّا يميّزُ العاصِمَة المصرية في العَصْرِ الفَاطِمِيّ، والفُسْطاط على وَجْهٍ خاصّ، امتزاجُ سُكَّانها من مُسْلِمين وأقْباط ويَهُود. فلم تَعْرِف الفُسْطاطُ الـ Ghetto الدِّينيّ أو الحِرَفِيّ، بل إنَّ الدَّارَ الواحدة كان يقيمُ بها جَنْبًا إلى جَنْب، كما نَعْرِفُ من أوْرَاق الجِنِيزَة (Cairo Geniza Documents)، المُسْلِمُون والأقْباط واليَهُود، كما كان كثيرٌ من الأقْبَاط يَعْمَلُون لدىٰ اليَهُود وكثيرٌ مِن اليَهُود يعملون لدىٰ المُسْلِمِين[1].

وفاقَ عَدَدُ سُكَّانِ الفُسْطَاط في العَصْرِ الفَاطِمِيّ بكثيرٍ عَدَدَ سُكَّانِ القَاهِرَة، يَدُلُّ على ذلك أنَّ الوَزيرَ اليازُوريّ حَدَّدَ احْتِيَاجَ البَلَدَيْن من الدَّقِيق اللاَّزِم لصِنَاعَة الخُبْز، في أزْمَة سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م، بألْفِ تِلِّيس في كلِّ يَوْم: لمصر الفُسْطاط سَبْعُ مائة وللقَاهِرَة ثلاثُ مَائة[2]. يُؤَيِّدُ ذلك أيْضًا ما ذكرَهُ الشَّريفُ الجَوَّاني في كتابِه «النُّقَط»، نَقْلًا عن القُضَاعِيّ، من أنَّه كان بالفُسْطَاطِ في أوَاسِطِ القَرْنِ الخَامِس الهجري/ الحادِي عَشْر الميلادي نحو ٣٦٠٠٠ مَسْجِد و ١١٧٠ حَمَّامًا[3]، وبالطَّبْع كانت هذه مَسَاجِدَ الخِطَطِ (الأحْيَاء) الخاصَّة بالصَّلَوَات

---

[1] S. D. Goitein, *A Mediterranean Society* IV, p.46.

[2] المقريزي: إغاثة الأمة ٢٢، المقفى الكبير ٣: ٣٨٧، اتعاظ الحنفا ٢: ٢٢٦.

[3] ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤: ٢٦٦؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ١٢٣، ٤: ٧٠٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١: ٤٣-٤٤.

الخَمْس ، وهي تَدُلُّ على أنَّ سُكَّانَ الفُسْطاطِ كانوا يَبْلُغُون في هذا الوَقْت ـ كما قَدَّرَهُم أحَدُ البَاحِثِين ـ أكثر من ثلاث مائة أَلْف نَسَمَة ، وقد تَرَاجَعَ هذا الرَّقَمُ كثيرًا في بداية القَرْنِ الثَّامِن الهجري/ الرَّابِع عَشْر الميلادي حيث يَذْكُر ابنُ المُتَوَّج أنَّ عَدَدَ مَسَاجِد الفُسْطاطِ في وَقْتِه لا يَتَعَدَّىٰ أرْبَع مائة وثمانين مسجدًا .

كانت مصر في عَصْرِ الدَّوْلة الفاطمية دَوْلةً ثيوقراطيةً بمعنى الكلمة وكان الإمامُ الفاطميّ هو الرَّئيسُ الدِّينيّ والسِّياسيّ للدَّوْلَة ويُنْظَرُ إليه دون أي الْتباسٍ على أنَّه مُمَثِّلُ الله على الأرْض والمُفَسِّرُ الأوَّلُ للشَّرْعِ ومَصْدَرُ كلّ العِلْم؛ ممَّا أدَّىٰ إلى ارْتباطِ التَّنْظِيم الإداري للعاصِمَة المصرية في العَصْرِ الفاطميّ بالكثير من الاحْتِفالات الدِّينية التي كان يَحْضُرُها الإمامُ بشَخْصِه (رُكوبُ أوَّل العامِّ ـ رُكوبُ أوَّلِ شهر رَمَضان ـ رُكُوبُ أيَّامِ الجُمَع الثَّلاث من شهر رَمَضَان ـ رُكُوبُ صَلاةِ عيد الفِطْر ـ رُكوبُ صَلاةِ عيد النَّحْر ـ رُكوبُ الإمام في الأعْياد الوطنية ـ رُكوبُ الإمام في الأعيادِ الشِّيعية) والتي كان للوالي وصَاحِب الشُّرْطَة دَوْرٌ كبيرٌ فيها .

تَنْظِيمُ العاصِمَة

بالرَّغْم من قِلَّة عَدَدِ المُؤَسَّسات الحَضَرِيَّة الموجودة بالعاصِمَة الفاطِمية ، فقد كان النِّظامُ العام مَحْفُوظًا داخِل المَدِينَة . وكانت الوَظائِفُ الحَضَرية مُؤَمَّنَةً بالنسبة للأساسِيَّات ، في غَيْبَة تلك الجماعات المُتَخَصِّصَة ، بفَضْلِ بعض المنظَّمات الذَّاتية وشِبْه التِّلْقائية .

١ – النِّظَامُ العامّ

كان النِّظامُ محفوظًا بطريقةٍ مُرْضِيَة في القاهِرَة في خلال القَرْنِ الفاطِميّ الأوَّل وحتى فترةٍ قليلة بعد زِيَارَة ناصِر خُسْرو لها (٤٣٧هـ/١٠٤٥م ـ ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) ، ولكن لم تَلْبَث أن عَمَّت الفَوْضَىٰ في فترة الاضْطرابات السِّياسية

وصِراع فِرَقِ الجيش الفاطِميّ المختلفة في منتصف القرنِ الخامِس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ. ورغم الهُدُوء النِّسْبي الذي سادَ القاهِرَة بعد ذلك وحتَّى أوائل القرن السَّادِس الهجري فقد بدأت الاضْطرابات من جَديدٍ في أعْقابِ وَفاة الخَليفة الآمِر بأحْكام الله في نهاية سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م، وكان مَيْدانُ بَيْنَ القَصْرَيْن هو مَسْرَحَ هذه الاضْطِرابات المتتالية والتي تكرَّرَت في سنوات، ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، و٥٢٦هـ/١١٣١م، و ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م، و٥٣١هـ/ ١١٣٥م، وفي فترة الأزْمَة بين شَاوَر وضِرْغَام.

وإذا كانت المصادِرُ لم تُمُدُّنا بمعلوماتٍ كافية عن الإجْراءات التي اتَّخَذَتها الحكومةُ الفاطِمية لمواجهة هذه الاضْطرابات، ولا الدَّوْر الذي كان يقومُ به الوالي في زَمَنِ هذه الأزَمات، وإذا لم نكن نعرف أيضًا أين كان يُقيمُ الوالي ومساعدوه في مَدينَة القاهرة، ففي المقابل أمَدَّتْنا المصادِرُ بطريقةٍ غير مباشرة بمعلوماتٍ عن دَوْر الوالي في وَقْتِ رُكُوبِ الخَليفَة وخُروجِه للاحْتِفَالاتِ العامَّة، حيث كان واجِبُ الوالي الأساسيّ هو تأمينُ الطَّريق الذي يَسْلُكُه مَوْكِبُ الخَلِيفَة والإشْرافُ على من يتولَّوْن اسْتِقْبالِ الخَليفَة وتوديعه [١].

٢- التَّنْظيمُ

كان اهتمامُ الحكومات طَوال العَصْر الإسلاميّ وإلى وَقْتٍ غير بعيد، فيما يَخُصُّ التَّنْظيم وإدارَة الطُّرق، لا يتجاوَز حَدًّا متواضِعًا كتنظيفِ الشَّوارع وإزالَة الأنْقاض التي تُهَدِّد بسَدِّها. وبفَضْلِ فقراتٍ مُطَوَّلةٍ من تاريخ المُسَبِّحِيّ، حَفِظَها لنا المَقْريزيّ، نستطيع أن نَصِف بقَدْرٍ كبيرٍ من الدِّقَّة كيف حُوفِظَ على نَظافَة المَدينَة ونِظامِها العام في الخمسين عامًا الأولىٰ لحكم الفاطِميين. ولكنَّنا للأسفَ لا نملكُ تفصيلات مماثلة فيما يَخُصُّ بَقِيَّة التاريخ الفاطِميّ.

---

[١] المقريزي: المواعظ ٢:٤٢٣-٤٢٥، ٥٢٦-٥٢٨.

يَذْكُرُ المُسَبِّحيُّ ، وهو يَسْرُدُ أحْدَاث سنة ٣٨٢هـ/٩٩٣م، أنَّ السَّقَّائين أُمِرُوا أنْ يُغَطُّوا رَوَايا الجِمَال والبِغَال لئلا تُصيب ثِيابَ النَّاس [١]. ويقول المؤرِّخُ نفسه في حوادث سنة ٣٨٣هـ/٩٩٤م إنَّ الخَليفَة العَزيز بالله أمَرَ بأنْ تُنْصَب أزيارٌ مليئةٌ بالماء على الحَوانيت وأنْ تُوقَد المصابيحُ والقَنَادِيل على جَميع الحَوَانيت وأبْوَابِ الدُّور والمحَالّ والسِّكك الشَّارِعَة وغير الشَّارِعَة [٢]. ويمدُّنا المُسَبِّحِيُّ كذلك بالمعلومات التالية عن فترة حُكْم الخَلِيفَة الحاكم بأمر الله . ففي جُمادَى الآخرة سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م مُنِع كلُّ من يركب من المكارين أنْ يَدْخُل من بابِ القاهرة راكِبًا ولا المكارين أيضًا بحَميرِهم وأنْ لا يَجْلِس أحَدٌ على بابِ الزُّهُومَة من التُّجَّار وغيرهم وأنْ لا يمشي أحَدٌ ملاصِقَ القَصْر الفاطِميّ من بابِ الزُّهُومة إلى أقصىٰ بابِ الزُّمُرُّد . .. إلاَّ أنَّه قد أعْفَى المكاريون فيما بعد من ذلك وقُرِئَ لهم أمانٌ بهذا المعنى [٣]. وفي السَّنَة نفسها أمَرَ الخَلِيفَةُ الحاكم بكَنْسِ الأزِقَّة والشَّوارِع وأبْواب الدُّور في كلِّ مكان ، وغالبًا ما أمر أيضًا برَشّ الشَّوارع والأزِقَّة حتى لا يَعيق الغُبارُ والتُّرابُ الحركة في المدينة [٤].

ويذكُرُ المَقْريزيُّ ، في أغْلَبِ الظَّنّ عن طريق ابن المأمون ، أنَّ والييّ القاهِرَة ومصر كانا يأخُذَان جميع السَّقّائين أرْباب الجِمال والدَّوَاب لرَشِّ ما بين البلدين سُخْرةً بغير أجْرٍ في اليومين اللذين يركب فيهما الخَلِيفَةُ في الأسبوع [٥].

ويمدُّنا عليُّ بن رضْوان الطَّبيب بوَصْفٍ فَريدٍ لمدينَة القاهِرَة نحو منتصف القرن الخامِس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ، يقول: « ويلي الفُسْطاط في العِظَم وكثرة النَّاس القاهِرَة، وهي في شمال الفُسْطاط .. وليس ارْتِفاعُ الأبنية بها

---

[١] المقريزي : المواعظ ٢: ٣٥٨.

[٢] نفســه .

[٣] نفســه ٣: ٨١.

[٤] نفســه ٣: ١٨٤.

[٥] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣:١٠٠ .

كارْتِفاع الفُسْطاط لكن دونها كثيرًا وأزِقّتها وشوارعها بالقِيَاس إلى أزِقَّة الفُسْطاط وشَوارِعها أنْظَف وأقَلّ وَسخًا وأبعد عن العَفَن . وأكثر شُرْب أهْلها من مياه الآبار . وإذا هَبَّت ريحُ الجَنُوب ، أخَذَت من بُخَار الفُسْطاط على القاهِرَة شيئًا كثيرًا . وقُرْبُ مِياهُ آبار القاهرة من وَجْه الأرض مع سَخافَتها مُوجبُ ضَرورةً أن تكون يصل إليها بالرَّشْح من عُفُونَة الكَنَف شيءٌ ما . وبين القاهِرَة والفسطاط بَطَائِحُ تمتلئ من رَشْح الأرض في أيَّام فَيْض النِّيل ، ويَصُبُّ فيها بعضُ خَرَّارات القاهرة ، ومياهُ البَطَائِح هذه رديئةٌ وَسِخَةٌ أرْضُها ، وما يَصُبّ فيها من العُفُونَة يقتضي أنْ يكون البُخار المرتفع منها على القاهِرَة والفُسْطاط زائِدًا في رَداءَة الهواء بهما . ويُطْرَح في جَنُوب القاهرة قَذَرٌ كثيرٌ نحو حارة البَاطِلِيَّة ، وكذلك يُطْرَح في وَسَط رَحْبَة بابِ العيد ، إلاَّ أنه إذا تأمَّلْنا حالَ القاهِرَة كانت بالإضَافَة إلى الفُسْطاط أعْدَل وأجْوَد هَواءً وأصْلَح حالًا لأنَّ أكثر عُفوناتهم تُرْمى خارج المدينة ، والبُخَارُ ينحلّ منها أكثر ، وكثيرٌ أيضًا من أهْلِ القاهِرَة يَشْرَب من ماءِ النِّيل وخاصَّةً في أيَّام دُخُوله الخَلِيج ، وهذا الماء يُسْتقى بعد مُروره بالفُسْطاط واخْتِلاطه بعفوناتها[١]... فمن شأن أهْل الفُسْطاط أنْ يَرْمُوا ما يَمُوتُ في دُورِهِم من السَّنانير والكِلاب ونحوها من الحَيَوان الذي يُخالطُ النَّاس في شَوارعهم وأزِقَّتهم فتَعْفَن وتُخالِطُ عفونتها الهواء ، ومن شأنهم أيضًا أن يَرْمُوا في النِّيل ، الذي يَشْرَبون منه ، فضول حَيَواناتهم وجِيَفها وخَرَّارات كَنَفِهم تَصُبُّ فيه وربما انْقَطَعَ جَرْيُ الماء فيشربون هذه العُفُونَة باخْتِلاطِها بالماء[٢].

هذا النَّقْدُ اللاَّذِع الذي وَجَّهَهَ عليُّ بن رِضْوان إلى مَوْقع الفُسْطاط وعادات أهْلِها هو الذي جَعَلَ الدُّولَ المتعاقبة تَبْحَثُ عن مَوْضِعٍ في الجهة الشمالية جَيِّد

---

[١] ابن رضوان : دفع مضار الأبدان ١٦١، ١٦٢؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٢٢٥-٢٢٦.

[٢] نفسه ١٥٦؛ نفسه ٢ : ١٤٧-١٤٨.

الهواء ، وهذا هو سَبَبُ امْتِداد القاهِرَة دائمًا في اتجاه الشَّمال والغَرْب.

وكان من نَتِيجَة إلقاءِ النَّاسِ لمخلَّفاتهم في الخَليج ، الذي يحمل المياه إلى القاهِرَة خلال الشهور الثلاثة التي تَعْقُب الفَيَضَان ، أنْ سُدَّ الخَليج نحو نهاية القرن الخامس الهجريّ بحيث تَعَذَّرَ دُخولُ المراكِب إليه إلاَّ بمَشَقَّة ، لذلك فقد جُدِّدَ حَفْرُه في سنة ٥٠٢هـ/١١٠٩م وعُيِّنَ له والٍ مُفْرَد بجامَكِيَّة ومُنِعَ النَّاسُ من أنْ يُلْقُوا فيه شيئًا [١].

وفيما يلي نُجْمِلُ العَوَائِدَ التي كانت مُتَّبَعَةً في القاهرة زَمَنَ الفَاطِميين والتي تُوَضِّحُ تنظيم المَدِينَة : فلم يكن يُسْمَح بمرور حِمْلِ تِبْنٍ ولا حِمْل حَطَبٍ بقَصَبَة القاهِرَة ، ولا يَسُوق أحَدٌ فرَسًا بها ، ولا يمرّ بها سَقَّاءٌ إلاَّ ورَاوِيتُهُ مُغَطَّاة ، وعلى كلِّ صاحب حانُوت أنْ يجعل أمامَ حانوتِه زيرًا مملوءًا بالماء مخافَة أن يَحْدُث الحريقُ في مكانٍ فيطفأ بسرعة ، كما أنَّ كُلَّ صَاحِب حانُوت كان يُلْزَم بأنْ يُعَلِّق على حانُوته قِنْديلًا طَوالَ الليل يَسْرج إلى الصَّباح . كما كان يُوجَد في القَصَبة قومٌ يَكْنِسون الأزْبال والأتْربة ونحوها ويرشُّون كُلَّ يوم . كان بالقَصَبَة كذلك ، في أغْلِب الظَّنَ قُرْب نهاية العَصْر الفاطِمي ، عَددٌ من الخُـفَراء يطوفُون طُولَ الليل لحِرَاسة الحوانيت وغيرها . وكان يتمّ كذلك على فترات متقاربة قَطْعُ ما عَسَاه قد تربَّى من الأوْساخ في الطُّرقات حتى لا تَعْلو الشَّوارع [٢].

وقد كان من العَوائِد أيضًا أنَّه إذا قَدِمَ رَسُولُ بَلَدٍ أجنبيّ ينزل من بابِ الفُتُوح ويُقَبِّل الأرْضَ وهو ماشٍ إلى أن يَصِلَ إلى القَصْرِ الفاطِميّ ، وكذلك كان يَفْعَل كلُّ من غَضِبَ عليه الخليفة فإنَّه يخرج إلى بابِ الفُتُوح ويَكْشِف رأسَه ويستغيث بعَفْوِ أمير المؤمنين حتى يُؤْذَن له بالمصير إلى القَصْر [٣].

---

[١] المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ٤٣.

[٢] المقريزي : المواعظ ٣: ٣٥٦.

[٣] نفســه ٣: ٣٥٦.

٣- الخَدماتُ العَامَّة

لم تَعْرف العاصِمَةُ الفاطِميةُ «الخَدَمات العامَّة» بمعناها المتعارَف عليه اليوم. فقد كان نَقْلُ المياه والتَّنَقُّلُ الدَّاخليّ والصِّحَّةُ العامَّة، على سَبيل المثال، موكَلَةً إلى مِهَنِيين مُتَخَصِّصين كان نَشَاطُهم يجري بعيدًا عن أيّ تَدَخُّلٍ من السُّلْطات.

وقد أخَذَت مشكلةُ نَقْل المياه إلى سُكَّان العاصِمَة الفاطمية تَزْدادُ حِدَّةً مع الزَّمَن سواء في القاهِرَة أو في الفُسْطاط بعد أن أخَذَ مَجرَىٰ النّيل يَنْحَسِر نحو الغَرْب على فترات متباعدَة، فالسَّبْعُ سِقايات التي أقامها الوَزيرُ ابن الفُرات في نهاية عَصْر الدَّوْلَة الإخْشيدية في شمال غَرْبي الفُسْطاط بالقُرْبِ من بِرْكة قارون كانت تَسْتَمدّ ماءهَا من الآبار التي حُفِرَت في المَوْضِع الذي انْحَسَر عنه النّيل [١]. وقد شَكَّلَ تَزْويدُ أهْلُ المدينتين بالمياه الصَّالحَة للشُّرْبِ أزْمَةً بالنسبة للمُرور داخِل العاصِمَة. فقد تطلَّبَ احْتياجُ العاصِمَة الفاطمية من المياه تَخْصِيص عدَدٍ كبيرٍ من الجمال يَصِل - كما قَدَّرَه ناصِرُ خُسْرو - إلى نحو ٥٢ ألف جَمَل تحمل المياه في رَوايا كبيرة، بالإضافةِ إلى السَّقّائين الذين كانوا يَحْمِلُون على ظُهُورهم جِرارًا نحاسية أو قِرَبًا من الجِلْد وذلك في الحارات الضَّيِّقَة التي كان يتَعَذَّر على الجِمال السَّير فيها [٢]. ويضيف ناصِرُ خُسْرو أنَّ ماءَ الشُّرْب كان يُجْلَب دائمًا من النّيل وأنَّ الآبار القريبة من النّيل عَذْبٌ ماؤها بينما تَزْدَادُ مُلُوحَةُ المياه كلَّما ابتعدنا عن مَجْرَىٰ النَّهْر [٣]. ثم يذكر أنَّه رأىٰ قُدُورًا من النُّحَاس الدِّمَشْقيّ، كلّ واحد منها يسع ثلاثينَ مَنًّا كانت من الطَّلاوة بحيث يظنُّها المَرْءُ من الذَّهَب، وأنَّه حُكِيَ له أنَّ امرأةً كانت تملك خمسة آلاف قِدْر، وأنَّها تُؤَجِّر الواحِد منها بدِرْهَم في الشَّهْر، وكان يَنْبَغي على مستأجرها أنْ يَرُدَّها سليمة [٤].

---

[١] المقريزي: المواعظ ٣: ٤٥٠- ٤٥١.

[٢] ناصر خسرو: سفرنامة ٩٠- ٩١.

[٣] نفسه ٩١، ١٠٤.

[٤] نفسه ١٠٤.

وتبعًا لما يُورِدُه المُسَبِّحِيُّ فقد كان ثَمَنُ رَاوِيَة الماء المحمولة على ظُهُور البِغال ، في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٥م ، درهمين ، بينما بَلَغَ ثَمَنُ الرَّاوِيَة المحمولة على ظُهور الجِمال ثلاثة دَرَاهِم [١].

أمَّا مَوْرَدَةُ السَّقّائين التي كان يحمل منها السَّقَّاؤون المياه إلى أهْلِ القاهِرَة فكانت تقع على الشاطئ الشَّرْقي للخَلِيج خارج بابِ سَعادَة [٢]، وقد أقامَ السُّلْطانُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب في موضعها ، في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م ، قَنْطَرَةً عُرِفَت بقَنْطَرة بابِ الخَرْق لينتقل عليها إلى المَيْدان السُّلْطانيّ الذي أقامه في أرْضِ اللُّوق على البَرِّ الغَربيّ للخَلِيج [٣].

وهكذا فقد لَعِب السَّقَّاؤون في القاهِرَة والفُسْطَاط على السَّواء طَوال العُصُور الوُسْطىٰ وحتَّى العُصُور الحَديثَة دَوْرًا بارزًا . ففي العصْرِ الفاطِميّ كان لهم رُؤساءُ يَنُوبُون عنهم في علاقتهم مع الدَّوْلَة ، كان الواحِدُ منهم يُعْرَف « بالعَرِيف » ، فيَذْكرُ ابنُ المأمون ، في حَوادِث سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ، أنَّ الوَزيرَ المأمون البَطائحيّ أمَرَ واليَ القاهِرَة والفُسْطَاط باسْتِدْعاء عُرَفَاء السَّقَّائين وأخْذ الحُجَج على المتعيِّشين منهم بالقاهِرَة بحُضُورِهم متى دَعَت الحاجَةُ إليهم ليلًا ونهارًا ، وأنْ يُعْتَمد ذلك كذلك في القِرَبيِّين ، وأنْ يَبِيتُوا على بابِ كلِّ مَعُونَة ومعهم عشرة من الفَعَلَة بالطَّواري والمَسَاحي [٤].

*

* *

ورغم أنَّنا لا نملك تَفْصِيلات دَقِيقَة عن وَسَائِل النَّقْل في العاصِمَة الفاطمية فيمكننا أنْ نَظُنّ أنَّ الانْتِقال الدَّاخليّ في القاهِرَة والفُسْطاط وبين البلدين كان يتم

---

[١] المسبحي : أخبار مصر ٦٩.

[٢] ابن المأمون : أخبار مصر ٣٧ـ ٣٨.

[٣] المقريزي : المواعظ ٣:٤٩٢ـ ٤٩٣.

[٤] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٩ـ ٧٠.

بواسَطة رُكُوبات تُؤَجَّر . على كلٍّ فناصِر خُسْرو يَرْوي أنَّ كِبارَ التُّجَّار وصِغارَهم في الفُسْطاط كانوا يتوجَّهون من مَنازِلهم إلى الأسْواق مُمْتَطِين الحُمُر المُسْرَجَة . ويُضِيفُ ناصِرٌ أنَّه كان في كلِّ حيٍّ على رأس كلِّ شارع مجموعة من الحَمِير عليها بَرَادِع مُزَيَّنة مُعَدَّة للإيجار مقابل أجْرٍ زهيد . وفيما يقالُ فإنَّه كان هناك نحو خمسين ألف بَغْلَة مُعَدَّة للركوب كلَّ يوم . ولم يكن يَسْتَخْدم الخَيْل سوى الأجْنادِ والعسكريين ، أمَّا التُّجَّارُ والحِرَفيون ورجالُ الأقلام فكانوا يركبون الحمير [١].

وكانت الحيواناتُ المُعَدَّة للركوب جاهِزةً في مَواقِف تُوجَد على رؤوس الشَّوارِع الرئيسة وأسواق الفُسْطاط . كما كانت مَواقِفُ الحَمِير في القاهِرَة تقع على العُمُوم بالقُرْبِ من مَدَاخِل المدينة . فيَذْكُر ابنُ سَعِيد ، في أواسط القرن السَّابع الهجريّ/ الثَّالِث عَشْر الميلادِي ، أنَّ مَنْ كان يريد التوجُّه من القاهرة إلى الفُسْطاط يجد عند بابِ زَويلَة عددًا لا يحصى من الحَمِير ، لم يجد مَثيلًا له في بَلَدٍ آخر ، معدًّا لذلك [٢].

إدارَةُ العَاصِمَة

ما هي الطَّريقةُ التي كانت تُدَارُ بها هذه العاصِمَة وما هي المرافِقُ التي عَرَفَتها والوَظائِف الحَضَرية التي أدَّتها ؟ .

لعلَّه من الغريب أنَّ المؤرِّخين المسلمين لم يُقَدِّموا لنا أبدًا صُورةً ولا حتى محاولةً لشَرْح التَّنْظيم المديني للعاصِمَة المصرية في العَصْرِ الإسلاميّ ، وإنْ كان الطَّابِعُ الأكثر وُضُوحًا للعاصِمَةِّإذا نظرنا إليها من زاوية إدارتها المدينيةِّهو الغَيْبَة شِبْه التَّامَّة

---

[١] ناصر خسرو : سفرنامة ١٠٥. المواعظ ٢: ١٥١.

[٢] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ٥؛ المقريزي :

للمؤسَّسات النَّوْعِيّة ، سواء منها ما يمثِّل المنظَّمات الجماعية للشَّعْب أو تلك التي تُنْشِؤها السُّلْطاتُ الحاكمة ، وهذا النَّقْصُ ليس ممَّا يثير الدَّهْشَة على الإطْلاق ، فقَبْل كلِّ شيء وبصفةٍ عامَّة ، فإنَّ المُدُنَ الإسْلامية لم تتَّبع نِظامًا انْتِخابيًا في اخْتِيار مَوَظَّفيها المسؤولين عن شؤون البَلَديات ، لأنَّها لم تجد في الواقع ضَرُورَةً لتبنِّي نظامٍ من هذا النَّوْع ، إذْ يجب أن نتذكّر أنَّ المَدِينَة الإسْلامية لم تُكافِحْ أبدًا من أجْلِ اسْتِقلالها كما فَعلَت المُدُنُ الأوربية والإيطالية منها بصفةٍ خاصَّة ، في العَصْر نَفْسِه ، وهذا هو السَّبَبُ الذي من أجْلِه لم تَعْرِف المَدِينَةُ الإسْلامية نفس نَمَط المؤسَّسات النَّوْعية الذي عَرَفَتْه المُدُنُ الأوربية ، فقد كان مُوَظَّفو المَدِينَة الإسلامية أجْمَعُون يختارهم الخَلِيفَةُ أو السُّلْطان .

فمن هم إذًا هؤلاء المُوَظَّفُون الذين اخْتَارهم الخَلِيفَةُ لإدارة العاصِمَة في العَصْرِ الفاطِميّ؟ وما دَوْرُهُم؟ وما هو التَّطَوُّر الذي طرأ على وَظائِفهم في خِلالِ هذا العَصْر؟

كانت إدارةُ العاصِمَة الفاطمية تَسْتَنِدُ إلى ثلاثة مُوَظَّفين رئيسيين هم : الوالي وصَاحِبُ الشُّرْطَة والمُحْتَسِب بالإضافَة إلى القاضي .

أوَّلًا : الوَالي وصَاحِبُ الشُّرْطة

كان الوالي وصَاحِبُ الشُّرْطَة دائمًا من أرْبابِ السُّيُوف [١] ، وكان الذي يتولَّىٰ وَظِيفَة الوالي من ذوِي المكانة العالية في الدَّوْلَة [٢] . وقبل أن نُوَضِّح واجبات هذه الرُّتْبَة يجب أن نذكر أنَّ صَاحِبَ الشُّرْطَة لم يكن كما يؤكد GOITEIN هو نفسه الوالي طوال العَصْر الفاطِميّ [٣] ، وإنَّما كانت هناك وَظِيفَتان مُخْتَلِفتان وإنْ كانتا مُتَداخِلَتين في الاخْتِصاص : صَاحِبُ الشُّرْطَة والوالي . غير أنَّه طَوال القَرْنِ

---

[١] القلقشندي : صبح الأعشى ٣:٤٧٨-٤٨٠.

[٢] نفســه ٣: ٤٨٠.

[٣] S. D. GOITEIN, *op. cit.*, II, p.368.

الفاطِميّ الأوَّل وحتى قُرْب نهاية القَرْنِ الخامس الهجريّ كان الذي يَحْفَظ النِّظام في المدينتين يُعْرفَ بـ « صَاحِب الشُّرْطَة » ، الموجود في الفُسْطاط يسمَّى « صَاحِب الشُّرْطَة السُّفْلىٰ » والموجود في القاهِرة يسمَّى « صَاحِب الشُّرْطَة العُلْيا » . أمَّا مُصْطَلح « الوالي » فلم يَظْهَر في مَصَادِر العَصْرِ الفاطِمِيّ إلاَّ مع نهاية القَرْن الخامِس الهجريّ . فالمُسَبِّحِيُّ ، الذي ألَّف تاريخه في أوائل حُكْم الفاطِميين في مصر ، يَسْتَخْدِمُ فقط مُصْطَلَح « صَاحِب الشُّرْطَة » أو « مُتَوَلِّي الشُّرْطَة » [1] ، ولا يَذْكُر على الإطْلاق لَفْظ « الوالي » ، بينما يقابلنا لَفْظ « الوالي » بكثرة عند المؤرِّخين الفاطِميين المتأخِّرين وخاصَّةً ابن المأمون وابن الطُّوَيْر اللذين لا يذكران مُصْطَلَح « صَاحِب الشُّرْطَة » على الإطْلاق [2] .

وهذا يعني أنَّ العاصِمَة الفاطِمية لم تَعْرِف في القرنين الرَّابع والخامِس للهجرة/ العَاشِر والحادي عَشْر للميلاد سوى وَظيفَة « صَاحِب الشُّرْطَة » التي اخْتَفَت بعد ذلك لتحلّ محلَّها وَظِيفَةُ « الوالي » بحيث أنَّ مسؤوليات الشُّرْطَة والمحافَظَة على الأمْنِ أصبحت من ضِمْن اخْتِصاصات وَظِيفَة « الوالي » .

ويبدو أنَّ الشُّرْطَتَيْنْ العُلْيا والسُّفْلىٰ كانتا تُجْمَعان لشَخْصٍ واحدٍ خلال القَرْنِ الفاطِميّ الأوَّل . فالمُسَبِّحِيُّ يذكر أنَّ بَدْرَ الدَّوْلَة نَافِذ الخادِم الأسْوَد كان يتولَّىٰ الشُّرْطَتَين العُلْيا والسُّفْلىٰ في سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م [3] ، وعندما تولَّىٰ بَقِيُّ الخادم الأسْوَد الشُّرْطَتَيْنْ في العام نفسه نَظَر في الحِسْبَة مُضافًا إلى الشُّرْطَتين ثم صُرِفَ عن الحِسْبَة والشُّرْطَة بعد إعادة دَوَّاس بن يعقُوب الكُتَامِيّ للحِسْبَة [4] . يؤيِّدُ ذلك ما

---

[1] المسبحي : أخبار مصر ٣٠، ٦٨، ٨٩، ٢٢٢. ١٠١.

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٢٧، ٣٥، ٤٠، ٤٧، ٥٣، ٦٩، ٧٨؛ ابن الطوير : نزهة المقلتين

[3] المسبحي : أخبار مصر ٤٤، ٤٧، ٧٠.

[4] نفســه ٤٧.

ذكره القَلْقَشَنْديُّ من أنَّه رأىٰ في بعض سِجلاَّت الفاطِميين إضافَة الحِسْبَة بمصر والقاهرة إلى صَاحِبيّ الشُّرْطَة بهما أحيانًا [١].

ولا شَكّ أنَّ التطوُّرَ الذي عَرَفَتْهُ وظائِفُ الإدارة في العاصِمَة المصرية في القرن السَّادِس الهجريّ/ الثَّاني عشر الميلاديّ قد حَدَثَ في أعْقابِ زَوالِ الأزمَات المتتالية التي تعرَّضَت لها البلادُ والعاصِمَةُ بصفةٍ خاصَّة في أواسط القرن الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ. فقد اتَّضَحَ النِّظامُ الإداريّ للعاصِمَة ولسَائِر الإقليم بعد الإصْلاحات الإدارية التي أدْخَلَها نِظامُ بَدْر الجَمالي في العقد السَّابع لهذا القَرْنِ والتي قُسِّمت فيها مصر إداريًّا إلى أرْبَعِ ولايات رئيسة هي: قُوص والشَّرْقية والغَرْبية والإسْكَنْدَرية [٢] بالإضافة إلى القاهِرَة والفُسْطاط [٣] ممَّا تَطَلَّبَ إنْشَاء وَظَائف وُلاة لهذه الولايات السِّتّ كان يخرج لأصْحَابِها، الذين كانوا من أرْبابِ السُّيُوف، سِجِلٌّ من الخَلِيفَة.

وظَهَر دَوْرُ والي القاهرة في تَنْظيم مَواكِب الخَلِيفَة من خلال النُّصُوص التي أوْرَدَها ابنُ الطُّوَيْر ووَصَفَ فيها المواكِبَ العِظَام للدَّوْلَة الفاطِمية والتي اسْتَقَرَّ ترتيبُها في زَمَن خِلافَة الآمِر بأحْكَام الله مع مَطْلَعِ القَرْن السَّادس الهجريّ. فقد كان لوالي القاهرة مكانٌ في الموكب يَسِيرُ فيه [٤] ويتَولَّى مع صَاحِب الباب الوقوف على رأسِ الطُّرُق لمنع المارَّة في أيَّام جُلُوس الخَلِيفَة [٥] وكذلك ترتيب العَساكِر وحِراسَة الطُّرُق التي يستخدمها الخَلِيفَةُ في أيَّام الرُّكُوب [٦].

مُوَظَّفٌ آخَرٌ كانت اخْتِصاصاتُه مُشابِهَةً لصَاحِب الشُّرْطَة، إلاَّ أنَّه كان يُؤَدِّي

---

[١] القلقشندي: صبح ٣: ٤٨٣، وكذلك ١٠: ٣٤٢، ٤٢٣.

[٢] نفسه ٣: ٤٩٣-٤٩٤؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٣٣٦.

[٣] نفسه ٣: ٤٨٠.

[٤] نفسه ٣: ٤٨٠.

[٥] نفسه ٣: ٥٠٣.

[٦] ابن الطوير: نزهة المقلتين ٢٢١.

عَمَلَه فقط في أثناء اللَّيْل هو « صَاحِبُ العَسَس » أو « مُتَوَلِّي الطَّوْف لَيْلًا » وكانت صَلاحيَّاتُ هذا المُوَظَّف ، الذي كان يعمل تحت إشْراف الوالي ، تتضمَّن الإشراف على القَصْر الخِلاَفيّ[1] والقَبْض على السُّرَّاق[2] ، كما كان يَصْحَبُه دائمًا عَدَدٌ من السَّقَّائين والمَشَاعِلية والنجّارين والقَصَّارين والهدَّادين « خَوْفًا من أن يَحْدُث في القاهِرَة في اللَّيْل حَريقٌ فيتداركون إطْفاءَه »[3].

ولا يعني اخْتِفاءُ وَظيفَة « صَاحِب الشُّرْطَة » في أواخِر العَصْر الفاطِميّ أنَّ « الوالي » كان يقوم تمامًا بصلاحيات هذه الوظيفَة ، بل كان هناك موظَّفٌ آخَرُ لم يَرِد ذكره كثيرًا في المصادِر الفاطِمية يتولّى مُهِمَّة صَاحِب الشُّرْطَة هو « مُتَوَلِّي المَعُونَة » أو « والي المَعُونَة » . وقد مَيَّزَ كتابُ « تاريخ بطارِكة الكنيسة المصرية » المنسوب إلى ساويرس بن المُقَفَّع بين مُتَوَلِّي المَعُونَة بمصر (الفُسْطَاط) ومُتولِّي المَعُونَة بالقاهرة الذي كان يشبه أن يكون نائبًا للوالي[4]. وتبدو بعض صَلاحِيَّاته من الأمْر الذي أصدره له حُسَامُ الملك صَاحِب البابِ عندما تَحَوَّل الخليفَةُ الآمِر بأحكام الله إلى مَنْظَرَة اللُؤْلُؤَة واهتم بسَكَن الدُور المُطِلَّة على الخليج ، حيث أمَرَه بالكَشْفِ عن الأدُرّ المطلَّة على الخليج قِبْلي اللُّؤْلُؤَة وأن لا يُمْكِّن أحدًا من السَّكَن في شيءٍ منها إلاَّ مَنْ كان له مِلْكٌ كنوع من الإجْراءات الأمنية ليقيم بها حواشي الخَليفَة لحراسته[5]. والمرَّةُ الوحيدةُ التي صادَفَني فيها وُرُودُ اسْم « مُتَوَلِّي المَعُونَة » في وَثيقَةٍ رسمية هي أمْرُ الخَلَيفة الآمِر للأمير مُتَوَلِّي المَعُونَة بمصر بقِراءَة سِجِلِّ التعزية في وَفاة الوزير الأفْضَل بن بَدْر الجمالي على مِنْبَر الجامِع العَتيق بمصر[6].

---

[1] المقريزي : المواعظ ٣: ١٠٧.

[2] المسبحي : أخبار مصر ٩٧.

[3] المقريزي : المواعظ ٣: ٣٤٢.

[4] ساويرس بن المقفع : تاريخ بطاركة الكنيسة ٣:٣، ٢١، ٢٢.

[5] ابن المأمون : أخبار مصر ١٨، ٩٩.

[6] نفســه ١٨-١٩.

وللأسَف لا تتوَافَر لدينا معلوماتٌ دقيقةٌ عن الكيفية التي كان يُديرُ بها الوالي القاهرة أو الفُسْطاط على السَّواء. ولكن من حُسْن الحظ أنَّ القَلْقَشَنْديّ حَفِظَ لنا في «صُبْح الأعْشَى» نَصَّ سِجلٍّ خاصٍّ بوِلاية القاهِرَة صَادِر في نهاية الدَّوْلَة الفاطمية يحدِّدُ فيه الخَليفَة، وهو في الغالب الخَليفَة الفائِز أو الخَليفَة العاضِد، مكانَة مَدينَة القاهرة ومَهامّ الوالي ومسؤولياته. يَصِفُ فيه مكانة المدينة بقوله:

«واعْلَم أنَّ هذه المَدينَة هي التي أُسِّس على التَّقْوىٰ بُنْيانُها، ولها الفَضيلَةُ التي ظهرَ دليلُها ووَضَح برهانُها؛ لأنَّها خُصَّت بفَخْرٍ لا يُدْرَك شَأْوُه ولا تُدْرَك آمادُه، وذلك أنَّ منابِرَهَا لم يُذْكَر عليها إلاَّ أئمةُ الهُدَىٰ آباءُ أمير المؤمنين وأجْدَادُه، ثم إنَّها الحَرَمُ الذي أضْحَى تقديسُه أمْرًا حتمًا، وظَلَّ ساكنُه لا يخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْمًا، وغَدَت النَّعْمَةُ به متمَّمةً مكمَّلة»[١].

ثم يُحدِّد وظيفة الوالي ومسؤولياته بقوله:

«فاشْمَل كافَّة الرعايا بها بالصِّيانة والعِناية، وعُمَّهم بتامِّ الحِفْظ والرِّعاية وابسُط عليهم ظِلَّ العَدْل والأمَنة، وسِرْ فيهم بالسيرة العادلة الحَسَنة، وساوِ في الحقِّ بين الضعيف والقويّ، والرَّشيد والغَويّ، والمِلِّيّ والذِّميّ، والفقيرِ والغَنيّ، واعتمدْ مَنْ فيها من الأمراء والمميَّزين، والأعيان المقدَّمين والشُّهُود المعدَّلين، والأماثل من الأجناد، وأرباب الخِدَم من القوّاد بالإعْزاز والإكْرام، وبَلِّغهم نهاية المُراد والمَرَام، وأقِمْ حُدُودَ الله على من وَجَبَت عليه بمقتضى الكتاب الكريم وسُنَّة محمدٍ عليه أفضل الصلاة والتَّسْليم، وتفقَّد أمُورَ المتعيِّشين، وامْنَعْ من البَخْسِ في المكاييل والموازين، وحَذِّر من فسادِ مُدْخَلٍ على المطاعم والمَشَارب وانْتَهِج في ذلك سبيلَ الحق وطريقَ الواجب، واحْظَر أن يخْلُو رجلٌ بامرأةٍ ليست له بمَحْرَم، وافعَل في تَنْظِيف الجوامع والمَسَاجد وتنْزيهها عن الابتذال بما تُعَزُّ به

---

[١] القلقشندي: صبح ١٠: ٣٤١- ٣٤٢.

وتُكْرم، واشدُد من أعْوانِ الحُكْم في قَوْد أبَاة الخصوم .... وأوْعِز إلى المستخْدَمين بحِفْظ الشَّارع والحَارَات، وحراستها في جميع الأزْمنة والأوقات، وواصل التَّطْواف في كلّ ليلةٍ بنفسك في أوْفَىٰ عِدَّة وأظهر عُدَّة ... وطالِع مَجْلِس النَّظَر الأجَليّ المَلَكيّ بما تحتاج إلى علمه»[١].

وحَسَب ما وَرَدَ في هذا السِّجلّ نجد أنَّ والي القاهرة كان يَجْمع وَظائف الحِسْبَة والشُرْطَة بالإضَافَة إلى مهامِّه الإدارية والتي تَشْمَل في الأساس تنفيذ أوامِر الخَلِيفَة والمحافظة على الأمْنِ والنِّظام، والنَّظَر في قضايا العُقُوبات والإجْرام وتولِّي تنفيذ الأحْكام كالسِّجْن أو التَّحْذير أو الجَلْد، بالإضافة إلى قِيادَة مَواكِب الخَلِيفَة في أيَّام الرُّكوب والمواسِم والتي أتى على تفصيلها ابنُ الطُّوَيْر.

ومن ناحيةٍ أخرىٰ فقد حَفِظَ لنا القَلْقَشَنْديُّ نَصَّ ثلاثةِ سِجلاَّتٍ أخرىٰ خاصَّة بتولِية والي الفُسْطاط، صادِرَة جميعُها أيضًا في نهاية العصر الفاطِميّ، يحدِّد فيها الخَلِيفَةُ مكانَة الفُسْطاط بأنَّها:

«المجاوِرَةُ لمحلّ الخِلافَة، وكلُّ مصْرٍ بالنسبة إليها معها بالإضافَة، وهي خِطَّة النِّيل وفُرْضة المَنِيل ... ولا يؤهَّل لولايتها إلاَّ كلّ حاملٍ لعِبْئها الثَّقيل، ولا تُسْنَد الخِدْمَةُ فيها إلاَّ لكلِّ مثْرٍ من ذَخائِر السِّياسَة غير فقير ولا مُقِل»[٢] وأنها «من أنْفسِ الولايات محلًا، وأثْبتِها على غيرها فَضْلًا، بمجاوَرتها للمَقام الكريم، وحُصُولها من اسْتِقْلال الرِّكاب الشَّريف إليها على الشَّرَفِ العظيم، واختِصاصِها في مَجَال الخِلافَة بما جَمَع لها بين الفَخْرين الحادث والقديم، وأوْجَب لها على غيرها من البِلادِ مزيَّةً ظاهرةَ التكريم والتقديم ....»[٣].

---

[١] القلقشندي: صبح ١٠: ٣٤٢.

[٢] نفســه ١٠: ٣٤٨.

[٣] نفســه ١٠: ٣٦٥.

كذلك حَدَّدَ الخَليفَةُ في كلٍّ هذه السِّجِلاَّت الثلاثة وَضْعَ أهْلِ الفُسْطاط وطَبَقتهم فقال إنَّها مَدينَة «الفُقَهَاء والأتْقِيَاء والقُرَّاء والعُلَماء» [١]، «والتُّجَّار الذين هم عَيْنُ الحَلال والحَرام والرَّعِيَّة الذين هم قِوامُ العَيْش في الأيام» [٢].

وبعد ذلك يوجِّهُ الخَليفَةُ الوالي إلى اتِّباع السِّياسةِ نفسها التي يقوم بها والي القاهرة من حيث الإشْراف على النِّظام والأمْن والقِيام بواجب المُحْتَسِب. وتبعًا لهذه السِّجِلات فقد كان والي الفُسْطاط يتولَّى بالإضَافَةِ إلى عمله وِلاية الصِّناعتين [٣].

وأوَّلُ ما يقابلنا ذِكْر اسْم والٍ للقاهِرَة في المصادر الفاطِمية في أثناء حوادث سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م كما يرويها لنا ابنُ مُيَسَّر وذلك عندما ذَكَرَ ذَخِيرَة المُلْك جَعْفَر ابنِ عُلْوان الذي عاقَبَ في هذه السنة عَددًا من العامَّة لسَبِّهم الصَّحابةَ في يوم عاشُوراء عند مَشْهَدِ السَّيِّدَة نَفيسَة [٤]. وقد ظَلَّ ذَخِيرَةُ المُلْك واليًا للقاهِرَة حتَّى وزارة المأمُون البطائحيّ، وهذا الوالي هو وسَعْدُ الدَّوْلَة الأَحْدَب، الذي كان واليًا للقاهرة في زَمَنِ الآمِر، الاسْمان الوَحِيدان اللذان حَفِظتهما لنا المصادِرُ الفاطمية [٥].

وعندما تَوَلَّىٰ الوَزيرُ شَاوَر الوزَارَة للخَليفَة العاضِد للمَرَّة الثَّانية بعد انتصاره على ضِرْغام في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٣م عيَّنَ الخَليفةُ ابنه الكامِل شُجَاعًا نائبًا لأبيه في الوزَارة كما عَهَدَ إليه في سِجلّ توليته بالإشْرافِ على مَدينَة القاهرة لتأمينها من الفَوْضَىٰ التي أحاقَت بها على أيْدي حامية الفِرنْج (التي تركها عَمُوري الأوَّل ملك

---

[١] القلقشندي: صبح ١٠: ٣٦٦.

[٢] نفسه ١٠: ٣٥١، ٤٢٣.

[٣] نفسه ١٠: ٤٢٣.

[٤] ابن ميسر: أخبار مصر ٦٥؛ ابن المأمون: أخبار مصر ٤٥.

[٥] المقريزي: المواعظ ٣: ٣٨٠.

بَيْت المَقْدِس) وبسبب انْتِقالِ أهْل الفُسْطاط إليها بعد حَريق مَدينتهم [١].

وقد أدَّت العنايةُ بتَعْمير البَرِّ الغَرْبي لخليج القاهِرَة منذ بداية القرن السّادس الهجريّ إلى ضَرُورَة تعيين والٍ خاصٍّ بجامَكِيَّة لهذا الجانِب وإن لم تُحَدِّثنا المصادِرُ عن طَبيعَة دَوْر هذا الوالي [٢].

ولعلَّ من أهَمِّ الواجبات التي أُسْنِدَت إلى واليي القاهرة والفُسْطاط الأمْرُ الذي أصْدَرَهُ إليهما الوزيرُ المأمونُ البطائحيّ سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م وأمَرَهُما فيه « أنْ يُسَقِّعا له شارعًا شارعًا وحارةً حارةً بأسْماء مَنْ فيها من السُّكّان وأنْ لا يمكِّنا أحدًا من الانتقال من منْزلٍ إلى مَنزلٍ إلى أنْ يخرج أمْرُهُ بما يعهداه فيه » . لم يكن هذا التَّكْليفُ بغَرَضِ إحْصَاءِ السُّكَّان وإنَّما خَوْفًا من الفِرْقَة الحَشِيشِيَّة. فقد كانت الأماكِنُ الشَّاغرة تمثِّل تهديدًا للدَّوْلَة وعلى ذلك أصْبَحَت المباني أماكِنَ ممنوعةً ولابد من إرْسَالِ تقريرٍ عنها إلى السُّلْطات. وعندما وصَلَت إليه أوراقُ التَّسْقيع وفيها أسماءُ أهْل مصر والقاهرة وكُنَاهُم وأحوالُهم ومعايشُهم ومَنْ يَصِلُ إلى كُلِّ ساكِنٍ من سُكَّان الحارات من الغُرَباء، أرْسَلَ المأمونُ من قِبَله نساءً يَدْخُلْن هذه المساكن ويتعرَّفن أحْوالَ سكَّانها الدَّاخلية ولمعرفة إذا كان هناك غُرَبَاء يقيمون في البلدين بحيث أصبح لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أمرهما [٣].

وكان لكلِّ قطاعٍ سَكَنيّ أو حارَة في العاصمة (القاهرة والفُسْطاط) مُشْرِفٌ خاصٌّ بها يُسَمَّىٰ « صَاحِب الرُّبْع » [٤]. كان هذا المُوَظَّف هو وأعْوَانُه أوَّلَ من يتحرَّكون عندما يُهَدَّد النظامُ العام. وكان من اختِصاصاتِه جَمْعُ سُكَّان الحارة وقيادَتهم للقاء الخَلِيفَة عندما يَدْخُلُ في مَوْكِبٍ عام إلى المَدينَة [٥].

---

[١] القلقشندي: صبح ١٠: ٣١٨ـ٣٢٥.

[٢] نفسه ٣: ٣٥٨؛ المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ٤٣.

[٣] ابن ميسر: أخبار ٩٨.

[٤] القلقشندي: صبح ١٠: ٣٥١.

[٥] S. D. GOITEIN, *op. cit.*, II, p.369.

ونَعْرِفُ عن طريق أوْرَاقِ الجِنيزَة أنَّ مَصاريفَ تكاليف العناية بالشَّوَارع كانت واجبةً على المباني التي تحدُّها . وكانت عملية الإصْلاحِ تتمّ تحت إشْرَافِ صَاحِب الرَّبْع أو المُلاّك أنفسهم [١].

ثانيًا : المحْتَسِب والقاضي

وإذا جازَ لنا أنْ نعتبر الوالي وصَاحِب الشُّرْطَة موظَّفَيْن مدنيين ، لأنَّ واجباتهما لم تكن مرتبطةً بالمسائل الدِّينية ارتباطًا مباشرًا (فيما عدا إشرافهما على الحِسْبَة) ، فقد كان المُحْتَسِبُ على عكس ذلك موظَّفًا دينيًّا في الأساس مثله في ذلك مثل القاضي .

كانت الحياةُ في القاهرة طَوال العَصْر الفاطميّ ، أو على الأقلّ حتى نهاية القرن الخامس الهجريّ ، بسيطةً خاليةً من الأسْواق العامَّة تقريبًا بحيث إنَّها لم تتطَلَّب وُجُودَ مثل هذا الموظَّف ، بعكس الفُسْطاط المركز التجاريّ والاقتصاديّ الكبير العامِرة بالأسْواق والبَضائِع ممَّا جعلَ وُجُودَ المُحْتسِب أمْرًا ضروريًّا للإشْراف على الأسْواق ومراقبة الأسْعار .

كانت مهامُ المحْتَسِب متنوّعة وتتراوحُ بين الإشْراف على التِّجَارَة والصِّناعة إلى تَطْبِيق الشَّرِيعَة والأمْر بالمعروف والنَّهْي عن المُنْكَر [٢]. وكان سِجِلُّه يُقْرأ بمصر والقاهرة على المِنْبَر ، وكان له أعْوانٌ في القاهرة والفُسْطاط وسائر الأعمال كنُوَّاب الحُكْم . وكان من العَوَائِد في الدَّوْلَة الفاطمية ، دون شك قرب نهايتها ، أنْ يجلس بالجامع الأزْهَر وجَامِع عَمْرو يومًا بعد يوم [٣]. وكان المحْتَسِبُ يتقاضى مُرَتَّبًا شهريًا قدره ثلاثون دينارًا [٤].

---

[١] S. D. Goitein, *op.cit.*, IV, p.40.

[٢] القلقشندي : صبح ١٠: ٤٦١.

[٣] نفسه ٣: ٤٨٣؛ المقريزي : المواعظ ٢: ٥١٦.

[٤] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١١٧.

ولا نستطيع أن نَعْرِفَ بدقّةٍ إذا كان المُحْتَسِبُ مُوَظَّفًا حكوميًا بمعنى الكلمة كما يبدو ذلك واضحًا من كتب الحِسْبة التي كُتِبَت ابتداء من بداية العَصْر الأيوبيّ ، أو كان رئيسًا لطائفة حِرَفية ، فمعلوماتُنا عن العُصُور الإسْلامية الأولىٰ لا تفيدنا في التعرُّف على نشأة أية تجمُّعات خاصَّة ذات دور حِرَفيّ . ولكننا نجد في كتاب « إغاثة الأمّة » للمَقْريزي نصًّا يحوي سلسلةً من الإشارات الدَّقِيقَة عن الحياة الاقتصادية في مصر في منتصف القرن الخامس الهجريّ وعن ذِكْر الأسْواق والطَّوائف والعُرَفاء والحِسْبة .

يُشِيرُ هذا النَّصُّ بوضوحٍ إلى أنّه كان لكلِّ سُوقٍ من أسْواقِ الفُسْطاط فيما يخصّ إشرافه الدَّاخليّ إلى جانب المُحْتَسب وأعْوانه ، الذين يمثّلون في الحقيقة الحكومة الفاطمية ، رَئيسٌ مفوَّضٌ عنه في الاتّصالِ بالحكومة يُعْرَف بالعَرِيف [1] ، وكذلك كان لكلِّ طائفةٍ رئيسٌ مماثلٌ فابن المأمون يحدِّثنا عن عُرَفَاء السَّقَّائين [2] .

أمَّا القاضي فقد كان موظَّفًا دينيًا أصْلًا ، وكان واجبه الأوَّل إقامة العَدْلِ على أسَاسِ الشَّريعَة ، ومن ثم فقد كان من الضَّروري أن يكون ضَليعًا في الفِقْه خبيرًا بأحكامه . يقول ابنُ الطُّوير : « لا يتقدَّم عليه أحَدٌ أو يحتمي عليه ، وله النَّظَرُ في الأحْكام الشَّرعية ودور الضَّرْب وضَبْط عيارها » [3] ، وإذا كان وزير الدولة صاحب سيف كان تقليدُه من قِبَله نيابةً عنه ، وإنْ لم يكن كان تقليده من الخَلِيفَة وكان له نُوّابٌ ينوبون عنه في سائر الإقْليم يُعْرَفُون بنوّاب الحُكْم ، وكان لا يعدِّل شاهدًا إلاّ بأمْرِ الخَلِيفَة .

وكان القاضي يجلس يوم الاثنين والخميس بالقَصْرِ بالقاهرة ، ويجلس يوميّ السَّبْت والثُّلاثاء بزِيَادَة الجامع العَتِيق بمصر .

---

[1] المقريزي : إغاثة الأمة ١٨ـ١٩، المقفى الكبير ٣ : ٣٨٤.

[2] ابن المأمون : أخبار مصر ٦٩ـ ٧٠.

[3] ابن الطوير : نزهة المقلتين ١٠٧ـ١٠٩.

وكان أَهَمُّ اختصاصاته مُصَاحَبَة الخَلِيفَة في المواكب العظام والوُقُوف بجانبه عند صَلاةِ الجُمُعة أو صلاة العيدين وهو الذي يَضَع النَّصْل في نَحْر الضَّحِيَّة في عيد النَّحْر نِيابَةً عن الخَلِيفَة ، كما كان من اخْتِصاصاته كذلك الصَّلاة على الجَنَائِز وكان يتقاضى راتبًا قدره مائة دينار في الشهر .

الفصل الثالث

قاهرة الأيوبيين

شهدت السَّنَوَاتُ الأرْبَعُون الأخِيرَة في عُمْرِ الدَّوْلَة الفَاطِمِيَّة في مِصْر تَطَوُّرَات خَطِيرَة مُتتالية أدَّت إلى تَدَهْوُرِها وعَجَّلَت بسُقُوطِها. فقد انْحَصَرَ نُفُوذُ الخِلافَةِ الفاطِمِيَّة نِهائيًا، بعد الانْقِسَام الذي أعْقَبَ مَقْتَلَ الإمَام (الخَلِيفَة) الآمِر بأحْكام الله سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، دَاخِل حُدُودِ مِصْر وانْفَصَلَ عنها بَقِيَّةُ أتْبَاعِها الذين لم يَعْتَرِفُوا بأحَقِّيَّة الحَافِظ لدين الله وخُلَفَائِه في الإمَامَة. وبذلك حَكَمَ الخُلَفَاءُ الأرْبَعَةُ الأوَاخِرُ في القَاهِرَة كأُسْرَةٍ حَاكمةٍ مصريةٍ محليَّةٍ بلا سُلْطَةٍ أو نُفُوذٍ أو أمَل، ولم تَجْرِ أيَّةُ مُحَاوَلَةٍ لِمَدِّ نُفُوذِ الفَاطِمِيين خَارِجَ الحُدُودِ المِصريَّة، إذا اسْتَثْنَيْنا مُحَاوَلَة الخَلِيفَة الحَافِظ نَشْرَ دَعْوَتِه لَدَى الزُّرَيْعِيين - حُكَّام عَدَن - الذين أجَابُوهُ إليها، وكان هَدَفُهُ من ذلك ضَمَانَ السَّيْطَرَة على طُرُقِ التِّجَارَة المُؤَدِّية إلى الهِنْد.

وتَوَلَّى الوَزَارَة الفَاطِمِيَّة خِلال هذه الفَتْرَة عَدَدٌ من الوُزَرَاء السُّنِّيين كان أوَّلَهم رِضْوَانُ بن وَلَخْشِي الذي بَدَأ معه تَحَوُّلٌ سُنِّيٌّ بَطِيءٌ قادَ إلى انْتِصَارِ السُّنَّة النِّهائي في مِصْر باسْتِيلاء صَلاحِ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب على مَقَالِيد السُّلْطَة كوزيرٍ للفَاطِمِيين قادَ انْقِلابًا سَلْمِيًّا نَاجِحًا أعَادَ فيه مِصْرَ إلى مَجْمُوعِ الدُّوَلِ السُّنِّيَّة التي تَخْطُبُ للخَلِيفَة العَبَّاسيّ في بَغْدَاد.

انْقِلابُ صَلاح الدِّين

وبتَوَلِّي صَلاح الدِّين الوَزَارَة في جُمادَىٰ الآخرة سنة ٥٦٤هـ/ مارس سنة ١١٦٩م وَصَلَ المَدُّ السُّنِّي الذي بَدَأهُ السَّلاجِقَةُ قَبْل نحو مائة عام وأكمَلَهُ وَرَثَتُهُم الزَّنْكِيُّون والنُّورِيُّون إلى مصر.

بدأ صَلاحُ الدِّين في أوَاخِر عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م في اتِّخاذِ خُطُوات حاسِمَةٍ ضِدّ المُؤَسَّسَة الفَاطِمِية لإضْعَافِ المَذْهَبِ الإسْماعيليّ وتَقْوِيَة المَذْهَب السُّنِّيّ في مصر، فأبْطَلَ من الأذَان «حَيَّ على خَيْرِ العَمَل» ـ أحَدَ مُمَيِّزات الأذَان عند الشِّيعَة ـ وأمَرَ أنْ يُذْكر في خُطْبَة الجُمُعَة الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُون، ونَزَعَ المَنَاطِق الفِضَّة التي كانت بمَحَارِيب جَوَامِع القَاهِرَة وتَحْمِلُ أسْمَاءَ الخُلَفَاء الفَاطِمِيين.

وفي خِلالِ عام ٥٦٦هـ/١١٧٠ـ١١٧١م تَبَنَّى صَلاحُ الدِّين خِطَّةً لتَحْويل بعض دُور فُسْطَاط مصر إلى مَدَارِس لتَدْرِيس الفِقْه على المَذَاهِب السُّنِّيَّة الأرْبَعَة: فهَدَمَ دَارَ المَعُونَة المُجاوِرَة للجَامِع العَتِيق وبَنَاهَا مَدْرَسَةً للشَّافِعِيَّة، وعَمَّرَ دَارَ الغَزْلِ المُجاوِرَة لبابِ الجَامِع العَتِيق مَدْرَسَةً للمَالِكِيَّة عُرِفَت بالمَدْرَسَة القَمْحِيَّة، واشْتَرَىٰ ابنُ أخِيه تَقِيُّ الدِّين عُمَر بن شَاهِنْشَاه مَنَازِلَ العِزّ بالفُسْطاط وجَعَلَها مَدْرَسَةً للشَّافِعِيَّة عُرِفَت بالمَدْرَسَة التَّقَوِيَّة، وحَوَّلَ صَلاحُ الدِّين دَارَ سَعِيدِ السُّعَدَاء الوَاقِعَة بالقَاهِرَة شَمَالي القَصْرِ الفَاطِمِيّ الشَّرْقِيّ خانْقاهًا للصُّوفِيَّة. وفي الوَقْتِ نفسه أبْطَلَ صَلاحُ الدِّين «مَجَالِسَ الدَّعْوَة» من القَصْر والجَامِع الأزْهَر، وعَزَلَ جَمِيعَ القُضَاة الإسْماعيليين وفَوَّضَ قَضَاءَ مصر في ٢٢ جُمَادَىٰ الآخرة سنة ٥٦٦هـ/ ٢ مارس ١١٧١م إلى القَاضي عبد الملك بن عيسىٰ بن دِرْبَاس المارَانيّ الشَّافِعِيّ، فاشْتَهَرَ من حينئذٍ المَذْهَبُ الشَّافِعِيّ في مصر، كما جَعَلَ القَاضي الفَاضِل عبد الرَّحيم بن عليّ البَيْساني رَئيسًا لدِيوَانِ الإنْشَاء، فضَمِنَ بذلك سَيْطَرَتَه على النَّوَاحي الدِّينية ومُرَاسَلات الدَّوْلَة.

وصَحِبَ تَحَوُّلَ مصر إلى المَذْهَبِ السُّنِّيِّ في الفُرُوع وبِدَايَة انْتِشَار المَدَارِس نَشْرُ المَذْهَب الأشْعَرِيّ في الأصُول ، فقد كان صَلاحُ الدِّين وجَمِيعُ وَرَثَة السَّلاجِقَة يَتَعَصَّبُون لِمَذْهَب الأشْعَرِيّ في الأصُول ، وهو المَذْهَبُ الذي تَوَلَّاهُ السَّلاجِقَةُ من قَبْل في مُوَاجَهَة مَذْهَبِ المُعْتَزِلَة العَقْلِيّ وأنشأوا له المَدَارِسَ لِيُحَارِبُوا من خلالها كذلك مَذَاهِبَ الفَاطِمِيين الشِّيعَة . وفي الوَقْتِ نفسه أقَرَّ صَلاحُ الدِّين ما أشَارَ عليه به القَاضي الفَاضِل بعَدَمِ اسْتِخْدَام النَّصَارَىٰ نُظَّارًا على أمْوَال الدَّوْلَة ولا مُشَارِفِين .

هكذا ، ومع نِهاية عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م ، أتَمَّ صَلاحُ الدِّين سِلْسِلَةً من الإجْرَاءات الضَّرُورِيَّة في مُوَاجَهَة المُؤَسَّسَة الفَاطِمِيَّة عَجَّلَت بالخُطْوَة الحَاسِمَة وهي القَضَاء على الخِلافَة الفَاطِمِيَّة وإقامَة الخُطْبَة للعَبَّاسِيين من على مَنَابِر مصر ، حيث أمَرَ الخُطَبَاءَ في السَّابع من المحرَّم سنة ٥٦٧هـ/ العاشِر من سبتمبر سنة ١١٧١م بإسْقَاطِ خُطْبَةِ الفَاطِميين والدَّعْوَة للخَلِيفَة العَبَّاسِي المُسْتضيءِ بالله وإعَادَة السَّوَاد شِعَار العَبَّاسِيين . وتَمَّ هذا التَّحَوُّلُ الخَطِيرُ في هُدُوءٍ تام « فلم يَنْتَطِح فيه عَنْزَان » كما يذكرُ ابنُ الأثير ، ذلك الهُدُوء الذي أعْلَنَ به القَائِدُ جَوْهَر من قَبْل قِيَامَ الخِلافَة الفَاطِمِيَّة في مصر قَبْل قَرْنَيْن ، فلم تَعْتَنِقْ غَالِبِيَّةُ الشَّعْب المصريّ إطْلاقًا المَذْهَبَ الإسْمَاعيليّ ولم يَعْتَنِقْهُ سوى العَنَاصِر التي تَعَاوَنَت مع الفَاطِمِيين مُمَثَّلَةً في الأقَلِّيَّات الأجْنَبِيَّة التي صَحِبَت الفَاطِميين أو اسْتَعَانُوا بها طَوَال فَتْرَة حُكْمِهم من أجْلِ تَحْقيق سياسَتهم ، هؤلاء فقط الذين نَسْتَطِيعُ القَوْلَ بأنَّهُم اعْتَنَقُوا المَذْهَبَ الإسْماعيليّ في مصر .

دَوْلَةُ صَلاحِ الدِّين

لم تَكد تمضي أيَّامٌ على قَطْعِ خُطْبَة الفَاطِمِيين إلَّا وقد تُوفِّي الخَلِيفَةُ العَاضِد ـ آخِرُ خُلفَاء الفَاطِمِيين ـ لَيْلَة عاشُورَاء سنة ٥٦٧هـ/ ١٢ سبتمبر سنة ١١٧١م. فأمَرَ صَلاحُ الدِّين بإنْشَاء الكُتُب إلى البلاد بوَفاةِ العَاضِد وإقامَة الخُطْبَة رَسْمِيًّا باسْم الخَلِيفَة المُسْتَضِيءُ بأمْر الله العَبَّاسيّ.

هكذا أصْبَحَ صَلاحُ الدِّين الحاكِمَ الفِعْليّ لمصر نائِبًا عن نُور الدِّين محمود صاحب الشَّام ودِيَار الجَزِيرَة ومصر، ثم جَاءَت وَفَاةُ نُور الدِّين في ١١ شوَّال سنة ٥٦٩هـ/ ١٥ مايو ١١٧٤م لتَفْتَحَ البابَ أمامَ طُمُوحات صلاح الدِّين في الانْفِرَاد بالسُّلْطَة في جَمِيع مُمْتَلكات نُور الدِّين، فاسْتَوْلَى على دِمَشْق والشَّام في جُمَادَىٰ الأولىٰ سنة ٥٧٠هـ/ أكتوبر سنة ١١٧٤م ودِيَار الجَزِيرَة في سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، وكان أخُوهُ شَمْسُ الدَّوْلَة تُورَانْشاه قد اسْتَوْلَى على اليَمَن في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م، فكَتَبَ صَلاحُ الدِّين إلى الخَلِيفَة العَبَّاسي المُسْتَضيء بأمْر الله طالِبًا تَقْلِيدَه مِصْر والشَّام واليمن وكلَّ ما يَفْتَحهُ بسَيْفه، فوَصَلَهُ وهو بحَمَاة التَّشْريفُ والأعْلامُ السُّود وتَوْقيعُ الخَلِيفَة العَبَّاسيّ له بسَلْطَنَة بلاد مِصْر والشَّام وغيرها في شَوَّال سنة ٥٧٠هـ/ مايو ١١٧٥م.

أسَّسَ صَلاحُ الدِّين أسْرَةً حاكمةً اشْتَمَلَت على مصر والشَّام واليمن ودِيَار بَكْر لم تَسْتَمِرّ طويلًا (ثمانين عَامًا) وكان نِظَامُ الحكْم في هذه الحِقْبَة أشْبَه بنِظَام حُكْم فِيدْرالي يَتْبَع فيه أفْرَادُ البَيْتِ الأيُّوبيّ في هذه الأقاليم السُّلْطانَ الأيُّوبيّ المُسْتَقِرّ سَوَاء في قَلْعَةِ الجَبَل أو قَلْعَةِ جَزِيرَة الرَّوْضَة بمصر.

وقامت الدَّوْلَةُ الأيُّوبِيَّةُ بدَوْرٍ مهمٍ في تَوْحيد الجَبْهَة الإسلامية ومُوَاجَهَة خَطَر الفِرِنْج الصَّليبيين، الأمْر الذي دَفَعَ صَلاحَ الدِّين إلى الإقامَة أكثر فَتَرَات حكمه

بالشّام لاسْتِعادَة المَنَاطِق التي احْتلَّها الفِرِنْجُ، فنَجَحَ في اسْتِرْدَاد بَيْت المَقْدِس سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ولم يُعاوِد الرُّجوعَ إلى مصر حتى تُوفّيَ في سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م[١].

القاهِرَةُ تَفْتَحُ أبْوَابَها

مع اسْتِيلاءِ الأيُّوبيين على السُّلْطَة بَدَأت العَنَاصِرُ التي أدَّت إلى تكوين شَكْلِ مَدِينَة القاهرة التَّارِيخِيَّة في الظُّهُور. فخَرَجَ مَرْكزُ الحُكْم من القاهِرَة إلى قَلْعَةِ الجَبَل التي انْتَقَلَ إليها نِهائِيًّا السُّلْطانُ الكامِلُ محمد سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، وإنْ اخْتَارَ خَلَفُه السُّلْطانُ الصَّالِحُ نَجْم الدِّين أيُّوب الإقامَة بالقَلْعَة التي أنْشَأها جَنُوبي جَزِيرَة الرَّوْضَة. ولكن مع انْتِقالِ السُّلْطَة إلى المماليك، في سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، عادَ سلاطِينُ المماليكُ للإقَامَة مَرَّةً أخْرىٰ في قَلْعَةِ الجَبَل التي ظَلَّت مركزًا للحُكْم حتى نهاية القَرْنِ التَّاسِع عَشْر للميلاد.

هكذا فَتَحَت القاهِرَةُ أبْوَابَها لاسْتِقْبالِ عَنَاصِرَ لم يكن يُسْمَحُ لها بدُخُولِ القاهِرَة والإقامَة فيها طَوَال العَصْرِ الفاطِمِي، يقولُ المَقْرِيزيّ:

«فلَمَّا زَالَت الدَّوْلَةُ الفاطِمِيَّة باسْتِيلاءِ السُّلْطان النَّاصِر صَلَّاح الدِّين يُوسُف ابن أيُّوب بن شَاذِى في سنة سَبْعٍ وستين وخَمْس مائة، نَقَلَها عمَّا كانت عليه

---

[١] أهَمّ مَصْدَرٍ لتاريخ الدَّوْلَة الأيُّوبيَّة كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وكتابُ ابن وَاصِل: مفرج الكروب في أخبار بني أيُّوب، ١-٥، تحقيق جمال الدِّين الشَّيال وحسنين محمد ربيع، القاهرة ١٩٥٣-١٩٧٧؛ وكتاب أبي شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ١-٢، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٣؛ وانظر كذلك من المراجع الحديثة، السَّيِّد الباز العريني: الأيُّوبيُّون، بيروت دار النهضة العربية ١٩٦٧م؛ أحمد فؤاد سيد، تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيُّوب، القاهرة - مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م؛ CL. CAHEN, *EI*[2] art. *Ayyûbides* I, pp.820-30.

من الصِّيَانَة وجَعَلَها مُبْتَذَلَةً وصَيَّرَها مَدِينَةً لسَكَنِ العامَّة والجُمْهُور ، وحَطَّ من مِقْدَار قُصُورِ الخِلافَة وأسْكَنَ في بعضِها وتَهَدَّمَ البَعْضُ الآخَر وأُزِيلَت مَعَالِمُه وتَغَيَّرَت مَعَاهِدُه فصَارَت خِطَطًا وحَارَات وشَوَارع ومَسَالِك وأزِقَّة »[١].

ويُضِيفُ المقريزيُّ في مَوْضِعٍ آخَر ذاكِرًا ما آل إليه القَصْرُ الفاطِمِيّ :

« وتَسَلَّمَ السُّلْطانُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب القَصْرَ بما فيه من الخَزَائِن والدَّواوين وغيرها من الأمْوَال والنَّفَائِس - وكانت عَظِيمَة الوَصْف - واسْتَعْرَضَ مَنْ فيه من الجَوَاري والعَبِيد ، فأطْلَقَ مَنْ كان حُرًّا ، ووَهَبَ واسْتَخْدَم باقيهم وأطْلَقَ البَيْعَ في كلِّ جَدِيدٍ وعَتِيق ، فاسْتَمَرَّ البَيْعُ فيما وُجِدَ بالقَصْر عَشْر سنين .

وأخْلَىٰ القُصُورَ من سُكَّانها وأغْلَقَ أبْوَابَها ثم مَلَّكَها أمَرَاءَه وضَرَبَ الألْوَاحَ على ما كان للخُلَفَاء وأتْباعهم من الدُّور والرِّباع ، وأقْطَعَ خَوَاصَّه منها وباعَ بَعْضَها ، ثم قَسَمَ القُصُور : فأعْطَى القَصْرَ الكبير للأمَرَاء فسَكنُوا فيه ، وأسْكَنَ أباه نَجْم الدِّين أيُّوب بن شادِي في قَصْر اللُّؤلُؤة على الخَلِيج ، وأخَذَ أصْحَابُه دُور مَنْ كان يَنْتَسِب إلى الدَّوْلَة الفاطمية ، فكان الرَّجُلُ إذا اسْتَحْسَنَ دَارًا أخْرَجَ سُكَّانها ونَزَلَ بها .

... وأخْلِيَت أمْكِنَةٌ من القَصْر الغَرْبي سَكَن بها الأمير مُوسَك والأمير أبو الهَيْجَاء السَّمِين وغيره من الغُزّ ، ومُلِئَت المَنَاظِر المصونة عن النَّوَاظِر والمُتَنَزَّهَات التي لم يَخْطُر ابْتِذالُها في الخَوَاطِر ، فسُبْحان مُظْهِر العَجَائِب ومُحْدِثها ووَارِث الأرْض ومُوَرِّثها »[٢].

هكذا فَقَدَت القاهِرَةُ مكانَتَها كمركزٍ للحُكم وأخَذَت الأنْشِطَةُ التجارية والحِرَفِيَّة تَتَسَرَّبُ إليها وتَنْتَشِرُ في مَوْضِع القُصُور الفاطمية حَوْلَ الشَّارع الأعْظَم أو قَصَبَة القاهرة . وتَحَوَّلَ مَرْكَزُ المَدِينَة القريب من الجامِع الأزْهَر إلى مَنْطِقَةٍ تجارية .

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢٢٣.
[٢] نفسه ٢: ٦٠٨- ٦٠٩.

وأدَّت التَّغْييراتُ الاجْتَماعِيَّة والاقْتِصادِيَّةُ التي شَهِدَتها القاهِرَة في العَصْرِ الأيُّوبي إلى إعادَة تَشْكيل النَّسِيج العُمْرَاني للمَدِينة ، فبَدَأت القاهِرَةُ في التَّعَرُّف على أنْماطٍ جِدِيدَةٍ من البِنَاء حَلَّ أغْلَبُها مَحَلَّ القُصُورِ الفاطمية في مَنْطِقَة بَيْنَ القَصْرَين مثل : المَدْرَسَة السُّيُوفِيَّة التي وَقَفَها صَلاحُ الدِّين على الحَنَفِيَّة ، ودَار الحَدِيث الكامِلِيَّة سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٣م ، والمَدَارِس الصَّالِحِيَّة سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م وأخِيرًا قُبَّة الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م ، وهي أوَّل قُبَّة دَفْن مُلْحَقَة بمؤسَّسَة دينية تُنْشَأ في القاهِرَة أصْبَحَت الأنْمُوذَج الذي تَبَنَّتْه بعد ذلك الكثيرُ من المؤسَّسَات الدِّينية في العَصْر المملوكي .

وتَعْكسُ المؤشِّرَاتُ الخاصَّة بعَدَد المُنْشآت الدِّينية التي أقِيمَت دَاخِل حُدُود القاهرة الفَاطمية نُمُوًّا مكثَّفًا ومُسْتَمِرًّا في العَصْرين الأيُّوبي والمملوكي . فلم يَبْدَأ التَّحَوُّل الكبير للمَدِينَة الفاطِمِيَّة إلَّا في خِلالِ العَصْرِ الأيُّوبي بعد انْتِقالِ مَقَرّ القُوَىٰ السِّياسية والعَسْكرِيَّة إلى قَلْعَة الجَبَل تاركًا بذلك المرْكَز القديم للفاطِميين مُتاحًا للتَّنْمِيَة الاقْتِصادية ولإقامَة الصَّفْوَة الأيُّوبية ثم المملوكية ومجموع المَواطِنين ، بحيث شُيِّدَ في هذه المنطقة بين سنتيّ ٦٢٢-٨٤٣هـ/١٢٢٧-١٤٣٩م (العام الذي أتَمَّ فيه المَقْريزي كتاب الخِطَط) ثَلاثَةٌ وأربعون مَسْجِدًا ، بينها ثمانية أنْشِئَت في أثناء السَّلْطَنَة الثَّالِثة للنَّاصِر محمد بن قلاوون .

والأكثر إثارَةً في هذه التَّنْمِيَة الجديدَة هو تَحَوُّل مَنْطِقَة بَيْنَ القَصْرَيْن إلى طريقٍ رَائِع تُحِيطُ به عَمَائِرُ شَاهِقَة : دارُ الحَدِيث الكاملية والمَدَارِسُ الصَّالِحِيَّة وقُبَّةُ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب والمَدْرَسَةُ الظَّاهرية بَيْبَرْس ومجموعةُ قَلاوون (قُبَّة ومَدْرَسَة ومارِسْتان) ومَدْرَسَةُ النَّاصِر محمد بن قلاوون والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرية الجَدِيدَة وقَصْرُ بَشْتاك .

واسْتَمَرَّ بِنَاءُ المُنْشآت الدِّينية في جَمِيع حُدُود المَدِينَة الفاطِمِيَّة كما امْتَدَّ العُمْرَانُ إلى المَنْطِقَة الواقِعَة جنوبيّ القاهِرَة خارج باب زَوِيلَة ، وهذا الامْتِدادُ هو المَدْخَلُ

الرَّئيس للحَديث عن التَّاريخ العُمْرَاني للقاهِرَة بَعْد العَصْر الفاطمي وحتى أثْنَاء العَصْر العُثْماني والذي جاءَ نَتِيجَةً طَبِيعِيَّةً لبناء صَلاح الدِّين لقَلْعَة الجَبَل التي أتاحَت مِسَاحَةً كبيرةً للامْتِدَاد العُمْراني بين القاهرة الفاطمية ومركز الحُكْم الجَدِيد، كما شَهِدَت نُمُوًّا ديمُوجْرافيًا كبيرًا اسْتَمَرَّ حتى العَصْر العُثْماني.

تَحْصِينُ العَاصِمَة

كانت حِمَايَةُ القاهِرَة ومصر الفُسْطَاطَ وجَمْعُهُما مَعًا إضَافَةً إلى قَلْعَةِ الجَبَل أحَدَ أهَمِّ المَشْرُوعَات الدِّفاعِيَّة التي اضْطَلَعَ بها صَلاحُ الدِّين. ورأى أنْ يُدِيرَ عليهم جَمِيعًا سُورًا وَاحِدًا من الشَّاطئ إلى الشَّاطئ. ويُقَدِّمُ لنا المُؤَرِّخُ أبو شَامَة المَقْدِسيّ، نَقْلًا عن العِمَاد الكاتِب الأصْفَهاني، وَصْفًا دَقِيقًا للمَشْرُوع الذي أرَادَهُ صَلاحُ الدِّين والذي لم يُقَدَّر له أنْ يتمّ على الصُّورَة التي أرَادَها له. كان غَرَضُ هذا المَشْرُوع أنْ يَجْمَعَ في نِطاقٍ وَاحِدٍ القاهِرَة والفُسْطاط والمَنْطِقَة الوَاسِعَة التي تَفْصِلُهُما إضَافَةً إلى قَلْعَةِ الجَبَل التي كانت ستُكَوِّن رأسَ المُثَلَّث الذي تَرْتَكِزُ قاعِدَتُه عند المَقْسِ على شاطئ النِّيل شَمَالًا (مَيْدَان رَمْسيس الآن) وبَابِ القَنْطَرَة على شاطئ النِّيل جَنُوبًا (جَنُوب مصر القديمة الآن).

بَدَأ صَلاحُ الدِّين في تَنْفِيذِ هذا المَشْرُوع في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، وهو مازَالَ وَزِيرًا للفاطِميين، ولمَّا اسْتَقَلَّ بحُكْم مصر بعد الانْقِلابِ الذي أطاحَ فيه بالخِلافَة الفاطِميةَ انْتَدَبَ الطَّوَاشي بَهَاءَ الدِّين قَرَاقُوش الأسَدِيّ، في سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م، لعَمَلِ السُّورِ بقَصْدِ أنْ يُحيطَ بالقاهِرَة ومصر والقَلْعَة (التي كانت في طَوْرِ الإنْشَاء)، فزَادَ في سُورِ القاهِرَة ـ الذي شَيَّدَهُ بَدْرُ الجَمَاليّ ـ القِطْعَة التي من بَابِ القَنْطَرَة إلى بَابِ الشَّعْرِيَّة ومن بَابِ الشَّعْرِيَّة إلى بَابِ البَحْر، وبَنَىٰ قَلْعَة

المَقْس ، وهي بُرْجٌ كبيرٌ ، على شاطئ النِّيل بجانب جَامِع المَقْس (مكان جَامِع الفَتْح بمَيْدَان رَمْسِيس الآن) ، وزَادَ في سُورِ القَاهِرَة الشَّمالي قِطْعَةً ممّا يَلِي بَابِ النَّصْر إلى بُرْجِ الظَّفَر ومنه جَنُوبًا إلى بَابِ البَرْقِيَّة وإلى دَرْبِ بَطُّوط وإلى خَارج بابِ الوَزِير ليَتَّصِلَ بسُورِ قَلْعَةِ الجبَل ، ولكنَّ وَفَاةَ صَلاحِ الدِّين قَبْل إتْمام البِنَاء جَعَلَتْهُ يَنْقَطِعُ من مَكانٍ يَقْرُبُ من الصُّوَّة (بين القَلْعَة وجَامِع الرِّفاعي الحالي ويتوسَّطها سِكَّةُ المحْجَر ودَرْبُ المارِسْتان) . يقول المَقْريزيُّ : « وإلى الآن آثَارُ الجُدُرِ ظَاهِرَةٌ لمن تأمَّلَها فيما بين آخِرِ السُّور إلى جِهَة القَلْعَة » ، كما لم يَتَهَيَّأ له أنْ يَصِلَ سُورَ قَلْعَةِ الجبَل بسُور مصر [١] .

كان مُخَطَّطًا أنْ يكون طُولُ هذا السُّور ٢٩٣٠٢ ذِرَاعًا (١٠٥٠٠ ذِرَاعًا من قَلْعَة المَقْس إلى البُرْج بالكُوم الأحْمَر على شاطئ النِّيل جَنُوبًا ، و ٨٣٩٢ ذِرَاعًا من قَلْعَة المَقْس إلى حَائِط قَلْعَةِ الجبَل ، و ٧٢٠٠ ذِرَاعًا من حائِط قَلْعَة الجبَل إلى البُرْج بالكُوم الأحْمَر ، ودَائِر القَلْعَة ٣٢١٠ ذِرَاعًا بالذِّرَاع الهاشِمِي)[٢] .

رَغْمَ أنَّ الهَدَفَ من بِنَاء سُور صَلاح الدِّين هو الإحَاطَة بمَدينتيِ القاهِرَة والفُسْطَاط ، فقد ظَلَّت المَدِينَتان تُكوِّنان كيانَيْنِ مُنفَصِلَيْن ، واسْتَمَرَّ الفَرْقُ بينهما حتَّى بعد انْقِضَاء سَبْعَة قُرُون على مَشْرُوعِ صَلاحِ الدِّين فقد تَطَوَّرَت كلٌّ من المدينتين بطريقَةٍ مُنْفَصِلَةٍ ومُتبايِنَة . ويُرَجِّحُ أندريه ريمون A. Raymond لذلك أنْ يكون الغَرَضُ من تَشْييد هذا السُّور غَرَضًا دِفاعِيًا في المقام الأوَّل يُعَزِّزُ مكانَةَ الحاكِم ، وإنْ كان مُتَجاوِزًا إلى حَدٍّ ما الاحْتياجات المُلِحَّة ، فعندما هَدَّدَت مصر بالفِعْل بعد قُرُونٍ قوىً خارجية مع العُثْمانِيين ثم مع الحَمْلَة الفرنسية كانت هذه الأسْوَارُ قد فَقَدَت مَنَاعَتَها وتَدَهْوَرَت بشِدَّة [٣] .

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢٦٤-٢٦٦.

[٢] أبو شامة : الروضتين ١: ٦٨٧-٦٨٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ١: ٥٢-٥٣ (عن العماد الأصفهاني) .

[٣] A. Raymond, *Le Caire*, p.97 ؛ وانظر كذلك N. Warner, «The Fatimid and

وزَادَت الأزْمَاتُ التي اجْتاحَت مصر عند نهاية القرن السَّادِس الهجري في تكريس هذا الانْفِصال. كان في مصر في هذا الوَقْت العالِمُ البَغْدادِيُّ المعروف مُوَفَّق الدِّين عبد اللَّطِيف بن يُوسُف بن محمد، المتوفَّىٰ سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م، وعَاصَرَ الأزْمَة التي اجْتاحَتْها في سنتيّ ٥٩٧هـ - ٥٩٨هـ/١٢٠١ - ١٢٠٢م بسَبَب عَدَم زِيادَة النِّيل والقَحْطِ الذي حَلَّ بالبلاد وارْتِفاع الأسْعار، التي أدَّت إلى نُزُوحِ الكثير من أهْلِ مصر إلى الشَّام والحِجَاز والمغرب واليمن، والذي كَتَبَ يقول:

«ووَقَعَ المَرَضُ والمَوَتانُ واشْتَدَّ بالفُقَرَاء الجُوعُ حتى أكلُوا المَيْتات والجِيَف والكلاب والبَعْر والأرْوَاث ثم تَعَدَّوا ذلك إلى أنْ أكلُوا صِغَارَ بني آدم، فكثيرًا ما يُعْثَرُ عليهم ومعهم صِغارٌ مَشْويُّون أو مَطْبُوخُون، فيأمُر صَاحِبُ الشُّرْطة بإحْرَاق الفاعِل لذلك والآكِل. ورأيتُ صَغِيرًا مَشْوِيًّا في قُفَّةٍ وقد أحْضِرَ إلى دَارِ الوالي ومعه رَجُلٌ وامرأةٌ زَعَمَ النَّاسُ أنَّهما أبَوَاه فأمَرَ بإحْراقهما»[1].

ثم يُضِيفُ:

«ومِمَّا شَاعَ أيْضًا نَبْشُ القُبُور وأكْلُ المَوْتَىٰ وبَيْعُ لحُومِهم. وهذه البَلِيَّة التي شَرَحْناها وُجِدَت في جَمِيع بلاد مصر ليس فيها بَلَدٌ إلَّا وقد أكِلَ النَّاسُ فيه أكْلًا ذَرِيعًا من أُسْوَان وقُوص والفَيُّوم والمحَلَّة والإسْكَنْدَريَّة ودِمْيَاط وسَائر النَّوَاحِي»[2].

Ayyubid Eastern Walls of Cairo: Missing Fragments», *An.Isl.* 33 (1999), pp.283-305; St. Pradines, «Le muraille ayyoubide du Caire: Les fouilles archéologiques de Bâb al-Barqiyya et Bâb al-Mahrûq», *An.Isl.* 36 (2002), pp.283-337 ؛ أسامة طلعت عبد النعيم: أسوار صلاح الدين وأثرها في امتداد القاهرة حتى عصر المماليك، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٢.

[1] عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٨٥.

[2] نفسه ٩٠.

وأوْضَحَ عبدُ اللَّطِيف البَغْدَادي أنَّ جَمِيعَ ما حَكَاه ممَّا شَاهَدَه وصَادَفَه اتِّفاقًا ولم يَتَقَصَّدَه وأنَّه كثيرًا ما كان يَفِرُّ من رُؤيته لبَشَاعَةِ مَنْظَرِه. وذكر أنَّ مَدِينَة الفُسْطَاط قد خَلَت من أهْلِها وأنَّ بيوتَ الخَلِيج وزُقاق البِرْكَة وحَلَب والمَقْس وما تاخَمَ هذه المَوَاضِع لم يَبْق فيها بَيتٌ مسكونٌ أصْلًا [١]... حتَّى أنَّ الرِّباعَ والمَسَاكِن والدَّكاكِين التي في سُرَّة القاهرة وخيارها أكثرها خالٍ خَرَاب [٢]... وأمَّا الهِلالِيَّة ومُعْظَم الشَّارِع [الأعْظَم] ودُور الخَلِيج وحارَة اليانِسِيَّة والمَقْس وما تاخَمَ ذلك فلم يَبْق فيها أنِيسٌ وإنَّما تَرىٰ مساكِنَهم خَاوِيَةً على عُرُوشِها وكثيرًا من أهْلِها مَوْتىٰ فيها [٣].

وأنهىٰ عبد اللَّطِيف البَغْدَادي روايته قائلًا:

« والذي دَخَلَ تحت الإحْصَاء من المَوْتىٰ ممَّن كُفِّنَ وجَرَىٰ له اسْمٌ في الدِّيوان وضَمَّته المِيْضأة (التُّرْبَة) في مُدَّة اثنين وعشرين شهرًا أوَّلها شَوَّال من سنة سِتٍّ وتِسْعِين وآخِرها رَجَب من سنة ثمانٍ وتسعين، مائة ألْف نَفْس وأحَد عَشَر ألْفًا آحادًا، وهذا ــ مع كَثْرَته ــ نَزْر بجانب الذين في دُورهم وفي أطراف المَدِينَة وأصُول الحيطان » [٤].

ورَغْم وُجُودِ مُبالَغَةٍ كبيرةٍ ــ دون شَكٍّ ــ في هذه الرِّوايَة إلَّا أنَّها تُفِيدُنا بأنَّه كانت تُوجَدُ في هذا الوَقْتِ سِجِلَّاتٌ عامَّةٌ لتَسْجِيل الوَفَيات.

ويَبْدُو أنَّ المَدِينَة اسْتَرَدَّت بَعْضَ عافِيَتِها عند زِيَارَة ابن سَعِيد المغربيّ لها بعد ذلك بنحو نِصْف القَرْن، الذي قَدَّم لنا وَصْفًا لشَوَارِع القاهِرَة ودُورِها ذكر فيه أنَّ أكثرَ دُرُوبها ضَيِّقَةٌ مُظْلِمَةٌ كثيرةُ التُّرَاب والأزْبال، ومَبانِيها مُرْتَفِعَةٌ قد ضَيَّقَت

---

[١] عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٨٩ــ٩٠.

[٢] نفسه ٩٤.

[٣] نفسه ٩٧.

[٤] عبد اللطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار ٩٨؛ وراجع كذلك منيرة شابوتو رمادي M. Chapoutot-Remadi, «Une grande crise à la fin du XII^e siècle en Égypte», *JESHO* XXVI (1983), pp.216-45.

مَسْلَكَ الهَوَاء والضَّوْء بينها ، وإنْ أبْدَىٰ إعْجابَه بالمكانِ المعروف بـ « بَيْنَ القَصْرَيْن » ـ الذي كان ما يَزَالُ يَحْتَفِظُ بِمِسَاحَتِه قَبْل أنْ تَزْحَفَ عليه المَدَارِسُ المملوكية في نهاية القَرْنِ السَّابع الهجري وأوَائِل القَرْنِ الثَّامِن الهجري ـ وذَكَرَ أنَّه من التَّرْتِيب السُّلْطاني وتَمَنَّىٰ لو كانت القاهِرَةُ كلُّها كذلك لأنَّ سَائِرَ سِكَكِها ضَيِّقَة « إذا ازْدَحَمَت فيها الخَيْلُ مع الرَّجَّالَة كان في ذلك ما تَضِيقُ منه الصُّدُورُ وتَسْخَنُ منه العُيُون » حتَّى إنَّه عايَنَ يَوْمًا الوَزِير وبين يَدَيْه الأُمَرَاء ، وهو في مَوْكِبٍ جَلِيلٍ ، وقد لقي في طَرِيقِه عَجَلَة بَقَرٍ تَحْمِلُ حِجَارَةً وقد سَدَّت جَمِيعَ الطُّرُق بين الدَّكاكِين ممَّا اضْطَّر مَوْكِبَ الوَزِير للتَّوَقُّف فعَظُمَ الازْدِحام ، وتَصَادَفَ أنَّ المكانَ كانت تُحِيطُ به دَكاكينُ الطَّبَّاخِين وقد تعالى دُخَانُ مطابخهم في وَجْه الوَزير وعلى ثِيابِه ، وكادَ يَهْلَكُ المُشَاةُ وكادَ ابنُ سعيد نفسه يَهْلَكُ في جُمْلَتهم [١].

وفي الوَقْتِ نفسه أبْدَىٰ ابنُ سَعِيد إعْجَابَه ببَعْض مَوَاضِع ظَاهِر القاهِرَة مثل : أرْض الطَّبَّالَة على البَرِّ الغَرْبي للخَلِيج ، وبِرْكة الفِيل جَنُوبيّ القاهرة الفاطمية حيثُ كانت تُحِيطُ بها المَنَاظِرُ ، وكان من عَادَةِ السُّلْطان الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب أنْ يَرْكَب فيها باللَّيْل وتُسْرِجُ أصْحابُ هذه المَنَاظِر على قَدْرِ هِمَّتِهم فيكونُ بذلك لها مَنْظَرٌ عَجِيبٌ [٢].

---

[١] ابن سعيد : المغرب (القاهرة) ٢٤.

[٢] ابن سعيد : المغرب (القاهرة) ٢٦.

العِمَارَةُ زَمَن الأيُّوبِيين

أدْخَل الأيُّوبيُّون ـ ذَوي الأصُول الشَّامِيَّة ـ إلى القاهِرة عِمارَةً حَرْبِيَّةً ومَدَنِيَّةً ودينِيَّةً جَديدَةً ، تَمَثَّلَت في بِناء قَلْعَةِ الجَبَل والعَديدِ من المَدارِس السُّنِّيَّة والقاعَة الملحقة بقَلْعَةِ الرَّوْضَة التي شَيَّدَها آخِرُ سَلاطين الأيُّوبيين الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب . كان بِناءُ قَلْعَة الجَبَل كَمَدينَةٍ مُحَصَّنَةٍ تُشْرِفُ في آنٍ واحِدٍ على القاهِرَة والفُسْطاط ، تَجديدًا حَقيقيًّا في أساليب وأنْماطِ البِناء التي كانت سائِدَةً قَبْل الأيُّوبيين .

وكان صَلاحُ الدِّين في الأوْقاتِ القَليلَة التي كان يتواجَد فيها في مصر يُقيمُ في دار الوَزارَة الفاطِمِيَّة (خانْكاه بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية الآن) ويتَرَدَّدُ على قَلْعَة الجَبَل لمتابَعَة تَقَدُّم سَيْر العَمَل فيها . وكان أوَّلَ من انْتَقَلَ نهائيًّا للإقامَة فيها من سَلاطين الأيُّوبيين هو السُّلْطانُ الملكُ الكامِلُ محمد في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م . ولم يَبْقَ من المباني التي شَيَّدَها الكامِلُ محمد ، مثل الإيوان وخِزانَة الكُتُب ، أيُّ شيءٍ ، فقد هُدِمَت جَميعُها في العَصْر المملوكي البَحْري وحَلَّ مَحَلَّها مُنْشَآتٌ جَديدَةٌ شَيَّدَها سَلاطينُ المماليك الأوائِل وعلى الأخَصِّ المَنْصور قَلاوون والأشْرَفُ خَليل والنَّاصِرُ محمد ، وعلى ذلك فنحن لا نعرف أيَّ شيءٍ يقيني عن أيَّةِ مُنْشآتٍ أيُّوبِيَّة داخِل قَلْعَة الجَبَل .

ولم يَلْبَث السُّلطانُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب ـ آخِرُ سَلاطين الأيُّوبيين ـ أنْ تَرَكَ قَلْعَةَ الجَبَل وفَضَّلَ الانْتِقال إلى مَقَرٍّ جَديدٍ أنشأه ، سنة ٦٣٨هـ/١٢٤١م ، في الجانِب الغربي من المَدينَة في جَزيرَة الرَّوْضَة المواجِهَة لفُسْطاط مصر[١]. ومن أجْلِ بِناءِ قَلْعَة الرَّوْضَة قامَ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب بهَدْم العَديدِ من الدُّور

---

[١] انظر فيما تقدم ٥٣ـ ٥٨.

والقُصُور والمساجِد التي كانت بالجَزيرَة، كما هَدَمَ كَنِيسَةً كانت لليَعاقِبَة بجانِب المِقْياس أدْخَلَها في القَلْعَة، وألجأ العَديدَ من النَّاسِ المُقيمين بالجَزيرَة إلى تَرْكِ مَنازِلهم [١].

وفَوْرَ الانْتِهاءِ من بِناء قَلْعَةِ الجَزيرَة تَحَوَّلَ إليها الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب بأهْلِه وحُرَمِه واتَّخَذَها دارَ مُلْكٍ، وأسْكَنَ فيها معه «مَماليكَه البَحْرِيَّة»، وهم الذين سيقومون بدَوْرٍ رئيسٍ في هَزيمَة فِرِنْج الحملة الصَّليبيَّة السَّابِعَة في المَنْصورة، والذين سيَرِثُون الأيُّوبيين ويحلُّون مَحَلَّهم في حُكْم مصر باسم «الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة»، أو «دَوْلَة المماليك البَحْرِيَّة».

وكان بمصر وَقْتَ بِناء قَلْعَة الرَّوْضَة الرَّحَّالَةُ عليُّ بن سعيدٍ المَغْرِبي الذي سَجَّلَ إعْجابَه الشَّديد ببنائها وإتْقانِه، في الجزء الذي خَصَّصَه لذكر «الجَزيرَة الصَّالِحِيَّة» في كِتابِه «المُغْرِب في حُلىٰ المَغْرِب»، وهو من الأجْزَاء المَفْقُودَة من كِتابِه الآن وإنْ اعْتَمَد عليه المَقْريزي في القَرْنِ التَّاسِع الهجري [٢].

ولم تستمرّ «قَلْعَةُ الرَّوْضَة» طَويلًا فقد أمَرَ بهَدْمِها السُّلْطانُ الملكُ المُعِزُّ عِزُّ الدِّين أيْبَك التُّرْكماني ـ أوَّلُ سَلاطين الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة ـ واسْتَخْدَم أنْقاضَها في بِناء مَدْرَسَته المُعِزِّيَّة التي أنْشَأها في رَحْبَة الحِنَّاء في فُسْطاط مصر [٣]. ومع ذلك فقد ظَلَّت بقايا كثيرةٌ منها موجودَةً حتى نهاية القرن الثَّامِن عَشْر الميلادي قَدَّمَ لنا من خِلالِها ج. مارسيل J. MARCEL ـ أحَدُ العُلَماء المصاحبين للحَمْلَة الفرنسية على مصر ـ وَصْفًا لمَدْخَلٍ تِذكاري بعَقْدٍ مُنكسِر، وتَخْطيطًا لقاعَةِ اسْتِقْبالٍ مُلْحَقةٍ بقَصْر القَلْعَة. يقول مارسيل:

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٥٨٢.

[٢] نفسه ٣: ٥٨٤ـ٥٨٥.

[٣] نفسه ٣: ٥٨٦.

«ونَلْحَظُ إلى الشَّرْق من المِقْياس بقايا قَصْر الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب ... والشَّيء الوَحيد الملاحَظ والمُتَبَقِّي من هذا الأثَر قاعَةٌ كبيرةٌ مستطيلةٌ ، عَرْضُها من الشَّرْق إلى الغَرْب ١٢,١٨ مترًا ، وطولُها من الشَّمال إلى الجَنُوب ١٤,٦٠ مترًا ، وتُكَوِّن القُبَّةُ التي تَعْلو وَسَطَها مُسْتَطيلًا عَرْضُه من الشَّرْق إلى الغَرْب ٥,٦٠ مترًا وطُولُه من الشَّمال إلى الجَنُوب نحو ٦,٨٠ مترًا . ويَدْعَمُ كلَّ زاويةٍ من زَواياها الأرْبَع ثلاثَةُ دَعائِم أو أعْمِدَةٌ مُتَّصلةٌ على شَكْل مُثَلَّث . ويُؤَدِّي إلى هذه القاعَة عَدَدٌ من الدِّهاليز المتباينة الأبْعاد»[١] .

وقد زالَت جَميعُ المعالِم التي ذَكَرَها مارسيل MARCEL في وَصْفِه ، وهي بالإضافَة إلى المَدْخَل التّذكاري وقاعَة الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب ، جامِعُ المِقْياس الذي أنْشأه أميرُ الجُيُوش بدْرٌ الجمالي ، سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م[٢] ، ليحلَّ مَحَلَّها في سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م قَصْرٌ حَديثٌ بَنَاهُ حَسَن باشا فؤاد المانِشيْرلي (مَتْحَفُ أمّ كُلْثُوم الآن) .

وعَلَّقَ ألكسندر لزين ALEXANDRE LÉZINE أهميةً خاصَّةً على تَخْطيط هذه القاعَة التي عَدَّها عُنْصُرًا انْتِقاليًا بين قاعات الفُسْطاط والقَصْر الفاطِمِيّ والقاعات المملوكية ، والأُنْمُوذَج prototype الذي احْتَذاهُ بعد ذلك مِعْماريُّو العَصْرِ المملوكي في تَصْميم القاعات[٣] .

وأنْشَأ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب كذلك ، نحو سنة ٦٤٥هـ/١٢٩٧م ، عَدَدًا من المناظِر على جَبَلِ يَشْكُر بجوار الجامِع الطُّولُوني كانت آثارُها ما تَزَالُ مَوْجُودةً في

---

[١] J. J. MARCEL, «Mémoire sur le Meqyes de l'île de Roudah», *Description de l'Égypte*, État moderne XV, Paris 1826, pp. 465-67; Creswell, K. A. C., *MAE* II, pp. 84-87.

[٢] انظر فيما تقدم ٥٧-٥٨.

[٣] A. LEZINE, «Les salles nobles des palais mamelouks», *An.Isl.* X (1972), pp.64-66.

زَمَن المقريزيّ. كانت مَناظِرُ الكَبْش تُشْرِفُ على بِرْكة قارُون عند الجِسْر الأعْظَم الفاصِل بينها وبين بِرْكة الفِيل. وفي هذا الوَقْت لم يكن هناك أيُّ بناءٍ على بِرْكة الفِيل ولا في المواضِع المَوْجُودَة في البَرّ الغَرْبي للخَليج، وإنّمَا انْتَشَرت بها فقط البَسَاتينُ التي غَطَّت كذلك المَسَافَة الممتدَّة من صَلِيبَة جَامِع ابن طُولُون إلى باب زَوِيلَة.

أطْلَقَ الصَّالِحُ أيُّوب على هذه المَنَاظِر اسْم «الكَبْش»، وكانت من مَوْقِعها فوق جَبَلٍ يَشْكُر تَكْشِفُ بابَ زَوِيلَة والقاهِرَة، وتَرَىٰ باب فُسْطاط مصر ومَدِينَة الفُسْطاط نفسها، وكذلك قَلْعَة الرَّوْضَة وجَزِيرَة الرَّوْضَة، وتَرَىٰ أيْضًا بَحْرَ النِّيل الأعْظَم وبَرّ الجِيزَة.

ولم تَنْقَطِع الإقامَةُ بمناظِر الكَبْش بعد الدَّوْلَة الأيُّوبية. فقد أقامَ بها أوَّلًا الخَلِيفَةُ العبَّاسي في مصر الحاكِمُ بأمْر الله لمَّا وَصَلَ من بَغْدَاد، كما سَكَنَ بها الخَلِيفَةُ المُسْتَكْفي بالله في أوَّل خِلافَتِه. وأقَامَ بها كذلك بعضُ مُلُوك حَمَاةَ عند قدُومهم إلى مصر. وظَلَّت كذلك إلى أنْ هَدَمَها، سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، النَّاصِرُ محمد ابن قلاوون وأعادَ بِناءَها وزَادَ في سَعَتها، وعَمِل بها زِفافَ ابْنته على وَلد نائب السَّلْطَنَة بدِيار مصر. وظَلَّت هذه المناظِرُ تُسْتَخْدَمُ في إقامَة الأمَرَاء إلى أنْ هَدَمَها الملكُ الأشْرَفُ شَعْبَان سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٣م فحَكَرَ النَّاسُ مكانها وبَنَوْا فيه المساكِن.

ويَدُلُّ على مَوْقِعها الآن المنطقةُ المعروفةُ بقَلْعَة الكَبْش في الجِهَة الغربية من جامِع ابن طُولُون والتي تُشْرِفُ من بَحْريها على شارع عبد المجيد اللَّبَّان (مَرَاسينا سابقًا) ومن غربيها على خُطّ البَغَّالَة بحيّ السَّيِّدَة زَيْنَب[1].

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢:٤٤٤-٤٤٦، السلوك ١:٣٤١-٣٤٢.

*

* *

كان من بين التَّجْديدَات المُهِمَّة التي أدْخَلَها الأيُّوبيون كذلك على العِمَارَة في مصر عِمَارَةُ المَدَارِس، فحتَّى نِهَايَة العَصْرِ الفاطِمِي لم تَعْرِف مصر من العِمَارَة الدِّينِيَّة سوىٰ المَسَاجِد الجامِعَة والمَشَاهِد. فأَدْخَلَ صَلاحُ الدِّين إلى عِمَارَة القاهِرَة نَمَطًا جَدِيدًا من بِنَاءِ المُؤَسَّسَات الدِّينِيَّة هو المَدَارِس، وهو بِنَاءٌ ذا عِمَارَةٍ خاصَّةٍ ووَظيفَةٍ تَعْليميةٍ تَعَرَّفَ عليه وهو في الشَّام الذي انْتَقَلَ إليها من السَّلاجِقَة الذين تَبَنَّوا إنْشَاءَ المَدَارِس لتَعْلِيم المَذْهَبِ السُّنِّي ومُحَارَبَة مَذَاهِب الشِّيعَة.

كان بِنَاءُ المَدَارِس تَحَوُّلًا مُهِمًّا في نَمَطِ البِنَاء وفي نَشْرِ المَذْهَبِ السُّنِّي في أعْقَابِ نَجَاحِ صَلاحِ الدِّين في القَضَاءِ على الخِلافَة الفاطِمِيَّة ووَضْعِ نِهايَةٍ للمَذْهَبِ الإسْمَاعيلي الذي كانت القاهِرَةُ حتى هذا التأريخ هي مَرْكَزَه في العَالَم الإسْلامي. ولأجْلِ ذلك ألْغَىٰ صَلاحُ الدِّين إلْقاء الخُطْبَة وإقامَة الجُمُعَة من الجامِع الأزْهَر باعْتباره رَمْزًا للدَّعْوَة الإسْماعِيلية وظَلَّت مُعَطَّلَةً منه حتى أعادَها إليه الظَّاهِرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٥هـ/١٦٦٢م، واقْتَصَرَت إقامَة الخُطْبَة في القاهِرَة طَوَال العَصْر الأيُّوبي في جامِع الحاكِم بأمْر الله فقط.

وتُعَبِّرُ الكتابَةُ التاريخيةُ التي كانت تُوجَد بالمَدْرَسة المجاوِرَة لضريح الإمام الشَّافعيّ، ونُقِلَت الآن إلى مُتْحَفِ الفنِّ الإسلاميّ بالقاهرة برقم ١١٨، بوُضُوحٍ عن رَدِّ الفِعْلِ الأيُّوبيّ السُّنّيّ الذي كان وَراءَ إنْشَاءِ المَدارِس في مصر، يقولُ نَصُّ الكتابَة:

«بُنِيَت هذه المَدْرَسَةُ باسْتِدْعَاءِ الشيخ الفَقيه الإمام [كلمة ساقطة] الزَّاهِد نَجْم الدِّين رُكْنِ الإسْلام قُدْوَةِ الأنَام مُفْتي الفِرَق أبو البـ[ركات بن] المُوَفَّق الخَبُوشَاني ـ أدامَ الله تَوْفيقه ـ لفُقَهاءِ أصْحابِ الشَّا[فِعي] ـ رضوان الله عليه ـ المَوْصُوفين

بالأُصُوليَّة المُوَحِّدَه : الأَشْعَرِيَّة [على] الحَشَويَّة وغيرهم من المُبْتَدَعة، وذلك في شهر رَمَضان سنة خَمْسٍ وس[بعين وخمس مائة][١].

وقد زالَت كُلُّ آثارِ المَدارِس المُبَكِّرة التي أقامَها صَلاحُ الدِّين، وكُلُّ ما نعرفه عنها أنَّها كانت مُخَصَّصةً لتَدْريس مَذْهَبٍ واحِدٍ[٢]، حيث إنَّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ جُمِعَ فيها تَدْريسُ المذاهِب الفِقْهِيَّة الأربعة هي «المَدْرَسَةُ المُسْتَنْصِرية» في بَغْداد التي أُنشئت فيما بين سنتي ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م و٦٣١هـ/ ١٢٣٤م، كما أنَّنا نَجْهَلُ كُلَّ شيءٍ عن تَخْطيطِ هذه المَدارِس.

وعَرَفَت القاهِرَةُ كذلك في العَصْرِ الأيُّوبيّ نَوْعًا آخر من المُؤَسَّسات التَّعْليمية هو «دارُ الحَديث»، وهي مُؤَسَّسَةٌ اخْتصَّت فقط بتَدْريس عُلُومِ الحديث. وأوَّلُ دارٍ أُنْشِئَت من هذا النَّوْع هي «دارُ الحَديث النُّوريَّة» التي أنْشأها نُورُ الدِّين محمود في دِمَشْق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م[٣]. ثم تتابَع إنْشَاءُ دُورِ الحَدِيث وعلى الأَخَصِّ في دِمَشْق وضَواحِيها، حيث يَذْكُر النُّعَيْميّ أسْماءَ ستة عشر دَارًا للحَديث[٤]، إلى أن أنْشَأَ السُّلْطانُ الملكُ الكامِلُ محمد «دَارَ الحَديث الكامِلِيَّة» في القاهِرَة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م[٥]، وهي - إضافَةً إلى «دَارِ الحَدِيث المَراغِيَّة» التي عَمَّرَها الشيخُ شَمْسُ الدِّين المَراغي على شاطئ النيل، والتي ذكرها ابنُ دُقْماق[٦] - دارُ الحَدِيث الوَحيدة المعروفة بالقاهِرَة.

---

[١] Hautecoeur & Wiet, *Les Mosquées du Caire*, p. 101; G. Wiet., *RCEA* IX, n° 3339.

[٢] لاشَكَّ أنَّ هذه المدارِس كانت تُشْبه في تَخْطيطها تَخْطيطَ المَدارِس الشَّامية التي وَصَلَت إلينا، وهي تتألَّف من مُصَلًّى وبَهْو مستطيل، وفي حالة تَدْريسها لمَذْهَبَيْن كانت تَشْتَمل على إيوانَيْن متقابلين بينهما فِناءٌ مُرَبَّعُ التَّخْطيط ويَحُفُّ به من الجانبين حُجُرات لسُكْنَى الطَّلَبَة، ونادِرًا ما كانت تُزَوَّد بِمِئْذَنَة.

[٣] التعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ١: ٩٩.

[٤] نفسه ١: ١٩- ١٢٢.

[٥] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٤٩٤.

[٦] ابن دقماق : الانتصار ٤: ٩٩.

وامْتازَت العِمَارَةُ الأيُوبِيَّة في القاهرة إلى جانِب اسْتِحْدَاث نِظام المَدَارس بظُهُور الأواوين في تَخْطِيط هذه المَدَارس [١].

وباسْتِثْناء المُنْشآت العسكرية التي أقامَها الأيُوبيُّون في مصر ، فإنَّه لا تُوجَدُ الآن أيَّةُ مُنْشأةٍ عامَّة تَرْجِعُ إلى العَصْر الأيُوبي ، فالعَنَاصِرُ الأيُوبية للقَنَاطِر التي كانت تُزَوِّدُ القَلْعَة بالمياه أدْمِجَت في الأعْمال التي قامَ بها كلٌّ من النَّاصِر محمد بن قلاوون وقانْصُوه الغوري ، ولكن مازال هناك بقايا جِسْرَيْن على طَرِيق الجِيزَة عليها نُقُوشٌ تَرْجِعُ إلى عَهْدِ صَلاح الدِّين باسْم قَرَاقُوش ونُقُوشٌ أخرىٰ تُفِيدُ أعْمالَ تَرْمِيم لها قامَ بها كُلٌّ من النَّاصِر محمد بن قلاوون والأشْرَف قايتْباي وحسين باشا .

وبالرَّغْم من أنَّ مُعْظَم المباني الدِّينية وذات الطَّابع الاجتماعي التي شَيَّدَها الأيُوبيون دَاخِل القاهِرَة قد انْدَثَرَت ، فإنَّ للآثار المتبقِّية منها أهَمِّيَّةٌ معماريةٌ كبرىٰ ، وكان لخصائصها أثَرٌ كبيرٌ في تَطَوُّرِ العمارَة في العُصُور اللَّاحِقَة . وتَنْحَصِرُ الآثارُ التي وَصَلَت إلينا من العَصْرِ الأيُوبي (إضَافَةً إلى قَلْعَة الجَبَل التي أُدْخِلَت عليها تَعْدِيلاتٌ مُهِمَّة في العُصُور التَّالِيَة ، وبقايا أسْوَار صَلاح الدِّين) في : قُبَّة الإمام الشَّافِعِيّ (٦٠٨هـ/١٢١١م) (أثر رقم ٢٨١) ، وبقايا إيوان الثَّعَالِبَة وبَوَّابته (٦١٣هـ/١٢١٦م) (أثر رقم ٢٨٢) ، وبقايا دار الحَدِيث الكامِلِيَّة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م) (أثر رقم ٤٢٨) ، ومِئْذَنَة المَشْهَد الحُسَيْني (٦٣٤هـ/١٢٣٦م) (أثر رقم ٢٨) ، وقُبَّة الخُلَفَاء العَبَّاسيين (حوالي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م) (أثر رقم ٢٧٦) ، والمَدَارِس الصَّالِحِيَّة ومِئْذنتها وقُبَّة الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُوب الملحقة بها (٦٤١ـ٦٤٨هـ/ ١٢٤٣ـ١٢٥٠م) (أثر رقم ٣٨) ، وقُبَّة شَجَر الدُّرّ (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) (أثر رقم ١٦٩) وقُبَّة أبي الغَضَنْفَر أسَد الفائِزي (أثر رقم ٣) .

---

[١] انظر فيما يلي ٢٧٠ـ ٢٧٤، وكذلك أحمد فكري: «خصائص عمارة القاهرة في العَصْر الأيوبي»، أبحاث الندوة الدولية لألفية القاهرة ١: ١٦٠ـ ١٩٢.

ومن أهَمّ ما مَيّزَ العَصْر الأيُّوبي كذلك اخْتِفَاء الخَطّ الكوفي الذي كان مُسْتَخْدَمًا في جميع النُّصُوص الإنْشائية الفاطمية، فقد حَلَّ مَحَلَّه الخَطُّ النَّسْخ الأيُّوبي الأكثر لِيُونَة واسْتِدَارَة والذي سيلقىٰ تَطْوِيرًا ملحُوظًا بعد ذلك في العَصْرِ المملوكي [١].

الفُسْطَاطُ في نِهَايَة العَصْرِ الأيُّوبي

إنَّ ما يُثْبِتُ دَوَامَ النَّشَاط التجاري والصِّنَاعِي لِمَدِينَة الفُسْطَاط، حَتَّى بعد أزْمَة القَرْن الخامِس الهجري/ الحادِي عَشْر الميلادي والدَّمَار الذي أصَابَها في مُنْتَصَف القَرْن السَّادِس الهجري/ الثَّاني عَشْر الميلادي، ما يُورِدُهُ الرَّحَّالَةُ والجُغْرافِيُّون العَرَب والمسلمون، فيَكْتُبُ ابنُ سَعِيد المَغْرِبي بعد نحو قَرْنٍ من حَرِيقِ سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م:

«إنَّ ما يَرِد على الفُسْطَاط من مَتَاجِر البَحْر الإسْكَنْدَراني والبَحْر الحِجَازي فَوق ما يُوصَف، وبها مَجْمَعُ ذلك لا بالقَاهِرَة، ومنها يُجَهَّزُ إلى القَاهِرَة وسَائِر البلاد. وبالفُسْطَاط مَطَابِخُ السُّكَّر والصَّابُون ومعظم ما يجري هذا المجرىٰ لأنَّ القَاهِرَة بُنِيت للاخْتِصَاص بالجُنْدِ، كما أنَّ جَمِيعَ زِيّ الجُنْد هو بالقَاهِرَة أعْظَم منه بالفُسْطاط وكذلك ما يُنْسَج ويُصاغ وسائر ما يُعْمَل من الأشْياء الرَّفِيعَة السُّلْطانية. والخَرَابُ في الفُسْطاط كثيرٌ والقَاهِرَة أجَدّ وأعْمَر، وأكثر زَحْمَة

---

[١] راجع كذلك عن القاهرة في العَصْر الأيُّوبي N.D. MacKenzie, *Ayyubid Cairo. A Topographical Study*, Cairo-AUC 1992 (نقله إلى العربية عثمان مصطفى عثمان بعنوان: القاهرة الأيُّوبية ـ دراسة طبوغرافية، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م)؛ عدنان محمد الحارثي: عُمْرانُ القاهرة وخِطَطُها في عَهْد صلاح الدِّين الأيُّوبي ٥٦٤ـ٥٨٩هـ/١١٦٨ـ١١١٩م، القاهرة ـ مكتبة زهراء الشرق ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

بسَبَبِ انْتِقَالِ السُلْطان إليها وسُكْنَىٰ الجُنْد فيها »[١].

كان ما سَمِعَهُ ابنُ سَعِيد عن الفُسْطَاط من الحُجَّاج الصَّادِرين إليها وما قَرَأهُ في الكُتُب دافِعًا له للتَّوَجُّه إلى زيارتها بعد حُلُولِه بالقَاهِرَة ، وقَدَّمَ لنا وَصْفًا مُثِيرًا للرِّحْلَة التي قَطَعَها بين المَدِينَتَيْنِ ورَافَقَه فيها شَخْصٌ ليدُلَّه على الطَّرِيق ، فشَاهَدَ عند بابِ زَوِيلَة (الباب الجَنُوبِي للقَاهِرَة) جُمْلَةً عَظِيمَةً من الحَمِير المُعَدَّة لرُكوب من يَسِير إلى الفُسْطَاط لم يَعْهَد مثلها في بَلَدِ ، رَكِبَ مُرَافِقُه منها حِمَارًا وأشارَ إليه برُكوب آخر ، فأنِفَ من ذلك لأنَّه مُخَالِفٌ لما اعْتادَه في بلاد المَغْرب ، فأعْلَمَهُ صَاحِبُه بأنَّ ذلك غير مَعِيب على أعْيَانِ مصر ، ولم يَمْتط الحِمَار إلَّا بعد أنْ عَايَنَ الفُقَهاءَ وأصْحَابَ البَزَّة والشَّارَة الظَّاهِرَة يركبونها ، يقول :

« فعندما اسْتَوَيْتُ راكبًا أشَارَ المكارِيُّ على الحِمَار فطارَ بي وأثار من الغُبَار الأسْوَد ما أعمىٰ عَينيّ ودَنَّس ثِيابي وعايَنْتُ ما كرهتُه ، ولقِلَّة مَعْرِفَتي برُكُوب الحِمار وشِدَّة عَدْوِه على قانونٍ لم أعْهَدْهُ وقِلَّة رِفْق المكاريّ وَقَعْتُ في تلك الظُّلْمَة المثارَة من ذلك العَجَاج ، فدَفَعْتُ إلى المكاريّ أجْرَتَه وقُلْتُ له : إحْسَانُك إليّ أنْ تتْرُكني أمْشِي على رِجْلي ، ومَشَيْتُ إلى أنْ بَلَغْتُها »[٢].

قَدَّرَ ابنُ سَعِيد الطَّرِيق بين القَاهِرَة والفُسْطَاط بنحو الميلين ، وإنْ كان ناصِرُ خُسْرُو ـ قَبْلَه بقَرْنَيْنِ ـ حَدَّدَه بأقل من مِيل[٣]!

كان ما شاهَدَهُ ابنُ سَعِيد في الفُسْطاط صَادِمًا له فكَتَب يقول :

« ولمَّا أقْبَلْتُ على الفُسْطَاط أدْبَرَت عنِّي المَسَرَّة وتأمَّلْتُ أسْوَارًا مُثْلَمَة سَوْداء وآفاقًا مُغْبَرَّة ، ودَخَلْتُ من بابها وهو دون غَلْقٍ يُفْضي إلى خَرَابٍ مَعْمُور بمبانٍ مُشتَّتَة الوَضْع غير مُسْتَقِيمَة الشَّوَارِع قد بُنِيَت من الطُّوب الأدْكن والقَصَب

---

[١] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ١١.
[٢] نفســه ٥ـ٦.
[٣] ناصر خسرو : سفرنامة ٩٣.

والنَّخيل طَبَقَةً فوق طَبَقَة ، وحَوْل أبْوَابِها من التُّرَاب الأسْوَد والأزْبال ما يَقْبِضُ نَفْسَ النَّظِيف ... إلى أنْ سِرْتُ في أسْواقِها الضَّيِّقَة فقاسَيْتُ من ازْدِحَام النَّاسِ فيها بحَوَائِج السُّوق والرَّوَايا التي على الجِمَال ما لا يَفِي إلَّا مُشَاهَدَتُه ومُقاسَاتُه إلى أنْ انْتَهَيْتُ إلى المَسْجِد الجَامِع فعايَنْتُ من ضِيق الأسْوَاق التي حَوْله ما ذكرتُ به ضِدَّه في جَامِع إشْبِيلِيَّة وجَامِع مرَّاكِش»[1].

وأشَارَ ابنُ سَعِيد كذلك إلى أنَّ الفُسْطَاطَ بسَبَب قُرْبِها من النِّيل ولأنَّها المِينَاءُ الذي تَحُطُّ فيه البَضَائِعُ القَادِمَة من الهِنْد وعَدَن عن طريق عَيْذَاب وقُوص أو من البَحْر المُتَوسِّط عن طريق الإسْكَندرية وتِنِّيس ، أكثرُ أرْزاقًا وأرْخَصُ أسْعَارًا من القاهِرَة ، إلَّا أنَّ القَاهِرَة ـ لأنَّها المَخْصُوصَة بالسَّلْطَنَة ولسُكْنَىٰ الأمَرَاء فيها بسَبَب قُرْبِها من قَلْعَة الجَبَل مَرْكَز الحُكْم ـ أكثر عِمَارَةً واحْتِرامًا وحِشْمَةً من الفُسْطَاط . ولكنَّه عادَ ولاحَظَ أنَّ عمارَة الفُسْطاط بَدَأت في التَّعَاظُم بسبب انْتِقَالِ كثيرٍ من الأمَرَاء للإقَامَة بها بعدما بَنَى السُّلْطانُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُوب قَلْعَته في جنوبيّ الجَزِيرَة الصَّالِحِيَّة (جَزِيرَة الرَّوْضَة) حَوْل المِقْيَاس في مُوَاجَهَة الفُسْطَاط وبَنَىٰ قَيْسارِيَّةً عَظِيمةً على رأس الجِسْر الوَاصِل بين الفُسْطاط وجَزِيرَة الرَّوْضَة نَقَلَ إليها من القَاهِرَة سُوقَ الأجْنَاد التي يُبَاعُ فيها الفِرَاءُ والجُوخُ وما أشْبَه ذلك[2].

ووَصَفَ عبدُ اللَّطِيف البَغْدَادي ، قَبْل ابن سَعِيد بنصف قَرْن دُور المِصْرِيين ومَنَازلهم وحَمَّاماتِهم بقَوْلِه : «أمَّا أبْنِيَتُهم ففيها هَنْدَسَةٌ بارِعَةٌ وتَرْتِيبٌ في الغاية حتى إنَّهم قَلَّما يَتْرُكون غَفْلًا خاليًا عن مَصْلَحَة . ودُورُهم فَسِيحَةٌ وغالِبُ سُكْناهُم في الأعالي ويَجْعَلُون مَنَافِذَ مَنَازِلهم تِلْقَاء الشَّمَال والرِّياح الطَّيِّبَة ، وقَلَّما تَجِدُ مَنْزِلًا إلَّا وفيه باذْهَنْج[3]، وباذْهَنْجاتُهم كبار وَاسِعَة للرِّيح عليها تَسَلُّطٌ يُحْكِمونها غايَة

---

[1] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ، ٦-٧.

[2] ابن سعيد : المغرب (الفسطاط) ، ١١، (القاهرة) ٢٧.

[3] الباذْهَنج (جـ. باذْهَنْجات) . لَفظٌ فارسيّ بمعنى بَيْت الهَوَاء ، أي فَتْحَة للتَّهْوِيَة تكون بأعْلى القاعات تعمل على تَنْظِيف هَوَاء القاعَة .

الإحْكام حتى إنَّه يُغْرَمُ على الواحِد منها مائة دينار إلى خَمْس مائة دينار ... وأسْوَاقُهم وشَوَارِعُهم وَاسِعَة وأبْنيتُهم شَاهِقَة ، ويَبْنُون بالحَجَر النَّحيت والطُّوب الأحْمَر ، وهو الآجُر ،... ويُحْكِمُون قَنَوَات المَرَاحِيض حتى إنَّه تَخْرُبُ الدَّارُ والقَنَاة قَائِمَة ويَحْفُرُون الكنف إلى المعين فيغير عليها بُرْهَةً من الدَّهْر طويلة ولا يَفْتَقِر إلى كَسْح .

ويُضيفُ عبد اللَّطِيف أنَّه لم يُشَاهِدَ أتْقَن من حَمَّاماتهم وَضْعًا ولا أتَمّ حِكْمَة ولا أحْسَن مَنْظَرًا ومَخْبَرًا ، ذلك لأنَّ أحْوَاضَها يَسَعُ الواحِدُ منها ما بين راويتين إلى أرْبَع رَوَايا ، وأكثر من ذلك يَصُبّ فيها مِيزابان ثَجّاجَان (أي شديدي الانْصِباب) حَارّ وبارِد ، وقَبْل ذلك يَصُبان في حَوْضٍ صَغيرٍ جدًّا مَرْتَفِع فإذا اخْتَلَطا جَرىٰ منه إلى الحَوْضِ الكَبِير ، وهذا الحَوْض نحو رُبْعه فوق الأرْض وسَائِرُه في عُمْقها يَنْزِلُ إليه المُسْتَحِمُّ فيسْتَنْقِع فيه . ودَاخِل الحمَّام مَقَاصِيرُ بأبْوَاب ، وفي المَسْلَخ أيضًا مَقَاصِيرُ لأرْباب التَّخَصُّص حتَّى لا يَخْتَلِطُوا بالعَوَام ولا يَظْهَرُوا على عَوْراتهم . وهذا المَسْلَخُ بمقاصيره حَسَن القِسْمَة مَليح البِنْيَة وفي وَسَطِه بِرْكة مُرَخَّمَة وعليها أعْمِدَة وقُبَّة وجَمِيعُ ذلك مُزَوَّق السُّقُوف مُفَوَّق الجُدْرَان مُجَزَّع باخْتِلاف ألْوانِه ، وتَرْخِيم الدَّاخِل يكون أبَدًا أحْسَن من تَرْخيم الخَارِج ، وهو مع ذلك كثير الضِّيَاء مُرْتَفِع الأزاج جاماتُه مختلفة الألْوان صافِيَة الأصْبَاغ بَحَيْثُ إذا دَخَلَهُ الإنْسَانُ لا يُؤثِر الخُروجَ منه [١].

ولاحَظَ ابنُ سَعِيد أنَّ النَّصَارَىٰ في القَاهِرَة والفُسْطَاط يَمْتازُون بالزُّنَّار في أوْسَاطِهم واليَهُود بعَلامَةٍ صَفْرَاء في عَمَائِمهم ويَرْكبون البِغَال ، وأكثر ما يتَعَيَّشُون به كِتَابَة الخَرَاج ومُمَارَسَة الطِّبّ [٢].

---

[١] عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٦٨ـ ٧٠.

[٢] ابن سعيد : المغرب (القاهرة) ٢٨.

واسْتَنْكر ابنُ سَعِيد على القَاهِرَة والفُسْطَاط إباحَة إظْهار أواني الخَمْر وآلات الطَّرَب ذات الأوْتار ، وتَبَرُّج النِّسَاء العَوَاهِر مِمَّا يُنْكر في غيرها من بلاد المغرب التي قَدِمَ منها [١].

[١] ابن سعيد : المغرب (القاهرة) ٣١.

الفصل الرابع

امتداد القاهرة في العصر المملوكي

نِظَامُ المماليك

أَدَّت الأَخْطارُ التي واجَهَت العالَم الإسْلامي ابْتِدَاءً من نِهايَة القَرْنِ الخَامِس الهجريّ/ الحادِي عَشْر الميلادي مع طَلائِع جُيُوش الفِرِنْج في الحَمْلَة الصَّلِيبِيَّة الأولىٰ التي انْتَهَت بسُقُوطِ بَيْتِ المَقْدِس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م إلى تَغَيُّرٍ كبيرٍ في شَكْل الدَّوْلَة الإسْلامية من أَهَمّ مَلامِحِه هَيْمَنَةُ القادَة العَسْكريين من السَّلاجِقَة والتُّرْك والأَكْرَاد والتُّرْكُمان على مَقَالِيد الأمُور، وهي عَنَاصِرُ شَدِيدَة المِرَاس والبأس قادَت الجُيُوشَ الإسْلامية أوَّلًا إلى اسْتِرْدَادِ بَيْتِ المَقْدِس بعد مَعْرَكَة حِطِّين سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م، ثم صَدّ جُيُوش المَغُول في عَيْنْ جالُوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بعد أنْ أسْقَطَت الخِلافَة الإسْلامية في بَغْدَاد قبل ذلك بعامَيْن.

هكذا أَسَّسَ المماليكُ، الذين أَبْلَوْا بَلاءً حَسَنًا في التَّصَدِّي للحَمْلَة الصَّلِيبِيَّة السَّابِعَة في المَنْصُورَة، دَوْلَةً قَوِيَّةً وَرِثَت البَيْتَ الأَيُّوبي في مصر والشَّام، أَضْحَت بعد انْتِصَارِهم الكاسِح على جُيُوش المَغُول في مَوْقِعَة عَيْنْ جَالُوت أكبر قُوَّةٍ في العالَم الإسْلامي خاصَّةً بعد أنْ اسْتَضَافَت في القاهِرَة، سنة ٦٦٠هـ/١٢٦٢م، الخِلافَة العَبَّاسِيَّة وقَضَائها النِّهائي على بقايا الفِرِنْج الموجُودِين في سَوَاحِل الشَّام سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م، واسْتَمَرَّت كذلك نحو ثَلاثَة قُرُون حتى سُقُوطِها في مُوَاجَهَة جُيُوش العُثْمانِيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

ويَرْجِعُ إنْشَاءُ نِظَام المماليك في دِيارِ مصر إلى السُّلْطان الأيُّوبي الصَّالِح نَجْم

الدِّين أيُّوب ، فهو الذي أكثر من شِرَائهم وجَعَلَهُم مُعْظَم عَسْكَرِه وأحَلَّهم مَحَلَّ الأمَرَاء الذين كانوا عند أبيه وأخِيه حتى صَارُوا بطانَته والمُحِيطِين بدِهْلِيزه وسَمَّاهُم بـ « البَحْرِيَّة » لسُكْنَاهُم معه في قَلْعَةِ الرَّوْضَة على بَحْرِ النِّيل .

ونِظَامُ دَوْلَة المماليك نِظَامٌ مُتَفَرِّدٌ في تاريخ الدُّوَل الإسْلامية الحاكمة ، وتَرْجِعُ أصُولُهم إلى عَنَاصِر عِرْقِيَّة تُرْكية مُخْتَلِفَة وعلى الأخَصِّ من بلاد القَفْجَاق والقُوقاز ، وفي مَرْحَلَةٍ لاحِقَةٍ انْضَمَّ إليهم العُنْصُرُ الشَّرْكسيُّ والمَغُوليُّ والصَّقْلَبِيُّ ثم الجُورْجيّ . وكانوا يُجْلَبُون صِغَارًا ـ ويفضل قبل سِنِّ البلوغ ـ حتى يمكن تَنْشِئَتُهم وتَدْرِيبُهم ، وكان يَتِمّ تَعْلِيمُهم في الطِّبَاق بالقَلْعَة تَعْلِيمًا إسْلامِيًّا تَقْلِيدِيًّا وتَلْقِينهم اللُّغَة العَرَبِيَّة وتَدْرِيبهم على اسْتِخْدَام السِّلاح .

ويُنْسَبُ المماليكُ إمَّا إلى الشَّخْصِ الذي اشْتَرَاهُم أو الْتَحقُوا بخِدْمته أو إلى الشَّخْص الذي باعَهُم ، وفي الحالَة الأولىٰ يُقالُ فُلانٌ البُنْدُقْدَاري أو المماليك الأشْرَفِيَّة على سَبِيل المِثال ، أمَّا في الحالة الثَّانِيَة فيُقالُ فُلانٌ من مَهْدِي أو من طُطُخ ، أي اسْم التَّاجر الذي باعَه .

ويتمّ تَرَقِّي المماليك وتَنَقُّلُهم من رُتْبَةٍ إلى أخرىٰ وَفق نِظامٍ دَقِيقٍ للوُصُول إلى الوَظائِف الرَّئيسة في الجَيْش وهي : أتابِك العَسَاكِر أو أمير سِلاح أو أميراخُور أو أمير مَجْلِس أو الدَّوادار ، وهو التَّرَقِّي الذي يتم من خلالِه اخْتِيارُ السَّلاطِين ، لذلك فقد مَنَع المماليكُ نِظام التَّوْريث فحافَظُوا بذلك على هذا النِّظَام واسْتِمْراره ، يُسْتَثْنَى من ذلك أبْنَاءُ المَنْصُور قَلاوون الذين تَوَارَثُوا الحكم في الفَتْرَة بين سنتيّ ٦٨٩ـ٧٨٤هـ/١٢٩٠ـ١٣٨٢م ، لذلك سنَجد أنَّ أسْمَاءَ هؤلاء السَّلاطِين أسْمَاءٌ إسْلاميةٌ لأنَّهم وُلِدُوا أحْرارًا مُسْلِمِين مثل : خَلِيل ومحمَّد وحَسَن وشَعْبَان . وأُطْلِقَ على بَقِيَّة ذُرِّيَّة المماليك الأحْرَار « أوْلاد النَّاس » ، وهؤلاء لا يَحِقّ لهم الانْدِرَاجُ في الوَظائِف العَسكرية وإنَّما يَتَدَرَّجُون في الأعْمال الدِّيوانية والكتابية .

وتكوَّنَ الجَيْشُ المملوكيّ من ثَلاثِ عَنَاصِر رَئِيسَة : مَماليك السُّلْطان وقُوَّات

الأمَرَاء وأجْنَاد الحَلْقَة. ويَتَدَرَّج هذا الجَيْش في تَسَلْسُل دَقيق يبدأ من «أمَرَاء العَشْرَوات» وهم من يكون لهم عَشْرَة فرسان قد تَزيد إلى عِشرين ثم «أمَرَاء الطَّبْلَخاناه» وهم من تكون لهم إمْرَة أرْبَعِين فارسًا، أمَّا أكابرهم فمن تكون له «إمْرَة مائة فارس وتَقْدِمَة ألْف فارِس» ويُخْتارُ منهم أكابِر النُّوَّاب. وتكون مَناشِيرُ الأمَرَاء ومَنَاشِيرُ جُنْد الحَلْقَة من السُّلْطان أمَّا مَنَاشِيرُ أجْنَاد الأمَرَاء فتكون من أمَرَائِهم.

ويُمْنَحُ المماليك «إقْطاعات» تُدِرّ عليهم، وكان يُخَصَّصُ للأمير ثُلْث الإقْطاع ولأجْنَادِه الثُّلُثَان. وكان إقْطاعُ بعض أكابِر أمَرَاء المِئِين المقرَّبين من السُّلْطان يَبْلُغ مائتي ألْف دينار جَيْشِيَّة، وتَتَرَاوحُ إقْطاعاتُ أمَرَاء الطَّبْلَخَاناه ما بين ثلاثين ألْف دينار وثلاثةَ وعشرين ألْفًا، أمَّا أمَرَاءُ العَشْرَاوات فكان أقْصاهَا سَبْعَة آلاف دينار بينما لا تتعدَّى إقْطاعاتُ أجْنَاد الحَلْقَة ألْف وخَمْس مائة دينار.

ورَغْم أنَّ الدَّارِسِين اصْطَلَحوا على تَقْسِيم تاريخ دَوْلَة المماليك في مصر والشَّام إلى عَصْرَيْن: دَوْلَة المماليك البَحْرِيَّة، ودَوْلَة المماليك الجراكِسَة (أو البُرْجِيَّة)، فإنَّ هذا التَّمْييز يَخُصّ فَقَط العَناصِر التي سادَت في كلا الفَتْرَتَيْن، حيث غَلَبَ العُنْصُرُ التُّرْكيُّ على مماليك العَصْرِ الأوَّل (باسْتثناء المُظَفَّر بَيْبَرْس الجاشَنْكير الذي كان جَرْكسيًّا)، بينما كان مماليكُ العَصْر الثَّاني من الجراكِسَة، ولم يَحْدُث تَغْييرٌ جَوْهَري في تَنْظِيم الدَّوْلَتَين إلَّا ما يفرضه التَّطَوُّر الزَّمَني والذي تُوَضِّحُه مؤلَّفاتُ ابن فَضْلِ الله العُمَري والمَقْريزي والقَلْقَشَنْدِي وخَلِيل بن شَاهِين الظَّاهِري [1].

---

[1] راجع أحمد مختار العبادي: قيام دَوْلَة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت ١٩٦٩؛ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ١٩٨٨؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ـ التاريخ السياسي والاجتماعي، القاهرة ١٩٩٨؛ إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٠؛ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ١٩٦٧؛ محمد مصطفى زيادة: «نهاية سلاطين المماليك في مصر»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (١٩٥١)، ١٩٧ـ٢٢٨، وانظر كذلك المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣:٧٦٦هـ [1]، ٧٧٩ـ٧٨٠هـ [3].

قَلْعَةُ الجَبَل

لعَلَّ أهَمَّ ما خَلَّفَهُ الأيُّوبيُّون خِلال الفَتْرَة القَصِيرَة التي حَكَمُوا فيها مِصر هو بِناءُ «قَلْعَة الجَبَل» على الهَضَبَة المُتَقَدِّمَة من جَبَل المُقَطَّم، بين سنتي ٥٧٢-٥٧٩هـ/١١٧٦-١١٨٣م، كمدينةٍ حقيقيةٍ مُحَصَّنَةٍ داخِل أسْوارها وأبْراجِها، وهي تُمَثِّلُ بذلك تَجْديدًا حَقيقيًّا في أنْماط البِنَاء في مصر استمدَّه الأيُّوبيُّون من الشَّام موطنهم الأصلي، وقد أثْبَتَت التجارِبُ إمكانية سُقُوطِ المَدِينَة وبَقَاء القَلْعَة كمركزٍ للمُقاوَمَة يمكن عن طريقه اسْتِرْدَادُ المَدِينَة.

ونحن لا نعرف أيَّ شيءٍ عن القَصْر الذي شَيَّدَه الملكُ الكامِلُ محمد ـ أوَّل من أقامَ بصِفَةٍ نهائية في القَلْعَة من الأيُّوبيين ـ سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م، فقد تَرَكه سَريعًا خَلَفُه الملكُ الصَّالِحُ نَجْمُ الدِّين أيُّوب الذي نَقَلَ مَقَرَّ الحُكم إلى القَلْعَة التي أنشأها بجَزِيرَة الرَّوْضَة جَنُوب غَرْبيّ القاهِرَة سنة ٦٣٨هـ/١٢٤٠م. وبذلك فإنَّ قَلْعَةَ الجَبَل ـ رغم أنَّها إنْشَاءٌ أيُّوبيٌّ جَديد ـ لم تَقُم بدَوْرٍ كبيرٍ في العَصْر الأيُّوبي. ولكن مع اسْتيلاء المماليك على السُّلْطَة في مصر، سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، كانت قَلْعَةُ الجَبَل أهَمَّ مِيراثٍ وَرِثُوه عن الأيُّوبيين، وأضْحَت منذ هذا التَّأريخ مَقَرَّ الحُكْم في مصر وظَلَّت كذلك عِدَّةَ قُرون، حتى نَقَلَ الخِديو إسماعيل باشا مَقَرَّ الحُكْم نِهائيًا إلى قَصْرِ عابِدين وَسَط القاهِرَة الحَديثَة سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م.

وكما أنَّنا لا نعرف أيَّ شيءٍ عن القَصْر الذي شَيَّدَه السُّلْطانُ الأيُّوبي الكامِلُ محمد في القَلْعَة، فإنَّنا لا نَمْلِك كذلك أيَّةَ تَفاصيل ذات دَلالة عن المُنْشآت الملكية لكُلٍّ من الظَّاهِر بَيْبَرْس والمَنْصُور قَلاوون أهَمّ السَّلاطين المماليك الأوَائِل، ولكنَّ ابنَ فَضْل الله العُمَريّ، المتوفَّى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، ومُعَاصِر السَّلْطَنَة الثَّالِثَة

للنَّاصِر محمَّد بن قَلاوون يذكُر أنَّ حَاضِرَة مصر في وَقْتِه كانت تَشْتَمِل على ثَلاثِ مُدُنٍ عِظَام صارَت كلُّها مَدِينَةً واحِدَةً هي : الفُسْطاط والقاهِرَة وقَلْعَةِ الجَبَل [1]؛ فإلى سَلْطَنَة النَّاصِر محمد بن قَلاوون تَرْجِعُ أهَمُّ مُنْشآت القَلْعَة : الجامِعُ والإيوان والقَصْرُ الأبْلَق والقُصُورُ الجُوَّانِيَّة والسَّبْعُ قاعات والطَّبْلَخاناه تَحْتَ القَلْعَة والمَيْدانُ وقَناطِرُ مَجْرىٰ العيون الأولىٰ . وتَرَكَ لنا ابنُ فَضْل الله العُمَرِيّ وَصْفًا للقُصُور السُّلْطانِيَّة في القَلْعَة في أعْقاب التَّغَيُّرات المُهِمَّة التي أدْخَلها عليها السُّلْطانُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون ابتداءً من عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ، على الأقَلّ فيما يَخُصُّ القِسْمَ العامّ من القَلْعَة ، لا القِسْمَ الخاصّ الذي كان يشتمل دون شَكٍّ على : دُور الحُرَم ، والمَوْضِع المعروف بالسَّبْع قاعات المُخَصَّص لجواري السُّلْطان ، والقُصُور الجُوَّانِيَّة التي يأوي إليها السُّلْطانُ بعد أن يَفْرَغ من اسْتِقْبالاته اليومية أو من مَجْلِس النَّظَر في المظالِم .

أمَّا القِسْمُ العامّ للقَلْعَة فيَشْمَل «الإيوان الكبير» المَعْرُوف بـ«دَارِ العَـدْل» ، والذي أطْلَقَ عليه الرَّحَّالةُ الأوربيون منذ القَرْن السَّادِس عشر للميلاد «ديوان يُوسُف» ، وهو القَصْرُ الرَّسْميُّ للقَلْعَة حيث كان السُّلْطانُ يَجْلِس فيه كُلَّ اثنين وخميس للنَّظَر في المظالِم [2]. وأمَرَ السُّلْطانُ الأشْرَف قايِتْباي ، في سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م ، بتَجْديد هذا الإيوان وإصْلاحِ ما فَسَدَ من بِنائِه وصَرَفَ عليه نَحْوًا من عشرين ألف دينار [3]، إلَّا أنَّ قُبَّتَه العَظِيمَة التي أنشأها النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون ـ وهي من خَشَبٍ فَوْقَها رَصاصٍ ومُغَلَّفَة بقيشاني أخْضَر ـ سَقَطَت في سنة ٩٢٨هـ/١٥٢٢م [4]، كما فَكَّ السُّلْطانُ سَليم العُثْماني جَميعَ رُخامِه

---

[1] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ٢٠- ٢١، ٧٩.

[2] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٦٦٠.

[3] ابن إياس : بدائع الزهور ٣: ٦٠- ٦١، ٣٢٩.

[4] نفسه ٥: ٤٤١. وانظر كذلك وصف خليل ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ٢٦- ٢٧.

والعامودين السّماقي اللذين كانا فيه، يقول ابنُ إياس: «فارتَجَّت لهما الصَّلِيبَة لمَّا نَزَلوا بهما من القَلْعَة، وقاسَت النَّاسُ في سَحْبِهما غاية المَشَقَّة» [1].

ومن حُسْنِ الحَظّ فقد حَفِظَت لنا لَوْحاتُ كِتاب «وَصْف مصر» واللَّوْحاتُ التي جَمَعَها روبرت هاي Robert Hay في مطلع القرن التَّاسِع عَشْر في كِتابِه *Illustrations of Cairo*، رُسُومًا تُوَضِّحُ الشَّكْلَ الخارجيَّ للإيوان وعَواميدَه الضَّخْمَة المنقولة من المعابِد المصرية القَديمَة والتي كانت مستخدمَةً في قَلْعَة الرَّوْضَة [2]، يقول جومار Jomard في وَصْفِ «الإيـوان» الذي شاهَدَه قَبْل عام ١٨٠١م:

«إنَّ ما كَفَلَ له هذه الشُّهْرَة لدى جَميع الرَّحَّالَة هو ـ على الأخَصّ ـ أعْمِدَتُه الجرانيتية الجميلة الاثنان والثلاثون، وجُدْرانُه الضَّخْمَة، وجزءٌ من سَقْفِه لم يَبْرَح موضعه. أمَّا الأعْمِدَةُ ـ وكلُّها لا تزالُ قائمةً، فكُلٌّ منها كتلةٌ واحدةٌ منحوتةٌ من حَجَرٍ واحِدٍ ارْتِفاعُها بالتَّقْريب ـ إذا أهْمَلْنا التَّاج ـ حوالي ثمانية أمتار. وقواعِدُ هذه الأعْمِدَة من الحَجَر الرَّمْليّ قد نُحِتَت في غَيْر دِقَّة. ولم تُنْحَت هذه الأعْمِدَةُ أصْلًا لهذا الأثَر، فقُطْرُها ليس واحِدًا ويَبْلُغ في المُعْتاد مِتْرًا واحِدًا، وتَخْتَلِفُ أعْمِدَةُ التِّيجان كذلك فيما بينها، وهي في طابعها العامّ أقْرَب إلى الطِّراز الكورنثي، غير أنَّ زَخارِفَها سطحيةٌ تقْريبًا، فهي لا تَعْدُو أن تكون مجرَّد رُسُوم خفيفة خُطَّت في الحَجَر تُمَثِّل شكل النَّخْل العمودي وبعض الخيوط والعُقَد، وكذلك زخارف حَلَزُونية في كُلِّ رُكْنٍ من أرْكان التَّاج مع قليلٍ من البروز. والجرانيتُ الذي نُحِتَت منه هذه الأعْمِدَة لَوْنُه أحمر جميل، وإنَّ المَرْءَ ليعجب من ضخامَة هذه الأعْمِدَة وصَفَاء لوْن الجرانيت الذي قُدَّت منه، وللوَقْت والجُهْد الذي اسْتُغْرِق في نَقْلها لمثل هذا المكان المُرْتَفِع. وتَحْمِل هذه الأعْمِدَة عُقُودًا من الحَجَرِ وأفاريز مُزَخْرَفَة بكتابات عربية ذات أحْرُفٍ ضَخْمَة.

---

[1] ابن إياس: بدائع الزهور ٥: ١٩١.

[2] المقريزي: المواعظ ٣: ٦٦١.

وتُوجَد بأرْكانِ السَّقْف ـ على طريقةٍ تُشْبه زخارف عمائرنا ـ زخارِفُ خشبية مُقَعَّرَة (مُقَرْنَصات) مُكَوَّنَة من عِدَّة أدْوار.

أمَّا مُخَطَّطُ الإيوان فإنَّه أكثرُ رَوْعَةٍ من مُخَطَّطِ أجمل جَوامِع القاهِرة مثل: جامِع ابن طُولون وجامِع السُّلْطان حَسَن، على الرَّغم من أنَّه أقلّ منها اتِّساعًا»[1].

وقد زال الآن كُلُّ أثَرٍ لهذا الإيوان الذي حَلَّ محلَّه، بين سنتي ١٨٣٠ و١٨٤٨م، جامِعُ محمد علي باشا الذي بُنِيَ على طِرازِ جَوامِع إسْتانبول وعلى الأخَصِّ جامِع السُّلْطان أحمد (الجَامِع الأزْرَق) المواجه لجامِع آياصوفيا.

وبالقُرْبِ من الإيوَانِ كان «القَصْرُ الأبْلَق» ـ الذي عُرِفَ بذلك لأنَّه بُني بالحَجَر الأسْوَد والأصْفَر بالتبادُل ـ حيث كان «تَخْتُ المُلْك» مَنْصوبًا بصَدْر الإيوان الشَّمالي للقَصْر المُطِلّ على الإسْطَبْل والذي كان السُّلْطانُ يُشاهِدُ من خلاله مَنْظرًا بانوراميا يمتدُّ إلى أهْرام الجِيزَة[2]. وكانت العادَةُ أنْ يَجْلِس فيه السُّلْطانُ مَجْلِسًا يوميًّا ـ عَدَا يومَيّ الاثنين والخميس اللذين كان يجلس فيهما في الإيوان ـ حتى السَّاعَة الثَّالِثَة ظهْرًا، ثم يُغَادِره إلى القُصُورِ الجُوَّانية ودُور الحُرَم.

وفي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م قامَ الأميرُ يَشْبَك من مَهْدي الدَّوادار ببَياض أماكِن بالقَلْعَة ودهان أبْوابِها وضَرَب الرُّنوك السُّلْطانية عليها، كما قامَ بجلاء واجِهَةِ القَصْر الأبْلَق وما يليه حتى ظَهَرَ رُخامُه المُلَوَّن[3]، كذلك قامَ السُّلْطانُ الأشْرَفُ قانْصوه الغوري بتَجْديد القَصْر الأبْلَق سنة ٩١٣هـ/١٠٥٧م[4].

ويُقَدِّمُ لنا جومار JOMARD كذلك وَصْفًا للقَصْرِ الأبْلَق الذي أطْلَقَ عليه «قَصْر يُوسُف» ووَصَفَه بأنَّه:

---

[1] جومار: وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل ٢٣٢- ٢٣٣.

[2] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٦٧٠.

[3] ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ١٦١.

[4] نفسه ٤: ١٢٣، ٥: ٩٤.

«ذلك المَبْنَى الخَراب المُتداعي المُوغِل جِهَة الغَرْب والذي يُشْرِفُ على مَدينَة القاهِرَة ... فهذا القَصْرُ لا تزالُ تَبْدو عليه آثارُ العَظَمَة والفَخَامَة ، فحَوائِطُه الضَّخْمَة التي بُنِيَت بعنايةٍ فائِقَةٍ مُغَطَّاةٍ من الدَّاخِل بالنُّقُوش والفُسَيْفُسَاء والذَّهَب وبالتَّصاوير التي ما تَزالُ قائِمَةً حتى الآن . كما لا يزالُ يُوجَد بقايا بعض الأَقْبِيَة ، إلَّا أنَّها في غاية التَّداعي بحيث يتعذَّر وَصْفُها . ويحوي هذا القَصْرُ قاعَةً مُزَيَّنَةً باثني عَشَر عَمُودًا ضَخْمًا من الجَرانيت يَعْلوها قُبَّةٌ بها نُقُوشٌ بأحْرُفٍ مُذَهَّبَة»[1].

وقامَ السَّلاطِينُ المماليكُ المتأخِّرون ، وعلى الأخَصّ الاشْرَف قايِتْباي والأَشْرَف قانْصُوه الغُوري ، بتَجْديد سائِر أبْنِيَة القَلْعَة ، وعلى الأخصّ القاعَة البَيْسَرِيَّة[2]، قَبْل أن يَسْتَوْلِي عليها العُثْمانيون في سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م في أعْقاب الفَتْح العُثْمانيّ لمصر ويفكّوا رُخامَها وعَوامِيدَها وينقلوها إلى إسْتانْبول على ظُهُور السُّفُن[3]. ففي سنة ٩١٠هـ/١٥٠٤م اهتمَّ السُّلْطانُ الأشْرَفُ قانْصُوه الغُوري «بعمارَة القاعَة البَيْسَرِيَّة وقاعَة العَواميد وغير ذلك من الأماكِن التي بالقَلْعَة ، فجَدَّدَ ما فيها من العِمارَة وزَخْرَفَها إلى الغاية» يقول ابنُ إياس : «أنَّه رَسَم للقاضي شهاب الدِّين أحمد ناظِر الجَيْش بأن يفكّ رُخام قاعَة والِدِه ناظِر الخاصّ يُوسُف التي سَمَّاها «نِصْف الدُّنْيا» ، وكان فيها من الرُّخام المُثَمَّن الذي لا يُوجَد ، وقد أفْنَى ناظِرُ الخاصّ يُوسُف عُمْرَه على بِنَاءِ هذه القاعَة ، فلا زَالَ به السُّلْطانُ حتى فَكَّ رُخامَ نِصْف الدُّنْيا ونَقَلَه إلى قاعَة البَيْسَرِيَّة وقاعَة الأعْمِدَة وغير ذلك مَّا أنشأه بالقَلْعَة»[4]، وأضافَ ابنُ إياس ـ في حَوادِث سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م ـ أنَّ السُّلْطانَ سَليم العُثْماني نَزَل بالرُّخام الذي فَكَّه من القَلْعَة فوَضَعَه في صَناديقَ خَشَبٍ حُمِلَت في

---

[1] جومار : المرجع السابق ٢٣١- ٢٣٢، وانظر فيما يلي ٦٦٩هـ[1]، ٦٧٦هـ[1].

[2] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٦٧٩.

[3] ابن إياس : بدائع الزهور ٥: ١٦٢، ١٧٩، ١٩١.

[4] نفســه ٤:٦٧- ٦٨، ٥: ٩١.

المراكِب إلى إستانبول ، ثم قال : «ومن العَجائِب أنَّ السُّلْطانَ الغوري ظَلَمَ أوْلادَ ناظِر الخاصّ يُوسُف وأخَذَ رُخامَ قاعَتِهم التي تُسَمَّى بنِصْف الدُّنْيا وجَعَلَ ذلك الرُّخام في قاعَة البَيْسَرِيَّة ، فسَلَّطَ الله تعالى عليه بعد مَوْتِه من أخَذَه من البَيْسَرِيَّة ولم يَنْتَفِع به أحَدٌ من بعده ، والمجازاة من جِنْس العَمَل»[1] .

قَناطِرُ مَجْرىٰ العُيُون

كان نَقْلُ المياه إلى مَرَاكِز الحُكْم في مصر مُشْكَلَةً وَاجَهَت الدُّوَل المتتالية ، فرَغْم وُجُود النِّيل فقد أقيمَت المُدُنُ العَوَاصِمُ على مَسَافَةٍ بَعيدَةٍ من مَجْراه الأمْرُ الذي اسْتَوْجَبَ بِنَاءَ قَنَاطِر تَحْمِلُ المياه إليها مثل : قناطِر أحمد بن طولُون التي كانت تَحْمِلُ المياه من بِرْكة الحَبَش إلى القَطَائع . ولمَّا بُنِيت قَلْعَةُ الجَبَل كانت عَمَلِيَّة تَزْويدها بالمياه من المَشَاكِل التي تَطَلَّبَت إيجاد حُلُولٍ ، وفي بِدَايَة الأمْر تَمَّ الاعْتمادُ على الآبار وحَفَرَ قَرَاقُوش البِئْر التي عُرِفَت بعد ذلك بـ« بِئْر يُوسُف » وكان يُنْزَلُ إليها بدَرَج نحو ثلاث مائة دَرَجَة[2] .

---

[1] ابن إياس : بدائع الزهور ٥ : ١٨٣ .

وَصْفَ كلٌّ من بول كازانوفا وكيبل أرشيبالد كريزويل القَلْعَة وسُور صلاح الدِّين وَصْفًا مُفَصَّلًا اعتمادًا على المصادر الأدبية وعلى الدراسات الأثرية للمَوْقِع ، راجع P. CASANOVA, *Histoire et description de la Citadelle du Caire, MMAF* IV (1891), pp.509-781 (نقله إلى العربية أحمد درَّاج بعنوان : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م)؛ K.A.C. CRESWELL, «Archeological Research at the Citadel of Cairo», *BIFAO* XXIII (1924), pp.89-157; ID., *The Muslim Architecture of Egypt*, Oxford 1959, pp.1-40 (نقله إلى العربية جمال محمد محرز بعنوان : وَصْف قلعة الجبل ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤) ، وانظر كذلك عن عمارة القلعة في زَمن المماليك N. RABBAT, *The Citadel of Cairo. A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture*, Leiden - Brill 1995.

[2] عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٤٥ ؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣ : ٦٤٨-٦٤٩ ؛ جومار : وصف مدينة القاهرة ٢٩٨ .

وفي سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م أنْشَأ النَّاصِر محمد بن قَلاوون أرْبَع سَوَاقِي على بَحْر النِّيل تَنْقِل الماء إلى السُّور، ثم من السُّور إلى القَلْعَة، وعَزَمَ في سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م على حَفْرِ خَلِيج من ناحِيَة حُلْوان إلى الجَبَل الأحْمَر المُطِلّ على القاهِرَة لِيَسُوقَ الماء إلى المَيْدَان الذي عَمِلَه بالقَلْعَة، ولكنَّه عَدَلَ عن حَفْرِه نتيجَةً لطُول المُدَّة التي كان سيستغرقُها هذا الحَفْر والتي قُدِّرَت بعَشْر سَنَوات، ثم اسْتَقَرَّ في سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م على حَفْر خَلِيجٍ من النِّيل إلى الشَّرَف المعروف بالرَّصْد ويُحْفَر فيه عَشْرَةُ آبار ـ عُمْقُ كل بئْرٍ منها نحو أربعين ذِرَاعًا ـ تُرَكَّبُ عليها السَّوَاقي حتى يَجْري الماءُ من النِّيل إلى القَنَاطِر التي تحملُ الماء إلى القَلْعَة بغَرَض سَقْي الأشْجار وملء الفَسَاقي ولأجْل مَرَاحات الغَنَم والأبْقار، ولكن العَمَل تَوَقَّفَ بسبب وَفَاة النَّاصر محمد في آخِر هذا العام[١].

وتَرْجِعُ قَنَاطِرُ مَجَرَىٰ العُيُون الباقية آثارُها إلى الآن إلى عَهْدِ السُّلْطان قانْصُوه الغُوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) الذي شَرَعَ في بِنَاء قَنَاطِر جَدِيدَة في سنة ٩١٢هـ/١٥٠٧م، وأشار عليه المهندسُون أنْ يكون مُبْتدأها من عند مَوْرَدَة الحَلْفَاء بالقُرْب من الجامِع النَّاصِري الجَدِيد (فم الخَلِيج الآن) فأنشأوا لذلك بِئْرًا مُتَّصِلًا بالنِّيل وسَبْع سواقي تُديرُها الأبْقارُ لرَفْع المياه إلى قَنَاةٍ فوق قَنَاطِر مَعْقُودَة على دَعَائِم مُتَّصِلَة تجاه الشَّرْق مَوْضِع قناطر النَّاصِر القديمة إلى أنْ تَصِل إلى سُور صلاح الدِّين ثم تَنْعَرِج بعدها جِهَة الشَّمال الشَّرْقي حتى تَبْلُغ المَيْدَان والقَلْعَة، يَبْلُغُ طولُها ٣٤٠٥ مترًا (بينها ٢١٥٥ مترًا شَيَّدَها الغُوري). وأبْدَىٰ معاصِرُه ابن إياس إعْجَابَه بهذه القَنَاطِر ولكنه انْتَقَدَ عِظَم ما صُرِفَ على بِنائِها وأنَّ غالِبَه من وُجُوه الظُّلْم والمُصَادَرَات[٢].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٧٤٣ والسلوك ٢: ٥١٤-٥١٥.

[٢] ابن إياس: بدائع الزهور ٤: ١١٠.

وأَحْدَثَ الفرنسيُّون عند مُنْقَلَبِ القرنِ الثَّامِن عَشْر تَغْييرَات مُهِمَّة بقناطِر مجرىٰ العُيُون حيث « سَدُّوا عيونها وبَوَاكيها وجَعَلُوها سُورًا بذاتها ، ولم يُبْقُوا منها إلَّا قَوْصَرَةً (فَتْحَة) وَاحِدَةً من ناحِيَة الطِّيبي جِهَة مصر القَدِيمة ، جَعَلُوها بابًا ومَسْلَكًا وعليها الكَرْنَك والغَفَر والعَسْكر الملازِمين الإقامَة بها لقَبْضِ المَكْس من الخَارِج والدَّاخِل ، وسَدُّوا الجِهَة المَسْلُوكة من ناحِيَة قَنْطَرَة السَّدّ بحاجِز خَشَب مُقَفَّص وعليه بابٌ بقِفْل مُقَفَّص أيضًا وعليه حَرَسْجِيَّة ملازِمُون القِيام عليه ، وحَفَرُوا خَلْفَ ذلك خَنْدَقًا »[١].

وما تَزَالُ بَقَايا هذا المجرىٰ قائمةً إلى الآن ومُسَجَّلَةً بالآثار برقم ٧٨[٢].

---

[١] الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ٢٦٠.

[٢] راجع كذلك K.A.C. Creswell, *MAE* II, pp.255-59؛ سعاد ماهر : «مجرى مياه فم الخليج»، المجلة التاريخية المصرية ٧ (١٩٥٨)، ١٣٤-١٥٧.

القَاهِرَةُ زَمَن المَماليك

يُشيرُ المَقْريزي في نَصٍّ مُجْمَل إلى التَّحوُّل الذي عَرَفَتْهُ القاهِرَةُ منذ أوائل القَرْنِ السَّابع الهجري/ الثَّالِث عَشْر الميلادي ورَبَطَ ذلك ببَدْء هُجُوم التَّتَر على المَشْرِق والعِرَاق ممَّا أدَّى إلى نُزُوحِ الكَثِير من المَشَارِقَة إلى مصر هَرَبًا من الهُجُوم التَّتَريّ، الأمْرُ الذي أدَّىٰ إلى تَعْمِير حافتيّ الخَلِيج الكَبير وما دَارَ على بِرْكة الفِيل جنوبي بابِ زَوِيلَة، كما نَزَلُوا بالحارَة الحُسَيْنِيَّة خارج باب الفُتُوح شَمَالًا وعَمَّرُوا بها المَسَاكِن، وشَارَكَهُم في الإقامَة بها أيضًا أمَرَاءُ المماليك، يقولُ المَقْرِيزيّ: «فصَارَت من أعْظَم عَمَائِر مصر والقاهِرَة واتَّخَذَ الأمَرَاءُ بها مُناخات الجِمال وإسْطَبْلات الخَيْل، ومن وَرَائها الأسْوَاق والمساكِن العَظِيمَة في الكَثْرَة وصَارَ أهْلُها يُوصَفُون بالحُسْنِ خُصُوصًا لمَّا قَدِمَت الأوَيْرَاتية»[١].

وفي زَمَنِ سَلْطَنَة النَّاصِر محمد بن قَلاوون الثَّالِثَة (٧٠٩-٧٤١هـ/ ١٣٠٩-١٣٤١م) حَدَثَت فيما بين قَلْعَة الجَبَل وقُبَّة النَّصْر تحت الجَبَلِ الأحْمَر بآخِر مَيْدَان القَبَق عِدَّةُ تُرَب، بعدما كان هذا المكانُ فَضَاءً يُعْرَفُ بالمَيْدَان الأسْوَد ومَيْدَان القَبَق، وتَزَايَدَت العَمَائِرُ بالحُسَيْنِيَّة حتى صَارَت من الرَّايدَانِيَّة إلى بابِ الفُتُوح[٢].

وعُمِّرَ كذلك، جَنُوبي باب زَوِيلَة، جَمِيعُ ما حَوْلَ بِرْكة الفِيل والصَّلِيبَة إلى جَامِع ابن طُولُون وما جَاوَرَه إلى المَشْهَدِ النَّفِيسي.

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٢٣، ٣: ٦٣.

[٢] نفسه ٣: ٢٦٩.

وحَكَرَ النَّاسُ، في غَرْبي الخَلِيج، أرْضَ الزُّهْرِيّ وما قَرُبَ منها، أي من قَنَاطِر السِّباع (السَّيِّدَة زَيْنَب الآن) إلى مُنْشأة المَهْرَاني (بين سَيَّالَة جَزيرَة الرَّوْضَة والخَلِيج)، ومن قَنَاطِر السِّبَاع إلى البِرْكة النَّاصِرِيَّة (المعروفة ببركة السَّقَّائين عند شارع محمد فريد) إلى اللُّوق إلى المَقْس (مَيْدَان رَمَسِيس الآن)[1].

ولمَّا حَفَرَ الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون الخَلِيجَ النَّاصِريّ سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م اتَّسَعَت الخِطَّةُ فيما بين المَقْس والدِّكَّة إلى سَاحِل النِّيل، وأنْشَأَ النَّاسُ فيها البَسَاتِين العَظِيمَة والمَسَاكِن الكثيرة والأسْوَاق والجَوَامِع والمَسَاجِد والحَمَّامَات والشُّوَن. وهي تُعادِلُ المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين المَقْس وسَاحِل النِّيل عند بُولاق ثم من بُولاق إلى مُنْيَة السِّيرج شَمالًا (شُبْرَا الحالية) ومنه إلى مُنْشَأة المَهْرَاني جَنُوبًا (القَصْر العيني الآن)[2].

*

* *

لم تكن مَدينَةُ القاهِرَة بحُدُودِها الفاطمية زَمَنَ المماليك مَدينَةً مُحَصَّنَةً، فقد اخْتَفَى السُّورُ الفاطِميّ وَسَطَ أحْياء المَدينَة المملوكية، كما أنَّ القَصَبَةَ أو الشَّارِعَ الأعْظَم[3] لم تكن الشُّرْيانَ التُّجاري للمَدينَة فحَسْب، وإنَّما المكانُ الذي كانت تتمُّ فيه كذلك الاحْتِفالاتُ الموكبية والتي كان يَظْهَرُ فيها السَّلاطينُ للشَّعْب، وهي تُعيدُ إلى الأذْهان الميراثَ الفاطِميّ الذي كان يمكن إدْراكُه حتى هذا الوَقْت.

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٢٣.

[2] نفسه ٢: ٢٢٤.

[3] نفسه ٣: ٣١٥-٣١٦.

وكما كان الشَّارِعُ الأعْظَمُ هو المركزُ السِّياسيّ والرُّوحي للقاهِرَة الفاطِمِيَّة، فقد أصْبَحَ في العَصْر المملوكيّ أشْبَه بمَدينَةٍ جامِعيةٍ؛ فعلى طُول القَصَبَة ـ وعلى الأخَصّ في منطقة بَيْن القَصْرَيْن ـ كانت تَوجَدُ سلسلةٌ من المَدارِس بَدْءً من العَصْرِ الأيُّوبي: دارُ الحَديث الكامِلِيَّة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، والمَدارِسُ الصَّالِحِيَّة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة بَيْبَرْس (٦٦٠-٦٦٢هـ/١٢٦٢-١٢٦٣م)، وقُبَّةُ ومَدْرسة المَنْصُور قَلاوون (٦٨٣-٦٨٤هـ/١٢٨٤-١٢٨٥م)، والمَدْرَسَةُ النَّاصِرِيَّة محمد بن قَلاوون (٦٩٥-٧٠٣هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م)، والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة بَرْقُوق (٧٨٦-٧٨٨هـ-١٣٨٤-١٣٨٦م)، والمَدْرَسَةُ الأشْرَفِيَّة بَرْسْباي (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، وإلى الجنوب قليلًا كان يوجَد آخِرُ جَوامِع دَوْلَة المماليك الشَّراكِسَة: جامِعُ الأشْرف قانْصُوه الغُوري وتجاهه مَدْرَسَةٌ وَقُبَّة وسبيل وكُتَّاب (٩٠٩-٩١٠هـ/١٥٠٤-١٥٠٥م)، ثم جامِعُ ومَدْرَسَةُ المُؤَيَّد شَيْخ المَحْمودي (٨١٨-٨٢٣هـ/١٤١٥-١٤٢٠م) بجوار باب زَوِيلَة جنوب المَدينَة الفاطِمِيَّة.

وعلى جانبيّ القَصَبَة في شَوارِع مُوازِيَة لها كان يُوجَدُ أيضًا عَدَدٌ كبيرٌ من المُنْشآت الدِّينِيَّة وعلى الأخَصّ في الطَّرِيق الوَاصِل بين رَحْبَة بابِ العِيد وباب النَّصْر (شَارِع الجَمَالِيَّة الآن): خانْقاه بَيْبَرْس الجاشَنْكير (٧٠٦-٧٠٩هـ/١٣٠٦-١٣١٠م) والمَدْرَسَةُ القراسُنْقُرِيَّة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) ملاصِقةً له إلى الجنوب منه بشارع الجمالِيَّة، وجامِعُ سابِق الدِّين مِثْقال (٧٦٣هـ/١٣٦١م) بدَرْب قِرْمِز، ومَدْرَسَةُ جَمال الدِّين الأُسْتادَّار (٨١١هـ/١٤٠٨م) بشارع التُّمْبَكْشِيَّة، وجامِعُ أبي بكر بن مُزْهِر (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) بحارَة بَرْجَوان. وكان مَجْلِسُ القاضي يُعْقَد في بَيْن القَصْرَيْن في المَدارِس الصَّالِحِيَّة النَّجْمِيَّة، كما كان يُوجَد المارِستانُ المَنْصوري، مَرْكز مصر الطِّبِّي في العَصْر الإسلاميّ

والذي ظَلَّ يُؤَدِّي دَوْرَه حتى القرن التاسع عشر الميلاديّ [١].

وإضَافَةً إلى الجَوامِع والقُصُور التي أُنْشِئت على الأخَصّ في فَتْرَة سَلْطَنَة النَّاصِر محمد بن قَلاوون الثَّالِثَة حَوْل القَلْعَة وخارج باب زَوِيلَة ، والتي سأشيرُ إليها بعد قليل ، أُنْشِئَتَ كذلك في نهاية القَرْن الثَّامن الهجري : مَدْرَسَةُ أمّ السُّلْطان شَعْبان (٧٧٠هـ/١٣٦٩م) بشارع بَابِ الوَزِير ، ومَدْرَسَةُ الأشْرَف شَعْبان (٧٧٧هـ/١٣٧٦م) على الصُّوَّة مُقابِل باب القَلْعَة ، وجامِعُ أيْتَمُش البِجاسي (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) بشارع باب الوَزير ، بحيث أصْبَح القِسمُ الأكبر من الآثار التاريخية لمصر الإسلامية مُرَكَّزًا داخِل حُدُود القاهِرَة المملوكية التي يدُلُّ عليها الآن مَناطِقُ الجَمالِيَّة والدَّرْب الأحمر والخَليفَة حتى صَلِيبَة ابن طُولُون جَنُوبًا ، وكمُّ التُّراث المملوكي بينها هائِلٌ وعَظيم ، ولكنَّه في حالَةٍ متردِّية بسبب الإهْمال الشَّديد وعَدَم العِنايَة وانْعِدام الصِّيانَة ، وبالتالي فكثيرٌ من هذه الجوامِع غير مُقامَة الشَّعائِر ولا يمكن زيارتها ويُخْشى عليها من التَّدْمير .

وبفَضْل الشَّواهِد القَليلة التي بَقِيَت من عَمائِر القرن الثَّامِن الهجريّ/ الرَّابع عَشْر الميلاديّ ، نستطيع أن نَتَخَيَّل شَكْل القاهِرَة في هذا العَصْر ، وهي تَذْخَرُ بهذا الكمّ من الجَوامِع والمدارِس والخَوانِق والدُّور والقُصُور والقَياسِر والوَكالات والحَمَّامات التي زالَ القِسْمُ الأكبر منها الآن .

وشَهِدَت المَنْطِقَةُ الواقِعَةُ خَارج سُور القاهِرَة الشَّمالي على يَسَار الخارِج من باب الفُتُوح تَمَدْيُنًا قَوِيًّا في حَارَة الحُسَيْنِيَّة وفي مَنْطِقَة بِرْكة الرَّطْلي بَدَأ بقُوَّةٍ منذ أنْ بَنَى السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس جَامِعَه هناك سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م . وكان العَدَدُ المُتَنامِي

[١] راجع ، D. BEHRENS-ABOUSEIF, «Le Caire - Topographies urbaines» dans J.-CL. GARCIN (ed.) *Grandes villes mediterranéennes du monde musulman médiéval*, Rome 2000, pp. 199-202.

من المَسَاجِد الذي بُنِيَ في هذه المَنْطِقَة بعد ذلك (اثْني عَشْر مَسْجِدًا بينها ثمانٍ بُنِيت في عَصْر النَّاصِر محمد بن قلاوون) شَاهِدًا على تَطَوُّرٍ عُمْراني ونُمُوٍّ سُكَّاني اسْتَمَرَّ طَوِيلًا سَاعَد على تَنْميته اسْتِقْرَارُ الكَثِير من الذين فَرُّوا من وَجْهِ التَّتَار فيه ، إضَافَةً إلى طائِفَةِ الأويراتِيَّة من المَغْول الذين رَحَّبَ بهم السُّلْطانُ العَادِل كَتْبُغا (٦٩٥-٦٩٦هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٥م) وأنْزَلَهُم بالحُسَيْنِيَّة سنة ٦٩٥هـ/١٢٩٤م ، وتَوَالَى إنْشَاءُ الجَوَامِع والدُّور بهذه الخِطَّة ومن بينها جَامِع آل مَلِك الجوكَنْدَار سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م [١].

وازْدَهَرَت المَنْطِقة المجاورة للخَلِيج كموْضِعٍ للنُّزْهَة والاسْتِمْتَاع في العَصْر المملوكي ، فأمَرَ النَّاصِر محمد بن قَلاوون ببنَاء عَددٍ من القَنَاطِر لتَصِل الحُسَيْنِيَّة بكوم الرِّيش وأرْضِ الطَّبَّالَة على البَرِّ الغَرْبِي للخَلِيج ، وهذه القَنَاطِر هي من الشَّمَال إلى الجَنُوب : قَنْطَرَة بني وَائِل ، التي تَصِلُ بين التَّاج والبَعْل في البَرِّ الغَرْبِي للخَلِيج والقِسْم الشَّمالي من الحُسَيْنِيَّة ؛ وقَنَاطِر الإوَزّ بين البَعْل والحُسَيْنِيَّة ؛ وأخيرًا القَنْطَرَة الجَدِيدَة بين بابِ الفُتُوح شَرْقًا وأرْضِ الطَّبَّالة غَرْبًا [٢].

غير أنَّ هذا الازْدِهار تَرَاجَعَ بعد قَرْنٍ من الزَّمَان بسَبَبِ عَدَدٍ من الأوْبِئَة والمجاعات التي اجْتاحَت مصر في أعْوام ٧٤٩هـ/١٣٤٨م و ٧٩٢هـ/١٣٨٨م و ٨٠٦هـ/١٤٠٨م . كما تَعَرَّضَ حَيُّ الحُسَيْنِيَّة في سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٥م إلى فَيَضانٍ من مِيَاهِ الخَلِيج نَتِيجَةً لانْجِرَافِ الماء عند قَنَاطِر الإوَزّ أدَّىٰ إلى إغْراقِ الدُّور المَوْجُودَة في هذه الجِهَة ، فخَرِبت عِدَّةُ حارَات كان فيها ما يَنِيفُ على ألْفِ دَارٍ ، ولم تَفْلَح مُحَاوَلاتُ إصْلاحِها فعُمِلَ مَوْضِع بعضها بَسَاتِين ومَوْضِع بعضها الآخَر بِرَك ماء [٣]. وكان غَزْوُ تَيْمُورلَنْك للشَّام كذلك أحَدَ الأسْبَاب الرَّئِيسَة للكارِثة

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٢١٦. ABOUSEIF, *Azbakiyya* p.163.

[٢] نفســه ٣: ٤٩٥-٤٩٦؛ D. BEHRENS-

[٣] المقريزي : السلوك ٣: ٢٦٥.

الاقتصادية التي أصَابَت مصر وعَطَّلَت النُّمُوَّ العُمْراني للقاهِرَة، يقول المَقْرِيزي:

«وكانت الحُسَيْنِيَّةُ قد أرْبَت في عِمَارَتها على سَائِر أخْطاطِ مصر والقاهِرَة، حتى لقد قال لي ثِقَةٌ مِمَّن أدْرَكْتُ من المَشْيَخَة: إنَّه يَعْرِفُ الحُسَيْنِيَّة عامِرَةً بالأسْوَاق والدُّور وسَائِر شَوَارِعِها كاظَّةً بازْدِحَام النَّاس من الباعَة والمارَّة وأرْباب المَعَايِش وأصْحَاب اللَّهْو والمَلْعُوب، فيما بين الرَّايْدَانِيَّة - مَحَطَّة المَحْمَل يَوْم خُرُوج الحاجّ من القاهِرَة - وإلى بابِ الفُتُوح لا يَسْتَطِيعُ الإنْسَانُ أنْ يَمُرَّ في هذا الشَّارِع الطَّوِيل العَرِيض طُول هذه المَسَافَة الكبيرة إلَّا بمَشَقَّة من الزِّحَام، كما كُنَّا نَعْرف شَارِع بَيْنَ القَصْرَيْن فيما أدْرَكْنا.

ومازَالَ أمْرُ الحُسَيْنِيَّة متماسِكًا إلى أنْ كانت الحَوَادِثُ والمِحَنُ منذ سنة سِتٍّ وثمان مائة وما بَعْدَها فخَرِبَت حارَاتُها ونُقِضَت مَبَانِيها وبِيعَ ما فيها من الأخْشَاب وغيرها وبادَ أهْلُها»[1].

ويَدُلُّ على صِحَّةِ ذلك أنَّه لم يَبْق من العَمَائِر التي شُيِّدَت في هذه الخِطَّة الآن سِوَىٰ جَامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس وجَامع أبي بَكْر بن مُزْهِر.

القَصَبَةُ مَرْكَزُ المَدِينَة الاقْتِصَادِي

كان مَرْكَزُ المَدِينَة الاقْتِصادِي الذي تَتَجَمَّعُ فيه الأنْشِطَةُ التُّجارية والحِرَفِيَّة يَقَعُ على جانبيّ القَصَبَة في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين باب الفُتُوح شَمَالًا وباب زَوِيلَة جَنُوبًا على مِسَاحَةٍ تَبْلُغ نحو ٩٤ فَدَّانًا يَتَجَمَّعُ فيها ثمانيةٌ وأرْبَعُون سُوقًا، من بين السَّبْعَة وثمانين سُوقًا التي يُحَدِّدُ المَقْرِيزي مَوَاقِعها، وأرْبَعٌ وأرْبَعون وَكالَة من بين وَكالَات القاهِرَة البالِغ عَدَدُها ثمانٍ وخمسين وَكالَة. وتَرَكَّزَت الأنْشِطَةُ الاقْتِصادِيةُ بنَوْع

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٦٦.

خاصّ في قِطاعٍ عَرْضُه مائة متر وطُولُه أرْبَع مائة متر يَقَعُ بين الصَّاغَة (جنوبي مجموعة قلاوون) شَمَالًا وسُوق الكَحْكِيِّين قُرْب حَارَة الرُّوم جَنُوبًا .

وأقِيمَت أسْواقٌ أخرىٰ مُتَخَصِّصَة خَارِج نِطاق القاهِرَة الفَاطمية على امْتِدَاد الطُّرُق الواقعة أمام أبْوَاب المَدِينَة الكَبِيرة وعلى الأخَصّ امْتِدَاد الشَّارِع الأعْظَم خَارِج باب زَوِيلَة تِجَاه الصَّلِيبَة والقَلْعَة ، وعَرَفَت حاراتُ المَدِينَة الخَارجية سُوَيْقَات كانت تُمُدّ سُكَّانَها باحْتياجاتهم الضَّرورية وعلى الأخَصّ المآكِل .

كانت هذه الأسْوَاقُ تُقامُ عند أحَدِ التَّقاطُعات وتَضُمُّ تَجَمُّعًا لمجموعات من الحَوَانِيت على أساسٍ مِهَنِيّ [١].

*

* *

كان يُوجد بظاهِر القاهِرَة الغَرْبيّ في المَنْطِقَة الممتدَّة بين أراضي اللُّوق غَرْبًا إلى باب البَحْر بالمَقْس (نِهَايَة شارع كلوت بك من جِهَةِ مَيْدَان رَمْسيس الآن) اثْنان وخَمْسُون سُوقًا أدْرَكَها المَقْرِيزي في مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِع الهجري عامِرَةً وفيها نحو السِّتِّين حَانُوتًا ، ثم يُضيفُ : « فكيف ببَقِيَّة الجِهَات الثَّلاث مع القاهِرَة ومصر ؟ » [٢].

وكان يُوجَدُ بالقَصَبَة (الشَّارِع المُمْتَدّ من أوَّل الحُسينية شَمَالًا خارِج باب الفُتُوح وحتى المَشْهَد النَّفِيسي جَنُوبًا خارج باب زَوِيلَة) ـ والتي عَدَّها المَقْرِيزي أعْظَم أسْوَاق مصر ـ اثْنا عَشْر ألْف حَانُوت ، أدْرَكَها المَقْريزيّ غَاصَّةً بأنْوَاعِ المآكِل والمَشَارِب والأمْتِعَة ، يَعْجَزُ العادُّ من إحْصَاءِ ما فيها من الأنْوَاع فَضْلًا عن الأشْخَاص . وكان اللَّبَّانُون والجَبَّانُون والطَّبَّاخُون يسْتَخْدِمُون في بَيْعِ بِضَاعَتِهم شُقافًا حُمْرًا يَضَعُون فيها اللَّبَن والجُبْن ويأكُل فيها الفُقَرَاءُ الطَّعَام بحَوَانِيت الطَّبَّاخِين ، كما كان بيَّاعُو الجُبْن يسْتَعْمِلُون نَوْعًا من الخَيْط والحُصْر تُوضَعُ تحت الجُبْن في الشُّقاف وغيرها . ويَسْتَخْدم العَطَّارُون والأبازِرَة والفامِيُّون كذلك في لَفِّ بِضاعَتهم القَرَاطيس والوَرَق المُقَوَّىٰ

---

[١] A. RAYMOND *Le Caire*, p.160.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣١٥.

وخُيوط تُشَدُّ بها القَرَاطِيسُ المحمول فيها الأدْوِيَة وحَوَائِج الطَّعَام من الحُبُوب والأفاوَيْه . كانت هذه الأصْنافُ إذا حُمِلَت من الأسْوَاق وأُخِذَ ما فيها أُلْقِيتَ إلى المَزَابِل ، حتَّى أنَّ النَّاسَ كانُوا يُفَاخِرُون بمصر سَائِر البِلاد بأنَّه يُلْقى فيها في كلِّ يَوم على الكيمان والمَزَابل أَلْفُ دينار ذَهَب ، يَعْنُون بها هذه الشُّقَاف التي يستخدمها التُّجّار [١].

كانت القَصَبَةُ مع سَعَتها تَضِيقُ بالبَاعَة الذين كانوا يجلسون على الأرْض في طُول القَصَبَة بأطْبَاقِ الخُبْز وأصْنَافِ المَعَاشِ ويُعْرَفُون بـ« أصْحَابِ (أرْباب) المَقَاعِد » ، وكانوا عُرْضَة لتَعَرُّض الحُكَّام لهم لمَنْعِهم من الإقامَة في الأسْوَاق لما يَحْصُل بهم من تَضْييق الشَّوَارع وقِلَّة بَيْع أرْبابِ الحَوَانِيت [٢].

وإلى جانِب الحَوَانِيت المُنْتَشِرَة على امْتِدَادِ القَصَبَة كانت تُوجَدُ العَديدُ من الأسْوَاقِ المُتَخَصِّصَة التي تَبِيعُ نَوْعًا واحِدًا من البَضَائِع مثل : « سُوق باب الفُتُوح » الوَاقِع عند رأس حَارَة بَهَاء الدِّين (حارَة بَيْنَ السَّيَارِج الآن) الذي كانت تَنْتَشِرُ به على الجَانِبين حَوَانِيت اللَّحَّامِين والخُضَرِيين والفامِيين والشَّرَائِحيين ؛ و « سُوق المُرَحِلِّين » في مُوَاجَهَته وكان مَعْمُور الجانبين بالحَوَانِيت المملؤة برحَالات الجِمَال وأقْتابِها وسَائِر ما تحتاجُ إليه ؛ و « سُوق الشَّمَّاعِين » بالقُرْب من الجامِع الأقْمَر تُوجَدُ به تجارَةُ الشُّمُوع المَوْكبية والفانُوسية والطَّوَّافات ، وتَظَلُّ حَوانيتُه مُفَتَّحَة إلى نِصْف اللَّيْل ، وكان يجلسُ به في اللَّيْل بَغَايَا يُقالُ لهن « زُعَيْرات الشَّمَّاعين » لهن لِباسٌ يتميزن به هو الملاءَات الطَّرْح وفي أرجلهن سَرَافِيلُ من أدِيم حُمْر ، وكان يُعَلَّق بهذا السُّوق الفَوَانِيسُ في مَوْسِم الغِطَاس ، أمَّا في شهر رَمَضَان فكان يَكْثُرُ به شِرَاءُ وكِرَاءُ الشُّمُوع الموكبية التي تَزِنُ الواحِدة منهن عَشْرَة أرْطال فما دونها ، والشَّمْع

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣١٦.
[٢] نفســه ٣: ٣١٦.

المحمول على العَجَل الذي تَزِن الواحدةُ منه قِنْطارًا فما فوقه، ثم تَلاشَى أمْرُ هذا الشُوق بعد ذلك لفَقْرِ النَّاسِ وعَجْزِهم [١].

ثم يلي ذلك «سُوقُ الدَّجَّاجِين» بالقُرْب من قَبْو الخُرُنْشُف كان مُخَصَّصًا لبَيْع الدَّجَاج والإوَز، وبه حَانُوتٌ مُخَصَّصٌ لبَيْع العَصَافِير، ويَبَاعُ به كذلك أنْوَاعٌ مختلفةٌ من الطَّيْر، وفي أيَّام الجُمَع كانت تُبَاعُ به في الصَّبَاح أصْنَافُ القَمَارِي والهَزَّارَات والشَّحَارير والبَبَّغَاء والسَّمَّان [٢].

أمَّا «سُوقُ بين القَصْرَيْن» فيصفُه المقريزيّ بأنَّه «أعْظَم أسْواق الدُّنْيا... يَعْجَزُ الوَصْفُ عن حكاية ما كان فيه» يَقْعُد فيه الباعَةُ بأصْنَافِ المأكُولات من اللُّحْمان المُتَنَوِّعَة والحَلَاوات المُصَنَّعَة والفَاكِهَة وغيرها، حتى أصْبَحَ مُتَنَزَّهًا تَمُرُّ فيه أعْيَانُ النَّاس وأماثِلُهم في اللَّيْل مُشَاةً لرُؤْية ما هناك من السُّرُج والقنادِيل الخارِجَة عن الحَدِّ في الكَثْرَة [٣]. وأدْرَكَ المقريزيّ البَاعَة يَجْلِسُون فيه في كلِّ لَيْلَةٍ بعد العَصْر من باب المَدْرَسَة الكَامِلِيَّة إلى باب المَدْرَسَة النَّاصِرِيَّة (قَبْل بِنَاء المَدْرَسَة الظَّاهِرية المُسْتَجَدَّة سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٥م) بصِنْف لُحمان الطُّيُور التي تُقْلَى صَفًّا، فيبَاعُ لَحْمُ الدَّجَاج المُطَجَّن ولَحْم الإوَزّ المُطَجَّن كلّ رِطْل بدِرْهَم وتارَةً بدِرهْم ورُبْع، وتُبَاعُ العَصَافيرُ المَقْلُوة كل عُصْفُور بفِلْس [٤].

وكان المرورُ في بين القَصْرَيْن دائمًا يَعِجّ بالنَّاس إلى الحَدِّ الذي يذكر فيه المقريزيّ أنَّه كان يَسْمَع أنَّ من النَّاسِ من يقوم خَلْفَ الشَّابِ أو المرأة عند التَّمَشِّي بعد العِشَاء بين القَصْرَين ويُجَامِعُ حتى يَقْضِي وَطَرَهُ وهما ماشيان من غير أنْ يُدْركهما أحَدٌ لشِدَّة الزِّحَام واشْتِغَال كلِّ أحَدٍ بلَهْوه [٥].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٣١٩-٣٢٠.

[٢] نفسه ٣: ٣٢٠-٣٢١.

[٣] نفسه ٣: ٨١.

[٤] نفسه ٣: ٨٣.

[٥] نفسه ٣: ٨٤.

وإلى جانِب ذلك كانت تُعْقَدُ فيه عِدَّةُ حِلَق لقِرَاءَة السِّيَر والأخْبَار وإنْشَادِ الأشْعَار والتَّفَنُّن في أنْوَاع اللَّعِب واللَّهْو، فيصيرُ مَجْمَعًا لا يُقَدَّر قدْرُه ولا يمكن حكاية وَصْفِه [1].

وكان يُوجَدُ فيما بين المَدْرَسَة الظَّاهرية بَيْبَرْس وباب قَصْر بَشْتاك شَمالًا « سُوقُ السِّلاح » المُعَدّ لبَيْع القِسِيّ والنُّشَّاب والزَّرْدِيَّات وغيرها من آلات السِّلاح. وكان في مَوَاجَهَته خَانٌ على بابِه من الجَانِبين حَوَانيتٌ تجلِسُ فيها « الصَّيَارِف » طُولَ النَّهار، فإذا حَلَّ العَصْرُ جلَس « أرْبابُ المَقَاعِد » تجاه حَوَانِيت الصَّيَارِف لبَيْع أنْوَاعِ المآكِل، فإذا أقْبَلَ اللَّيْلُ أُشْعِلَت السُّرُجُ من الجَانبين وأخَذَ النَّاسُ في التَّمَشِّي بينهما على سَبِيل الاسْتِرْواح والتَّنَزُّه. وصَارَ الأمْرُ على ذلك حتى أنْشَأ السلطانُ الظَّاهِرُ بَرْقُوق مَدْرَسَته الظَّاهِرِيَّة المُسْتَجَدَّة مَوْضِع الخان وحَوَانِيت الصَّرْف تجاه سُوق السِّلاح، فقَلَّ ما كان هناك من المَقَاعِد [2].

ووُجِدَت تجاه شَبَابِيك القُبَّة المَنْصُورية تُخُوتٌ مُعَدَّة لجُلُوس أنَاسٍ يَبِيعُون في أقْفاصٍ صِغَار من حَدِيدٍ مُشَبَّك الطَّرَائِفَ من الخَوَاتِيم والفُصُوص والأسَاوِر والخَلاخِيل الخاصَّة بالنِّسَاء، وأُطْلِق على هذا المَوْضِع « سُوق القُفَيْصَات »، ثم نُقِلَت هذه الأقْفاصُ بعد سنة ٨٣٠هـ/١٤٢٨م إلى القَيْسارِيَّة التي اسْتُجِدَّت تجاه الصَّاغَة [3].

ولا يمكن إحْصَاءُ الأسْوَاق المُتَخَصِّصَة التي كانت تَزْخَرُ بها القَصَبَةُ في العَصْر المملوكي، مثل: الصَّاغَة وسُوق الكُتُبِيين وسُوق الصَّنادِقِيين وسُوق الحَرِيرين وسُوق البُنْدُقانِيين وسُوق العَنْبَرَنيين وسُوق الخَرَّاطِين وسُوق الشَّرَابِشِيين وسوق

---

[1] المقريزي: المواعظ ٣: ٨١.

[2] نفسه ٣: ٣٢٢.

[3] نفسه ٣: ٣٢٢.

الفَرَّائِين وسُوق الخُلَعِيين وسُوق الأَخْفافِيين وسُوق الكَفْتِيين وسُوق الأَقْباعِيين وسُوق السَّقْطِيين ... إلخ [١].

هكذا تَرَكَّزَت الأَنْشطةُ التِّجَارِيَّةُ للمَدِينَة طَوَال العَصْرِ المَمْلُوكيّ دَاخِل حُدُودِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة ، وعلى التَّدْقِيق على طُولِ القِسْمِ الأَوْسَطِ للقَصَبَة في المَنْطِقَة المُمْتَدَّة بين الصَّاغَة شَمالًا والكَحْكِيين جَنُوبًا (السِّكَّة الجديدة وسَبِيل العَقَّادين) والتي تَشْغَلُ مِسَاحَةً تَبْلُغ نحو ٤٠٠ مترًا طُولًا و ٢٠٠ مترًا عَرْضًا وتحوي ثَلاثَة وعِشْرين سُوقًا (أي بِنِسْبَة ٢٦,٤٪ من المجموع الكُلِّي لأَسْوَاقِ المَدِينَة) وثَلاثَة وعِشْرين وَكَالَة (بنسبة ٣٨,٦٪) . كذلك فإنَّ الأَحْيَاء الجَنُوبِيَّة للقَاهِرَة ، خَارِج بَاب زَوِيلَة ، كانت تَحْوي مَرَاكِزَ تُجَارِيَّة عَدِيدَة خَاصَّةً على طُولِ الشَّارِع الأَعْظَم المُمْتَدّ من بَاب زَوِيلَة وحتَّى المَشْهَد النَّفِيسي . أمَّا الأَسْوَاقُ الوَاقِعَةُ فيما وَرَاء الخَلِيج فكانت سُوَيْقَات غير مُتَخَصِّصَة بِتِجَارَةٍ أو حِرْفَةٍ مُعَيَّنَةٍ وكانت تَقَعُ على طُولِ الشَّوَارِع التي تَرْبِط بَابَ القَنْطَرَة ببابِ البَحْر شَمَالًا ، وبَابَ الخَرْق ببَابِ اللُّوق جَنُوبًا [٢].

وتُؤَكِّدُ المُقَارَنَةُ مع مُعْطَيَات العَصْرِ العُثْمَاني هذه النَّتَائِج . فقد ظَلَّت القَاهِرَةُ الفَاطِمِيَّة والقَصَبَة حتى سنة ١٧٩٨م هي مَرْكَز الحَيَاةِ الاقْتِصَادِيَّة والتِّجَارَة الدَّوْلِيَّة ، رَغْم أنَّ أَسْوَاقَ الأَحْيَاء الجَنُوبية والغَرْبِيَّة أَضْحَت أَكْثَرَ عَدَدًا وأَكْثَرَ تَخَصُّصًا ، ممَّا يَدُلُّ على امْتِدَادِ الأَنْشِطَة الاقْتِصَادِيَّة خَارِج حُدُودِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة

---

[١] لمزيد من التَّفْصِيل راجع ، المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣:٣١٥ـ٣٥٤؛ قاسم عبده قاسم : أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٧٨؛ A. RAYMOND & G. WIET, *Les Marchés du Caire* - Traduction annotée du texte de Maqrîzî, Le Caire-IFAO 1979.

[٢] A. RAYMOND, «Cairo's Area and Population in the Early Fifteenth Century», *Muqarnas* II (1984), p.22.

في مَنَاطِق كانت قَليلَة النُّمُوّ في القَرْنِ التَّاسِع الهِجريّ/ الخَامِس عشر الميلاديّ [١].

كذلك فإنَّ تَحْديدَ مَوَاقِع الحَمَّامَات العَامَّة المُسْتَخْدَمَة في زَمَنِ المَقْريزيّ (أوَاسِط القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ) تَعْكِس التَّمَرْكُز الكَبِير للسُّكَّان دَاخِل حُدُودِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة. كما أنَّ كلَّ الحَمَّامَات التي ذَكَرها في الأحْياء الجَنُوبية كانت تَقَعُ على طُولِ الشَّارِع الأعْظَم بين بَابِ زَوِيلَة وجَامِع ابن طُولُون (الخِيمِيَّة - المَغْرِبلِين - السُّرُوجيَّة - السُّيُوفية). أمَّا الأحْيَاءُ الغَرْبية فلم يكُن بها سِوَى حَمَّامٍ وَاحِدٍ فَقط ولم يكُن مُسْتَخْدَمًا في زَمَنِ المَقْريزيّ [٢].

* * *

ويَنْفَرِدُ المَقْريزي بتَقْدِيم مَعْلُومَاتٍ مُهِمَّة عن كيفيَّة تَمْوين أهْل القاهِرَة بالخُبْز في العَصْرِ المَملوكي، لا تُوجَدُ إلَّا في نُسْخَةٍ وَحِيدَةٍ من «المَوَاعِظ والاعْتِبَار» مَحْفُوظَةٍ في المَكْتبة التَّيْمُورية الملحقة بدار الكُتُب المصرية برقم ١١٠ بلدان تيمور. يذكر فيها أنَّه أحْصَىٰ في نِهَاية القَرْن الثَّامِن الهجري أرْبَع مائة وخمسين مَدَارًا لطَحْنِ القَمْح دَقِيقًا آلَت إلى مائة وخَمْسين مَدَارًا عندما تَقَلَّدَ المقريزيّ الحِسْبَة سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م، تَرَاجَعَت بعد المِحَن التي اجْتَاحَت مصر سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٤م حتى إنَّها لم تَعُد تتجاوَز المائة مَدَار. وجَعَلَ المقريزيّ أمْرَ أهَل القاهِرَة ومصر في الدَّقيق على ثَلاثَةِ أقْسَام:

«العَـامَّة» الذين يَشْتَرُون الخُبْزَ من السُّوق عند الغَدَاء والعَشَاء، واعْتَبَرَ المَقْريزيّ ما تَحْتَاجُ إليه الأخْبَازُ التي بأسْوَاقِ القاهرة وما يتعَلَّق بها من الدَّقِيق في كلّ يومٍ فبَلَغَ بين ألْف أرْدَب قَمْح وثمان مائة أرْدب.

---

[١] A. Raymond, *op. cit.*, p.22.

[٢] A. Raymond, «La localisation des bains publics au Caire au quinzième siècle d'après les Hitat de Maqrîzî», *BEO* XXX (1978), pp. 347-60.

« الجِرَايَات السُلْطانِيَّة » وتُقام لها مَدَاراتٌ خاصَّةٌ بجوار الصِّنَاعَة من مدينة مصر الفُسْطاط يُحْمَل إليها القَمْحُ من الأَهْرَاء .

« بيَاض النَّاس » من الأُمَرَاء والأَجْنَاد والكُتَّاب والأَعْيَان من القُضَاة والفُقَهَاء والتُّجَّار ، هؤلاء يَصْنَعُون الخُبزَ في دُورهم وكثيرٌ منهم بأُكُل من السُوق ، إمَّا يَشْتَرِي الدَّقيق ويَعْجِنُه خَدَمُه وإمَّا يَشْتَري الخُبز معمُولًا [١].

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣ : ٣٥٥، ودَلّني على هذه الفقرة المهمة العالم الجليل والآثاري الكبير الأُستاذ عبد الرحمن عبد التواب .

ذُرْوَةُ ازْدِهَار القَاهِرَة
في العَصْرِ المَمْلُوكيّ

كان امْتَدَادُ القَاهِرَة وتَوَسُّعها في زَمَنِ المماليك أكبر من أي عَصْرٍ سَابِق في تاريخ مصر الإسلامية. ولم يتمّ هذا التَّوسُّع مع ذلك بيُسْرٍ وبطريقةٍ مُتَّصِلَة. وكان المَسْؤُولُ الرَّئيسُ عن ذلك هو السُّلْطَانُ النَّاصرُ محمَّد بن قَلاوُون أثناء سَلْطَنَته الثَّالِثَة (٧٠٩ـ٧٤١هـ/١٣٠٩ـ١٣٤١م) التي تُعَدُّ نُقْطَة تَحَوُّلٍ مُهِمَّة في تاريخ المَدِينَة، حيث بَلَغَت العَاصِمَةُ المصريةُ أبْعَادًا لم تَعْرِفها من قَبْل ولم تَصِل إليها بعد ذلك إلى أنْ تَبَنَّى الخديو إسْماعيل باشا في منتصف القَرْنِ التَّاسِع عَشْر مَشْرُوعَه الطَّمُوح لِبنَاء القَاهِرَة الحَدِيثَة الذي نُفِّذَ بتِقْنِيات وفي ظُرُوفٍ مُخالِفةٍ تمامًا[1].

وتَرَكَّزَ هذا النُّمو في الأساس خارج بابِ زَوِيلَة وفي المنطقة الواقِعَة أسْفَل قَلْعَة الجَبَل وهذا الامْتِدَادُ النَّتِيجَة الطَّبِيعِيَّة لبِنَاء قَلْعَة الجبَل في العَصْر الأيُّوبي، فأتاحَت بذلك مَسَاحَةً كبيرةً نَشَأت بها أحْيَاءٌ عُمْرانيةٌ جَدِيدَةٌ بين بابِ زَوِيلَة وحَيّ الصَّلِيبَة، واسْتَمَرَّ نُمُوُّ هذه المَنْطِقَة حتى نهاية القَرْن السَّابع عَشْر في العَصْرِ العُثْماني. فعَمَّرَ الأُمَرَاءُ المماليك العَديدَ من المنشآت الجَدِيدَة في هذه المنطقة بُنَاءً على طَلَبِ السُّلْطان، وتَضَمَّن ذلك ـ إضافَةً إلى الدُّور والقُصُور ـ بِناءَ عَدَدٍ من المساجِد الجامِعَة الضَّخْمَة. فحتَّى نحو سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م كان الرأيُ الذي يَرَىٰ إلْقاءَ خُطْبة الجُمُعَة في جامِعٍ واحِدٍ في المَدِينَة (وهو ما يراه المَذْهَبُ الشَّافِعِيّ

---

[1] D. AYALON, «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamlûks and its Background», in *Res Orientales* VI, p.13.

الذي أَخَذَ به الأيُّوبيُّون) مأخُوذًا به بطَرِيقَةٍ أو بأخرى. فكان بالقاهِرَة: الجامِعُ الأَزْهَر في قسمها الجنوبيّ، وجامِعُ الحاكِم (الأَنْوَر) في قسمها الشَّماليّ، وكان بالفُسْطاط جامِعُ عَمْرو، وجَدَّدَ السُّلْطانُ المَنْصور لاجِين جامِعَ ابن طُولُون سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لخِدْمَة المَنْطِقَة الواقعة جنوبيّ باب زَوِيلَة، وكان لقَلْعَة الجَبَل جامِعُها الخاصّ بها الذي بَناهُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، كما كان بالحُسَيْنِيَّة خارِج باب الفُتُوح الجامِعُ الذي بَناهُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م. ولكن بين سنتي ٧٣٠هـ/١٣٢٩م و ٧٤٠هـ/١٣٤٠م تم تَشْييدُ أربعة مَساجِدَ جامِعَة جَديدَة بين بابِ زَوِيلَة وقَلْعَةِ الجَبَل: جامِعُ أُلْماس الحاجِب بشارع الحِلْمِيَّة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وجامِعُ قُوصُون بشارع القَلْعَة (محمد علي سابقًا) (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)، وجامِعُ بَشْتاك بشارع دَرْبِ الجَماميز (٧٣٦هـ/١٣٣٦م)، وجامِعُ أُلْطُنْبُغا المارْديني بشارع التَّبَّانَة (٧٣٩هـ/١٣٤٠م) أضْخَم هذه الجوامِع وأفْخَمُها، وذلك إضافَةً إلى عَدَدٍ من الجوامِع والمدارِس التي شُيِّدَت في مَواضِعَ أخرى من المَدينَة مثل: مَدْرَسَة وخانْقاه مُغُلْطاي الجماليّ بشَارِع قَصْرِ الشُّوك بالجمالية (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وجامِع الخَطيري ببُولاق (٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، وجامع السِّتّ حَدَق (مِسْكَة) على الخَلِيج (بسِكَّة سُوق مِسْكَة المتفرّعة من شَارع مجلس الشَّعب الآن) (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[١].

وبعد وَفاةِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م استمرَّ أُمَرَاؤه في التَّشْييد في هذه المنطقة التي أضْحَت منطقةَ الأرِسْتُقْراطية المملوكية. فبُنِيت ثلاثَةُ جَوامِع جَديدَة: جامِعُ أَصْلَم السِّلِحْدار البَهائي بدَرْبِ شُغْلان (٧٤٦هـ/١٣٤٥م)، وجامِعُ آق سُنْقُر النَّاصِرِيّ بشارع بابِ الوَزير (٧٤٧هـ/١٣٤٦م)

---

[١] راجع لتفاصيل أكثر، شاهندا فهمي كريم: جوامع ومَساجِد أُمَرَاء السُّلْطان النَّاصِر محمد بن قُلاوون، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٧.

الذي رَمَّمَه إبراهيم أغا مُسْتَحْفَظان سنة ١٠٦١هـ/١٦٥١م وأصبح يُعْرَف بالجامِع الأزْرَق، وجامِعُ شَيْخو العُمَريّ بشارع شَيْخون بالصَّلِيبَة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م).

وأثَّرَ ازْدِهارُ المنطقة الجنوبية للقاهِرَة خارج باب زَوِيلَة تأثيرًا سَلْبيًّا على نُمُوِّ المنطقة الشمالية خارج باب الفُتُوح حيث «الحـارَة الحُسَيْنِيَّة»، وعلى الأخَصِّ في أعْقاب «الوَباء الأسْوَد» The Black Death أو «الفَنَاء الكبير» (في الفَتْرَة التَّالية لسَنَة ٧٤٨هـ/١٣٤٩م)، حيث هُجِرَت هذه المنطقة ثم خَرِبَت نهائيًّا ونُقِضَت مَبانيها في أعْقاب مِحْنَة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م [1]. ومع ذلك فلم يُوقِف «الوَباءُ الأسْوَد» حَرَكَة التَّشْييد والإعْمار خارج باب زَوِيلَة، فتَمَّ بناءُ جامِع شَيْخُو في هذه الفترة، ودار صَرْغَتْمُش بمنطقة بِئْر الوَطاويط (٧٥٣هـ/١٣٥٣م)، وقَصْر الأمير طاز بشارع السُّيوفِيَّة (٧٥٥هـ/١٣٥٤م)، وقُبَّة وخانْقاه شَيْخو (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) في مُواجَهَة جامِعه بشارع شَيْخُون، ومَدْرَسة صَرْغَتْمُش بجوار جامِع ابن طُولون (٧٥٧هـ/١٣٥٦م)؛ غير أنَّ أهَمَّ هذه المُنْشآت على الإطْلاق هي جامِعُ ومَدْرَسَةُ السُّلْطان حَسَن (٧٥٧-٧٦٤هـ/ ١٣٥٦-١٣٦٣م) أحَد أعْظم الجوامِع والمَدارِس الإسلامية والذي تَكَلَّف بناؤه أكثر من عشرين مليون درهمًا، الأمْر الذي يَجْعَل منه أكثر مُنْشآت القاهِرَة تكلفةً على الإطْلاق [2]، والذي هُدِمَ من أجْل بنائِه اثنان من أفْخَم قُصُور القاهرة: «قَصْر يَلْبُغا اليَحْياوي» و«قَصْر أَلْطَنْبُغا المارْديني» [3].

ولا يَدُلُّ تَشْييدُ هذه الجَوامِع والمَدارِس على أنَّها ـ كما قد يَتَبَادَر إلى الذِّهْن ـ قد بُنِيَت تَلْبِيَةً لزيادَةٍ سُكَّانيةٍ، فعلى العَكْس من ذلك تمامًا فإنَّ عَدَدَ سُكَّان مصر قد انْخَفَضَ في هذه الفترة نتيجةً للفَنَاء الكبير، ولكن كَثْرَةَ عَدَد الوَفيات أدَّت إلى

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٦٦.

[2] نفسه ٤: ٢٧٠.

[3] نفسه ٣: ٢٣٣، ٢٣٥.

زيادَة حَصيلَة ضَرائِب المواريث والمواريث الحَشْرِيَّة ، مِمَّا سَمَحَ للحُكّام وكِبارِ الأُمَرَاء بتَنْفيذ سياسَةٍ إنْشائيةٍ طَمُوحَة .

إعْمَارُ بُولاق

أدَّىٰ حَفْرُ «الخَليج النَّاصِريّ» سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م في غَرْبِ القاهِرَة ، حيث كان يستمدّ ماءَه من النِّيل في مُواجَهَةِ الحَدِّ الشَّماليّ لجَزيرَة الرَّوْضَة ويسير مُوازيًا للخَليج المصريّ إلى أن يلتقي به شَمال جامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس عند بِرْكَة الرَّطْلي [١] ، أدَّى إلى حَكْرِ العَديدِ من الأراضي الواقِعة بين الخَليجَيْن ، وبين الخَليج النَّاصِريّ والنِّيل ، ومَنْحها للأُمَرَاء الذين أقامُوا عليها العَديدَ من المباني التي صارَت نَواةً لعُمْرانِ هذه المنطقة الذي تَمَّ بصورَةٍ واضحةٍ في العَصْرِ العُثْمانيّ ؛ يقول المَقْريزيُّ : «فأنافَت الأحْكارُ التي اسْتُجِدَّت في أيَّامِه - أي النَّاصِر محمد بن قَلاوون - على ستين حِكْرًا ، حتى لم يُوجَد مَوْضِعٌ يُحْكر» [٢] .

ونَمَّىٰ النَّاصِرُ محمد كذلك ضَفَّةَ النِّيل الواقِعَة بين فُسْطاط مصر جَنوبًا وبُولاق شَمالًا ، فأنْشَأ الجامِعَ الجَديد شَمال الفُسْطاط [٣]، وأنْشَأ دارَ وَكالَة ورَبْعَيْن كبيرين في المنطقة التي عُرِفَت بزَرْبِيَّة السُّلْطان (مَنْطِقَةُ المُنِيرَة الحَالية) [٤]، وأضافَ إليها الأميرُ بَكْتَمُر السَّاقي حَمَّامَيْن ، وبَنَى الأميرُ عَلاءُ الدِّين طَيْبَرْس الخازِنْدار جامِعًا وخانْقاهًا [٥]؛ ونَشَأ كذلك حَيٌّ آخر مُماثِلٌ على يَسار المَيْدان الظَّاهِري (مَيْدان الفلَكي الآن) هو المَنْطِقَة التي عُرِفَت بزَرْبِيَّة قُوصُون [٦] اشْتَمَلَ على جَوامِعَ ومَدارِسَ

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٥٤٠- ٥٤١.
[٢] المقريزي : السلوك ٢: ٥٤٣.
[٣] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٢٠٦- ٢٠٧.
[٤] نفسه ٣: ٤٣٦.
[٥] نفسه ٤: ٢٠٥.
[٦] نفسه ٣: ٤٣٥.

ومَناظِرَ مُطِلَّة على النِّيل وأسْواقٍ على طُول شاطىء النِّيل بالقُرْب من بُولاق ، هُجِرَ أغْلَبُها أو تَهَدَّمَ في أعْقاب مِحْنَة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م .

وكان إعْمارُ مَنْطِقَة بُولاق قد بدأ منذ عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ، حيثُ عَمَّرَ النَّاسُ بها دُورًا على النِّيل ، كما امْتَدَّت المناظِرُ على النِّيل من هنالك وحتى جَزيرَة الفيل (شُبْرا الحالية) ، وانْتَظَمَت العِمارَةُ على شاطىء النِّيل من مُنْيَة السِّيرج شَمالًا إلى مَوْرَدَة الحَلْفاء جَنُوبًا بجوار الجامع الجَديد خارج فُسْطاط مصر (جَنُوب مَجْرَىٰ العُيُون) ، ومن حافَّة الخَليج المصريّ الغربية تِجاه الخَنْدَق بَحْريّ القاهِرَة (منطقة الدِّمِرْداش الآن) إلى مُنْشأة المَهْراني جَنوبًا (جنوب شارع القَصْر العَيْني الآن)[١] ، وظَلَّت «هذه المسافَةُ العظيمةُ كُلُّها بَساتينَ وأحْكارًا عامِرَةً بالدُّور والأسْواق والحَمَّامات والمساجِد والجَوامِع ... وبَلَغَت بَساتينُ جَزيرَة الفيل خاصَّةً ما ينيفُ على مائة وخمسين بُسْتانًا بعدما كانت سنة إحدى عشرة وسبع مائة نحو العشرين بُسْتانًا»[٢] ، كما عَمَّرَ بها الأميرُ أيْدَمُر الخَطيري ، في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ، جامِعًا ومَدْرسَةً شافِعِيَّةً لخِدْمَة السُّكَّان المحيطين بها[٣] .

ولكن علينا أن نُلاحِظ أنَّ تَعْميرَ الأحْياء الواقعة في البَرِّ الغربي للخَليج لم يكن قد اكْتَمَلَ حتى في عَصْرِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون ، كما أنَّه تأثَّرَ تأثُّرًا سَلْبيًا بالأزَمات الاقتصادية التي مَرَّت بها مصر والقاهِرَة بين منتصف القرن الثَّامن الهجري/ الرَّابع عَشْر الميلادي ومطلع القرن التَّاسِع الهجري/ الخَامِس عَشْر الميلادي ثم شَهِدَت بولاق ازْدِهارًا كبيرًا بَدْءً من عَهْدِ السُّلْطان بَرْسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٨م) فنَشَطَت دَارُ صِناعتها وشُيِّدَ بها العَدِيدُ من

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣٦٢.

[٢] نفسه ٣: ٤٣٢.

[٣] نفسه ٤: ٢٥١-٢٥٣.

الوَكالات والقَيَاسِر والرِّباع، وتكاثَرَت بها الأَنْشِطَةُ الحِرَفِيَّةُ فأقيم بها مطابخُ للسُّكَّر وطَوَاحِينُ للغِلال، كما شَيَّدَ بها السُّلْطانُ الظَّاهِرَ جَقْمَق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) أرْصِفَةً ومُسْتَوْدَعات، وتَمَّ تَحْسِينُ الطُّرُق التي تَرْبِط بينها وبين القاهِرَة.

وفي سنة ٨٦٢هـ/١٤٥٨م شَبَّ حَرِيقٌ ضخْمٌ بساحِل بُولاق أتى على غالِب أمْلاك بُولاق من سَاحِل النِّيل إلى خُطِّ البُوصَة (مَحَلّ دَفْن أمْوَات أهْل بولاق) ولم تَفْلَح مُحاوَلاتُ إخْمادِه، وسَاعَدَت رِيحُ المَرِيسي على سُرْعَة انْتقالِه من دَارٍ إلى دَار ورَبْعٍ إلى رَبْع وأتَت على ما في الحَوَاصِل من بَضَائِع. واسْتَمَرَّ الحَرِيقُ أيَّامًا والنَّارُ مَوْجُودَةٌ في الأماكِن والجُدُر والحيطان، والنَّاسُ تَفِدُ على بُولاق أفْوَاجًا أفْوَاجًا للفُرْجَة على الحَرِيق. وكانت عِدَّةُ ما احْتَرَقَ فيه من الرِّباع، كما أحْصَاها أبو المحاسِن بن تَغْرِي بِرْدِي، زِيادَةً على ثلاثين رَبْعًا، كلّ رَبْعٍ يَشْتَمِل على مائة سكن وأكثر، إضَافَةً إلى ما به من حَوَانيت ومَخَازِن [١]. وما يذكره أبو المحاسن في هذا الوَصْف يَدُلُّ على ضَخَامَة عَدَد التُّجَّار والحِرَفِيين الذين كانوا يَعِيشُون في بُولاق الأمْر الذي اسْتَلْزَم تشْييد عَدَدٍ غير قليل من الجَوَامِع والحمَّامات لتَلْبِيَة احْتياجات قاطِنيها.

ورَغْمَ هذا الحَرِيق فإنَّه لم يُؤثِّر على ازْدِهار بُولاق التي حَلَّت نِهائيًا محلَّ الفُسْطاط كميناءٍ رَئيسٍ للقاهِرَة، خاصَّةً مع تَوَجُّه التِّجَارَة المصرية إلى البَحْر المُتَوَسِّط، وظَلَّت الفُسْطاطُ تتولَّى جزءً صَغِيرًا من التِجارة الشَّرقية وتِجارة الغِلال التي تَصِلُ إليها من الوَجْه القِبْلي.

ولم يَعُد النَّشاطُ إلى هذه المَوَاضِع إلَّا في نهاية هذا القرن بعد إنْشاء الأمير أزْبَك من طُطُخ لحيّ الأزْبَكِيَّة، ثم نَمَت هذه الأحْيَاءُ في العَصْرِ العُثْمانيّ وفي زَمَنِ الحملة

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٦: ١٢٢.

الفرنسية حتى اسْتَقَرَّت على وَضْعِها الحالي مع المشروع الحضاريّ الذي تَبَنَّاهُ في النِّصْف الثَّاني للقرن التاسع عشر الخِدِيو إسماعيل باشا .

*
* *

هكذا تجَاوَزَت القاهرةُ زَمَنَ النَّاصِر محمد بن قَلاوون بكثير الحُدُودَ الأولىٰ للمدِينَة الفاطِمِيَّة وأصْبَح اسْمُ القاهِرَة يُطْلَقُ على ما يُحيطُ به بقايا السُّور الفاطِمي وحَارَة الحُسَيْنِيَّة خَارج باب الفُتُوح وما وَرَاءها إلى الرَّيْدَانِيَّة (العَبَّاسِيَّة الحالية) ، وشَارِع تَحْت الرَّبْع وشَارع الدَّرْب الأحْمَر (على يمين ويَسَار الخَارج من باب زَوِيلَة) وأحْيَاء قوصُون وطُولُون على امتداد الشَّارع الأعْظَم خَارج باب زَوِيلَة وما وراءَها إلى قَنَاطِر السِّباع (السَّيِّدَة زيْنَب الآن) ، إضافَةً إلى الأحْيَاء النَّاشِئَة في البَرّ الغربيّ للخَليج وامْتِدادها شَمالًا إلى مُنْيَة السِّيرِج ، يقول المَقْريزي : « فاتَّصَلَت عَمَائِرُ مصر والقاهِرَة حتى صَارَا بَلَدًا وَاحِدًا ... واتَّصَلَ بَعْضُها ببعض من مَسْجِد تِبْر (قُرْب المَطَرِيَّة الآن) إلى بَسَاتِين الوَزِير قِبْلِيّ بِرْكة الحَبَش ، ومن شاطئ النِّيل بالجِيزَة إلى الجَبَل المُقَطَّم »[١] .

وتَرْجِعُ سياسَةُ التَّعْمير التي سادَت في النِّصف الأوَّل للقرن الثَّامِن الهجريّ/ الرَّابع عشر الميلاديّ إلى شَخْصِيَّة النَّاصِر محمد بن قَلاوون نفسه والظُّروف التي أحاطَت به ، حيث تَحَقَّقَ في فَتْرَةِ سَلْطَنَته الثَّالِثَة سَلامٌ مستمرٌّ ، وأعادَ رَوْكَ الأراضي الزِّراعية في مصر والشَّام ، ممَّا ساعَدَ على زيادَة الإنْتاج الزِّراعي وعلى الرَّخَاء الاقْتِصادي ، كما أنَّ النَّاصِرَ محمد لم يكن ممْلوكًا بل ابن ممْلُوكٍ ، ولم يَصِل إلى الحُكْم من خِلال الجَيْش ، وتَمَتَّع بشَعبيةٍ كبيرةٍ طوال فترة سَلْطَنَته الثَّالثَة والتي استمرَّت واحدًا وثلاثين عامًا ؛ يقول المَقْريزي : «مَتَّعَه الله من الدُّنْيا بالسَّعادَة

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢: ٢٢٤.

العَظيمَة في المُدَّة الطَّويلة مع كثرة الطُّمأنينة والأمْن وسَعَة الأمْوال ، واقْتَنى كُلّ حَسَنٍ ومُسْتَحْسنٍ من الخَيْل والغِلْمان والجَواري ، وساعَدَه الوَقْتُ في كُلّ ما يحبّ ويَخْتار إلى أن أتاهُ المَوْت»[1]. واقْتَدَىٰ الأُمَرَاءُ والأعْيانُ وأثْرياءُ التُّجّار بالأُنْمُوذَج الذي قَدَمَّه السُّلْطانُ نفسه ببناء العَديد من الآثار الدِّينيَّة وذات الطَّابع الاجْتماعي. يقول المَقْريزيُّ : «فلمَّا كان سنة ثلاث عشرة وسَبْع مائة رَغِبَ النَّاسُ في العِمارَة بديار مصر لشَغَفِ السُّلْطان الملك النَّاصِر بها ومُوَاظَبَتِه عليها ، فكأنَّما نُودِيَ في القاهِرَة ومصر أن لا يتأخَّر أحَدٌ من النَّاس عن إنْشَاء عِمارَة ، وجَدَّ الأُمَرَاءُ والجُنْدُ والكُتَّابُ والتُّجَّارُ والعَامَّةُ في البِناء»[2]. وأضافَ في «السُّلُوك» : «وكان يُحِبُّ العِمارَة ، فلم يَزَلْ من حين قَدِمَ من الكَرَك إلى أن ماتَ مستمرّ العِمارَة ، فجاءَ تَقْديرُ مَصْروفِه في كلِّ يومٍ مُدَّة هذه السِّنين ثمانية آلاف درهم» . «وكان يُنْفِق على العِمارَة المائة ألف درهم ، فإذا رأىٰ فيها ما لا يعجبه هَدَمَها كلَّها وجَدَّدَها على ما يختار ، ولم يكن مَنْ قَبْله من الملوك في الإنْفاق على العِمارَة كذلك ... فكانوا لا يَسْمَحون بالمال ، وإنَّما يَدَّخِرونَه صيانَةً وخَوْفًا»[3]؛ فعندما شَرَعَ الأميرُ رُكْنُ الدِّين بَيْسَري الشَّمْسي الصَّالحيّ في بناء الدَّار البَيْسَرِيَّة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م «تأنَّقَ في عمارتها وبالَغَ في كثرة المصروف عليها فأنْكَرَ الملكُ الظَّاهِر ذلك من فِعْلِه» . وقال في مَوْضِعٍ آخر : «وأكثر السُّلْطانُ من العَمائِر وولَّى آقْسُنْقُر أميرآخور شاد العَمائِر ، وأحْضَرَ العَتَّالين من سائِر البلاد الشَّامِيَّة ، وأفْرَدَ للعَمائِر ديوانًا بَلَغَ مصروفُه في كلِّ يومٍ اثني عشر ألف درهم إلى ثمانية آلاف ، وهي أقلّ ما كان يُصْرَف في اليوم الواحِد ... فامْتَدَّت أيْدي النَّاس إلى العِمارَة ، وكأنَّما نُودِيَ في النَّاس ألَّا يبقى أحَدٌ حتى يُعَمِّر وذلك أنَّ النَّاسَ على دين مَلِكهم»[4].

---

[1] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٢١٣.

[2] نفســه ٣: ٤٣٢.

[3] المقريزي : السلوك ٢: ٥٣٧.

[4] نفسه ٢: ١٣٠، ١٣١؛ وراجع حَوْل هذا =

وفي الوَقْت نفسه كان النَّاصِرُ محمد يَكْرَهُ نَظَرَ أَثْرِ أَحَدٍ من الملوك قبله ويبغضه أن يُذْكر لأحَدٍ غيره شيءٌ يُعْرف به ، لذلك أحَبَّ أن يُزِيلَ رَنْكَ السُّلطان الظَّاهِر بَيْبَرْس من على قَناطِرِ السِّباع «لتَبْقى القَنْطَرَةُ مَنْسوبةً إليه ومعروفَةً به ، كما كان يفْعَل دائمًا في مَحْوِ آثار من تَقَدَّمَه وتَخْليد ذِكْره ومَعْرِفَة الآثار به ونِسْبَتِها له» [١]؛ وفي الوَقْت نفسه كان حَريصًا على استكمالِ مَظاهِرِ الأُبَّهَة ، فإنَّه ، كما يصفه المَقْريزي ، «ممَّن لا يَطيقُ شَيْئًا يَنْقُصُ مَلْكه» [٢].

وقد أوْرَدَ كُلٌّ من ابن أيْبَك الدَّواداري والمَقْريزيّ وأبي المحاسِن بن تَغْري بِرْدي وابن إياس ، قائمَةً مُفَصَّلَةً بما أُنْشئ في عَصْرِ النَّاصِر محمد من مُنْشآتٍ سَواء قامَ بها هو أو أُمَرَاؤه [٣].

= الموضوع J. A. WILLIAMS «Urbanization and Monument Coustruction in Mamluk Cairo», *Muqarnas* II (1984), pp. 33-45; H. AL-HARITHY «The Patronage of al-Nâsir Muhammad ibn Qalâwûn, 1310-1341», *MSR* IV (2000), pp. 219-224; A. RAYMOND, «Al-Maqrîzi's Khitat and the Urban Structure of Mamluk Cairo», *MSR* VII/2 (2003), pp.147-67.

[١] المقريزي : المواعظ ٣: ٤٩٠.

[٢] نفســه ٣: ٧٢٩.

[٣] ابن أيبك الدواداري : كنز الدرر ٩:٣٨٨-٣٩٠؛ المقريزي : الخطط ٤:٢١٤-٢٥٥، السلوك ٢:٥٣٧-٥٤٥ (محمد مصطفى زيادة : «حركة البِناء والتَّعْمير في عَصْر النَّاصِر من كتاب «السُّلوك لمعرفة دُوَل الملوك للمقريزي»» ، المجلة التاريخية المصرية ٩-١٠ (١٩٦٢)، ٢٤١-٢٥٠)؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٩:١٧٨-٢١٠ (عبد الرحمن زكي : «آثار مصر والقاهرة في النجوم الزاهرة» في كتاب المُؤَرِّخ ابن تَغْري بِرْدي ، القاهرة ١٩٧٤، ١٦٥-١٨٠)؛ ابن إياس : بدائع الزهور ١/١:٤٨٥-٤٨٦؛ وانظر كذلك ، علي المليجي : عَمائِرُ النَّاصِر محمد الدِّينيَّة ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٧٥؛ شاهندة كريم : «جَوامِع ومَساجِد أمراء السُّلْطان النَّاصر محمد بن قلاوون» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٧م ؛ D. AYALON, «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamlûks and its Background» in *Itinéraires d'Orient - Hommages à Claude Cahen, Res Orientales* VI (1994), pp. 13-19 الذي يَرَى أنَّ النَّفَقات الباهِظَة التي أُنْفِقَت على حَرَكَة البِناء والتَّعْمير في زَمَن النَّاصِر محمد ، كانت أحَدَ الأسْباب التي أسْهَمَت في تَدَهْوَر المَدينة في العُقُود التالية !

إعْمَارُ البَرِّ الغَرْبي للخَليج

يرْجِعُ إلى عَصْرِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون كذلك بِدَايَةُ عُمْرَان المَنَاطِق التي انْحَسَر عنها ماءُ النِّيل في البَرِّ الغَرْبي للخَليج والتي تَشْمَل: أراضِي اللُّوق (باب اللُّوق حاليًا) والأراضِي الأخرَىٰ التي حُكِرَت وكانت بسَاتِين نتَجَت عن انْحِسَار ماء النِّيل عنها تجاه الغَرْب[١] وهي: حِكْر الزُّهْريّ وحِكْر الخَليلي وحِكْر قُوصُون وحِكْر الحَلَبي وحِكْر البَوَاشْقِي وحِكْر آقْبُغَا وحِكْر السِّتّ حَدَق وحِكْر السِّتّ مِسْكَة وحِكْر طُقُزْدُمُر وحِكْرُ قُرْدُمِيَّة وحِكْر كَرِيم الدِّين وحِكْر بُسْتان العِدَّة وحِكْر جَوْهَر النُّوبي وحِكْر خَزَائن السِّلاح وحِكْر تَكان وحِكْر الأسَد جِفْرِيل وحِكْر البَغْدَادِيَّة وحِكْر الفارِس خَطْلُبَا وحِكْر ابن مُنْقِذ وحِكْر العَلائي وحِكْر الحَرِيري والدِّكَّة بين أراضِي اللُّوق والمَقْس[٢].

والحِكْرُ بمعنى أجْرَة مُقَرَّرَة عن سَاحَاتٍ كانت في أحْكارِها دائرة وفيها ما عُمِّرَ مَسَاكِن وما يجري مَجْراها، ومنها ما أُنْشِئ بساتين، واقْتَضَت الحالُ اسْتِمْرَارها بأيْدي أرْبابِها بعد انْقِضَاء مُدَّة إجَارَتها وأخْذِهم بالقِيَام بالأجْرة المقرَّرَة عنها[٣].

وهذه الأحْكار هي المَوَاضِع التي شَهِدَت تَطَوُّرًا عُمْرانيًا كبيرًا في القرن التاسع عَشْر والتي حَلَّ مَحَلَّها أحْيَاءُ القَصْر العالي وجارْدن سيتي وعابدين وحيّ الإسْماعيلية الكَبير (وَسَط المَدِينَة الآن)[٤].

---

[١] راجع محمد رمزي: «شاطئا النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليهما من التحوّلات من الفتح العَرَبي لمصر إلى اليوم»، مجلة العلوم ٣/٤ (١٩٤٢)، ٤٩٧ـ٥٢٣، وتعليقاته على النجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تغري بردى ٨:٢٨٣ـ٢٨٥.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣:٣٧٦ـ٤٠٢، السلوك ٢:٥٤٢ـ٥٤٣.

[٣] ابن مماتي: قوانين الدواوين ٣٤٢.

[٤] انظر فيما يلي الفَصْل السَّادس.

واشْتَمَلَت هذه الأراضي الجَدِيدَة التي انْحَسَر عنها مَاءُ النِّيل على مَوَاضِع تَحَوَّلَت إلى « مَيَادِين » كانت مُعَدَّةً للتَّرَيُّض ورُكُوب الخَيْل ولَعِب الكُرَة ، هي :

« المَيْدَانُ الظَّاهِرِيّ » الذي أنْشَأَهُ السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس وجَعَلَ حَوْلَه المَنَاظِر والقَاعَات ، وكان يَتَرَدَّدُ عليه للَعِب الكُرَة مع أمَرَائه ، وظَلَّ كذلك حتى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م عندما أمَرَ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوُون بتَخْرِيب مناظِره بعد أنْ ازْدَاد انْحِسَارُ ماء النِّيل وبَعُدَ عنه ، وجَعَلَه بُسْتانًا عَظِيمًا زَرَعَ فيه سَائِر أصْناف الشَّجَر واسْتعانَ على ذلك بخَوَلَة الشَّام الذين طَعَّمُوا الأشْجار المُختلفة وأفادَ منهم المصريون فَنّ تَطْعِيم الأشْجَار . وأهْدَىٰ النَّاصِرُ محمد هذا البُسْتَان إلى الأمير قُوصُون الذي عَمَّرَ تجاهه الزَّرْبِيَّة المعروفة بزَرْبِيَّة قُوصُون على النِّيل وعَمَّرَ كذلك حَمَّامًا وسُوقًا كبيرًا وطَوَاحِين وعِدَّة مساكِن اتَّصَلَت باللُّوق [1] . والزَّرْبِيَّة نَوْعٌ من الأرْصِفَة المبنية على أوْتاد أو دَعَائم على شواطئ النِّيل أو البِرَك [2] .

ويَدُلّ على مَوْقِع هذا المَيْدَان الآن المنطقة التي تُحَدّ الآن بشارع البُسْتان جَنُوبًا وشارع محمود بسيوني شمالاً وشارع يوسف الجِنْدي شَرْقًا وشارع مريت باشا غربًا [3] .

« المَيْدَانُ النَّاصِرِيّ » أنْشَأَهُ النَّاصِر محمد بن قلاوون سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م في أرْضِ بُسْتان الخَشَّاب على النِّيل وبنى حَوْله عَدَدًا من القُصُور لينزل بها مع أمَرَائه بعد أنْ أصْبَح الرُّكوبُ إليه من الرُّسُوم المهمَّة في الدَّوْلَة المملوكية ، فكان السُّلْطانُ يَرْكَب إليه كلَّ يوم سَبْت لمدَّة شهرين بعد وَفَاءِ النِّيل كلّ عام في مَوْكِب حَافِل ويَتَجَمع أهْلُ القاهِرَة ومصر لمُشاهَدَته وهو في طريقه من القَلْعَة إليه .

---

[1] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٦٢٨.

[2] انظر كذلك عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار ٦٩.

[3] محمد الششتاوي : ميادين القاهرة في العصر المملوكي ٨٩.

وكانت أرْضُ هذا المَيْدَان تَحْتَلُّ جزءًا من الحَيّ الذي يُعْرَف الآن بـ« جَارْدِن سيتي » في المَنْطقة التي يحدّها الآن النِّيل غَرْبًا وشارع عائشة التيمورية جَنُوبًا وشَارع القَصْر العيني شَرْقًا وشارع رُسْتم باشا شمالًا .

ووُجِد بين المَيْدَانين مَيْدَانٌ ثالِث عُرِفَ بـ« مَيْدَان المَهاري » كان قريبًا من قَنَاطِر السِّباع (مَيْدَان السَّيِّدَة زَيْنَب الآن) ومن جُمْلَة جِنَان الزُّهْري أنشأه كذلك السُّلْطان النَّاصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م من أجْلِ تَرْبِيَة الخُيُول التي شُغِفَ بها ، ثم بَنَى به قَصْرًا كبيرًا سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م وكان يَلْعَب به الكرة مع الأمَرَاء وهو في طريقه إلى المَيْدَان النَّاصِري على النِّيل [١].

ويَدُلُّ على مَوْضِعه الآن المَنْطِقة التي يحدها من الجنوب شارع المُبْتَدَيان ومن الشرق شارع خَيْرَت ومن الشمال شارع الجامِع الإسماعيلي ومن الغَرْب شارع مَنصُور .

وطَوَال العَصْر المَملوكي كان البَرُّ الغَرْبي للخَليج غير مأهُولٍ في قِسْمِه الأوْسَط الواقِع بين بِرْكة الأزْبَكِيّة شَمَالًا وبِرْكة السَّقَّائين عند النَّاصِرِيَّة جَنُوبًا ، ولم يكن مأهُولًا سوىٰ في أطْرافِه الشَّماليَّة والجَنُوبيَّة . ونَمَت المَنْطِقَةُ الحَضَرِيَّةُ فيه على أقَلّ من ٢١٤ فَدَّانًا بَلَغَت في سَنَة ١٧٩٨م، ٤٦٠ فَدَّانًا [٢]. ولم يُوجَد بهذه المَنْطِقَة الوَاسِعَة سوىٰ أرْبَعَة مَسَاجِد جَامِعَة هي : جَامِع الزَّاهِد بالمَقْس وجَامِع أمير حُسَيْنْ بجوار غِيط العِدَّة وجَامِع السّتّ حَدَق بالقُرْب من قَنْطَرَة آق سُنْقُر وجَامِع أرْغُون شَاه الإسْماعيلي على البِرْكة النَّاصِرِيَّة [٣].

---

[١] المقريزي : المواعظ ٣: ٦٣٠-٦٣١.

[٢] A. Raymond, «Al-Maqrîzî's Khitat and the Urban Structure of Mamluk Cairo», *MSR* VII (2002), p.158.

[٣] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٢١٤، ٣٢١-٣٢٢، ٣٢٠، ٣٣٠.

فبناءُ المَسَاجِد والحَمَّامات كان دائِمًا نِتَاجًا لتنميةٍ بَشَرِيَّة تُعَبِّرُ عن الاحْتِياجات الدِّينِيَّة والاجْتماعِيَّة .

ظَوَاهِرُ القَاهِرَة المَمْلُوكِيَّة

يَحْصُرُ مَدِينَةَ القَاهِرَة أرْبعُ جِهَات : شَرْقِيَّة وغَرْبِيَّة ، وشَمَالِيَّة يُسميها أهْلُ مصر : البَحْرِيَّة ، وجَنُوبِيَّة يُسَمُّونها : القِبْلِيَّة . تَمْتَدُّ « الجِهَةُ الشَّرْقِيَّة » من سُورِ القاهِرَة الذي به بابُ البَرْقِيَّة والبابُ الجَدِيد وبابُ المحْرُوق ، وتَنْتَهي هذه الجِهَة إلى الجَبَل المُقَطَّم ، وكانت هذه الجِهَة عندما وُضِعَت القاهِرَة فَضَاءً فيما بين السُّور وبين الجَبَل وظَلَّت كذلك حتى زَمَنِ الدَّوْلَة المَمْلوكيَّة فأُطْلِقَ على هذا الفَضَاء « المَيْدَان الأسْوَد » و « مَيْدَان القَبَق » و « مَيْدَان السِّباق » [١]، وهو مَوْضِعٌ ممتدٌّ بين الثَّغْرَة التي يُنْزَل من قَلْعَة الجَبَل إليها وبين قُبَّةَ النَّصْر تحت الجَبَل الأحْمَر . وبَدَأت مَعَالمُ هذا المَيْدَان في الظُّهور في عَهْدِ السُّلْطان الملك الظَّاهِر بَيْبَرْس فبَنَىٰ به مَسْطَبَةً في المحرَّم من سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٤م عندما حَثَّ النَّاسَ على لَعِب الرُّمْح ورَمْي النُّشَّاب ونحو ذلك وصَارَ يَنْزِلُ كلَّ يومٍ إلى هذه المَسْطَبَة من الظُّهْر فلا يَرْكب منها إلى العَشَاء الآخِرة وهو يَرْمي ويُحَرِّضُ النَّاسَ على الرَّمْي والرِّهَان . وظَلَّ الأمْرُ كذلك مع أوْلاده ومع السُّلْطان المَنْصُور قلاوون يَرْكبون في المَوْكب إلى هذا المَيْدَان ، ويَقفُ الأمَرَاء والمماليك السُّلْطانية تُسَابِقُ بالخَيْل فيه أمامَهم ، وتَنْزِلُ العَسَاكِرُ فيه لرَمْي القَبَق .

والقَبَقُ لَفْظَةٌ تركيةٌ تَعْني القَرْعَة العَسَلِيَّة ، كانت تُتَّخذ هَدَفًا تُعَلَّق فوق عَمُود يرميه الفارِسُ النَّاشِب وفَرَسُه يجري . ثم صارَت اللَّفْظَة تَعْني التَّمْرِين كُلّه الذي

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣٦٣.

اسْتُخْدِمَت فيه أنْوَاعٌ أخرىٰ من الأهْدَاف ، ورَمْي القَبَق تَقْليدٌ تَحَدَّرَ رُبَّما من شُعُوب آسْيا الوُسْطىٰ الرَّعَوِيَّة ، واشْتُقَّ في الأصْل من ممارسَة صَيْد الطَّيْر بالنُّشَّاب من على ظُهُور الخَيْل ، إلَّا أنَّ تأريخه الرَّسْمِي والمُوَثَّق كأحَد التَّمارين الأساسية لإعْدَاد الفارِس النَّاشِب لم يَبْدَأ حَقًّا إلَّا مع دَوْلَة المماليك .

وفي سَلْطَنَة النَّاصِر محمد بن قلاوون تَرَكَ النُّزُولَ إليه وبَنَى مَسْطَبَةً أخرىٰ برَسْم طَعْم طُيُور الصَّيْد بالقُرْب من بِرْكة الحَبَش جنوب الفُسْطَاط ، ثم عادَ إلى مَيْدَان القَبَق مَرَّةً أخرىٰ ، وظَلَّ الأمْرُ كذلك إلى أنْ بُنِيَت فيه التُّرَبُ شيْئًا فشيْئًا وبَطُلَ السِّباقُ منه [١].

وكانت « الجِهَةُ الغَرْبِيَّة » قِسْمَيْن : بَرّ الخَلِيج الشَّرْقي وبَرّ الخَلِيج الغَرْبي . البَرُّ الشَّرْقيّ عليه « البُسْتان الكافُوري » ومَنَاظِر الخُلَفَاء : اللُّؤْلُؤة ودَار الذَّهَب والغَزَالَة [٢]. وفيما بين البُسْتان الكافُوري وهذه المَنَاظِر وبين الخَلِيج شَارِعٌ تَجْلِسُ فيه عامَّةُ النَّاس للتَّفَرُّج على الخَلِيج وما وَرَاءَه من البَسَاتِين والبِرَك يُعْرَف بـ « بَيْنَ السُّورَيْن » [٣].

أمَّا « البَرُّ الغَرْبي » فيَبْدَأ من مَوْرَدَة الحَلْفَاء جَنُوبًا بين خُطّ الجَامع الجَديد خَارج مصر (جَنُوبيّ مجرىٰ العُيُون الآن) ومُنْشأة المَهْرَاني وآخره أرْض التَّاج والخَمْس وُجُوه وما بَعْدَها من بَحْرِيّ القاهرة (أرْض الشَّرَابِيَّة الآن) . وكانت مَنْطِقَةُ الزُّهْري من خُطّ قَنَاطِر السِّباع (السَّيِّدَة زَيْنَب الآن) إلى أراضي اللُّوق وإلى المَقْس بساتين يَمُرُّ النِّيلُ في غربيها بحيث كان المَقْسُ هو سَاحِلَ القاهِرَة حتى انْحَسَرَ ماءُ النِّيل ابتداءً من القرن السَّادِس عن أرْضٍ بالقُرْب من الزُّهْري عُرِفَت بمُنْشَأة الفاضِل

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣ :٣٦٩-٣٧٦.

[٢] نفســه ٣ :٣٦٣- ٦٤.

[٣] نفســه ٣ : ٣٦٤.

وبُسْتان الخَشَّاب ، وأخرىٰ تجاه البَغْل في بَحْري القاهِرَة عُرِفَت بجَزِيرَة الفِيل (شُبْرَا الحالية) ، وبدأ النَّاسُ مع مَطْلَع القرن الثَّامِن الهجري في إعْمار هذه الأراضي الجَدِيدَة التي انْحَسَرَ عنها النِّيلُ وحَفَرَ فيها النَّاصِرُ محمد بن قلاوون الخَلِيج النَّاصِري ، فصَارَ بَرُّ الخَلِيج الغَرْبي أضْعَاف ما كان عليه أوَّلًا [١] ، وهي المناطِق التي ازْدَهَرَت في نِهاية القَرْن التَّاسع عَشْر ونَمَا عليها المَشْرُوع الحَضَري الذي تَبَنَّاهُ الخِدِيو إسْمَاعيل .

ولم يكن خارج الجِهَة القِبْلِيَّة سوى بِرْكة الفِيل وبِرْكة قارُون ، يَرَىٰ مَنْ خَرَجَ من بابِ زَوِيلَة عن يمينه الخَلِيجَ ومَوْرَدَةَ السَّقَّائين تِجاه باب الفَرَج وأمامَها حارَةُ السُّودَان المعروفة بـ« المَنْصُورَة » والتي هَدَمَها السُّلطانُ صلاحُ الدِّين سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م ثم الباب الجَدِيد الذي شَيَّدَه الحاكمُ بأمْر الله وكان ما على يمين السَّائِر بَسَاتين إلى بِرْكة الفِيل وما على يَسَاره في الدَّرْبِ الأحْمَر مَقْبَرَةٌ تَمْتَدّ إلى مَسْجِد الذَّخِيرَة تحت القَلْعَة تِجاه شبابيك مَدْرَسَةَ السُّلْطان حَسَن (جامع الرِّفاعي الآن) . ولم تَحْدُثُ العَمَائرُ المَوْجُودَةُ خارج بابِ زَوِيلَة إلَّا مع مَطْلَع القَرْن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشْر الميلادي ، وصَارَ خارج بابِ زَوِيلَة ثلاثَة شَوَارع ، أحَدُها على اليمين يَنْتَهي إلى الخَلِيج حيث قَنْطَرَة باب الخَرْق (شَارِع تحت الرَّبْع الآن) ، والآخَر على اليَسَار ينتهي إلى قَلْعَة الجَبَل (شَارِعُ الدَّرْب الأحْمَر وشَارِع التَّبَّانَة وشَارِع باب الوَزِير الآن) ، والثَّالِث تجاه مَنْ خَرَج من الباب يَصِلُ إلى الصَّلِيبَة والجامِع الطُّولُوني (شَارِعُ الخِيَمِيَّة وشَارِعُ المِغَرْبِلِين وشَارِعُ السُّروجِيَّة وشَارِعُ السُّيُوفِيَّة الآن) [٢].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣:٣٦٤ـ ٣٦٥.

[٢] نفسه ٣:٣٦٥ـ ٣٦٧.

أمَّا الجِهَةُ البَحْرِيَّة فكانت في الأصْلِ فَضَاءً يَنْتَهي إلى بِرْكة الجُبّ ومُنْية الأصْبَغ المعروفة بالخَنْدَق والمَطَرِيَّة وعَيْنُ شَمْس. وعند وَفَاة أمير الجُيُوش بَدْر الجَمَالي سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م بُني خارج باب النَّصْر تُرْبَة دُفِن بها وصارَت المَنْطِقة جَمِيعُها مَقْبَرةً وصَارَ ما بين باب الفُتُوح والمَطَرِيَّة بَسَاتِين، ونَشَأت كذلك الحارَةُ الحُسَيْنِيَّة خارج باب الفُتُوح واتَّصَلَت العَمَائِرُ من هناك وحتى الرَّايْدانية (العَبَّاسِيَّة الحالية) إلَّا أنَّها تَنَاقَصَت بعد الوَبَاء الأسْوَد سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، ثم فَحُشَ خَرَابُها من حين حَدَثَت المِحَنُ سَنَة ٨٠٦هـ/١٤٠٤م[١].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣:٣٦٧- ٣٦٨.

قَاهِرَةُ المَقْرِيزِيّ

وَصَلَ العَالِمُ التُونُسيُّ المَعْروف عبد الرَّحمن بن خَلْدُون إلى القَاهِرَة في أوَّلِ ذي القِعْدَة سنة ٧٨٤هـ/ يناير سنة ١٣٨٣م، عَشْرَة أيَّام بعد جُلُوسِ السُّلْطان الظَّاهِر بَرْقُوق على التَّخْتِ وانْتِقالِ السُّلْطَة في مصر من المماليك البَحْرِيَّة إلى المماليك الشَّرَاكِسَة، وظَلَّ مُقِيمًا بها نحو رُبْعِ القَرْنِ حتى وَفَاته سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، فأبْدَىٰ انْبِهَارَهُ الشَّديد بها وكَتَبَ يقول:

«فرَأيْتُ حَضْرَةَ الدُّنْيا وبُسْتانَ العَالَم ومَحْشَرَ الأُمَم ومَدْرَجَ الذَّرِّ من البَشَر وإيوانَ الإسْلام وكُرْسِيَّ المُلْك، تَلُوحُ القُصُورُ والأَوَاوِينُ في جَوِّه وتَزْهَرُ الخَوَانِكُ والمَدَارِسُ بآفاقِه وتُضيءُ البُدُورُ والكَوَاكِبُ من عُلَمائِه .... ومَرَرْتُ في سِكَكِ المَدِينَة تَغُصُّ بزِحَام المارَّة وأسْواقُها تَزْخَرُ بالنِّعَم ...».

وخَتَمَ حَدِيثَه مسْتَشْهِدًا بقَوْلِ أبي عبد الله المَقَّري، قاضي الجَمَاعَة بفاس: «مَنْ لم يَرَها لم يَعْرِف عِزَّ الإسْلام»[1].

ولكنَّ هذا الازْدِهَار الذي انْبَهَرَ به ابنُ خَلْدُون لم يَلْبَث أنْ تَرَاجَعَ، فقد وَصَلَ الغَزْوُ المُغُولِيّ بقِيادَة تَيْمُورلَنْك من جَدِيد إلى الشَّام وبَلَغَ مَشَارِفَ مصر سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م، وأخَذَت المجَاعَاتُ والأوْبِئَةُ تتوالى على البلاد. وحَدَثَ التَّغْييرُ الحَاسِمُ لملامِح القَاهِرَة في أعْقاب أزْمَة سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، حيث تَقَلَّصَت الأراضي التي عُمِّرَت في القَرْنِ السَّابق وهُجِرَت المَنَاطِقُ السَّكَنِيَّةُ الوَاقِعَة في شماليّ باب النَّصْر وفي غَرْبيّ الخَلِيج تجاه بَابِ اللُّوق. كان هذا التَّرَاجُعُ دون شَكٍّ بشكلٍ مُؤَقَّتٍ فقد امْتَدَّ العُمْرانُ مَرَّةً أخرىٰ إلى هذه المَنَاطِق عندما أصبحت الظُّرُوفُ مُوَاتِيَة. ويُقَدِّرُ أبو المحَاسِن يُوسُفُ بن تَغْري بِرْدِي أنَّ أكثَرَ من نِصْفِ القَاهِرَة

[1] ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، تونس ٢٠٠٦، ٢٥٣ـ ٢٥٤.

وظَوَاهِرِها قد تَخَرَّبَ في أثْنَاء الغَلاءِ والوَبَاءِ الذي صَاحَبَ أزْمَة سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، كما فَقَدَت فيه القَاهِرَةُ نَحو ثُلُثَيّ أهْلِها [١].

ولاشَكَّ أنَّ المَقْرِيزيَّ، الذي دَوَّنَ كِتَابَه «المَوَاعِظ والاعْتِبَار في ذِكْر الخِطَطِ والآثَار» في أعْقَابِ هذه الأزْمَة، لم يَعْرِف ازْدِهَارَ القَاهِرَة ومَجْدَها القَدِيم، وإنَّما عَاصَرَ فَتْرَةَ التَّدَهْورِ والانْهِيَار، خَاصَّةً بَعْد أزْمَة سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م وفي أعْقَابِ الانْتِهَاكَات وعَمِليَّات اغْتِصَابِ الأمْلاكِ وعَدَم احْتِرَام الوَقْفِيَّات التي قَامَ بها بشَكْلٍ سَافِرٍ نحو سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م الأميرُ جَمَالُ الدِّين يُوسُف الأسْتَادَّارِ الذي اغْتَصَبَ أغْلَبَ الأمْلاك والأوْقَاف الوَاقِعَة في مَنْطِقَة رَحْبَة بَابِ العِيد وما حَوْلَها (شَارِع الجَمَالِيَّة الآن) وبنى في مَوْضِعِها مَدْرَسَتَهُ وقَصْرَهُ، لِيَبْدَأ منذ هذا التَّأريخ «حَيّ الجَمَالِيَّة» في الظُّهُور لِيَلْعَب بعد ذلك دَوْرًا مُهِمًّا في تَارِيخ القَاهِرَة [٢].

* * *

أمَّا الفُسْطَاطُ، أو مِصْرُ العَتِيقَة، فلم يَبْق فيها في الوَقْتِ الذي وَصَفَها فيه كلٌّ من ابن دُقْمَاق والقَلْقَشَنْديّ والمَقْريزيّ في مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِع الهِجْريّ، إلَّا ما بسَاحِل النِّيلِ وما جَاوَرَهُ إلى ما يلي جَامِع عَمْرو وما قَرُبَ منه، أمَّا أكثرُ الخِطَطِ القَدِيمَة فقد دَثَرَ وعَفَى رَسْمُهُ واضْمَحَلَّ ما بقي منه وتَغَيَّرت مَعَالِمُه كما يقولُ القَلْقَشَنْديّ [٣].

وتُشِيرُ سيلْفي دينوا Sylvie Denoix في دراستها المُهِمَّة عن «وَصْف القاهرة»

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٣: ١٥٢. ٣٤٨، ٤٥٩؛ ٣: ٢٣٠.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٣٤٣، [٣] القلقشندي: صبح الأعشى ٣: ٣٣٤.

إلى أنَّه من بين ١٣٢ شارعًا وزُقَاقًا ذكرها ابن دُقْماق في الفُسْطاط، كان يُوجَدُ في عَصْره ٣٩ زُقاقًا مُزْدَهِرًا فقط و ٤٤ آخرين لَحِقَها الخَرَابُ الذي ارْتَبَطَ بالأزْمَة الاقْتِصادية التي اجْتاحَت مصر في النِّصْف الثَّاني للقرن الثَّامِن الهجري/الرَّابع عَشْر الميلادي وبَلَغَ ذُرْوَته في الوَقْت الذي كان فيه ابنُ دُقْماق والمَقْريزيّ يُدَوِّنان خِطَطِهما [١].

أمَّا أسْوَاقُ المَدِينَة الكبيرة ووكالاتُها فقد تَجَمَّعَت في جانِب المدينة الغَرْبيّ المعروف بـ «عَمَل أسْفَل» الذي سادَت فيه أنْشِطَةُ المَدِينَة الاقْتِصَادية منذ وَقْتٍ مبكِّر لقُرْبِه من شاطئ النِّيل.

ووُجِدَت بالفُسْطاط على الدَّوام طَوَائِفُ من الأقلِّيَّات: اليَهُود والنَّصَارَىٰ، الذين تَعَايَشُوا جَنْبًا إلى جَنْب مع المُسْلِمين، فلم تعْرِف الفُسْطاط إطْلاقًا الـ Ghetto الدِّيني حتى في مَنْطِقة قَصْر الشَّمْع التي تَجَمَّعَت فيها الكنائِسُ التَّاريخية المسيحية والمَعَابِدُ اليهودية [٢].

ورَغْم أنَّ الأضْرَارَ التي لَحِقَت بالفُسْطَاط لم تَكُن أشَدَّ من تِلْك التي أصَابَت المَنَاطِق الأخْرَىٰ، فإنَّه لم تَجْر أيَّةُ مُحَاوَلَةٍ للنُّهُوض بالمَدِينَة وإحْيَاء دَوْرِها، وذلك بسَبَبِ تَحَوُّلِ طُرُقِ التِّجَارَة المصرية ابْتِدَاءً من عَصْرِ السُّلْطانِ الأشْرَف بَرْسِبَاي (٨٢٥-٨٤٢هـ/ ١٤٢١-١٤٣٨م) واعْتِمَادِها على تِجَارَة البَحْر المُتَوَسِّط بعد أنْ كانت حتَّى هذا الوَقْت تَعْتَمِدُ على تِجَارَةِ البَحْرِ الأحْمَر وعلى الأخَصّ التِّجارَة الكارِمِيَّة عَبْر الطَّرِيق التَّقْليدِيّ (عَيْذَاب - قُوص - الفُسْطَاط) وعلى الأخَصّ بعد تَخَرُّب مِينَاء عَيْذَاب نِهَائِيًّا في أوَاسِط القَرْنِ التَّاسِع الهِجْرِيّ.

---

[١] S. Denoix, *Décrire Le Caire. Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzî*, Le Caire-IFAO 1992, pp.34-40.

[٢] A. Raymond, *Le Caire*, p.167.

وأدَّى ذلك بالضَّرُورَة إلى فُقْدَانِ الفُسْطَاط لأهَمِيَّتِها الاقْتِصَادية وهَجْرِ النَّاسِ لها وتَخَرُّبِها نِهَائيًا في نِهَاية القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ. وبالطَّبع لم يَكُن هذا ممكنًا إلَّا بعد إنْشَاءِ مِينَاءٍ آخَر للعَاصِمَة في طَرَفِها الشَّمَاليّ الغَرْبِيّ هو مِينَاءُ «بُولاق» (الذي بَدَأ في الظُّهُور اعْتِبَارًا من سنة ٧١٣هـ/ ١٣١٣م) ولكنَّه لم يَلْعَب دَوْرًا في الحَيَاة الاقْتِصَادِيَّة للمَدِينَة إلا ابْتِدَاءً من القَرْنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخامِس عَشْر الميلاديّ[١].

ورَغْم مُحَاوَلَات التَّوَسُّع والعُمْرَان التي شَهِدَتْها القَاهِرَةُ فيما بعد، وخَاصَّةً في زَمَنِ سَلْطَنَة الأشْرف قَايِتْبَاي (٨٧٣-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤٩٦م)، الذي يمكن مُقَارَنَةُ عَصْرِه بعَصْرِ النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون فيما يَخُصّ التَّشْييد والعُمْرَان، فإنَّها لم تَفْلَح في الرُّجُوع بعَدَدِ سُكَّانِها إلى الرَّقَم الذي كان مَوْجُودًا في القَرْن الثَّامِن الهجريّ، وإنْ كان مَارْسيل كليرجيه Marcel Clerget يَفْتَرِضُ أنَّ القَاهِرَة كانت تَضُمُّ في أوْاسِط القَرْنِ العَاشِر، أي في بِدَايَة الحُكْم العُثْمَانيّ، نحو ٣٨٥ ألْف نَسَمَة[٢].

نَشْأةُ الأزْبَكِيَّة

في هذه الحِقْبَة تَمَّ تَنْفِيذُ مَشْرُوع عُمْرَانيّ كبيرٍ على بُعْدِ نحو ٥٠٠ مترًا غَرْبيّ الخَلِيج، حيث قَامَ المُقِرُّ الأتَابِكِيّ أزْبَكُ من طُطُخ الظَّاهِرِيّ بتَعْمِير مَنْطِقَة الأزْبكيَّة التي نُسِبَت إليه. وقد بَدَأت هذه الأعْمالُ عَامَ ٨٨٠هـ/ ١٤٧٦م واسْتَمَرَّت حتى عام ٨٨٨هـ/ ١٤٨٤م. وبَدَأ أزْبَكُ بإقَامَة مُنَاخًا لجِمَالِه لتَكُونَ قَرِيبَةً من مَقَرِّ

---

[١] المقريزي: المواعظ ٣: ١٤٣٠؛ السلوك ٢: ١١١٤؛ N. Hanna, *An Urban History of Bûlâq in the Mamluk and Ottoman Periods* pp.7-23.

[٢] M. Clerget, *Le Caire*, pp.240-41.

إقَامَتِه، ثم بَنَى عَدَدًا من القَاعَات والدُّور ومَقْعَدًا، وقَامَ بتَمْهِيد المَنْطِقَة وحَفَرَ بها البِرْكَة المعروفة بالأزْبَكِيَّة وأجْرَىٰ إليها الماءَ من الخَلِيج النَّاصِرِيّ، ثم شَرَعَ النَّاسُ في بِنَاء القُصُور والدُّور حَوْل البِرْكَة وأخَذَت العِمَارَةُ تتَزَايَدُ في المَنْطِقَة حتى عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م (تأريخ وَفَاة قَايتْبَاي) حتى صَارَت، كما يقول ابنُ إيَاس: «مَدِينَةً على انْفِرَادِها»، وأنْشَأ أزْبَكُ على الضَّفَّة اليُمْنَىٰ للمَنْطِقَة جَامِعَهُ الكَبِير المَنْسُوب إليه «جَامِع أزْبَك» وأقَامَ حَوْلَه الرِّبَاعَ والحَمَّامَات والقَيَاسِر والطَّوَاحِين والأفْرَان وغير ذلك من المَنَافِع. وللأسَفِ الشَّدِيد فلمْ يَبْقَ أيُّ أثَرٍ من هذه المجْمُوعَة الرَّائِعَة من العَمَائِر فيما عَدَا اسْم الأزْبَكِيَّة الذي ظَلَّ يُطلَقُ على البِرْكَة وعلى الحَيّ. وقد أُزِيلَ جَامِعُ أزْبَك عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م في المَشْرُوع الحَضَاريّ الكَبِير الذي تَبَنَّاه الخَدِيو إسْمَاعيل لتَجْديد مَيْدَان الأزْبَكِيَّة وإنْشَاء دَار الأوبْرا المِصْرِيَّة، يقول ابنُ إيَاس إنَّ الأمِيرَ أزْبَك اسْتَثْمَرَ في هذا المَشْرُوع مائتي ألْف دِينَار، وهو مَبْلَغٌ هائِلٌ يَتْناسَبُ مع قُوَّة نُفُوذ الأمير ووَفْرَة إمْكانَاتِه الماليَّة[١].

أحْيَاءُ أهْلِ الذِّمَّة

لَعِبَ نَصَارَىٰ مصر دَوْرًا مُهِمًّا في وَظَائِف الإدَارَة المالية للدَّوْلَة منذ العَصْرِ الفَاطِمِي، وكَوَّنُوا من خِلالِ تَوَلِّيهم هذه الوَظَائِف ثَرَوَات كبيرة وكانوا أدَاة الدَّوْلَة في العَصْرِ المملوكي لجِبَايَة الضَّرَائِب البَاهِظَة التي فُرِضَت على المصريين، الأمْرُ الذي أوْجَدَ غَضَبًا عامًّا من المسلمين تجاههم كان مُنَاسَبَةً يَسْتَوْلي فيها العَامَّةُ على ثَرَوات أهْلِ الذِّمَّة بحِجَّة أنَّهم يَحْمُون الإسْلام.

---

[١] راجع ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣:١١٧ـ١١٨، ١٣٤؛ D. Behrens-Abouseif, *Azbakiyya and tis Environs from Azbak to Ismâ'îl, 1476-1879*, Suppl. aux An. Isl. cahier n° 6, Le Caire-IFAO 1995.

وتَكَرَّرَت المناسَبَاتُ التي أدَّت إلى تَصَادُم المسلمين بأهْل الذِّمَّة نتيجَةً لما كانوا يَتَمَتَّعون به من مَظَاهِر الحُرِّيَّة الاجتماعية والسِّياسِيَّة والاقْتِصادية في الدَّوْلَة التي أثارَت أحْيانًا اسْتِغْرَابَ بعض سُفَرَاء الدُّوَل الإسْلامية الذين كانوا يَتَرَدَّدُون على مصر، الأمْر الذي اسْتَلْزَمَ من الحكومة المملوكية أنْ تَتَّخِذَ إجْرَاءَات تَمْييزٍ ضِدّ أهْلِ الذِّمَّة في أعْقابِ حَوَادِث سنة ٦٩١هـ/١٢٩٣م و ٧٠٠هـ/١٣٠١م. ونَتَجَ عن هذه المُصَادَمات انْعِزَالُ الأحْيَاء التي كان يَقْطُنُها أهْلُ الذِّمَّة وبِدَايَة تَحَوُّل النَّصَارَىٰ من طائِفَةٍ مُهِمَّةٍ عَدَدِيًّا نتيجة تَرَاجُع أعْدَادهم في خلال القَرْن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشْر الميلادِي بسَبَب الضَّغْطِ الشَّعْبِيّ الذي لَعِبَ دَوْرًا مهمًّا في تَحَوُّل جُمُوع من النَّصَارَىٰ إلى الإسْلام أهَمّ من دَوْر الحُكَّام المماليك الذين كانوا يُقَدِّرُون أهَمِّيَّة دَوْر النَّصَارَىٰ في إدَارَة الشُّئُون المالية للدَّوْلَة.

كانت هذه الأحْدَاثُ تَمْهِيدًا لما حَدَثَ في عام ٧٢١هـ/١٣٢١م وأطْلَقَ عليه المقريزيّ «وَاقِعَة الكنائِس» والتي تَمَّ خِلالها هَدْمُ عَدَدٍ كبيرٍ من كنائِس النَّصَارَىٰ بَدَأَت بكنيسة الزُّهْريّ والكنائِس المجاورة لها في الحِكْر المعروف بحِكْر آقْبُغا ما بين السَّبْع سِقايات وبين قَنْطَرَة السَّدّ خارج مدينة مصر، بالقُرْب من مَيْدان السَّيِّدَة زَيْنَب الآن (بَلَغَت إحدىٰ عشرة كنيسة في القاهرة، وثمانٍ في الفُسْطاط، وستين في مصر كلّها)[١].

وفي أعْقابِ «واقِعَة النَّصَارَىٰ»، سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وما صَاحَبَها من أحْدَاثِ عُنْفٍ حَدَثَ تَرَاجُعٌ كبيرٌ في عَدَدِ النَّصَارَىٰ الذين اعْتَنَقَ عَدَدٌ كبيرٌ منهم الإسْلام، وتَحَوَّل مَنْ بَقِيَ منهم إلى أقَلِّيَّة، يقولُ المَقْريزي:

«فَفَشَا الإسْلامُ في عامَّة نَصَارَىٰ أرْض مصر، حتى إنَّه أسْلَمَ من مَدِينَة

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤:١٠٦٦-١٠٧٦؛ A. RAYMOND, *op. cit.*, p.165.

قَلْيُوب خاصَّةً في يومٍ وَاحِدٍ أرْبَع مائة وخَمْسُون نَفَرًا ... ومن حينئذٍ اخْتَلَطَت الأنْسَابُ بأرْضِ مصر، فنَكَحَ هؤلاء الذين أظْهَرُوا الإسْلام بالأرْياف المُسْلِمات واسْتَوْلَدُوهن ثم قَدِمَ أوْلادُهُم إلى القاهِرَة وصَارَ منهم قُضَاةٌ وشُهُودٌ وعُلَمَاء...»[1].

ويرىٰ دونالد ليتيل Donald Little أنَّه يمكن أنْ نَعُدَّ عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م مُنْعَطَفًا في تاريخ مصر الدِّيني واعتباره اللَّحْظَة التي اكتمل فيها التَّحَوُّلُ الكبيرُ الثَّاني، للدِّيانَة المصرية وأصْبَحَ أمْرًا واقِعًا[2].

هكذا فَضَّلَ مَنْ بقي من النَّصَارَىٰ في القاهِرَة الإقامَةُ في أحْيَاء بَعِيدَةٍ من مَرْكز المَدِينَة، كان يقِيمُ فيها في ذلك الوَقْت قِلَّةٌ من المسلمين، مثل البَرّ الغَرْبي للخَلِيج (بين الموسْكي والأزْبكية)، وحَيّ النَّاصِرِيَّة وبالقُرْب من قَنْطَرَة الدِّكَّة، وعند باب البَحْر[3]، وهي الأحْيَاءُ نفسها التي ظَلَّ يُقيمُ بها النَّصَارَىٰ فيما بعد ويَدُلُّ عليها الآن أحْيَاءُ دَرْب الجِنِينَة والموسكي والفَجَّالَة وامْتِدَادَاتها.

وفي القَرْنِ التَّاسِع الهجري/الخامس عَشْر الميلادي لم يُوجَدُ في القاهِرَة سوى كنيستين لليَعَاقِبَة، وَاحِدَة في حَارَة زَوِيلَة مَقَرّ بَطْرَك الأقْباط، وأخرىٰ في حارَة الرُّوم السُّفْلى[4].

أمَّا اليَهُودُ فقد انْتَقَلُوا من الفُسْطَاط إلى القاهرة خِلال القَرْنين السَّابع والثَّامن للهجرة/ الثَّالِث عَشْر والرَّابع عَشْر للميلاد، وكانت الغالِبِيَّةُ العُظْمىٰ من اليَهُود عند مُنْقَلَب القرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشْر للميلاد تُقِيمَ في القاهِرَة حيث كانت

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٠١٤-١٠٢١، السلوك ٢: ٩٢٧.

[2] D. Little, «Coptic Conversion to Islam under the Bahrî Mamluks», *BSOAS* 39 (1976), p.566; A. Raymond, *op. cit.*, p.165.

[3] A. Raymond, *op. cit.*, p.165.

[4] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٠٦٢.

تُوجَدُ أرْبَعَةُ مَعَابِد يهودية مقابل ثَلاثَة فقط في الفُسْطاط [١]، وكانوا يتَوَاجَدُون على الأخَصّ في حَارَة زَوِيلَة غَربي حَيّ الصَّاغَة والصَّيَارِفَة الذي يُفَسِّر وُجُودُه هناك أسْبابَ هذا التَّمَرْكُز الذي اسْتمرَّ إلى العَصْر العُثْماني [٢].

القاهِرَة في نِهَايَة العَصْر المملوكي

كان آخِرَ وَصْفٍ وَصَلَ إلينا للقاهِرَة في زَمَنِ المماليك الوَصْفُ الذي خَلَّفَهُ لنا Jean-Léon L'Africain (الحَسَن بن محمد الوَزَّان) الذي زَارَ مصر والقاهِرَة غَدَاة الفَتْح العُثماني لمصر، الأمْرُ الذي يُعْطي وَصَفَه قِيمَةً مهمَّةً حَيْث يُظْهِرُ لنا وَضْعَ المَدِينَة في آخر أيَّام المماليك في مصر، وهو عندما يتكلَّم عن القاهِرَة يَقْصِدُ « المَدِينَة المُحَاطَة بسُور » والتي قَدَّرَ أنَّه يُقِيمُ بها ثمان آلاف أسْرَة، ووَصَفَ مَرْكزها الاقْتصادِي والتُّجاري في بَيْنْ القَصْرَين قائلًا :

> « ويَضُمُّ الحَيُّ المُسَمَّىٰ بَيْنَ القَصْرَيْن دَكاكين يُبَاعُ فيها اللَّحْم المَطْبُوخ في حَوَالي ستين دُكانًا، كلُّها مُجَهَّزَة بالأواني القَصْدِيرية. ويُبَاعُ في دَكاكين أخرىٰ ماءٌ مَصْنُوعٌ من كلِّ أنْوَاع الزُّهُور ... وتأتي بعد ذلك دَكاكينُ أخرىٰ تُبَاعُ فيها الحلوىٰ المَعْرُوضَة بشكل بَدِيع ... ثم يأتي باعَةُ الفَوَاكه المجلوبة من بلاد الشَّام. ويُوجَدُ بين هذه الدَّكاكين عَدَدٌ آخَر من دَكاكين مُتَفَرِّقة يُباعُ فيها الزَّلابيَة والبَيْض المَقْلي والجُبْن المَقْلي. ونجد فيما يلي ذلك مَدْرَسَة السُّلْطان الغُوري وبَعْدَها وَكالات الأقْمِشَة وتَشْتَمِلُ كلُّ وَكالَة على عَدَدٍ كبيرٍ من المحلَّات التي تَبِيع المنتجات الإيطالية الحريرية والصُّوفيَّة » [٣].

ويُقَدِّمُ لنا كذلك ليون الأفريقي وَصْفًا لخان الخَلِيلي، وإنْ كان حَدَّدَ موضِعه بالقُرْب من باب زَوِيلَة، يقول :

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤:٩٣٩ـ ٩٤١.

[٢] A. Raymond, *op. cit.*, pp.165-66.

[٣] الحسن الوزَّان : وَصْف أفريقيا ٥٨٠ـ ٥٨١.

« يُشْبِهُ هذا الخان قَصْرَ أميرٍ كبير ، فهو مُرْتَفِعٌ جِدًّا ومَتِين البُنْيان يتألَّف من ثَلاثَة طوابِق تُوجَدُ في الطَّابِق الأوَّل المحال التي يَسْتَقْبل فيها التُّجَّارُ زَبائِنَهم ، والمتاجر المتَداوَلة هناك هي التَّوَابِل والأحْجَار الكريمة والأقْمِشَة الهِنْدِيَّة » .

ويَقَعُ حَيُّ باعَة العُطُور على الطَّرَف الآخر من الشَّارع الأعْظَم : كالزَّباد والمِسْك والجاوِي وهي وَفِيرَة . ويَقَعُ في قِسْمٍ من الشَّارع الأعْظَم حَيٌّ يُبَاعُ فيه الوَرقُ المَصْقُول ، والتُّجَّارُ الذي يَبِيعُون هذا الوَرَق يُتَاجِرُون كذلك في الأحْجار الكريمة .

ويَقَعُ على الشَّارِع نفسه حَيُّ الصَّاغَة ، والمُتَعامِلُون فيه من اليَهُود الذين يَتَدَاوَلُون ثَرَوات كبيرة إضافَةً إلى مَحَلَّات تجارَة المَنْسُوجَات الفاخِرَة »[1] .

أمَّا الأحْيَاءُ الواقِعَةُ جَنُوبيّ باب زَوِيلَة فقَدَّرَ ليون الأفريقي أنَّه يُقِيمُ بها نحو اثْنَي عَشْر أَلْف أسْرَة ، وهو تَقْدِيرٌ به بَعْضُ المبالَغَة ؛ أغْلَبُهم من الطَّبَقَة البُرْجُوازية ، كما تَضُمُّ هذه الأحْيَاءُ العَدِيدَ من الجَوَامِع والمَدَارِس والزَّوايا وعلى الأخَصّ مَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن ، التي ذكر أنَّه بسَبَب ضَخَامتها ومَتَانَة بُنْيانها يمكن التَّحَصُّن بها ومُهَاجَمَة القَلْعَة التي لا تَبْعُدُ عنها أكثر من رَمْيَة سَهْم[2] .

ويُقَدِّرُ ليون الأفريقي عَدَدَ سُكَّان ضاحِيَة باب اللُّوق بثلاثة آلاف أسْرَة . أمَّا مَيْدان الأزْبَكِيَّة فكان يَغُصُّ بأماكِن اللَّهْو غير البَرِئ كالمَوَاخِير والنِّساء السَّاقِطات ، كما يَجْتَمِع به العَديدُ من المُشَعْوِذِين والحُوَاة الذين يَقُومُون بتَرْقِيص الجِمَال والحَمِير والكلاب . كما يَنْتَشِرُ بالمَيْدَان كذلك المُتبارِزُون بالسَّيْف والتُّرْس وبالعَصَا وكذلك المُتَصارِعُون[3] .

---

[1] الحسن الوزان : وَصْف أفريقيا ٥٨١.

[2] نفســه ٥٨٢.

[3] نفســه ٥٨٣-٥٨٥.

ويَقْطُنُ بُولاق التي تَبْعُدُ نحو مِيلَيْن عن المَدِينَة المُسَوَّرَة نحو أرْبَعَة آلاف أسْرَة أغْلَبُهم من الحِرَفِيين والباعَة وتُجَّار الحُبُوب والزَّيْت والسُّكَّر. ويَنْتَشِرُ بها الكثيرُ من الأبْنِيَة البَدِيعَة كالجَوَامِع والمَدَارِس. ومَدَحَ ليون الأفريقي البُيُوت المَبْنِيَّة مُبَاشَرَةً على ضَفَّة النِّيل وعَدَد المَرَاكب الرَّاسية بميناء بُولاق التي قد تَبْلُغُ في بعض الأحْيَان الألْف مَرْكب لاسِيَّما في مَوْسِم حَصَاد الحُبُوب[1].

وقَدَّرَ أنَّ بمَنْطِقَة القَرَافَة في سَفْحِ المُقَطَّم جنوبي المَدينة المُسَوَّرَة نحو ألْفيْ أسْرَة وتَنْتَشِرُ بها قِبَابُ الأوْلياء التي يأتي كثيرٌ من أهْلِ القاهِرَة وظَوَاهِرها لزيارتها في أيَّام الجُمَع[2].

وفيما يَخُصُّ الفُسْطاط أو «مِصر العَتِيقَة» فإنَّه يُقَدِّمُ لنا عنها وَصْفًا مُوجَزًا ويكتفي بالقَوْل بأنَّها تَضُمُّ عَدَدًا كافِيًا من الحِرَفِيين في مُخْتَلَف المِهَن، ولَفَتَ اهْتِمامه فقط جامِعُ عَمْرو ومَشْهَدُ السَّيِّدَة نَفِيسَة[3].

أمَّا جَزِيرَةُ المِقْياس فيَصفها بأنَّها غاصَّة بالسُّكَّان ويَعِيشُ فيها قُرَابَة ألْف وخَمْس مائة أسْرَة، وشَاهَدَ بطَرَفِيها الجنوبي قَصْرًا كبيرًا هو دون شَكّ القَصْر الذي بناهُ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب، وجَامِعًا فَسِيحًا على حافَّة النَّهر من المُؤكَّد أنَّه الجامِع الذي شَيَّدَه أمير الجُيُوش بَدْر الجمالي والذي وَصَفَه مع القَصْر في نهاية القَرْن الثَّامِن عَشْر ج. مارسيل J. Marcel أحَد العُلَماء المصاحِبين للحملة الفرنسية على مصر، إضَافَةً بالطَّبْع إلى عَمُود المِقْياس[4].

---

[1] الحسن الوزان: وصف أفريقيا ٥٨٥.

[2] نفسه ٥٨٥-٥٨٦.

[3] نفسه ٥٨٦.

[4] نفسه ٥٨٨.

العِمَارَةُ الدِّينِيَّةُ زَمَن المماليك

١ ـ المَسَاجِدُ الجَامِعَة

كان الأيُّوبِيُّون شَافعِيِّ المَذْهَب، وهو مَذْهَبٌ يرىٰ امْتِناعَ إقامَةِ خُطْبَتَيْن للجُمُعَة في بَلَدٍ (مَدينَة) واحِدٍ، فأفْتَى القاضي صَدْرُ الدِّين عبدُ الملك بن دِرْباس المارانيِ، قاضي القُضَاة الشَّافِعي، لصَلاحِ الدِّين بإبْطالِ الخُطْبَة من الجَامِعِ الأزْهَرِ ـ رَمْز الدَّعْوَة الإسْماعيلية ـ وإقْرارِها بالجَامعِ الحاكمي من أجْلِ أنَّه أوْسَع. واسْتَمَرّ الأمْرُ كذلك نحو مائة عام إلى أنْ أعَادَها إليه السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٢هـ/١٢٦١م. كما أنَّنا لم نَعْثُر على أيَّة كتاباتٍ أثرية أيُّوبِيَّة تُفيدُ تَرْمِيم الأيُّوبيين أو صِيَانَتَهم لجامِعِيّ عَمْرو وابن طُولُون بمصر الفُسْطاط.

وعلى ذلك فمن الطَّبيعيّ أنْ لا يَسْتَجِدَّ الأيُّوبيُّون مَسَاجِدَ جَامِعَة بالقاهِرَة، ولكنَّهم أدْخَلوا إلى مصر نَمَطًا آخَرَ من المُؤَسَّساتِ الدِّينية هو «المَدْرَسَة» التي بَلَغَ عَدَدُ ما أُنْشئ منها بالقاهِرَة والفُسْطاط في العَصْرِ الأيُّوبيّ اثنتين وعشرين مَدْرسَةً [١]، وإنْ كان صَاحِبُ كِتابِ «تاريخ بَطارِكَة كَنيسَةَ الإسْكَنْدَرِية» قد ذَكَرَ أنَّ السُّلْطانَ الصَّالِحَ نَجْم الدِّين أيُّوب ـ آخِر سلاطين الأيُّوبيين بمصر ـ «أخْرَجَ مالًا جَزيلًا وسَلَّمَه للفقيه بَهَاء الدِّين بن الجُمَّيْزي بِرَسْم مَرَمَّة المَسَاجِد التي بالقاهِرَة ومصر المَحْروستين وما بينهما، واهْتَمَّ بها وعُمِّرَت أحْسَنَ عِمارَةٍ وبُيِّضَت ونُقِشَ على أبْوابِها اسم المَوْلَى السُّلْطان الملك الصَّالِح أيُّوب وتأريخ تَجْديدها وعمارَتها، وهو سنة ثمانٍ وثلاثين وستّ مائة» [٢].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤:٤٥٤ـ ٥٠٣.

[٢] ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة ٤/ ٢: ١٠٨.

كان أوَّلُ مَسْجِدٍ جَامِعٍ يُبْنى في القاهِرَة منذ سُقُوطِ الفاطِميين، سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، هو «جَامِعَ الظَّاهِر بَيْبَرْس» بالحُسَيْنِيَّة خارِج بابِ الفُتُوح سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م. ومَرَّةً أخرى نَجِدُ أنَّ تَخْطيطَ هذا الجَامِع ـ الذي يُعَدُّ من أكبر جَوامِع القاهِرَة مِسَاحَةً لأنَّه شُيِّدَ في منطقةٍ خاليةٍ لم يَسْبق إعْمارُها خارِج أسْوار المَدينَة الشمالية ـ يُماثِلُ تَخْطيط «جَامِع الحَاكِم»، مع مَدْخَلِه التّذكاري البارِز عن سَمْتِ جِدار المُؤَخَّر، ولكن في هذه المرَّة بأبْعادٍ ضخمة ١١,٨٣مترًا×٨,٨٦مترًا، ويُزَيِّن واجِهَتيَ المَدْخَل الجانبيتين ثلاثُ حِنْيات مستطيلة يعلوها عَقْدٌ مُنْكسِر، بينما لم يُوجَد سوى عَقْدَيْن في جَامِع الحاكِم وعَقْدٍ واحِد في جَامِع المَهْدِيَّة، وامْتازَ جَامِعُ الظَّاهِر بمَدْخَلَيْنْ تِذْكاريين آخريْن، يتَوسَّط أحَدُهُما الضِّلْعَ البَحْريّ والثَّاني الضِّلْعَ الجنوبيّ[1] ولكن بأبْعادٍ أقَلّ، يُؤدِّيان إلى صَحْنِ الجَامِع فقط، بسبب كِبَر مِسَاحَتِه ولتَيْسير الدُّخُولِ إليه.

ويُحيطُ بالصَّحْنِ الأوْسَطِ للجَامعِ أربعةُ أرْوِقَةٍ يحتوي رِواقُ القِبْلَة منها على ستة بَوائِك، والرِّواقان البَحْريّ والجنوبيّ على ثلاثِ بَوائِك، بينما يحتوي الرِّواقُ الغربيّ على بائِكتين فقط. وترتكزُ جَميعُ بَوائِك الجامِع المُطِلَّة على الصَّحْنِ، مثل جَامِعيّ ابن طُولُون والحاكِم، على دَعائم؛ كما ترتكزُ بائِكتان من بَوائِك رِواق القِبْلَة السّتّ على دَعائِم، وترتكز أيضًا جَميعُ المجازات التي تَتَوسَّطُ بَوائِك الأضْلاعِ الأربعة والتي تُؤَدّي ثلاثٌ منها إلى المَداخِل الخارجية الثَّلاث للجامِع على دَعائم.

ولعَلَّ أهَمَّ ما يُمَيِّزُ جَامِع الظَّاهِر هو احْتواؤه على مَقْصُورَةٍ تَتقدَّم المِحْراب تَشْغَلُ تسعة أرْوِقَة يتكوَّن كُلُّ ضِلْعٍ من أضْلاعِها الثلاثة من ثلاثة عُقُودٍ وتبْلُغُ مساحتها ١٥,٥ مترًا مُرَبَّعًا. ويَتَوسَّط الضِّلْع الرابع من المَقْصورَة مِحْرابٌ كبيرٌ مُجَوَّفٌ على

---

[1] K.A.C. Creswell, *EI*² art. *Bâb* I, p. 853.

جانبيه حِنْيتان مُسَطَّحَتان يعلوهما نافِذَتان، وكانت المَقْصُورَةُ في الأصْلِ مُغَطَّاة بقُبَّةٍ من الآجُرّ ضَاعَت الآن [١].

ورَغْم أنَّ المَدارِسَ ذات الأواوين أصْبَحَت هي الطَّابَع المُمَيِّز للعِمارَة الدِّينية منذ العَصْرِ الأيُّوبي، فقد اسْتَمَرَّ مع ذلك بِنَاءُ الجَوامِع ذات الأرْوِقة في دَوْلَة المماليكِ البَحْرية وصَدْرِ دَوْلَة المماليك الشَّراكِسَةِ في القرن الثامن الهجريّ / الرابع عَشْر الميلاديّ. وجَميعُ هذه الجَوامِع ـ فيما عَدَا ما شَيَّدَه النَّاصِرُ محمد بن قلاوون: الجامِعُ النَّاصِرِيّ الجَديد (٧١٢هـ/ ١٣١٢م) وجَامِعُ القَلْعَة (٧١٨هـ/ ١٣١٨م) ـ بَنَاهَا كِبارُ الأُمَرَاءِ المماليك لا السَّلاطين، ووُجِدَت في شَوارِع المَدينَة الرَّئيسَة، جَنُوب وجَنُوب شَرْقيّ السُّور الجنوبيّ للمَدينة الفاطِمية والمُؤدِّية إلى قَلْعَة الجَبَل (الدَّرْب الأحْمَر والتَّبَّانَة)، وهي: جَامِعُ قُوصُون (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) وجَامِعُ أُلْمَاس (٧٣٠هـ/١٣٣٠م) وجَامِعُ بَشْتاك (٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م) وجَامِعُ أَلْطَنْبُغَا المارْديني (المارْداني) (٧٣٩هـ/ ١٣٤٠م) وجَامِعُ أصْلَم البَهائي (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) ـ داخِل البابِ المَحْرُوق ـ وجَامِعُ آقْسُنْقُر (٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م) ثم جَامِعُ شَيْخُو (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) إضَافَة إلى جَامِع آل مَلِك الجُوكَنْدار بالحُسَيْنِيَّة (٧١٩هـ/ ١٣١٩م)، وجَامِع الخَطيري ببُولاق (٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م)؛ أمَّا آخِرُ الجَوامِع المملوكية ذات الأرْوِقَة فهو من بِنَاءِ السَّلاطين، وهو «جَامِعُ المُؤَيَّد» الذي شَيَّدَه السُّلْطانُ المُؤَيَّدُ شَيْخ سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م داخِل بابِ زَويلَة، على نَمَطِ المَسَاجِد ذَات الصَّحْنِ والأرْوِقَة والتي بَدَأت مع جَامِع ابن طُولُون واسْتَمَرَّت مع جَوَامِع الأزْهَر والحَاكِم والأقْمَر والصَّالِح طَلائِع والظَّاهِر بَيْبَرْس.

---

[١] L. Hautecoeur & G. Wiet, *Les Mosquées du Caire*, pp. 261-62؛ سعاد ماهر: مساجد مصر ٣: ٣٥-٣٧.

وجَاءَت جَميعُ هذه الجَوامِع ـ بِنِسَبٍ مُتفاوِتةٍ ـ أَقَلَّ بكثيرٍ من مِسَاحة «جَامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس»، أَوَّل الجَوامِع المملوكية، باسْتِثْناءِ الجَامِع النَّاصِري الجَديد شمال الفُسْطاط الذي ضَاعَ كُلُّ أثَرٍ له الآن. ويَرْجِعُ ذلك إلى تَعَدُّدِ المَساجِد الجامِعَة في المَدِينَة وظَوَاهِرها مِمَّا انْتَفَت معه الحَاجَةُ إلى بِنَاءِ مَسَاجِدَ جَامِعَةٍ فَسيحَة. وجَاءَت كذلك وَاجِهاتُ جَميع هذه الجَوامِع دائمًا مُوازيةً لخَطِّ تَنْظيم الطَّريق الذي أُقيمت عليه، وإذا نَتَجَ عن ذلك خِلافٌ في توْجيه القِبْلَة فإنَّ الفَرْقَ يُسْتعاضُ عنه بانْحرافِ المُخَطَّط الدَّاخلي [١]، كما أنَّ أحَدًا من هذه الجَوامِع لم يُسْتَخْدَم أبَدًا كقُبَّةٍ ضَريحية. ولكن الذي يَجْمَع بين جَميع جَوامِع القاهِرَة ذات الأرْوِقة، هو اتِّسَاعُ مُسَطَّحِ صَحْنِ هذه الجَوامِع بالنِّسْبَة للمُسَطَّح المُغَطَّى، وسنلاحظ تَكْرار هذه الظَّاهِرَة كذلك مع المَدارِس المملوكية.

واعْتِبَارًا من عَصْرِ السُّلْطان حَسَن (٧٥٥ـ٧٦٢هـ/١٣٥٤ـ١٣٦٤م) ازْدَادَتْ أهَمِيَّةُ المَسَاجِد وإنْ أصْبَحَت أقَلَّ عَدَدًا، وعندما تكون هذه المَسَاجِدُ من إنْشَاءِ السَّلاطِين فغَالِبًا ما تكونُ جُزْءًا من مَجْمُوعَةٍ أثَرِيَّةٍ أكْبَر وهذا ما يَعْكِسُه تَنَوُّع المُصْطَلَحَات المُسْتَخْدَمَة في المَصَادِر الأدَبِيَّة. فوَقْفِيَّةُ السُّلْطان حَسَن تَصِفُ مَسْجِدَه بـ «المَسْجِد الجَامِع والمَدَارِس»، بينما يَصِفُه المَقْرِيزِيُّ مَرَّةً بالمَدْرَسَة ومَرَّةً بالجَامِع. وهو من حَيْثُ التَّخْطِيط، ذَا تَخْطِيطٍ مُتَعَامِد cruciforme عِبَارَة عن صَحْنٍ يَفْتَحُ عليه أرْبَعَةُ أوَاوِين خُصِّصَت لتَدْرِيس المَذَاهِب الفِقْهِيَّة الأرْبَعَة، ولكنَّ إيْوَانَ القِبْلَة به مِنْبَرٌ من الرُّخَام ومِحْرَابٌ ضَخْم، الأمْرُ الذي يَدُلُّ على تَدَاخُل صِفَة المَدْرَسَة والمَسْجِد الجَامِع في البِنَاء. ويَحْتَلُّ هذا الجَامِع مَكانَةً مُتَمَيِّزَةً ليس فَقَط في العِمَارَة الإسْلامية القَاهِرِيَّة ولكن في كلِّ العَالَم الإسْلامِيّ بحَجْمِه ومِسَاحَتِه وارْتِفَاعِه وفُنُونِه وزَخْرَفَتِه المُتَمَيِّزَة. وقد اسْتَفَادَ من تَخْطِيطِه السُّلْطانُ المُؤَيَّدَ شَيْخ

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٥٦.

عند تَشْيِيدِه لجَامِعِه ، حيث أقَامَ مِئْذَنَتَيْن مُتَشَابِهَتَين له فوق بُرْجَيّ بابِ زَوِيلَة كما اسْتَعَارَ بَابَه الضَّخْم المُكَفَّت بالبُرُونْز ليَجْعَلَه على مَدْخَلِ جَامِعِه .

وجَاءَت سَائِرُ المُنْشَآت الدِّينِيَّة المَمْلُوكية البَحْرِية أو البُرْجِيَّة على نَمَطِ تَخْطِيط المَدَارِس كما كانت بأحْجَامٍ مُتَواضِعَة بالقِيَاسِ إلى جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطَان حَسَن وجَامِع المُؤَيَّد شَيْخ .

٢ ـ المَدَارِس

تُعَدُّ المَدْرَسَةُ ـ دون جِدالٍ ـ ابْتِكارًا سُنِّيًا ، وهي أحَدُ أهَمِّ مُؤَسَّساتِ الحَضَارَة الإسْلامية اعْتِبارًا من مَطْلَعِ القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ . وغَطَّت أهَمِيَّتُها الدِّينِيَّة والتَّعْليمية والسِّياسية والاجْتماعية ـ على الأخَصِّ في عَصْرِ المماليك ـ على أيَّةِ مُؤَسَّسةٍ إسلاميةٍ مُشابِهَةٍ أخرى مثل : دار العِلْم ودار الحَدِيث ودار القُرْآن . ولم يَحْتَفِظ بأهَمِيَّته ومَكانَتِه الخاصَّة بين مُؤَسَّساتِ الحَضَارَة الإسْلامية سوى «المَسْجِد الجامِع» فقط .

ويَخْتَلِفُ العُلَماءُ والدَّارِسون حَوْلَ أصْلِ «المَدْرَسَة» ونَشْأتِها ، فيَفْتَرِضُ بارْتُولْد ـ BARTHOLD ـ بما أنَّ المَدارِسَ الأولىٰ ظَهَرَت في نَيْسابور ومَرْو وبُخَارَىٰ في فترة حُكْم السُّلْطان محمود الغَزْنَوِيّ (٣٩١ ـ ٤٢١هـ/ ٩٩٩ ـ ١٠٣٠م) ـ أنَّها اسْتُوحِيت من الأدْيِرَة البُوذِيَّة في آسْيا الوُسْطى[١] (الفيهارًا) (؟) . ويَرَى أحمد فكري أنَّ المَدْرَسَة هي التَّطَوُّر المَنْطقيّ لوَظيفَة المَسْجِد ، وأنَّ تَعْرِيفَها مُسْتَمَدٌّ من البُيُوت المُخَصَّصَة فيها لسُكْنَى الشُّيُوخ والفُقَهَاء لا من قاعات التَّدْرِيس

---

[١] BARTHOLD ct. G. LEISER, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), p. 16.

والمُدَرِّسين [١]. أمَّا جورج مَقْدِسي GEORGE MAKDISI فيَعْتَقِدُ أنَّ المَدْرَسَةَ هي تَطَوُّرٌ للـ «خَانات» التي كان يُقيمُ بها الطَّلَبَةُ الغُرَباءُ عند تَرَدُّدِهم على كِبارِ العُلَماء والشُّيوخ في بَغْداد في القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ [٢]. فالمَدْرَسَةُ عنده هي نِتاجُ مَراحِلَ ثلاثٍ تَطَوَّرَت خِلالها المُؤَسَّسَةُ التَّعْليميةُ في الإسلام:

مَرْحَلَةُ «المَسْجِد الجَامِع» في القُرُونِ الأولى للإسلام حيث كانت تُعْقَدُ به حَلْقاتُ العِلْم ودُرُوسُ الفِقْه والحَديث [٣]. ومَرْحَلَةُ «الخَان» القريب من المَسْجِد الذي كان يُخَصَّصُ لإقامةِ الطَّلَبَةِ الغُرَباءِ عن المَدينَة، والذي انْتَشَرَ في شَرْقِ العالم الإسْلاميّ في القرنِ الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ [٤]. ثم مَرْحَلَةُ «المَدْرَسَة» بمعنى الكلمة ـ التي تُعَدُّ مُؤَسَّسَة التَّعْليم الإسْلامية الحقيقية.

ففي القُرُونِ الإسلامية الأولى كان «المَسْجِدُ الجامِع» هو مَكانَ تَلَقِّي العِلْم، حيث إنَّ العُلُومَ التي أحْدَثَها الإسْلامُ كانت بطَبيعَتها لا يُمْكِن فَصْلُها عن المَسْجِد، وحتى العُلُوم الجَديدَة كاللُّغَة والفَلْسَفَة والمَنْطِق، لم تَنْفَصِل عن عُلُوم الإسْلام الأساسية، وظَلَّ «المَسْجِدُ الجامِعُ» بذلك ـ ولفَتْرَةٍ غير قَصيرة ـ هو المَرْكَزَ الرَّئيس للتَّعْليم، فكان العُلَماءُ يعْقِدُون فيه «حَلْقَات» الدَّرْسِ، وتَعَدَّدَت «الحَلْقاتُ» في المَسْجِدِ الواحِد، ولم تَقْتَصِرْ على عُلُوم الدِّين: كالفِقْه والحَديث والكلام، بل كان يُدَرَّسُ بها كذلك عُلُومُ اللُّغَة والنَّحْو والتَّاريخ، وغيرها من العُلُوم النَّقْلِيَّة [٥].

وفي مِصْر كان جَامِعُ عَمْرو «الجامِعُ العَتيق» والمساجِدُ الجامِعَة التي أُنْشِئَت بعده، وعلى الأخَصِّ جَامِعا ابن طُولُون والأزْهَر، مَراكِزَ حَلْقاتِ العِلْم ومَجالِسِه،

---

[١] أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها ٢: ٧٢، ١٣١، ١٦٠، ١٦٣.

[٢] G. MAKDISI, *The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and the West*, Edinburgh 1981, p. 27, 29-30.

[٣] I. PEDERSEN & G. MAKDISI, *EI²* art. *Madrasa* V, p. 1120.

[٤] G. MAKDISI, *op.cit.*, pp. 24, 28, 29.

[٥] أحمد فكري: المرجع السابق ٢: ١٤٤.

وأطْلَقَ المَقْريزيُّ ـ نَقْلًا عن ابن المُتَوَّج ـ على مَواضِع التَّدْريس بالجامِع العَتيق اسم «الزَّوايا»، وأقْدَمُها «زَاويةُ الإمام الشَّافِعيّ»، وهي المَوْضِعُ الذي كان يُدَرِّسُ به وتَوَلَّى التَّدْريسَ فيه بعده «أعْيانُ الفُقَهاء وجُلَّةُ العُلَماء»[1]، وكان الشَّافِعيُّ يَجْلِسُ للتَّدْريس بها كُلَّ يومٍ بعد صَلاةِ الصُّبْح حتى وَفاتِه سنة ٢٠٤هـ/ ٨٠٩م[2].

ويَذْكُرُ ابنُ زُولاق أنَّه كان للفُقَهَاءِ المالِكيين في جَامِع عَمْرو، سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٨م، خَمْسُ عشرة حَلْقَة ومثلها للشَّافِعيين، بينما لم يكن لأصْحابِ أبي حَنيفَة سوى ثَلاثِ حَلْقات[3]. وكان يحضر حَلْقَة إمام المالِكية في وَقْتِه أبي بكر النَّعَّال، المتوفَّى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، حَشْدٌ كبيرٌ في الجَامِع العَتيق، حتى إنَّها كانت تَدُورُ على سبعة عشر عَمُودًا في الجَامِع[4]. وبَلَغَتْ «حَلْقاتُ» العِلْم في الجَامِع، قُرْب نهاية القرن الرَّابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ، مائة وعشرة مَجَالِس، كما في رِوايَة المَقْدِسيّ[5]. وكان جَامِعُ عَمْرو في أواسِطِ القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ، وَقْتَ زيارَة ناصِر خُسْرو لمصر، مَكانَ اجْتماعِ سُكَّانِ المَدينَة الكبيرة مصر ـ الفُسْطاط، وكان المُدَرِّسون والمُقْرِءون يُقيمُون فيه ولم يكن عَدَدُ من فيه يَقِلُّ في أي وَقْتٍ عن خمسة آلافٍ من طُلَّابِ العِلْم والغُرَباءِ والكُتَّابِ الذين يُحَرِّرُون العُقُودَ وغيرها[6].

وشارَكَ جَامِعُ ابن طُولُون الجامِعَ العَتيق النَّشَاطَ نفسه، فقامَ الرَّبيعُ بن سُلَيْمان الجِيزي بإمْلاءِ الحَديث في الجامِعِ فَوْرَ أن كَمُلَ بناؤه[7].

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٣٥.

[2] ياقوت: معجم الأدباء ١٧: ٣٠٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٣٠٤.

[3] ابن زولاق في ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب (قسم مصر) ١٧٣.

[4] السيوطي: حسن المحاضرة ١: ٤٥١.

[5] المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٠٥.

[6] ناصر خسرو: سفرنامه ١٠٢.

[7] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٦٠.

ولم يَفْقِد المَسْجِدُ الجامِع أبَدًا مكانته التَّعْليمية، حتى بعد انْتِشار المَدارِس، فيذكر المَقْريزيُّ أنَّ السُّلْطانَ المَنْصُور لاجين لمَّا جَدَّدَ جَامِعَ ابن طُولُون، سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، رَتَّبَ فيه دُرُوسًا للفِقْه على المذاهِبِ الأربعة ودَرْسًا للتَّفْسير وآخَر للحَديث وثالِثًا للطِّب [١]، كما بَلَغَت حَلْقاتُ العِلْم في جَامِع عَمْرو في أواسِط القرن الثَّامن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ «بِضْعًا وأربعين حَلْقَةً لإقْراءِ العِلْم لا تَكادُ تَبْرَحُ منه» [٢].

ويَتَّفِقُ الباحِثون في العُمُوم على أنَّ «المَدْرَسَة» بمعنى الكلمة نَشَأت تلبيةً لثَلاثةِ اعْتِباراتٍ أسَاسِيَّة:

أوَّلًا: لدَعْمِ الإسْلامِ السُّنِّي في مُوَاجَهَةِ التَّحَدِي الشِّيعيّ في القرنِ الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ، الذي يَحِقُّ لنا أن نُسَمِّيه «عَصْر انْتِصَار الشِّيعة»، ففيه تَحَكَّمَ البُوَيْهِيُّون الشِّيعَة في إمبراطوريةٍ عَريضَةٍ كان مركزُها العِراق وفَرَضُوا سَيْطَرَتَهُم على الخَلِيفَة العَبَّاسيّ السُّنِّي في بَغْداد، ومَدَّ الفاطِميون الإسْماعِيلِيُّون نُفُوذَهم على مصر والشَّام وشمال أفْريقيا وجَزيرَة صِقِلِّيَة، وقامَ دُعاتُهم بدَورٍ نَشِطٍ في طُولِ الأراضي العَبَّاسية وعَرْضِها تَدْعَمُهم العَديدُ من المُؤَسَّسَات الشِّيعية مثل: الجَامِع الأزْهَر ودُور العِلْم التي كانوا يتَلَقَّوْن فيها تَدْريبات خاصَّة.

في هذا الوَقْتِ كان السُّلْطانُ محمود الغَزْنَويّ وأخُوه الأميرُ نَصْرُ بن سُبُكْتكين هما المُدافِعيَنْ عن السُّنَّة، وبَدَءَا في إنْشَاءِ المدارِس الأولى في مَشْرِقِ العالَم الإسلاميّ في نَيْسابُور ومَرْو وبُخَارىٰ، كالمَدْرَسَةِ البَيْهَقِيَّة والمَدْرَسَةِ السَّعْدِيَّة ومَدْرَسَةِ ابن فَوْرَك.

ثانيًا: إعْداد كوادِر مُوالية للدَّوْلَة عن طَريقِ تأييدِ المَذاهِب الفِقْهِيَّة الأربعة، بحيث أصْبَحَت هذه المَدارِسُ بمثابَةِ مُؤَسَّساتٍ رَسْميةٍ لتَخْريج القُضَاة وكُتَّابِ بَيْتِ

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٦٩. [٢] نفسه ٤: ٣٦.

المال والوُزَرَاء وغيرهم من المُوَظَّفين الرَّسْميين.

ثالِثًا: لتَلْبِيَة رَغْبَة السَّلاطين والحُكّام في إحْكامِ سَيْطَرَتِهم على رجالِ الدِّين الذين دَرَسُوا المَذاهِبَ الفِقْهِيَّة المُعْتَمَدَة في الدُّوَلِ السُّنِّيَّة في هذه المَدارِس [١].

كانت المدارِسُ الأولىٰ التي أُنْشِئَت في عَصْرِ الغَزْنَوِيين مُوَجَّهَةً ضِدَّ المخالِفين في الرأي من الكَرَّامِيَّة الذين أنشأوا «خانْقاوات» كمراكِزَ للتَعْليم والدَّعْوَة وحَياة التَّقَشُّف [٢]، خاصَّةً في مَناطِق خُراسَان وما وَرَاء النَّهْر وفي جُرْجَان وطَبَرِسْتان، وأصْبَحَت هذه «الخانْقاوات» ـ في رأي بُوزْوُرْث Bosworth ـ الأنْمُوذَج والمُحَرِّك لحركة إنْشَاء المَدارِس في القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ على أيْدي الأشَاعِرَة [٣]، ولكنَّ هذه الصِّلَة تَظَلُّ مع ذلك في حاجَةٍ إلى إثْبات.

وعندما خَلَفَ السَّلاجِقَةُ الغَزْنَويين بعد هَزيمَتهم في مَوْقِعَةِ دانْدِنْقان سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، أخَذُوا في فَتْحِ أراضي المَشْرق الإسلاميّ، ودَخَلَ زعيمُهُم طُغْرُلْبك إلى بَغْداد في سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وبَلَغَت إمبراطوريتهم أقْصىٰ اتِّساع لها في عَهْدِ خَليفَتَيْه ألْب أرْسَلان ومَلِك شاه، حيث امْتَدَّت من وَسَطِ آسيا حتى حُدُودِ بيزَنْطَة.

كان السَّلاجِقَةُ، في هذا الوَقْتِ، هم القُوَّة الفَتِيَّة في الإسْلام الآخِذَة في النَّمَاء والقُوَّة المُدافِعَة عن مَذْهَبِ أهْلِ السُّنَّة في مُواجَهَة الفاطِميين الشِّيعَة والتي وَضَعَت نهايةً لحُكْم البُوَيْهِيين الشِّيعَة في بَغْداد مركزِ الخِلافةِ العَبّاسية. وكان وُصُولُ السَّلاجِقَةِ إلى قِمَّة السُّلْطَة يُمَثِّلُ انتِصارًا للمَذْهَب الأشْعَريّ مُمَثِّل عِلْم الكلام السُّنِّي

[١] G. Leiser, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), p. 16.

[٢] L. Massignon, «Les Medresehs de Bagdad», *BIFAO* VII (1910), pp. 77-78.

[٣] C.E. Bosworth, EI^2 art. *Karrâmiyya* IV, pp. 694-96.

الذي حَلَّ مَحَلَّ آراءِ المُعْتَزِلَة الكلاميَّة التي أخَذَت في الانْزِواءِ [١]. وحَقَّق المَذْهَبُ الأَشْعَريّ انتِصارَه في بَغْداد في منتصف القرن الخامس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ بفَضْلِ «المَدارِس النِّظاميَّة» وخاصَّةً «نِظاميَّة بَغْداد» ، بحَيْث نَسْتطيعُ أن نَعُدَّ بحَقٍّ القَرْنَ الخامِس الهجريّ / الحادي عشر الميلاديّ «عَصْر ازْدِهارِ المدارِس» ؛ فقد تَوَلَّى السَّلاجِقَةُ ـ مع تَوَلِّي نِظام المُلْك رُتْبَةَ الوَزَارَة للسَّلاجِقَة ـ مُحارَبَة الفاطِميين عن طريقِ المدارِس لتأييد المَذاهِبِ الفِقْهِيَّة السُّنِّيَّة ، وعلى الأَخَصِّ المَذْهَب الأَشْعَريّ [٢].

وزَعَمَ الذَّهبيُّ ، في النِّصفِ الأوَّل للقرن الثَّامِن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ ، أنَّ نِظامَ المُلْك ـ وَزيرَ السَّلاجِقَة الشَّهير ـ هو أوَّل من بَنَى المدارِس ، ولكنَّنا رأينا ـ فيما سَبَق ـ أنَّ الغَزْنَويين سَبَقوا السَّلاجِقَة في ذلك بالمَدارِس التي أنشأوها في نَيْسَابُور ومَرْو ، ويُعَلِّقُ السُّبْكيّ على ذلك بقولِه : «ويَغْلُب على ظَنِّي أنَّ نِظامَ المُلْك هو أوَّلُ من قَدَّرَ المعاليم للطَّلَبَة» [٣] ـ أي الجِرايات والرَّواتِب لمن يَدْرُس فيها ، وإنْ كان العَزيزُ باللهِ الفاطِمي قد سَبَقه إلى ذلك ـ في أواخر القرن الرابع الهجريّ / العاشر الميلاديّ ـ مع الفُقَهاءِ الذين كانوا يَتَحلَّقُون في الجَامِع الأَزْهَر بالقاهرة [٤].

ويَرْجِعُ تأريخُ أوَّلِ مَدْرَسَةٍ أنشأها نِظامُ المُلْك ، وهي «نِظاميَّةُ بَغْداد» ، إلى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م [٥]، ثم تَوالَى بناؤه للمدارِس حتى قيل إنَّ له في كُلِّ مَدينَةٍ

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤:٤٣٩- ٤٤٣.

[٢] G. Makdisi, «Muslim Institutions of Learning Eleventh-Century Baghdad», *BSOAS* XXIV (1961), p. 3.

[٣] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٤ : ٣١٤؛ السيوطي : حسن المحاضرة ٢:٢٥٥- ٢٥٦.

[٤] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٢٩٤، ٤٥٢.

[٥] ابن الجوزي : المنتظم ٨: ٢٣٨، ٢٤٦- ٢٤٧؛ ابن الأثير : الكامل ١٠ : ٥٥؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢: ١٢٩.

بالعراقِ وخُراسان مَدْرَسَةً عُرِفَت جميعُها بـ «النِّظاميَّة»[١].

وهكذا أصْبَحَت «المدارسُ النِّظامِيَّة» مُؤسَّسةً سياسِيَّةً تَخْضَعُ للإشْرافِ الرَّسميّ للدَّوْلَة لتَدْريس الفِقْه على المذاهب الأربعة مع إفْساحِ مِساحَةٍ كبيرةٍ للمَذْهَبِ الأشْعَرِيّ. ولم يَرْتَبط هذا الانْتِصارُ وهذه المدارِسُ فقط باسم نِظام المُلْك، ولكن أيضًا بأعْلامِ المَذْهَبِ الأشْعَرِيّ كأبي إسْحاقِ الشِّيرازيّ وأبي بَكْرِ الباقِلَّانيّ وإمام الحَرَمَيْنِ الجُوَيْنيّ وحُجَّةِ الإسلام الغَزَاليّ، الذين كان لهم دَوْرٌ كبيرٌ في قَبُولِ جُمْهُورِ أهْلِ السُّنَّة للمَذْهَبِ الأشْعَرِيّ. وانْتَشَرت المَدارِسُ السُّنِّيَّة وذَاعَت في العِراقِ في القرنِ السَّادس الهجريّ / الثَّاني عشر الميلاديّ، حتى إنَّ ابْنَ جُبَيْرٍ - الذي زارَ العِراقَ نحو سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م - يُشيرُ إلى وُجُودِ نحو ثلاثين مَدْرَسَةٍ تَقَعُ جَميعُها في الجانِب الشَّرْقيّ لبَغْداد[٢].

وفي هذا الإطارِ أدْخَلَ السَّلاجِقَةُ عن طَريقِ الزَّنْكيين المَدارِسَ إلى الشَّام في القرنِ السَّادِس الهجريّ / الثَّاني عشر الميلاديّ كمُؤَسَّسَةٍ قويَّةٍ للدِّعاية الدِّينية والسِّياسية لنَشْرِ المَذْهَب الأشْعَرِيّ، ووَجَدَت هذه السِّياسَةُ تأييدًا واضِحًا من نُورِ الدِّين محمود خِلالَ مواجهته للفِرِنْجِ الصَّليبيين في أواسِطِ هذا القَرْن، حيث أنشأ العَديدَ من المَدارِس للفُقَهاءِ الشَّافِعِيَّة «في دِمَشْق وحَلَب وحمَاه وحِمْص وبَعْلَبَك ومَنبِج والرَّحْبة»[١]، رَغْمَ كَوْنِه حَنَفِيًّا، كما أسَّسَ أوَّلَ «دارٍ للحَديث» في دِمَشْق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. وتَبَنَّى هذه السِّياسَة بعد ذلك صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب بعد نَجاحِه في القَضاءِ على الدَّوْلَةِ الفاطِمية ووَضْعِه نِهايَةً لها، حيث أدْخَلَ

---

[١] السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤: ٣١٤. وبَلَغَت المدارس النِّظاميَّة تسع مَدارِس في المَوْصِل والبَصْرَة وأصْبَهان وآمُل وطَبَرِسْتان ومَرْو ونَيْسابور وهَراة وبَلْخ، بالإضافة إلى نظامية بَغْداد. (G. MAKDISI, *op.cit.*, p. 4).

[٢] ابن جبير: الرحلة ٢٠٥.

[٣] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ١٨٥.

إلى مصر المَذْهَبَ الأشْعَرِيّ ، ثم تَبِعَه خُلَفاؤه في إنْشَاءِ المدارِس بمعنى الكلمة [١] .

وقد أبانَ المَقْريزيُّ في نَصٍّ جَامِعٍ أوْرَدَه في بداية الفَصْلِ الذي خَصَّصَه لذِكْر المَدَارِس عن نَشْأةِ المَدَارِس وتَطَوُّرها ، ولماذا لم تَعْرف مصر نِظامَ المَدْرَسَة قَبْل العَصْر الأيُّوبيّ ، يقول :

«والمَدَارِسُ مِمَّا حَدَثَ في الإسْلام ، ولم تكُن تُعْرَفُ في زَمَنِ الصَّحابَة ولا التَّابِعين ، وإنَّما حَدَثَ عَمَلُها بعد الأربع مائة من سنيّ الهِجْرَة . وأوَّلُ مَنْ حُفِظَ عنه أنَّه بَنَى مَدْرَسَةً في الإسلام أهْلُ نَيْسَابور فبُنِيَت بها المَدْرَسَةُ البَيْهَقِيَّة ، وبَنَى بها أيضًا الأميرُ نَصْرُ بن سُبُكْتكين مَدْرَسَةً ، وبَنَى بها أخوه السُّلْطانُ محمود بن سُبُكْتكين مَدْرَسَةً ، وبَنى بها أيضًا المَدْرَسَة السَّعْدِيَّة ، وبَنَى بها أيضًا مَدْرَسةً رابعةً . وأشْهَرُ ما بُنِي في القديم المَدْرَسَةُ النِّظامِيَّة بِبَغْداد لأنَّها أوَّلُ مَدْرَسَةٍ قُرِّرَ بها للفُقَهاءِ مَعاليم ، وهي منسوبةٌ إلى الوَزير نِظام المُلْك أبي علي الحَسَن بن علي بن إسْحاق بن العَبَّاس الطُّوسيّ وَزير مَلِكْشاه ابن ألْب أرْسَلان بن دَاوُد بن ميكال ابن سَلْجُوق في مَدينَة بَغْداد ، وشَرَعَ في بنائها في سنة سبعٍ وخمسين وأربع مائةٍ ، وفَرُغَت في ذي القعدة سنة تسعٍ وخمسين وأربع مائةٍ ؛ ودَرَّسَ فيها الشَّيْخُ أبو إسْحاق الشِّيرازيّ الفيروزآباديّ صَاحِب كتاب «التَّنْبيه في الفِقْه» على مَذْهَبِ الإمام الشَّافِعيّ ـ رضي الله عنه ورحمه ـ فاقْتَدَى النَّاسُ به من حينئذٍ في بلادِ العِراق وخُراسَان وما وَرَاءَ النَّهْر وفي بِلادِ الجَزِيرَة ودِيارِ بكْر .

وأمَّا في مصر فإنَّها كانت حينئذٍ بيَدِ الخُلَفاءِ الفاطِميين ، ومَذْهَبُهم مُخالِفٌ لهذه الطَّريقَة ، وإنَّما هم شِيعَةٌ إسماعيليةٌ» [٢] .

ورغْم أنَّ المَقْريزيَّ يَذْكُر أنَّ بِدايَةَ معرفة مصر بـ «المَدارِس» جاءَت مع اسْتيلاءِ صَلاحِ الدِّين على السُّلْطَة في مصر وعَوْدَتها إلى دَائِرَة الأقاليم التي يَحْكُمُها أهْلُ السُّنَّة ، فقد عَرَفَتْ مِصْرُ ـ وعلى الأخَصِّ مَدينَة الإسْكَنْدَرية ـ المَدارِسَ في العُقُودِ

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤:٤٨٤هـ. [٢] نفسه ٤:٤٥١ـ ٤٥٢.

الأخيرة لعَصْرِ الدَّوْلَةِ الفاطِمية مع وُصُول اثْنَيْن من السُّنِّين إلى مَنْصِب الوَزارَة .

كان من أهَمِّ ما مَيَّزَ هذا التَّحَوُّل السُّنِّي إنْشَاءُ مَدْرَستين لتَدْريس الفِقْه السُّنِّي في الإسْكَنْدَرية : الأولى أنشأها الوزيرُ رِضْوانُ بن وَلَخْشي لتَدْريس المَذْهَبِ المالِكيّ ، سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م ، وقَرَّرَ في تَدْريسها الفقيه المالكي المعروف أبا الطَّاهر بن عَوْف ، إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى[١] ؛ والثَّانية أنشأها ، في سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٠م ، وَزيرٌ سُنِّيٌّ آخَر هو العادِلُ بن السَّلار ، ولكن في هذه المَرَّة كانت لتَدْريس المَذْهَبِ الشَّافِعيّ ، وقَرَّر في تَدْريسها الحافِظ الشَّهير أبا الطَّاهِر أحمد بن محمد السِّلَفيّ[٢] .

ولا شَكَّ أنَّ الظُّروفَ السِّياسِيَّة والدِّينيَّة والاجْتِماعية لم تكن واحِدةً في كُلِّ العالم الإسلامي في القرنين الخامس والسَّادس للهجرة / الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، وهو الوقت الذي بدأت فيه المدارِسُ في الازْدِهار . فالوَسَطُ الاجْتِماعِيّ لبَغْداد عند تأسيس النِّظامِيَّة سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م لم يكن كمُجْتَمع الإسْكَنْدرية أو قُونية في آسيا الوُسْطىٰ عندما ظَهَرت المدارِسُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بهذه المُدُن في النِّصف الأوَّل للقَرْنِ السَّادِس الهجري . وبالتالي فلم يكن للمَدْرَسَة نفسُ الدَّوْرِ أو الوَظيفة في هذه المجْتَمعات ، وبالتَّحْديد لم يكن دَوْرُ مَدارِس الإسْكَنْدَرية مُشَابِهًا لدَوْرِ مَدارِس بَغْداد . فقد نَشَأت مَدارِسُ بَغْداد في مُجْتَمَعٍ سُنِّي بهَدَفِ تأييد المَذْهَبِ الأشْعَرِيّ ولمُواجَهَة مَذَاهِبِ الشِّيعَة ، وللمُساهَمَة في إعْدادِ رِجالِ الدِّين والمُوَظَّفين

---

[١] ابن ميسر : أخبار مصر ١٢٠ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٠: ٤٥٨- ٤٥٩ ، المقريزي : اتعاظ الحنفا ٣: ١٦٧ ؛ أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية ٥٩١- ٥٩٢ ؛ وانظر ترجمة أبي الطاهر بن عَوْف عند ابن فرحون : الديباج المذهب ١: ٢٩٢- ٢٩٥ ؛ الصفدي : الوافي بالوفيات ٩: ٢٢٨ ؛ المقريزي : المقفى الكبير ٢: ١٨٣- ١٨٤ ؛ أبي المحاسن : النجوم الزاهرة ٦: ١٠٠ .

[٢] ابن خلكان : وفيات الأعيان ١: ١٠٥ ، ٣: ٤١٧ ؛ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ٦: ٣٧ .

الرَّسميين، ولتمكين الحُكَّامِ بصِفَةٍ خاصَّةٍ من احْتِكارِ طَبَقَة «العُلَماء» والتأثير عليهم. أمَّا في مصر فقد كان غَرَضُها تَدْعيمَ الإسْلام ضِدَّ تَحَدِّي أو اسْتِفْزاز أهْلِ الذِّمَّة من النَّصَارَىٰ، ثم إمْدادَ الإسْلامِ بوَسائِل إضْعافِ قُوَّتِهم وإجْبارِهِم على التَّحَوُّل إليه. فرَغم كَوْنِ الإسْلام دين الدَّوْلَة الرَّسْميّ وهو الأعْلىٰ، إلَّا أنَّه كان يُواجِه أقَلِّيَّةً نَصْرانيةً عَريضَةً وقَوِيَّةً تَتَرَكَّز في غَرْبِ الدِّلْتا وأجزاءَ من مصر العُلَيا والواحات، بدأ نُفوذُهَا في التَّسَلُّط مع وُصُولِ بدْرٍ الجماليّ إلى قِمَّة السُّلْطَة في مصر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، والذي كان أرْمَنيّ الأصْل واسْتَصْحَبَ معه عندما قَدِمَ إلى مصر جَيْشًا قِوامُه من الأرْمَن النَّصَارَىٰ الذين اصْطَحَبُوا عائِلاتِهم واسْتَقَرُّوا في مصر في ظَواهِر القاهِرَة، وتَزايَدَ عَدَدُهُم مع قُدُومِ مُهاجرين جُدُدٍ لَحِقُوا بهم، وكان لهم بَطْرَكُهُم وكنيسَتُهم المُستَقِلَّة، حتى بَلَغَ الأمْرُ مداه مع تَوَلِّي بَهْرام الأرْمَنِيّ النَّصْرانيّ رُتْبَة الوَزارَة للخَليفَة الحافِظِ لدين الله سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م.

*

* *

ومع اخْتِصاصِ المدارِسِ بتَدْريس المَذاهِبِ الفِقْهيَّة الأربعة، كان التَّخْطيطُ المُتعامِد على صَحْنٍ مُرَبَّع Cruciform Plan يتَّفِقُ تمامًا مع وَظيفَةِ المَدْرَسَة الجَديدَة، ومع ذلك فإنَّ تَخْطيطَ المدارِسِ الأولىٰ التي دَرَّسَت المذاهِبَ الفِقْهية الأربعة والتي وَصَلَت إلينا آثارُها، وهي: المَدْرَسَةُ المُسْتَنْصرية في بَغْداد (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، والمَدْرَسَةُ الصَّالِحيَّة في القاهرة (٦٤١هـ/ ١٢٣٤م) لم يكن مُتَعامِدًا. فالأولىٰ كانت تتألَّفُ من أربعة إيوانات غير مُتَجانِسَة تُحيطُ بصَحْنٍ مُسْتَطيل[1]. بينما

---

[1] ابن الفوطي: كتاب الحوادث، حققه وضَبَط نصَّه بَشَّار عَوَّاد معروف وعماد عبد السلام رؤوف، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٧، ٨٠- ٨٦؛ كوركيس عواد: «المدرسة المستنصرية ببغداد»،

تكوَّنَت الثَّانية من كُتْلَتَيْن من المباني كُلٌّ منها عبارَة عن صَحْنٍ وإيوانَيْن مَعْقودَيْن بقَبْوٍ دائري مُدَبَّب يَفْصِلُهما دِهْليزٌ بطُولِ ٢٨ مترًا وعَرْض ٢١ مترًا من وَسَطِ الواجِهَة. فكانت الظَّاهِرةُ التي مَيَّزت العِمارَة الأَيُّوبية في القاهرة، إضافة إلى اسْتِحْداث نِظَام المَدْرَسَة، هي ظُهُور «الأواوين» في تخْطِيطِ العِمارَة الدِّينية [١].

ولم يَجْتَمع تَدْريسُ المذاهِبِ الفِقْهِيَّة السُّنِّيَّة الأربعة في مصر في مبنًى واحدٍ، بعد المَدْرَسَة الصَّالِحِيَّة، إلَّا عند ظُهُورِ المَدْرَسَةِ ذات التَّخْطيطِ المُتعامِد Cruciform Plan. وتُعَدُّ «المَدْرَسَةُ النَّاصِرِيَّةُ محمد بن قَلاوون»، التي افْتُتِحت سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م، أوَّلَ مَدْرَسَةٍ في مصر ذات تَخْطيطٍ مُتعامِد دُرِّسَ بها الفِقْهُ على المذاهِبِ الأَرْبَعَة (المالكيّ بالإيوان القِبْليّ الكبير، والحَنْبَليّ بالإيوان الغَرْبيّ، والحَنَفيّ بالإيوان الشَّرْقِيّ، والشَّافِعيّ بالإيوان البَحْريّ) [٢]، أي أنَّها جَمَعَت بين التَّخْطيط المُتعامِد شَكْلًا والمذاهِب الأربعة وَظيفَةً. أمَّا «المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ العَتيقَة»، التي شَيَّدَها السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس وافْتُتِحَت قبل ذلك بنحو أربعين عامًا، سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، فتُعَدُّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ ذات تَخْطيطٍ مُتعامِد في مصر، لكنَّها لم تُدَرِّس الفِقْه فقط، إذْ خُصِّصَ إيوانُها القِبْليّ لتَدْريس الفِقْه على المَذْهَبِ الشَّافِعيّ، وإيوانُها البَحْريّ لتَدْريس الفِقْه على المَذْهَبِ الحَنَفيّ، بينما خُصِّصَ إيوانُها الشَّرْقيّ لتَدْريس عُلُومِ الحَديث، وإيـوانُها الغَرْبيّ لإقْراءِ القِراءات السَّبْع [٣].

مجلة سومر ١ (١٩٤٥)، ٧٦- ١٢٠؛ ناجي معروف: تاريخ علماء المستنصرية، بغداد ١٩٦٥؛ أحمد فكري: مساجد القاهرة ٢:١١٥- ١١٦، ١٥٦- ١٦٠.

[١] أحمد فكري: «خصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١:١٦٧- ١٦٨؛ صالح لمعي: التراث المعماري في مصر ١٧.

[٢] المقريزي: المواعظ ٣: ٥٣٠.

[٣] نفسه ٣:٥٠٦ـ٥٠٨.

وذَهَبَ كريزويل CRESWELL إلى أنَّه إذا كانت أوَّلُ مَدْرسَةٍ لِتَدْريسِ المذاهِبِ الفِقْهيَّة الأربعة هي : مُسْتَنْصِريَّةُ بَغْداد ، فإنَّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ ذات تَخْطيطٍ مُتعامِد - وهي «المَدْرَسة الظَّاهِريَّة العَتيقَة» - أُسِّسَت في القاهرة ، واسْتَنَدَ كريزويل CRESWELL في ذلك على أنَّ التَّخْطيطَ المُتعامِدَ القائمَ على تَخْطيطِ القاعة مصريُّ الأصْل ولم يُعْرَف عَمَليًا خـارجَها [1]. وهو يُخالِفُ في ذلك رأي فان برْشم VAN BERCHEM الذي يرىٰ أنَّ هذا النِّظامَ انْتَقَل إلى مصر من الشَّام وأنَّه مُشْتَقٌّ من الكنائِس البِيزَنْطية ذات الشَّكْل الصَّليبيّ المُنْتَشِرَة بالشَّام [2].

وقد اعْتَرَضَ أنْدريه جُودار A. GODARD على الرأيين معًا ، مُعْتَمِدًا على أنَّ الحَفَائِرَ التي أُجْرِيَت في إيران أظْهَرت آثارًا لعَدَدٍ كبيرٍ من المباني ذات صَحْنٍ أوْسَطٍ تُحيطُ به أواوينُ أربعة يَرْجعُ تأريخُها - حَسَب تَقْديره لها - إلى قَرْنٍ أو أكثر قَبْل ظُهُورِ ظاهريَّة القاهِرَة ؛ وأنَّ هذا النِّظامَ كان شائِعًا في بِلادِ فارِس وتَبَنَّته بعضُ المَساجِد الجَامِعَة هناك كـ «جَامِع أصْفَهان» الذي أُنْشِئ سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٠م ؛ إلَّا أنَّه أضافَ أنَّ المَدارِسَ التي أُنْشِئَت في القرنِ السَّابع الهجريّ / الثَّالِث عَشْر الميلاديّ اتَّخَذَت هذا النِّظام لأنَّه يُلائِم فقط وَظيفَتها في تَدْريس المذاهِب الأربعة [3]. ولكنَّ كريزويل CRESWELL عادَ وتَشَكَّكَ في الآثار التي اسْتَنَدَ إليها جودار GODARD؛ سواء من حيث تأريخها أو من حيث مَوْضُوعها ، وتَمَسَّك بنظرية القَاعة المصرية [4].

---

[1] K.A.C. CRESWELL, «The Origin of the Cruciform Plan of Cairene Madrasa, *BIFAO* XXI (1922), p. 43.

[2] VAN BERCHEM, M., *CIA* Egypte I, p. 268.

[3] A. GODARD, «L'origine de la Madrasa, de la Mosquée et du Caravanserail à quatre Iwans», *Ars Islamica* XV-XVI (1951), pp. 2-9.

[4] K.A.C. CRESWELL, *MAE* II, p. 123.

والذي لا شَكَّ فيه أنَّ المُنْشآت الإسْلامية على اخْتِلافِها تأثَّرت بتَصْميم المَسْجِدِ الجَامِع المُتألِّف من صَحْنٍ أو فِناءٍ أوْسَط مُرَبَّعٍ أو مُسْتَطيلٍ تُحيطُ به في جوانبه أرْوِقَةٌ أربعة مثل ما هو الحالُ في المَدارِس والخَوانِق (الخَوانِك) والوَكالات والخَانات وحتى القُصُور والدُّور، إلَّا أنَّه اسْتُبْدِل بالأَرْوِقَة في كُلٍّ منها كُتَلٌ بنائِيةٌ مُناسِبَةٌ لوَظيفَتها [١].

وبما أنَّ أقْدَمَ المدارِس ظَهَرَت في شَرْقِ إيران ثم أخَذَت تتَّجه غَرْبًا وخاصَّةً مع السَّلاجِقَة، فيُفْتَرَضُ أنَّ تَخْطيطَها تأثَّرَ بالأساليبِ المعمارية السَّائِدَة في إيران وبخاصَّةٍ اسْتِخْدام «الإيوانات» كما سَبَق ولاحَظَ جُودار GODARD، ثم انْتَقَلَ هذا التَّصْميمُ إلى المَدارِس السَّلْجوقية، ومنها إلى مَدارِس الشَّام ومصر، مع خُضُوعِ كُلٍّ منها للتَّقاليد المعمارية المَحَلِّيَّة في بعض عَناصِرِه [٢]، حيث تأثَّر تَخْطيطُ المَدارِس في مصر بنِظام تَخْطيطِ القاعَة [٣].

وسَاعَد على تَعْميم فِكرة «الأواوين» في تَخْطيطِ المُنْشآت الدِّينية شُيُوعُ اسْتِخْدام الحِجارَة في البِناء، مِمَّا أدَّى إلى الاسْتِغْناء عن الأعْمِدَة واسْتِبْدال الدِّعامات بها، وإقامَة الأسْقُف المبنية المعقودة بَدَلًا من الأسْقُف المُسَطَّحة الخشبية؛ فأصبح بَيْتُ الصَّلاة قاعَةً واحِدَةً فسيحَةً بعد أن كان مجموعةً من الأساكيب والبَلاطات. وسَاعَدَ هذا النِّظامُ الجديد كذلك على إضْفاءِ جَوٍّ من الفَخامَة على وَاجِهات بُيُوتِ الصَّلاةِ، وأدَّى إلى إحْلالِ فكرة العُلُوّ والعَظَمَة والتركيز، مَحَلّ الفكرة الأولىٰ في العمارة الإسلامية الدِّينية التي كان قِوامُها الفُسْحَة والامْتِداد [٤].

---

[١] فريد شافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية ٢٨- ٢٩؛ حسن الباشا: «دراسة جديدة في نشأة الطِّراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٣ (١٩٨٩)، ٥١.

[٢] حسن الباشا: المرجع السابق ٥٥- ٥٦.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٤٩٩.

[٤] أحمد فكري: المرجع السابق ١: ١٧٠- ١٧١.

ولوحِظَ في تخْطيطِ المَدْرَسة ـ ابتداءً من العصر المملوكيّ ـ صَلاحيتها لإقامَة الصَّلَوات الجامعَة حيث اشْتَملَت على مَكانٍ رَحْبٍ مُرَبَّعٍ أو مُستطيل التَّخْطيط مُوَجَّه نحو القِبْلَة ومُزَوَّد بمِحْرابٍ ومِنْبَر، ودائمًا ما كان هذا المكانُ أكبر أواوين المَدْرَسَة واصْطُلِحَ على تسميته بـ «إيوانِ القِبْلَة». وتأكيدًا لصَلاحِيَّة المَدْرسَة لوَظيفَةِ الصَّلاة كانت تَشْتمل على مآذِن أو مَنارات، كما هو الحالُ مع المَدارِسَ المصرية ومَدارِسِ السَّلاجِقَة بآسيا الوُسْطىٰ التي كانت تشتمل في بعض الأحْيان على منارَتَيْن [١]، وتَميَّزت المآذِنُ الأيُّوبية بأنَّها ارْتَقَت على البَوَّابات وأضْفَت بذلك أهميةً خاصَّةً على هذه البَوَّابات (المَدْرَسَةُ الصَّالِحية) [٢].

والوَظيفةُ الأساسيةُ للمَدْرَسة، والتي اشْتُقَّ اسْمُها منها، هي: التَّدْريسُ؛ حيث خُصِّصَت أواوينُها الأربعة لتَدْريس المَذاهِبِ الفِقْهية السُّنِّيَّة الأربعة، ودائمًا ما كان يُخَصَّصُ إيوانُ القِبْلَة ـ وهو الإيوانُ الأكثر اتِّساعًا ـ لتَدْريسِ المَذْهَبِ الأكبر أو المَذْهَبِ الذي يأخُذُ به أو اشْتَرَطَه مُنْشئُ المَدْرَسَة [٣].

وما يُمَيِّزُ المَدْرَسَة عن الجَامِع هو تَوْفيرُ أماكِنَ لإقامَةِ الطَّلَبَة وإعاشَتِهم. ويَرَى أحمد فكري أنَّ المَدْرَسَة اتَّخذَت وَظيفَتها الرَّئيسة من كَوْنِها أُعِدَّت لسُكْنَىٰ الفُقَهاءِ لا من قاعاتِ التَّدْريس والمُدَرِّسين [٤]. وقد ساعَدَت هذه الوَظيفَةُ، في رأي حسن الباشا، على ظُهُورِ الطِّراز المِحْوَري وعلى إبْدالِ أرْوِقَةِ المَساجِدِ بأواوين المَدْرَسَة؛ لأنَّ الإيوانَ لا يَشْغَل جانِبَ الفِناء كُلَّه، ومن ثم كان من الممكن بِناءُ مَساكِن الطَّلَبَة بين الأواوين وحَوْلَ أرْكانِ الفِناء. كما أنَّ الإيوانَ، على عكس

---

[١] حسن الباشا: المرجع السابق ٥١- ٥٢.

[٢] أحمد فكري: المرجع السابق ١:١٦٦- ١٦٧.

[٣] حسن الباشا: المرجع السابق ٥٢.

[٤] أحمد فكري: مساجد القاهرة ٢: ١٦٠، ١٦٣، وخصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي ١٨٣- ١٨٧.

سَقْفِ رِواقِ الجَامِعِ المَسْقُوف ، كان مُرْتَفِعًا بحيث يمكن أن يُعادِلَ ارْتفاعَ عِدَّة طَوابِقَ من المساكِن ، وخَيْر مِثالٍ على ذلك هو جَامِعُ ومَدْرَسَةُ السُّلْطان حسن بالرُّمَيْلَة التي احْتَفَظَت بجميع معالمها الأصلية تَقْريبًا [١] .

وإلى أن ظَهَرَت المَدْرَسةُ في العِمارة القاهرية كان الجَامِعُ لا يُلْحَق به مَدْفَنٌ ، لا للمنشئ ولا لغَيْره ، ثم بدأت القِبَابُ تُلْحَقُ بالمَدارِسِ وأقْدَمُ أُنْمُوذَجٍ لها هو «القُبَّةُ المَنْصُورية» الملحقة بمَدْرَسَة المَنْصُور قَلاوون بالنَّحَّاسين بشارع المُعِزِّ لدين الله [٢] .

وكما رأينا فإنَّ المَقَابِرَ التي تَعْلُوها «قُبَّةٌ» عُرِفَت في مصر قَبْل هذا التأريخ ، ويَرْجِعُ أقْدَمُها إلى العَصْرين الإخْشيديّ والفاطميّ : «مَشْهَدُ آل طَباطَبا » (٣٣٤هـ/ ٩٤٣م) و«القِبَابُ السَّبْع» (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) و«المَشْهَدُ الجُيُوشيّ» (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) ، و «قُبَّةُ يُونُس السَّعْديّ (قُبَّةُ بَدْر الجماليّ)» (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) . وأخَذَ نَمَطُ القُبَّة التي تَعْلُو القَبْر في الانْتِشار في العَصْرِ الأيُّوبيّ مع «قُبَّةِ الإمام الشَّافِعيّ» (٦٠٨هـ/ ١٢١١م) ، و «قُبَّةِ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب» (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) ، و «قُبَّةِ شَجَرِ الدُّرّ» (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م) ، وهي عبارة عن مُنْشآتٍ مُرَبَّعَة الشَّكْل تَعْلوها رَقَبةٌ مُثَمَّنةٌ ترتكز عليها قُبَّةٌ بَيْضويَّةُ الشَّكْل ذات جِدارٍ رقيق تَفْتَح فيه ثمانيةُ شَبابيك مستطيلة .

وأُلْحِقَت هذه القبابُ في العَصْرِ المملوكيّ بالمدارِس ، وكانت تتَّجه دائمًا تجاه القِبْلَة ـ الأمْرُ الذي يُفَسّر سَبَبَ بِناءِ أغْلَب هذه المَدارِس على الجانِبِ الغربيّ للشَّارِع الأعْظَم أو القَصَبة (القُبَّة المَنْصورية ـ المَدْرَسَة النَّاصِرية ـ المَدْرسَة الظَّاهرية الجديدة) وزادَ ارْتِفاعُها عن طَريق رَفْع الرَّقَبَة المُثَمَّنَة وأصبحت كُلُّ مَدْرَسَةٍ أو خانْقَاه مُلْحقًا بها قُبَّةٌ لدَفْنِ مُنْشئها وأحْيانًا عائلته [٣] .

---

[١] حسن الباشا : المرجع السابق ٥٥.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٥١٦.

[٣] المقريزي : المواعظ ٤ : ٦٧٣، ٦٨٠، ٧٣٢، وراجع CHR. KESSLER,

وامْتازَت مَدارِسُ العَصْرِ المملوكيّ البَحْريّ بضَخَامَة البِنَاء وارْتفاعِه ومساحته الكبيرة؛ أمّا في العَصْرِ الشَّرْكسيّ فاعْتَمَدَ المهندسون أيضًا النِّظامَ المتعامِد Cruciform Plan في بِنَاء المَدارِس ولكنَّهم لجأوا ـ نظَرًا لظُرُوفِ المكانِ ـ إلى تَصْغير مساحَةِ الصَّحْنِ وتَغْطيته، ونَتَجَ عن ذلك صِغَرُ واجِهاتِه واتِّساعُ فَتَحات الإيوانات المُطِلَّة عليه. وللاحْتِفاظِ بمساحَةٍ مناسبةٍ للمَدْرسة قامَ المُهَنْدسون بتوسيع إيوانِ القِبْلَة والإيوانِ المُقابِلِ له فقط بالامْتدادِ بهما من جانبيهما بشَكْلٍ لا يتَّضِحُ من الصَّحْنِ ولكن يُدْرِكُه فقط من يَدْخُل إلى هذين الإيوانين لأنَّ واجهتيهما المُطِلَّتَيْن عليه لا تُنْبِئان باتِّساعهما الحَقيقي[١].

وأدَّى هذا التَّطَوُّرُ الذي لَحِقَ تلك الكُتَل المعمارية إلى تَغْيير الأسماء المُطْلَقَة عليها والتي عَبَّرَت عنه «حُجَجُ الأوْقافِ» التي تَصِفُ هذه المدارِس. فأطْلَقت الحُجَجُ على الإيوانَيْن الجانِبيين لَفْظ «السِّدِلَّة»[٢] أو «المَرْتَبَة»، كما أُطْلِقَ على

---

[١] L. HAUTECOEUR & G. WIET, *Les Mosquées du Caire*, p. 103؛ محمد مصطفى نجيب: «نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامدة وتطوره خلال العصر المملوكي الجركسي»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢ (١٩٧٨)، ١١٩؛ سعاد ماهر: مساجد مصر ٤: ١٩. «Funerary Architecture Within the City», *CIHC*, pp. 257-67; id., *The Carved Masonry Domes of Mediaeval Cairo*, AUC 1976; Diez, E., *EI*[2] art. *Kubba* V, pp. 288-96؛ محمد حمزة الحداد: القباب في العمارة المصرية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٣.

[٢] السِّدِلَّة أو السِّدِلّا. لَفْظٌ فارسي مُعَرَّب، أصْلُه بالفارسية: سِهْدِله. عبارة عن بناء مُغْلَق من ثلاثة جوانب ومفتوح من الجانب الرابع. ووَرَدَ هذا المُصْطَلح في أوْراق الجنيزَة وحُجَج الأوْقاف كذلك بمعنى مَصْطَبَة من الحَجَر بارْتفاع نصف قَدَم، أو موضع اسْتِراحَة ترتفع فيه الأرض بانْتِظام ومتساوية العُمْق والعَرْض، مفروشة بمسانِد وملاءات على جانِبٍ أو اثنين متقابلين من جوانبها، وعادَةً ما ينطبق هذا الوصف على قاعات الدُّور والقُصُور. (مُقَدِّمَة كتاب نُزْهَة المُقْلَتَيْن لابن الطُّوَير ٩٧°-٩٨°).

الصَّحْنِ - الذي جَاءَ مُنْخَفِضًا عن الإيوانات بمقدار ٠,٢٥ من المتر - لَفْظُ «الدُّورْقاعَة» (وهو تَعْبيرٌ فارسي معناه الجزء المُنْخَفِض من القاعَة)، وهي نفس المُصْطَلحات التي أُطْلِقَت على تَنْظيم القاعَة في الدُّورِ المملوكية. وعلى ذلك فقد أصبح النِّظامُ المتعامِد للمَدارِس في العَصْرِ المملوكيّ الشَّرْكسيّ يتكوَّن من دُورْ قاعَة وُسْطَىٰ مُغَطَّاة، وبكُلٍّ من جانبيها الجنوبيّ الشَّرْقيّ والشَّماليّ الغَرْبيّ إيوانٌ كبيرٌ، وبجانبيها الشَّماليّ الشَّرْقيّ والجنوبيّ الغَرْبيّ سِدِلَّتان أو مَرْتَبَتان[1].

ووُجِدَت في العَصْرِ المملوكيّ مُنْشآتٌ اتُّبِعَ في تَخْطيطها التَّخْطيطُ المُتَعامِد ذو الإيوانات، ومع ذلك وُصِفَت في نُقُوشِها الإنْشائية بأنَّها جَوامِعُ، مثلُ جامِع جاني بك[2] الذي يَرَىٰ فان برشم أنَّ إطْلاقَ اسم الجَامِع في نَصٍّ إنْشائي على هذا التَّخْطيط تَطَوُّرٌ مهمٌّ يَدُلُّ على أنَّ الأسماءَ كانت تُحَدِّدُ وَظيفَةَ البِناء لا طِرازَه المعماري الذي بُنِيَ عليه[3].

ولم يكن وُجُودُ أربعة إيوانات ببناء المَدْرَسة دَليلًا على أنَّه يُدَرَّسُ بها أربعةُ دُرُوسٍ مختلفة، سواء الفِقْه بمَذاهِبِه الأربعة أو الفِقْه إلى جانِب عُلُوم الحَديث والقِراءات، فـ«المَدْرَسَةُ المَلَكِيَّة» التي أنشأها الأميرُ آل مَلِك الجُوكَنْدار تجاه دارِه بخُطِّ المَشْهَدِ الحُسَيْنِيّ كانت مُخَصَّصَةً فقط للفُقَهاءِ الشَّافِعية[4]، كما خُصِّصَت «المَدْرَسَةُ المِهْمَنْدارِيَّة» الموجودة بشارع التَّبَّانَة لتَدْريس المَذْهَبِ الحَنَفيّ فقط[5]، أمَّا «المَدْرَسَةُ السَّابِقِيَّة» الموجودة بدَرْبِ قِرْمِز فكان بها فقط دَرْسٌ للشَّافِعية وتَصْديرُ قِراءَات[6].

---

[1] مصطفى نجيب: نَظْرَة جديدة على النِّظام المعماري للمدارس المتعامدة ٢٠.

[2] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٣٥٦.

[3] M. van Berchem, *CIA* Égypte I, n° 248؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ٢٢٠.

[4] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٧١.

[5] نفسه ٤: ٦١٢.

[6] نفسه ٤: ٥٨٠.

ويُؤَيِّدُ رأي كريزويل Creswell في تَأَثُّر عِمارَة المَدَارِس القاهِريَّة ذات الأواوين بِنِظام القاعَة المصرية ، سُهُولَةُ تحويل بعض القاعات القديمة إلى مَدارِس . فتُوجَدُ في القاهِرَة مَدْرَسَتان تحملان نُقُوشًا تاريخية تدُلُّ على أنَّها كانت في الأصْلِ «قاعات» ، هي : المَدْرَسَةُ الغَنَّامِيَّة [أثر رقم ٩٦] التي كانت في الأصْلِ قاعَةً تُعْرَفُ بـ«قاعَة شاكِر بنِ الغَنَّام» أُنشِئَت سنة ٧٧٤هـ/١٣٧٢م[1]، ومَدْرَسَةُ خُشْقَدَم الأحْمَدي [أثر رقم ١٥٣] ، التي كانت في الأصْلِ قَصْر طَشْتَمُر الدَّوادار الذي يرجع تأريخُ إنْشائِه إلى سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م ، ولكن تأريخَ تحويلهما إلى مَدْرَسَةٍ تأريخٌ متأخِّرٌ ، فقد تَحَوَّلَت الأولىٰ نحو سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م ، والثانية نحو سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م ، وكان التَّحْويلُ بالطَّبْعِ سَهْلًا ، حيث اكْتُفِيَ بنَقْبِ مِحْرابٍ في إيوانِ القِبْلَة وبناءِ مِئْذَنَةٍ ، وهما أهَمّ خاصِّيَّتَيْن تُمَيِّزان المَدْرَسَة القاهرية . وأشَارَ المَقْريزي نفسه إلى أنَّ «المَدْرَسَة الشَّريفِيَّة» بحارَة بَهاء الدِّين ، كانت في الأصْلِ قاعَةً يَسْكُنُها الشَّريفُ شِهابُ الدِّين الحسن بن محمد المعروف بابن قاضي العَسْكَر ، ثم جَعَلَها مَدْرَسَةً للشَّافِعية وجَعَلَ بها تَصْدير قِراءات[2].

وتَمَيَّزَت المدارِسُ التي أُنْشِئَت في العَصْرِ المملوكيّ البَحْريّ وصَدْر العَصْرِ الشَّرْكسيّ ، بـ«المَداخِلِ التِّذْكارية» الضَّخْمَة ، والتي من أهَمِّها : مَدْخَلُ جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حسن بالرُّمَيْلَة الذي يُعَدُّ بمُقَرْنَصَاتِه التي تُحَلِّي أعْلَى المَدْخَلِ طُرْفَةً أثَرِيَّةً رائِعَة ، رَغْم أنَّ أكثر زَخارِفِه وتَلْبيسات الرُّخام التي كان مُزْمَعًا إضافَتُها لم تَتِمّ بسَبَبِ وَفاةِ مُنْشِئِه قبل إتْمام بِنائِه ؛ ومَدْخَلُ مَدْرَسَةِ أمّ السُّلْطان شَعْبَان

---

[1] فيوجد بدائر إيوان القَاعَة كِتابَةٌ تاريخيةٌ تحمل النَّصَّ الآتي :

«بِسْم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ـ الآيات ٢٥٦-٢٥٨، ٢٨٤، سورة البقرة ـ أَمَرَ بإنْشَاء هذه القَاعَة المبارَكة العَبْدُ الفقيرُ إلى الله شَاكِرُ بن الغَنَّام ـ غَفَرَ الله له ـ بتأريخ شهور سنة أربع وسبعين وسبع مائة» (L. Kallus, *RCEA* nos 774 003, 774 004).

[2] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٦٧٧.

بشارع بابِ الوَزير ويَظْهَرُ فيه تأثُّر مُهَنْدِسِهِ بالعَمائِر السُّلْجُوقية التي تُعْنَى بزَخْرَفة المَدَاخِل ؛ ومَدْخَلُ مَدْرَسَة وخانْقاه الظَّاهِر بَرْقُوق بيْن القَصْرَيْن ، وهو مَدْخَلٌ مَكْسُو بالرُّخَام المُلَوَّن المُلَبَّس بطريقةٍ فَنِّيَّة وبه شُبَّاكٌ مُسْتَديرٌ مُفَرَّغٌ بالنُّحاس يَعْلُوه المُقَرْنَص تَتَخَلَّله فُرُوعٌ زُخْرُفية ؛ ومَدْخَلُ جَامِع المُؤَيَّد شَيْخ داخِل بابِ زَوِيلَة ، وهو مَدْخَلٌ شاهِقٌ كُسِيَ بالرُّخَام المُلَوَّن وغُطِّي بالمُقَرْنَصات [١].

كما امْتازَت «مَنَـــابِرُ» هذه الفَتْرَة ، سَواء الخَشَبِيَّة أو الحَجَرِيَّة (الرُّخامية) ، بدِقَّة صِناعَتها ودَقِّ حَشَواتِها وقَوائمها وجانِبا سُلَّمها بالأُويْمَة الدَّقيقَة البالِغة الإتْقان التي انْتَشَرَت بها أشْكالُ الأرابيسك والأطْباق النَّجْمِيَّة ، واسْتِخْدام المُقَرْنَصات في أعْلى مَدْخَلِ الباب المُؤَدِّي إلى سَلالِم المِنْبَر . وتُعَدُّ مَنَابِرُ العَصْرِ المملوكيّ البَحْريّ أقْدَمَ المَنابِر التي وَصَلَت إلينا في مصر الإسلامية - بإسْتِثْناء مِنْبَر جَامِع قُوص الذي شَيَّدَه الصَّالِحُ طَلائِع سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م [٢] - وأصْبَحَت هي الأُنْمُوذَج الذي اتَّبَعته سائِرُ مَنابِرِ المساجِدِ الجامِعَة في مصر بعد ذلك .

وأقْدَمُ هذه المنابِر التي وَصَلَت إلينا : المِنْبَرُ الذي عَمِلَه المَنْصُورُ حُسَامُ الدِّين لاجين لجامع ابن طُولُون سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م . وقد ظَلَّ هذا المِنْبَرُ حتى سنة ١٨٤٥م حين شَاهَدَه المستر جيمس ويلد ، أمين متحف سوان بلندن ، ورَسَمَه رَسْمًا دَقيقًا يتَّضِحُ منه أنَّه كان يحتوي في كلِّ جانِبٍ على شَكْلٍ هَنْدَسيّ دائريّ كبير في وَسَطِه نَجْمَة تُحِيطُ به ثمانُ حَشَواتٍ كبيرة مُثَمَّنَة تتبادَل بين نُجُومٍ وأشْكالٍ

---

[١] راجع لتفاصيل أكثر رسالة هيلاري روي H. Roe, *The Bahri Mamluk Monumental Entrances of Cairo*, Ph. D. Thesis AUC 1979؛ ورسالة داد عبد الرازق D. Abdel Razik, *The Circassian Mamluk Monumental Entrances of Cairo*, Ph. D. Thesis AUC 1990؛ ورسالة محمد سيف النصر أبو الفتوح : مَدَاخل العمائر المملوكية الدينية والمدنية بالقاهرة من ١٢٥٠-١٣٨٢، رسالة ماجستير بآداب القاهرة ١٩٧٥.

[٢] انظر E. Pauty, «Minbar de Qûs», *Mélanges Maspero*, Le Caire 1940, III, pp. 41-48.

عربية ، وعلى السُّلَّم وأسْفَلَه أنْصَافٌ من أربعة أشْكالٍ من الرَّسْم نفسه ؛ ثم امْتَدَّت إليه الأيْدي ونَزَعَت منه حَشَواته المُتَّخَذَة من السَّاج الهنديّ (التك) والعَظْم والأبَنُوس ، اشْتَرَى منها مَتْحَف سوث كينسينجتون (مَتْحَف فكتوريا وألْبِرْت بلَنْدَن الآن) سِتّ حَشَوات مُسْتَطيلة من الخَشَب وتَوَزَّع الباقي على سَائِر متاحِف أوروبا إلى أن تَمَكَّن هرتز باشا HERZ PACHA من الحُصُولِ على بعضها وصَنَعَ نماذِجَ لبعضها الآخَر من صُوَرٍ حَصَلَ عليها ، وأعَادَ المِنْبَرَ إلى أصْلِه بمُساعَدَة الرَّسْم الذي وَضَعَه المستر جيمس ويلد [١] . والثَّاني هو مِنْبَرٌ مُعاصِرٌ عَمِلَه الأميرُ بَكْتَمُر الجوكَنْدار سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م لجامِع الصَّالح طَلائِع خارج بابِ زَوِيلَة . ثم مِنْبَر جَامِع قُوصُون بالشَّارِع خارج بابِ زَوِيلَة ويَرْجِعُ تأريخُه إلى سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٩م ، وهو مَحْفوظٌ الآن بمَتْحَف الفَنّ الإسلامي بالقاهرة برقم ١٠٩٢. ويَحْتَفِظُ المَتْحَفُ نفسه تحت رقم ٢٩٨٣ بالقسم العُلْويّ من مَدْخَلِ المِنْبَر الحَجَريّ لجامِع الخَطيري ببُولاق ، الذي شُيِّدَ سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م . أمَّا أقْدَمُ مِنْبَرٍ رُخاميّ ما زالَ مَوْجُودًا من هذه الفَتْرَة فمِنْبَرُ جَامِع آقْسُنْقُر ببابِ الوَزير وهو مُؤَرَّخٌ في سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م ، ويليه مِنْبَرُ جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حسن وتأريخُه سنة ٧٥٧ـ٧٦٤هـ/ ١٣٥٦ـ١٣٦٣م) [٢] .

---

[١] محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، القاهرة ١٩٢٧، ٩٥ـ٩٨.

[٢] راجع لتفاصيل أكثر رسالة جلوريا كارنوك G.S. KARNOUK, *Cairene Bahri Mamluk Minbars with a Provisional Typology and a Catalogue*, AUC Thesis 1977؛ وقَدَّمَت لها عَرْضًا مُوجَزًا في مقالٍ بعنوان G.S. KARNOUK, «Form and Ornament of the Cairene Bahrî Minbar», *An.Isl.* XVII (1981), pp. 113-39؛ نعمت محمد أبو بكر : المنابر الخشبية في مصر حتى نهاية العصر المملوكي ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٦٨، نفسه : المنابر في مصر في العصرين المملوكي والتركي ـ دراسة أثرية فنية ، رسالة دكتوراه بآثار القاهرة ١٩٨٦.

أمَّا «مَحـــارِيبُ» مَساجِد القاهِرَة ومَدَارِسِها فإنَّ أقْدَمَ أنـمُوذَجٍ مُؤَكَّدٍ لها هو المِحْرَابُ المُجَوَّف المَوْجُود بجامِع أحمد بن طُولُون ، ما عَدَا كُسْوةَ طاقيته الخَشَبِيَّة والمُزَخْرَفَة بالألْوانِ ، وكذلك الشَّرِيطُ المُزَخْرَف بالفُسَيْفِساء والحَشَوات والأشْرِطَة الرُّخامية التي تُغَطِّي سَطْح تَجْويف المِحْرَاب ، فإنَّها من عَمَلِ السُّلْطانِ المَنْصُور لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م . ووَصَلَ إلينا أيضًا المِحْرَابُ الفاطِمي للجامِع الأزْهَر والمِحْرَابُ الأصلي لجامِع الحاكم بأمْر الله . وانْتَشَرَ في العَصْرِ الفاطِمي كذلك نَوْعان آخَران من المحاريب : المحاريبُ المُسَطَّحَة من الجَصّ ، والتي نَجِدُ نماذِجَ لها في جَامِع ابن طُولُون ، والمحاريبُ الخَشَبية المُتَنَقِّلَة التي يحتَفِظُ مَتْحَفُ الفَنِّ الإسلامي بالقاهرة بنماذِجَ لها اسْتُقْدِمَت من الجامِع الأَزْهَر ومَشْهَدِ السَّيِّدَة نَفِيسَة ومَشْهَدِ السَّيِّدَة رُقَيَّة . ولكن المحاريبَ التي خَلَّفَها لنا العَصْرُ المملوكيّ هي دون شَكٍّ أرْوَعُ مَحاريب مَساجِد ومَدارِس القاهِرَة التي اسْتُخْدِم فيها الرُّخامُ المُلَوَّن والصَّدَفُ بأسْلُوبٍ فَنّي رائِعٍ . وأقْدَمُ وأفْخَمُ هذه المحاريب ـ التي وَصَلَت إلينا ـ مِحْرابُ القُبَّة المَنْصُورِيَّة بيْن القَصْرَيْن ، ومِحْرابُ المَدْرَسَة الطَّيْبَرْسية بجوار الجَامِع الأَزْهَر الذي لَفَت انْتباه المَقْرِيزي وذَكَرَ أنَّه من الرُّخام المُذَهَّب وجَميعَه شَكْل المحاريب ؛ وبالفِعْل فإنَّ صِناعَة الرُّخام في مِحْراب هذه المَدْرَسَة من أدَقّ ما وُجِدَ من نَوْعِها وأنْدَرِه ، فالجزءُ الأسْفَل منه مُكَوَّنٌ من طاقاتٍ مُقَرْنَصَة محمولة على عُمُدٍ رُخامية صَغيرَة لها تيجانٌ رخامية أيضًا وتواشيحُها من رُخَام مَدْقُوق به فروعٌ زخرفية بارزة ، وباقي المِحْراب من رُخامٍ أبيض لُبِّسَت فيه ألْوانُ الرُّخام بأشكالٍ زُخْرُفِية وحُلِّيت تواشيحُه وأعْلاهُ بفسيفِساء مُذَهَّبَة . ولا يَقِلُّ عنها فَخامَة مِحْرابُ المَدْرَسَة الآقْبُغـاوية ومِحْرابُ جَامع ومَدْرَسَة النَّاصِر حسن ومِحْرابُ جَامِع آقْسُنْقر ومِحْرابُ جَامِع المارْديني ومِحْرابُ المَدْرَسَة الظَّاهِرية بَرْقُوق ومِحْرابُ الجامِع المُؤَيَّدي [1] .

---

[1] راجع كذلك حسين مصطفى رمضان : أثرية فنية ، رسالة ماجستير بآثار القاهرة ١٩٨٢. المحاريب الرُّخامية في قاهِرة المماليك البحرية ـ دراسة

*
* *

كانت القاهِرَةُ خِلال القرنين الثَّامن والتَّاسع للهجرة / الرابع عشر والخامس عشر للميلاد مَدينَةً عامِرَةً بالمُنْشآتِ المُتَنَوِّعة مثل الدُّور والقُصُورِ والوَكالات والحَمَّامات ، ولكنَّ أهَمَّ هذه المُنْشآت كان دون شك المُنْشآتَ الدِّينية ، من جَوامِعَ ومَدارِسَ وخَوانِكَ ورُبُط ، التي اخْتُصَّت باسْتِضافَةِ الطَّلَبَة والمُدَرِّسين والمُتَصَوِّفَة ، ولتكون مُنْتدًى لفُصُولِ العِلْم ومَكانًا لنَقْلِ المَعْرِفَة من جِيلٍ إلى جيل. كانت القاهِرَةُ في حقيقة الأمْر ـ كما سَبَقَ أن ذَكَرْت ـ أشْبَه بمَدينَةٍ جامِعِيَّة أو مَدينَةٍ للمَدارِس والخَوانِك ؛ وقد عَبَّرَ عن ذلك بوُضُوحٍ العَلَّامَةُ عبد الرَّحمٰن بن خَلْدُون في «المُقَدِّمَة» وفي «التَّعْريف» ، يقولُ في «المُقَدِّمَة» وهو يَذْكُر تَراجُع دَوْر مَراكِزِ العِلْم القَديمَة في بَغْداد وقُرْطُبَة والقَيْرَوان والبَصْرَة والكوفَة :

«ونحن لهذا العَهْدِ نَرَى أنَّ العِلْمَ والتَّعْليمَ إنَّما هو بالقاهِرة من بِلادِ مصر ، لما أنَّ عُمْرانَها مُسْتَبْحِرٌ وحَضارَتها مُسْتَحْكِمةٌ منذ آلافٍ من السِّنين فاسْتَحْكَمَت فيها الصَّنائِعُ وتَفَنَّنَت ، ومن جملتها تَعْليمُ العِلْم. وأكَّدَ ذلك فيها وحَفِظَه ما وَقَعَ لهذه العُصُورِ بها منذ مائتين من السِّنين في دَوْلَةِ التُّرْكِ من أيَّام صَلاحِ الدِّين بن أيُّوب وهلم جَرًّا ... فاسْتَكْثَرُوا من بِنَاءِ المَدارِسِ والزَّوايا والرُّبُط ووَقَفُوا عليها الأوْقافَ المُغِلَّة ... فكَثُرَت الأوْقَافُ لذلك وعَظُمَت الغَلَّاتُ والفَوائِدُ وكَثُرَ طَالِبُ العِلْم ومُعَلِّمه بكَثْرَة جِرايتهم منها ؛ وارْتَحَلَ إليها النَّاسُ في طَلَبِ العِلْم من العِراقِ والمَغْرِبِ ونَفَقَت بها أسْواقُ العُلوم وزَخَرَت بِحَارُها»[١].

وأكَدَّ ذلك في «التَّعْريف» ، يقول في وَصْفِ المماليك حُكَّامِ مصر والشَّام :

«أهْلُ هذه الدَّوْلَة التُّرْكية بمصر والشَّام مَعْنِيُّون ـ على القِدَمِ منذ عَهْدِ مَواليهم مُلُوكِ بني أيُّوب ـ بإنْشاءِ المَدارِسِ لتَدْريس العِلْم ، والخَوانِقِ لإقامَة رُسُوم الفُقَراء

---

[١] ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، تحقيق إبراهيم شبوح ، تونس ٢٠٠٧، ٢: ١٨٣.

في التَّخَلُّق بآدابِ الصُّوفِيَّة السُّنِّيَّة في مُطارَحة الأَذْكار ونَوافِل الصَّلَوات ، أخَذُوا ذلك عَمَّن قَبْلَهم من الدُّوَل الخِلافيَّة فيَخْتَطُّون مَبانيها ويَقِفُون الأَراضي المُغِلَّة للإنْفاقِ منها على طَلَبَة العِلْم ومُتَدَرِّبي الفُقَراء... واقْتَدَى بسُنَّتِهم في ذلك مَنْ تحت أيْديهم من أهْلِ الرِّياسَة والثَّرْوَة ، فكَثُرَت المَدارِسُ والخَوانِقُ بمَدينَة القاهِرَة وأصْبَحَت مَعاشًا للفُقَراءِ من الفُقَهاءِ والصُّوفيَّة ، وكان ذلك من مَحاسِنِ هذه الدَّوْلَة التُّرْكية وآثارِها الجميلة الخالِدَة»[١].

ويَصِفُ لنا المَقْريزيُّ ـ في الفَصْلِ الذي عَقَدَه لذِكْرِ المدارِس ـ مِئَة مَدْرَسَةٍ يَعْمَلُ بَعْضُها منذ القرن السَّادس الهجريّ / الثَّاني عشر الميلاديّ ، وبَعْضُها الآخَر كان مُعَطَّلًا وَقْتَ تَدْوينه لكتابِه أو أُنْهِي دَوْرُه قَصْدًا مثل «المَدْرَسَة الأَشْرَفِيَّة المُسْتَجَدَّة» التي بَنَاهَا السُّلْطانُ الأَشْرَف شَعْبان فوق الصُّوَّة في مواجهة القَلْعَة[٢] والتي حَلَّ مَحَلَّها الآن أطْلالُ المارِسْتان المُؤَيَّدي[٣]، والتي هُدِمَت بسبب تَحَصُّن المُتَمَرِّدِين بها ضد مَرْكَزِ الحُكْم في القَلْعَة .

ومع ذلك فقد تَجَاهَل المَقْريزي ذِكْر بعض المَدارِس المُهِمَّة التي عاصَرَ إنْشَاءَها مثل : المَدْرَسَة التي شَيَّدَها مُنافِسُه المُؤَرِّخُ المُحَدِّثُ بَدْرُ الدِّين محمود بن أحمد العَيْني ، المتوفَّى سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م ، بجوار دَارِه ودار ابن الغَنَّام خَلْف الجامِع الأَزْهَر ، والتي افْتُتِحَت سنة ٨١٤هـ/ ١٤١٢م[٤]، ومَدْرَسَة الأمير بَكْتَمُر الحاجِب النَّاصِري ، المتوفَّى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م[٥]، وبعض مَدارِس الفُسْطاط التي ذكرها ابنُ دُقماق .

---

[١] ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، تونس ٢٠٠٦، ٢٨٦.

[٢] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٦٦١.

[٣] نفسه ٤: ٧٠٢.

[٤] الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان ٢: ٢٩٠؛ L. IBRAHIM & B. O'KANE, «The Madrasa of Badr al-Dîn al-'Aynî and its Tiled Mihrâb», *An.Isl.* XXIV (1988), pp.253-268.

[٥] ابن حبيب : تذكرة النبيه ٢: ١٩٨.

ولاحَظَ JONATHAN BERKEY، في دراسته المُهِمَّة عن «نَقْلِ المَعْرِفَة في القاهرة الإسلامية»، أنَّ مثل هذه الثَّغَرات الواقِعَة في عَمَلِ المَقْريزي تُمَثِّلُ عَقَبَةً أوَّلِيَّةً لأيَّةِ مُحاوَلةٍ لرَسْمِ لَوْحَةٍ تفصيليةٍ للمُؤَسَّسَات التَّعْليمية في القاهِرَة، على الأخَصِّ في القرنين الثَّامن والتَّاسع للهجرة / الرَّابع عَشْر والخامِس عَشْر للميلاد [١]. كما أنَّ المَقْريزي نفسه ذَكَرَ في البابِ الذي خَصَّصَه لذِكْرِ الجَوامِع عدَدًا من المدارِس مثل «المَدْرَسَة الفَخْرِيَّة» [٢] التي ذَكَرَها باسم «جَامِع الفَخْري»، و «المَدْرَسَةِ الأشْرَفِيَّة» التي ذَكَرَها باسم «الجَامِع الأشْرَفي» [٣].

وواضِحٌ من خِلالِ ما وَرَد في «كُتُبِ الحَوْلِيَّات» أنَّ مَدارِسَ القاهرة المُبَكِّرة لم يكن بها مَنابِرُ ولا تُقامُ بها الجُمَعُ، خاصَّةً وأنَّ المَذْهَبَ الشَّافِعِيَّ الذي أخَذَ به الأيُّوبيُّون لم يكن يُجيزُ إقامَة خُطْبَةِ الجُمُعَة إلَّا في جَامِعٍ واحِدٍ في المَدينَة، كان طَوالَ العَصْر الأيُّوبيّ هو «جامِعَ الحَاكِم» عند بابِ الفُتُوح، واسْتَمَرَّ الأمْرُ كذلك حتى العُقُودِ الأولىٰ من القَـرْنِ الثَّامِن الهجريّ / الرَّابع عَشْر الميلاديّ. فيذكر المَقْريزيُّ، في حَوادِث سنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، أنَّ الأميرَ جَمالَ الدِّين آقُوش نائِب الكَرَك جَمَعَ القُضَاةَ والفُقَهاءَ ليَسْتَفْتيهم في جَوازِ عَمَلِ مِنْبَرٍ بالمَدْرَسَة الصَّالِحِيَّة بَيْنَ القَصْرَيْن لإقَامةِ الجُمُعَة بها، فأفْتَوه بجواز ذلك، فرَتَّبَ بها خَطيبًا وستة مُؤَذِّنين وقارئًا يقْرأ القُرْآن ووَقَفَ على ذلك وَقْفًا من مالِه على الحِكْرِ الذي بالحُسَيْنية المعروف به. وأُقيمت الخُطْبَةُ بالمَدْرَسَة يوم الجُمُعَة حادي عشرين ربيعٍ الأوَّل من السنة المذكورة [٤].

---

[١] J. BERKEY, *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo. A Social History of Islamic Education*, Princeton 1992, p. 46؛ وقد لاحظ BERKEY أيضًا أن المقريزي لم يُشر إلى عَدَدٍ من المَدارس المعروفة في وقته أو أشارَ إليها عَرَضًا في أثناء كِتابِه، ولكني وَجَدْتُ أن أغلب هذه المدارس أوردها المقريزي في مُسَوَّدَة المواعِظ والاعْتبار، وأثبتها في النَّشْرَة التي أصْدَرتها للكتاب.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٣١.

[٣] نفسه ٤: ٤٣٨.

[٤] مجهول المؤلف: تاريخ سلاطين المماليك ٢٢٦؛ النويري: نهاية الأرب ٣٣: ٣٠١- ٣٠٢؛=

ولكن عندما قَصَدَ الأميرُ أُلْجاي اليُوسُفي، سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، أنْ يُجَدِّدَ بـ «المَدْرَسَة المَنْصُورية» بَيْنَ القَصْرَين مِنبرًا ويُقَرِّرَ بها خَطيبًا لتُقامُ بها الجُمُعَة، أفْتَى القاضي سِراجُ الدِّين البُلْقيني الشَّافِعِيّ والقاضي شَمْسُ الدِّين محمد بن الصَّائغ الحَنَفيّ بجَوازِ ذلك، وأنْكَره من عَداهُما من الفُقَهاءِ؛ «لقُرْبِ المَدْرَسَةِ الصَّالِحِيَّة وبها خُطْبَةٌ للجُمُعَة بحيث يُرَى من المَنْصُوريَّة مِنبَرُ الصَّالِحِيَّة». وأضَافَ المَقْريزي أنَّ الكَلامَ كَثُرَ في ذلك، مِمَّا أدَّى إلى عَقْدِ مَجْلِسٍ يوم السبت ٢٦ شَعْبان سنة ٧٧٤هـ، اجْتَمَع فيه القُضَاةُ والفُقَهاءُ بالمَدْرَسَةِ المَنْصُوريَّة لمناقَشَةِ هذا الأمْرِ، فجَرَى بينهم نِزاعٌ طَويلٌ آلَ أمْرُه إلى المَنْعِ من تَجْديد الخُطْبَة [1].

كذلك فقد اسْتَجَدَّ القاضي عَلَمُ الدِّين إبراهيم بن الزُّبَيْر ناظِرُ الدَّوْلَة في أيَّام الملك النَّاصِر حَسَن، في سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، مِنْبرًا بـ «المَدْرَسَة الصَّاحِبِيَّة» بسُوَيْقَة الصَّاحِبِ، «فصَارَ يُصَلَّى بها الجُمُعَة ... ولم يكن قَبْل ذلك بها مِنْبرٌ ولا تُصَلَّى فيها الجُمُعَة» [2]. وعندما أنشأت خَوَنْد تَتَر الحِجازية المدرسة الحجازية برَحْبَة بابِ العيد «جَعَلَت بها منبرًا يُخْطَب عليه يوم الجمعة» [3]. ومع ذلك فإنَّه مع إنْشاء «المَدْرَسَة الزِّماميَّة» فيما بين البُنْدُقانيين وسُوَيْقَة الصَّاحب سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م «جُعِلَ بها مِنبَرٌ يُخْطَب عليه في كلِّ يوم جُمُعَة» رغم أنَّ «بينها وبين المَدْرَسة الصَّاحِبِيَّة دون مَدَى الصَّوْتِ فيُسْمِع كُلُّ من صَلَّى بالموضِعين تكبير الآخر»؛ وعَلَّق المَقْريزي على ذلك بقَوْلِه: «وهذا وأنْظارُه بالقاهِرَة من شَنيعِ ما حَدَثَ في غير مَوْضِعٍ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّة إلَّا بالله العَلِيّ العَظيم على إزالَة هذه المُبْتَدَعات!» [4]. وتَكَرَّرَ الشيءُ نَفْسُه في مَطْلَعِ القرن التاسع الهجري، ففي سنة

= المقريزي: السلوك ٢: ٣١٧، المواعظ والاعتبار ٤: ٤٩٠.

[1] المقريزي: السلوك ٣: ٢٠٦.

[2] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٧٧.

[3] نفسه ٤: ٥٣١.

[4] نفسه ٤: ٥٨٥.

٨١٥هـ/١٤١٢م «جُدِّدَ بِمَدْرَسَة أَسَنْبُغَا مِنْبَرًا وصَارَ يُقامُ بها الجُمُعَة»[١]، ونُصِبَ بِمَدْرَسَة قاني باي المُحَمَّدي بخُطِّ سُوَيْقَة مُنْعِم مِنْبَرٌ للخُطْبَة في يوم الجُمُعة[٢].

وكما شارَكَت المَدارِسُ المساجِدَ الجامِعَة في إقامَة الجُمَع، فإنَّ الجَوامِعَ اسْتَمرَّت أيضًا في عَقْدِ مَجالس العِلْمِ، التَّدْريس، وعلى الأخصِّ الجامِعُ الأزْهَر، وجَامِعُ الحاكِم، وجَامِعُ ابن طُولُون، وجامِعُ عَمْرو. فـ «الجامِعُ الأزْهَر»، رَغْم انْقِطاعِ الخُطْبَة منه طَوالَ العَصْرِ الأيُّوبيّ، لم يَفْقِد أبَدًا مكانَتَه باعتباره جَامع المَدينَة. وعندما جَدَّدَ المَنْصُورُ لاجِين جَامِعَ ابن طُولُون، سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م، «رَتَّبَ فيه دُرُوسًا لإلْقاءِ الفِقْهِ على المَذاهِبِ الأربعة... ودَرْسًا يُلْقى فيه تَفْسيرُ القُرآن الكريم، ودَرْسًا لحَديثِ النَّبي ﷺ، ودَرْسًا للطِّب»[٣]. وفَعَلَ الشيء نفسه الأميرُ رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكير عندما انْتُدِب لإصْلاحِ «جَامِع الحاكِم» في أعْقابِ زِلْزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، «فرَتَّبَ فيه دُرُوسًا أربعة لإقْراءِ الفِقْهِ على مَذاهِب الأئمَّة الأربعة ودَرْسًا لإقْراءِ الحَديثِ النَّبوي، وجَعَلَ لكُلِّ دَرْسٍ مُدَرِّسًا وعِدَّةً من الطَّلَبَة»[٤]. كذلك فقد قَامَ الأميرُ يَلْبُغَا العُمَري الخَاصَّكي بتَجديدِ دَرْسٍ بجامِع ابن طُولُون، سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، فيه سبعةُ مُدَرِّسين للحَنَفِيَّة، وقَرَّرَ لكُلِّ فَقيهٍ من الطَّلَبة في الشهر أربعين درهمًا وأرْدَبَّ قَمْح، الأمْرُ الذي أدَّى إلى انْتِقالِ جماعَةٍ من الشَّافِعية إلى مَذْهَبِ الحَنفِيَّة»[٥]. وبَلَغَت حَلْقاتُ العِلْم في «جامِعِ عَمْرو»، في أواسِط القرن الثَّامِن الهجريّ / الرابع عَشْر الميلاديّ «بضعًا وأربعين حَلْقَة لإقْراء العِلْم لا تكاد تُبْرَح عنه»[٦].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٦٤.
[٢] نفسه ٤: ٦٧٠.
[٣] نفسه ٤: ٦٩.
[٤] نفسه ٤: ١١٤.
[٥] نفسه ٤: ٧٩.
[٦] نفسه ٤: ٣٧.

وبذلك أصْبَحَت بعضُ المَساجِدِ الجامِعَة مَراكِزَ تعليمية مُهِمَّة تُعادِلُ أيَّة مَدْرَسَةٍ مَمْلوكيةٍ أخرى. فقد ظَلَّت هذه الجَوامِعُ مَراكِزَ التَّعْليم في مصر قُرونًا قَبْل ظُهُورِ المَدْرَسَة، حيث كان الجَامِعُ هو المكانُ العامُّ الوَحيد للتَّعْليم، وكان العُلَماءُ يُدَرِّسُون فيه سَواءً بمُقابِلٍ أو بدون مُقابِل، واسْتَمرَّ كذلك خِلالَ القَرْنَيْن السَّادِس والسَّابع للهجرة / الثَّاني عَشْر والثَّالِث عَشْر للميلاد عندما بدأت «المَدْرَسَةُ» تَسْتَقِرُّ في العاصِمَة المصرية.

*

* *

لم يكن من الممكن لوَظيفَة المَدْرَسَة أن تَسْتَمِرَّ دون الاعْتمادِ على نِظَامِ «الوَقْفِ» أو «الأحْبَاس»، فكان رِيعُ الأوْقافِ هو المَصْدَرَ المالي الرَّئيس للصَّرْفِ على وَظيفَةِ المَدْرسَة من رَواتِبَ للفُقَهاءِ والشُّيوخ ومَعاليمَ للطَّلَبَة. إضافَةً إلى ما يُقَدَّم من أشياء عَيْنِيَّة تُعينُ على إعاشَة الطَّلَبَة وشُيُوخِهم، وبالتالي فإنَّ النَّشَاطَ التَّعْليميّ الوَاسِع الذي عَرَفَتْه مَدارسُ القاهِرَة والأقاليم في العَصْرِ المملوكيّ هو في الحَقيقَة نِتاجٌ طَبيعيٌّ لازْدِهارِ الأوْقافِ وانْتِشارِها في هذا العَصْر[1].

كان انْقِطاعُ وُصُولِ مُغَلِّ أوْقافِ المَدْرَسة مَدْعَاةً لتَوَقُّف النَّشاطِ التَّعْليميّ للمُؤَسَّسَة. فعندما قَرَّرَ الأميرُ آقْسُنْقُر النَّاصِريّ دَرْسًا في جَامِعِه بباب الوَزير فيه عِدَّةٌ من الفُقَهاءِ، وَقَفَ عليه ضَيْعَةً من قُرَى حَلَب تُغِلُّ في السنة مائةً وخمسين ألْف دِرْهَم فِضَّة، فلمَّا تَوَقَّفَ وُصُولُ مُغَلِّ وَقْفِ الجَامِع بسبب الفِتَنِ التي حَدَثَت ببلاد الشَّام في أعْقابِ وَفاةِ الظَّاهِر بَرْقُوق، «تَعَطَّلَ الجامِعُ من أرْبابِ وَظائِفِه إلَّا الأذان والصَّلاة وإقامة الخُطْبَةِ في الجُمَعِ والأعيادِ»[1].

---

[1] ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢: ١٨٣، التعريف ٢٧٩؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٢٤٢.

كانت حُجَجُ الوَقْفِ التي يُصْدِرُها الواقِفُ لصَالِح المُؤَسَّسَة التي يُنْشِئها بمثابَةِ اللائحة الأساسية للمُؤَسَّسة، تَتَضَمَّنُ تحديدَ مَكانِ المُؤَسَّسَة ووَصْفَها المعماريّ، ونَوْعَ الدِّراسة التي تتمّ بها والشُّرُوطَ الواجبَ توافُرها في القائمين بالتَّدْريس، ومَواعيدَ الدِّراسة وخِزانَةَ الكُتُب الملحقة بالمُؤَسَّسَة وعَددَ المُوَظَّفين الملحقين بها من خُطَباءَ وَقَوَمَة ومُؤَذِّنين وفَرّاشين ...، وعَددَ المُدَرِّسين لكُلِّ مذْهَبٍ، وعَدَدَ الطَّلبَة الحاضِرين لهذه الدُّرُوس، وعدَدَ المُعيدين، ونِسبة الطَّلَبة المقيمين بالمَدْرَسة إلى الطَّلبَة المتردِّدين عليها، والمعلومَ الذي يُصْرَف لهم والذي لم يكن مُوَحَّدًا لجميع الطَّلَبَة [٢].

*

* *

ولم تَكُن هذه المُنْشَآتُ المُهِمَّةُ التي شَيَّدَها سَلاطينُ المماليك وكِبارُ أُمَرائِهم لتَتِمّ دون أن يُشْرِفَ على إدارَتها وتَنْظيم العَمَلِ فيها مُوَظَّفٌ مُخْتَصٌّ عُرِف بـ «شَادّ العَمَائِر». ووَظيفَةُ «شَدّ العَمائِر» هي الوَظيفَةُ الرَّابِعَة والعشرون بين وَظائِف أرْبابِ السُّيُوف في الدَّوْلَة المملوكية، ومَوْضُوعُ هذه الوَظيفَة ـ كما يقول القَلْقَشَنْديّ ـ أن يكون صَاحِبُها مُتَكَلِّمًا في العَمائِر السُّلْطانية مِمَّا يخْتارُ السُّلْطانُ إحْداثَه أو تَجْديدَه من القُصُورِ والمنازِلِ والأسْوارِ والمساجِد وغير ذلك. وكان مُتَولِّيها في أوَّلِ الأمْر أحَدَ أُمَرَاءِ العَشْرَاوات، ثم صَارَ يَشْغَلُها قَوْمٌ بغير إمْرَة [٣]. ورُبَّما عاوَنَ شَادَّ العَمَائر في إنْشاء الأماكِن المُهِمَّة مَوَظَّفٌ آخر يُسَمَّى «ناظِرُ العِمارَة» كان له الأمْرُ على المُهَنْدِسين والحَجّارين وصُنّاع العَمائِر ونحوهم [٤].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٤٠. شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ١١٥.

[٢] محمد محمد أمين: المرجع السابق ٢٤٢-٢٥٠.

[٣] القلقشندي: صبح الأعشى ٤: ٢٢؛ ابن ٦١٧.

[٤] M. VAN BERCHEM, *CIA* Égypte I, p. 742؛ حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف

وعادَةً ما كان «شَادُّ العَمائِر» يُخْتارُ من بين العارِفين بأُمُورِ الهَنْدَسَة والبِنَاءِ وذوي الأَمانَةِ والعِفَّة ، وكان من بين واجِباتِه الإشْرافُ على أرْبابِ الصِّناعات المُخْتَلِفَة في العَمائِر ، وحثُّهم في العَمَلِ مع التَرفُّقِ بهم والتَّلَطُّفِ معهم وتمكينُهم من أدَاءِ واجِباتِهم الدِّينية كالصَّلاة [1]. وقد انْتَقَدَ السُّبْكيُّ ما يعتمده بَعْضُهم من تَسْخير البَنَّائين وإجاعَتهم وإعْطائِهم من الأُجْرَة دون حَقِّهم ، وعَدَّ اسْتِعمالَهم فوق طاقَتهم من أقْبَحِ الحرُماتِ وأشْنَعِ الجراءات على الله تعالى في خَلْقِه ، خاصَّةً وأنَّهم يَعْتَمدونهم في بِنَاءِ المَسَاجِدِ والمَدَارِس [2].

ومن بين من تَوَلَّوا وَظيفَة «شادّ العَمائِر» الذين ذَكَرَهم المَقْريزيُّ : الوَزيرُ عَلَمُ الدِّين سِنْجِر الشُّجاعي مُدَبِّر الممالك الإسلامية في أيَّام السُّلْطان المَنْصُور قَلاوون ، فقد كان هو «الشَّاد» على عِمارَة مجموعة قَلاوون بيَنْ القَصْرَيْن (المَدْرَسَة والقُبَّة والمارِسْتَان) ، وأنْجَزَ كذلك عِمارَة «تُرْبَة الصَّالِح علي» (أمّ السُّلْطان فاطِمَة خَاتُون) بالقُرْبِ من المَشْهِدِ النَّفيسي سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م ، والأمير آقْ سُنْقُر شادّ العَمائِر السُّلْطانية في أيَّام الملك النَّاصِر محمد بن قَلاوون ، المتوفَّى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م ، الذي تُنْسَب إليه «قَنْطَرَة آقْ سُنْقُر» على الخَليج الكبير أمام قَبْو الكَرْماني و«الجامع» الذي أنْشَأه بسُوَيْقَة السَّبَّاعين على البِرْكة النَّاصرية ، فهو الذي أَشْرَفَ على عِمارَة الطَّبْلَخاناه تحت القَلْعَة سنة ٧٢٢هـ/١٣٢٢م . وعندما ذَكَرَ المَقْريزيُّ «جَامِعَ قُوصُون» أشَارَ إلى أنَّه «بَنَاه شادّ العَمائِر» وتَرَكَ بَياضًا محلّ اسْمه ، والأميرُ صَارِمُ الدِّين إبراهيم المعروف بشَادّ العَمَائِر السُّلْطانية أحد أُمَرَاء الطَّبْلَخانات وصَاحِب المَدْرَسَة الصَّارِمِيَّة عند قَنْطَرَة آق سُنْقُر وشَقّ الثُّعْبان ، وهذا دَليلٌ على أنَّ كِبارَ الأُمَرَاء كان لهم أيضًا مُشْرِفُون يتولون أمْرَ مُنْشآتهم الكبيرة . أمَّا «المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ الجَدِيدَة» التي أنْشأها السُّلْطانُ الظَّاهِر بَرْقُوق ، سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م ،

---

[1] حسن الباشا : المرجع السابق ٦١٧.
[2] السبكي : معيد النعم ١٢٩.

فقد تولّى أمْرَ عِمارَتِها الأمير جَهارْكس الخَليلي أمير آخُور.

وكان يَتَوَلّى إعْدادَ تَصْميم هذه العَمائِر ورَسْم مُخَطَّاطتها وقِطاعاتها وواجِهاتها مجموعةٌ من المُهَنْدِسين المُتَخَصِّصين، فيَذْكُر المَقْريزيُّ أنَّ المُهَنْدس الذي عَهِدَ إليه أحمد بن طُولُون بتصميم جامِعه أعَدَّ تَخْطيطًا للجامِع على الجُلُود ابْتَكَرَ فيه تَصْميم الجامِع بلا عُمُد إلّا عَمُودي القِبْلَة[1]، أي أنَّه اسْتَعاضَ عن الاسْتعانَة بالأعْمِدَة التي كانت تُجْلَب من الكنائِس بعَمَلِ الدّعامات المَصْنوعة من الأجُر والتي تحمل سَقْف المَسْجِد. وعندما تَحَدَّثَ المَقْريزي على بِنَاء مِئْذَنَة المَدْرَسَة الآقْبُغاوية الملحقة بالجَامِع الأزْهَر قال: «بَنَاها هي والمَدْرَسَة، المُعَلِّم ابن السُّيُوفي رئيس المُهَنْدسين في الأيَّام النَّاصرية، وهو الذي تَوَلّى بِنَاء جَامِع المارْديني خَارِج بابِ زَويلَة وبَنَى مِئْذَنته أيضًا». وليس ببعيدٍ أن يكون المُعَلِّم ابن السُّيُوفي هو الذي أشْرَفَ على بِناءِ الكثير من العَمائِر المُنْشأة في دَوْلَةِ النَّاصر محمد بن قَلاوون.

وتَوَلّى بِنَاء «المَدْرَسَة الظَّاهِرية الجَديدةِ» بيْنَ القَصْرَيْن المُعَلِّمُ شِهابُ الدِّين أحمد ابن الطُّولُوني المُهَنْدس، وهو مُهَنْدِسٌ ابن مُهَنْدِس من أُسْرَةٍ اشْتَغَلَت بالعِمارَة وقامَت بأعمالٍ مِعْمارية هامَّة في مصر والحِجَاز، يقول أبو المحاسِن: كان مُعلِّم السُّلْطان ومهندسه وشَادّ عَمائِره، ثم تَزَوَّجَ السُّلْطانُ الظَّاهِر بَرْقُوق بأخْته أو بنته، فنالَ بمُصاهَرَة السُّلْطان السَّعادَة وأثْرَى وصَارَ من ذوي الرِّئاسَة، وتَوَجَّه إلى عَمائر مكة غير مَرَّة آخرها في سنة ٨٠١هـ، وتوفّي عند عَوْدَتِه في صَفَرَ من هذا العام، ودُفِن بالمَعْلاة من مكة[2].

ومن خِلالِ الكتابات المنقوشة على قاعِدَتي مِئْذَنتي جَامِع المُؤَيَّد شيخ فوق بَدَنَتي بابِ زَويلة نَعْرف أنَّهما من «عَمَلِ العَبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالى محمد بن

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٩.

[2] أبو المحاسن: المنهل الصافي ٢: ٢٨٣–٢٨٤، ٩: ٢٩٨؛ وانظر كذلك ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ٩: ٤٧٧: ١١.

القَزَّاز» وكان الفَرَاغُ من عمل المِئْذَنَة الشرقية في أوَّل رَجَب سنة ٨٢٢هـ، والمِئْذَنَة الغربية في شهر شَعْبان سنة ٨٢٣هـ[١]. وأطْلَقَ القَلْقَشَنْدي على من يتولَّى ترتيب العَمائر وتقْديرها ويَحْكُمُ على أرْبابِ صناعاتها لَقَبَ «مُهَنْدِس العَمائِر»[٢].

*

* *

ومن أهَمّ ما يُمَيِّزُ «المَدْرَسَة» وُجودُ «المَكْتَبَة»، فقد حَلَّت «مَكْتَبَاتُ المَدارِس» أو «خَزائِنُ الكُتُب»، وعلى الأخصّ في العَصْرِ المملوكيّ، مَحَلَّ خَزائِن كُتُبِ الخُلَفاء وخَزائِن دُورِ العِلْم والحِكْمَة، يقُولُ القَلْقَشَنْديُّ - وهو يَكْتُب في مَطْلَع القَرْنِ التاسع الهجريّ / الخامس عشر الميلاديّ -: «أمَّا الآن فقد قَلَّت عِنايَةُ المُلُوكِ بخَزائِنِ الكُتُب اكْتِفاءً بخَزائِن كُتُبِ المَدارِس التي ابْتَنوها من حيث إنَّها بذلك أمَسّ»[٣]. فاشْتَمَلَت أغْلَبُ مَدَارِسِ القاهِرة التي أُنشِئت في العَصْر المملوكيّ على خَزائِنَ للكتب مثل: المَدْرَسَة الظَّاهِرية العَتيقَة والمَدْرَسَة النَّاصِرية محمد بن قَلاوون والمَدْرَسَة الحِجَازِيَّة والمَدْرَسَة الطَّيْبَرْسِيَّة والمَدْرَسَة المنكوتَمُريَّة والمَدْرَسَة المَلَكية والمَدْرَسَة السَّابِقِيَّة والمَدْرَسَة البَشيرية والمَدْرَسَة المحْمودية ومَدْرَسة أُلْجاي اليُوسُفي ومَدْرَسَة أمّ السُّلْطان شَعْبان والقُبَّة المَنْصورية[٤]. وقد وَصَفَ النُّوَيْري، المتوفَّى سنة

---

[١] وراجع حول هذا الموضوع مقال حسن عبد الوهاب المهم: «توقيعات الصُّنَّاع على آثار مصر الإسلامية»، مجلة المجمع العلمي المصري *BIE* ٣٦ (١٩٥٣-١٩٥٤)، ٥٣٣-٥٥٨؛ D. BEHRENS ABOUSEIF, «Muhandis, Shâd Mu'allim - Note on the Building Craft in the Mamluk Period», *Der Islam 72 (1995), pp.293-309.*

[٢] القلقشندي: صبح الأعشى ٥: ٤٦٧.

[٣] نفسه ١: ٤٧٦.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥١٠، ٥٢٠، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٨، ٥٥٤، ٥٧١، ٥٩٢، ٦١٢، ٦١٦، ٦٣٦، ٦٦٦؛ وانظر كذلك، عبد اللطيف إبراهيم: «المكتبة المملوكية» بحث في كتاب دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة ١٩٦٢، ١-٨٦؛ زبيدة =

٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، خِزَانَة القُبَّة المَنْصُورية بأنَّ بها «من الخَتْمات الشَّريفَة والرَّبْعاتِ المَنْسوبة الخَطّ وكُتُبِ التَّفْسير والحَديث والفِقْه واللُّغَة والطِّبّ والأَدَبِيَّات ودَواوين الشُّعَراء شيءٌ كثير»؛ وأنَّه رُتِّبَ لخازِنِ كُتُبِها في كُلّ شهرٍ أربعون دِرْهَمًا [١]. وذَكَرَ المَقْريزي ـ الذي كَتَبَ بعد النُّوَيْري بنحو ثلاثة أرْباعِ القَرْن ـ أنَّه «قد ذَهَبَ مُعْظَمُ هذه الكُتُب وتَفَرَّقَ في أيْدي النَّاس».

ولم يَقْتَصِر إنْشَاءُ خَزَائِن الكُتُبِ على المَدارِس المملوكية فقط، بل أُلْحِقَت أيضًا بالجَوامِع والخَوانِك، الرُّبُط «خَزائِنُ للكُتُب»، فعندما أنشأ الأميرُ عِزُّ الدِّين أيْدَمُر الخَطيري جامِعَه بِبُولاق، سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م، «جَعَلَ فيه خِزَانَة كُتُبٍ جَليلَة نَفيسَة... وَوَقفَ عليها عِدَّة أوْقافٍ جَليلَة» [٢]، كما كانت هناك خِزَانَةُ كُتُبٍ في كُلٍّ من الخانْقاه البَكْتَمُرية بالقَرَافَة الصُّغْرىٰ ورباطِ الآثار الواقع خارِج مَدينَة مصر على النِّيل [٣].

وكانت خِزَانَةُ الكُتُب تَحْتَلُّ مَكانًا رَئيسًا كجزءٍ لا يتجزَّأ من المَدْرَسَة المملوكية، فهي ليست قائمةً بذاتها في مبنًى مُسْتَقِلّ أو مُلْحَقٍ بالمَدْرَسَة، بل تُوجَد ضمن عِمارَة المَدْرَسَة نفسها في مَكانٍ مُتَوَسِّطٍ ومُناسِبٍ من البِنَاء كُلِّه بين الإيوانات الأربعة التي كانت بها مَساكِنُ الطَّلَبَة لِيَسْهُل الوُصولُ إليها وليكون مَوْقِعُها وَظيفيًّا، وغالبًا ما تكون خِزَانَةُ الكُتُب في إيوانِ القِبْلَة بالذَّات أو مُلْحَقَة بقُبَّةِ المَدْفَن، وذلك حتى تكون كُتُبُها في مُتناوَل الجميع من العُلَماء والطَّلَبَة والدَّارسين في مختلف الإيوانات؛ فكانت دائمًا قريبةً من مَساكِن الطَّلَبَة بها وفي مَكانٍ مُرْتَفِع عن أرْضِيَّة الشَّارِع وبعيدة في الوَقْت نفسه عن دَوْراتِ المياه والرُّطُوبَة، لذلك كان

= محمد عطا: «مكتبات المدارس «خزانة الكتب» في العصرين الأيوبي والمملوكي» في كتاب: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، تاريخ المصريين- ٥١، القاهرة ١٩٩٢، ٢٠١- ٢٢٦.

[١] النويري: نهاية الأرب ٣١: ١١١.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٥١.

[٣] نفسه ٤: ٧٧٠، ٨٠٠.

إيوانُ القِبْلَة الذي به المِحْرابُ أو قُبّةُ المَدْفَنِ خَلْفه هو أَنْسَبُ مَكانٍ لها [١].

٣ ـ الخَـــوَانِكُ

الخَوانِكُ (الخَوانِقُ) هي المُؤَسَّسَةُ الدِّينية الثَّالِثَة التي انْتَشَرت في القاهِرة وظَواهِرِها، على الأخَصِّ في العَصْرِ المملوكيّ [٢]. حقيقَةً أنَّ صَلاحَ الدِّين يُوسُف ابن أيُّوب حَوَّلَ أحَدَ الدُّورِ الفاطِمية المواجهة لدارِ الوَزارَة الفاطِمية الكبرىٰ (التي حَلَّ مَحَلَّها الآن خانْقاه بَيبَرْس الجاشَنْكير بشارع الجمالية) إلى دُوَيْرَة للصُّوفِيَّة عُرِفَت بـ «الخانْكاه الصَّلاحيَّة سَعيدِ السُّعَداء» [٣]، إلَّا أنَّ انْتِشَارَ الخَوانِك لم يَبْرُز بشَكْلٍ واسِعٍ إلَّا في العَصْرِ المملوكيّ، وتَواكَبَ ذلك مع انْتِشارِ التَّصَوُّف في مصر في هذا العَصْر.

وليس هنا مَجالُ الحَديث عن التَّصَوُّف وكيفية انْتِشَارِه في مصر، ولكن من خِلالِ عبارَةٍ للمَقْريزي يَصِفُ فيها وَضْعَ المُتَصَوِّفة في عَصْرِه، نَعْرِفُ أنَّ التَّنْظيم الصُّوفيّ وَصَلَ في مَطْلَعِ القرن التاسع الهجريّ / الخامس عشر الميلاديّ إلى حَالةٍ واضِحَةٍ من التَّدَهوُر، يقول المَقْريزيُّ:

> «وتَلاشَى الآن حَالُ الصُّوفِيَّة ومَشايخها حتى صَارُوا من سَقْطِ المَتَاع لا يُنْسَبُون إلى عِلْمٍ ولا دِيانَةٍ، وإلى الله المُشْتَكىٰ!» [٤].

---

[١] عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ٤٠ – ٤٢؛ صالح لمعي: التراث المعماري في مصر ٢٠.

[٢] انظر أصْل الكلمة ومعناها، في المواعظ ٤: ٧٢٤. وكان الظهور الأول للخوانك في إيران في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ونَمَت في القرن الخامس الهجري. واستلزم تخطيطها وجود قسمين: قسم لاجتماع الشيخ بمُريديه أطلق عليه بالفارسية «جماعت خانه»، وقسم آخر يَضُمُّ الخَلاوي والحُجُرات والمَطْبخ. (دولت عبد الله: معاهد تزكية النفوس في مصر ٢٣).

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٧٢٧.

[٤] نفسه ٤: ٧٢٦.

وتَرْجِعُ جَميعُ الخَوانِك التي وَصَلَ إلينا خَبَرُها، وعَدَدُها اثنتان وعشرون خانْكاه، إلى العَصْرِ المملوكيّ البَحْريّ، فيما عَدَا «الخانْكاه الصَّلاحِيَّة سَعيد السُّعَداء» التي تَرجِعُ إلى العَصْرِ الأيُّوبي والتي نَستَطيع فقط تَحْدِيد مَوْضِعها ولكن ما أُدْخِل عليها من تَعْديلات متتالية لا يَجْعَلُنا نَكَوِّن أيَّة فكرة عن هَيْئتها الأولىٰ، ، «الخانْكاه الظَّاهِرِيَّة بَرْقُوق»، «خانْكاه يُونُس الدَّوَدار»، «خانْكاه ابن غُراب» التي تَرْجِعُ إلى صَدْرِ العَصْرِ المملوكيّ الشَّرْكسيّ.

كانت «خانْكاهُ سَعِيد السُّعَداء» هي أوَّلَ دارٍ خُصِّصَت للصُّوفِيَّة في مصر، حيث جَعَلَها صَلاحُ الدِّين بعد استيلائه على السُّلْطة في مصر «بِرَسْم الفُقَراءِ الصُّوفِيَّة الوارِدين من البلاد الشَّاسِعة»[١]. وتَدُلُّ هذه الإشَارَةُ على أنَّ النِّظَامَ الصُّوفِيّ لم يكن قد عُرِفَ بَعْدُ في مصر الخارِجَة من ظِلِّ الدَّوْلَة الفاطِمية ذات الإيديولوجية الإسْماعِيلية؛ ووَلَّىٰ صَلاحُ الدِّين عليهم شَيْخًا منهم، ووَقَفَ عليهم بُسْتانَ الحَبَّانِيَّة بجوار بِرْكَة الفيل خارج حُدُودِ القاهِرَة الجنوبية وقَيْساريَّة الشَّرْب بالقاهرة وناحية دَهْمَرُو من البَهْنَساوية. وأُطْلِقَ على شَيْخ هذه الخانْكاه لَقَبُ «شَيْخ الشُّيُوخ»، وظَلَّ كذلك إلى أن بَنَى النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون «خانْكاه سِرْياقُوس»، سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، فأصْبَحَ شَيْخُ هذه الخانْكاه هو الذي يُدْعَى بـ«شَيْخِ الشُّيُوخ». ولكن المَقْريزي يُضيفُ أنَّه بعد الحَوَادِث والمِحَن من سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م «اتَّضَعَتِ الأحْوالُ وتَلاشَتِ الرُّتَب فتَلَقَّبَ كُلُّ شَيْخ خانْقاه بـ «شَيْخ الشُّيُوخ»[٢].

وأوَّلُ مُنْشَأةٍ أُنْشِئتْ بالقاهرة بغَرَضِ أن تكون خانْكاهًا للصُّوفيَّة هي «الخانْكاه البُنْدُقْدارِيَّة»، المعروفة بـ «زاوية الأبار»، التي أنشأها الأميرُ عَلاء الدِّين البُنْدُقْدار سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م بالقُرْبِ من الصَّلِيبَة، «وجَعَلَها مَسْجِدًا لله تَعالى

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٧٢٧.

[٢] نفسه ٤: ٧٢٩.

وخانْقاهًا، ورَتَّبَ فيها صُوفِيَّةً وقُرَّاءً»[١]. وما تزالُ بقايا هذه الخانْكاه، وتَشْتَمِل على قُبَّتَيْن للدَّفْنِ، باقِيَةً إلى الآن في شارع السُّيُوفِيَّة بجوار قَصْرِ الأمير طاز.

أمَّا أوَّلُ خانْكاه بمعنى الكلمة أُنْشئت بالقاهِرَة فـ «خانْكاه بَيْبَرْس الجاشْنْكِير» التي بناها الأميرُ بَيْبَرْس الجاشنكير بين سنتي ٧٠٦هـ - ٧٠٩/ ١٣٠٦ - ١٣٠٩م قَبْل تَوَلِّيه السَّلْطَنَة في مَوْضِع دارِ الوَزارَة الكبرىٰ الفاطمية بالقُرْبِ من بابِ النَّصْر. وهي الخانْكاه الوحيدة الباقية في القاهرة ذات تَخْطيطٍ مُتَعامِد (مثل تَخْطيط المدارِس)، ووَصَفَها المَقْريزيُّ بأنَّها «أجَلُّ خانْكاه في القاهِرَة بُنْيانًا وأوْسَعُها مِقْدارًا وأتْقَنُها صَنْعَةً»[٢]. ونَظَرًا لحُسْنِ بنائِها «لم يُحْتَج فيها إلى مَرَمَّة» منذ بُنِيَت إلى وَقْتِه، وأنَّها «مَبْنِيَّةٌ بالحَجَر وكُلُّها عُقُودٌ مُحْكَمَةٌ بَدَلَ السُّقُوفِ الخَشَبِ، وأنَّه سَمِعَ غَيْرَ واحِدٍ يقول إنَّه لم تُبْنَ خانْكاه أحْسَن من بِنائِها»[٣]. وفَتَحَ بَيْبَرْس الجاشْنْكير بِبِناءِ هذه الخانْكاه في قَلْبِ القاهِرَة الفاطِمية، البابَ أمامَ الانْدِماج الكامل لمُؤَسَّسَة «الخانْكاه» في المجتمع المملوكيّ وأكَّدَ الأهَمِيَّة التاريخية لخانْكاهِه على الدَّوام.

واشْتَمَلَ هذا المُجَمَّع البنائي على: خانْكاه للصُّوفية، ومَسْكَنٍ، ورِباطٍ وقُبَّةٍ بها مِحْرابٌ وضَريحٌ برَسْم دَفْنِ الواقِف.

وعلى عَكْسِ خانْكاه بَيْبَرْس، فإنَّ خانْكاه شَيْخُو العُمَري - التي أنْشَأها الأميرُ شَيْخُو سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م بخُطِّ سُوَيْقَة مُنْعِم جنوب القاهِرَة تجاه جامِعِه[٤] (شارِع الصَّلِيبَة الآن) - ذاتُ تَخْطيطٍ لا نَظيرَ له في عِمارَة المَدارِس أو الخَوانِك، حيث تتَكَوَّن من إيوانٍ واحِدٍ عريضٍ هو إيوانُ القِبْلَة وتَحْتَلُّ خَلاوي الصُّوفية جانبين مُتقابلين في الصَّحْنِ، أمَّا الجانِبُ الرَّابع المواجه لإيوان القِبْلَة فعِبارَة عن جِدارٍ ذي

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٧٥٤- ٧٥٦.

[٢] نفسه ٤: ٧٣٢.

[٣] نفسه ٤: ٧٤٠.

[٤] نفسه ٤: ٧٦٠- ٧٦٤.

إيوانٍ صغير يقع بين مجموعةٍ من الغُرَفِ غير المنتظمة وذلك بسبب تَصْميم الدَّوْر الأرضي شِبْه المُثَلَّث في هذه الجِهَة من الصَّحْن لالتزام الجِدار الخارجي بخَطِّ تَنْظيم الطَّريق. وإلى جَانِب الخَلاوي المُشْرِفَة على الصَّحْنِ تُوجَد مجموعةٌ أخرى من الخَلاوي تُطِلُّ على الدَّهاليز الدَّاخلية [١].

وعلى ذلك فإنَّ التَّخْطيطَ المتعامِد للمَدْرَسَة ـ المُشْتَمل على إيوانات ـ الذي لا يَتْرُك أيَّ فَراغٍ داخلي لتُطِلّ منه الخَلاوي على الصَّحْنِ، لم يُتَّبع في عِمارَة الخَوانِك التي رأت ضَرُورَة إشْرافِ الخَلاوي على الصَّحْنِ الدَّاخلي للخانْقاه [٢].

وأدَّى انْتِشارُ التَّصَوُّف في القرنِ الثامن الهجريّ/ الرابع عشر الميلاديّ وانْدِماجه في الحياة الدِّينية الشَّعْبية إلى التَّراجُع التَّدْريجيّ لدَوْرِ الخَوانِك كمكانٍ للانْعِزال، في الوَقْتِ نفسه الذي فَتَحَت فيه الجَوامِعُ والمدارِسُ أبْوابَها للمُمارَسات الصُّوفِيَّة. لذلك جَمَعَت العَديدُ من المُنْشآت الدِّينية التي أُنْشِئَت في القَاهِرَة في القرنِ الثَّامِن الهجريّ/ الرّابع عشر الميلاديّ بين وَظيفتيّ المَدْرَسة والخانْكاه، وذَكَر المَقْريزيُّ خَمْسًا منها تحت المَدْخَلَيْن. وأقْدَمُ هذه المُؤسَّسات «المَدْرَسَةُ الجاوْلِيَّة» على جَبَلِ يَشْكُر (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، التي لا يُقَدِّمُ لنا النَّصُّ التأسيسيّ للمَبْنى أيَّ توضيحٍ إضافيّ لوَظيفته، فتَخْطيطُ المبنى المُكَوَّن من إيوانٍ مُفْرَد تُحيطُ به من الجِهات الأخرى خَلاوٍ، تَصْميمٌ شَاذٌّ عن تَصْميم المَساجِد والمَدارِس ويُؤكِّدُ أنَّه أقْرَبُ إلى تَصْميم الخَوانِك وأنَّه أُضِيفَ إليه فيما بعد دُرُوسٌ في الفِقْه [٣].

---

[١] D. BEHRENS - ABOUSEIF, «Change in Function and Form of Mamluk Religious Institutions», *An.Isl.* XXI (1985), p. 80.

[٢] *Ibid.*, p. 81.

[٣] *Ibid.*, p. 81؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١٢٥.

ويَصْدُقُ الشيءُ نفسه على خانْكاه مُغُلْطاي (٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) بحارَة قَصْر الشَّوك بالجَمَالية ، وهو أيضًا ذو تَصْميم غَريب عِبارَة عن صَحْنٍ مَكْشُوفٍ مُرَبَّع الشَّكل يُحيطُ به إيوانٌ مُفْرَد ومن الجِهاتِ الأخرى عُقُودٌ سِتِّينيَّة كبيرة . ومن جهةٍ أخرى فإنَّ خانْقاه آقْبُغا المُلْحَق بالجَامِع الأزْهَر (٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م) هو في الأصْلِ مَدْرَسَةٌ أُضِيفَ إليها حُضُورُ الصُّوفية ؛ مثلما حَدَثَ مع «جَامِع شَيْخُو» (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ؛ الذي جَعَلَ فيه مُنْشِؤه «خُطْبَةً» وعشرين صُوفِيًّا ... ثم لَمَّا عَمَّرَ الخانْقاه تجاه الجَامِع نَقَلَ حُضُورَ الصُّوفِيَّة إليها وزَادَ عِدَّتَهُم [١]. والخانْكاه الرَّابِعَة التي ذَكَرَها المَقْريزي في المدارس هي : «الخانْكاه المِهْمَنْدارية» (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م) . أمَّا الخانْكاه الخامسة والأخيرة فهي «الخانْكاه الظَّاهِرِيَّة» التي أنْشَأها السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَرْقُوق بيَيْنَ القَصْرَيْن ، ووَصَفَتْها حُجَّةُ وَقْفِ الظَّاهِر بَرْقُوق بـ «الخانْقاه المَدْرسَة» و «المَدْرَسَة الخانْقاه» [٢]، ويقولُ عنها المَقْريزيُّ : «واسْتَقَرَّت جَامِعَ خُطْبَةٍ لإقامَة الجُمُعَة بها ، وخانْكاه ، ودُرُوسِ عِلْمٍ أرْبَعَة للفِقْه في المذاهِب الأربعة ودَرْس تَفْسير ودَرْس حَديث ودَرْس قِراءات» [٣] كان يحضره كُلٌّ من الطَّلَبَة والمُتَصَوِّفَة ، واشْتَمَلَ المُجَمَّع البنائي كذلك على قُبَّةٍ ضَريحيةٍ لدَفْنِ المُنْشِئ (رَغْم أنَّه أوْصَى بعد ذلك بدَفْنِه في الصَّحْراء) .

وقد أوْضَحَتْ حُجَّةُ الوَقْفِ وَظائِفَ المبنى بوضوحٍ ، فذَكَرَت «أنَّ الإيوانَ القِبْليّ الذي بصَدْرِه المِحْرابُ ، والإيوانَ البَحْريّ المقابل له ، جَعَلَهُما مَسْجِدَيْن لله تعالى تُقامُ بهما الصَّلَواتُ وتُصَلَّىٰ فيهما الجماعاتُ ، ويُعْتَكَفُ فيهما على الطَّاعات والعِبادات ... وأمَّا الإيوانان الشَّرْقيّ والغَرْبيّ اللذان بدور القاعَة المذكورة فإنَّه

---

[١] D. Behrens - Abouseif, *op. cit.*, p.81؛ المقريزي : المواعظ ٤ : ٢٥٨.

[٢] حُجَّة وَقْف السُّلْطان بَرْقُوق ، نَشَرَ أجزاءً منها صالح لمعي مصطفى S. Lamei Mustafa, *Madrasa, Hanqâh und Mausoleum des Barquq in Kairo*, Glückstadt 1982, pp. 124, 125, 133, 134, 135.

[٣] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٦٨٦.

وَقَفَهُما لِيُشْتَغَل فيهما بالعِلْمِ الشَّريف ويُصَلَّىٰ فيهما على العادَة، وجَعَلَ حُكْمَهُما حُكْم المَدَارِس»[١].

وبما أنَّ البِنَاءَ الذي شَيَّدَه الظَّاهِرُ بَرْقُوق كان جَامِعَ خُطْبَةٍ ومَدْرَسةً وخانْكاه في آنٍ واحِد، فإنَّ خَلاوي (بُيُوت) الصُّوفية لم تكن تُشْرِفُ على الصَّحْنِ ذي التَّخْطيط المُتعامِد الذي كان يَشْغَله مَكانُ الصَّلاةِ والمدارِس (مثلما كان الحالُ مثلًا مع الخانْقاه البَيْبَرْسية وخانْقاه شَيْخُو)، وإنَّما كانت تَقَعُ في أرْكانِ المبنى وتُطِلُّ على الدَّهاليز والمَمَرَّات الدَّاخلية، كما أنَّ ثمانيةً وأربعين من خَلاويها (بيوتها) كانت بغير شَبابيك وتَسْتَمِدُّ إضَاءَتها من أبْوابِها[٢]؛ ويَرجِعُ السَّبَبُ في ذلك إلى وُقوعِ هذا المَبْنى في وَسَطِ منطقةٍ مُكْتَظَّةٍ في قَلْبِ المَدِينَة الفاطِمية، الأمْرُ الذي لم يَسْمَح بإيجادِ فَراغاتٍ في وِاجهَاتِه لهذا الغَرَضْ.

ويَصْدُقُ هذا الوَصْفُ كذلك على «المَدْرَسَةِ الأَشْرَفِيَّة» التي بدأ في إنْشَائها، سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، السُّلْطانُ الشَّهيدُ الملكُ الأشْرَفُ شَعْبان بن حسين، ولم تَكْمُل عِمارَتُها، على الصُّوَّة مُقابِل بابِ القَلْعَةِ على رأسِ سُوَيْقَةِ المُنَبِّب والتَّبَّانَة. وأرادَ أن يُضاهي بها مَدْرَسَة عَمِّه السُّلْطان حَسَن فبَنَى بها إيوانًا كبيرًا جَاءَ عَقْدُ قَبْوِه أوْسَع من قَبْوِ مَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن[٣]. وجَاءَ في وَقْفِيَّة المُصْحَفِ الذي وَقَفه السُّلْطانُ الأشْرَفُ شَعْبانُ على المَدْرَسَة وَصْفَها بـ «الخانْقاه والمَدْرَسَة والجامِع الأشْرَفي»[٤]، يُؤَيِّدُ ذلك ما ذَكَرَه المَقْريزيُّ وأبو المَحاسِن من أنَّ السُّلْطانَ الأشْرَف شَعْبان «أخْلَعَ، وهو نازِلٌ بسِرْياقُوس، في شوَّال سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، على الشَّيْخ ضِياء الدِّين القَرْمِيّ الحَنَفيّ باسْتِقْرارِه شَيْخَ شُيُوخِ المَدْرَسة التي أنْشأها

---

[١] S. LAMEI MUSTAFA, *op.cit.*, 124.

[٢] *Ibid.*, p. 123.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٦٦١.

[٤] نفسه ٤: ٦٦١هـ[٣].

بالصُّوَّة، وقد أشْرَفَت على الفَراغ، وأبْطَلَ هذا اللَّقَب من مُتَوَلِّي مَشْيَخَة خانْكاه سِرْياقُوس»[١]. ولكنَّ عَدَمَ إكمالِ بِنَاءِ المَدْرَسَة ثم نَقْضَها في أيَّام النَّاصِر فَرَج وبناء المُؤَيَّد شَيْخ لمارِسْتانه في موضعها بعد ذلك[٢]، أضَاعَ علينا مَعْرِفَة الشَّكْل الذي كانت عليه هذه «الخانْكاه المَدْرَسة الجَامِع»، وهي بذلك تَسْبِق المُجَمَّعَ الذي ضَمَّ خانْكاه ومَدْرَسَة وجَامِع الظَّاهِر بَرْقُوق.

وقِيامُ مثل هذه المُنْشآت في قَلْبِ المَدِينَة الفاطِمية يُظْهِرُ بوُضُوحٍ مَدَى انْدِماجِ التَّصَوُّفِ في الحياة المَدنية القاهرية، وأنَّ المُتَصَوِّفَة بدأوا يُتابعون نِظامَ المَدْرَسَة؛ مِمَّا أكسبهم تَعْليمًا دُنْياوِيًّا مَكَّنَهم من تحسين مَجْرى نَشَاطِهم؛ وفي الوَقْتِ نفسه اكْتَسَبَ الطَّلَبَةُ معلومات عن المَدْخَلِ الصُّوفيّ للدِّين من خِلالِ مُعايَشَتِهم للصُّوفِيَّة. وعن طريق هذا الدَّمْج تَخَلَّت مُؤسسَةُ التَّصَوُّف جُزْئيًّا عن طبيعَتها الانْعِزالية[٣].

وأَطْلَقَ الرَّحَّالَةُ المَغْرِبي ابنُ بَطُّوطَة ـ الذي زَارَ القاهِرَة في أثْنَاء عَهْدِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون ـ على «خَوانِك» القاهِرَة اسْم «الزَّوايا»، باعتباره الاسْم الشَّائع في شمال أفريقيا للدَّلالة على هذه المُؤَسَّسَة، وقَدَّمَ لنا وَصْفًا غَنِيًّا لما كان يَدُورُ بداخِلِها[٤].

---

[١] المقريزي: السلوك ٢٧٣:٧- ٢٧٤؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١١: ٧٠.

[٢] المقريزي: المواعظ ٤: ٧٠٢.

[٣] D. Behrens - Abouseif, *op.cit.*, p.84.

[٤] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبد الهادي التازي، الرباط ١٩٩٧، ١: ٢٠٤-٢٠٥.

٤ ـ الرُّبُط والزَّوَايَا

ارْتَبَطَ بالخَوانِكِ ونَشَاطِها الصُّوفِيّ في العَصْرِ المَمْلُوكي مُؤسَّسَتان أُخْرَيان هما: الرُّبُط (م. رِبَاط) والزَّوايا (م. زَاوِيَة)، حيث ذَكَرَ المَقْريزِيُّ ـ حتى عصره ـ اثني عشر رِباطًا وستًّا وعشرين زاوِيَةً. وقد ذَكَرَ النُّعَيْمِيّ صَاحِبُ كِتابِ «الدَّارِس في تاريخ المَدَارِس» ـ وهو مُؤَرِّخٌ شاميٌّ عاشَ في نهاية عَصْر المماليك الشَّراكسة ـ اعْتمادًا على رِوَايَةٍ لكمالِ الدِّين الدَّميري ـ الذي عاشَ حتى مَطْلَع القرن الثامن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ ـ أنَّ العُلَماءَ «لم يَتَعرَّضُوا للفَرْقِ بين [الخانْكاه] وبين الزَّاوِيَة والرِّباط، وهو المَكانُ المُسَبَّل للأَفْعالِ الصَّالِحَة والعِبَادَة»[١]. وحَقيقَةُ الأمْرِ أنَّه تُوجَدُ فُرُوقٌ جَوْهريةٌ بين هذه المُؤسَّساتِ الثلاثة كما تَوَصَّلَت إلى ذلك دراساتُ محمد محمد أمين، وليانور فرنانديز LEONOR FERNANDES، ودونالد ليتل DONALD LITTLE[٢]. وتتَلَخَّصُ هذه الفُرُوقُ في:

ـ أنَّ الخانْكاه عُرِفَت في مصر منذ عَصْرِ صَلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب مع إنْشَاء الخانْكاه الصَّلاحية سَعيد السُّعداء.

ـ تَطَوَّرت الخَوانِكُ تَطَوُّرًا كبيرًا في العَصْر المملوكيّ مع تَطوُّر سَائر المُؤسَّسات الوَقْفِيّة التي انْتَشَرَت في هذا العَصْر وأُدْمِجَت بذلك في المجتمع المملوكيّ.

---

[١] النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٢: ١٩٥.

[٢] محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م، القاهرة ١٩٨٠، ٢٠٤-٢٢٤؛ L. FERNANDES, *The Evolution of Sûfî Institution in Mamluk Egypt: The Khânqâh*, Berlin 1988; D.P. LITTLE, «The Nature of *Khânqâhs, Ribats* and *Zâwiyas* under the Mamlûks» in *Islamic Studies presented to Charles Adams*, W.B. HALLAQ and D.P. LITTLE (eds.), Leiden 1992, pp. 91-105.

ـ اعْتُبِرت «الخَوانِكُ» مَساجِدَ وبُيُوت للصُّوفِيَّة واشْتُرِطَ فيمن يُقيمُ بها أن يكون مُتَّبِعًا لطَرِيقَةِ التَّصَوُّف. أمَّا «الرُّبُطُ» فهي عبارَةٌ عن مَلْجأ يكون مأوًى لفُقَراءِ المسلمين أو عُتَقاءِ الوَاقِف أو الجُنْدِ البَطَّالين ولا يُكَلَّفُون إثْبات اسْتِحْقاقٍ أو زي الفَقْر[1].

وكانت أماكِنُ إعَاشَة المُتَصَوِّفَة في الغالِب جُزْءًا من الخانْكاه، ولكن في بعض الحالات كان يُطْلَق عليها «الرِّباط» مثلما وَرَدَ في حُجَّة وَقْفِ السُّلْطان النَّاصِر محمد بن قَلاوون على خانْكاه سِرْياقُوس، فقد حَدَّدَت هذه الحُجَّة بوُضُوحٍ أنَّ الخانْكاه هِي «مكانُ اجْتماع الصُّوفِيَّة لممارَسَة وَظِيفَة التَّصَوُّف من تَهْليلٍ وأذْكارٍ وتَسْبيحٍ واسْتِغْفار»، بينما ذَكَرَت أنَّ المَوْضِعَ الذي أطْلَقَت عليه «الرِّباط» والمشتمل على ستين بَيْتًا «جُعِلَ مأوًى للفُقَرَاءِ الوارِدين إليه، والرِّباطات الباقيات المُشْتَمل كُلٌّ منهما على أحَدٍ وعشرين بَيْتًا جُعِلَت برَسْم سُكْنَى الفُقَراء الصُّوفِيَّة المقيمين بهذا المكان على الدَّوام والاسْتِمْرار»[2].

وبدأت الخَوانِكُ منذ مَطْلَع القرن الثامن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ بإيعازٍ من طَبَقَة العُلَماء، المُرْتابين في الصُّوفِيَّة والتَّصَوُّف، بإفْساحِ مِساحَةٍ لتَدْريس العُلُوم الدِّينية، هكذا عُيِّنَ شَيْخٌ لتدريس عُلُومِ الحَديث لثلاثين طالِبًا في خانْكاه بَيْبَرْس الجاشَنْكير.

ومع إنْشَاءِ «المَدْرَسَة المِهْمَنْدارِيَّة» بشارع التَّبَّانَة، سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م، جَمَعَت المَدْرَسَةُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بين وَظيفَة المَدْرَسَة ووَظِيفَة الخانْكاه، بحيث أصْبَحَ الطَّلَبَةُ هم أنفسهم المُتَصَوِّفَة. وأُشيرَ إلى بعض هذه المُؤَسَّسات على أنَّها خَوانِكُ يُدَرَّسُ بها الفِقْه، وإلى بعضها الآخَر باعْتباره مَدارِسَ اشْتُرِطَ على طَلَبتها حُضُورُ

---

[1] محمد محمد أمين: المرجع السابق ٢١٩، ٢٢١.
[2] نفسه ٢٢١.

وَظيفَة التَّصَوُّف. وقد اتَّضَحَ هذا الأُنْمُوذَجُ على الأخَصّ مع مَدْرَسَةِ وخانْكاه الظَّاهِر بَرْقُوق التي أشَرْتُ إليها منذ قليل.

وعلى خِلافِ الخانْكاه والرِّباط، كانت «الزَّاوِيَةُ» تَنْشأ في الغالِب بِرَسْم شَخْصٍ مُعَيَّنٍ يَنْقَطِعُ فيها للعِبادَة، أو بِرَسْم شَيْخٍ يُمَثِّل «طَريقَةً صُوفِيَّةً» مُعيَّنَةً؛ وعند وَفاةِ الشَّيْخ كان يَخْلُفُه فيها شَيْخٌ من «الطَّريقَة» نفسها. ومع تَراجُعِ دَوْر الخَوانِك آلَت بعضُ وَظائِفِها إلى الزَّوايا، وظَهَرَ لذلك نَمَطان من الزَّوايا في القرن التاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ:

- الزَّاوِيَةُ التَّقْليدية التي تُنْشأ من أجْلِ طَريقَةٍ صُوفِيَّةٍ مُعَيَّنَة يتمّ تمويلها بواسطة الشَّيْخ نفسه أو بواسِطَة أحَد المماليك أو الأعْيان، وعادَةً ما تَرْتَبط هذه الزَّوايا بالطَّبَقَة الحاكمة.

- الزَّاوِيَةُ التي تُؤدِّي أيضًا دَوْر المَسْجِد أو الرِّباط والمُسْتَقِلَّة نِسْبيًّا عن الطَّبَقَة الحاكمة، والتي يُمارَسُ فيها التَّصَوُّف السُّنِّي، وتُقامُ فيها كذلك الصَّلَواتُ مثل المَساجِد، وتُوَفِّر في الوَقْتِ نفسه الطَّعامَ والإقامَةَ للفُقَراءِ مثل الرُّبُط [١].

*
* *

وهكذا، فإنَّ المَدْرَسَة والخانْكاه ـ على عَكْسِ المَساجِدِ الجامِعَة ومَساجِدِ الصَّلَواتِ الخَمْس ـ نَمَطٌ من المُؤَسَّساتِ الدِّينية الإسلامية لم تَنْشأ في الأساسِ لاسْتِخْدام جُمْهُورِ المسلمين، وإنَّما ليتعامَل معها طَوائِفُ مُعَيَّنةٌ هم الطَّلَبَة والمُدَرِّسُون

---

[١] L. Fernandes, «Some Aspects of the Zâwiya in Egypt at the Eve of the Ottoman Conquest», *An.Isl.* XIX (1983), pp. 12, 14; D.P. Little, *op.cit.*, p. 95.

والمُتَصَوِّفَة ، فجَمَعَ تَخْطيطُها لذلك بين عِمارَة المُنْشآتِ الدِّينية من ناحية ، وعِمارَة المُنشآتِ المَدَنية من ناحيةٍ أخرى .

فاسْتَمَدَّت المدارِسُ والخَوانِكُ من المساجدِ الجامِعَة التَّوَجُّه نحو الكَعْبَة ووُجُودَ المِحْراب ثم وُجودَ المِنْبَر بعد فترة وكذلك وُجودَ المِئْذَنَة ؛ واسْتَمَدَّت من العِمَارة المَدَنِيَّة اشْتِمالِها على وَحْدَاتٍ سكنيةٍ ووُجُود مَطابِخَ وحَمَّامات . وفي البداية كانت الوَحْداتُ السَّكنية مُتداخِلَةً في نسيج المُنْشأة مثلما هو الحالُ مع الخانْكاه الرُّكنية بَيْبَرْس والمَدْرَسَة النَّاصِرية حَسَن ، ولكن مع الوَقْت انْفَصلَت عنها ، مِمَّا أدَّى إلى ضَيَاع كُلِّ أثَرٍ لهذه الوَحْدات الآن ، خاصَّةً ما كان مُلْحقًا منها بالمؤَسَّسات التي أُنْشِئَت داخل حُدُود المَدِينَة الفاطِمية (مَدْرَسَة قلاوون ومَدْرَسَة الظَّاهِر بَرْقُوق) ؛ بينما فَصَلَت المدارِسُ التي أُقيمَت في نهاية القرن الثامن الهجريّ / الرابع عشر الميلاديّ تمامًا بين مَبْنَى المَدْرَسَة ووَحْدات الإعاشَة مثل حال مَدْرَسَة أمّ السُّلْطان شَعْبان بالتَّبَّانَة ومَدْرَسَة أُلْجاي اليُوسُفي بسُوقِ السِّلاح .

العِمَارةُ المَدَنِيَّةُ زَمَنِ المماليك

كان طَبيعيًّا بعد أنْ فَتَحَت القاهِرَةُ أبْوَابَها لعَامَّةِ الشَّعْب بَدْءً من العَصْرِ الأيُّوبيّ أنْ يَتَّخِذَ أمَرَاءُ المماليك وكِبَارُ رِجَالِ الدَّوْلَة مَنَاطِقَ جَدِيدة لبِنَاءِ دُورِهم وقُصُورِهم . هكذا امْتَدَّ العُمْرَانُ ليَشْمَل ظَوَاهِرَ القاهِرَة الجَنُوبِيَّة والشَّماليَّة والبَرّ الغَرْبيّ للخَليج .

كانت بِدَايَةُ هذا الامْتِدَاد في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين باب زَوِيلَة وقَلْعَةِ الجَبَل (شَارِع الدَّرْب الأحْمَر وشَارِع التَّبَّانَة وشَارِع بابِ الوَزِير الآن) وكذلك المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين مَيْدَان الرُّمَيْلَة وجَامِع ابن طُولُون (شَارِع شَيْخُون وشَارِع الصَّلِيبَة الآن) التي بُنِيَ فيهما القِسْمُ الأكبر من قُصُورِ ودُور المماليك وكذلك أهَمّ المَسَاجِد والمَدَارِس المملوكية ،

حيث حَرَصَ أمَرَاءُ المماليك على أنْ يكونُوا في جِوَار مَرْكَزِ الحُكْم في قَلْعَةِ الجَبَل .

فنجد في شارع باب الوَزِير : قَصْر ألين آق وبَيْت الرَّزَّار ، وفي شارع التَّبَّانَة بَيْت الأمير قِرْقِماس أمير سِلاح ، ثم قَصْر يَلْبُغا اليَحْيَاوي وقَصْر أَلطَنْبُغَا المارْدِيني تِجَاه القَلْعَة (في المَوْضِع الذي أُقيم عليه فيما بعد مَدْرَسَةُ السُّلْطان حَسَن) ، وإسْطَبْل قُوصُون تِجَاه باب السِّلْسِلَة (باب العَزَب الآن) ، ودَار الأمير مَنْجَك السِّلْحِدَار بسُوَيْقَة العِزِّي (شارع سُوق السِّلاح الآن) ، وإسْطَبْل بَكْتَمُر السَّاقي على بِرْكَة الفِيل ، ودَار البَقَر بين القَلْعَة وبِرْكَة الفِيل ، وبَيْت أرْغُون الكاملي بالجِسْر الأعْظَم (شارع عبد المجيد اللَّبَّان الآن) ، وقَصْر طَاز بجوار المَدْرَسَة البُنْدُقْدارية بشارع السُّيُوفِيَّة وبَيْت صَرْغَتْمَش النَّاصِري بخُطّ بِئْر الوَطاويط ، إضَافَةً إلى الدَّار القُرْدُمِيَّة التي أنْشَأها الأميرُ أُلْجاي النَّاصِري في شَارِع المَوَازِنيين خارِج بابِ زَوِيلَة (الخِيَمِيَّة الآن) .

ولم يَصِل إلينا من بين دُور وقُصُور القاهِرَة التي ذَكَرَها المَقْريزيُّ في «المَوَاعِظ والاعْتِبَار» ، وعَدَدُها واحِدٌ وستون دارًا ، شُيِّدَ القِسْمُ الأكبر منها في القرن الثَّامِن الهجري/ الرابع عشر الميلادي ، إلَّا أربعةُ قُصُورٍ ، أي بنسبة ٦,٥٦٪ ، ثلاثة خارج باب زَوِيلَة جَنُوبي القاهِرَة هي : قَصْرُ ألين آق بشارع بابِ الوزير (وهو قَصْرٌ لم يذكره المَقْريزي) ، وقَصْرُ قُوصُون ـ يَشْبَك خَلْف جامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن ، وقَصْرُ طَـاز بشارع السُّيُوفِيَّة ، والقَصْرُ الرَّابع داخِل حُدُود القاهِرَة الفاطِمِيَّة هو قَصْرُ بَشْتاك في منطقة بَيْنَ القَصْرَيْن إضافَةً إلى بَوَّابَة قَصْر مَنْجَك بشارع سُوقِ السِّلاح . ووَصَلَ إلينا كذلك من البُيُوت التي بُنِيت بعد عَصْر المَقْريزي : بَيْتُ الرَّزَّار بشارع باب الوَزير (مسجّل بالآثار برقم ٢٣٥) ، وبَيْتُ الأمير قِرْقِماس أمير سِلاح بشارع التَّبَّانَة (مسجل بالآثار برقم ١٧٠) . وقد ظَلَّت هذه القُصُورُ قائِمَةً بفَضْلِ الجُهْد الذي قامَت به لَجْنَةُ حِفْظ الآثار العربية في نهاية القرن التاسع عشر والعُقُود الأولىٰ للقرن العشرين ، ثم أعْمال التَّرْميم التي تَمَّت لقَصْرِ بَشْتاك ، في ثمانينيات القرن العشرين ، وقَصْر طَاز في مَطْلَع القرن الحادي والعِشْرين .

ويَجْمَعُ بين هذه القُصُور أُسْلوبٌ مِعْماريٌّ مُوَحَّدٌ يَسْمَحُ بتَمْييزها عن الدُّور الغَنِيَّة للفترة نفسها، وكذلك عن القُصُور الشَّرْكَسِيَّة في القرنين التاسع والعاشر للهجرة/الخامِس عشر والسَّادس عشر للميلاد. وقد استمدَّت قاعاتُ اسْتِقْبال هذه القُصُور تَخْطيطَها من تَخْطيط قاعَة قَصْر الرَّوْضَة الأيُّوبي، ولكن أكثر ما يُمَيِّزها هو حَجْمُها الضَّخْم سواءٌ في المِساحَة أو الارْتِفاع، والمَداخِلُ التِّذْكارية لأغْلبها والتي تُذَكِّرُنا بمَداخِل الجَوامِع والمَدارِس المملوكية. وكان أصحابُها يَغْرِمُون على تَشْييد هذه المداخِل وتَزْيينها أمْوالًا ضَخْمَة، مثل ما غَرِمَهُ الأميرُ سَيْفُ الدِّين أُلْجاي اليُوسُفي على بَوَّابَةِ دارِه، خارج باب زَوِيلَة، حيث تَكَلَّفَت مائة ألف درهم [١].

والدُّورُ التي يذكرها المَقْريزي - والتي تَبَقَّى منها قِسْمٌ صغير - ليست من الدُّور والبُيُوت التي يُقابِلُ الباحِثُون أوْصافَها بوَفْرَةٍ في حُجَجِ الأوْقاف، ولكنَّها تُمَثِّلُ الدُّورَ الكبرىٰ التي شَغَلَها كِبارُ الأُمَرَاء المماليك، والتي يعكس بِناؤها ثَراءَ هذه الطَّبَقَة النَّاتِج عن العَوائِد الضَّخْمَة التي كانت تَعُود عليهم من الإقْطاعات الممنوحة لهم. وفي هذا الإطار فإنَّ هذه الدُّور والقُصُور ليست فقط مَحَلَّ إقامَةٍ وإنَّما تَعْبيرٌ عن قُوَّةٍ ومَكانَةِ صاحِبِها [٢]؛ كما أنَّ ما صُرِفَ على بِنائِها - وعلى الأخَصِّ تلك التي أُقِيمَت في عَهْد النَّاصِر محمد بن قَلاوون والتي أشْرَفَ هو بنفسه على بِنائِها وتَوَلَّى الصَّرْفَ عليها - مثل: قَصْرِ طَقْتَمُر الدِّمَشقي بحَدْرَة البَقَر، وقَصْرِ بَكْتَمُر السَّاقي على بِرْكة الفيل، وقَصْرِ يَلْبُغا اليَحْياوي، وقَصْرِ أَلْطَنْبُغا المارْدِيني (الذي حَلَّ مَحَلَّهما بين سنتي ٧٥٧ - ٧٦١هـ جامِعُ ومَدْرَسَةُ السُّلْطان النَّاصِر حَسَن بالرُّمَيْلَة)، وقَصْرِ قُوصُون، كان شَيْئًا كثيرًا؛ فقد بَلَغَت النَّفَقَةُ على قَصْرِ يَلْبُغا - على سبيل المثال - «أربع مائة ألف ألف وستين ألف دِرْهَم نُقْرَة، منها ثَمَن لازَوَرْد خاصَّةً مائة ألف دِرْهَم» [٣].

وعادَةً ما يُشَيِّدُ الأميرُ المملوكي بالقُرْبِ من دارِه رِباطًا ومَدْرَسَةً، مثل: دارِ

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٢١٧.

[٢] J.- Cl. Garcin, *op.cit.*, p. 176.

[٣] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٢٣٤.

ومَدْرَسَة آق سُنْقُر الفارْقاني داخل بابِ سَعادَة، ودارِ ومَدْرَسَة بَكْتَمُر الحُسَامي خارج بابِ النَّصْر، ودارِ ومَدْرَسَة عَلاء الدِّين مُغُلْطاي بالقُرْب من دَرْبِ مُلُوخْيا، ودارِ ومَدْرَسَة عَلاء الدِّين آقْبُغَا عبد الواحِد بالقُرْب من الجامِع الأزْهَر، ودارِ ومَدْرَسَة الأمير آل مَلِك الجُوكَنْدار بالقُرْب من بابِ المَشْهَد الحُسَيْني[١]. ودائِمًا ما يُثْبِت الأميرُ رَنْكَهُ على مَداخِل هذه الدُّور والمدارِس؛ كما كان من التَّقْليد أن تُنْصَب على أبْوابِ هذه الدُّور الطَّوارِق[٢].

وتَقَعُ أنْقاضُ أقْدَم القُصُور المملوكية التي تَبقَّت، وهو «قَصْرُ ألِين آق»، في شارع بَابِ الوَزِير بخُطِّ التَّبَّانَة بجوار جامِع آق سُنْقُر[٣]. ويَرْجِعُ تأريخُ هذا القَصْر (المسجَّل في الآثار برقم ٤٤٩) إلى سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م اعْتِمادًا على نَصٍّ في مَدْخَلِ القَصْر يحمل اسم ألِين آق الحُسَامي، رَجَّحَ عالِمُ الوَثائِق الرَّاحِل عبدُ اللَّطيف إبراهيم أنَّه رُبَّما يكون هو نفسه الأميرُ سَيْفُ الدِّين ألِناق الذي أمَرَ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون بقَطْع يَدَيْه وتَسْمِيره مع ستَّةٍ آخرين سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، لمشاركتهم في قَتْل أخيه السُّلْطان الأشْرَف خَليل[٤]. وكان قد أقامَ في هذا القَصْر، في نهاية القرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشْر الميلادي الأميرُ أيْتَمُش الأسَنْدَمُري البِجاسي الظَّاهِري، المتوفَّى سنة ٨٠٢هـ/١٣٩٩م، الذي وَصَفَه أبو المحاسن بأنَّه «آخِر عُظَماء الأُمَرَاء بالدِّيار المصرية إلى يَوْمِنا هذا»[٥]. فقد جاءَ في حُجَّةِ وَقْف الأشْرَف بَرْسْباي أنَّ من بين الأوْقاف الخاصَّة بالجامِع الأشْرَفي «جَميعُ المكان الكائِن بظاهِر القاهِرَة المحروسة خارج بابيّ زَوِيلَة بخُطِّ التَّبَّانَة بجوار جَامِع آقْسُنْقُر ويُعْرَف بالقَصْر سَكَنَ المرحوم أيْتَمُش»[٦]. وهو ما يَتَّفِق مع الواقِع، فقَصْرُ ألِين آق يفصله الآن عن

---

[١] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ٢٧٨، ٢٩٢، ١٠: ١٠٧، ١٧٦.

[٢] المقريزي: المواعظ ٣: ١٧٨، ٣٩٤.

[٣] نفسه ٤: ٢٣٩-٢٤٠.

[٤] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٨: ٢٢؛ عبد اللطيف إبراهيم: الوثائق في خدمة الآثار «العصر المملوكي»، ٢١٨-٢١٩.

[٥] أبو المحاسن: المنهل الصافي ٣: ١٥٠.

[٦] حُجَّة وَقْف الأشْرَف برسباي، نشرها وقَدَّم لها أحمد دَرَّاج، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي =

جامِع آقْسُنْقُر (الجامع الأزْرَق) مَدْرَسةُ خَايِر بك التي أُقِيمَت سنة ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م.

وقد تَبَدَّلَ هذا القَصْرُ خِلال تاريخه ثم تَخَرَّب قِسمٌ منه، وكان يمكن أن يَزولَ نهائيًا لَوْلا أنَّه ضُمَّ في مَطْلَع القرن العاشر الهجري/ السَّادِس عشر الميلادي إلى مجموعة العَمائِر التي أنشأها في هذا المكان خايِر بك وتَشْمَل مَدْرَسَةً وسَبيلًا وعَدَدًا من الأضْرِحَة بينها ضَريحُه الخاصّ. وتَحْتَفِظُ دارُ الوَثائِق القومية بالقاهِرَة بحُجَّةِ وَقْف هذه العَمائر تحت رَقَم ٢٩٢/٤٤ [١].

وللقَصْر مَدْخَلٌ ضَخْمٌ على شَكْل رِواقٍ مُزَيَّنَة قِمَّتُه بمُقَرْنَصات حجرية. وتَسْتَقرُّ القاعَةُ الكبرىٰ للقصر (مثل قَصْر قُوصُون) على عُقُود الإسْطَبْلِ الموجود بالدُّور الأرضي، وهي قاعَةٌ يقسمها إلى دُرْقاعَة وإيوان قَوْسَينْ مُدَبَّبَيْن كانا يحملان فيما سَبَق قُبَّةً زالَت الآن [٢].

أمَّا «قَصرُ (إسْطَبْل) قُوصُون» الواقِع خَلْف جَامِع ومَدْرسة السُّلْطان حَسَن من جهته البَحْرية وخَلْف المَدْرَسَة السَّعْدِية (التكية المَوْلَوِيَّة الآن) من جهته الغَربية [٣]، فهو أحَدُ أضْخَم القُصُور المملوكية التي أمَرَ بِبنائِها النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون لأحَدِ أُمَرائه المُقَرَّبين سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٨م، هو الأميرُ سَيْفُ الدِّين قُوصُون الذي تَرَقَّى في الخِدَم السُّلْطانِيَّة وبَلَغَ أعلى المراتِبِ عند السُّلْطان فزَوَّجَه بابنته كما تَزَوَّج السُّلْطانُ أخْتَه، وعند وَفاتِه جَعَلَه وَصِيًّا على أوْلادِه فصارَ أمْرُ الدَّوْلَة كُلُّه بيده، فتَخَوَّف منه الأُمَرَاءُ وحَصَروه بالقَلْعَة سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م

= للآثار الشرقية ١٩٦٣، ٦٧؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي ٣: ١٤٨؛ محمد حسام الدِّين إسْماعيل: «أربع بيوت مملوكية من الوثائق العثمانية»، حوليات إسلامية ٢٤ (١٩٨٨)، ٧٧ـ٨٨.

[١] J.- Cl. Garcin, *op.cit.*, pp. 180-82.

[٢] انظر عن مخطط هذا القَصْر وعمارته، J. Revault, & B. Maury, *Palais et Maisons du Caire du XIV*ᵉ *au XVIII*ᵉ *siècle*, II, pp. 61-76.

[٣] المقريزي: المواعظ ٣: ٢٣٥ـ٢٣٨.

وحَمَلُوه إلى الإسْكَنْدَرية حيث قُتِلَ بها في العام نفسه [1].

وشَيَّدَ قُوصُون قَصْرَه في مَوْضِعِ إسْطَبْلِه بحيث حَمَلَ القَصْرُ لوَقْتٍ طويل اسم «إسْطَبْل قُوصُون». ويَتَمَيَّزُ هذا القَصْر بحجمه الهائِل ومِساحته الكبيرة وبَوَّابته التِّذْكارية الضَّخْمَة التي تُشْبه كثيرًا مَداخِلَ الجَوامِع والمَدارِس المملوكية، حيث يصل ارْتِفاعُها إلى سَطْح القَصْر وأعْلاها مُزَيَّنٌ بعَقْدِ قُبَّة غنيّ بالمُقَرْنَصات.

ولم يَبْقَ هذا القَصْرُ على حالِه طَويلًا، ففي أعْقابِ فِتْنَة سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م نَهَبَ العامَّةُ القَصْر بأمْرٍ من الأمير أيْدَغْمُش أمير آخور في أعْقاب تَوَلِّي السُّلْطان الأشْرَف كُجُك [2]، يقول المَقْريزي: «فتَلاشَى أمْرُه وأقامَ عِدَّةَ أعْوامٍ خَرابًا لا يسكنه أحَدٌ» [3]، وعَدَّه من الدُّور المشئومَة بسبب الأحْداثِ التي دارَت فيه في أعْقابِ وَقْعَة قُوصُون.

وتَبَدَّلَ وَضْعُ القَصْر في النِّصف الثَّاني للقرن التاسِع الهجري/ الخامِس عَشْر الميلادي، فتَمَّ إصْلاحُه وصارَ من أجَلِّ مَساكِن الأُمَرَاء وأصْبَح هو البَيْت المُعَدّ لسَكن كُلِّ من صارَ أتابك العَساكِر [4]. وفي سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م أخَذَهُ الأميرُ يَشْبَك من مَهْدي وزادَ عليه، ويُوجَد دائِر المَدْخل الرَّئيس للبَوَّابة التِّذْكارية للقَصْر شَريطٌ طَويلٌ بالقَلَم النَّسْخ المملوكي يُفيد أعْمال الزِّيادَة التي قامَ بها الأميرُ يَشْبَك ولكن سَقَطَ منها التأريخ. ولمَّا عُيِّنَ الأميرُ آقْبَرْدي من علي باي دَوادَارًا عِوَضًا عن يَشْبَك من مَهْدي في زَمَنِ السُّلْطانِ الأشْرَف قايتْباي سَكَنَ في هذه الدَّار سنة ٨٨٦هـ/١٤٨١م [5]، فعُرِفَ القَصْرُ لذلك بـ«قَصْر قُوصُون ـ يَشْبَك» و«قَصْر آقْبَرْدي» الذي حَرَّفَه العامَّةُ إلى «قَصْر بَرْدَق» وأطْلَقوا على الفَضَاء الذي كان يجاوره «حُوش بَرْدَق».

---

[1] المقريزي: المواعظ ٤: ٢٢٦.

[2] أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٠: ٤٠ – ٤٣.

[3] المقريزي: المواعظ ٣: ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

[4] نفسه ٩: ١٢١.

[5] ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ١٧٨.

وفي مَطْلَعِ العَصْر العُثْماني اسْتُخْدِمَ هذا القَصْر كدار ضِيافَةٍ حيث نَزَل به في سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م محمد بن إدْريس المعروف بقُلَقْسِز الدَّفْتَرْدار مبعوث السُّلْطان سليمان القانُوني [١].

وما تزالُ أطْلالُ هذا القَصْر قائمةً خَلْف المَدْرَسَة السَّعْدِيَّة (التَّكِيَّة المَوْلَوِيَّة الآن) واقْتُطِعَت من مساحته قِطْعَةٌ أُقِيمَ عليها مَدْرسةٌ للبنات تعرف بمَدْرَسَة عُثْمان محرَّم . وما من شَكٍّ في أنَّ هذا القَصْر بمَدْخَله الضَّخْم وقاعاته السُّفْلَى والعُلْيا التي تُعَدُّ من أكبر قاعات العمارَة المملوكية ، ليس إلَّا تَرْديدًا أمينًا لما كانت عليه القُصُورُ السُّلْطانية بقَلْعَة الجَبَل [٢]. ومن الغَريب أن يقامَ صَفٌّ من الدَّكاكين والوِرَش تَطِلُّ على جامِع ومَدْرَسة السُّلْطان حَسَن وتُخْفي خَلْفَها هذا المَدْخَل التِّذْكاري الرَّائِع المعدوم المِثال لقَصْر قُوصُون يَشْبَك بعد أن كان يُوصَف بأنَّه يُواجِه مُباشَرَةً باب السِّلْسِلَة بالقَلْعَة ، وأن لا تقوم أيَّةُ محاوَلَةٍ لإصْلاحِ وتَرْميمِ هذا القَصْر المملوكي الضَّخْم .

وبالقُرْبِ من قَصْر قُوصُون ـ يَشْبَك بشارع السُّيوفِيَّة بجوار زاوية وخانْقاه أيْدَكين البُنْدُقْداريّ (المعروفة الآن بزَاوِيَة الأبار) يُوجَد «قَصْرُ طاز» الذي شُيِّدَ سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م . وبالرَّغْم من التَّلَف الشَّديد الذي أصابَ القَصْر ، فإنَّ ما تَبَقَّى منه يَدُلُّ على أنَّ أسْلُوبَ وطِراز بِنائِه مُشابِهٌ لأسْلوب وطِراز قَصْر قُوصُون وبتأَثُّرهما بمَصْدَرٍ واحِدٍ [٣].

وجاءَ على هامِش نسخة باريس رقم 1759 من خِطَط المَقْريزيّ إضافَةٌ مُهِمَّةٌ لقُطْب الدِّين القَسْطَلَّاني ، ناسِخ النُّسْخَة ، تُفيدُ أنَّ المَقْعَدَ الموجود بقَصْرِ طَاز تَمَّ في

---

[١] ابن إياس : بدائع الزهور ٥: ٤٠١.

[٢] J. Revault & B. Maury, *op.cit.*, II, pp. 31-48.

[٣] J. Revault, *L'architecture domestique au Caire*, p. 59.

عصرِ سَلاطين المماليك لا العَصْرِ العُثْمانيّ كما يذهب إلى ذلك الدَّارِسُون المُحْدَثُون، يقول: «ولم تَزَل دارُه هذه على ما هي عليه حتى مَلَكها تَنْبَك قَرا الأَشْرَفي إينال[1] في أوائِل دَوْلَة الأَشْرَف قايِتْباي، وكان تَنْبَك هذا دَوادارًا ثانيًا إذ ذاك، فجدَّدَ بناءَها وعَمَّرَ بها المَقْعَد الحافِل الموجود بها الآن، وأحْضَرَ إليها مُعَلِّمًا بَنَّاءً من مَدينَة غَزَّة كان يعرفه وهو بَطَّال، فجَدَّدَها في دَوْلَة الظَّاهِر خُشْقَدَم، وجاءَت هذه الدَّارُ في غايَةِ الحُسْن ونهايةً في [...]، وهي على مِلْكِه الآن وهو حاجِبُ الحُجَّاب».

وتَحَوَّلَت دارُ طاز في نهاية العَصْر العُثْماني إلى مَدْرَسَةٍ جاريةٍ في وَقْف علي أغا دار السَّعادَة، ثم جَعَلَها محمد علي باشا مَخْزَنًا للمُهِمَّات الحَرْبِيَّة. وفي سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م رَغِب الخِديو إسماعيل في إنْشاء مَدْرَسَةٍ لتربية البَنات وتعليمهن وعَهِد بذلك إلى علي باشا مُبارَك، ناظِر ديوان الأَوْقاف والمدارِس، فاخْتارَ لها هذه الدَّار وأعادَ تَعْميرَها بعد أن كانت قد تَشَعَّثَت ولم يُغَيِّر بابَها بل أبْقاه على صُورته الأصلية، وهو البابُ الموجود الآن، وأصْلَحَ خَلَلَ القاعَة والمَقْعَد الذي أضافَه تَنْبَك قَرا الأَشْرَفي وبعض الجِهات القابلة للإصْلاح وأنشأ بها البناءَ القاسِم للحُوش، وفَتَحَ الدَّكاكين القَديمَة التي كانت بواجِهَتِها[2]، والتي ما تَزال مَوْجودَةً حتى الآن[3]!

واسْتُخْدِمَت بقايا هذه الدَّار لفَتْرَةٍ طويلَةٍ كمَخَازِن لوَزَارة التَّرْبِيَة والتَّعْلِيم وتَصَدَّعَ منها جُزءٌ كبيرٌ من النَّاحِية البحْرِية الشَّرْقية سنة ٢٠٠٢م، الأمْرُ الذي

---

[1] انظر ترجمته عند السخاوي: الضوء اللامع ٣: ٤٤٣؛ ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ٤٢٩– ٤٣٠.

[2] علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٢: ٤٦ (١٦١-١٦٢).

[3] راجع عن مُخطط هذا القصر وعمارته J. REVAULT, & B. MAURY, *op.cit.*, II, pp.49-60.

لَفَتَ الانْتِبَاه إلى ضَرُورَة العِنَاية بأمْثَال هذه الدَّار فتَمَّ ترْمِيمُها وصِيَانَتُها وأُعِيدَ افْتِتَاحُها كمركزٍ ثقافي في عام ٢٠٠٦م.

أمَّا قَصْر الأمير مَنْجَك اليُوسُفي فيقَع برَأس سُويقة العِزِّي (شَارِع سُوق السِّلاح الآن) بالقُرْب من مَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن، أنْشأهُ الأمير سَيْف الدِّين مَنْجَك بن عبد الله اليُوسُفي أتابِك العَسَاكِر ونَائِب السَّلْطَنَة، سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م، وتناوَب على الإقامة في هذا القَصْر عَدَدٌ من الأمراء مثل الأمير تَمُرْبُغا الأفْضَلي والأمير تَغْري بِرْدي والد المؤرِّخ أبي المحاسِن يُوسُف وكذلك الأمير يَشْبك من مَهْدي الدَّوادار الذي أدْخَل عليه إضافات كبيرَة. ولم يبق من آثار هذا القَصْر سوى بَوَّابته بعد أنَّ أدَّى فَتْحُ شارع محمد علي، سنة ١٨٧٤م، إلى إزالَة القِسْم الأكْبر من القَصْر[1].

والقَصْرُ المملوكي البَحْريّ الوَحيد الباقي داخِل حُدُودِ القاهِرَة الفاطِمية هو «قَصْرُ بَشْتاك» الواقِعُ الآن بشارع المُعِزّ لدين الله بالقُرْبِ من سَبِيلِ عبد الرحمن كَتْخُدا[2]. وتُمَيِّزُ عِمارَةَ هذا القَصْر ارْتِفاعُه الكبير ليُحاكي المنشآت الدِّينية المحيطة به، واسْتَخْدام الحِجارَة في بِنائِه وكذلك العُقُود المُدَبَّبَة؛ ويتوسَّط الدَّور الأرضي للقَصْر قاعَةٌ ذات تَخْطيطٍ مُتَعامِدٍ على جَوانبها مَساطِب حَجَرِيَّة، ومن الجهة الأخرىٰ سَلالم جيرية تقود الداخِل إلى القاعَة الكبرىٰ للقَصْر التي تتوسَّطَها دُرْقاعَة مُرَبَّعَة يفتح عليها قَوْسَيْنْ ضَخَمَيْنْ مُدَبَّبَيْنْ يَحِفَّان بإيوانيّ الطَّرْف. ويَعْلو مركز القاعَة مَلْقَفٌ تَقْليدي للتَهْوية[3].

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٣٠٨، محمد حسام الدِّين إسماعيل: «أربع بيوت مملوكية من الوثائق العثمانية»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٢٤ (١٩٨٨)، ٨٨- ٩٩.

[2] المقريزي: المواعظ ٣: ٢٢٧- ٢٣٠.

[3] راجع عن مخطط هذا القصر وعمارته *Ibid.*, II, pp. 1-20.

ومن أواخِر القُصُور المملوكية التي وَصَلَت إلينا « بَيْت الرَّزَّاز » الواقع بجوار مَدْرَسَة أم السُّلطان شَعْبان بخُطّ التَّبَّانة ، والذي يَرْجِعُ أصْلُ بنائِه إلى السُّلطان قايتْباي إلى أن آل إلى مِلْك أحمد كَتْخُدَا الرَّزَّاز في مَطْلَع القَرْن التَّاسِع عَشَر[١] .

وأيْضًا قَصْر الأمير مَامَاي ، أحَد مماليك الأشْرَف قايتْباي ، الذي تَبَقَّى منه فقط مَقْعَدُه المعروف ببَيْت القاضِي والذي يُمَثِّل مركز القَصْر وكان يَحْتَلُّ مَوْقِعًا متميِّزًا بالقُرْب من مُنْشآت دينية شهيرة (مجموعَة قلاوون ومَدْرَسَة وقُبَّة الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب والمَدْرَسَة الظَّاهرية بَيْبَرْس)[٢] . وكذلك بقايا قَصْر السُّلْطان قايتباي الواقع بين شارِعِي الخِيمِيَّة والدَّرْب الأحْمَر غير بعيد من جامع المارْداني[٣] . وأخيرًا منزل زيْنَب خاتُون ، وهي آخِر متَملِّكة للمنزل ، الذي يَرْجِع تأريخُه إلى نهاية القَرن التَّاسع الهجري في عَصْر الأشْرَف قايتباي ويَقَع في قَلْب القاهِرَة الفاطمية جنوب غربي الجامِع الأزْهَر[٤] .

وكانت بقايا الدُّور والقُصُور المملوكية ما تَزَلُ قائِمةً في وَقْتِ الحَمْلَة الفرنسية في العَديد من المواضِع في القاهِرَة ، ولكنَّها كانت قد هَجَرَتها تمامًا الطَّبَقَةُ الأرِسْتُقْراطية التي شَيَّدَتها ، ولم تعد تُسْتَخْدم إلَّا كمأوى للأسْرات الفقيرة ومَلْجأً يشغله الحِرَفِيُّون .

ومن المُؤْسِف أنَّ هذه القُصُور المملوكية الضَّخْمَة ، التي تُعَدُّ هي والجَوامِع والخَوانِق المملوكية التي وَصَلَت إلينا ، خيرَ شاهِدٍ على مـا كانت عليه قاهِرَةُ المماليك من فَخامَةٍ وأُبَّهَة ، في حالةٍ سيِّئَةٍ من الإهْمال وعَدَم العِنايَة تُهَدِّدُ بزَوالِها .

---

[١] محمد حسام الدين إسماعيل : المرجع السابق ٦٨ ـ ٧٦ ؛ J. Revault & B. Maury, *Palais et Maisons du Caire* I, pp.35-65; II, pp.120-32.

[٢] J. Revault & B. Maury, *Palais et onaisons du Caire* I, pp.11-20.

[٣] *Ibid.*, I, pp.20-33.

[٤] *Ibid.*, III, pp.1-12.

وبالتالي فهي لا تَظْهر على أيَّة خَريطَةٍ سياحيةٍ لزيارةِ القاهِرَة التاريخية ، رغم أنَّ هذه المنطقة الواقعِة بين باب زَوِيلَة وقَلْعة الجَبَل ، وباب زَوِيلَة وصَلِيبَة ابن طُولُون تشتمل على أهَمّ آثارِ القاهِرَة المملوكية !

العِمَارَةُ التُّجَارِيَّة

تمثَّلَت العَمَائِرُ ذات الطَّابَع التُّجارِيّ في القَاهِرَة المملُوكِيَّة في الخَانَات والقَياسِر والفَنَادِق والوَكَالَات التي فُقِد أغْلَبُها اليَوْم ، وذكر المَقْرِيزيّ أنَّ الوَكالات في معنىٰ الفَنَادِق والخانات يَنْزِلُ فيها التُّجّار الوَارِدِين ببَضَائِعهم ، وهي مَبَانٍ كبيرة تأثَّرَت في تَخْطِيطها بتَخْطِيط الرِّباع . وتُقَدِّمُ لنا حُجَجُ الأوْقَاف الوَفِيرة أوْصَافًا للعَدِيد من هذه العَمَائِر . ورَغْم أنَّ العَدِيدَ من أمَرَاءَ المَمَاليك البَحْرِيَّة قد مَارَسُوا التُّجارَةَ فلم يَصِل إلينا من هذا العَصْرِ سِوَى بَوَّابَة وَكَالَة قُوصُون أقْدَم وَكالات القَاهِرَة والتي يَرْجِعُ تَأريخُها إلى ما قَبْل عام ٧٤٢هـ/١٣٤١م ، وكان يَنْزِلُ بها التجارُ ببضائع بلاد الشَّام من الزَّيْت والشِّيرج والصَّابُون والدِّبْس والفُسْتُق والجَوْز واللَّوْز والخَرنُوب ، وكانت تَقَعُ فيما بين الجَامع الحاكمي ودَار سَعِيد السُّعَدَاء ، وما تَزَالُ بقاياها قائمة في شارع باب النَّصْر عند تلاقيه مع شارع الضَّبَبِيَّة وتُعْرَف أيضًا بوكالَة الصَّابُون . وأدْرَكَها المقريزي وانْدَهَش من كثرة ما بها من أصْناف البَضَائِع وازْدِحَام النَّاس وشِدَّة أصْوَات العَتَّالِين عند حَمْل البَضَائع ونَقْلِها لمن يَبْتاعَها . وقد تَلاشَىٰ أمْرُها منذ خَرِبَت الشَّام في سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م على يد تَيْمُورْلنك [١] .

أمَّا عَصْرُ المَمَاليك الشَّرَاكِسَة فقد وَصَلَ إلينا منه عَدَدٌ من الخَانَات والوَكَالات التي شَيَّدَها بعضُ سَلاطِين المَمَاليك أهَمّها وَكَالَتَيّ (خَان) قَايِتْبَاي : الأولىٰ بالقُرْبِ

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣ :٣٠٩ـ ٣١٠.

من الأَزْهَرِ ، تَرْجِعُ إلى عَام ٨٨٢هـ/١٤٧٧م ، والثَّانِيَة دَاخِل بابِ النَّصْر ، تَرْجِعُ إلى عام ٨٨٥هـ/١٤٨١م . أمَّا الخَانُ الذي حُفِظَ لنا تَخْطِيطُه بطَرِيقَةٍ جَيِّدَة ، فهو خَانُ النَّخْلَة الذي شَيَّدَهُ السُّلْطَانُ الغُورِي آخِرُ سلاطين المماليك (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م) ويتكوَّنُ من حَوْشٍ يُدْخَلُ إليه من بَوَّابَة كَبِيرَة يُحِيطُ به دَكَاكِينُ ومَخَازِنُ يَعْلُوها طَابقَان - رُبَّما كانت ثَلاثَة في الأَصْل - لغُرَفِ السُّكْنَى . وتَشْغَلُ وَاجِهَةَ الخَان نَوَافِذُ تُطِلّ على الطَّرِيق لكلِّ طَوَابِقِه .

وشَيَّدَ الغُورِي كذلك قَيْسَارِيَّةً لا تَحْمِل تأريخًا للإنْشَاء يُطْلَقُ عليها اليَوْم « خَان الخَلِيلي » ، وهو في الحَقِيقَة اسْمٌ لخَانٍ يَرْجِعُ إلى القَرْنِ الثَّامِن الهجريّ/ الرَّابع عَشْر الميلادي ويُظَنُّ أنَّ الغُورِي أَصْلَحَ الخَانَ ورَمَّمَه ، ولكنَّ نَصَّ الإنْشَاء غير الكَامِل والذي يَحْمِل اسْمَ الغُورِي يُشِيرُ دون شك إلى إمْكَانية أنْ يكونَ إنْشَاءً جَدِيدًا قامَ به الغُورِي [1] .

كانت تُوجَدُ كذلك بأعْلَىٰ الوَكالات المَسَاكِنُ الجماعية المعروفة بـ « الرَّبْع جـ. رِباع » ، وإنْ كان ما وَصَلَ إلينا منها يَرْجِعُ إلى العَصْر العُثْماني [2] ، ولكن نَسْتَطِيع التَّعَرُّف على أوْصافها هي والوَكالات المملوكية من خِلالِ العَدِيد من حُجَج الوَقْف التي تَرْجِعُ إلى هذا العَصْر ، وكان الغالِبُ على سُكَّانها عَوَامّ النَّاس وصِغار الحِرَفِيين والتُّجَّار .

وقَدَّمَ لنا المَقْريزي وَصْفًا للرِّباع التي كانت تَعْلُو وَكالَة قُوصُون - السَّابِق الإشارَة إليها - يقول : « ويَعْلُو هذه الوَكالَة رِباعٌ تَشْتَمِلُ على ثلاث مائة وستين بَيْتًا أدْرَكناها عامِرَةً كلَّها ويُحَرَّرُ أنَّها تَحْوي نحو أرْبَعَة آلاف نَفْس ما بين رَجُلٍ وامْرَأةٍ وصَغِيرٍ وكبيرٍ ، فلمَّا كانت هذه المِحَنُ في سنة سِتّ وثمان مائة ، خَرِبَ كثيرٌ من هذه البيوت وكثيرٌ منها عامِرٌ آهِل » [3] .

---

[1] A. Raymond et G. Wiet, *Les Marchés du Caire*, Le Caire-IFAO 1979; J.M. Rogers, *EI*^{2} art. *al-Kâhira* pp.453-54.

[2] فيما يلي ٣٥٨-٣٥٩.

[3] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٣١٠؛ وانظر كذلك آمال العمري: المُنْشآت التجارية في القاهرة في العصر المملوكي ، رسالة دكتوراة بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٤، ومقدمة جاستون فييت لكتاب A. Raymond et G. Wiet, =

القَــرَافـة

مَدِينَةُ المَوْتَىٰ

(مَقَابِرُ القَاهِرَة)

كانت جَبَّانَةُ مصر الفُسْطاط حتى مُنْتَصَفِ القَرْنِ الخامس الهجريّ/ الحادي عشر الميلاديّ تَمْتَدُّ شَرْقَ المَدينَة في سَفْحِ جَبَـلِ المُقَطَّم. وكان أقْدَمُ أجْزائِها يَقَعُ بين مَسْجِدِ الفَتْح وسَفْحِ المُقَطَّم [١]، ويَشْمَلُ هذا الجزء المناطِقَ المعروفة الآن ببَطْنِ البَقَرَة وجَبَّانَة سيدي عُقْبَة بن عَامِر والتُّونْسي وقسم من البَساتين. وتُعْرَفُ هذه المَنْطِقَةُ في المَصَادِرِ بـ «القَرَافَةِ الكبرىٰ». ولم تَحْتَوِ المَنْطِقَة المَحْصُورَة بين قُبَّةِ الإمام الشَّافِعِيّ وسَفْحِ المُقَطَّم شَمال القَرَافَةِ الكبرىٰ على مَقابِرَ إلَّا بعد أن دَفَنَ السُّلْطانُ الكامِلُ محمد الأيُّوبيّ ابنه بجوار قَبْرِ الإمام الشَّافِعيّ، في سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م، وبَنَىٰ القُبَّة الكبيرَة الموجودة الآن على ضَرِيحِ الإمام الشَّافِعيّ [٢]، فَبَدَأَ النَّاسُ يَنْقِلُون أبنيتَهم من القَرَافَةِ الكبرىٰ إلى هناك وأنشأوا بها التُّرَبَ وعُرِفَت في المَصَادِرِ بـ «القَرَافَةِ الصُّغْرىٰ». وفي زَمَنِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون في النِّصْف الأوَّل للقرنِ الثَّامن الهجريّ / الرَّابع عشر الميلاديّ، اسْتَجَدَّ الأُمَرَاءُ المماليكُ تُرَبًا بين قُبَّةِ الإمام الشَّافِعِيّ وبابِ القَرَافَة حتى صَارَت العِمارَةُ مُتَّصِلَةً من بِرْكَة الحَبَش جَنُوبًا إلى بابِ القَرَافَةِ شَمالًا [٣].

Les Marchés du Caire, Le Caire-IFAO = 1979, pp.1-26.

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٨٥٠.

[٢] نفسه ٤: ٨٥١، ٩١١.

[٣] نفسه ٤: ٨٥١.

ووُجِدَت جَبَّانَةٌ أخرى يَرْجِعُ تأسيسُها إلى القَرْنِ الثَّاني الهجريّ مع مَدينَة العَسْكَر، كانت تَمْتَدُّ على حُدُودِ الطَّرَفِ الشَّمالي لمصر الفُسْطاط وتُغَطِّي المنطقة التي تَقَعُ الآن جَنُوبَ غَرْبِ بابِ القَرَافَة وحتى عَيْنِ الصِّيرَة.

ومع بداية القَرْنِ الثَّالِث الهجريّ وُجِدَت جَبَّانَةٌ ثالِثَةٌ عند سَفْحِ المُقَطَّم في المَنْطِقَة التي يَقَعُ فيها الآن ضَرِيحُ عُمَرَ بن الفَارِض، والتي كانت تُعْرَف قَديمًا بـ «مَدَافِن محمود».

وفي مَطْلَعِ القَرْنِ الرابع الهجريّ/ العَاشِر الميلادي طَرَأت ظَاهِرَةٌ جَديدَةٌ حيث وُجِدَ حَيٌّ عُمْرانيٌّ اسْتَمَدَّ اسْمَه من «بني قَرَافَة»، أحَد بُطُونِ قَبيلَة المَعَافِر اليَمَنيَّة، فإلى هذه القَبيلَة يُنْسَبُ مَجموعُ جَبَّاناتِ القَاهِرَة التي عُرِفَت جَميعُها بـ «القَـرَافَة»[١]. وبناءً على ذلك فقد ذَكَرَ ابنُ جُبَيْر وابنُ سعيد المَغْرِبي أنَّهما باتَا بالقَرَافَةِ ليالي كثيرة، وأضَافَ ابنُ سعيد أنَّ بها

«قُبُورًا عليها مَبانٍ مُعْتَنًى بها... وتُرَبًا كثيرةً عليها أوْقافٌ للقُرَّاء ومَدْرَسَةً كبيرةً للشَّافِعِية، ولا تَكادُ تَخْلو من طَرَبٍ ولاسيَّما في اللَّيالي المُقْمِرَة، وهي معظم مُجْتَمَعات أهْلِ مصر وأشهر مُتَنَزَّهاتهم»[٢].

أمَّا ابنُ بَطُّوطَة ـ الذي زارَ مصر في عَهْدِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون ـ فَوَصَفَ قَرافَة مصر ومَزاراتها بقَوْلِه:

«ولمصر القَرافَة العَظيمَة الشَّأْن، وهم يَبْنون بها القِبابَ الحَسَنَة ويَجْعَلُون عليها الحيطان فتكون كالدُّور، ويَبْنُون بها البُيُوت، ويُرَتِّبُون القُرَّاءَ يَقْرءون ليلًا ونَهارًا بالأَصْواتِ الحِسَان. ومنهم من يَبْني الزَّاوِيَة والمَدْرَسَة إلى جانِب التُّرْبَة، ويَخْرُجون في كُلِّ لَيْلَة جُمُعَة إلى المبيت بها بأوْلادِهم ونسائهم، ويَطُوفُون على المزارات الشَّهيرَة، ويَخْرُجُون أيضًا للمَبيتِ بها لَيْلَة النِّصْف من شَعْبان، ويَخْرُج أهْلُ الأسْواقِ بصُنُوفِ المآكل»[٣].

---

[١] المقريزي: المواعظ ٤: ٨٤٨.

[٢] ابن جبير: الرحلة ٢٠٠؛ ابن سعيد: المغرب (قسم مصر) ١٠- ١١.

[٣] ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة ١: ٢٠٥.

ومع الفَتْحِ الفاطميّ لمصر وتأسيس مَدينَة القاهرة نَشَأت جَبّاناتٌ جَديدَةٌ لخِدْمَة المَدينَة النّاشِئَة ، كانت أوَّلًا جَنُوبَ شَرْقِ القاهِرَة وتَمْتَدُّ خارِجَ بابِ زَوِيلَة في المنطقة التي يَشْغَلُها الآن جَامِعُ الصَّالِح طَلائِع وشَارِعُ الدَّرْبِ الأحْمَر وشَارِعُ التَّبَّانَة وشَارِعُ بابِ الوَزير والشَّوارِعُ المتفرّعَة منها [١]، وكَثُرَ اسْتِخْدامُ هذه الجَبَّانَة على الأخَصّ في زَمَنِ الشِّدَّة المُسْتَنْصِرِيَّة مُنْتَصَفَ القرَنِ الخامس الهجري / الحادي عشر الميلاديّ [٢].

وبعد وَفاةِ أمير الجُيُوشِ بَدْرِ الجماليّ ، سنة ٤٨٧هـ/١٠٨٥م ، أُنْشِئَت جَبَّانَةٌ أخرىٰ خارِج بابِ النَّصْر شَمَال القاهِرَة كان هو أوَّل من دُفِنَ فيها ، تَشْغَل مكانَها الآن قَرَافَةُ بابِ النَّصْر الواقِعَة بين حَيّ الحُسَيْنية وشارِع المَنْصورية [٣].

أمّا «قرافَةُ المماليك» ، الواقِعَة في الصَّحْراءِ شَرْقَ طَريقِ صَلاح سالم الحالي في المنطقة المعروفة الآن بـ «تُرَبِ الغَفير» حَوْل مَقابِر الشُّهَداء ، فكانت في الأصْلِ بَراحًا واسِعًا يُعْرَف بمَيْدانِ القَبَقِ ومَيْدانِ العيد والمَيْدانِ الأسْوَد ، يَمْتَدُّ بين قَلْعَةِ الجَبَلِ وقُبَّةِ النَّصْر [٤] حيث كان فُرْسَانُ المماليك يُؤَدُّون فيه تَدْريباتهم منذ أنشأه السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٧هـ/١٣٦٥م [٥]، وتَرَكَ السُّلْطانُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون النُّزُولَ إلى هذا المَيْدان وهَجَرَه ابتداءً من عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م ، يقول المَقْريزيُّ : «وأوَّلُ من ابْتَدأ فيه بالعِمارَة الأميرُ شَمْسُ الدِّين قَراسُنْقُر ، فاخْتَطَّ تُرْبَتَه التي تُجاوِر اليوم تُرْبَة الصُّوفِيَّة وبَنَى حَوْضَ ماءٍ للسَّبيل وجَعَلَ فَوْقَه مَسْجِدًا ... ثم عَمَّرَ بعده نِظامُ الدِّين آدَم أخُو الأمير سَيْف الدِّين سَلار تِجاه تُرْبَة قَراسُنْقُر مَدْفَنًا وحَوْضَ ماءٍ للسَّبيل

---

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢ : ٢٢١؛ ٣ : ٣٥٣، ٣٦٧، ٤٥٢، ٤ : ٢٢٧، ٢٣٩، ٨٤٥.

[٢] نفسه ٤ : ٨٤٥.

[٣] نفسه ٤ : ٩١٦، وفيما تقدم ١٣٠.

[٤] نفسه ٤ : ٧٩٠، ٩٢٠.

[٥] نفسه ٣ : ٣٦٩-٣٧٦.

ومَسْجِدًا مُعَلَّقًا . وتَتَابَعَ الأُمَرَاءُ والأَجْنَادُ وسُكَّانُ الحُسَيْنِيَّة في عِمارَة التُّرَبِ هناك حتى انْسَدَّت طريقُ المَيْدان وعَمَّروا بجوانِبه أيضًا . وأخَذَ صُوفِيَّةُ الخانْقاه الصَّلاحِيَّة سَعيد السُّعَدَاء قِطْعَةً كبيرةً قَدْر فَدَّانَيْن وأداروا عليها سُورًا من حَجَرٍ وجَعَلُوها مَقْبَرَةً لمن يَمُوتُ منهم فسُمِّيَت «تُرْبَةُ الصُّوفيَّة» ، وهي باقِيَةٌ إلى يوْمِنا هذا وقد وَسَّعُوا فيها بعد سنة تسعين وسبع مائةٍ بقِطْعَةٍ من تُرْبَةِ قَراسُنْقُر ، وإن زال قِسْمٌ منها بعد فَتْح شَارِع جَلال الذي يُطلّ عليه الآن سُور القَاهِرَة الشمالي .

وعَمَّرَ أيضًا بجوار تُرْبَة الصُّوفِيَّة الأميرُ مَسْعُودُ بن خَطير تُرْبةً وعَمَّرَ أيضًا مَجْدُ الدِّين السَّلاميّ تُرْبةً وعَمَّرَ الأميرُ سَيْفُ الدِّين كوكاي تُرْبَةً مُقابِل تُرْبَةِ الصُّوفِيَّة ، وعَمَّرَ الأمير طاجار الدَّوادار على رأسِ المِطْبَق مُقابِل تُرْبَة النَّصْر تُرْبَةً ، وعَمَّر الأميرُ سَيْفُ الدِّين طَشْتَمُر السَّاقي على الطَّريق تُرْبَةً ، وبَنَى الأُمَرَاءُ إلى جَانِبه عِدَّةَ تُرَبٍ ، وبَنَى الطَّواشي مُحْسِن البَهائي تُرْبَةً عَظيمةً ، وبَنَت خَوَنْد طُغاي تُرْبَةً تجاه تُرْبَة طَشْتَمُر السَّاقي وجَعَلَت لها وَقْفًا . وبَنَى الأميرُ سَيْفُ الدِّين طُغاي تَمُر النَّجْمي الدَّوادار تُرْبَةً وجَعَلَها خانْكاه وأنشأ بجوارها حَمَّامًا وحَوانيت وأسْكَنَها للصُّوفِيَّة والقُرَّاء . وبَنَى الأميرُ مَنْكلي بُغا الفَخْري تُرْبَةً والأميرُ طَشتَمُر طَلَلَية تُرْبَةً ، والأميرُ أرْنان تُرْبَةً . وبَنَى كثيرٌ من الأُمَرَاءِ وغيرهم التُّرَبَ حتى اتَّصَلَت العِمارَةُ من مَيْدانِ القَبَقِ إلى تُرْبَةِ الرَّوْضَة خارِج بابِ البَرْقِيَّة ، وعُمِّرَت بمَيْدان القَبَقِ أيضًا عِدَّةُ تُرَبٍ . فما ماتَ الملكُ النَّاصِرُ محمد بن قَلاوون حتى بَطَلَ من المَيْدانِ السُّباقُ بالخَيْل ومُنِعَت طَريقُه من كَثْرَة العَمائر» [١].

يَتَّضح من هذا العَرْضِ أنَّ أكثر هذه التُّرَبِ التي أُنْشِئَت في عَهْدِ النَّاصِر محمد ابن قَلاوون وأبنائِه أُقيمَت في الصَّحْراءِ المواجِهَة لبابِ البَرْقِيَّة ؛ أمَّا المَنْطِقَةُ الواقِعة إلى الشَّمال منها حيث كانت تُوجَد عَوامِيدُ السُّباق التي أدْرَكَ المَقْريزيُّ عِدَّةً منها

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤:٩١٩ ـ ٩٢٠.

مَنْصُوبَةً هناك بعد سنة ٧٨٠هـ/٧٧٨هـ [١]. فكان أوَّلُ ما عُمِّرَ فيها تُرْبَةَ الأمير يُونُس الدَّوادار ـ الواقِعة الآن بَحْريّ خانْكاه فَرَج بن بَرْقُوق ـ ثم تُرْبَةَ الأمير قِجْماس ابن عَمّ الملك الظَّاهِر بَرْقُوق [٢].

كانت تُرْبَةُ يُونُس الدَّودار هي بِدايَةَ عِلاقَة السُّلْطان الظَّاهِر بَرْقُوق بهذه المنطقة، لأنَّه لمَّا تُوفِّي والِدُه سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م ـ وكان بَرْقُوق وقتئذٍ مازالَ أميرًا ـ دُفِنَ في تُرْبَة يُونُس الدَّوادار، وكَتَبَ عليها: «لمَّا كان بتأريخ يوم السبت ثامن عشر شَوَّال سنة ثلاثٍ وثمانين وسبع مائةٍ توفِّي المَقَرُّ المرحُوم الشَّرَفي أَنَس ـ تَغَمَّده الله برحمته ـ والِد المَقَرّ الأَشْرَفي العالي السَّيْفي بَرْقُوق أتابَك العَساكر عَزَّ نَصْرُه» [٣]، ولهذا السَّبَب عُرِفَت تُرْبَةُ يُونُس خَطأً باسم أَنَس (أَنَص) العُثْماني، وعندما أَتَمَّ الظَّاهِرُ بَرْقُوق بِناءَ مَدْرَسَته بيْنِ القَصْرَيْن نَقَلَ رُفاة والدِه إلى قُبَّتِها. وبسَبَبِ دَفْنِ الأمير أَنَس في تُرْبَةِ يُونُس في أوَّلِ الأمْر، وَقَعَ اخْتيارُ الظَّاهِر بَرْقُوق على قطعَةِ أرْضٍ كبيرة مجاوِرَة لها وأحاطَ عليها حائِطًا وقَبَرَ فيها مَنْ مات من مَماليك السُّلْطان وكذلك بعض كِبار مَشايخ الصُّوفِيَّة. لذلك عندما مَرِضَ الظَّاهِرُ بَرْقُوق أوْصَى أن يُدْفَنَ تحت أرْجُلِ هؤلاء الفُقَرَاء وأن يُبْنَى على قَبْرِه تُرْبَةٌ، يقولُ المَقْريزيُّ: «فدُفِنَ حيث أوْصَى وأُخِذَت قِطْعَةٌ مِساحَتُها عشرة آلاف ذِراع (٥٨٠٠ مترًا) وجُعِلَت خانْقاه، وجُعِلَ فيها قُبَّةٌ على قَبْرِ السُّلْطان وقبُورِ الفُقَرَاء المذكورين، وتَجَدَّدَ من حينئذٍ هناك عِدَّةُ تُرَبٍ جَليلَة حتى صَار المَيْدانُ شَوَارِعَ وأزِقَّة» [٤].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٣٦٧، ٤: ٧٩٠، ٩٢٠.

[٢] نفسه ٤: ٩٢٠.

[٣] نفسه ٤: ٧٨٨هـ[٢].

[٤] نفسه ٤: ٩٢٠-٩٢١.

وتوالى بعد ذلك بِناءُ التُّرَبِ والخَوانِك في هذا المَوْضِع حيث شَيَّدَ النَّاصِرُ فَرَجُ خانْكاتِه الضَّخْمَة ومُلْحقاتها هناك (٨٠٣-٨١٣هـ/١٤٠٠-١٤١٠م)، وبُنِيَت قُبَّةُ الأمير جاني بك الأَشْرَفي (٨٣١هـ/١٤٢٧م) وقُبَّةُ الأَشْرَف بَرْسباي (٨٣٥هـ/١٤٣٢م)، ومَدْرَسَةُ وخانْكاه وتُرْبةُ الملك الأَشْرَف إينال (٨٥٥هـ/١٤٥١م)، وقُبَّةُ الأمير بَرْسباي البجاسي (٨٦١هـ/١٤٥٦م)، ثم مَسْجِدُ السُّلْطان قايِتْباي والقُبَّةُ التي أنْشأها على قُبُورِ أوْلادِه سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م، ثم قُبَّةُ السُّلْطان قانْصُوه أبو سعيد (٩٠٤هـ/١٤٩٨م) ثم قُبَّةُ الأمير عُصْفُور (٩١٢هـ/١٥٠٦م) وهي القُبَّةُ الوحيدَةُ التي أُلْحِقَ بها سَبيلٌ بين آثارِ مصر[١].

وذَكَرَ المَقْريزيُّ في «مُسَوَّدَةِ الخِطَط» أنَّ شَيْخَه ابن خَلْدُون تَنَبَّأَ بازْدِهارِ هذا المكان واتِّساعِه، يقول: «قال لي شَيْخُنا أُسْتاذُ الزَّمانِ قاضي القُضَاة أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن خَلْدُون غير مَرَّة: لا بُدَّ أن يَصيرَ هذا المكانُ مَدينَةً. وكان ـ رحمه الله ـ في هذا البابِ عَجَبًا يقول أُمُورًا جَرَّبْناها عليه فلم تخطئ، فكنت أرى أنَّه مُحَدَّث»[٢].

وبَلَغَ من ازدِحام هذه المنطقة بالقِبابِ والتُّرَبِ في آخِرِ عَصْرِ دَوْلَةِ المماليك الشَّراكِسة أنْ انْتَقَدَ ابنُ إياس السُّلْطانَ الظَّاهِر أبا سعيد قانْصوه على إنْشائِه تُرْبَتَه بآخِرِ الصَّحْراء لأنَّه «حَصَلَ للنَّاسِ منه غايَة الضَّرَر بسبب ذلك» و«ضَيَّقَ بها الطَّريقَ على المارِّ من هناك، وأَعْمَى تُرَبَ النَّاسِ التي بجواره»[٣].

وأطْلَقَ جومار Jomard ـ أحَدُ العَلماء المُصاحِبين للحَمْلَة الفرنسية ـ على المَقَابِر الموجودة بهذه المنطقة اسم «تُرَب قايِتْباي»[٤]، وهي بالرَّغْم من فُقْدانِ الكثيرِ منها

---

[١] حسن عبد الوهاب: خانقاه فرج بن برقوق وما حولها ٣٠٣-٣٠٥.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٩٢١.

[٣] ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ٤٢٤، ٤٣٧.

[٤] جومار: وصف مدينة القاهرة ٢٢٦.

فإنَّ المُتَبَقي منها الآن يُمَثِّلُ ثَرْوَةً مِعْمارِيةً لم يَجْتَمع مِثْلُها في صَعيدٍ واحِدٍ مثل ما اجْتَمَعَت بها.

وتُعْرَفُ المَقابِرُ التي أُنْشِئَت بَحْريّ قَلْعَةِ الجَبَلِ خارِج بابِ الوَزير، حيث قُبَّة الأمير طَراباي الشَّريفي، بـ«قَرَافَة بابِ الوَزير»، والمَقابِرُ التي أُنْشِئَت إلى الشَّمالِ منها باسم «قَرافَة المُجاوِرين».

التَّنْظِيمُ المَدِينيّ والإدَارِيّ

للعَاصِمَة في العَصْرِ المملُوكي

إنَّنا نَدينُ بمعرفتنا عن وَضْعِ مَدينَة القاهرة ونَسيجِها العُمْراني حتى النِّصْف الأوَّل من القرن التَّاسع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلاديّ للوَصْفِ الشَّامِل الذي قَدَّمه لنا المقريزيُّ في كتابه الرَّائد «المَوَاعِظ والاعْتِبار في ذِكْر الخِطَط والآثار» للمُنْشَآت الدِّينية والاقتصادية وذات الطَّابع الاجْتماعي التي كانت تَذْخَرُ بها القاهرةُ في هذا الوَقْت. وبالرَّغم من أنَّ المقريزيَّ أَلَّف كتابه في فترةٍ حَرِجَة من التَّاريخ المصريّ، هي فترة انتقال السُّلْطة من المماليك البَحْرية وأسْرَة قلاوون إلى المماليك الشَّراكسة وأسْرة بَرْقُوق، فإنَّ المقريزيَّ لم يُهْمِل عُنْصرًا واحدًا من العناصر التي كانت قائمةً في هذا العَصْرِ.

ولكنَّنا لا نَمْلِكُ بعد ذلك أيّ عَمَلٍ مُشَابِهٍ لعَمَلِ المَقْرِيزيّ فيما يخصّ العَصْر المملوكي المتأخِّر، الذي يجب أنْ يُدْرَسَ بمَنْهَجٍ مُخْتَلِفٍ وأكثر صُعُوبَة من الحِقْبَة التي تنتهي عند مُنْقَلَبِ القرن الثَّامِن الهجري.

كان المركزُ السِّياسيُّ للدَّوْلَة قد انتقل نهائيًا منذ مطلع القرن السَّابع الهجريّ/ الثَّالث عشر الميلاديّ مع السُّلْطان الكامِل محمَّد الأيُّوبي إلى «قَلْعَة الجَبَل»، وتركَّزَ النَّشَاطُ الاقْتِصاديّ والدِّينيّ في القَصَبَة قَلْبِ القاهرة الفاطِمية حيث أقام الجزءُ الأكبرُ من سُكَّان العاصِمَة، وفي القرنِ الثَّامن الهجريّ/ الرَّابع عشر الميلاديّ نَمَت بشكلٍ واضحٍ الأحْياءُ الجنوبيةُ الواقعةُ خارج باب زَوِيلَة والممتدّة شرقًا إلى قَلْعَةِ الجَبَل ومَيْدانِ الرُّمَيْلَة وجنوبًا حتى صَلِيبَة ابن طولُون، وشَهِدَت هذه المَنْطِقَة ـ وعلى الأخَصّ في عَصْرِ النَّاصِر محمد بن قلاوون الطَّويل ـ إنْشَاء العَدِيد من المَسَاجِد الجَامِعَة والمَدَارِس والدُّور والقُصُور التي أنشأها جَمِيعًا كبارُ أمراء النَّاصِر محمد بن

قلاوون، حيث نشأ حَيٌّ سكنه كبارُ الأمراء في قُصُورٍ انْتَشَرَت حَوْلَ بِرْكَة الفِيل بالقُرْبِ من مركز الحُكْم في قَلْعَةِ الجَبَل.

كانت قَصَبَةُ القاهِرَة من أمْيَز مَوَاقِع المَدِينَة ويُنْظرُ إليها دائمًا بتَقْديرٍ واحْتِرام وكان من الرَّسْم أنَّ السَّلاطِينَ منذ ملوك بني أيُّوب إذا اسْتَقَرَّ أحَدُهُم في سَلْطَنَة ديار مصر أنْ يَلْبِس خِلْعَة السَّلْطَنَة بظاهِر القاهِرَة ويَدْخُل إليها راكبًا والوَزير بين يَدَيه على فَرَسٍ يحمل عَهْد السُّلْطان الذي كتبه له الخَلِيفَة بسَلْطَنَة مصر على رأسه وقد أمْسَكه بيده، وجَمِيعُ الأمَرَاء ورجال العَسَاكر مُشاةٌ بين يَدَيْه منذ أنْ يَدْخُل إلى القاهِرَة، من باب الفُتُوح أو من باب النَّصْر، إلى أنْ يَخْرُج من باب زَوِيلَة. فإذا خَرَج السُّلْطانُ من باب زَوِيلَة رَكِبَ حينئذٍ الأمَرَاءُ وبَقِيَّةُ العَسْكر.

وكان لا يَمُرُّ بها حِمْل تِبْن ولا حِمْل حَطَب، ولا يَسُوقُ أحَدٌ فَرَسًا بها، ولا يمرُّ بها سَقَّاءٌ إلَّا ورَاويتُه مُغَطَّاة.

وكان كلُّ صَاحِب حَانُوت يُعِدُّ أمامَ حانُوته زيرًا مملوءً بالماء، مَخَافَة أنْ يَحْدُث حَرِيقٌ في مكان فيُتَدَارَك بسُرْعَة، ويُلْزَم صَاحِبُ كلِّ حَانُوتٍ أنْ يُعَلِّق على حَانُوته قِنْديلًا طُول اللَّيْل يَسْرج إلى الصَّبَاح.

ويَنْتَشِرُ بها عُمَّالٌ لكَنْس الأزْبال والأتْرِبَة ونحوها ويقُومُون برَشّ المكان يوميًا، ويُخَصَّص لها طُول اللَّيْل عِدَّةٌ من الخُفَرَاء يطُوفون بها لحِرَاسَة الحَوَانِيت وغيرها، كما يُتَعَاهَد كل قليل بقَطْع ما عَسَاه تَرَبّى من الأوْسَاخ في الطُّرُقات حتى لا تَعْلُو الشَّوَارِع [١].

---

[١] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٣٥٦.

الخَدَمَاتُ العامَّةُ

كان التَّنَقُّلُ دَاخِل المَدِينَة يقومُ به ، كما كان الحالُ في العَصْر الفاطِمِي واستمَرَّ بعد ذلك حتى مَطْلَع القرن التَّاسع عشر ، عَدَدٌ كبيرٌ من المكارِيَّة لديهم عَدَدٌ وَفِير من حَيَوانات الرُّكوب المُزْدَانة ببَرَاذِع جميلة تُؤجَّر لمن يُريدُ ويَصْحَبها أحَدُ غِلْمانهم . كما يتمُّ تَزويدُ المَدِينَة بالمِيَاه بوَاسِطَة السَّقَّائين الذين يحملون قِرَب الماء على ظُهور الجمال والحَمِير ، بينما يَحْملُ رِجالٌ آخرون قِرَبًا مُعَلَّقَةً بِرقابهم ويقومون بتَسْبِيل الماء للنَّاس في الطُّرُقات مقابل نِصْف فِلْس ، وهي قِرَبٌ مُزَيَّنَة وفتُحَتُها مُجَهَّزَة بأنْبُوبٍ من النُّحَاس الأصْفَر ويَحْملُون بيدهم طاسَةً رَشِيقَةً مَنْقُوشَةً ويسيرون وهم يُنادُون على مائهم [١].

نَائِبُ الغَيْبَة

كان السُّلْطانُ المملوكيّ والأمراءُ المماليك هم الذين يُديرون العاصِمَة المصرية ، سَواء فيما يتعلَّقُ بالشُّؤون اليومية أو ما يتعلَّق بحركة التَّعْمِير والتَّشْييد ، ويَتَّضِحُ لنا مَدَىٰ اتِّساع مجال تَدَخُّل السُّلْطان أو من يُنيبه في الإشْرَاف (نائِب السَّلْطَنَة) عند اطِّلاعنا على « التَّذْكِرة » التي كَتَبها ، في ذي الحِجَّة سنة ٦٧٩هـ/ مارس ١٢٨١م ، القاضي أبو عبد الله محمد بن المكرَّم بن أبي الحسن الأنْصاريّ الكاتِب للأمير زَيْنِ الدِّين كَتْبُغا المَنْصوري « نائِب الغَيْبَة » عندما أسْنَدَ إليه السُّلْطانُ المَنْصُور قَلاوون إدارةَ شؤون مصر والقاهرة أثناء تَغَيُّبه في دِمَشْق . وتُعْطينا هذه « التَّذْكِرَةُ » التي حَفِظَ لنا نَصَّها كلٌّ من المؤرِّخ محمد بن عبد الرَّحيم بن الفُرات وكاتب الإنْشَاء أبي العَبَّاس أحمد بن علي القَلْقَشَنْديّ فكرةً عن مفهوم السَّلاطين عن

---

[١] الحسن الوزان : وَصْف أفريقيا ٥٩٢.

مسؤولياتهم تجاه العاصِمَة؛ فممَّا وَرَد فيها مُخْتصًّا بالقاهِرَة :

« أن لا يَمْشي أحَدٌ بالمَدينَة ولا ضَواحيها في الحُسَيْنِيَّة والأحْكار في اللَّيْلِ إلاَّ لضَرُورَةٍ ، ولا يَخْرُجُ أحَدٌ من بيته لغير ضَرُورَةٍ ماسَّة ، والنِّسَاءُ لا يَنْصرِفْن في اللَّيْلِ ولا يخرُجْن ولا يمشين جملةً كافيةً » .

وأنْ تُحْرَس الحبُوسُ وتُحْفَظ باللَّيْل والنَّهار وتُحْلَق لحىَ الأسارىٰ كلِّهم من فِرِنْج وأنْطاكيين وغيرهم ويُعْتَمَدُ ذلك فيهم كلما تَنْبُتُ ، ويُحْتَرَزُ في أمْرِ الدَّاخِل إلى الحبُوس ويُحْتَرَزُ على الأسارىٰ الذين يُسْتَعْمَلون والرِّجال الذين يخرُجون معهم ، ويُقامُ الضُّمَّانُ الثِّقَاتُ على الجانْدارية الذين معهم ، ولا يُسْتَخْدَم في ذلك غريبٌ ولا من فيه ريبَة ، ولا تبيتُ الأسارىٰ الذين يُسْتَعْمَلون إلاَّ في الحبُوس ، ولا يخرج أحَدٌ منهم لحاجَّةٍ تَخْتَصُّ به ولا لحمَّامٍ ولا كنيسة ولا فُرْجَة ، وتُتَفَقَّدُ قيودُهم وتُوثَّق في كلِّ وَقْت ، ويُضاعَف الحرَسُ في اللَّيْل على خِزانَةِ البُنُود باطنها وظاهِرها وعُلوِّها وحوْلها وكذلك خِزانَةِ شَمائِل وغيرها من الحبُوس » .

وأشارت « التَّذْكِرَة » كذلك إلى ضَرُورَة أن « يُرَتَّب جَمَاعَةٌ من الجُنْد مع الطَّوْفِ في المَدينَة لكَشْفِ الأزِقَّة وغَلْقِ الدُّرُوب وتَفَقُّد أصْحابِ الأرْباع وتأديب من يخلّ بمركزه من أصْحاب الأرْباع ، وتكون الدُّرُوب مغْلَقة ، وكذلك يُجَرَّد جَماعَةٌ بالحُسَيْنِيَّة والأحْكار وجميع المراكز ويُعْتَمَد فيها هذا الاعْتِمَاد ، ومَنْ وُجِدَ في اللَّيْل قد خالَفَ المَرْسُوم وتَمَشَّى لغير عُذْرٍ يُمْسَك ويُؤَدَّب » .

وأن « يُحْتَرَز على الأبْوابِ غاية الاحْتِراز وتُتَفَقَّد في اللَّيْل خارجها وباطنها وعند فَتْحها وغَلْقِها الأماكِنُ التي يجتمع فيها الشَّبابُ وأولو الزَّعارة ومن يتعانىٰ العَبَثَ والزَّنْطَرَة لا يُفْسَح لأحَدٍ في الاجتماع بها في ليلٍ ولا نَهارٍ ويكفّون الكفَّ التَّام بحيث تقوم المَهابَة وتَعْظُمُ الحُرْمَةُ ويَنْزَجِرُ أهْلُ البَغْي والعَبَث » .

و« يُرَتَّبُ المُجَرَّدون حَوْلَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين علَى العادة وكذلك جِهَةُ القَرافَة وخَلْفَ القَلْعَة وجِهَة البَحْر وخارجُ الحُسَيْنِيَّة ولا يُهْمَل ذلك ليلةً

واحِدةً ، ولا يُفارقُ المُجَرَّدون مَراكزَهم إلاَّ عند السُّفُور وتكاملِ الضَّوء » .

و« يُتقَدَّم بأن لا يجتمع الرِّجال والنِّساءُ في ليالي الجُمَع بالقَرافتين وتُمْنَعُ النِّسَاءُ من ذلك » .

و« يُهْتَمُّ بعَمَلِ وحَفْرِ وإتْقَانِ خَليج القاهِرَة ومصر المحروستين في وقته بحيث يكون عَمَلًا جَيِّدًا مُتْقَنًا من غير حَيْفٍ على أحَدٍ بل كلّ أحَدٍ يعمل ما يلزمه عملًا جَيِّدًا » .

و« جُسُورُ ضَواحِي القاهرة يُسْرَع في إتْقانها وتعريضها ويُجْتَهَد في حُسْن رَصِّها وفَتْح مَسارِبها وحِفْظها من الطَّارِق عليها وتبقى متقنةً مكملة إلى وَقْتِ النِّيل المبارك ولا تخرج في إمْرتنا عن العادة ولا يحتمى أحَدٌ عن العَمَل فيها عمَّا يلزمه ويحمل الأمْر في جَرارِيفها ومَقَلْقِلاتها على ما تَقَدَّمَت به المراسِيمُ الشَّريفَة في أمْرِ الجُسُور القَرِيبَة والبَعِيدَة »[1] .

*

* *

تَقاسَمَ إدارَة القاهرة وشُؤون سُكَّانها في العَصْرِ المملوكيّ ثلاثُ فِئات : أصْحابُ الشُّرْطة والقُضَاةُ والمُحْتَسِبون .

الوالي وصَاحِبُ الشُّرْطَةِ

كان صَاحِبُ (وَالي) الشُّرْطة هو المسؤول عن حِفْظ النِّظام والأمْن العام ، ومثلما كان الحالُ في العَصْر الفاطِمي نُظِّمَت شُرْطَةُ العاصِمَة في العَصْر المملوكي إلى : « شُرْطَة عُلْيا » تَشْمَل القاهرة وامتداداتها الجنوبية حتى قَناطِر السِّباع (السَّيِّدَة زَيْنَب حاليًا) ، و« شُرْطَة سُفْلى » في مصر أو الفُسْطاط التي أضيف إليها الإشْرافُ

---

[1] ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ٧:١٩٦ـ ١٩٨؛ القلقشندي : صبح الأعشى ١٣:٩٢ـ ٩٥.

على القَرَافَة . كانت رُتْبَةُ صَاحِب شُرْطة القاهرة إمْرَةَ طَبْلَخاناه ، وصَاحِب شُرْطة الفُسْطاط إمْرَة عَشْرَة ، ثم لما أضِيفَ إليه الإشْرافُ على القَرَافَة أصبح أمير طَبْلَخاناه إلاَّ أنَّه لا يَبْلُغ شأو والي شُرْطَة القاهرة . أمَّا مَرْكَزُ الحُكْم ، قَلْعَة الجَبَل ، فكان يتولَّى الإشْراف على النِّظام والأمْن بها واليان : والي القَلْعَة ، وهو أمير طَبْلَخاناه ، و« له التَّحَدُّث على باب القَلْعَة الكبير الذي منه طُلُوعُ عامَّة العَساكر ونُزُولُهم في الفَتْح والغَلْق ونحو ذلك »؛ ووالي باب القُلَّة ، وهو أمير عشرة ، وله التَّحَدُّث على هذا الباب وأهْله فقط [1].

يقول المَقْريزيُّ ، عند ذكره لسُوق الجَمَلُون الكبير المُتَوَصَّل منه إلى البُنْدُقانيين وإلى حارة الجَوْذَرية ، كان « يجلس تجاهه « صَاحِبُ العَسَس »-الذي عرفته العامَّة في زماننا بوالي الطَّوْفٌ من بعد صَلاةِ العشاء في كلِّ لَيْلَة ، ويُنْصَبُ قُدَّامه مِشْعَلٌ يُشْعَلُ بالنَّار طول الليل ، وحوله عِدَّةٌ من الأعْوان وكثيرٌ من السَّقَّائين والنَّجَّارين والقَصَّارين والهَدَّادين بنُوَبٍ مقرَّرة لهم ، خَوْفًا من أن يحدُث بالقاهرة في الليل حَريقٌ فيتداركون إطْفاءه . ومن حَدَث منه في الليل خُصُومةٌ أو وُجِدَ سَكْرانًا ، أو قُبِضَ عليه من السُّرَّاق ، تولَّى أمْرَه والي الطَّوْف وحَكَم فيه بما يَقْتضيه الحالُ » [2].

ويُضيفُ المقريزي أنَّ والي القاهرة دولات خُجا ـ أحد المماليك الظَّاهرية ـ عندما تولَّى ، في سنة ٨٣٥هـ/١٤٣٢م ، بدأ في الإفْراج عن أرْباب الجَرَائم من سِجْنهم وحَلَف لهم أنَّه متى ظفر بأحَدٍ منهم وقد سَرَقَ ليوسِّطَنه وأرْهَبَ إرْهابًا زائدًا ، وركب في الليل وأمْضىٰ وَعيدَه في السُّرَّاق ، فما وَقَعَ له سارِقٌ إلاَّ وَسَّطه ، فذَعر النَّاسُ منه [3]. وأكثر دولات خجا من الركوب ليلًا ونهارًا بفُرْسانه ورجالته ،

---

[1] القلقشندي : صبح الأعشى ٤: ٢٣.
[2] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٣٤٢.
[3] المقريزي : السلوك ٤: ٨٦٩.

وأَلْزَم الباعَة بكَنْسِ الشَّوارع ثم رشّها بالماء، وعاقَبَ على ذلك، ومَنَعَ النِّسَاءَ من الركوب إلى التُّرَب في أيَّام الجُمَع [١].

ونَظَرًا لتَجَبُّر هذا الوالي ولاَّه السُّلْطان بَرْسباي حِسْبَة القاهرة في سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م، «رَغْبَةً من السُّلْطان في جَبروته وقَسْوته وشِدَّة عقوبته وقِلَّة رحمته» [٢]. وتُوفِّيَ دَولات خُجا في نهاية هذا العام.

وعندما اشتكىٰ النَّاسُ من قَسْوَة دولات خُجا، عَزَلَه نائِبُ الغَيْبَة عن ولاية القاهرة واستقرَّ حالُ النَّاس «لحُسْنِ سيرة نائب الغَيْبَة وتثبته وإظهار العَدْل مع كثرة الأمن ورَخَاء أسعار عامة المبيعات كلها» [٣].

كان الوالي (صَاحِب الشُّرْطة) هو المنوط بتَنْفيذ العُقُوبات، وقد عرف العَصْرُ المملوكي أنواعًا من العُقُوبات لم تكن تُعْرَف من قَبْل مثل: «التَّنْصيف» أو «التَّوْسيط» و«العَصْر» و«التَّسْمير»، كما كان الوالي مسؤولًا أيضًا على تنفيذ العقوبات الطويلة الأمد مثل: التَّرْسيمُ أي تعْويق الشَّخْص ومنعه من التَّصَرُّف بنفسه، والسَّجْن. وقد انْتَشَرَت السُّجُون بالقاهرة ومصر وأشهرها: حَبْس المَعُونَة بالقاهرة، وخِزانَةِ شَمائل بجوار باب زَوِيلَة (التي حَلَّ محلَّها جامع المُؤَيَّد شَيْخ) والمَقْشَرَة بجوار باب الفُتُوحِ [٤].

ووَصَفَ المقريزيُّ مُعانَاة المَسْجُونين في سُجُونِ الولاة وما كان يَحِلّ بهم من البلاء وتَسْخِيرهم في الأعْمَال الشَّاقَة من حَفْر وبناءٍ للعَمَائر [٥].

---

[١] المقريزي: السلوك ٤: ٨٧٠.

[٢] نفســه ٤: ١٠٣٣.

[٣] نفســه ٤: ٨٩٤.

[٤] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٥٩٦ـ ٦٠١.

[٥] نفســه ٤: ٥٩٧، وانظر كذلك علاء طه رزق، السجون والعقوبات في مصر عصر سلاطين المماليك، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث، ٢٠٠٠م.

القاضي والمُحتَسِب

كان القُضاةُ في العَصْر الفاطميّ يُمَثِّلون المَذْهَب الإسماعيليّ مذهب الدَّوْلَة، ولكن في فترة الانْقِلاب الذي قادَه الوزيرُ أبو علي الأفْضَل كُتَيْفات في أعقاب وَفاة الإمام الآمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م عَيَّنَ في سنة ٥٢٥هـ/١١٣١م أربعة قُضاة: اثنين من الشِّيعة أحَدُهُما إماميّ والآخر إسماعيليّ، واثنين من السُّنَّة أحدهما شافعيّ والآخر مالكيّ، كلٌّ منهم يَحْكُم بمَذْهَبه ويُوَرِّث بمَذْهَبه، وعَلَّقَ على ذلك ابنُ مُيَسَّر «بأنَّه لم يُسْمَع بمثل هذا في المِلَّة الإسلامية من قبل»[1]. ولكن هذا الوَضْع لم يستمرّ طويلًا فسُرْعان ما قُضِي على انْقِلاب أبي علي الأفْضَل، وفي عصر الدَّوْلَة الأيُّوبية استمَّر العَمَلُ بقاضٍ واحِد كان يُمَثِّل المَذْهَب الشَّافِعيّ.

ولكن اعتبارًا من سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م قَدَّر السُّلطانُ الظَّاهِرُ بيبرس، المُؤَسِّسُ الحقيقيّ لدولة المماليك البحرية، أربعة قُضاة بديار مصر: شافِعيّ ومالكيّ وحَنَفيّ وحَنْبَليّ، يقول المقريزيُّ: «فاسْتَمَرَّ الأمْرُ على ذلك إلى اليوم»[2]. وكان القُضاةُ يتمتَّعون بسُلْطاتٍ قضائية واسعة على الأحْوال الشَّخْصية وعلى العَديد من المشاكِل وعلى الأخَصّ المتعلِّقَة بمسائل الوَقْف والاسْتِبْدال.

وكان لكُلِّ قاضٍ قُضاة أعْوانٌ ينُوبون عنه يُسَمَّون «نُوَّاب الحُكْم». كما كان يخْتار جماعَةً من الشُّهُود يعرفون بـ «الشُّهُود العُدُول»[3].

وفي عَهْدِ سلاطين المماليك تنامىٰ الدَّوْرُ الأخْلاقيّ والاجتماعيّ للمُحْتَسِب نظرًا لتفَشِّي شُرْبِ الخَمْر والتَّجاهُر به وتعاطي الحَشِيش وزيادة عَدَد الغَواني حيث

---

[1] ابن ميسر: أخبار مصر ١١٥؛ ابن حجر: رفع الإصر ١٦٢.

[2] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٠١.

[3] القلقشندي: صبح الأعشى ٤: ٣٦.

كانت تَفْرِضُ عليهم الدَّوْلة ضريبةٌ تعرف بضَمَان المَغَاني وكانت تَنُوبُ عنهم في ذلك امرأةٌ تُعْرَف بـ « ضامِنَة المَغَاني »[١].

أمَّا الدَّوْرُ الاقتصاديّ للمُحْتَسب ، وهو الإشْرافُ على الأسْواق ، فقد تَراجَع هو الآخر نظرًا لتعدُّد الأزَمات الاقتصادية التي شهدتها البلاد . واعتبارًا من القرن التَّاسِع الهجريّ/ الخامِس عَشْر الميلادي نَلْحَظُ بداية انْهِيَار هذه الوظيفة الدِّينية المُهِمَّة التي أرجعها الدكتور أحمد دَرَّاج إلى عَوَامِل ثلاثة : تَدَخُّل كبار الأمراء في تَوْلِية أعْوَانِهم في هذه الوَظِيفَة لخِدْمَة مَصَالحهم؛ وأصْبَحَ تَولّي المُحْتَسب يتمّ عن طريق « البَذْل » ، (أي شِرَاء الوَظِيفَة بمَبْلَغ من المال يُدْفَعُ مقدّمًا) ولم يعد تَوَلِّيها قاصرًا على الفُقَهَاء والمُتَعَمِّمين إنَّما تعدَّاهاً منذ عَهْد السلطان المُؤَيَّد شَيْخ إلى الأمَرَاء أصْحَابِ السُّيُوف ثم اقْتَصَرَت أخيرًا عليهم[٢].

[١] المقريزي : المواعظ والاعتبار ١: ٢٨٦.

[٢] أحمد دَرَّاج : « الحِسْبَة وأثرها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية »، المجلة التاريخية المصرية ١٤ (١٩٦٦-١٩٦٧)، ١١٦.

الفصل الخامس

القاهرة في العصر العثماني

غَدَاة سُقُوطِ دَوْلَةِ المَماليك في مصر والشَّام، سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، واسْتِيلاء العُثْمانيين ـ القُوَّة الجَدِيدَة المتنامِيَّة في العالَم الإسْلامي ـ عليهما، أضْحَت الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّة أكبرَ كيانٍ سياسِي حَوْل البَحْر المُتَوَسِّط منذ الإمْبَرَاطوريَّة الرُّومانِيَّة. ورَغْم فَقْد القَاهِرَة لمكانَتِها كعَاصِمَة لدَوْلَة المَماليك فقد احْتَفَظَت بمكانَةٍ خاصَّة في الدَّوْلَة العُثْمانِيَّة حيث كانت تُعَدُّ المَدِينَة الثَّانية بعد إستانْبُول[1]، وكَفَلَ لها نَشَاطُها التِّجاري والاقْتِصَادِي ومَكانَتُها الثَّقافِيَّة تَعْوِيضًا جُزْئِيًّا عن اضْمِحْلالِ مَكانَتِها السِّياسِيَّة.

سَاعَدَ هذا الوَضعُ الجَدِيد على تَنَامِي الأَنْشِطَة التجارية التي اسْتَفَادَت منها كثيرًا مصر والقَاهِرَة بسبَب مَوْقِعِها عند مُلْتَقَى قارَتَيْن وإشْرَافِها على البَحْر المُتَوَسِّط المَفْتُوح على أوروبا.

لم يُغَيِّر هذا التَّحَوُّلُ في وَضْعِ مصر كثيرًا من مَرْكَز القَاهِرَة التي ظَلَّت تَحْتَفِظُ بمكانتها التي اكتَسَبَتْها منذ العَصْرِ الفَاطِميّ كنُقْطَة عُبُورٍ رَئِيسَة للتِّجارَة الشَّرْقِيَّة، كما أنَّها لم تتأثَّر إلَّا جُزْئِيًّا وبالتَّدْرِيج باكتِشَافِ الأورُوبيين لطَرِيقِ رأسِ الرَّجاء الصَّالِح المُتَّجِه إلى الهِنْد.

---

[1] جومار: وصف مدينة القاهرة ٧٥.

واسْتَفَادَت القَاهِرَةُ كذلك من اسْتِمْرَار كونها مركزًا لتَجَمُّع الحُجَّاج والمُعْتَمِرين القادِمين من شَمَالِ أفْرِيقْيا مُرُورًا بالإسْكَنْدَرِيَّة والقَاهِرَة، الأمْر الذي سَاعَدَ على تَنَامِي المراكز التجارية الرَّئيسَة المنتشرة حَوْل القَصَبَة في قَلْبِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة التي تَضَاعَفَت مِسَاحَتُها من ٦٦ إلى ١٣٠ فَدَّانًا ومن تَضَاعُف عَدَدِ الوَكالات من ٥٨ وَكَالَة في نِهايَة العَصْرِ المملوكي إلى ٣٦٠ وَكالَة في العَصْرِ العُثْماني [١].

وفي العُمُوم لم تَتَدَهْوَر القاهِرَةُ إطْلاقًا خِلال القُرُون الثَّلاثَة للهَيْمَنَة العُثْمانية، حتى أضْحَت في القَرْن الثَّامِن عَشْر أكثر اتِّسَاعًا وأكثر سُكَّانًا من أيّ فَتْرَةٍ سابِقَةٍ في تاريخها.

واسْتَمَرَّت القاهِرَةُ مَرْكَزًا لحَيَاةٍ دِينِيَّةٍ وثَقَافِيَّةٍ نَشِطَةٍ بفَضْلِ الجامِع الأزْهَر الذي بَرَغَ دَوْرُه كجامِعَةٍ إسْلامية كبرىٰ امْتَدَّ إشْعَاعُها إلى أماكِن كثيرة في العَصْرِ العُثْماني.

التَّطَوُّرُ العُمْرَانيّ للمَدِينَة

تَبْدُو المُعْطياتُ المُتَوَافِرَة لنا عن قَاهِرَة العُثْمَانِيين، وخَاصَّةً قُرْبَ نِهَايَة العَصْرِ العُثْمَانِيّ، مُؤَكَّدَةً نَسِبيًّا بالمُـقَارَنَة بالمَعْلُومَات التَّقْرِيبية التي تَبْدُو في العَرْضِ السَّابِق. فخَرِيطَةُ «وَصْفِ مصر» تُعْطِي لنا، بما لا يَدَعُ مَجَالًا للشَّكّ، الأبْعَادَ الصَّحِيحَة للمَنَاطِق العُمْرَانِيَّة نحو سنة ١٨٠٠م. فقد كانت القَاهِرَةُ في هذا الوَقْت - باسْتِثْنَاء ضَاحِيتَيّ بُولاق ومِصْر القَدِيمَة - تَشْغَلُ، كما يَظْهَرُ على الخَرِيطَة، مِسَاحَةً تَبْلُغ ١٧٣٨ فَدَّانًا، وكان يُوجَدُ دَاخِل هذه الحُدُود مَنَاطِقٌ وَاسِعَةٌ خَالِيَة من البِنَاء، مثل البِرَك التي كانت تُغْمَر بالمِيَاه في وَقْتِ الفَيَضَان وتُكَوِّنُ في بَقِيَّة العَام أرَاضٍ وَاسِعَةٍ مُعْشِبَة ومُتْرِبَة، كان أكْبَرُها بِرْكَةَ الأزْبَكِيَّة (٤٥

---

[١] A. Raymond, *Le Caire*, pp.218-20.

فَدَّانًا) وبِرْكَةَ الفِيل (٣٣ فَدَّانًا) ؛ والبَساتِينَ الوَاسِعَة المُنْتَشرة على الأخَصّ في البَرّ الغَرْبِيّ للخَلِيج (٣٩ فَدَّانًا) ؛ والمَقَابِرَ الوَاقِعَةَ على الأخَصّ في غَرْبِيّ المَدِينَة ، والتي كان عَدَدٌ كبيرٌ منها يُسْتَخْدَم حتى هذا الوَقْت (٨ أفْدِنَة) ؛ بالإضَافَة إلى المَيَادِين والرِّحاب الوَاسِعَةِ الوَاقِعَة في سَفْحِ المُقَطَّم مثل الرُّمَيْلة وقَرَامِيدَان (٢٧ فَدَّانًا) . ويَبْلُغُ مجموعُ هذه المَوَاضِعِ نحو ١٦٦ فَدَّانًا ونِصْف ، وبذلك فإنَّ المَنَاطِقَ المَبْنِيَّة بالفِعْل دَاخِل القَاهِرَة كانت تَبْلُغ ١٥٧١ فَدَّانًا (تحوي الشَّوَارِع والأزِقَّة وبعضَ الرِّحاب والخَلِيج) مُوَزَّعَةً على النَّحْو التَّالي : الحُسَيْنِيَّة ٦٢ فَدَّانًا (بنسبة ٣,٩٪ من المِسَاحَة الكُلِّية) ، القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة ٣٦٤,٢٥ فَدَّانًا (٢٣,٢٪) ، الحَيّ الجُنوبي المُمْتَدّ من بَابِ زَوِيلَة وحتى طُولُون ٦٣٣ وثُلْث فَدَّان (٤٠,٣٪)، ثم الجُزْء الوَاقِع في البَرّ الغَرْبِيّ للخَلِيج ٥١٢ فَدَّانًا (٣٢,٦٪) [١].

فقد كان يَشُقُّ القاهِرَة بامْتِدَاد طُولِها إلى قِسْمَيْنِ متفاوتين نَوْعًا ، «الخَـليج» الذي يَرْجِعُ إلى بِدَايَة العَصْرِ الإسْلامي ، ويَبْدَأ من مَوْضِعِ مجرىٰ العُيُون ويَصُبّ ماءَه شَمَال القاهرة في قَنَاة أبي المُنَجَّا التي تُمَثِّل الفَرْع البِلُوزي القَديم (التُّرعة الإسْماعيلية الآن) ، وعن طريق هذا الخَلِيج كان الماءُ يَدْخُلُ في زَمَنِ الفَيَضَان إلى البِرَك المُنْتَشِرَة جَنُوب المدينة القديمة وغربها وشمالها في أعْقابِ احْتِفالٍ يُعْرَفُ بـ « كَسْرِ الخَلِيج » .

ويتراوَحُ عَرْضُ الخَلِيج بين ٥ و ١٥ مترًا ، ولا يُوجَدُ له رَصِيفٌ وإنَّما كانت المنازلُ المُطِلَّةُ عليه غاطِسَةً في الماء بحيث لا يمكن رُؤْيتُه من أي مكانٍ في المَدِينَة فيما عَدَا المنازِلُ التي يَرْتطِمُ بها الخَلِيج [٢].

ووُجِدَ في غَرْبِي المَدِينَة خَلِيجٌ آخَر يَرْجِعُ تأريخه إلى عام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م ، هو « الخَلِيج النَّاصِري » الذي يَخْرُج من النِّيل جنوبيّ كوبري قصر النِّيل الحالي ويَمُرّ من

---

[١] A. Raymond, *La population du Caire* p. 207.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ١٥٦ ـ ١٥٧.

وَسَطِ المدينة الحالي حتى مَيْدَان عُرَابي وينتهي شَمالًا إلى ناحِيَة سِرْياقُوس. كان يَرْبِطُ جانِبيّ كلّ خَليج عَدَدٌ من القَنَاطِر تَرْجِعُ جَمِيعُها إلى العَصْرِ المملوكي، ومَبْنِيَّةٌ كلُّها بالحِجَارَة ومُكَوَّنَة من عَقْدٍ وَاحِدٍ على شَكْل الأقْوَاس القُوطِيَّة ويَبْلُغُ عَدَدُ هذه القَنَاطِر نحو العشِرين أهمّها «قَنَاطِرُ السِّبَاع» في مَوْضِع مَيْدان السَّيِّدة زَيْنَب الآن وهي الوَحِيدَة ذات العَقْدَيْن[1].

ولاشَكَّ أنَّ أكثرَ أحْيَاء القَاهِرَة نَشَاطًا في العَصْرِ العُثْماني كان على الأخَصِّ الأحْيَاء الوَاقِعَة دَاخِل الحُدُود الفَاطِمِيَّة، أي المَنْطِقَة التي تَحْوي الأسْوَاقَ الرَّئِيسَة وأكْبر عَدَدٍ من الوَكَالَات وأكْبَر تَكَدُّسٍ للمُنْشَآت الدِّينِيَّة وذات الطَّابع الاجْتِمَاعيّ. وقد كَانت القَاهِرَةُ كلُّها تَقْرِيبًا مأهُولَةً وعَامِرَةً بالمَعَالِم من مَسَاجِد ودُور وقُصُور ووَكالات. كما أنَّ الأحْيَاءَ الجَنُوبِيَّة والغَرْبِيَّة التي لم تكن مَشْغُولَةً تمامًا بالسُّكّان أو قَلِيلَة العُمْرَان في العَصْرِ المَمْلوكيّ، أضْحَت تَضُمُّ منذ هذا التَّأريخ تَجَمُّعًا سُكّانِيًا ضَخْمًا.

وتَكَوَّنَ النَّسِيجُ العُمْرَانيُّ للمَدِينَة في العَصْر العُثْماني - إذَا اسْتَثْنَيْنا العَدِيدَ من الطُّرُقِ الكبيرة - من سِكَكٍ قَصِيرَةٍ جِدًّا وتَفْريعات شَدِيدَة التَّعَرُّج تُؤَدِّي إلى دُرُوبٍ لا تُحْصَىٰ. وشَوَارِعُها في غَايَة الضِّيق يَتَرَاوَحُ عَرْضُها ما بين خَمْسَة وخَمْسَة عَشْر قَدَمًا بل إنَّ منها ما يَتَرَاوَحُ عَرْضُه بين قَدَمَيْنْ أو قَدَمَيْنْ ونِصْف فقط، وكثيرًا ما تتماسّ شُرُفاتُ المَنَازِل المُتَقابِلَة في هذه الشَّوَارِع. ولا تَحْمِلُ شَوَارِعُ المَدِينَة، حَتَّى أكثرها طُولًا اسْمًا واحِدًا بل تَتَغَيَّر أسْمَاؤها على الدَّوَام[2].

أمَّا أسْوَاقُ المَدِينَة فلم يَتَغَيَّر مَوْضِعُها كثيرًا عَمَّا كانت عليه في العَصْرِ المملوكي، وكان الاخْتِلافُ الوَحِيدُ بينها في تَغَيُّر اخْتِصاصات بَعْضها. وكانت تَنْقَسِمُ في

---

[1] جومار: وصف مدينة القاهرة ٨٦؛ أوليا چلبي: سياحتنامه مصر ٣٧١- ٣٧٢.

[2] جومار: وصف مدينة القاهرة ٧٦.

نهاية القرن الثَّامِن عَشْر للميلاد إلى أَسْوَاقٍ مَوْسِمِيَّة وأَسْوَاقٍ دائِمَة بَلَغَ مجموعُها ٥٦ سُوقًا أهمّها سُوق العَصْر وسُوق المغارِبَة وسُوق المُوسْكي وسُوق السِّلاح [١].

ويُوَضِّحُ التَّوْزِيعُ الجُغْرَافِيّ لحَمَّامَات القَاهِرَة في العَصْرِ العُثْمَانيّ أنَّ القَاهِرَة العُثْمَانِيَّة كانت تَحْتَلُّ بالفِعْل المَنَاطِق الوَاقِعَة إلى الجَنُوبِ وإلى الغَرْبِ من القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة (كانت ٢٨ منها تَقَعُ في القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة وحَمَّامَان في الحُسينية وثلاثين حَمَّامًا جَنُوبيّ باب زَوِيلَة و ١٧ في غَرْبِي الخَلِيج) بينما كانت غالبِيَّةُ الحَمَّامات التي ذَكَرَها المَقْرِيزِيّ في القَرْن التَّاسِع الهِجْرِيّ تَقَعُ دَاخِلَ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة. وعلى كلِّ حَالٍ، فلم يكُن في القَرْنِ الثَّامِن عَشْر ثِمَة تَكَدُّسٍ سُكَانيّ لا يَقَعُ بالقُرْبِ منه بمَسَافَةٍ مَعْقُولَةٍ حَمَّامٌ عَامّ. ومن الطَّبِيعيّ أنْ يكون لتَوْزِيع الحَمَّامات في كُلِّ مَنَاطِق التَّجَمُّع السُّكَّاني صِلَةٌ مُبَاشِرَةٌ بتَوْزِيع السُّكَّان [٢].

ويَبْدُو انْتِقَالُ مَسَاكِن الأُمَرَاء والطَّبَقَة الحَاكِمَة من القَاهِرَة والمَنَاطِق المُحِيطَة بالقَلْعَة إلى شَوَاطِئ بِرْكَة الفِيل جَنُوبي القَاهِرَة، ثم إلى الأَحْيَاءِ الوَاقِعَة في البَرِّ الغَرْبِيّ للخَلِيج، يَبْدُو مُتَّصِلًا بالنُّمُوّ التَّدْرِيجِيّ لسُكَّان القَاهِرَة. فقد أدَّىٰ الازْدِحَامُ المُتَزَايِدُ لمَرْكَز القَاهِرَة الاقْتِصَادِيّ (بَيْنَ القَصْرَيْن وقَصَبَة القَاهِرَة) الذي نَمَت فيه بشكلٍ مُضْطَّرد الأَنْشِطَةُ التِّجَارِيَّةُ للمَدِينَة، وكذلك انْتِشَار العُمْرَان في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين بَابِ زَوِيلَة والقَلْعَة (شَارِع الدَّرْب الأَحْمَر وشَارِع التَّبَّانَة وشَارِع بابِ الوَزِير حَالِيًا) أدَّىٰ إلى انْتِقَالِ أَحْيَاءِ الطَّبَقَةِ المُتَوَسِّطَة (العُلَمَاء وكِبَار التُّجَّار) لتَحْتَلَّ تَدْرِيجيًّا المَنَاطِقَ المَفْتُوحَة خَارِجَ أَسْوَارِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة [٣].

---

[١] جومار: وصف مدينة القاهرة ٨٢-٨٣.

[٢] A. Raymond, *Les bains publics au Caire* p. 131.

[٣] A. Raymond, *La population du Caire* p. 207; Id., *Le Caire sous les Ottomans (1517-1798)*, p. 21.

فقد كانت مَنَازِلُ الأُمَرَاءِ ورِجَالِ الطَّبَقَةِ الحَاكِمَة، حتى نِهَايَة العَصْر المَمْلوكِيّ، مُتَمَرْكِزَةً بشَكْلٍ وَاضِحٍ في القَاهِرَة بحُدُودِها الفَاطِمِيَّة وحَوْل القَلْعَة. وقد أدَّى انْتِشَارُ الأَنْشِطَة التُّجَارِيَّة واسْتِقْرَارُ صِغَار التُّجَّار والحِرَفِيِّين في هذه المَنَاطق، إلى أنْ يَبْحَث خَوَاصُّ المَماليك (البَكَوات والكُشَّاف) عن مَنَاطِقَ أخْرىٰ بَعِيدَةً عن الزِّحَام والضَّوْضَاء[١].

أدَّت هذه الحَرَكَةُ، التي تمَت في غُضُونِ القَرْنَين العَاشِر والحادِي عَشْر الهِجْريّ/ السَّادِس عَشْر والسَّابِع عَشْر الميلاديّ، إلى تَمَرْكز البَكَواتِ والأُمَرَاءِ وعَسَاكِرِ الأوجَاقَات العُثْمَانِيَّة أوَّلًا حَوْلَ بِرْكَة الفِيل جَنُوبِي القَاهِرة وبالقُرْبِ من الخَلِيج، ثم ابْتِدَاءً من مُنْتَصَفِ القَرْنِ الثَّاني عَشْر الهجريّ/ الثَّامِن عشر الميلادِيّ في البَرّ الغَرْبِيّ للخَلِيج وعلى الأَخَصّ حَوَل بِرْكَةِ الأزْبَكِيَّة[٢].

ويَرْجِعُ تَفْسِيرُ ظَاهِرَة انْتِقَالِ أحْيَاءِ السَّكَنِ الأرِسْتُقْرَاطية في العَصْرِ العُثْمَانِيّ أوَّلًا إلى النَّشَاطِ الحِرَفِيّ والاقْتِصَادِيّ المُتَزَايِد في قَلْبِ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة والذي يَتَّضِحُ من تَضَاعُف المُنْشَآت والأمَاكِن المُخَصَّصَة للأنْشِطَة الاقْتِصَادِيَّة في شَكْلِ وَكالات وخَانَات وأسْوَاق (كان بالقَاهِرَة الفَاطِمِيَّة ٣١ سُوقًا من بين ٧٧ سُوقًا و ١٢ خَانًا من ١٣ خَانًا و ١٣٩ وَكَالَة من بين مائتي وَكَالَة وَرَدَ ذِكْرُها بكِتَابِ وَصْفِ مِصْر)، وثانيًا إلى التَّعْمِير المُتَزَايِد للأحْيَاء الجَنُوبِيَّة والغَرْبِيَّة للمَدِينَة[٣].

وبَدَأ العُمْرَانُ يَجِدُ طَرِيقَه إلى شَوَاطِئ بِرْكَة الفِيل منذ القَرنِ التَّاسِع الهجريّ/ الخَامِس عَشْر الميلادِيّ، وبَدَأ أوَّلًا على الشَّاطئ الشَّرْقِيّ للبِرْكَة (كان الشَّاطئ الغَرْبِيّ مَلِيئًا بالبَسَاتين). ويَدُلُّ عَدَمُ وُجودِ الأسْوَاق في المَنْطِقَة الوَاقِعَة جَنُوب غَرْبِيّ

---

١ *Ibid.*, p. 210; *Ibid.*, p. 21.

٢ *Ibid.*, p. 210.

٣ A. Raymond, «Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIIIᵉ siècle», *JESHO* VI (1963), p. 68.

بَابِ زَوِيلَة إلى أنَّ هذا القِسْم من المَدِينَة لم يكُن مَأْهُولًا بالسُّكَّان في هذا الوَقْت ، بينما تُوَضِّحُ إقَامَةُ العَدِيدِ من المَسَاجِد في المَنْطِقَة نَفْسِها فيما بعد ، العُمْرَان المُتَزَايد لهذه المَنْطِقَة [١] .

لم يكن اسْتِقْرَارُ الأُمَرَاءِ حَوْل بِرْكَةِ الفِيل مُمْكِنًا إلَّا بفَضْلِ حَرَكَةٍ عُمْرَانِيَّةٍ ارْتَبَطَت كذلك بنُمُوّ المَدِينَة منذ القَرْن العَاشِر الهجريّ/ السَّادِس عَشْر الميلاديّ هي انْتِقَالُ حَيّ المَدَابِغ . فحتى هذا التَّأْريخ كانت مَدَابِغُ القَاهِرَة تَقَعُ جَنُوب غَرْبِي بَابِ زَوِيلَة في المَنْطِقَة المُمْتَدَّة بين البَابِ وبِرْكَة الفِيل على بُعْدِ ثَلاثِ مائة مِتْر فَقَط من الحَدِّ الجَنُوبيّ للقَاهِرَة الفَاطِمِيَّة [٢] . ولهذا السَّبَب عُرِفَت هذه المَنْطِقَة في حُجَج الأَوْقَافِ القَدِيمَة بـ « خُطِّ المَدَابِغ القَدِيم » الذي كان لا يَقْطُنُه ، كما يَذْكُر علي مُبَارَك ، إلَّا المَدَابِغِيَّة وما مَاثَلَهم ، وكان يَضُمُّ الشَّارِعَ المعرُوف بشَارِع سُوق العَصْر وشَارِع الدَّاوُدِيَّة وما حَوْلَهُما من حَارَاتٍ وعُطَفَ [٣] . ومع اضْطِرَاد زِيَادَةِ عَدَدِ السُّكَّان أصْبَحَت الحَاجَةُ مُلِحَّةً إلى سَكَنِ هذه الخِطَّة وتَضَرَّرَ المُقيمُون بها من رَوَائِح قَاذُورات المَدَابغ ومُخَلَّفَاتِها مِمَّا أدَّى إلى نَقْلِ المَدَابِغ إلى مَنْطِقَة بابِ اللُّوق [٤] ، دُون شَكٍّ في المَوْضِع الذي يُطْلِقُ عليه كِتَابُ « وَصْفِ مِصْر » بِرْكَة الدَّم [٥] . [لم تَنْتَقِل المَدَابِغُ إلى مَوْقِعِها الحاليّ خَلْفَ مَجْرَىٰ العُيُون إلَّا في عام ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٦م بعد أنْ أدَّىٰ اتِّسَاعُ القَاهِرَة إلى انْتِقَال أحْيَاء سَكَنِيَّةٍ كَامِلَةٍ إلى مَنْطِقَة بَابِ

---

[١] A. Raymond, *op. cit.*, p. 64.

[٢] A. Raymond, «Quartiers et mouvements populaires au Caire au XVIII[e] siècle» dans *Poletical and Social Change in Modern Egypt*, pp. 106-7; Id., La population du Caire, p. 210; Id., «Le deplacement des tanneries à Alep, au Caire et à Tunis à l'époque ottomane: un 'indicateur' de croissance urbaine», *RHM* (1977), pp. 7-8, 192-200; *Le Caire sous les Ottomans* pp. 19-20.

[٣] علي مبارك : الخطط التوفيقية ٣:٦٣ـ٦٥.

[٤] نفسه ٣: ٦٤.

[٥] جومار : وصف مدينة القاهرة ٨٠ـ ٨١.

اللُّوق][1] ويَدُلُّ على مَوْضِعِها شَارِعُ المَدَابغ المعروف اليوم بشَارِع شرِيف باشا في وَسَطِ المَدِينَة .

وبما أنَّ عليّ مُبَارَك لم يُحَدِّد تأريخًا وَاضِحًا لانْتِقَال المَدَابغ إلى بَابِ اللُّوق ، فالأرْجَحُ أنَّه تَمَّ في مَطْلَعِ القَرْنِ الحادِي عَشْر الهجريّ/ السَّابع عشر الميلاديّ أو قَبْل ذلك بقَلِيل . فيرىٰ أندريه ريمون A. Raymond أنَّه يمكننا الرَّبْط بين انْتِقَالِ المَدَابِغ وبِنَاءِ وَاحِدٍ من أهَمِّ آثَارِ القَاهِرَة العُثْمَانِيَّة هو مَسْجِد المَلِكَة صَفِيَّة (مُسجَّل بالآثار برقم ٢٠٠) الذي تَمَّ بناؤُه في سنة ١٠١٩هـ/١٦١٠م مُتَاخِمًا للحَدِّ الغَرْبِيّ للمَدَابغ القَدِيمَة ، وكذلك مَسْجِد البُرْدِيني بشارع الدَّاوِدِيَّة (مسجَّل بالآثار برقم ٢٠١) الذي تَمَّ بِنَاؤه سنة ١٠٢٥هـ/١٦١٦م ومَسْجِد العَمْرِي الذي بُنِيَ في قَلْبِ الحَيّ نَفْسه في الفَتْرَةِ نَفْسِها (مسجَّل بالآثار برقم ٤٢٦) . ويبدُو مَنْطِقِيًا أنَّ هذه المَسَاجِد لم تُبْنَ في هذا المَوْضِع إلَّا بعد أن تَخَلَّصَ الحَيُّ من وُجُودِ المَدَابِغ[2].

هكذا أصْبَحَت المَنَاطِقُ المُتَاخِمَةُ لبِرْكَة الفِيل هي الحَيّ الرَّئيس لسَكَنِ الأرسْتُقْرَاطِيَّة القَاهِرِيَّة في العَصْر العُثْمَانيّ المُبَكِّر حيث وُجِدَ بها أكْثَرُ من خُمْسَيّ مَنَازِل كُبَرَاء المَدِينَة . وعلى العُمُوم فقد كان الشَّاطئ الأيْمَن للخَلِيج ، الذي تَحُدُّه القَاهِرَةُ الفَاطِمِيَّة من الشَّمَال وحَيُّ القَلْعَة من الشَّرْق ، في الفَتْرَة بين سنتي ١٠٥٠هـ/١٦٥٠م و١١٦٥هـ/١٧٥٠م هو المكانُ المُفَضَّلُ لسُكْنَى الغَالِبِيَّة العُظْمَىٰ من بَكَوَات وأمَرَاء القَاهِرَة إذْ أقَامَ فيه ٤٧ من كِبَارِ الشَّخْصِيَّات من مَجْمُوع ٨٢ (أي بنسبة ٥٧٪) من بينهم ٢٧ من البَكَوَات من مَجْمُوعِ ٣٧ (أي بنسبة ٧٢٪)[3].

---

[1] علي مبارك : الخطط التوفيقية ٣: ٦٤.

[2] A. Raymond, *La population du Caire* pp. 210-11.

[3] A. Raymond, *Les quartiers de résidance au Caire*, pp. 72-73.

وصَحِبَ زِيَادَة عَدَد السُّكَّان وتَوْسِيع رُقْعَة الأَحْيَاء السَّكَنِيَّة حَرَكة لبِنَاءِ الأَسْبِلَة اعْتِبارًا من عام ١٠٠٩هـ/١٦٠٠م، فمن بين ١١٢ سَبِيلًا يُعْرَفُ تأريخُ إنْشَائِها في العَصْرِ العُثْمَانيّ نجد ٤٦ سَبِيلًا ـ أي نحو نِصْف العَدَد ـ أُنْشِئَت في الفَتْرَة بين سنتي ١٠٣٥هـ/١٦٢٦م و ١١٨٩هـ/١٧٧٥م جَنُوبيّ القَاهِرَة كما أُقِيمَ أيْضًا أرْبَعَة عَشْر مَسْجِدًا في هذه المَنْطِقة. وتَدُلُّ هذه الطَّفْرَةُ المِعْمَارِيَّة على التَّحَوُّل الذي صَاحَبَ تَطُوَّر المَنْطِقَة الوَاقِعَة جَنُوبيّ القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة.

والظَّاهِرَةُ الجَدِيرَةُ بالمُلاحَظَة في تَطَوُّرِ أحْيَاءِ السَّكَن الأرُسْتُقَراطي في القَاهِرَة بين القَرْنَيْن السَّادِس عَشْر والثَّامِن عَشْر للميلاد هي البُعْد عن ضَوَاحي القَلْعَة، مَرْكَز الحُكْم. ويُفَسِّرُ أندريه ريمون A. RAYMOND هذه الظَّاهِرَة بسَبَب تَزَايُد إقَامَة العَسْكَر في مَنَاطِق سُوقِ السِّلاح وسُوَيْقَة العِزِّي (شَارِع سُوقِ السِّلاحِ وشَارِع النَّبَوِيَّة اليوم) حتى نهاية القَرْنِ الثَّامن عَشْر بالإضَافَة إلى تَحْوِيل يُوسُف كَتْخُدا عَزَبان لمَنْزِل وَالِدِه [توفّي سنة ١١٠٦هـ/١٦٩٤م] الوَاقِع في سُوقِ السِّلاح إلى وَكَالَة تُجَارِيَّة في مُطْلَعِ هذا القَرْن [١].

وسَاعَدَ كذلك وُجُودُ مَقَرّ البَاشَا وثُكْنَات الإنْكِشَارِيَّة والعَزَب في القَلْعَة على انْدِلاع الفِتَن والاضْطِرَابَات المُتَتَالِيَة في القَاهِرَة طَوَال القَرْنَين السَّابع عَشْر والثَّامِن عَشْر للميلاد، والتي كان غَرَضُها الأَسَاسيّ احْتِلالَ القَلْعَة. وكان مَسْرَحُ هذه الصِّرَاعَات هو المَنْطِقَة المُجَاوِرَة لمَيْدَان الرُّمَيْلَة وجَامِع السُّلْطان حَسَن، الذي تَنَازَع المُتَخَاصِمُون الاسْتِيلاءَ عليه سَوَاء للتَّحَصُّن به أو لضَرْبِ القَلْعَة منه، ممَّا جَعَلَ من المُتَعَذِّر قِيَامُ أحْيَاء سَكَنِيَّة بهذه المَنْطِقَة [٢].

---

[١] A. RAYMOND, *Les quartiers de residence*, pp. 69-70.

[٢] *Ibid.*, pp. 70-72؛ عبد الكريم رافق: «ثورات العساكر في القاهرة في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأوّل من القرن السابع عشر ومغزاها»، الندوة الدولية لألفية القاهرة ٢: ٧٤٥-٧٧٥).

أمَّا البَرُّ الغَرْبِيّ للخَلِيج فلم يُعْرَف كمَنْطِقَة سَكَنِيَّة خَاصَّة بالبُرْجُوَازِيَّة القَاهِرِيَّة إلَّا مُنْذ بِدَايَة القَرْنِ السَّابع عَشْر عندما أقَامَ به شَيْخُ الإسْلام زَيْنُ العَابِدِين البَكْري الصِّدِّيقي ، وظَلَّ منذ هذا التأريخ ولمُدَّةٍ طَوِيلَة مكانًا لإقَامَة البُرْجُوَازِيَّة المُتَمَيِّزَة التي تُمَثِّلها طَبَقَةُ المَشَائخ والعُلَمَاءُ وكِبَارُ التُّجَّار . وأشْهَر مُمَثِّلي هذه الطَّبَقَة ، الذين أقَامُوا حَوْلَ بِرْكَة الأزْبَكِيَّة ، عَائِلَةُ الشَّيْخ البَكْرِيّ[١] وعَائِلَةُ شَيْخ التُّجَّار محمد الدَّادَا الشَّرَايْبي المتوفَّى سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٥م[٢] ، والذي يَرْجِعُ إلى ابنه القَاسِم فَضْلُ تَشْيِيد المَسْجِد المعروف بالرُّوَيْعِيّ سنة ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م[٣] (مُسَجَّل بالآثار برقم ٥٥) .

ومع بِدَايَة القَرْن الثَّامِن عَشْر أصْبَحَ أفْرَادُ أوُجَاق العَزَب ، لأسْبَابٍ نَجْهَلُها ، يَسْكُنُون بكَثْرَةٍ في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين الخَلِيج والأزْبَكِيَّة . ولكن العُمْرَانَ الحَقِيقِيّ لهذه المَنْطِقَة لم يَبْدَأ إلَّا بَعْد أنْ شَيَّدَ عُثْمَانُ كَتْخُدا القَزْدوغْلي في سنة ١١٤٧هـ/١٧٣٤م مَسْجِدًا وحَمَّامًا وسَبِيلًا وكُتَّابًا بالقُرْبِ من بُسْتَانِ الخَشَّاب جَنُوبِيّ البِرْكَة . ومَازَالَ الجَامِعُ مَوْجُودًا إلى اليَوْم باسْم جَامِع الكِخْيَا على ناصيتيّ شَارِعَيّ الجُمْهُورِيَّة وقَصْرِ النِّيل[٤] (مسجَّل بالآثار برقم ٢٦٤) .

وكانت أحْيَاءُ العَتَبَة الزَّرْقَاء (العَتَبَة الخَضْرَاء الآن) والرُّوَيْعي هي أوَّلَ الأحْيَاء التي نَشَأت في هذا المَوْضِع حَوْل جَامِع أزْبَك ، الذي تَنْتَسِبُ إليه المَنْطِقَة . أمَّا المَنَاطِقُ الأبْعَد من ذلك مِثْل قَنْطَرَة الدِّكَّة فقد كانت تَبْدُو غير مأمُونة ، وظَلَّ حَيُّ السَّاكِت إلى الشَّمَال مَنْطِقَةَ نُزْهَة شِبْه رِيفِيَّة حتى عَصْرِ علي بك الكَبِير (١١٨٣-١١٨٧هـ/١٧٧٠-١٧٧٣م) .

---

[١] D. Behrens-Abouseif, *Arbakiyya and its Environs*, pp. 49-51.

[٢] *Ibid.*, pp. 58-59.

[٣] A. Raymond, *op. cit.*, pp. 72-73.

[٤] الجبرتي : عجائب الآثار ١ : ١٦٨؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٥ : ٨٩؛ D. Behrens-Abouseif, *op. cit.*, pp. 55-59.

ويَرْجِعُ النَّظَرُ إلى الأَزْبَكِيَّة كحَيّ من الأحْيَاء الأرِسْتُقْرَاطِيَّة المِصْرِيَّة إلى الفَتْرَة التي شَيَّدَ فيها رِضْوَان الأَلْفِي كَتْخُدا عَزَبَان دَارَهُ الكَبِيرَة في العَتَبَة الزَّرْقَاء، وبما أَنَّ شَرِيكَ رِضْوَان في السُّلْطَة إبراهيم كَتْخُدا مُسْتَحْفَظَان، اسْتَقَرَّ هو الآخر في الأَزْبَكِيَّة في المَنْزِل المُجَاوِر له والذي كان يَمْلُكه محمَّد شَلَبي بن إبراهيم الصَّابُونْجي فقد ضَمِنَ اسْتِقْرَارُ هَذَيْن الأَمِيرَيْن بهذا الحَيّ مكانَةً اجْتِمَاعِيَّةً له مُسَاوِيَةً لتلك التي تَمَتَّعَت بها بِرْكَةُ الفِيل قَبْلَ ذلكَ بقَرْنٍ من الزَّمَان[1].

وتُمَثِّلُ الفَتْرَةُ التي أَصْبَحَ فيها عبدُ الرَّحْمَن كَتْخُدا القَزْدُوغْلي الرَّجُلَ الأَوَّل في مِصْر منذ سنة ١١٥٢هـ/١٧٣٩م وحتى نَفْيِه سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥م على يد علي بك الكَبِير والتي امْتَدَّت نَحو رُبْع القَرْن، عَصْر ازْدِهَارٍ عُمْرَاني لمصر وللقَاهِرَة على وَجْه الخُصُوص. فقد قَامَ عبدُ الرَّحْمَن كَتْخُدا بدَوْرٍ أَسَاسِيّ في النَّشَاط العُمْرَاني للقَاهِرَة تَجْعَل منه أحَد كِبارِ البَنَّائين الذين عَرَفَتْهُم المَدِينَة مازالَت آثارُهُ البَاقِيَة شَاهِدَةً عليه، وقد أَثْبَتَ أَنْدِريه ريمون A. Raymond أَنَّه في خِلالِ الخَمْسِين عَامًا المُمْتَدَّة بين سنتيّ ١١٤٠هـ/١٧٢٦م و ١١٨٩هـ/١٧٧٥م بُنِيَ في القَاهِرَة ٢٦ مَسْجِدًا و ٤١ سَبِيلًا (تمثِّل أكثر من ثُلُثَيّ المَسَاجِد والأسْبِلَة التي خَلَّفَها العَصْرُ العُثْمَانِيّ والتي تَبْلُغ ٧٧ مَسْجِدًا و ١١٨ سَبِيلًا)، وتَتَزَامَن أكثرُ هذه المُنْشَآت مع الفَتْرَة التي تَوَلَّىٰ فيها عبدُ الرَّحْمَن كَتْخُدا (١١٥٢-١١٧٩هـ/١٧٣٩-١٧٦٥م) حَيْثُ تَمَتَّعَت المَدِينَةُ في هذه الفَتْرَة بنَشَاطٍ عُمْرانيّ غير مَسْبُوق في العَصْرِ العُثْمَانيّ ورُبَّما طَوَال تَارِيخ المَدِينَة كلِّه: ١٩ مَسْجِدًا ومَدْرَسَةً، وسِتّ زَوَايَا وتَكَايا، وتِسْعَة وعِشْرِين سَبِيلًا بالإضَافَة إلى التَّرْمِيمَات والإضَافَات التي أَدْخَلَها عبد الرَّحْمَن كَتْخُدَا على العَدِيد من المُنْشَآت التي تَرْجِعُ إلى عُصُورٍ سَابِقَة[2] مثل: المَشْهَد الحُسَيْنِيّ وقُبَّة ومَارِسْتَان قَلاوُون والجَامِع الأَزْهَر والذي يَذْكُر الجَبَرْتي «أنَّه لو لم

---

[1] A. Raymond, *op. cit.*, pp. 72-74.

[2] الجبرتي: عجائب الآثار ٢:٦-١٠.

يكن له من المآثِر إلّا ما أنْشَأ بالجامِع الأزْهَر من الزِّيادَة والعِمارَة التي تَقْصُرُ عنها هِمَمُ الملوك لكفاهُ ذلك »[١].

وأَهَمُّ مُنْشَآت عَبْد الرَّحْمَن كَتْخُدا التي مازَالَت بَاقِيَةً في القَاهِرَة وتَدُلُّ على الطِّرَاز الجَدِيد الذي أدْخَلَه في العِمَارَة : سَبِيلُ بَيْنَ القَصْرَيْن (١١٥٧هـ/١٧٤٤م) وجَامِعُ وسَبِيلُ وكُتَّاب الشَّيْخ مُطَهَّر العام نفسه ، والإضَافَات المَوْجُودَة بالجَامِع الأزْهَر والتي تَرْجِعُ إلى عام ١١٦٩هـ/١٧٥٦م[٢].

وعندما وَصَلَ الفِرَنْسِيُّون إلى مصر كان محمَّدُ بك الألْفِي قد فَرَغَ لتَوّه من بِنَاءِ قَصْرِه جَنُوب غَرْبي بِرْكَة الأزْبَكِيَّة فاتَّخَذَه بُونَابَرْت BONAPARTE مَقَرًا له وخَلَفَهُ فيه كليبر KLEBER حيث لقى فيه حَتْفَه على يَدِ الشَّاب الأزْهَرِيِّ سُلَيْمَان الحَلَبِيّ[٣]. وقد أُقِيمَ مَوْضِعَ هذا القَصْرِ ، الذي أقَام به محمَّد علي باشا بَعْضَ الوَقْت وبَايَعَهُ فيه مَشَائِخُ مِصْر والقَاهِرَة ومَوْضِع مَدْرَسَة الألْسُن التي كانت مُجَاوِرَة له فيما بعد ، فُنْدُق شِبَرْد القَدِيم الذي دُمِّرَ في حَرِيقِ القَاهِرَة الشَّهِير سنة ١٩٥٢. وفي زَمَنِ الحَمْلَة كان حَيُّ الأزْبَكِيَّة هو القِسْمُ السَّادِس من أحْيَاء القَاهِرَة الثَّمَانِيَة الكُبْرىٰ التي قَسَّمَها إليها الفِرَنْسِيُّون .

وعلى ذلك فإنَّنا مَدِينُون للعَصْرِ العُثْمَانيّ بتَنْظِيم المَدِينَة التَّقْلِيدِيَّة وذلك قَبْلَ حُدُوثِ التَّحَوُّلات الكَبِيرَة في القَرْنَيْن التَّاسِع عَشْر والعِشْرِين ، فحتى ذلك الوَقْت احْتَفَظَت القاهِرةُ بوَضْعِها كمدينَةٍ تَقْلِيديةٍ لم يَطْرَأ عليها تَغْيِيرٌ جِذْرِيّ إلّا بعد عام ١٨٦٩م .

---

[١] الجبرتي : عجائب الآثار ٢ : ١٠.

[٢] راجع لتفاصيل أكثر A. RAYMOND, «Les constructions de l'émir 'Abd al-Rahmân Katkhuda au Caire» *An.Isl.* XI (1972), pp. 235-51; ID., *Le Caire des Janissaires - L'apogée de la ville ottamane sous 'Abd al-Rahmân Katkhuda*, Paris CNRS 1995, pp. 68-119; D. BEHRENS-ABOUSEIF, «The 'Abd al-Rahmân Katkhudâ Style in 18th Century Cairo», *An. Isl.* XXVI (1992), pp. 117-26.

[٣] الجبرتي : عجائب الآثار ٣:٣٨٤-٣٨٥؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية ٣:٣٦٢-٣٦٣.

خِطَطُ القَاهِرَة في القَرْنِ الثَّامِن عَشْر

من أبْرَزِ ما يُمَيِّز المُدُن الإسْلاميَّة التَّقْلِيدِيَّة الوُجُودُ الوَاضِح لأحْيَاء سَكَنِيَّة تُحِيطُ بمَنَاطِق النَّشَاط الاقْتِصَادِي . ورغم اخْتِلافِ الألْفَاظ التي تُطْلَقُ على هذه الأحْيَاء من مَدِينَةٍ إلى أخْرَىٰ (حَوْمَة في فاس والجَزَائِر ، وحَارَة في القَاهِرَة ودِمَشْق ، ومَحَلَّة في فَارِس وحَلَب) واخْتِلافِها على مَدَىٰ تاريخ المَدِينَة الوَاحِدَة (خِطَّة وحَارَة وخُطّ في القَاهِرَة) ، فإنَّ البِنَاءَ الدَّاخِلِيّ لهذه الأحْيَاء (مَنْطِقَة مُغْلَقَة نِسْبِيًّا مكوَّنة من شَبَكَة مُتَدَرِّجَة من المَسَالِك) ووَظِيفَتها (تَقْرِيبًا أحْيَاء سَكَنِيَّة بَعِيدَة عن أيّ نَشَاطٍ اقْتِصَادِيّ مُتَخَصِّص) شيءٌ شِبْه ثَابِت ، بحيث يُمْكِنُنا أنْ نَعُدَّها أحَدَ المَلامِح البَارِزَة للمَدِينَة الإسْلامية في العُصُور الوُسْطَىٰ والحَدِيثَة [١] .

ولا يُمْكِنُنا الاعْتِمَادُ على تَقْديرٍ مَعْقُولٍ لعَدَدِ حَارَات القَاهِرَة في أوَاخِر القَرْنِ الثَّامِن عَشْر إلَّا عن طَرِيق الوَصْف الذي يُقَدِّمُه علماءُ الحَمْلَة الفِرَنْسِيَّة ، كما أنَّ تَحْدِيدَ مَوَاقِع هذه الحَارَات بدِقَّة أصْبَحَ أيْضًا مَيْسُورًا بفَضْلِ الخَرِيطَة التَّفْصِيلِيَّة المُلْحَقَة بكِتابِ « وَصْف مصر » . ويَتَّفِقُ عَدَدُ حَارَات (أحْيَاء) القَاهِرَة ، الذي يَبْلُغ اثنين وخَمْسِين حَارَة في وَصْفِ الحَمْلَة [٢] ، على وَجْهِ التَّقْرِيب ـ كما يَقُولُ أنْدريه ريمون A. Raymond ـ مع العَدَد الذي يُمْكِن اسْتِخلاصُه من قَائِمَة مَشَايِخ الحَارَات التي تَضُمُّها وَثَائِقُ أرْشِيف الحَمْلَة الفِرَنْسِيَّة ، وهو ٥٨ شَيْخًا ويمكن إنْقَاصُ هذا الرَّقَم إلى ٥٥ فقط إذا وَضَعْنَا في الاعْتِبَار أنَّ ثَلاثَةً من هذه الأحْيَاء تَكَرَّرَ ذِكْرُه

---

[١] A. Raymond, «La géographie des *hâra* du Caire au XVIII^e siècle», *Livre de Centenaire de l'IFAO*, p. 415; J.-Cl. Garcin, «Toponymie et topographie urbaines médiévales à Fustat et au Caire», *JESHO* XXVII (1984), p. 113.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ٧٧.

مرَّتين . ومع ذلك يَبْقَى هذا الرَّقَمُ أَقَلَّ من الرَّقَم الحَقِيقي ، فقد اكْتَشَفَ أندريه ريمون A. RAYMOND خِلالَ بَحْثِه في وَثَائِق أَرْشِيف القَاهِرَة ـ وهو بَحْثٌ لا يَدَّعى أنَّه تَامٌّ وشَامِلٌ ـ وُجودَ ١٦ حَارَة بينها إحْدَى عَشْرَة لم يَرِد ذكرُها في قَائِمَة « وَصْفِ مصر » ، كما أنَّ قَائِمَة أَرْشِيف الحَمْلَة تَخْتَلِفُ كثيرًا مع القَائِمَة الوَارِدَة في « وَصْفِ مصر » . ولذا فإنَّ رقم ٦٣ (٥٢ + ١١) الذي انْتَهَى إليه ريمون هو بَدْورِه غَيْر دَقِيق ، والرَّقَم الحَقِيقِيّ لعَدَدِ الأَحْيَاء يَقْرُب دون شَكٍّ من المائة .

كانت هذه الحَارَات الـ ٦٣ مُوَزَّعَةً على النَّحْو التالي : ٢٣ داخِل سُور القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة و ١٩ بالمَنْطِقَةُ الجَنُوبِيَّة خارِج باب زَوِيلَة و ٢٠ في المَنْطِقَة الوَاقِعَة في البَرِّ الغَرْبِي للخَلِيج ، وأَكْثَر من وَاحِدَة بنَاحِيَة الحُسَيْنِيَّة شَمَال القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة [١] .

كانت هذه الحارات مُخَصَّصَة للسُّكْنَى ، والدَّلِيلُ على ذلك قِلَّةُ عَدَد الحارَات الموجُودَة في المناطِق التي يَتَرَكَّزُ فيها النَّشَاطُ التِّجَاري الكَبِير مثل القَصَبَة وامْتِدَادَاتها حتى صَلِيبَة ابن طولُون وكذلك خان الخَلِيلي . كما أنَّ مُعْظَمَ الحارَات التي أمْكن تحديدُها على خَرِيطَة وَصْف مصر تَقَعُ في أطْراف المدينة القديمة في المناطِق التي استقرَّت فيها الأَحْيَاءُ الشَّعْبِيَّة ، بينما يَنْدُر أنْ نجد حارَةً واحِدةً بالقرب من أحْياء المدينة المُتَمَيِّزَة في ضَوَاحِي بِرْكة الفيل وبِرْكة الأَزْبَكِيَّة [٢] .

وعندما دَخَلَ الفِرنْسِيُّون القَاهِرَة مَهَّدُوا جُمْلَةً كبيرةً من شَوَارِع المَدِينَة ، وفَتَحُوا مَنَافِذَ اتِّصَالٍ كثيرةٍ بين قَلْعَةِ الجَبَل ومُخْتَلَفِ أحْيَاءِ المَدِينَة ، واخْتَطُّوا طُرُقًا تَرْبِطُ القَاهِرَة بنَهْرِ النِّيل غَرْبًا ، وزَرَعُوا أشْجَارًا على جَانِبِيّ مَيْدَان الأَزْبَكِيَّة ، والأَهَمُّ من ذلك أنَّهُم قَسَّمُوا المَدِينَة إلى ثَمَانِيَة أقْسَام إدَارِيَّة بالإضَافَة إلى القَلْعَة ، يُشْرِفُ على

---

١ A. RAYMOND, «Problèmes urbains et urbanisme au Caire aux XVII^e et XVIII^e siècles», *CIHC*, pp. 355-56; ID, *La géographie des hara* pp. 416-18.

٢ A. RAYMOND, *Problèmes urbains et urbanisme au Caire*, p.356.

كُلٌّ قِسْمٍ منها عَدَدٌ من قَادَتِهم . وقد قُسِّمَت خَرِيطَةُ القَاهِرَة المُصَاحِبَة لـ « وَصْفِ مصر » إلى ثَمانية أقْسَام تَبَعًا لهذا التَّقْسيم [١]. وظَلَّ هذا التَّقْسِيمُ مَعْمُولًا به بعد الفِرنْسيين إلى أوَاخِر القَرْنِ التَّاسِع عَشْر وأوَائِل القَرْنِ العِشْرين ، يقول علي مُبَارَك ، بعد أنْ ذَكَرَ تَقْسِيمَ الفِرنْسيين القَاهِرَة إلى ثَمَانِيَة أثْمَان : « وكل ثُمْنٍ ينقسمُ شِياخات تكثر وتقلّ بالنسبة لكِبَر الثُّمْن وصِغَرِه ، ولكلّ ثُمْنٍ شَيْخٌ يُعْرَف بـ « شَيْخ الثُّمْن » ، مُرَتَّبه شَهْرِيًا من المُحَافَظَة مائة قِرْش صَاغ ، ولكلِّ شِيَاخَةٍ شَيْخٌ يُعْرَف بـ « شَيْخ الحَارَة » ليس له مُرَتَّبٌ من المُحَافَظَة ، وإنّما تَكَسُّبُه يكون من النُّقُود التي يَأْخُذُها برَسْم الحُلْوَان من سُكّان الأمْلاك التي في شِيَاخَتِه ، لأنَّ العَادَة أنَّ من أرَادَ أنْ يُؤَجِّر بَيْتًا في حَارَة من الحَارَات يكون ذلك بمَعْرِفَة شَيْخ الحَارَة ، وبعد تأجِيرِه للبَيْتِ يَدْفَعُ له أجْرَة شَهْرٍ برَسْم الحُلْوَان » .

كانت القَاهِرَةُ مُقَسَّمَةٌ في عَهْدِ علي مُبَارَك إلى الأثْمَان التَّالِيَة : ثُمْن المُوسْكي ، وثُمْن الأزْبَكِيَّة ، وثُمْن باب الشَّعْرِيَّة ، وثُمْن الجَمَالِيَّة ، وثُمْن الدَّرْبِ الأحْمَر ، وثُمْن الخَلِيفَة ، وثُمْن عَابِدِين ، وثُمْن السَّيِّدَة زَيْنَب ، إضَافَةً إلى ثُمْنِ بُولاق ، وثُمْن مِصْر العَتِيقَة [٢].

وأُقِيمَت على مَدَاخِل الدُّرُوب والحَارَات أبْوابٌ لمَنْع السَّرِقَات بعد امْتِدَادِ العُمْرَانِ خَارِج أسْوَار القَاهِرَة . وأوَّلُ إشَارَةٍ تُقَابِلُنا في المَصَادِرِ تُفِيدُ إنْشَاءَ مِثْل هذه البَوَّابَات تَرْجِعُ إلى سنة ٨٦٤هـ/١٤٥٩م ، فقد كَثُرَت السَّرِقاتُ في هذا العَام ممَّا دَعَا الأغْنِيَاءَ والمَيْسورِين إلى إقَامَة بَوَّابَاتٍ على الحَارَات والدُّرُوبِ وعَيَّنُوا لها بَوَّابِين لحِرَاسَتِها ، فكانت تُغْلَقُ عَقِبَ صَلاةِ العِشَاء بينما كان بَعْضُها يُغْلَقُ عَقِب الغُرُوبِ بقَلِيل. [٣] كما

---

[١] الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٣٥؛ جومار : وصف مدينة القاهرة ٩٠.

[٢] علي مبارك : الخطط التوفيقية ١: ٨٦.

[٣] أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور ٢: ٣٣٢؛ جومار : وصف مدينة القاهرة ٧٦.

وَرَدَت إشَارَاتٌ إلى إقَامَة بَوَّابَات ودُرُوب في حَوَادِث سَنوات ٩٠٣هـ/١٤٩٧م و ٩٢٢هـ/١٥١٦م [١]. وكانت أبْوَابُ هذه الدُّرُوب والحَارَات هي وأبْوَابُ المَدِينَة تُغْلَقُ عند وُقُوعِ اضْطِرَابَات سِيَاسِيَّة أو مُشَاحَنَات بين مُخْتَلَفِ طَوَائِف الجُنْد.

وشَرَعَ الفِرِنْسِيُّون بعد وُصُولِهم إلى القَاهِرَة في إزَالَة أبْوَابِ الدُّرُوبِ والبَوَّابَات النَافِذَة، فيَذْكُر الجَبَرْتي - في حَوَادِث سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م - أنَّ عَدَدًا من عَسَاكِر الفِرِنْسِيين خَلَعُوا أبْوَابَ الدُّرُوب والعُطَف والحَارَات، كَمَا خَلَعُوا أبْوَابَ الدُّرُوب غَيْر النَّافِذَة أيضًا، ونَقَلُوا جَمِيعَ ذلك إلى بِرْكَة الأزْبَكِيَّة عند رَصِيفِ الخَشَّاب ثم كَسَرُوها وبَاعُوها للوَقُود [٢].

وفي أوَائِل القَرْنِ التَّاسِع عَشْر بعد أنْ دَانَت الأمُورُ لمُحمَّد علي بَاشا صَدَرَت الأوَامِرُ بنَزْعِ البَوَّابَات التي على الدُّرُوب مُبَالَغَةً في اسْتِتْبَابِ الأمْن واسْتِقْراره [٣].

ورَغْمَ ما أصَابَ البَوَّابَات من التَّخْريب فقَد بَقِيَ منها عَدَدٌ قَلِيلٌ يَرْجِعُ الفَضْلُ في بَقَائِه إلى لَجْنَةِ حِفْظِ الآثَار العَرَبِيَّة التي سَجَّلَتْها كأثَرٍ مثل: بَابِ حَارَة زُقَاق المِسْك بالخِيَمِيَّة، وحَارَةِ الألاتِلي بالغُورِيَّة، وبَوَّابَةِ طَرَبَاي ببَابِ الوَزِير، وبَابِ دَرْبِ المَبْيَضَة بالجَمَالِيَّة، وبَابِ حَارَة بَرْجَوَان بالنَّحَاسِين، وبَابِ مُتَّصل بقُبَّة تَتَر الحِجَازِيَّة بالقَفَّاصِين بقِسْم الجَمَالِيَّة، وبَوَّابَة بَيْتِ القَاضِي بجِوَار قِسْم الجَمَالِيَّة [٤].

---

[١] ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ٣٨٢، ٥: ٤٩-٥٠.

[٢] الجبرتي: عجائب الآثار ٣: ٢٩؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١: ١٩٧.

[٣] حسن عبد الوهاب: «تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها»، مجلة المجمع العلمي المصري ٢/٣٧ (١٩٥٤-٥٥)، ٣٦.

[٤] نفســه ٣٧.

عَدَدُ سكَّان القَاهِرَة بالقِيَاس إلى تَوْزِيع حَمَّامَاتِها وأسْبِلَتِها

في دِرَاسَةٍ عن « مَدِينَة إسْتَانْبُول في القَرْنِ السَّابع عَشْر » أشَارَ روبير منتران ROBERT MANTRAN إلى أنَّه قد يكون من المُفِيد مُقَارَنَة المَنَاطِق السَّكَنِيَّة وتَوْزِيع الأسْبِلَة والحَمَّامات على الأحْيَاء لمعرفة ما إذا كان عَدَدُ المُنْشَآت يَتَزَايدُ بالاضْطِرَاد مع كَثَافَة السُّكَّان . فدِرَاسَةٌ من هذا النَّوْع تَجْعَلُنا نَتَحَقَّق فيما إذا كان إنْشَاءُ هذه المُنْشَآت ، ذاتَ الطَّابع الاجْتِماعي ، قد أدَّى إلى تَدَفُّق السُّكَّان على بَعْض الأحْيَاء ، أو أنَّ تَمَرْكُز السُّكَّان في بَعْضِ الأحْيَاء هو الذي دَفَعَ المُحْسِنِين وأهْلَ الخَيْر إلى بِنَاءِ هذه المُنْشَآت [١]؟ وبالطَّبْع فإنَّ الإجَابَة على هذا التَّسَاؤل ستُتِيحُ لنا التَّعَرُّف نِسْبِيًّا على العَدَد شِبْه الفِعْلِيّ لسُكَّان المَدِينَة إذا قَدَّرْنا عَدَدَ الأفْراد الذين يَخْدِمهم السَّبِيلُ أو الحَمَّامُ الوَاحِد . وبفَضْلِ كِتَابِ « وَصْفِ مِصْر » ، الذي يُقَدِّم لنا قائِمَةً كَامِلَةً لحمَّامات وأسْبِلَة القَاهِرَة مع التَّحْدِيد الدَّقِيق لمَوَاضِعِها ، فإنَّنا نَسْتَطِيعُ القِيَامَ بدِرَاسَة من هذا النَّوْع عن القَاهِرَة في نِهَايَة القَرْن الثَّامِن عَشْر . وقد أثْبَتَت هذه الدِّرَاسَة ، التي قامَ بها أنْدرِيه ريمون ANDRÉ RAYMOND، أنَّ تَوْزِيعَ الحَمَّامَات والأسْبِلَة على مَنَاطِق القَاهِرَة الكبرىٰ يتناسَبُ تَقْرِيبًا مع عَدَدِ السُّكَّان الذين يَسْتَخْدِمُونها لضَرُورَاتهم اليَوْمية على النَّحْوِ التَّالى [٢]:

---

[١] R. MANTRAN, *Istanbul dans la seconde moitié du XVII^e siècle - Essai d'histoire institutionnelle et Sociale,* Paris 1962, p.40.

[٢] A. RAYMOND, «Signes urbains et ètude de la population des grandes villes arabes à l'époque ottomane», *BEO* XXVII (1974), p. 187; ID., *Le Caire sous les Ottomans* p. 25.

	الحَمَّامَات	الأسْبِلَة	المِسَاحَةُ المَبْنِيَّة
الحُسَيْنِيَّة	٢ (٢,٨٪)	٧ (٣,١٪)	٦١ فَدَّانًا (٣,٩٪)
القاهِرة الفاطمية	٢٨ (٣٧,٥٪)	٧٣ (٣٢,٢٪)	٣٦٤ فَدَّانًا (٢٣,٢٪)
خارجُ باب زَوِيلَة	٣٠ (٣٧٪)	٩٥ (٤٢٪)	٦٣٣ فَدَّانًا وثُلث (٤٠,٣٪)
البَرُّ الغربي للخَليج	١٧ (٢٣,٦٪)	٥١ (٢٢,٦٪)	٥١٢ فَدَّانًا (٣٢,٦٪)
المجموع	٧٧	٢٢٦	١٥٧٠ فَدَّانًا وثُلْث

وقَدَّرَ كِتَابُ « وَصْف مِصْر » عَدَدَ سُكَّانِ القَاهِرَة نحو سنة ١٢١٦هـ/١٨٠٠م بـ ٢٦٣ ألف نَسَمَة بحِسَاب عَدَدِ المَنَازِل وعَدَدِ الأَفْرَاد الذين يَقْطُنُون كلَّ مَنْزِل[١] (كان يُوجَدُ في هذا الوَقْت ٢٦ أَلْف مَنْزِل مَسْكُون) ، فتكونُ الكَثَافَةُ الإجْماليةُ للسُّكَّان بالنِّسْبَة للفَدَّان الوَاحِد ، إذا أخَذْنا في الاعْتِبَار المِسَاحَة المَبْنِية فَقَط (١٥٧١ فَدَّانًا) ١٦٧ نَسَمَة لكُلِّ فَدَّان [٢]. ويُقَدِّر مارسيل كليرجيه M. CLERGET أنَّ كَثَافَة سُكَّانِ قِسْمَيّ بابِ الشَّعْرية والمُوسْكي ، وهُمَا القِسْمَان اللذان يَقَعَان بكَامِلْهِما دَاخِل حُدُودِ القَاهِرَة العُثْمَانِيَّة في هذا التَّأريخ ، كانت ١٩٧ و ١٩٥ نَسَمَة لكلِّ فَدَّانٍ على التَّوَالي [٣]. وتُعَدُّ هذه الأَحْيَاءُ أحْيَاءً تَقْلِيدية لم يَطْرَأ عليها تَغْيِيرٌ يُذْكَر منذ نِهَايَة القَرْن الثَّامِن عَشَر ، فتَحْدِيثُ القَاهِرَة أصَاب بوُضُوحٍ فَقَط الأَحْيَاءَ الوَاقِعَة في البَرِّ الغَرْبِيّ للخَلِيج .

وتُصْبِحُ دِرَاسَةُ تَوْزِيع السُّكَّان على مَنَاطِق القَاهِرَة المُخْتَلِفَة ممكنةً إذا اعْتَبَرْنا نُقْطَة الانْطِلاقِ لها تَوْزِيعَ الأسْبِلَة والحَمَّامَات على مَنَاطِق القَاهِرَة في نِهَايَة القَرْنِ الثَّامِن

---

[١] جومار : وصف مدينة القاهرة ٩٠ـ ٩١.

[٢] A. RAYMOND, *La population du Caire* pp. 207-8; ID., *Le Caire sous les Ottomans* pp. 25-26.

[٣] M. CLERGET *Le Caire* I, p. 253.

عَشْر . وتَبَعًا لهذا التَّوْزيع فإنَّه يمكن تَقْديرُ عَدَدِ سُكَّان القَاهِرَة دَاخِل الحُدُودِ التي تُثْبِتها خَرِيطَةُ «وَصْف مِصْر» على النَّحْو التَّالي : نَحْو ٨٠٠٠ نَسَمَة (أي بنسبة ٣٪ من المجموع) في الحُسَيْنِيَّة، و ٩٠,٠٠٠ (٣٤,٢٪) في القَاهِرَة الفَاطِمِيَّة، و ١٠٠,٠٠٠ (٣٨٪) جنوبيّ باب زَوِيلَة، و ٦٥,٠٠٠ (٢٤,٧٪) في البَرِّ الغَرْبِي للخَلِيج . وتَبَعًا لذلك فإنَّ عَدَدَ السُّكَّان كان مُوَزَّعًا تَقْريبًا بالتَّنَاسُب مع مِسَاحَة كلٍّ من أقْسَامِ القَاهِرَة الكُبرىٰ [١].

ويَذْكُر جومار Jomard أنَّ الفرنسيين أنشأوا سِجِلَّات لتَسْجِيل المَوْتى في كلِّ قِسْمٍ من أقسام القاهرة، قامَ بتَسْجيلها طوال السَّنَوَات الثَّلاث التي قَضاها الفرنسيون في مصر رئيس الأطِبَّاء M. Desgenettes ونُشِرَت في جريدة *La Décade égyptienne*، وكان بنيَّتهم - إذا أتيح لهم الوَقْت - أنْ يُنْشئوا سِجِلَّات مماثِلَة لتَسْجِيل حَرَكة المَوَاليد [٢].

العِمَارَةُ الدِّينيَّة في العَصْرِ العُثْماني

عَرَفَت القاهرةُ إبَّان العَصْر العُثماني نَشَاطًا عُمْرَانِيًّا كبيرًا، وإنْ كان لا يمكن مقارَنَتُه مع المُنْشآت الضَّخْمَة التي خَلَّفَها لنا العَصْرُ المملوكي سواء من حيث أهَمِّيَّة المفاهِيم أو إتْقان التَّنْفِيذ، إلَّا أن وَفْرَة هذه المُنْشآت تَشْهَدُ - في مستوى أقلّ تَوَاضُعًا - أنَّ رُوحَ الابْتكار في هذا المجال لم تَخْتَفِ إطْلاقًا مع الفَتْح العُثْماني، بل إنَّ كثيرًا منها يكْشِفُ حتَّى عن شُعُورٍ وَاضِحٍ بالاحْتِياجات الحَضَرِيَّة (الأسْبِلَة والحَمَّامات).

---

[١] A. Raymond, *La population du Caire*, p. 208.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ٢٤٦-٢٤٧.

ومع ذلك ، فالغالِبُ على المُنْشَآت العُثْمانية أنَّها جاءَت مُتَفَرِّقَةً ومُنْعَزِلَةً لا نرى فيها إلَّا نادِرًا ظُهُورَ اهْتمام حَضَرِي ، أي رَغْبَة في تَنظيم الفَرَاغ العُمْراني بطريقةٍ مَنْطِقِيَّة [١] .

المَسَاجِد

تُعَدُّ المَسَاجِدُ المُنْشَآت الدِّينية الأسَاسِيَّة التي أقَامَهَا العُثْمَانِيُّون في القَاهِرَة . ويَبْلُغُ عَدَدُ المَسَاجِد العُثْمَانِيَّة المَوْجُودَة بالقَاهِرَة والتي تَحْتَفِظُ إلى الآن بحَالِتها الأصْلِيَّة نحو خَمْسَة وثلاثين مَسْجِدًا ، منها تِسْعَة وعِشْرُون مَسْجِدًا بُنِيَت وَفْق الطِّرَاز المَمْلُوكيّ في عِمَارَة المَسَاجِد ، وسِتَّة مَسَاجِد بُنِيَت وَفْق الطِّرَاز العُثْمَانيّ مع مُلاحَظَة أنَّ أهَمَّ تَغْيير طَرَأ على هذه المَسَاجِد كان فقط في تَصْمِيم مآذِنها حيث أصْبَحَ الشَّكْلُ السَّائِدُ هو أُنْمُوذَج المِئْذَنَة العُثْمانية الأسْطُوانية ذات القِمَّة المَخْرُوطية المُدَبَّبَة ، وكانت أوَّلًا ذات شُرْفَتَيْن ثم سَادَ بعد ذلك شَكْلُ المِئْذَنَة ذات الشُّرْفَة الوَاحِدَة .

ومن أمْثِلَة المَآذِن التي الْتَزَمَت بالطِّرَاز المَملوكيّ : جَامِع مُصْطَفَىٰ جُورْبَجي مِيرْزَة بِبُولاق (١١١٠هـ/١٦٩٨م) ، وجَامِع الأمير عُثمَان كَتْخُدا المعروف بجَامِع الكِخْيا (نَاصِيَة شارعي قَصْر النِّيل والجُمهوريَّة) (١١٤٧هـ/١٧٣٤م) ، وجَامِع الكُرْدي بسُوَيْقَة اللَّالا (١١٣٦هـ/١٧٢٣م)، وجَامِع مَسِيح باشا بالخَلِيفَة (٩٨٣هـ/١٥٧٥م) ، وجَامِع آلتي بَرْمَق باليَكَنِيَّة الجَدِيدَة (قبل ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م) ، وجَامِع المَحْمُودِيَّة بمَيْدَان القَلْعَة (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) وجَامِعُ يُوسُف الحِين ببَابِ الخَلْقِ (١٠٣٥هـ/١٦٢٥م) .

وتَخَلَّت العِمَارَةُ العُثْمانِيَّةُ عن طِرَاز بِنَاء المَدْرَسَة الذي دَخَلَ إلى القاهِرَة مع

---

[١] A. Raymond, *Problèmes urbains et urbanisme au Caire*, p.367.

صَلاحِ الدِّين وشَهِدَ تَطَوُّرًا كبيرًا في العَصْرِ المملُوكي البَحْرِي، ثم أَخَذَ تَصْمِيمُه في التَّغَيُّر من الشَّكْلِ المُتَعَامِد (cruciform) إلى شَكْل المَسَاجِد الجامِعَة ذات الأَرْوِقَة. وعَدَلَ المُهَنْدِسُون العُثْمانِيُّون كذلك عن هذا التَّخْطِيط بإِدْخَالِ نَمَطِ القِبابِ البِيزَنْطِيَّة واسْتِخْدَام القَرْمِيد في البنَاء. ومن أَمْثِلَة المَسَاجِد التي أَدْخَلَت الطِّرَازَ العُثْمانيّ إلى القَاهِرَة: جَامِعُ سُلَيْمان بَاشَا الخَادِم بالقَلْعَة المَعْروف بجَامِع سَارِيَة الجَبَل (٩٣٥هـ/١٥٢٨م)، وجَامِع سِنَان باشا ببُولاق (٩٧٩هـ/١٥٧١م)، ثم جَامِع الملكة صَفِيَّة (زَوْجَة السُّلْطان مُرَاد الثَّالِث) بالدَّاوِدِيَّة بالدَّرْبِ الأَحْمَر (١٠١٩هـ/١٦٠١م) يُضَافُ إليهم جَامِعُ محمَّد بك أبو الذَّهَب الموجود الآن في مَيْدَان الأَزْهَر (١١٨٨هـ/١٧٧٤م). ويُمَثِّل جَامِعَا سِنَان باشَا والملكَة صَفِيَّة الطِّرَازَ العُثْمَانيّ بوُضُوحٍ وعلى الأَخَصّ فيما يتَعَلَّق بالقِبَاب والمآذن وبَيْتِ الصَّلاة [١].

---

[١] راجع حول المُنْشآت الدينية في مصر في العصر العثماني ED. PAUTY, «L'architecture au Caire après la conquête ottomane: Vue d'ensemble», *BIFAO* XXXVI (1935), pp.1-69; J.A. WILLIAMS, «The Monuments of Ottoman Cairo», *CIHC*, DDR 1973, pp. 453-63؛ محمد حمزة إسماعيل الحداد: «عمائر القاهرة الدينية في العصر العثماني (٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م)، المجلة التاريخية المصرية ٣٧ (١٩٩٠)، ١٠٣-١٣٧، وموسوعة العمارة الإسلامية في مصر من الفتح العثماني حتى عهد محمد علي ٩٢٣-١٢٦٥هـ/١٥١٧-١٨٤٨م، ١-٢، القاهرة - مكتبة زهراء الشرق ١٩٩٨-٢٠٠٣؛ وبدأ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول (إرسيكا) مَشْرُوعًا مهمًّا للتعريف بآثار القاهرة الإسلامية في العصر العثماني، صَدَر منه المجلَّدُ الأول يشتمل على المساجد والمدارس والزوايا من إعداد الباحث الصديق محمد أبو العمائم، إستانبول ٢٠٠٣.

العِمَارَةُ المَدَنِيَّةُ في العَصْرِ العُثماني

١ ـ الأسْبِلَة

هي مَبَانٍ فَكَّر في إنْشَائِها أهْلُ الخَيْر بغَرَضِ تَوْفِير المِيَاه اللَّازِمَة للشُّرْبِ بصِفَةٍ دَائِمَة وتَسْبِيلها على النَّاسِ في الأحْيَاء والطُّرُقَات. وقد عُرِفَت الأسْبِلَةُ في القَاهِرَة منذ العَصْرِ المَمْلوكيّ وأقْدَمُ ما يُمَثِّلُها هو سَبِيلُ النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون (٧٢٦هـ/١٣٢٦م) بالقُرْبِ من مجموعة قَلاوُون، وسَبِيلُ شَيْخُو (٧٥٥هـ/١٣٥٦م) وكذلك سَبِيل قَايِتْبَاي (٨٨٤هـ/١٤٨٠م) بالصَّلِيبَة، إلَّا أنَّ «السَّبِيل» أو «سَبِيل الكُتَّاب» أصْبَح في العَصْرِ العُثْمانيّ هو طِرَازَ المَبَاني الأكْثر شُيُوعًا في القَاهِرَة والذي وُجِدَ بأعْدَادٍ كبيرَةٍ نَعْرِفُ منها الآن في القَاهِرَة ثَمانين سَبِيلًا من أصْل ١١٧ سَبِيلًا. وحتى لو كانت وَفْرَةُ الأسْبِلَة في القَاهِرَة، دَلِيلًا على هُبُوطِ المَوَارِد وضَعْفِ طُمُوحات المُشَيِّدين بما أنَّهم اكْتَفُوا بتَشْييد عَمَائِر اقْتِصاديَّة صَغِيرَة الأحْجَام بالمُقَارَنَة بالمَسَاجِد على سَبِيل المِثَال، فإنَّ العَدَدَ الكَبِير لهذه الأسْبِلَة والنَّوْعِيَّة المِعْمَارِيَّة المُتَمَيِّزَة لبَعْضِها تُظْهِرُ بجَلاءٍ أنَّه لا يَجِب إهْمَالُ هذا النَّوْع من العَمَائِر في فَتْرَةٍ يُنْظَرُ إليها عَادَةً بعَدَمِ الرِّضَا في مَجَالِ التَّشْييد والبِنَاء.

وتُقَدِّمُ لنا دِرَاسَةُ الأسْبِلَة أيضًا مُؤَشِّرات غَنِيَّة عن فَنِّ الحِرَفِيين في القَاهِرَة في العَصْرِ العُثْمَانيّ. وتَرْتَبِطُ الأسْبِلَةُ كذلك في العُمُوم بنِظَام الوَقْفِ، كما يُسَاعِدُ عَدَدُها وتَوْزِيعُها ودَوْرُها في نِظَام الخَدَمَات العَامَّة بالمَدِينَة وتَزْوِيدها بالمِيَاه على الدِّرَاسَة الدِّيمُوجْرَافية للمَدِينَة.

وتَتَمَيَّزُ وَاجِهَاتُ أسْبِلَة القَاهِرَة بالأعْمِدَة الرُّخَامِيَّة المُزَخْرَفَة بالبُرُونْز المُذَهَّب، وشَبَابِيكها المُزَخْرَفَة هي الأخرىٰ بسِيَاجٍ من البُرُونْز الجَيِّد الصُّنْع، وتُوجَد على جُدْرانِها نُقُوشٌ تُخَلِّدُ اسْمَ مُنْشِئِها. وتتكوَّن الأسْبِلَةُ عَادَةً من طَوَابق ثلاث: طَابِق

تَحْت الأرْض عِبَارَة عن صِهْرِيج وَاسِع تُصَبُّ فيه قِرَبُ الماء المحمُولَة على ظُهُورِ الجِمال والبِغَال من مَوْرَدَة السَّقَّائِين على الخَلِيج قُرْب قَنْطَرَة الخَرْق (مَيْدَان أحمد ماهِر الآن)، وطابِقٌ فوق مستوى الطَّرِيق يُعْرَفُ بـ«حَانُوت السَّبِيل» يقُوم من خِلالِه المِزَمِّلاتي بتَسْبِيل الماء للنَّاس حيث يَضَعُ الماء للمارِين في أوَاني من النُّحَاس أو الخَزَف من خِلال مُصَبَّعَات الشَّبَابِيك، وكانت حَلْقاتُه المعدنية السُّفْلىٰ على شَكْلِ صَفٌ من الأقْوَاس المُتَّسِعَة تَسْمَحُ بمُرُور الأواني. وتُوجَدُ بسَفْحِ النَّوَافِذ قاعِدَةٌ من الحَجَر تَسْمَحُ لمُسْتَخْدِم السَّبِيل بالوُقُوف على مستوىٰ أقواسِ تَوْزِيع الماء. ويَرْفَعُ الطَّابِقَ الأخير عَدَدٌ من الأعْمِدَة الرُّخامِيَّة والدُّعَامات ويَشْغَلَه سَبِيلُ كُتَّاب لتَعْلِيم أطْفال المُسْلِمين[1].

ويُلَقَّنُ الأطْفالُ في هذه الكَتَاتِيب مَبَادِئ القِرَاءَة والكتابَة والحِسَاب مع حِفْظِ أجْزَاءٍ من القرآن. وهذا التَّعْلِيمُ ليس إلَّا مَدْخَلٍ إلى التَّعْلِيم المُتَخَصِّص الذي كان يُقَدِّمُهُ في العَصْرِ العُثْماني الجَامِعُ الأزْهَر وبَعْضُ المَدَارِس التي تَعُودُ إلى العَصْرِ المملوكي. ونَتِيجَةً لذلك فقد كان ثُلْثُ سُكَّانِ القَاهِرَة الذُّكور يَعْرِفُون القِرَاءَة والكتابَة، أمَّا الفَتَياتُ فإنَّهن لا يَتَلَقين تَعْلِيمًا إلَّا نادِرًا جِدًّا.

وقارَنَ جومار بين طَرِيقَة تَلْقِين الأطْفال في هذه الكتاتِيب والطَّرِيقة المُتَّبَعَة في أوروبا المعتمدة على تَلْقِين الآباء هذه المبادئ لأبْنَائِهم عن طريق المَنْهَج الفَرْدِي، وأبْدَىٰ إعْجَابه بالطَّرِيقة المُتَّبَعَة في كتاتِيب القاهِرَة التي كان التَّلامِيذُ يتَعَلَّمُون فيها القِرَاءَة والكتابة دَفْعَةً وَاحِدَةً ويكتبُون فيها مَقَاطِعَ الكَلمات ويَنْطِقُونها بصَوْتٍ عالٍ مع تَحْرِيك الجُزْء الأعْلى من جَسَدِهم بشَكْلٍ مُسْتمِرّ أثْنَاء القِرَاءَة. ورَغم أنَّ العُثْمانيين شَيَّدُوا مُنْشآت دِينِيَّة أقَلّ من تلك التي شَيَّدَها المماليك، إلَّا أنَّهم شَيَّدُوا في القَاهرة عَدَدًا مُهِمًّا من الأسْبِلَة والكتاتِيب.

---

[1] جومار: وصف مدينة القاهرة ٨٧ـ ٨٨.

واسْتَمَرَّ تَشْيِيدُ الأَسْبِلَة حتى أوائل القَرْن الثَّامِن عَشْر على الطِّرَاز المملوكي، إلَّا أنه ابْتِدَاءً من هذا القَرْن بَدَأ اتِّجاهٌ جَدِيد في زَخْرَفَة وتَزْيِين الوَاجِهَات الحجرية لأسْبِلَة القَاهِرَة لَعِبَ دَوْرًا مُهِمًّا في تَطَوُّر عِمَارَة السَّبِيل. فقد ابْتَكَر عبد الرَّحْمَن كَتْخُدَا، أحَد كِبار المُشَيِّدين الذين عَرَفَتْهم القَاهِرَة، طِرَازًا جَدِيدًا في زَخْرَفَة وَاجِهَات الأسْبِلَة عندما شَيَّدَ في عام ١١٥٧هـ/١٧٤٤م وَاحِدًا من أجمل أسْبِلَة القَاهِرَة عند مَفْرِق طُرُق الشَّارع الأعْظَم بالقَاهِرة (شارع المُعِزّ لدين الله وشَارِع التُّمْبُكْشِيَّة الآن) في مَوْضِع سَمَحَ له بإظْهَار ثلاث وَاجِهَات حَجَرِيَّة مَنْحُوتَة بالأسلوب العُثْماني ومُرَصَّعَة بالأسْلُوب المملوكي. واشْتَمَلَت أحد وَاجِهَات هذا السَّبِيل لأوَّلِ مَرَّة على مِحْرَاب مَرْسوم في وَسَط بلاطات القِيشَاني يَعْلُوه مُصَوَّرٌ للكَعْبَة المُشَرَّفَة.

ومع نِهَايَة القَرْنِ الثَّامِن عَشْر أصْبَح التَّأْثِيرُ العُثْماني وَاضِحًا في طِرَازِ عِمَارَة أسْبِلَة القَاهِرَة التي تُمَيِّزها الوَاجِهَات النِّصْف دَائرِيَّة والأُطُر المُشتملَة على أشْعَارٍ بالتركية العُثْمانية والنَّوَافِذ الضَّخْمَة ذات المُصَبَّعات النُّحاسية المُعَقَّدة. ويُعَدُّ سَبِيلُ السُّلْطان محمود (١١٦٥هـ/١٧٥٠م) بدَرْبِ الجَمَاميز وسَبِيلُ رُقَيَّة دُودُو (١١٤٧هـ/١٧٦١م) بسُوق السِّلاح وسَبِيلُ نَفِيسَة البَيْضَاء (١٢١١هـ/١٧٩٦م) داخِل باب زَوِيلَة من أرْوَع نَمَاذِج أسْبِلَة القَاهِرَة العُثْمانية المتأخِّرَة.

وأهَمُّ الأسْبِلَة العُثْمَانِيَّة في القَاهِرَة هي: سَبِيلُ خُسْرو باشا (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) في سُوقِ النَّحَّاسِين، وسَبِيلُ كُتَّاب مُصْطفىٰ أغا دَار السَّعَادَة (١٠٢٨هـ/١٦١٩م) المُلاصِق لرَبْع قِزْلَر بشارع السُّيُوفية، وسَبِيلُ كُتَّاب أُودَة باشا (١٠٨٤هـ/١٦٧٤م) بالجَمَالِيَّة، وسَبِيلُ كُتَّاب عبد الرَّحْمَن كَتْخُدا (١١٥٣هـ/١٧٤٤م) بشَارِع المُعِزّ لدين الله وهو أحَدُ آثَارِ القَاهِرَة المعروفة وأشْهَر ما بَنَاه عبد الرَّحْمَن كَتْخُدا، وسَبِيلُ كُتَّاب السُّلْطان محمُود (١١٦٤هـ/١٧٥١م) بدَرْب الجماميز، وسَبِيلُ كُتَّاب

رُقَيَّةُ دُودُو (١١٧٤هـ/١٧٦١م) بسُوقِ السِّلاح [١].

وإضَافَةً إلى الأسْبِلَة انْتَشَرَت بالقَاهِرَة كذلك «أحْوَاض سَقْي الدَّواب» حيث يستطيعُ أهْلُ المَدِينَة في أي وَقْتٍ سقْي خُيُولهم وحَمِيرهم وسَائر دَوَابِّهم، وهي أيضًا مبانٍ مُعْتَنًى بها ومُدَعَّمَة بأعْمِدَة.

وتَمْتِلئ طُرُقُ القاهِرَة أيضًا، منذ إنْشَائِها، بآلافِ السَّقَّائِين الذين يُوَزِّعُون الماءَ على المَنَازِل لسَائِر الاحْتياجات المنزلية، لأنَّ الأسْبِلَة تُوَفِّرُ فقط الماءَ للشُّرْب، ويَحْملُ السَّقَّاؤون قِرَبَ الماء إمَّا على ظُهُورهم أو على ظُهُور الجِمَال والحَمير، ويَذْكُرُ أوْلِيا جَلَبي أنَّ المَرْءَ يَعْجَزُ عن السَّيْر في حارات القاهرة وأزِقَّتِها من تَزَاحُمِهم. وقَدَّرَ أنَّ بالقاهرة، نحو سنة ١٠٨٦هـ/١٦٧٥م، عِشْرين ألْف سَقَّاء مُسَجَّلين في سِجِلٍّ رئيس السَّقَّائين، أمَّا الدُّورُ الكبيرة للأثْرياء فكان لكلٍّ منها جَمَلٌ أو حِمَارٌ يَحْمِلُ الماءَ إليها.

ورَغْم أنَّ القاهِرَة قَلِيلَة المَطَر إلَّا أنَّه ما تكادُ السَّمَاءُ تُمْطِر إلَّا وقد غَرِقَت طُرُقُها بالماء لأنَّها غير مُبَلَّطَة وتَعْجَزُ الخَيْلُ والنَّاسُ والجمالُ عن السَّيْر فيها، فيُكَلِّفُ الصُّوباشِي آلافَ الزَّبَّالِين بحمل الأتْرِبَة اليابِسَة على حَمِيرِهم وإلْقائِها في الشَّوَارِع العامَّة لتَسْهِيل السَّيْر فيها. وحَدَثَ في سنة ١٠٨٣هـ/١٦٧٢م أنْ هَطَلَ المَطَرُ والبَرَدُ سَبْعَة أيَّام، فعَجَزَ النَّاسُ عن الزِّيارَات والتَّرَدُّد على المَسَاجِد، وتَهَدَّمَ عِشْرُون بَيْتًا من بيوت الفُقَرَاء ووَقَعَت أزْمَةُ ماءٍ بالمَدِينَة [٢].

كان السَّقَّاؤون يَنْشَطُون على الأخَصّ في الشُّهور الثَّلاثَة التي تلي مَوْسِم

---

[١] راجع لتفاصيل أكثر، أوليا چلبي: سياحتنامه مصر ٣٦٢-٣٦٥؛ جومار: وصف مدينة القاهرة ٨٥، ٢٠٨-٢١٢؛ A. RAYMOND, «Les fontaines publiques (*sabîl*) au Caire à l'époque ottomane (1517-1798)», *An. Isl.* XV (1979), pp.263-92؛ محمود حامد الحسيني: الأسْبِلَة العثمانية بمدينة القاهرة (١٥١٧-١٧٩٨م)، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٨٨؛ D. BEHRENS-ABOUSEIF, *EI*[2] art. *Sabîl* VIII, pp.692-702.

[٢] أوليا چلبي: سياحتنامه مصر ٣٦٤.

الفَيَضان وكَسْر الخَلِيج، فبدءً من شهر أكتوبر كان الخَلِيجُ يَكُفّ عن التَّدَفُّق وتَنْخَفِضُ فيه المياه، ويُؤمَرُ بالنِّدَاء في الشَّوَارِع بأنَّ على السَّقَّائين أنْ يكفُّوا عن أخْذ المياه من الخَلِيج بسَبَب المُخَلَّفات والقاذُورات المكدَّسَة فيه، وكان عليهم التَّوَجُّه إمَّا إلى النِّيل أو إلى البِرَك الكبيرة مثل بِرْكة السَّقَّائين [١].

كانت احْتياجاتُ القاهرة للمياه كثيرة ومتعدِّدَة، فقَبْل كلّ شيء كانت هناك حاجَةٌ للمياه النَّقِيَّة اللازِمَة لاسْتِهلاك السُّكَّان سواء داخل البيوت أو في الشَّوَارع، وكذلك الحَمَّامات العامَّةَ الكثيرة المُنْتَشِرَة في القاهِرَة وظَوَاهِرها والتي تَسْتَهْلِكُ مَقَادِير كبيرة من المياه.

كان على المُحْتَسِب مُرَاقَبَة مِهْنَة السَّقَّائين، هذه المِهْنَة التي تتأثَّر بها الصِّحَّةُ العامَّة تأثُّرًا مباشِرًا، فقد كان عليهم أنْ يأخُذُوا الماء من مَوْرَدَة السَّقَّائين بعيدًا عن الأماكن التي تُجَاوِر المراحِيض أو الحَمَّامات أو مَسَاقِي الحَيَوانات، وكان يجب عليهم المحافَظَة الدَّائمة على نَظَافَة جِرَارهم وقِرَبِهم، وأنْ يَتَجَنَّبُوا اسْتِخْدَام القِرَب الجَدِيدَة لنَقْلِ مياه الشُّرْب لأنَّها تُغَيِّرُ مَذَاق المياه، وأنْ يُعَلِّقُوا أجْراسًا صَغِيرَةً في رِقابِ حَيَوَاناتهم لِيُنَبِّهُوا المارَّة باقْتِرَابهم، وأنْ يُغَطُّوا قِرَبهم بسَعْف النَّخيل محافَظَةً على ملابس المارَّة من تَطائُر رَزَاز الماء، وأنْ تكون سَرَاوِيلُهم قَصِيرَةً زَرْقاء اللَّوْن بطريقة لا تَخْدِش الحَيَاء.

ومَيَّزَت كُتُبُ الحِسْبَة بين نَوْعَيْن من السَّقَّائين: السَّقَّائين أصْحاب الرَّوايا والقِرَب، والسَّقَّائين الذين يبيعُون مِيَاه الشُّرْب في الكيزَان [٢].

٢ ـ قُصُورُ البَكَوَات والكُشَّاف

يُقَدِّمُ لنا جومار Jomard وَصْفًا لما كانت عليه قُصُورُ البَكَوَات والكُشَّاف ودُورُ

---

١ A. Raymond, *Les porteurs d'eau*, p.185.

٢ *Ibid.*, p.188.

الشُّيُوخ والعُلَماء والأغَاوات والقُضَاة وسَائِر كبار المُوَظَّفين في نِهايَة العَصْرِ العُثْماني ذاكِرًا أنَّها تَتَمَيَّزُ عن مَنازِل البُسَطاء بأنَّ بناءَها أكثر بَهَاءً وتَتَمَيَّز بثراء زَخْرَفتها واتِّسَاع مِسَاحَتِها، ويكون طابقُها الأرضي عادَةً من الحِجَارَة المَنْحُوتَة يكون كلُّ مِدْمَاكٍ منها مَطْلِيًا عادَةً باللَّون الأحمر والأخْضَر بالتَّبَادُل، أمَّا الطَّوابِقُ العُلْيَا فلكلِّ طابِقٍ منها شُرُفاتٌ بارِزَةٌ من قُضْبان الحَدِيد أو من الخَشَب المَخْرُوط بمَهَارَة (المَشْرَبِيَّات).

ويُضِيفُ جُومَار أنَّ التَّقْسيمَ الدَّاخِلي لهذه المَسَاكِن غير مُنْتَظِم عادَةً بحيث يجب دائمًا على المَرْء أنْ يَصْعَدَ أو يَهْبِطَ بَعْض دَرَجَات لِيَنْتَقِل من غُرْفَة إلى أخرىٰ. وتُوجَدُ بالطَّابق الأوَّل بالدُّور الكبرىٰ قاعَةٌ كبيرةٌ مَفْتُوحَةٌ تُعْرَفُ بـ «المَنْدَرَة» يَعْقِدُ فيها سَيِّدُ الدَّار جَلَساته ومُقابلاته ويَسْتَطِيعُ أنْ يشاهِدَ منها كلَّ ما يجري في فِنَاء الدَّار. وتكون الحُجْرَةُ الكبرىٰ بالطَّابِق الأرْضي على شكل حرف T (أي اسْتِمْرارٌ لشَكْل القاعَة التَّقْليدية في العِمَارَة الإسْلامية) ومُبَلَّطَة بالرُّخَام المُلَوَّن وتَتَوسَّطُها فَوَّراتٌ للمِيَاه وتَزْدانُ جَوَانِبها بأرائِك أو صُفَّات عَرِيضَة، وتَتَوَجَّه أفاريزُ وأسْقُفُ الدَّار الخَشَبية نَحْو الجِهَة الشَّمالية لتَسْهيل دُخُول الرِّياح البَحْرِيَّة إلى أرْوِقَة وأجْنِحَة الدَّار. ويَقَعُ فيما وَرَاء القِسم الرَّئيس من الدَّار بُسْتانٌ مع تَعْرِيشَة للعِنَب، ويلحق بالدَّار إسْطَبْلٌ للدَّوَاب. ويقوم على خِدْمَة سُكان أمْثال هذه الدُّور عَدَدٌ وفيرٌ من الخَدَم [١].

والمِثَالُ الوَاضِحُ على أمْثَالِ هذه الدُّور والقُصُور العُثْمانية التي وَصَلَت إلينا هي: بَيْتُ السُّحَيْمِي ومَنْزِل مصطفى جَعْفَر السِّلِحْدَار بالدَّرْب الأصْفَر شَمَال الجَامِع الأقْمَر، وبَيْتُ جَمَال الدِّين الذَّهَبي دَاخِل حارَة خُوشْ قَدَم جَنُوبي الجَامِع الأزْهَر ومَنْزِلُ إبراهيم كَتْخُدا السِّنَّاري بحارَة مُونْج بالسَّيِّدَة زَيْنَب [٢].

---

[١] جومار: وصف مدينة القاهرة ٨٨. [٢] راجع حَوْل قُصُور وبُيُوت القَاهِرَة في =

٣ ـ المَنَازِلُ والرِّباع

تكوَّنَت أغْلَبُ مَنَازِل القَاهِرَة في العَصْرِ العُثْماني من طَابِقَيْنِ أو ثلاثَة ، وإنْ وُجِدَت في الأحْيَاء المُكْتَظَّة بالسُّكَّان بعضُ المَنَازِل ذات أرْبَعَة طَوَابِق ، وهي مَبْنِيَّةٌ بالطُّوبِ الدَّاكِن اللَّوْن ، أمَّا من الدَّاخِل فتُطْلَىٰ جُدْرَانُها بطَبَقَةٍ لَطِيفَةٍ من الجِبْس الأبْيَض النَّاصِع أو بالجِير . وشُرُفاتُ هذه المَنَازِل مُغْلَقَةٌ دائمًا بسِيَاج ضَيِّق من الخَشَبِ المَخْرُوط الذي يَسْمَح بدُخُول قَلِيلٍ من الضَّوْء الخَارِجي ويَحْفَظُ طَرَاوَة الجَوّ [المَشْرَبِيَّات] . وتَزْدَانُ الغُرَفُ الدَّاخلية لهذه المَنَازِل كذلك بالخَشَبِ المَخْرُوط بفَنٍّ بَدِيع [الأرابِيسك] [١] .

كانت الطَّبَقَةُ المُتَوَسِّطَةُ تَقْطُنُ بُيُوتًا مُتَوَسِّطَة المستوىٰ يُمَثِّلُها بعض الحِرَفِيين والتُّجَّار المَيْسُورين مثل الزَّيَّاتين والطَّحَّانِين وكذلك القَبَّانين والصَّرَّافِين والسَّمَاسِرَة والنَّسَّاجِين .

وكانت أغْلَبُ هذه البُيُوت مَبنية بالحَجَر الفَصّ النَّحِيت ، وإنْ اسْتَخْدَم بعضها الطُّوب . وكان عَدَدُ غُرَف هذه الوحدات لا يتجاوَز بحالٍ الخمسة غُرَف موزَّعَة على طَابقين يُسْتَغَلُّ الطابق الأرضي منها كحَوَاصِل للغِلال وإسْطَبْلات [٢] .

= العَصْر العثماني ALEXANDRE LÉZINE, *Trois palais d'époque ottomane au Caire*, Le Caire IFAO 1972; JACQUES REVAULT ET BERNARD MAURY, *Palais et maisons du Caire du XIV^e au XVIII^e siècle*, I-IV, Le Caire IFAO 1975-83; ANDRÉ RAYMOND ET JACQUES REVAULT, *Palais et maisons du Caire*, II-Epoque ottomane, Paris CNRS 1983؛ رفعت موسى محمد : الوكالات والبيوت الإسلامية في مصر العثمانية ، ١٦٥ ـ ٣٤١ .

[١] جومار : وصف مدينة القاهرة ٨٩ .

[٢] نللي حنا : بيوت القاهرة في القرنين السَّابع عشر والثَّامِن عشر ـ دراسة اجتماعية معمارية ٨٠ ـ ٨٦ .

أمَّا المَنَازِلُ التي كان يَقْطُنُها الطَّبَقَةُ الدُّنيا فتُعْرَف بـ « الرِّبَـــاع » ، وهي أمَاكِن السَّكن الجماعي التي يَقْطُنُها صِغَارُ الحِـرَفِيين والعُمَّالُ والفَعَلَة وفُقَرَاءُ النَّاس والوَارِدون حَدِيثًا إلى القَاهرة .

كانت الرِّباعُ في العَصْر العُثْماني تقامُ أعْلَى الوَكالات والخَانَات ، وهو مبنَى ضَخْم من الحَجَر يُبْنَى حول حُوش مُسْتَطيل الشَّكْل ، أمَّا إذا أُقِيمَ مُسْتَقِلًّا فيكون بلا حَوْش (مثل رَبع التَّبَّانَة ورَبْع رِضْوَان بك بالخِيَمِيَّة) ، دون أن تَتَغَيَّر البِنْيَة الداخِلِيَّة للرَّبْع . وكان الوُصُولُ إلى غُرَفِ الرَّبع عن طريق دَرَجٍ يَبْدَأ من الشَّارع ويُؤدِّي إلى مجموعةٍ من الوَحْدات السَّكَنِيَّة ، وكان يُزَوَّدُ عادَةً بِبِئْري سُلَّم أو ثَلاث ، يَقُود كلٌّ منها إلى جُزْءٍ من الرَّبْع . وتتكوَّن الوحْدَةُ السَّكَنِيَّة في الرَّبع (رِوَاق أو طَبَقَة أو أودَه) من غُرْفَتَيْنْ أو ثلاث وكرْسي رَاحَة وسَطْح لنَشْرِ الغَسِيل وفَسَحَة للأعْمال المنزلية يتم فيها عادَةً إعْدَادُ الطَّعَام . والرِّباعُ مُصَمَّمَةٌ بطريقةٍ رأسية والغُرَفُ يَعْلُو بعضُها البَعْض ، وكثيرًا ما كانت وحْداتُ الرَّبْع مُقَامَةً على ثَلاثَة مُسْتويات . وكانت مِسَاحَاتُ هذه الوحْدَات مُتَفَاوِتَة تَتَرَاوَحُ ما بين ٣٥ مترًا مربَّعًا إلى نحو مائة متر مربَّعًا [١] .

ولاحَظَ جومار JOMARD أنَّه يُوجَدُ في خِلالِ تَجَمُّعات المنازل نِطاقاتٌ كبيرَةٌ مليئةٌ بأخْصَاصٍ يَبْلُغُ ارْتِفاعُها أرْبَعَة أقْدام يَسْكُنُها عَدَدٌ كبيرٌ من الفُقَرَاء مُكَدَّسين فيها مع ماشيتهم كيفما اتَّفَق يُطْلَقُ عليها حُوش جـ. أحْوَاش [٢]، وهو نَوْعٌ من العَشْوائيات التي لم تَخْل منها القاهِرَة إطْلاقًا .

---

[١] راجع حول الرِّبَاع في القاهرة في العصر العثماني مقال أندريه ريمون A. RAYMOND, «Le *rab'*, un habitat collectif au Caire à l'époque ottomane» *MUSJ* L/3 (1984), pp. 531-51; MONA ZAKARIYYA, «Le rab' de Tabbâna», *An. Isl.* XVI (1980), pp.274-97؛ محمد عفيفي : « الرباع في العَصْر العثماني » ، في كتاب الخان الخليلي وما حوله ، القاهرة : المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م ، ١: ١١٣ـ ١٢٦؛ نللّي حَنّا : المرجع السابق ٨٦ـ ٩٤.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ٢٤٥.

٤ ـ الحَمَّامَاتُ العَامَّة

تُعَدُّ الحَمَّاماتُ العَامَّةُ أحَدَ أهَمِّ مُمَيِّزَات المَدِينَة الإسْلامية وهي تُمَثِّلُ مع المَسْجِد الجَامِع والسُّوق ومَقَرِّ الحُكْم النَّوَاة الأسَاسِيَّة للمَدِينَة . وكان جُزءٌ كبيرٌ من حَمَّامات القَاهِرَة في العَصْرِ العُثْماني ومازَالَ يَرْجِعُ إلى العَصْرِ المَمْلوكي وعلى الأخَصِّ الحَمَّامَات المُنْتَشِرَة دَاخِل حُدُود المَدِينَة الفَاطِمية وفي ظَوَاهِرِها المُباشِرَة ، وهي التي ذكرها المَقْريزي في « المَوَاعِظ والاعْتبار » وعَدَدُها ٤٧ حَمَّامًا .

ويَذْكر أحمد شلبي عبد الغني أنَّه كانت تُوجَدُ بالقاهرة سنة ١١٣٦هـ/١٧٢٣م خَمْسَةٌ وسَبْعُون حَمَّامًا ، إضَافَةً إلى الحمَّامات الموجودة في بولاق (سِتَّة حَمَّامات) وفي مصر القديمة (حَمَّامان) ، وإنْ أشَارَ شابرول Chabrol وجومار Jomard في كتاب « وَصْف مصر » إلى أنَّ عَدَدَ حَمَّامات القاهرة سنة ١٨٠٠م كان يتجاوَز المائة حَمَّام ، رغم أنَّ شَرْحَ خريطة القاهرة المصاحب للكتاب لم يُشِر إلَّا إلى ٧٢ حمَّامًا فقط [١].

ويَتَرَكَّزُ القِسْمُ الأكبر من حَمَّامات القاهرة حَوْل مَنْطِقة القَصَبَة الممتدَّة بين باب زَويلَة وباب الفُتُوح وما حَوْلها (٢٨ حَمَّامًا) وضَواحي القَلْعَة وخارج باب زَويلَة على البَرّ الشَّرْقي للخَليج (٣٠ حَمَّامًا) ، و ١٧ حَمَّامًا في البَرّ الغربي للخَليج حيث كانت كَثَافَةُ السُّكَّان بها بسبب انْتَشار البِرَك والحَدَائِق مُتَوَاضِعَة الأمْر الذي يُوَضِّحُ أنَّ القاهِرَة العثمانية كانت تحتلُّ بالفِعْل الأحْياء الواقعة جَنُوب وغَرْب القاهِرَة الفاطمية ، إضافَةً إلى حَمَّامَيْن في الحُسَيْنِيَّة خارج باب الفُتُوح . على كلٍّ لم يكن ثمة تَجَمُّع

---

[١] A. Raymond, «Les bains publics au Caire à la fin du XVIIe siècle», *An. Isl.* VIII (1969), pp.129-30.

شُكَّاني مهمّ في القرن الثّامِن عَشْر لا يَقَعُ بالقُرْبِ منه بَمَسَافَةٍ مَعْقُولةٍ حَمَّامٌ عامّ [١].

ولا تُوجَدُ حَمَّاماتٌ في الدُّور والمَسَاكِن البَسِيطة التي تُمَثِّل غَالِبية مَنَازِل المَدِينَة، فقط قُصُورُ ومَنَازِلُ البَكَوات والكُشَّاف وكِبَار العُلَماء والتُّجَّار كان بها حَمَّاماتٌ خَاصَّة. ومع ذلك فقد كانوا يَتَرَدَّوُن بين الحِين والحِين على الحَمَّامَات العَامَّة ليُرَوِّحُوا عن أنفسهم فيما بينهم، كذلك كان كبارُ رِجَال السُّلْطَة يَتَرَدَّدُون عليها للغَرَضِ نفسه، وفي هذه الحالَة كان يتمّ مُسْبَقًا إخْطارُ صَاحِب الحَمَّام ليكفّ عن اسْتِقبال الرُّوَّاد العاديين وليُعِدّ المكان بما يَتَلاءَم مع الوَافِد المهمّ ومُرَافِقيه فيَسْتَدْعي فِرْقَةً مُوسِيقِيَّة ويُعدّ وَجْبَةً شَهِيَّة.

أمَّا طَرِيقَةُ الاسْتِحْمام فتَبْدَأ بدُخُولِ المَرْء حُجْرَة يُودِع فيها مَلابِسَه ويَعْقد حول وَسَطِه فُوطَة بَسِيطة ثم يسيرُ في مَمَرّ يَشْعُر فيه بوَهَج الحَرَارَة التي تَشْتَدُّ شيئًا فشيئًا حتى تَقْوىٰ عند اقْتِرَابه من الحُجْرة الثَّانية، وفور دُخُوله إليها يَجِد نفسه وَسَطَ سَحَابَةٍ من بُخَارٍ سَاخِن مُعَطَّر يَخْتَرِقُ مَسَامَ جِسْمِه ويَرْقُدُ على قِطْعَةٍ من القُماش الصُّوفي، ويَقْتَرِبُ منه على الفَوْر خَادِمٌ يَلْبِس في يَدِه قُفَّازًا أو يُمْسِك بفوطَةٍ من صُوفٍ ناعِم (بَلَّان أو مِكَيِّسَاتي)، ويعد أن يتأكَّد أنَّ البُخَارَ اخْتَرَقَ كلَّ المَسَام بشَكْل كافٍ وأحْدَث لِيُونَة بالأطْرَاف يَبْدَأ بطَقْطَقَة كل مَفَاصِل المَرْء برِفْق، ولا تُسَبِّبُ هذه العَمَلِيَّة إلَّا ألَمًا خَفِيفًا تُعَوِّضُه اللِّيُونَة التي تُحْدِثها بعد ذلك في الجِسْم. وفي عَقِب ذلك يَقُومُ الخادِم (البلَّان أو المِكَيِّسَاتي) بتَدْلِيلك الجِسْم بالقُفَّاز أو بقِطْعَة الصُّوفِ التي بيده، وتُؤدِّي هذه العَمَلِيَّة إلى تَخَلُّص الجِسْم من الوَسَاخات العَالِقَة به وتَسْقُط على شكل خُيُوطٍ سَوْدَاء، وتَتَخَلَّصُ المَسَامُ من أقَلِّ شيء يمكن أنْ يُصيبها، وخلال ذلك يكون الشَّخصُ غارِقًا في عَرَقِه، وبعد هذه العَملية يَنْتَقِلُ المَرْءُ إلى حُجْرَةٍ أخرىٰ يَغْتَسِلُ فيها بمياهٍ تأتي من عَيْني مِياه إحْداهما سَاخِنَة

---

[١] A. RAYMOND, *op. cit.*, pp.131-32.

والأخرىٰ بارِدَة ، ثم يرتدي قَمِيصًا ويُعَاوِدُ أَدْراجَه إلى الحُجْرَة الأولىٰ ليستريح على أريكَة ويُدَخِنَّ أرْجِيلَة ويَحْتَسي فنجانًا من القَهْوَة بَعْد أنْ يقومُ بدَلْكِ قَدَمَيْه بحَجَرِ خَفَّاف . وعندما ينوي مُغَادَرَة الحَمَّام تكونُ ملابسه قد تَعَطَّرَت بدُخان خَشَب الصَّبْر وتُرَشُّ رأسُه بَرَغاوي صَابُون مُقطَّر . أمَّا النِّساءُ فيسْتَخْدِمن في نِهَايَة حَمَّامهن عَجِينَةً من السُّكَّر واللَّيْمُون لنَزْعِ كلِّ الشَّعْر الزَّائِد من جِسْمِهن مع اسْتِهْلاك المزيد من العُطُور ومَاءِ الوَرْد .

وعادَةً ما يكون الحَمَّامُ مُخَصَّصًا لأحَدِ الجِنْسَيْن ، أو يُخَصَّصُ فيه يَوْمٌ للرِّجال وآخرُ للنِّسَاء أو لخِدْمَة الجِنْسَيْن على التَّوَالي. وعَادَةً ما تَذْهَبُ النِّسَاء إلى الحَمَّام في وَقْتٍ متأخِّر وتُوضَعُ حينئذٍ على مَدْخَلِه قِطْعَةُ قُماشٍ مُطَرَّزَة أو سِجَّادَةٌ لتَنْبِيه الجُمهور إلى حُضُورهن ويُسْتَبْدَل على الفَوْر خَدَمُ الحَمَّام بخَدَمٍ من النِّساء [1].

وعَدَّ جُومَار من بين حَمَّامات القَاهِرَة خمسة وأرْبَعِين حَمَّامًا رَئِيسًا تَتَمَيَّز بضخامتها وفَخَامَتها منها : حَمَّام ألْدُود وحَمَّام بَشتاك وحَمَّام قَيْسُون خارج باب زَويلَة ، وحَمَّام الصَّلِيبَة وحَمَّام مصطفىٰ بيه وحَمَّام قَرَامِيدَان جنوب مَيْدَان الرُّمَيْلَة إضَافَةً إلى حَمَّام مَرْجُوش وحَمَّام السَّبْع قاعات وحَمَّام الطُّنْبُلِّي وحَمَّام الحُسَيْنِيَّة وحَمَّام الكِخْيا وحَمَّام يَزْبَك في ظاهِر القَاهِرَة ، وحَمَّام البَيْسَري وحَمَّام السُّلْطان وحَمَّام الخَرَّاطِين وحَمَّام السُّكَّرِيَّة على امْتِدَاد قَصَبَة القَاهِرَة [2].

---

[1] شابرول : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ١٣٤-١٣٧.

[2] جومار : وصف مدينة القاهرة ٨٥، ٢١٧-٢٢٢، وانظر كذلك EDMOND PAUTY, *Les Hammams du Caire*, MIFAO LXIV, Le Caire 1933; ANDRÉ RAYMOND, «Les bains publics au Caire à la fin du XVIIIe siècle», *An. Isl.* VIII (1969), pp. 129-50؛ محمد سيف النصر أبا الفتوح : «الحمَّامات بمنطقة بين القصرين وخان الخليلي من العصر الفاطمي حتى نهاية العصر المملوكي» في كتاب الخان الخليلي وما حوله ، ١: ٧٥-٩٧.

٥ ـ المَقَــاهِي

أضْحَت تِجَارَةُ البُنّ التي بَدَأت في النُّمُوّ في القَاهِرَة خلالَ النِّصْف الأوَّل من القَرْنِ السَّابع عَشْر النَّشَاطَ التُّجَاري الرَّئيس لمصر بحيث أنَّها مَثَّلَت في القَرْنِ الثَّامِن عَشْر ثُلُثَ التِجارة الدَّوْليَّة للبلاد. وكان يتولَّى هذه التِّجارة بين سنتي ١١١٢ـ١١٦٥هـ/١٧٠٠ـ١٧٥٠م حَوَالي خَمْس مائة تاجِر كانوا يَسْتَوْرِدُون من اليَمن حَوالي مائة ألف قِنْطار من البن كان يُصَدَّر منها إلى أوروبا ما بين ١٥ ألف وعشرين ألف قِنْطار، وخمسين ألف إلى سَائِر أقاليم الدَّوْلَة العُثْمانية.

ومن بين كبار تُجَّارِ القَاهِرَة الذين قامُوا بدَوْرٍ مهمٍّ في تِجَارَة البُنّ عَائِلَةُ الشَّرَايْبِي والتي يُزَوِّدُنا الجَبَرتي بتَرَاجِم لأرْبَعَة تُجَّارٍ من أفْرَادِ هذه العَائِلَة [١].

وكان لدُخُولِ البُنّ إلى أقاليم الدَّوْلَة العُثْمانية المختلفة دَوْرٌ في تَغْيير نَمَطِ الاسْتِهْلاك في المجتمعات العُثْمانية حيث غَزَا هذا المَشْرُوب الجَدِيد (القَهْوَة) كافَّة أقْسَام الدَّوْلَة وانْتَشَرَ بين أوْسَاطٍ اجتماعية جَدِيدَة كانت بمَنأى عنه. هكذا عَرَفَت القاهِرةُ منذ القَرْنِ السَّابع عَشْر «القَهْوَخانات» التي كان يَتَرَدَّدُ عليها النَّاسُ «ليَشْرَبوا ماءً مَغْليًا أسْوَد اللَّوْن» على حَدّ تَعْبِير الرَّحَّالتين هنري كاستيلا HENRY CASTELA ويُوهان ڤيلد JOHANN WILD اللَّذين زَارَا القاهِرَة في العَقْدِ الأوَّل للقرن السَّابع عَشْر [٢]، الأمْر الذي يَدُلُّ على عَدَمِ معرفتهما بهذا المَشْرُوب الجَدِيد؛ ثم تَنَامَت المَقَاهِي العامَّة في مَدِينَة القَاهِرَة ابتداءً من أوَاسِط القَرن الثَّامِن عَشْر الميلادي حتى يَذْكر جُومار أنَّه كان يُوجَد بالقَاهِرَة في زَمَنِ الحَمْلَة، عند مُنْقَلَب القَرنِ

---

[١] ANDRÉ RAYMOND, «Une famille de grande négociants en café au Caire dans la première moitié du XVIII^{e} siècle: Les Sharâybi», dans *Le commerce du Café avant l'ère des plantations coloniales*, pp. 111-23.

[٢] نللي حنا: تجار القاهرة في العصر العثماني ١٤٤.

الثَّامِن عَشْر ، ما بين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ مَقْهَىٰ ، بينها ١٢٠٠ مَقْهَىٰ في القَاهِرَة والبَاقي مُوَزَّعٌ بين بولاق ومصر القَدِيمَة [١] .

ويَذْكُر شابرول Chabrole أنَّه لا عِلَاقَة لهذه المَقَاهِي بالمَقَاهِي المَوْجُودَة في هذا الوَقْت في فرنسا إلَّا من حيث اسْتِهلاكِ البُنّ الذي يُعَدُّ ويُحْتَسَىٰ بطريقةٍ مُخْتَلِفَة . فلا يُوجَدُ في مَقَاهِي القَاهرة أثَاثٌ على الإطْلاق أو مَرَايا وديكورات داخلية وخارجية فيما عَدَا دِكَكٍ خَشَبِيَّة تُشَكِّلُ نَوْعًا من المَقَاعِد على دَائِر جُدْرَان المَقْهَىٰ مَفْرُوشَةً بالحُصْر المَصْنُوعة من سَعْف النَّخْل أو بُسُطٌ خَشِنَة (أكْلِمَة) في المقاهِي الأكثر فَخَامَة ، إضافَةً إلى مِنَصَّه لإعْدَادِ القَهْوَة من الخَشَبِ بالِغَة البَسَاطَة .

ويَصِفُ شَابرول هَيْئَة مُرْتادِي هذه المقاهِي بأنَّهم يَضْطَجِعُون على الحُصْرِ التي تُغَطِّي هذه الدِّكَك وتُقَدَّمُ لهم القَهْوَة في فَنَاجِين صَغِيرة الحَجْم محمولَة على صَوَاني نُحاسِيَّة . وهذه الفَنَاجِين مَصْنُوعة إمَّا من البُورْسَلين ، وتُحْضَر من ألمانيا ، أو من الخَزَف . ولا يسْتَخْدِمُ القاهرِيُّون السُّكَّر في احْتِسَاء القَهْوَة حتى أنَّهم كانوا يَسْخَرُون من الفرنسيين لوَضْعهم السُّكَّر في القَهْوَة .

ويُوجَدُ بكلِّ مَقْهىٰ عَدَدٌ من الأراجِيل (جـ. أرْجِيلَة) مِبْسَمُها من العَظْم تُعَدُّ للزَّبَائن المُدَخِّنين للتَّبْغ أو القِنَّب ، ولاحَظَ شابرول أنَّ المُعْتادين على التَّدْخِين كانوا نادِرًا ما يتحرَّكون بدون أرْجِيلاتهم .

كانت مقاهِي القاهِرَة تَخْضَعُ لإشْرَافِ رَئِيسٍ يأخُذُ حَقّ الْتِزَامها من السُّلْطَة كان عادَةً « أغَا الإنْكِشارِيَّة » ، يَدْفَعُ له كلّ مَقْهَى رَسْمًا في أوَّل السَّنَة الهجرية يَبْلُغ ما بين ١٠ـ٤٠ مديني كانت تُعْفَى منه المقاهِي الفَقِيرَة .

ويَتَرَدَّدُ على هذه المقاهِي ما بين مائتين ومائتين وخمسين فَرْدًا في اليوم يتناول كلٌّ منهم من فنجانَيْن إلى ثلاثَة فناجين من القَهْوَة مُقَابِل ١,٥ بارَة للفِنْجان الوَاحِد .

---

[١] جومار : وصف مدينة القاهرة ٩١.

ولاحظ شابرول أنّ كثيرًا من هذه المَقَاهِي تَبِيع الأفْيُون إلى مُرْتاديها (وَصَفَهُ بأنّه نَوْعٌ من المَعْجُون المَخْلُوط بالأعْشاب) يَتَّخِذه العَوَامُّ وَسِيلَةً للانْتِشَاء، ويَعْتادُ عليه ثُلُثا عدد الحِرَفيين.

ويُوجَدُ في كلِّ مَقْهَىً عَدَدٌ من الرُّوَاة والمُنْشِدِين يَرْوُون بصُحْبَة آلة الرَّبَابَة الحكايات والسِّيَر الشَّعْبِيَّة، وأحيانًا ما يُؤْجِر صاحِب المَقْهَىٰ هؤلاء المُنْشِدين، ولكن في الأغْلَب كانوا يَحْصُلُون على ما يجود عليهم به رُوَّادُ المَقْهَىٰ عن طِيب خَاطِر.

أمَّا التَّسْلِيَة الشَّائِعَة في هذه المَقَاهِي فكانت لُعْبَة الشَّطْرَنْج، وهي لُعْبَةٌ فارِسِيَّة قَدِيمَة عُرِفَت في العَالم الإسلامي منذ العَصْر العَبَّاسي [1]، إضَافَةً إلى مُشاهَدَة خَيَال الظِّلّ الذي يُعْرَضُ على الأخَصّ في المقاهِي التي يَرْتادُها الأتْرَاك، ولاحَظَ جومار أنَّ المَوْضُوعات المطروحة من خلاله سَطْحِيَّة وتافِهَة وأغْلَبُها مُثِير وفاحِش، ورَغْم ذلك يُسْمَح للأطفال الصِّغار بدُخول المقاهي بحُرِّيَّة أثناء العَرْض [2].

الأقْبَاطُ واليَهُود والأجَانِب

قَدَّرَ جُومار، نحو سنة ١٨٠٠م، أنَّه يُوجَدُ بالقاهِرَة نحو خمسة آلاف يُونَانيّ وعَشْرَة آلاف قِبْطِي وخَمْسَة آلاف شَامِي وألْفَي أرْمَنِّي وثَلاثَة آلاف يَهُودِي، إضَافَةً إلى عَدَدٍ كبيرٍ من البَرَابِرَة أو النُّوبِيين مُنْتَشِرين في كلِّ مكان ويُكَلَّفُون بأعمال الحِـرَاسَة، ويَقْطُنُ الفِرِنجُ أو الأورُوبيُّون حيّ المُوسْكي [3].

وكانت الأحْيَاءُ التي يَقْطُنُها الأقْبَاطُ والفِرِنْجَةُ والرُّومُ واليَهُودُ مُوَزَّعَةً في كلِّ أنْحَاء القَاهِرَة وغير مَحْمِيَّة بأي سُورٍ خاص. ولِكُلِّ أمَّةٍ منها كنائِسُها ودورُ عبادتها التي تُمارِسُ فيها طُقُوسَها بسلام وبدون أي نَوْعٍ من تَعْكير الصَّفْو، وعَلَّقَ جُومار على ذلك

---

[1] شابرول: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ١٣٨ـ ١٤٠.

[2] جومار: وصف مدينة القاهرة ٣١٠.

[3] نفسه ٩١.

بِقَوْله : « وهذا مَوْضُوعٌ لدينا عنه في أوروبا أفْكارٌ غير مُطابِقَة للحَقِيقَة »[١].

ويُوجَدُ بالقاهرة ومصر القَدِيمَة سَبْعٌ وعِشْرُون كَنِيسَةً مُخَصَّصَةً للطَّوَائِف المسيحية المُخْتَلِفَة ، بينما يُوجَدُ لليَهُود بها عَشْرُ مَعَابِد[٢].

وتَقَعُ كنائِسُ الأقْبَاط على الأخَصّ في البَرِّ الغَرْبي للخَلِيج وفي مصر القَدِيمَة ، وإنْ وُجِدَت للنَّصَارىٰ اليَعَاقِبَة كنيستان بالقُرْب من شارع بَيْنَ السُّورَيْن (كَنِيسَةُ خَمِيس العَدْس بالخُرُنْفِش وكَنِيسَةُ الأقْبَاط بحارَة زَوِيلَة) ، وكَنِيسَةٌ للأرْمَن بدَرْب الجِنِينَة ، كما يُوجَدُ حَيٌّ يَقْطُنُه الأقْبَاطُ جَنُوب مَيْدَان الأزْبكية يُعْرَف بـ « حَارَة النَّصَارَىٰ » ، ويَقْطُن كذلك بعضُ الأقْبَاط في حَارَة الرُّوم داخِل باب زَوِيلَة حَيث يقَعُ بَيْت البَطْرَك وفي حارَة الأمير تادْرُس في المكان نفسه[٣].

أمَّا النَّصَارَىٰ الرُّوم (الكاثُوليك) فتُوجَدُ لهم كَنِيسَةٌ وَحِيدَةٌ بالقُرْبِ من الحَمْزَاوِي خَلْف المَدْرَسَة الأشْرَفِيَّة بالمُوسْكي .

وتَقَعُ « حَارَة الإفْرِنْج » في غَربي الخَلِيج بين قَنْطَرَة المُوسْكي والقَنْطَرَة الجَدِيدَة وبها كَنِيستان كاثوليكيتان إحْدَاهما المعروفة بـ « الدَّيْر الصَّغِير » والأخرىٰ بـ « الدَّيْر الكَبير » زالتا الآن[٤].

أمَّا « حَارَةُ اليَهُود » فتمتد من حدود المَارِسْتان المَنْصُوري إلى قنطرَة الموسْكى غَربًا وهي تَنْقَسم إلى حارة اليَهُود الرَّبَّانيين وحَارَة اليَهُود القَرَّائِين وشَارع الصَّقَالِبَة وشارع خَمِيس العَدْس ، ويَسْكُنُ اليَهُود هذه الحَارَة من قديم وكانت تُعْرَف في زَمَن المَقْريزي بـ « حَارَة زَوِيلَة » وهي تحتوي على عَشْرَة مَعَابِد تَقَعُ جَمِيعًا في أزِقَّة ضَيِّقَة قَلِيلَة الضَّوء ، ولا يُوجد في مَظْهَرها ما يُمَيِّز أبْوَابها على المنازل الأخرىٰ ، أمَّا من الدَّاخل فمعتنى بها ومُزَيَّنَة بأعْمِدَة رُخامية[٥] ، وهي قَرِيبَةٌ من الصَّاغَة حيث كان أغْلَبُهم يمارسُ الصِّيَاغَة أو الصِّرَافَة .

---

[١] جومار : وصف مدينة القاهرة ٢٠١.

[٢] نفســه ٨٤.

[٣] نفســه ٢٠٢.

[٤] نفســه ٢٠٣ .

[٥] نفســه ٢٠٣.

المَقَابِرُ في العَصْر العُثْماني

وُجِدَ للقَاهِرَة في العَصْر العُثْماني مَدينَتَان للمَوْتىٰ، واحِدَةٌ في الجَنُوب والأخرىٰ في الشَّرْق. عُرِفَت الجَنُوبِيَّة بمَقَابِر الإمَام الشَّافِعي وإلى الجَنُوب منها مَقَابِر السَّيِّدَة أمّ قاسِم. وتَتَمَيَّز أغْلَبُ تُرَب هذه المَقَابِر بالفَخَامَة وتَشْتَمِلُ على أحْوَاشٍ كَبيرةٍ مُخَصَّصَةٍ للأسَر المُوسِرَة.

وتُوجَدُ إلى الشَّرْقِ من المَدِينَة تُرَبُ قايِتْبَاي وهي امْتِدَادٌ لمَقَابِر المماليك[1]. كما تُوجَد مَقَابِرُ أخرىٰ دَاخِل حُدُود القَاهِرة نفسها مثل مَقَابِر باب الوَزير في نهاية الطريق بين بَاب زَوِيلَة والقَلْعَة، ومَقَابِر الغُرَيْب إلى الغَرْب من الجَامِع الأزْهَر، ومَقَابِر باب النَّصْر ومَقْبَرَة القَاصِد، بالإضَافَة إلى تُرَب الجَامِع الأحْمَر وتُرَب الرُّوَيْعي وتُرَب الأزْبَكِيَّة في داخل المَدينة. واعْتَبَر جومار عَادَة دَفْن المَوْتَى دَاخِل المَدِينَة نفسها أو في الجَبَّانات الملاصِقَة للأبْوَاب أحَدَ العادات المُضِرَّة بصِحَّة سكّان القَاهِرة. لذلك فقد أصْدَر الفِرنْسيون في سبتمبر سنة ١٧٩٨م أمْرًا بدَفْنِ الموتىٰ في القَرَافَة وَحْدَها ومَنْع دَفْن الموتىٰ في التُّرَبِ الكائِنَة دَاخِل القَاهِرَة، وعلى الأخَصّ تُرَب الأزْبَكِيَّة والرُّوَيْعي، وبَدأوا في هَدْمِ تُرَبِ الأزْبكية بقَصْدِ تَطْهِير المَدِينَة من الأوْبِئَة، وكانوا يَهْدِفُون من وَرَاء ذلك كذلك إلى تَحْسين بيئة هذه المَنْطِقَة المُزْدَحِمَة بالسُّكّان والتي اخْتارها الفرنسيون مَوْقِعًا لقِيادَتهم باتِّخاذِهم قَصْر محمد بك الألفي بالأزْبَكِيَّة مَقَرًّا للقِيادَة العُلْيا. ولكن مُحَاوَلَة الفِرنْسيين قُوبِلَت بمُعَارَضَةٍ شديدةٍ من الأهالي جَعَلَتهم يتوقَّفُون عن المُضِيّ في هذا المَشْرُوع الذي كان يجب انْتِظارُ وُصُول محمد علي باشا للحُكْم حتى يمكن تَنْفِيذُه[2].

---

[1] جومار: وصف مدينة القاهرة ٢٨٢.

[2] نفسه ٢٤٩؛ A. Raymond, *Le Caire*, p.294.

التَنْظِيمُ المَدِيني والإدَارِي
للقاهِرَة في العَصْرِ العُثْمَانِي

كانت أبْرَزُ سِمَات القاهِرَة في العَصْرِ العُثْماني ـ إذا نَظَرْنا إليها من زَاوِيَة إدَارَتها المَدَنيَّة ـ الغَيْبَة شِبْه التَّامَّة للمُؤَسَّسَات النَّوْعِيَّة سَوَاء منها ما يُمَثِّلُ المُنَظَّمات الجَماعية للشَّعْب أو تلك التي تُنْشِؤها السُّلْطاتُ الحاكمة[١].

ولم تكن إسْتانْبُول ، عاصِمَة الدَّوْلَة العُثْمانية ، في هذا المجال أحْسَنَ حَالًا من القاهِرَة ، فنَلْمَسُ فيها بالمِثْل غَيْبَة أيّ تَنْظِيمات حقيقية للشُّئون البَلَدِيَّة والمَرَافِق العامَّة وكذا تَضَارُب الاخْتِصَاصَات بين الحكومة المركزية وإدَارَتها .

١ ـ التَّنْظِيماتُ المَدِينيَة

شَكَّلَت تَنْظِيماتُ الحِرَف (الطَّوَائِف) أو الأحْيَاء (الحَارَات) البِنَىٰ المَدِينيَّة الأساسِيَّة ، ولكنَّها لم تكن مَرْتَبَةً إداريَّةً حقيقيةً أو مُؤَسَّسَةً بَلَدِيَّةً أصِيلَة .

---

[١] اعْتَمَدْتُ في كِتابَة هذا الفَصْل على الدراسة المهمة التي كتبها أندريه ريمون بعنوان A. Raymond, «Problèmes urbains et urbanisme au Caire au XVII et XVIII siècle», *CIHC* DDR 1973, pp.353-72.

الطَّوَائِفُ المِهَنِيَّة

أصْبَحَت الطَّائِفَةُ المِهَنِيَّةُ عُنْصُرًا أصْلِيًّا في الحَيَاة المَدِينِيَّة ، وكانت تُمَثِّلُ للسُّلْطَات إطارًا يَسْمَحُ لها بالسَّيْطَرَة على مَجْمُوع الشَّعْبِ النَّشِط في المَدِينَة من الحِرَفِيين والتُّجَّار . فيُسْهِمُ شُيُوخُ الطَّوائِف لفَضِّ المُنَازَعَات بين أبْنَاء الطَّائِفَة وحَلِّ الصِّرَاعات ومُعَاقَبَة المُخْطِئين منهم ، وتُمَثِّلُ الإتاوَاتُ التي يتولَّىٰ جَمْعَها شيُوخُ الطَّوائِف على المِهَن جزءًا لا يمكن إنْكارُه من المَوَارِد المالية لسُلْطان القاهرة [1] . وعندما كانت السُّلْطاتُ تحتاجُ إلى أيْدٍ عامِلَةٍ لاستِكمال بَعْض المُنْشَآت أو القيام بأعْمَالِ النَّظَافَة أو لتأمِين بعض الخَدَمَات التي لا تتوافَر لها مُنَظَّماتٌ خاصَّة لتأديتها ، مثل مُكافَحَة الحَرَائِق ، فإنَّها كانت تَلْجَأ إلى الطَّوَائِف وإلى مَشَائخها .

وظَلَّت الطَّوَائِفُ تَقُومُ بهذا الدَّوْر المُهِمّ إلى أنْ أنْشَأت السُّلْطاتُ الحكومِيَّةُ قُرْبَ نِهَايَة القرن التَّاسِع عَشْر جِهَزًا إدَارِيًّا حَلَّ تَدْريجيًّا مَحَلَّ هذه الطَّوَائِف .

الحَـــارَات (الأحْيَاء)

ظَلَّت اهْتماماتُ الطَّوَائِف على الأخَصّ اهتمامات مِهَنِيَّة ولم تُغَطِّ مَنْطِقَةُ نَشَاطها سوى قِسْمًا من مَدِينَة القاهِرَة ، بَيْدَ أنَّ الخَلِيَّة الأساسِيَّة للحَيَاة المدِينية كان يُمَثِّلُها دون شَكّ الحارَة (أو الحَيّ) وإنْ يُقابلنا في الوثائِق أحْيَانًا للتَعْبير عنها مُصْطَلَح « خُطّ » أو « دَرْب » .

وتكوَّنَت حَاراتُ القاهرة في العَصْر العُثماني من عَدَدٍ كبيرٍ من المَمَرَّات الصَّغيرَة ليس لها جَميعًا سوى مَنْفَذٍ وَاحِد ، تَتَّصِلُ من خِلالِه بأحَدِ الشَّوَارِع الرَّئِيسَة .

---

[1] انظر ، جومار : وصف مدينة القاهرة ٢٤٩-٢٥٢؛ A. Raymond, *Artisans et Commercants au Caire au XVIIIe siècle*, pp.503-85.

فالحارَةُ إذَن تَجَمُّعٌ مُغْلَق يَتَّصِلُ فيما بينه عن طَرِيق شَبَكة مُتَدَرِّجَة من الطُّرُق القَصِيرَة والأزِقَّة التي تَفْتَحُ على عَطْفَات تُوَصِّلُ بدَوْرِها إلى الشَّارِع الرَّئيس أو الدَّرْب الذي يَمْنَحها عادَةً اسْمَه ، والذي يَتَّصِلُ في النِّهاية بالشَّارِع الكبير غالبًا عن طريق بَوَّابَة . وفي العُمُوم لا تُوجَدُ دَكاكينٌ دَاخِل الحارَات ، وإنْ وُجِدَت فإنَّها تكون قُرْبَ البَوَّابَات . وعادَةً ما يكون سُكَّانَ الحارَات الحِرَفِيُّون وبعضُ السُّكَّان الفُقَرَاء الذي يَعْمَلُون في دَكاكين صَغِيرَة في السُّوق أو على طُول الشَّوَارِع التجارية . وتَضُمُّ مَسَاكِنُ الحارَة الوَاحِدَة عادَةً جَمَاعَةً متجانِسَةً نِسْبِيًّا : حِرَفِيِّين يُمارِسُون مِهْنَةً واحِدة ، أو أفْرَادًا ينتمُون إلى أُصُولٍ عِرْقِية واحِدة أو يَعْتَنِقُون مَذْهبًا واحدًا[١] .

ومِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ الحارَات كانت مُخَصَّصَةً للسُّكْنَى ، عَدَم وُجُودِ حَارَاتٍ كبيرة في المَنَاطِق التي تَرَكَّزَت فيها الأنْشِطَةُ التجارية والاقْتِصادية المُهِمَّة مثل : القَصَبَة وامْتِدَاداتها الجَنُوبية حتى صَلِيبَة ابن طُولُون ، ومَنْطِقَتي خَان الخَلِيلي وباب الشَّعْرِيَّة . فقد وُجِدَت الغالِبِيَّةُ العُظْمَىٰ من الحَارَات بالقُرْبِ من حُدُودِ المَدِينَة ، ويَقْطُنُها في الأغْلَب ما يمكن أنْ نُطْلِق عليه « الطَّبَقَات الشَّعْبِيَّة » ، وفي المُقَابِل فلا وُجُود إطْلاقًا لهذه الطبقة بجِوَار حَارَات القاهرة البرجوازية في ضَوَاحِي بِرْكة الفِيل والأزْبَكِيَّة وعلى ضَفَّتيِ الخَلِيج (يُسْتَثْنَىٰ من ذلك حَارَاتُ الفِرِنْج والنَّصَارَىٰ بسَبَب خَصَائِص هذه الحارَات) ، أمَّا دُورُ ومَنَازِلُ الطَّبَقَة الوُسْطَىٰ من التُّجَّار والحِرَفِيين والمَشَايِخ والعُلَماء فكانت غالبًا في مُحيط الأسْوَاق وحَوْل الجامِع الأزْهَر[٢] .

وعادَةً ما كان يُوجَدُ لكلِّ حَارَةٍ (حَيّ) بَوَّابَةٌ تَقَعُ عند مَدْخَلِ الشَّارِع المُؤَدِّي إلى الحَارَة ، ما يَزَالُ بَعْضُها قائِمًا إلى الآن مثل : بَوَّابَة حَارَة المَبْيَضَة بالجَمَالِيَّة التي بُنِيَت سنة ١٠٨٤هـ/١٦٧٣م هي والسَّبِيل والوَكالة المجاورين لها ، وبَوَّابة حارَة بَرْجَوَان

---

[١] A. RAYMOND, *op. cit.*, p.355.

[٢] *Ibid.*, p.356.

أمَام الجامِع الأقْمَر . وهذه البَوَّابات على شكل قَوْسٍ من البنَاء الحَجَري يَعْلُوه صَفٌ من الشُّرَّافات يُغْلِقُه مِصْرَاعٌ ثَقِيلٌ من الخَشَب المُقَوَّىٰ بعَوَارِض حَدِيدِيَّة يقوم على حِرَاسته بَوَّابُون ، ويتمُّ إغْلاقُه بوَاسِطَة أقْفَالٍ خَشَبِيَّة (ضَبَّة ج. ضُبَب) [١] .

وخَضَعَت حَارَاتُ القاهرة في العَصْر العُثْماني لسُلْطَة مَشَائِخ الحارَات يُعاوِنُ كُلًّا منهم نَقِيبٌ أو أكثر . وتُطابِقُ هذه البِنْيَة نَفْس بِنْيَة الطَّوَائِف الحِرَفِيَّة بحيث أنْ نَفْتَرِضَ أنَّ الحارَة كانت بِنْيَةً مُوَازِيَةً لبِنْيَة الطَّائِفَة تقومُ إحْداهُما على الحِـرْفَة وتقومُ الأخرىٰ على مَقَرّ السَّكَن ، وهما يتكامَلان كما يُوَضِّحُ ذلك تَوْزِيعُ الحارَات على خَرِيطَة القاهِرَة . فلم يكن هناك إذَن انْفِصَالٌ بين النِّظامَيْن ولكن على الأخرىٰ تَكامُلٌ ، فشَيْخُ الحارَة يمكن أنْ يكونَ أحْيَانًا بنَفْسِه شَيْخَ طائِفَة المِهْنَة الشَّائِعَة في الحارَة [٢] .

وماثَلَت وَظِيفَةُ مَشَائِخ الحارَات في الغالِب الْتِزَامات الشُّرْطَة من حَيْثُ حِفْظِ الأمْن ومُرَاقَبَة العَنَاصِر المَشْبُوهَة أو الغُرَبَاء ، كما يَبْدُو من الدَّوْر الذي أوكِل إليهم في زَمَن الحَمْلَة الفرنسية ، فكان لهم دَوْرٌ مهمٌّ في عَمَلِيَّة إحْصَاء النُّفُوس التي تَمَّت في ٣١ أكتوبر سنة ١٧٩٨م ، وأصْحَوا منذ هذا التأريخ ضَامِنِين لأهالي حَارَاتهم ومَسْئولين عن أي اضْطِرَابٍ قد يَنْشأ فيها . وعندما فَكَّرَ الفرنسيون فيما بعد في عَمَلِ إحْصَاءٍ للمَوَاليد وللوَفَيات ، كَلَّفُوا بذلك مَشَائِخ الحارَات بالاسْتِعَانَة بالقابِلات ومُغَسِّلِي المَوْتىٰ .

وبحُكم احْتِكاكِهم المُبَاشِر بالأهالي ، لَعِبُوا دَوْرًا إدَارِيًّا حيث كانوا يُدْعَوْن للمُشَارَكة في تَصْفِيَة تَرِكات الخاضِعِين لهم مقابل حُصُولهم على عَوَائِد (أو خِدْمَة) تُعَادِلُ غالِبًا ٢ أو ٣٪ من قِيمَة التَّرِكَة . بالإجْمَال ، كان مَشائِخُ الحارَات واسِطَة اتِّصَالٍ بين السُّلْطات والرَّعِيَّة ، وهو دَوْرٌ قامَ به أيْضًا مَشائِخُ الطَّوَائِف

---

[١] A. Raymond, *op. cit.*, p.356.

[٢] *Ibid.*, p.357.

الحِرَفِيَّة ، وعلى ذلك فيجب اعْتبارهم أعْيَانًا يُمَثِّلون أهالي حاراتهم لا وكلاء لإدَارَةٍ بَلَدِيَّة [١].

٢ ـ إدَارَةُ المَدِينَة

لم تَعْرِف القاهِرَة خِلافًا للوَالي أيَّة سُلْطَةٍ مَدِينِيَّة ، فقد كانت المُسْئوليَّاتُ المُتَعَلِّقَة بحِفْظ النِّظام والتَّنْظِيم المدني مُوكَلَةً إلى سُلْطاتٍ أهْلِيَّة لا تهتمُّ بالقاهِرَة بوَجْهٍ خاصّ إلَّا باعْتِبارِها مَقَرًا للحكومة ولأنَّ المُشْكلات المختلفة التي تَطْرَحُها كانت لها أهَمِّيَّة خاصَّةً [٢].

الـوَالِـي

كان والي القاهِرَة المعروف أيْضًا بـ « الزَّعيم » أو بـ « الصُّوباشي » يتمَتَّع بسُلْطة ذات طابع مَدِيني ، وكان يُعَيَّنُ من قِبَل أغَا الإنْكشارِيَّة الذي يَعْهَد إليه بالإشْرَاف على الشُّئون الشُّرَطِيَّة دَاخِل القاهِرَة ، بينما كان حَفِظُ النِّظام ببولاق ومصر القديمة يتولَّاهُما زَعِيمَان أخَران [٣].

كانت مَهَامُ الوالي هي حِفْظَ النِّظَام العام ومُعَاقَبَة المخالِفين بالغَرَامات أو بعُقُوبات أشَدّ ، والعِنَاية بتَنْظِيف خَلِيج القاهرة ومُكافَحَة الحَرَائِق . وعند حُدُوثِ كارِثَة كان عليه التَّوَجُّه إلى مَكان حُدُوثها وبصُحْبته مُمَثِّلين لبعض الطَّوائف المِهَنِيَّة وعلى الأخَصّ السَّقَّائِين والقَصَّارِين .

---

[١] A. RAYMOND, *op. cit.*, p.352.

[٢] *Ibid.*, p.352.

[٣] Ibid., p.359.

المُحْتَسِب

انْحَصَرَ دَوْرُ المُحْتَسِب في العَصْر العُثماني في المجال الاقتصادي وكان يُشْرِفُ على عَدَدٍ من الطَّوائِف الحِرَفِيَّة المُتَعَلِّقة بالغِذاء. فكان يُرَاقِبُ المَوَازين والمقاييس والأسْعَار في الأسْوَاقِ الرَّئِيسة التي تُبَاعُ فيها مُنْتَجَاتٌ غِذائية. وكانت جَوَلاتُه في المَدِينَة ذات هَيْئَة رَسْمِيَّة يَصْحَبُه فيها أَفْرَادٌ كثيرُون بينهم حَامِلُو المَوَازِين، وكان يُعَاقِبُ المُخَالِفين عند الاقْتِضَاء بعُقُوباتٍ بَدَنِيَّة.

٣ ـ الوَظَائِفُ المَدِينِيَّة

مع الوَضْعِ في الاعْتِبار العَدَد القَلِيل من المُؤَسَّسات المَدِينِيَّة المَوْجُودَة في القاهرة العُثْمانية، فسَيَبْدو للوَهْلَة الأولىٰ أنَّ الفَوْضَىٰ تَسُودُ حَيَاة المَدِينَة. ومع ذلك فقد كانت الوَظَائِفُ المَدِينِيَّة الأساسِيَّة مُؤَمَّنَةً بوَاسِطَة جَمَاعات مُتَخَصِّصَة لا بفِعْل مُنَظَّمات إدارِيَّة.

النِّظَامُ العام

كان والي الشُّرْطة يقود جُنُود الإنْكِشارية المتمركزين بالقاهرة للمُحافَظَة على النِّظام، وكان مركزُ الشُّرْطَة ملاصِقًا لباب زَوِيلَة وكان منزلُ والي الشُّرْطَة قرب سُوق القَوَّافِين، وهو السُّوق الكبير المُغَطَّى الذي شَيَّدَه رِضْوان بك لتجار الأحْذِيَة أمام باب زَوِيلَة. ورُبَّما يُفَسِّرُ لنا وُجُودُ والي الشُّرْطة هناك، اسْتِمْرار باب زَوِيلَة مكانًا لتَنْفِيذ أحْكام الإعْدَام وتَعْلِيق رُؤوس الضَّحَايا حسب تَقْلِيد قديم، ففي هذا المكان عُلِّقَ طُومان باي آخِرُ سلاطين المماليك بعد قليلٍ من الفَتْح العُثْماني لمصر.

ولاشَكَّ أنَّ تَوَاجُدَ الوالي في هذا المكان يُفَسِّرُ لنا سَبَبَ إطْلاق اسْم « باب المُتَوَلِّي » على باب زَوِيلَة ، أمَّا ما يَذْهَبُ إليه العامَّةُ من أنَّ سَبَبَ ذلك يرجع إلى وُجود ضَرِيح وَلِيّ في هذا المكان فيَرْجع فقط إلى القرن التَّاسِع عَشْر . ولاشك كذلك في أنَّ للقَراقُول الذي أشار إلى وجُوده علي مبارك في أوَّلِ قَصَبَة رَضْوان تجاه باب زَوِيلَة أثَرٌ لوجود والي الشُّرْطة في هذا المكان[١] .

وبَعيدًا عن فترات الاضْطرابات السِّياسية التي تكرَّرَت في القرن الثَّامن عَشْر ، فإنَّ النِّظام كان يَبْدُو مستتبًا بطريقة مُرْضِيَة طوال فَتْرَة الوجُود العُثْماني ، كما هَيَّأت الجولات الليلية لمعاوني الشُّرْطة أمْنًا نِسْبيًّا لسُكَّان القاهرة[٢] .

إدَارَةُ الطُّرُق

ظَلَّت هُمُومُ الحُكَّام ، فيما يَتَعَلَّق بإدَارة الطُّرُق ، في مستوى مُتَوَاضِع لا يَتَعَدَّىٰ تَنْظيف الشَّوَارِع ورَفْع المُخَلَّفات التي تُهَدِّدُ بسَدِّها ، كما ظَلَّ الاهْتمامُ بهذه المُشْكِلات مُتَقَطِّعًا لم يمكن معه الوُصُول إلى حُلُولٍ مُرْضِيَّة . وكان على السُّكَّان أنْ يقُومُوا بجُهودٍ ذاتيه فيما يَخُصّ عملية تَنْظيف الشَّوَارِع . وأدَّى ضِيقُ غالبية شَوَارِع المَدينَة إلى صُعُوبة إخْلائها من الأنْقاض والقمامة المتراكمة ، الأمْر الذي أدَّى إلى ارْتفاع بطيء لمستوى أرْض الشَّوَارع اسْتَلْزَم ضَرُورَة كَحْت الشَّوَارع على فَتَرات مُنْتظِمة .

أمَّا إضَاءَةُ الشَّوارع المُهِمَّة بالقَنادِيل فكان تَقْلِيدًا قديمًا يَرْجِع إلى العَصْر الفَاطمي ، ويَذْكر أوْليا جلبي وُجُود مائتي نَفَرٍ يَعْمَلُون في أربعين حانُوتًا مهمّتهم

---

[١] انظر مناقشة سبب هذه التسمية في مقال يعقوب أرتين J. ARTIN-BEY, «Bâb Zoueyleh et la mosquée d'al-Moeye. Notice historique et anecdotique», *BIE* IV (1883), pp. 123-52.

[٢] علي مبارك : الخطط التوفيقية ٥: ٩٣؛ A. RAYMOND, *op. cit.*, p.360.

إضاءَة الحوانيت وتَزْيينها بالقناديل في ليالي الموالد وليالي رَجَب وشَعْبان ورَمَضان التي كان يجب أن يُعَلَّق فيها قِنْدِيلٌ على الأقلّ على كلّ حانُوت، كما كانوا يتعمّدون بتوفير الإنارة بالقناديل لمن يَطْلُبها بعد الاتِّفاق على الثَّمَن [١].

الخَدَماتُ العامَّة

كان التَّنَقُّلُ دَاخِل القاهرة وضَوَاحِيها يتمُّ منذ إنْشَائها بوَاسِطَة رَكائِب تُسْتأجَر لهذا الغَرَض. هكذا كان يُمْكِن لسُكَّان القاهرة التَّنَقُّل بسهولة بالرَّغْم من اتِّساع أرْجَاء المَدِينَة بفَضْلِ عَدَدٍ كبير من الرَّكائِب المتوافرة ورخَص أسْعارها. ولم تَخْتلِف طريقةُ التَّنَقُّل في العَصْر العُثْماني عن الوَصْفِ الذي قَدَّمه ابنُ سَعِيد المغربي عن مَوَاقِف المكارية عند باب زَوِيلة قبل ذلك بخَمْسَة قرون [١]. وقَدَّرَ شابْرول CHABROL عَدَد الحَمِير المُعَدَّه للتَّنَقُّل في القاهرة سنة ١٨٠٠م بما لا يقلّ عن ثلاثين ألْف، وكان المكارِيُّون يتقَاضُون أجُورَهم حَسَب طُول المِشْوار ومُدَّته. وكانوا يَنْقِسمُون إلى أرْبَعَة طَوَائِف ثَلاثَة لنَقْل الرِّجال والنِّسَاء والرَّابعة لنَقْل الأمْتِعَة والبَضَائِع يشاركهم في ذلك الجَمَّالة الذين يَسْتَخْدمون الجمال. أمَّا الخُيُولُ والبِغَالُ فكان يشتخدمها الخاصَّة، وكانت الخُيُولُ وَقْفًا على المماليك فيما لم يكن يَحِقّ للأجانِب وأهْل الذِّمَّة إلَّا اسْتِخْدَام الحمير [٢].

فَوْضَىٰ المَرَافِق

كان ممَّا يَعُوقُ حَرَكة المرور في شَوَارِع القاهرة، والتجارية منها بوَجْهٍ خاصّ، ضِيقُ هذه الشَّوَارِع وتَعَرُّجها ووُجُودُ مَسَاطِب حَجرية وطِينِيَّة أمام المحلَّات، كان أصحابُها يجلسون عليها أثْنَاء تعامُلهم مع عُملائهم، فقد كان عَرْضُ المَسْطَبة

---

[١] فيما تقدم ١٦٨.

[٢] A. RAYMOND, *op. cit.*, p.363.

يتراوحُ بين مترٍ ومترٍ ونِصْفٍ الأمْر الذي يَجْعَل الممر الباقي من الطَّريق في غاية الضِّيق . وقد حاوَلَ الفرنسيون إزالَة هذه المساطب بحجَّة تَوْسِيع الشَّوارع ، وإنْ كان غرضُهم من وراء ذلك هو مَنْع اسْتِخْدامها كمتاريس في حالات التمرُّد ، ولكن لم ينجحُوا في ذلك بسبب ضِيق التُّجَّار من هذا الإجْراء الذي لم يتمّ إلَّا في أثْناء وِلايَة محمد علي باشا [١] .

القاهِرَة في زَمَن الحَمْلَة الفِرنْسِيَّة

(١٢١٣-١٢١٥هـ - ١٧٩٨-١٨٠١م)

تَرَدَّدَ كثيرًا القَوْلُ بأنَّ الحَمْلَة الفرنسية على مصر كانت مُنَاسَبَةً ليَقَظَة مصر في مُوَاجَهَة حَضَارَة أكثر تَقَدُّمًا من النَّاحِيَة التِّقْنِيَّة ، وأنَّها قَدَّمَت على الأخصّ ، في العاصِمَة ، إشَارَة التَّجْديد التي مَهَّدَت للأعْمَال الحَضَرِيَّة الكبرىٰ التي تَحَقَّقَت في القَرْنِ التَّاسِع عَشْر .

لاشَكَّ أنَّ الفرنسيين أنْتَوا أنْ يُضْفُوا على الحياة المَدِينِيَّة للقاهِرَة ، التي بَدَت لهم شِبْه فَوْضَوِيَّة ، مَظْهرًا أكثر مُوَافَقَة لقَوَانين التَّنْظِيم العُمْرَاني الأوروبي ، ولم يكن ذلك في حَقِيقَة الأمْر إلَّا لتَسْهِيل حَرَكَة الجَيْش الفرنسي وانْتِقاله دَاخِل القاهِرَة . وقد أوْرَدَ أندريه ريمون André Raymond تَقْريرًا عن « طُرُق الاتِّصَال التي يجب فَتْحُها في مَدِينَة القاهِرَة من أجْل تَجْميلها » رَفَعَهُ إلى بونابرت Bonaparte، في ٥ يولية سنة ١٧٩٩م ، سَنْسُون Sanson، كبير المهندسين ، يُوَضِّحُ لنا هذه الاهْتمامات : « لا يُوجَدُ بمدينة القاهرة في بُعْدَيها الرئيسيين أيَّة

[١] A. Raymond, *op. cit.*, p.366.

شَوَارِع مُتَصَافة ، وتلك التي يمكننا اسْتِخْدامها في غاية الضِّيق والتَّعَرُّج . وإذا أرَدْنا أنْ نُجُمِّل هذه المَدِينَة والحُصُول على طُرُقِ اتِّصالٍ جَيِّدَه ليمكننا الوُصُول بسُرْعة إلى كلِّ المَوَاضِع عند الضَّرُورَة ، يجب أنْ نضْطَلِع على الفَوْر بمَشروعٍ كبير » . طالَبَ سَنْسُون بهَدْم جَمِيع البُيُوت الواقِعَة على ضَفَّة الخَلِيج اليُمْنَىٰ من أجْل إقامَة شارعٍ عَرِيضٍ يُزْرَع على امْتِدَاده الأشْجَار ، الأمْر الذي يَسْمَح « بحُرِّيَّة المُضِيّ إلى يمين ويَسَار المدينة » . واقْتَرَحَ كذلك فَتْحَ شَارِعٍ كبيرٍ يَصِلُ الأزْبَكِيَّة (حيث يتمركَز الفرنسيون) بقَنْطَرَة الموسْكي يمكن مَدُّه تجاه الشَّرْق ، وشارِع تجاه بِرْكة الفِيل ، وآخَر تجاه المَجْمع الذي أقامَه بونابرت في قَصْر حَسَن باشا كاشِف في النَّاصرية ، وأخيرًا شارِع من بِرْكَة الفِيل تجاه القَلْعَة « وبهذه الوَسِيلَة يَتَوَفَّر لنا خُطُوطُ اتِّصالٍ رائِعَة يمكن أنْ نَنْقِل عليها المَدَافِع والفِرَق إلى كلِّ المُؤسَّسات العسكرية المَوْجُودَة حَوْل القاهرة » . وتَوَقَّعَ سَنْسُون لتَنْفيذ ذلك المَشْرُوع هَدْم ١٤٢ منزلًا و ٢١٢ دُكَّانًا وسِتَّةَ مَسَاجِد من الأزْبكية وحتى قَنْطَرَة الموسْكي وقَنْطَرَة سُنْقُر على الخَلِيج » .

لم يَتَحَقَّق هذا المَشْرُوع الكَبِير ، ولكن الأعْمال الجُزْئية التي أمْكن تحقيقُها اسْتجابَت لغَرَضَيْنْ أحَدُهما مَدِيني والآخر اسْتراتيجي ، هي : هَدْم المَصَاطِب المَوْجُودَة أمام المَحَلَّات التي تَعُوق السَّيْر في الشَّوَارِع ولمَنْع اسْتِخدامها كمتاريس في حالات التمرّد ؛ وتَشْييد طَرِيقٍ مُعَبَّدٍ يَصِلُ بُولاق بمَنْطِقَة الأزْبَكِيَّة ، وتَحْرير أسْوَار المدينة ممَّا عَلَق بها ، وتَهْيِئَة شَارِعٍ يُحيطُ بالأزْبَكِيَّة تُزْرَع على جانبيه الأشْجَار [١] .

ويَبْدُو أنَّ الجَبَرْتي قد اطَّلَع على هذا التَّقْرير أو نَمَا إلى عِلْمِه ، يقول : « وكان في عَزْمِهم إيصَال ما انْتَهُوا إلى هَدْمِه بقَنْطَرَة الموسْكي إلى سُور باب البَرْقِيَّة ، ويَهْدِمُون

---

[١] A. Raymond, *Le Caire sous les Ottomans*, pp.352-53.

من حَدِّ حَمَّام الموسْكي حتى يَتَّصِل المَهْدُوم بناحية الأشْرَفِيَّة ثم إلى خَان الخَلِيلي إلى إسْطَبْل الطَّارِمَة المعروف الآن بالشَّنَوَاني إلى ناحية كَفْر الطَّمَّاعين إلى البَرْقِيَّة ويَجْعَلُون ذلك طَرِيقًا واحِدًا مُتَّسِعًا وبحافتيه الحَوَانِيتُ والخانات ، وبها أعْمِدَة وأشْجار وتكاعِيب وتعارِيش وبَسَاتِين من أوَّلها إلى آخرها من حَدّ باب البَرْقِيَّة إلى بُولاق ، فلمَّا انْتهُوا في الهَدْم إلى قَنْطَرَة الموسْكي تَرَكوا الهَدْم »[١]. وتَمَّ تَنْفِيذ هذا المَشْرُوع بعد مائة وثلاثين عامًا مع فَتْح شارِع الأزْهَر سنة ١٩٣٠م ، الذي يُعَدّ أوَّل شارع يَرْبِطُ شَرْقَ المدينة عند باب البَرْقِيَّة بغَرْب المَدِينَة عند الأزْبَكِيَّة .

ولكن النتائج المرئية لفَتْرَة تَوَاجُد الفرنسيين كانت تَخْرِيبًا هائلًا ناتجًا عن قَمْع ثَوْرَات القاهرة الكبرىٰ سنة ١٧٩٨م (قَصْف مَنْطقتيِ الأزْهَر والحُسَيْنِيَّة) وسنة ١٨٠٠م (خَراب مَنْطِقَة الأزْبكية) ، وأثارت هذه الكارِثَة التي أصابَت أجْمَل أحْيَاء المَدِينَة أسَىٰ المُؤَرِّخ الجَبَرْتي الذي عَدَّدَ على امْتِدَاد عِدَّة صَفَحات من تاريخه جَمِيعَ هذه التَّصَرُّفات وأدَانَها[٢].

ضَوَاحِي القاهِرَة

أُطْلِقَ على الفُسْطاط في نهاية العَصْر العُثْماني « مِصر العَتِيقَة » في الوَقْت الذي أطْلَق عليها الرَّحَّالَةُ الأوروبيون اسْم Vieux Caire أو Old Cairo وهو اسْم غير مُلائم . ورَغْم تَرَاجُع دور الفُسْطاط منذ نهاية العَصْر المملوكي ، فقد قَدَّرَ جومار سكَّان الفُسْطاط زَمَن الحَمْلَة بعَشْرَة آلاف نَسْمَة بينهم ست مائة مسيحي . ويُوجَدُ بها مَسْجِدَان كبيران : جامِعُ عَمْرو بن العاص الذي أدْخَل عليه مُرَاد بك تَعْدِيلًا

---

[١] الجبرتي : عجائب الآثار ٣ :٢٦٠ـ ٢٦١.   ٥٠ـ ٥١، ٥٥ـ ٥٧، ١٧٢، ٢٥٨ـ ٢٦٥.

[٢] نفســه ٣ :٢٩، ٣٦، ٤٨، ٤٩،

مهمًّا وجامِعُ أبي السُّعُود الجارِحي، إضَافَةً إلى عَدَدٍ من الكنائِس المسيحية في مَنْطِقة قَصْر الشَّمْع أهمّها كنيسة أبي سِرْجَة والكَنِيسَة المُعَلَّقَة ودير ماري جِرْجِس إلى الجنوب ودَيْر آخر إلى الشَّمال قُرْب مَجْرىٰ العُيُون يُعْرَف بدَيْر أبي مَقَّار.

ويُوجَدُ في طَرَف الفُسْطاط الشَّمالي قَناطِرُ مَجْرىٰ العُيُون التي تَنْقِلُ المياه إلى قَلْعَة الجَبَل والتي تَعُود إلى عَهْدِ السُّلْطان المملوكي قانْصوه الغُوري وكانت ما تَزَالُ تقومُ بمُهِمَّتها، ووَصَف جومار مأْخَذَ المياه الخاصّ بها بأنَّه بِنَاءٌ مرتَفِعٌ ضَخْمٌ على شَكْل سُداسِيّ ارْتِفاعه واحِدًا وعِشْرِين مترًا تقريبًا، يُوجد في قِمَّته سَبْعُ سَوَاقي يُديرُها عَدَدٌ من البَقَر تَرْفَعُ المياه إلى أعْلى البناء لتجري في المجرى نحو القَلْعَة [١].

وكانت الفُسْطاطُ تحتفظُ بمكانتها كميناء تُشْحَنُ منه البَضَائِع إلى مصر العُلْيا، وتُحَصَّلُ فيه المكوسُ على المراكِب الصَّاعِدَة والواردة إليه التي تَفِدُ عليه دون تَوقُّف.

ونَظَرًا لوَضْع جَزيرَة الرَّوْضَة المُنْعَزل وسُهُولَة الدِّفاع عنها وتَحْصِينها وإمْكانية إيصالها ببولاق، صَمَّمَ القائدُ كَفَرِلّي CAFFARELLI مَشْرُوعًا لتحويلها إلى مَدِينةٍ فرنسية ووَضَعَ لها، في شهر يولية سنة ١٨٠٠م، بأمْرٍ من الجنرال MENOU تَخْطِيطًا مع العَدِيد من خُطُوط التَّنْظِيم، لم تُتَح له فُرْصَةُ اسْتكماله [٢].

أمَّا «بُولاق» الواقعة على النِّيل والتي كان يَفْصلها عن مدينة القاهرة التَّاريخية سَهْلٌ عَرْضُه ١٢٠٠ مترًا وعَدَدٌ من البَساتين، فكانت هي ميناءُ القاهرة تَرسو به المراكِب التي تحمل مُنْتجات الدِّلْتا والمُنتجات الأوروبية التي كانت تصل إلى ميناء الإسْكندرية، وشَيَّد الفرنسيون خلال إقامتهم بمصر طريقًا مُعَبَّدًا يَصِل بين بولاق والقاهرة قُرْب قَنْطَرَة المغاربة طوله ألْف ومائتي متر.

---

[١] جومار: وصف مدينة القاهرة ٣٣١-٣٣٢. [٢] نفســه ٣٣٧.

ويَبْلُغ عددُ سُكَّان بولاق في هذا الوقت أربْعًا وعشرين أَلْف نَسَمة ، ويَقَعُ بها أربعة وعشرون مَسْجِدًا وعَدَدٌ كبيرٌ من الوَكالات بينها ثلاثون وكالَة رئيسةً أكثر اتِّساعًا وأجْمَل من وَكالات القاهرة . وكان لها مَقَابر خاصَّة بها تقعُ شمالها .

وحَجْمُ التِّجارة الذي يَمُرّ بيولاق ضَخْمٌ ، وبَضَائِعُ أوروبا التي تَصل القاهرة تَمُرُّ عَبْر بُولاق . ويُغَطِّي شاطئ بولاق دائمًا كِمياتٌ كبيرة من شُوَن الغِلال مثل القَمْح والشَّعير والفُول ، وتمتلئ وَكالات بُولاق الكبيرة ببَضَائع مصر السُّفْلىٰ والعُلْيا مثل : الكَتَّان والحِنَّا والسُّكَّر والأرز والزَّعْفَران والنَّطْرون والصَّمْغ والعاج والبُنّ .

وأقامَ الفرنسيون في الطَّرَف الشَّمالي لجَزيرَة بولاق الكبرى (الجَزيرَة والزَّمالِك الآن) في مُوَاجَهَة إمْبابَه مَحْجَرًا صِحّيًا كان من الممكن أنْ يُقَدِّم خَدَمات جَليلَة إذا حُوفِظَ عليه[1].

---

[1] جومار : وصف مدينة القاهرة ٣٤٠ـ ٣٤٢.

الفصل السادس

عصر التحولات

أوّلًا ـ إرْهاصَاتُ التَّغْيير

إذا لم تكن بِدَايَةُ القَرْنِ التَّاسِع عَشْر تُمَثّلُ تَغْييرًا جِذْرِيًّا في تَطَوُّرِ القَاهِرَة ، خاصَّةً بعد التَّنْظيمات العَدِيدَة التي أدْخَلَها الفِرِنْسِيُّون (١٧٩٨-١٨٠١م) ، فليس أقَلّ من القَوْلِ بأنَّها كانت تَحْمِلُ إرْهَاصَات هذا التَّغْيير . ففي هذا الوَقْتِ قُسِّمَت المَدِينَةُ إلى ثمانية أقْسَام لتَسْهِيل إدَارَتِها وإشْرَافِ الشُّرْطَة عليها ، وأُزِيلَت أبْوَابُ الحارَات ، واتُّخِذَت إجْرَاءَاتٌ حَاسِمَةٌ لمكافَحَة الأوْبِئَة والاهْتِمام بالصِّحَّة العَامَّة ، وفُتِحَ طَرِيقٌ طَوِيلٌ مُمَهَّدٌ ومُظَلَّلٌ يَرْبِطُ قَلْبَ المَدِينَة عند الأزْبكية ببُولاق (شَارِع فؤاد الأوَّل/ ٢٦ يولية الآن) ، وفُتِحَ شَارِعُ الموسْكي ، وزُرِعَت الأشْجَارُ على جانِبَي بَعْضِ الطُّرُق ، وجُفِّفَت جُزْئِيًّا بِرْكَةُ الأزْبَكِيَّة ، وأُزِيلَت المَقَابِرُ الوَاقِعَةُ دَاخِل المَدِينَة وعُدِّلَ الكَثِيرُ من المَسَالِك تَبَعًا للضَّرُورَات التي اسْتَجَدَّت [١].

١ ـ محمَّد علي والقاهِرة

كان وُصُولُ محمَّد علي باشا إلى الحُكْم في مصر ، سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م ، نُقْطَة تَحَوُّلٍ مُهِمَّة ليس فَقَط في تاريخ مصر بل وفي تاريخ المَدِينَة ، خاصَّةً بعد أنْ

---

[١] M. CLERGET, *Le Caire* I, p.190.

وَطَّدَ مكانَتَه بعد مَذْبَحَة المماليك الشَّهِيرَة، سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، التي فَتَحَت الطَّرِيق أمامَ سِلْسِلَةٍ طَوِيلَةٍ من الإِصْلاحات والتَّحْدِيث.

بَدَأ محمد علي باشا (١٢٢٠-١٢٦٦هـ/١٨٠٥-١٨٤٨م) في القَاهِرَة نَوْعًا من الخَدَمَات البَلَدِيَّة تَمَثَّلَ في كَنْسٍ وَرَشٍّ وتَنْظِيفِ الشَّوَارِع وإنارَتها. فبمناسَبَة زِفافِ ابنته، في المحرَّم سنة ١٢٢٩هـ/ يناير سنة ١٨١٤م، طافَ أَصْحَابُ الشُّرْطة قَبْل مَوْكِب الزَّفَّة بيومين ومعهم رجالٌ وبأيديهم مِقْيَاسٌ، فكُلَّما مَرُّوا بناحِيَةٍ أو طَرِيقٍ يضيقُ عن القِياس هَدَمُوا عارِضَهُم من مَسَاطِب الدَّكاكِين أو غيرها من الجِهَتَيْن لاتِّساع الطَّرِيق لمُرور العَرَبات والملاعِيب وغيرها، فأَتْلَفُوا كثيرًا من الأبْنِيَة [1].

ونَدَبَ، في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م، جَمَاعَةً من المُهَنْدِسين والمباشِرين للكَشْف على الدُّور والمَسَاكِن، فإنْ وَجَدُوا بِبَعْضِه خَلَلًا أَمَرُوا صاحِبَه بهَدْمِه وتَعْمِيره، فإنْ عَجَزَ عن ذلك أَخْلاه ويُعاد بناؤه من طَرَف المِيري ويَصِيرُ من حُقُوق الدَّوْلَة، خاصَّةً عند بِرْكة الفِيل وجِهَة الحَبَّانِيَّة وكذلك بُولاق على النِّيل [2]. كما أَمَرَ في العام التَّالي بكَنْسِ الأَسْوَاق ومُوَاظَبَة رَشِّها بالماء، وإيقاد القَنادِيل على أبْواب الدُّور وأنْ يُجْعَل لكلِّ ثَلاثَة حَوَانِيت قِنْدِيل، وكان مُحْتَسِبُ القَاهِرَة يُتابِعُ تَنْفِيذ هذا الأَمْر بنفسه [3].

واعْتِبَارًا من عام ١٢٣٧هـ/١٨٢٠م بَدَأت أعمالُ نَظَافَةٍ عامَّة في المَدِينَة انْعَكَسَت على الصِّحَّة العامَّة حيث نَدُرَت الأَوْبِئَة بعد هذه السَّنَة (يُعَدُّ الوَبَاءُ الذي حَدَثَ في سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م اسْتِثْناءً من ذلك). ومن أَجْل العِنَايَة كذلك بالصِّحَّة العامَّة عَمِل محمد علي على تَرْكيز الصِّنَاعَات الأساسِيَّة التي بَدَأ بإدْخالِها

---

[1] الجبرتي: عجائب الآثار ٤: ٣١٦.

[2] نفسه ٤: ٣٩٤.

[3] نفسه ٤: ٤٣٣-٤٣٤.

في مَنْطِقَة السَّبْتِيَّة شَمَال شَرْقِيّ بُولاق ، كما أزَالَ الكيمان التي كانت تُحِيطُ بالقَاهِرَة في شَمالِها وفي غَرْبِها والتي كانت تُعَدّ مَوَاطِن للقاذُورَات تَحْمِل سُمُومَها إلى المَدِينَة عند هُبُوب أيّ رِيح عاصِفَة ، وقد أمْكَنَ باسْتِخْدَام الأتْرِبَة المَنْزُوحَة منها أنْ يَبْدَأ في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م برَدْم البِرَك المُنْتَشِرَة في شمال وجَنُوب وغَرْب المَدِينَة القَدِيمَة [١].

وفي إطار هذا العَمل أزيلَت الكِيمانُ الملاصِقَة للنِّيل شَمَال قَصْر العَيْني المعروفة بتَلّ العَقَارِب في سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م ، وكان مُسَطَّحُها تِسْعَة أفْدِنَة ، وأزيلَت كذلك التِّلالُ الوَاقِعَة بين حَيّ النَّاصِرِيَّة ومَنْطِقَة جارِدِن سيتي الحالِيَّة ومِسَاحَتُها ثمانية وثلاثين فَدَّانًا وغُرِسَت بأشْجَار التُّوت ، وأزِيلَت أيضًا ، في سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م ، الأكَمَة التي كانت تَسُدّ الطَّرِيق إلى شُبْرَا بجوار قَنْطَرَة اللَّيْمُون وحُوِّلَت إلى مُنْتَزَه .

وصَدَرَ أمْرٌ ، في سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م ، بتَعْمِير أراضِي الخَرَائِب ، سَوَاء أكانت مملوكةً أم مَوْقُوفَةً بعد إحْصَائِها وتَحْدِيد مِسَاحَتها [٢].

وبَدَأت تَسْتَقِرُّ في المدينة مُؤسَّسَاتٌ جَدِيدَةٌ عليها ، هكذا أسِّسَت مَدْرَسَةُ الطِّبّ في أبي زَعْبَل سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م ثم تَحَوَّلَت إلى شارع القَصْر العَيْني في سنة ١٢٦٣هـ/١٨٤٥م .

ولتَيْسير الانْتِقال دَاخِل القَاهِرَة أمَرَ محمد علي باشا في سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م بإزَالَة المَصَاطِب الوَاقِعَة أمَامَ الدَّكاكين والتي كان من شَأنِها تَقْلِيل عَرْض الشَّوَارِع وإعَاقَة السَّيْر فيها ، وهو ما سَبَقَ وفَشَلَ فيه الفرنسيُّون ، ولم يَتَرَدَّد كذلك في نَزْع مِلْكية المَباني التي كانت تَعُوقُ سَيْر العَرَبات . وفي الوَقْتِ نفسه أمَرَ التُّجَّارَ بطِلاء

---

[١] M. GLERGET *op. cit.*, I, p.191.

[٢] عبد الرحمن زكي : خطط القاهرة في أيّام الجبرتي ٥٠١.

دَكاكينهم وإزَالَة الحُصْر التي كانت تُظَلِّلُ بعضَ الأسْوَاق على أنْ تُسْتَبْدَل إذا لَزِمَ الأمْر بأسْقُفٍ خَشَبِيَّة (كما هو الحالُ اليوم في شارع الخِيَمِيَّة خارج باب زَوِيلَة). وأمَرَ كذلك أهْلَ القَاهِرَة، في فَتْرَةٍ لاحِقَة، بطِلاء وَاجِهَات المَنَازِل باللَّوْن الأبْيَض لتبدو الشَّوَارِع أكثر بَهَاءً [١].

وتَرَكَّزَ التَّغْيِيرُ الكبيرُ الذي شَهِدَته القَاهِرَةُ في النِّصْف الأوَّل للقَرْن التَّاسِع عَشَر خارِج حُدُود القاهِرَة الفَاطِمِيَّة وظَوَاهِرها، في القَلْعَة والبَرّ الغَرْبي للخَلِيج وفي مَنْطِقَة شُبْرَا على النِّيل.

القَــلْعَة

كان الوَصْفُ الذي قَدَّمَهُ عُلَماءُ الحملة الفرنسية لقَلْعَة الجَبَل في نهاية القرن الثَّامِن عَشْر الميلادي، وَصْفًا لآخِر ما تَبَقَّى من مُنْشآت المماليك في القَلْعَة [٢]، فقد تَبَدَّلَ هذا الوَضْعُ تمامًا غَدَاةَ خُرُوج الفرنسيين من مصر وبعد تَوَلِّي محمد علي باشا سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م. ففي عَهْده تَغَيَّرَت معالِمُ القَلْعَةَ كُلِّيَّةً، وأدَّى هذا التَّغْيِيرُ إلى زَوال القُصُور السُّلْطانية القَديمَة، وحَلَّ في مَكانِها مَبانٍ جَديدَةٍ أهمّها: دارُ الضَّرْب سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢، وقَصْرُ الجَوْهَرَة وقَصْرُ العَدْل سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٤م مَوْضِع السَّبْع قاعات، كما جَدَّد محمد عليّ أبْواب القَلْعَة الرَّئيسة وأعادَ بِناءَها، فسَدَّ باب المُدَرَّج وأنشأ في عام ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م باب القَلْعَة العمومي الحالي المعروف بالباب الجَديد، وجَدَّدَ بابَ السِّرّ، أو باب السَّبْع حَدْرات، وأنشأ في موضعه البابَ الوسطاني الذي يُدْخَل منه إلى الحُوش الذي فيه جامِعُ النَّاصر محمد بن قَلاوون وجامِعُ محمد علي باشا، كما جَدَّدَ بابَ القُلَّة الحالي الواقع

---

[١] G. Wiet, *Mohammad 'Alī et les beaux-arts*, p.69.

[٢] جومار: وصف مدينة القاهرة ٢٢٧ـ ٢٤١.

تِجاه الباب البَحْري الشَّرْقي لجامِع النَّاصر محمد بن قَلاوون سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م، كما أنَّ جَميعَ المباني الواقعة داخِل باب القُلَّة، والتي يشغلها الآن المَتْحَفُ الحربي والمبنى الذي كانت تشغله إلى وَقْتٍ قَريبٍ دارُ الوَثائِق القومية، هي أيضًا من إنشاء محمد علي باشا إضَافَةً إلى جَامِعه الذي أنْشأهُ في مكانِ الإيوان الكَبِير بين سنتي ١٢٤٧هـ - ١٢٦٦هـ/١٨٣٠ - ١٨٤٨م. وعلى ذلك فإنَّه لم يبْق من المَدينَة الملكية المملوكية بقَلْعَة الجَبَل سوى: جامِعِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون الوَاقِعَ في مُوَاجَهَة جَامِع محمّد عليّ باشا وبَقَايَا القَاعَة الأشْرَفِيَّة وأطلال القَصْر الأبْلَق.

فلارَيْب أنَّ ما دَفَعَ محمد علي إلى مُغَادَرَة مَقَرّه في الأزْبَكِيَّة (قَصْر محمد بك الألْفي) في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م، كي يَذْهب للإقامَة في القَلْعَة يَرْجِعُ إلى أسْبابٍ أمْنِيَّة، وهو ما دَفَعَه، في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، بعد التَّخَلُّص من المماليك إلى هَدْمِ جَمِيعِ مُنْشآت المماليك تَقْريبًا وإعَادَة تَخْطِيط القَلْعَة ورَسْم أسْوَارها.

وتكَوَّنت مُنْشآتُ محمد علي في القَلْعَة من مجموعتين: القَصْر الكائِن في أقْصَىٰ الجَنُوب المعروف بـ«قَصْر الجَوْهَرة»، و«سَرَاي الحَرَم» في الشَّمَال. وأدّى إنْشَاءُ قَصْر الجَوْهَرَة إلى هَدْمِ العَدِيد من المُنْشآت المملوكية البَاقِية مثل قاعَة البَحْرَة وديوان قايِتْبَاي (وهو المَقْعَد المُوَاجِه للدَّاخِل إلى الحُوش عُلُوّ الكلار الذي به الأعْمِدَة) ودِيوَان الغُورِي الكبير، وشَرَعَ في بنائها - كما يقول الجَبَرْتي - على وَضْعٍ آخَر واصْطلاحٍ رُومي [١]. وأُقِيمَت أغْلَبُ مباني هذا القَصْر من الأخْشاب التي تُزَخْرَف وتُطْلى بالبَيَاض الرَّقِيق والأدْهان والنُّقُوش وِفْقًا للطِّراز المعروف بالبارُوك والرُّوكوكو، الأمْر الذي أدَّى إلى نُشوب حَريقٍ بها في رَمَضَان سنة ١٢٣٥هـ/ يونية

[١] الجبرتي: عجائب الآثار ٤:٢٥٣ - ٢٥٤.

١٨٢٠م أتْلَف قِسمًا كَبِيرًا من القَصْر فُقِدَت فيه العَدِيدُ من الأمْتِعَة والدَّفاتِر [١].

وتَخْطِيطُ القَصْر على شكل حرف L ويتكوَّن من عِدَّة قاعات بينها قاعَة العَرْش في الجِهَة الشَّمالية الغَربية التي احْتَرَقَت ملحقاتُها سنة ١٩٧٢م وتَبَقَّى منها حَمَّامٌ مَفْروشٌ بالرُّخَام وبه حَوْضٌ من قِطْعَةٍ واحدة جُلِبَ من مَحَاجِر بني سويف [٢].

أمَّا «سَرَاي الحَرَم» فكانت في الأصْل بَيْتًا لإسماعيل أفَنْدي أمين عِيَار الضَّرَبْخَانَه، ثم أخَذَه محمد علي لإقامَة حُرَمِه عند انْتِقَاله إلى القَلْعَة، ونَزَل إسماعيل أفَنْدي إلى دَارٍ أخرىٰ بحارَة الرُّوم جنوبي القاهَرِة، وجَعَل إلى الغَرْب منها: دِيَوان الماليّة ودِيوَان الجِهَادِيَّة وإلى جنوبها دِيوَان المَدَارِس. وأمَرَ بإنْشَائها سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م [٣].

جَامِعُ محمد علي

أهَمُّ مَباني القَلْعَة التي أنْشَأها محمد علي باشا والتي تُعَدُّ حِلْيَة القَلْعَة الرَّئيسَة «الجَامِع الكَبِير» الذي عَهِدَ محمد علي منذ سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م إلى المهندس الفرنسي باسكال كوست PASCALE COSTE (وهو المُهَنْدِس الذي نَدِينُ له بالعَدِيد من الرُّسُومات التي وَضَعَها عن صُرُوح القَاهِرَة) بدِرَاسَة مَشْرُوعِه ليَحِلَّ مَوْضِع الإيوَان الكَبِير (دِيوَان يُوسُف) بالقَلْعَة. قام كوسْت COSTE بعد دِرَاسَة لجَوَامِع القَاهِرَة بوَضْعِ تَصْمِيم لتَشْييد جَامِعٍ وَفْقًا للطِّرَاز المملوكي الجَدِيد néomamelouke الذي عَدَّهُ بحَقّ الطِّرَاز الوَطَني، ولكن رَحِيلَ كوسْت COSTE في سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣٠م حَالَ دون تَنْفِيذ هذا المَشْرُوعِ الذي تُوجَد مُخَطَّطاتُه الآن في أرْشيف مارسيليا بفرنسا. واسْتُعِيضَ عن ذلك بتَشييد جَامِعٍ مستوحًى من طِرَاز جَوَامِع

---

[١] الجبرتي: عجائب الآثار ٤: ٤٨٠. ولاية محمد علي إلى إسماعيل ٧٧.

[٢] محمد حسام إسماعيل: مدينة القاهرة من [٣] نفســه ٧٥.

إسْتانْبُول ، وعلى الأخَصّ جَامِع السُّلْطان أحمد ، أشْرَفَ على تَشْييدِه مُهَنْدِسٌ أرْمَنِّي مجهول الاسْم ، وتَمَّ افْتِتاحُه عام ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م لكن بناءَه لم يكتمل إلَّا في عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م [١].

ويَبْدُو للوَهْلَة الأولىٰ أنَّ تَصْمِيمَ هذا الجَامِع غَرِيبٌ على نَمَطِ جَوَامِع القَاهِرَة ، وهو طِرازٌ لم يتكرَّر بعد ذلك ، ورُبَّما أرادَ محمد علي بتَشْييد جَامِعِه على هذا الطِّرَاز مُنافَسَة السَّلاطين العُثْمانيين . ومع ذلك فإنَّ المَنْظَرَ العام لهذا الجَامِع ، بسَبَب كُتْلَته ومآذِنِه المَمْشُوقَة الشَّاهِقَة ، أصْبَح جزءًا لا يَتَجَزَّأ من مَنْظَرِ القَاهِرَة بل إنَّه أصْبَح دَلِيلًا على القَلْعَة [٢].

قَصْرُ شُبْرَا

لمَّا كان محمد علي مُعْجَبًا بالمَسَاكِن الرِّيفِيَّة فقد شَرَعَ في تَشْييد قُصُورٍ رِيفِيَّة سَاعَدَت على بِدَايَة نُمُوٍّ عُمْرَاني لاحِق وتَحَوُّل ما حَوْلَها إلى ضَاحِيَةٍ وَاعِدَة .

كان هذا حالُ « قَصْر شُبْرَا » الذي بَدَأت أعمالُ تَشْييده على شاطئ النِّيل شَمَال القَاهرة سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٩م ، في المَنْطِقَة المعروفة الآن بـ« شُبْرَا الخَيْمَة » وانْتَقَلَ إليه محمد علي في العام التَّالي وجَعَلَه مَقَرَّ إقامته الرَّئيس . ولتَيْسير الوُصُولِ إليه أزالَ التُّلُول التي كانت خارِج باب الحَدِيد وفي غربي القاهِرَة وشَقَّ طريقًا جَمِيلًا مَزْرُوعًا على الجَانِبين بأشْجَار السَّنْط والجُمَّيْز وَصَفَهُ الرَّحَّالَة الفرنسي GERARD DE NERVAL بأنَّه « أجْمَل شارع في العَالَم » وقد أطْلِقَ عليه « شانْزِلِيزِيه القَاهِرَة ومُلْتَقَىٰ نُخْبَة المجْتَمع المَحَلِّي والأوروبي القَاهِرِي » . وقامَ المُهَنْدِسُ الإنْجليزي جالَّواى GALLOWAY بإدْخالِ الإنَارَة بالغَاز إليه في سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م [٣].

---

[١] A. RAYMOND, *Les Caire*, p.303.

[٢] راجع عن هذا الجامع ، G. WIET, *op. cit.*, pp.265-88؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ٣٧٦-٣٨٨؛ MOH. AL-ASAD, «The Mosque of Muhammad 'Alî in Cairo», *Muqarnas* IX (1992), pp.39-55.

[٣] G. WIET, *op. cit.*, pp.129-194.

وقد تُرِكَت الإقامَةُ في هذا القَصْر بعد وفاة محمد علي باشا، ولكن عُمْران المَكان لم يَنْقِطع فشُيِّد في عام ١٩٠٩م صَفَّان من المَنازِل المُعَدَّة للتَّأجِير على طُول الطَّرِيق القَدِيم الذي أصْبَح يَمُرُّ فيه خَطٌّ للتَّرام[١].

وعند إنْشَاء جامِعَة إبراهيم باشا (جامِعَة عَيْن شَمْس الآن) في نهاية عقد الأربعينيات من القَرْنِ العِشْرِين اتُّخِذَ قِسْمٌ كَبِيرٌ من مباني القَصْر مَقرًّا لكلية الزِّرَاعَة، أمَّا قِسْمُ القَصْرِ الرَّئيس المعروف بكوشْك الفَسْقِيَّة فقد صَمَّمَهُ مسيو دروفتي Drovetti قُنْصُل فرنسا العام في مصر وهو مَبْنَى مُسْتطِيل مُسَطَّحُه ١٣٥٣٠ مترًا يُتَوَصَّلُ إليه من خِلالِ أرْبَعَةُ أبْوَابٍ محورية مُتَقَابِلَة، وبوَسَطِه بِرْكَةُ ماءٍ مُسْتَطِيلَة الشَّكْل يَتَوَصَّلُ إليها ماءُ النِّيل عن طريق آلات بُخارية يَتَوَسَّطها جَزِيرَةٌ مُثَمَّنَة من الرُّخَام محمولَة على تماثيل تماسِيح رُخامِيَّة.

ويُحيطُ بالبِرْكة من جِهَاتِها الأرْبَع عُمُدٌ رَشِيقَة من الرُّخام تحمل سَقْفًا حافِلًا بالنُّقُوش، وتتوَزَّع في أركانها الأرْبَع أربع حُجْرات كَبيرة: صالة الجُوز وصالة البليارْدُو وصَالَة حُجْرَة المائِدة وصالة المجْلِس، وقد اسْتُخْدِم مُصَوِّرين أتْرَاك وأوروبيين لتَصْويرها.

وأعِيدَ تَرْمِيمُ قَصْر شُبْرا تَرْميمًا كامِلًا وافْتُتِح في سنة ٢٠٠٦م.

المُسَافِرْخَانَة (دَارُ الضِّيافَة)

نَظَرًا لأنَّ مصر أصْبَحَت في مَكانَةٍ دَوْلِيَّةٍ مَرْمُوقَةٍ، فقد اسْتَلْزَمَ ذلك تَخْصيص دَارٍ لِضَيافَة الوَافِدِين على مصر من الأجانِب والرَّسْمِيين جُعِلَ مكانها الدَّار التي أنْشأها ما بين سنتي ١١٩٣-١٢٠٣هـ/١١٧٩-١٧٨٨م، الحاج محمود محرَّم

---

[١] الجبرتي: عجائب الآثار ٤: ١٤٠؛ عبد عبد الوهاب: «قصر شبرا»، مجلة العمارة ٣ الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي ١١٠؛ حسن (١٩٤١)؛ A. Raymond, *op. cit.*, p.303

الفَيُّومي بدَرْبِ المَسْمَط المتفرّع من شارع الجمالية. ووُلِدَ بهذه الدَّار الخِدِيو إسْماعيل باشا سنة ١٢٤٥هـ/١٨٣٠م، وبَدْءً من سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م اعتبرت المُسَافِرْخَانَة فَرْعًا لديوان محافَظَة القاهرة [1]. وقد احْتَرَقَت هذه الدَّار في نهاية القرن العِشْرِين.

بُـولاق

تأَثَّرَت بُولاق كثيرًا بما ألْحَقَهُ بها الفرنسيون أثناء ثَوْرَة القَاهِرَة الأولىٰ سنة ١٢١٥هـ/١٨٠٠م، ولكنَّها سُرْعان ما اسْتَرَدَّت نَشَاطَها بفَضْلِ مَشْرُوعات محمد علي الصِّنَاعِية، فأنْشأ بها، في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٤م، دَارًا لصِنَاعَة السُّفُن حَلَّت مَحَلّ مصر القديمة كميناءٍ للقاهِرَة إلى أنْ أنْشِئ، في سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م، خَطُّ سِكَّة حَدِيد مصر الذي رَبَطَ القاهِرَة بالإسْكَنْدَرِيَّة.

وخلال الأعْوَام التَّالية أقام محمد علي بعض الصِّنَاعات في السَّبْتِيَّة شمالي بولاق منها مَصْنَع (وَرْشَة) مالْطة والمَبْيَضَة للنَّسيج ومَصْنَع السَّبْتِيَّة لغَزْل القُطْن ومَسْبَك للمَعَادِن عُرِفَ بـ «الدَّقْمَخَانَة» لصَبِّ الحَدِيد والنُّحَاس، إضَافَة إلى «مَطْبَعَة بولاق» في عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٢م والتي صَدَرَ عنها أوَّل عَدَدٍ من «الوَقَائِع المصرية» في ٢٥ جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٢٤٤هـ/ ٣ ديسمبر ١٨٢٨م، واهْتَمَّت في أوَّل الأمْر بطبع الكُتُب المُتَرْجَمَة ثم قامَتَ عند منتصف القَرْن التَّاسِع عشر بدَورٍ مهمٍ في نَشْر أمَّهَات الكُتُب العَربية [2].

---

[1] عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي ١٢٧؛ J. REVAULT & B. MAURY, *Palais et maisons du Caire* III, pp.133-57.

[2] نفســه ٩٧-١٠٤؛ حسام إسماعيل: القاهرة ٩١-١٠٠؛ وعن مطبعة بولاق راجع أبا الفتوح رضوان: تاريخ مطبعة بولاق، القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٥٣؛ خالد عزب وأحمد منصور: مطبعة بولاق، مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٥.

هكذا نَمَت ضَاحِيَةُ بولاق كمركزٍ صِناعِي تجارِي اخْتصّ بإقَامَة طَبَقة العُمَّال والحِرَفيين .

*
* *

كان من الطَّبيعي أن يَصْحَب هذه التَّوْسيعات والتَّعْدِيلات فَتحُ طُرُقٍ جَدِيدَة ، سواء دَاخِل المَدينة القَدِيمَة أو في امْتدَادَاتها الجَدِيدَة منها : « شَارِع السِّكَّة الجَدِيدَة » الذي كان يَصِلُ تُرَب الغَرِيب في شَرْقي المدينة القَدِيمَة بشارع المُوسْكي (وهو الشَّارع المعروف الآن بشارِع جَوْهَر القائِد) . وبَدَأ العَمَلُ فيه في سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م (من جِهَة قَنْطَرَة الموسْكي وتَمَّ تَوْصِيلُه إلى جِهَة الشَّرْق في أيَّام إسْماعيل باشا) . والشَّارِعُ الذي كان يَرْبِطُ الأزْبَكِيَّة ببولاق والذي قامَ بتَمْهيده LE PÈRE كبير مُهَنْدِسِي الطُّرُق والكباري في عَهْدِ الحَمْلَة (شارع فؤاد الأوَّل/ ٢٦ يولية الآن) وغَرَسَ الأشْجَار على جَانِبَيْه تسْهِيلاً لمرور فِرَقِ الجَيْش الفرنسي . كان هذا الطَّريقُ يَصِلُ ما بين بولاق والأزبَكِيَّة بعد مُرُوره فوق قَنْطَرَة المغربي التي كانت تَقُومُ فوق خَليج الطَّوَّابَة (الخَلِيج النَّاصِري القَدِيم) مُخْتَرِقًا التِّلال الموازية للخَلِيج التي حَلَّ محلَّها بعد إزالتها مَدْرَسَةُ الفُنُون الإيطالية (ليوناردو دافِنْشي) ومُسْتَشْفىٰ الجَلَاء (فؤاد الأوَّل) للوِلادَة (ناصِيَة شارِعي الجلاء و ٢٦ يولية الآن) .

*
* *

وأنْشَأ محمد علي باشا دَاخِل حُدُود المدينة الفَاطِمِيَّة سَبِيلَيْن متميِّزين على الطِّراز العُثْماني صَدَقَةً على روح اثنين من أبْنائِه . الأوَّل سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م صَدَقَةً على روح ابنه طُوسُون باشا (المتوفَّى بالطَّاعُون ، سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م ، في قَصْر برنبال بالقُرْب من رَشِيد) ، بأوَّل حَارَة الرُّوم بشارع المعزِّ لدين الله من جِهَة باب زَوِيلَة وبنى فوقه كُتَّابًا لتعليم الأطْفال ، كان الماءُ يصل إلى صِهْرِيجه

بواسِطَة مَجْرىً تحت الأرْض مُتَّصِل بالخَلِيج عند قَنْطَرَة باب الخَرْق ، وهو مبني بالرُّخَام به شَبَابِيك نُحاس بداخلها مُزَمَّلات رُخام يُسْقَى منها الماء عَبْر البَرَابِيز ، ويُعْرَف هذا السَّبيل بـ « سَبِيل طُوسُون باشا » وبـ « سَبِيل العَقَّادِين » لوُقُوعه بشارِع العَقَّادين أحد أقْسَام شارع المُعِزّ لدين الله (مُسَجَّل بالآثار برقم ٤٠١)[١].

والثَّاني على الطِّرَاز نَفْسه سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٨م صَدَقَة على رُوح ابنه إسْمَاعيل الذي تُوفِّيَ مُحْتَرِقًا في السُّودَان ، ونُقِلَ إليه الماء بالطَّرِيقة نفسها المُسْتَخْدمة في السَّبِيل السَّابِق ، ثم لمَّا حَدَثَت مجارِي المياه بالقَاهِرَة اسْتُغْنِي عنها وصَارَت الصَّهاريجُ تُملأ من مجاري تَقْسيم مياه القَاهِرَة ، ويُعْرف هذا السَّبِيل (مُسَجَّل بالآثار برقم ٤٠٢) بـ « سَبِيل النَّحَّاسين »[٢].

وقُرْبَ نهاية فَتْرَة حُكْم محمد علي وفي الوَقْت الذي بَدَأ فيه مَشْرُوعَه الكَبير لِتِعْدَاد النُّفُوس ، أنْشَأ خِدْمَةً مَدِينيَّةً ، سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م ، كان أحَد أهَمّ إنْجازاتها تَسْمِيَةُ الشَّوَارِع وتَرْقِيم الدُّور الوَاقِعة على جانبيها ، سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٧م ، جاءَ في أوَّلِه :

« لمَّا كانت كتابةُ أسْماء الأزِقَّة بمصر المحروسة على محل يناسبها فوق زواياها وتَنْمِير البيوت كبيرة كانت أو صغيرة برقم نمرها على أعلى أبوابها أو بجانبها كأسلوب أوربا مما يستوجب المَنَافع العَظِيمة للمملكة ويورث السهولة لمن يقصد زقاقًا أو بيتًا سواء كان من الأهالى أم من الأجانب ، استقر الرأى بمجلس تَنْظِيم المحروسة على التَّدابِير اللازمة لذلك طِبْق الإرادَة السَّنِيَّة وانْدَرَج بيانها تفصيلًا في نُسَخِ الوَقَائِع المنمرة بنمرة ٦٤ وحصل في هذه الأيام الشُّروع في إجراء ذلك بدأ من

---

[١] عبد الحميد نافع : ذيل خطط المقريزي ٦٠؛ علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ٢: ١٢١، ٦: ١٧٥.

[٢] نفسه ٥٧؛ نفسه ٢: ٩٠؛ A. Dobrowolska, & Kh. Fahmi, *Muhammad 'Alî Pacha and his Sabils*, Cairo-AUC 2000.

جادَة بابِ الخَلْق بمقتضى التَّرْتِيب الآتي ذكره أدناه وهو خمسة عشر بَنْدًا »[١].

وكذلك إعْدَاد مَشْرُوع فَتْح بعض الطُّرُق في المدينة القديمة يَقُودُ أحَدُها من الموسْكي إلى الجامع الأزْهَر (السِّكَّة الجَدِيدَة فيما بعد) والآخَر كان عليه أنْ يَصِل الأزْبكية بالقَلْعَة لم يَظْهر إلى الوُجُود إلّا في عَهْدِ إسْمَاعيل (شارع محمد علي).

* * *

وأسْهَمَ بَعْضُ رِجَالات محمد علي في تَزْويد القاهِرَة بالعَدِيدِ من المُنْشَآتِ الدِّينيَّة والاجْتماعية، يأتي في مُقَدِّمَتِهِم سليمان أغَا السِّلِحْدَار الذي وَصَفَهُ الجَبَرْتي بأنَّه « المُسَلَّطُ على أخْذِ الأماكِن وهَدْمِها وبِنائِها خانات ورِبَاعًا وحَوَانِيت، فيأتي إلى الجِهْة التي يَخْتارُ البِنَاءَ فيها ويَشْرَعُ في هَدْمِها ويأتيه أرْبابُها فيُعْطِيهُم أثْمانَها كما هي في حجُجَهم القديمة - وهي شيءٌ نادِرٌ بالنِّسْبَة لغُلُوّ أثْمان العقارات في هذا الوَقْتِ - لعُمُوم التَّخَرُّب وكثرة العالَم وغَلاء المُؤَن، وضِيق المَسَاكِن بأهْلِها حتَّى إنَّ المكان الذي كان يُؤَجَّر بالقَلِيل صَارَ يُؤَجَّر بعَشْرَة أمْثَال الأجْرَة القديمة »[٢].

شَيَّدَ سليمان أغَا السِّلْحْدَار، في سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، دَارًا ومَسْجِدًا وسَبِيلَ كُتَّابٍ عند ناصِيَة القَصَبَة وحَارَة بَرْجَوَان (شَارِعُ المُعِزّ لدين الله الآن) (مُسَجَّل بالآثار برقم ٣٨٢)، وكان يَفْصِلُ بين دَاره وبين المَسْجِد وسَبِيل الكُتَّاب حَارَةُ بَرْجَوَان فَبَنَىٰ بَوَّابَتَها المُطِلَّة الآن على شَارِع المُعِزّ لدين الله مُنْدَمِجَةً ضِمْن مباني تلك المجموعة[٣].

---

[١] الوقائع المصرية العدد ٨٣ في ٢٩ رجب سنة ١٢٦٣هـ؛ أمين سامي: تقويم النيل ١/ ٥٤٧:٣-٥٥٣؛ حسن عبد الوهاب: تخطيط القاهرة وتنظيمها ٢٣- ٣١.

[٢] الجبرتي: عجائب الآثار ٤: ٤٤٥.

[٣] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣: ١٣٥؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ٣٦٠-٣٦٢؛ محمد حسام إسماعيل: مدينة القاهرة ١٣٠، ١٣٦-١٣٧.

وأنْشَأ كذلك سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م «وَكالَةً» جِهَة خَان الخَلِيلي - في مَوْضِع المكان المعروف بخان القَهْوَة وما حَوْلَه من البُيُوت والأماكِن والحَوَانِيت - جَعَلَ بها حَوَاصِل وطِباقًا وأسْكَنَها نَصَارَىٰ الأرْوام والأرْمَن بأجْرَة تَزِيدُ على أضْعَاف الأجْرَة المعتادَة ، وفَتَحَ منها بابًا يُخْرَجُ منه إلى وَكالَة الجَلَّابَة بالخَرَّاطِين (الصَّنَادِقِيَّة الآن) . وأنْشَأ بدَاخِل باب النَّصْر (شارع الجَمَالِيَّة الآن) أبْنِيَةً عَظِيمَةً تحتوي على خانات مُتَدَاخِلَة وحَوَانِيت ومَقَاهِي ومَسَاكِن وطِباق في المَوْضِع المعروف بـ« حُوش عُطَيّ » ، وكان في الأصْل مَحَطًّا لعُرْبان الطُّور وأهالي شَرْقِيَّة بِلْبَيْس[١] .

* * *

كان لنُفُوذ إبراهيم باشا بن محمد علي باشا ، والذي بَدَأ في الظُّهُور ابتداءً من عام ١٨٣٠م ، دَوْرٌ كبيرٌ في تَغْيير مَظْهَر المَدِينَة . فمَهَّدَت بَعْضُ الأعْمال التي قامَ بها الطَّريقَ أمامَ التَّطَوُّرَات المُهِمَّة التي عَرَفَتْها القاهِرَةُ في عَصْر إسْمَاعيل . فقد كان إبراهيم باشا أوَّلَ من فَكَّرَ في الإقامَة في حَيّ بُسْتان الخَشَّاب على النِّيل مُبَاشَرَةً (حيّ جارْدن سيتي فيما بعد) خاصَّةً بعد أنْ أزالَ تَلَّ العَقَارِب الذي أحاطَ بجَنُوبيّ هذه المَنْطِقَة ، وشَيَّدَ بها القَصْرَ العالِي مِمَّا سَاعَدَ على انْتِشَار العُمْرَان بين مصر القديمة جَنُوبًا وبولاق شَمَالًا[٢] ، وهو أيضًا الذي قامَ بعَمَلِيَّة تَمْهِيد وإعْدَاد وزِرَاعَة نحو ٤٠٠ فَدَّانًا في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين الأزْبَكِيَّة والنِّيل مِمَّا سَاعَدَ على تَسْهيل عمليَّات مَدْيَنَة هذه المَنْطِقَة التي تَمَّت بصُورَةٍ وَاضِحَةٍ في عَهْدِ إسْماعيل ، كذلك فقد تَوَلَّى إبراهيم باشا أعْمَالَ رَدْمِ البِرَكِ والمُنْخَفَضَاتِ التي كانت تَغْمُرُها المِياهُ في

---

[١] الجبرتي : عجائب الآثار ٤ : ٤٨٨؛ أماني عويس : « أوقاف الأمير سليمان أغا السِّلحدار بخان الخليلي » في كتاب الخان الخليلي وما حوله ، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م ، ١ : ١٢٧- ١٤١.

[٢] G. Wiet, *op. cit.*, pp.228-29.

زَمَنِ الفَيَضَان مثل بِرْكة الرَّطْلي وبِرْكة قاسِم بك وقِسْم من بِرْكتيّ الفِيل والأَزْبَكِيَّة، والتي تَمَّ رَدْمُها نهائيًّا في عَهْدِ خَلَفَيْه عبَّاس الأوَّل ثم إسْماعيل باشا. وسَاعَدَ ذلك على إنْشَاء فَنَادِق مُسْتَحْدَثَة تَطُلُّ على الحَدِيقَة التي بَدَأت تَحِلُّ تَدْريجيًّا محلَّ البِرْكة مثل: فُنْدُق الشَّرْق Hôtel d'Orient (في الشَّمال الشَّرْقي ـ ميدان الخَازِنْدار الآن) وفُنْدُق شِبَرْد Hôtel Shepheard سنة ١٨٤٩م (على الجانِب الغَرْبي، في مَوْضِع قَصْر الأَلْفي بك)[١].

وبَدَأت المَدِينَةُ القديمَةُ تأخُذُ شَيْئًا فَشيْئًا مَظْهَرًا جَدِيدًا بعَمَائِرها المُشَيَّدَة في طُرُزٍ غَرِيبةٍ على التَّقاليد المحلِّية، مع مَنْع بناء «المَشْرَبِيَّات» (لأَسْبابٍ أمْنِيَّة، وكذلك دون شَكّ لغَرَضِ التَّحْدِيث). وفَرَضَ اسْتِخْدَامُ زُجَاجٍ للنَّوَافِذ طِرَازًا جَدِيدًا نِصْف أوروبي ونِصْف تُرْكي، وتَنْظيمًا جَدِيدًا للفَرَاغات الدَّاخِلِيَّة تَمَّت إذاعَتُه خِلال النِّصْف الثَّاني للقرن التَّاسع عَشْر[٢].

مَنَازِلُ القاهِرَة في مَطْلَع القَرْن التَّاسِع عَشْر

أبانَ علي مُبَارَك في فَصْلٍ مُهِمّ عن حَالَة القاهِرَة وما كانت عليه مَنَازِلُها عند تَوَلِّي محمد علي حُكمَ مصر في مَطْلَع القَرْن التَّاسِع عَشْر. وما يَسُوقُه علي مُبارَك يَرْسِمُ صُورَةً واضِحَةً لهَيْئَة المَدِينَة التَّاريخية قَبْل التَّحوُّلات التي شهِدَتها في نَمَطِ البِنَاء في الخَمْسين عامًا الأولىٰ من القرن التَّاسِع عَشْر حتى ظُهُور الأَحْيَاء الجدِيدَة في شُبْرَا والإسْماعيلية وعابدين والنَّاصِريَّة والتي تَخَلَّت تمامًا عن الأَنْمَاط التَّقْليدية في البِنَاء وأَذَاعَت الطُّرُزَ الغَرْبِيَّة في تَخْطِيط الشَّوَارع والميادين وتَشْييد العَمَائِر، يقولُ علي مُبَارَك:

---

[١] A. Raymond, *Le Caire*, p. 301.

[٢] *Ibid.*, p.302.

«لم يكن لظاهِر البُيُوت رَونَقٌ ، بل كانت الهِمَمُ مَصْروفَةً لرَوْنَقَة الدَّاخِل منها ، خُصُوصًا بيوت الحَرَم والحِيشَان والاصْطَبْلات ...

وكانت العادَةُ أنْ يكون البَيْتُ ذا طَبقتين : السُّفْلىٰ تحتوي على الحَوَاصِل والاصْطَبْلات والبِئْر أو السَّاقِيَة ، والطَّاحُون غالِبًا ، والمَنْظَرَة ، وتحتوي العُلْيا على المَقْعَد وتَوَابِعه ومَحَلّ القَهْوَة والقاعات والفَسَحات والحَمَّامات والمَطَابِخ ...

وكانوا يَعْتَنُون بتَوْسِعَة الفَسَحَات والقاعات ويَفْرِشُونَها بالرُّخَام المُلَوَّن على هَيْئات جَمِيلَة ، ويَجْعَلُون على الحَوَائِط قِطَع القِيشَاني ... ويَجْعَلُون لها المَشْرَبِيَّات البَدِيعَة المَصْنُوعَة بصِنَاعَة الخَرْط على رُسُوم وكتابة وأشْكال حَيَوانات بدون تَسْمِير المسامير (بالتَّعْشِيق) ، وفوق تلك المَشْرَبِيَّات الشَّبابِيكُ المَصْنُوعَة من الجِبْس المُفَرَّع على أشْكال عَجِيبَة ويُوضَع في التَّفْرِيغ الزُّجَاج الملوَّن الذي يكوِّن صُورًا بَدِيعَة الشَّكْل» .

وخَلُصَ من ذلك إلى أنَّ البِنَاءَ كان يتمُّ كيفما اتَّفَقَ ، فيكون محلًا مرتفعًا ومكانًا هابطًا وآخَر مُنيرًا وآخَر مُظْلِمًا ، وبَعْضُها مُتَّسِعٌ وبَعْضُها في غاية الضِّيق ، حتى أنَّك تَرَى قاعَةً يَعْجَز الوَاصِفُ عن وَصْفِ رَوْنَقِها مُنْزَوِيةً دَاخِل دِهْلِيز مُظْلِم ، حيث أنَّ البَنَّائين لم يكن لهم عِلْمٌ بتَنْسِيق المَوَاضِع بل يُقَلِّدون ما سَبَقَهم .

وكانت حَاراتُ القاهِرَة القَدِيمَة كثيرَة الانْعِطافات ضَيِّقَة المَسَالِك غير مُنْتَظِمَة ، وبَعْضُ البُيُوت بارِزٌ في الطَّريق وبَعْضُها الآخَر دَاخِلٌ عنه ، وكانت بعضُ المَشْرَبِيَّات في الطَّابِق الأعْلى يَتلاصَقُ من جَوَانِبها وتَتَلاقىٰ مع ما واجَهَهَا إلى الحَدّ الذي تُحْدِثُ معه ساباطًا مُرَكَّبًا على جَمِيع الطَّريق ، فَضْلًا عن الأسْبِطَة الحقيقية . وكان الفَرْدُ إذا أحْدَثَ عِمَارَةً ورأى أمامَ مَنْزِله فَضَاءً أدْخَلَ منه في المنزل ما أحَبَّ بلا مُمانِع .

ولم تكن الشَّوَارِعُ بأحْسَن حالٍ من الحارات ولا تَزِيدُ عنها في السَّعَة إلَّا قليلًا ، فكان إذا تلاقىٰ جَمَلان تَعَسَّر المُرُورُ وسُدَّ الطَّرِيق ، باسْتِثْناء مَوَاضِع قليلة .

ولم تكن هناك عِنَايَةٌ بأمْر النَّظَافَة والصِّحَّة العامَّة ، فكانت القاذُورات تُلْقى بجوانب الحارات وعلى أبْوَاب الأزِقَّة ، وما يَنْشأ من الهَدْم من الأتْرِبَة يُلْقَى على باب المَدِينَة فيصيرُ تِلالًا ، فإذا نَسَفَتها الرِّياحُ تكوَّنَ منها سَحَابَةٌ فوق المَدِينَة تَحْمِلُ رَوَائح كريهَة تُسَاعد على انْتشار الأمْرَاض ، فكانت المَدِينَةُ تَغُصُّ بالمجذُومين والبَرْصَىٰ والمُجْذُورين والعِمْيَان لأنَّ اكتظاظَ المَدِينَة وضِيق مَسَالكها لا يُمَكِّن الشَّمْسَ من تَحْليل الرُّطُوبات فتَنْتَشِرُ لذلك الأمْرَاضُ الجِلْدِيَّة مثل الحكَّة والجَرَب وخلافه .

ولم تكن هناك مارِسْتانات وأطبَّاءٌ لمُدَاوَاة المَرْضىٰ ، بل كانوا يُعَوِّلُون في ذلك على وَصْفَات العَجَائِز وأقْوال الدَّجَّالين والمُشَعْبِذين ، أضِف إلى ذلك اتِّخاذهم المقابِر في وَسَطِ المَدِينة (مَقْبَرَة السَّيِّدَة زيْنَب ومَقْبَرَة القاصِد ومَقْبَرَة الرُّوَيْعي) ، بل إنَّ كثيرًا من النَّاس كانُوا يَدْفِنُون مَوْتاهُم في منازلهم .

كانت الأزْبَكِيَّةُ فقط هي المكان المَفْتُوح في المَدِينَة ، وخاصَّةً في أيَّام الفَيَضَان ، حيث انْتشَرَت بها المقاهِي التي كان النَّاسُ يترَدَّدون عليها لاسْتِنْشَاق الهَوَاء [1] .

٢ ـ القَاهِرَةُ في عَهْدِ خُلَفَاءِ محمَّد علي باشا

إذا كان عَهْدُ محمد علي باشا قد شَهِدَ طَفْرَةً في التَّغْيير ، فإنَّ عَهْدَ خَليفَتَيْه عَبَّاس الأوَّل وسَعِيد باشا (١٢٦٦ـ١٢٨٠هـ/ ١٨٤٨ـ١٨٦٣م) لم يَشْهَد إنْجَازَات كبيرة ، فيما عَدَا بعض التَّعْدِيلات في جُغْرافية المَدِينَة حيث وَضَعَ عَبَّاسُ الأوَّل أُسُسَ «حَيّ العَبَّاسِيَّة» شَمَالي القاهِرَة حين أصْدَرَ أمْرًا في ٢٧ جُمادَىٰ الآخرة سنة ١٢٦٥هـ/ ٢٠ مايو سنة ١٨٤٩م إلى رئيس مَجْلِس الأحْكام جَاءَ فيه أنَّه نَظَرًا لأنَّ أبْنِيَة مَدِينَة القَاهِرَة ليست على الطِّرَاز الحَدِيث وأنَّ المَسَاكِن المَوْجُودَة فيها قَدِيمَة ومُشْرِفَة على الخَرَاب ، فإنَّه يَدْعُو أهْلَ اليَسَار وأصْحَابِ الثَّرْوَة إلى البِنَاء في صَحْرَاء

---

[1] علي مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة ١:١٩٧ـ٢٠٢ .

الحَصْوَة (العَبَّاسِيَّة الآن) المَعْروفة بجَوْدَة هَوَائها. وأمَرَ بتَقسيم أراضيها وتَوْزيعها عليهم ليبني كلٌّ منهم قَصْرًا وطَلَبَ من مَجْلِس الأحْكام تَحْدِيد مَوْعِدٍ لإنْشَاءِ هذه القُصُور. وفي الوَقْتِ نَفْسه أنْشأ في العَبَّاسِيَّة ـ التي انْتَسَبَت إليه ـ ثُكْنَات للجَيْش في الطَّريق المُؤَدِّي إلى المَطَرِيَّة وعَيْن شَمْس[1]، وقَصْرًا مازالَت بقاياهُ مَوْجُودَةً داخِل المَنْطِقَة المركزية العَسْكرية خَلْف وزارة الكهرباء بالعَبَّاسِية.

ويَرْجِعُ «حَيُّ الحِلْمِيَّة» (الوَاقِعُ بين السَّيِّدَة زَيْنَب وباب الخَلْق) أيضًا إلى عَهْدِ عَبَّاس الأوَّل حَيْث بَنَى في شَرْقِيّ بِرْكَة الفِيل، سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م، سَرَاي الحِلْمِيَّة وغَرَسَ في جَانِبٍ منها بُسْتَانًا ورَدَمَ بَقِيَّتَها بالتُّرَاب وجَعَلَها سَاحَةً كانت تَصِلُ إلى مُوَاجَهَة جَامِع أُلْماس الحاجِب (في أوَّل شَارع السُّيُوفِيَّة)، وآلَت هذه السَّرَاي إلى حَفِيدَة عبَّاس الأوَّل، أمينَة هانِم بنت إلْهامي باشا وزَوْجَة الخِدِيو تَوْفِيق المعروفة بأم المُحْسِنِين، وهُدِمَت هذه السَّرَاي في العَقْدِ الأوَّل من القَرْن العِشْرين وخُطِّطَت شَوَارِعُها وبِيعَت إلى الأفْرَاد ونَشَأ على أنْقاضِها حَيٌّ جَدِيدٌ عُرِفَ بـ «الحِلْمِيَّة الجَدِيدَة»[2].

وفي دَاخِل حُدُودِ القاهرة الفاطِمِيَّة شَيَّدَ عَبَّاسُ الأوَّل، قَبْل تَوَلِّيه الحُكْم، سَرَاي في خِطَّة قاضي البَهَار بالخُرُنْفِش أمام جَامِع القاضي عبد الباسِط (أثر رقم ٦٠) وسَمَّاها بالإلْهامِيَّة على لَقَب نَجْلِه، آلَت بعد ذلك إلى أسْرَة إبراهيم باشا يكن ومنها إلى أسْرَة البكري الصِّدِّيقي[3].

---

[1] عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي ١١٢؛ أمين سامي: تقويم النيل ١/٣: ٢١ـ٢٢؛ محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة ١٥٥ـ١٥٧؛ N. S. TAMRAZ, *Nineteenth-Century Cairene Houses*, pp.40-55.

[2] عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي ١١٤، ١٣٣؛ نفسه ١٥٧.

[3] نفسه ١٢٠؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣: ١٣٥ـ١٣٦.

ونَظَرًا لأنَّ عَبَّاس الأوَّل كان مُغْرَمًا بالبِنَاءِ في ضَوَاحِي القاهِرَة البَعِيدَة، مثل قَصْر بَنْها الذي لقي به حَتْفَه، وقَصْر الدَّار البَيْضَاء بطَرِيق السُّوَيْس، تَمَّ في عَهْدِه تَوْقِيعُ اتِّفَاقٍ مع الحكومة الإنجليزية لإنْشَاءِ خَطِّ سِكَكٍ حديدية يَرْبِطُ القَاهِرَة بالإسْكَنْدَرية وخَطٍّ آخرَ يَصِلُ القاهِرَة بالسُّوَيْس، تَمَّ إنْجَازُ الجُزْء الأوَّل من الخَطِّ سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٤م قَبْل وَفَاتِه، واسْتُكْمِلَ بَقِيَّةُ الخَطِّ في سنة ١٢٧٥هـ/١٨٥٨م في عَهْدِ خَلَفِه سَعِيد باشا، واسْتَتْبَع ذلك بِنَاءُ مَحَطَّة للسِّكك الحديدية في مَنْطِقَة بابِ الحَدِيد (مَيْدان رَمْسِيس الآن) سنة ١٢٧٣هـ/١٨٥٦م، احْتَرَقَت سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٢م بسَبَب إنْفِجار ذخِيرَةٍ للجَيْش البريطاني في أحَدِ مخازِنها في أعْقابِ الثَّوْرَة العُرَابِيَّة، وأعِيدَ بناؤها سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٣م، وهي المَحَطَّةُ نفسها المستمِرَّة إلى الآن وإنْ أُدْخِلَت تَعْدِيلاتٌ على واجِهَتِها، وتَمَّ بِنَاءُ كوبري إمْبابَه (١٨٩٠-٩١م) لِيَسِيرَ عليه خَطُّ سِكَك حَدِيد الوَجْه القِبْلي وأعِيدَ بناؤه عام ١٩٢٥م.

قَصْرُ النِّيل

وقامَ سَعِيدُ باشا بشِرَاء القَصْر الذي خَصَّصَه محمد علي باشا لابنته نازْلي هانم على الشَّاطِئ الشَّرْقي للنِّيل أمَام جَزِيرَة إبراهيم (الجَزِيرَة والزَّمالِك الآن) وهَدَمَهُ ووَسَّعَهُ عن أصْلِه وألْحَقَ به ثُكنات عَسْكرية تَسَعُ سِتَّة آلاف نَفْسٍ تقريبًا، وأوْصَل إليه السِّكَّة الحَدِيد من شَمالِه بحيث يدْخُلُ القِطارُ إلى داخِلِه، وكان يُعَدُّ عند إقامته أكبر قَصْرٍ في ضَواحي القاهِرَة، قامَ بتَصْمِيمه المهندس الإيطالي Cero Pantanelli، ورُمِّمَ في عَهْدِ الخِدِيو إسْماعيل، سنة ١٨٦٨م، ثم أصْبَحَ مَقَرًّا لوزَارَة الحَرْبِيَّة قَبْل أن يتحوَّل إلى ثُكْنات لقُوَّاتِ الاحْتِلال البريطاني. وسُجِّلَ هذا القَصْر في عِدَاد الآثار الإسلامية في ٩ يناير سنة ١٩٥٢م ثم أخْرَجَتْه مَصْلَحَةُ الآثار في ٢٦ مايو سنة ١٩٥٤م لوُقُوعه في مسار شارع كورنيش النِّيل الذي فُتِحَ في هذا الوَقْت وأوْصَت بالاحْتِفَاظ بزخارفه الخَشَبية الموجودة بقاعته الكُبرىٰ والأعْمِدَة

الرُّخامِيَّة التي تُزيِّن شُرْفَتَه الغربية المُطِلَّة على النِّيل. وقد حَلَّ محلَّه بين سنتي ١٩٥٦ و ١٩٦٠م فُنْدُقُ النِّيل هيلتون ومبنىٰ جَامِعة الدُّوَل العَربية [1].

آخِرُ الأسْبِلَة

لم تَعْرِف القاهِرَة المُبْتَكرات الحَضَرية الحَدِيثة (الغاز وضَخّ المياه العَذْبَة) إلّا بعد أنْ أنْشَأ الخِدِيو إسْماعيل نَظَارَة (وَزَارَة) الأشْغال سنة ١٨٦٥م، وحتى ذلك الوَقْت كانت القاهِرَة تَعْتَمِدُ على الأسْبِلَة وعلى السَّقّائين في تَزْويدها بالمياه.

فكان من آخِر الأسْبِلَة التي زُوِّدَت بها القاهرة: «سَبِيلُ أمّ عَبّاس»، الذي أنْشَأته بَنْبَه قادِن أمّ عَبّاس باشا الأوَّل، سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م، عند تَقَاطُع شَارِع السُّيُوفية مع شَارِع الصَّلِيبَة، وبَنَت إلى جِوَاره كتَّابًا لتَعْليم الأطفال. وجاءَ تَخْطيطُ هذا السَّبِيل على شَكْل مُثَمَّن، وهو تَخْطِيطٌ غير مُسْبوق في عِمَارَة الأسْبِلَة القاهرية، ووَاجِهَتُه مَكْسُوَّة بالرُّخَام وزَخارفها من طِراز البارُوك والروكوكو [2]. و «سَبيل وَالِدَة مصطفى فاضِل باشا»، شقيق الخِدِيو إسْماعيل، الذي أقامته سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م على مَوْضِع خانْقاه الأمير بَشْتاك النَّاصري ويَقَع الآن بشارع بورسعيد بجوار المَدْرَسَة الخِدِيويَّة وملحق به كُتَّابٌ لتَعْلِيم الأطفال، وجاءَت زَخَارِفُه الرُّخامية كذلك على طِرَاز البارُوك والروكوكو [3]. و «سَبِيل أمّ حسين بك» المعروف بـ «سَبيل أوْلاد عِنَان»، أنشأته زيبَه قادِن زَوْجَة محمد علي باشا سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، ويَقَعُ الآن بأوَّل شارع الجمهورية في مُوَاجَهَة محطَّة مصر [4].

---

[1] عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي ١٠٦؛ محمد حسام الدين إسماعيل: مدينة القاهرة ١٩٨.

[2] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٢: ٣١٥، ٦: ١٦٩؛ محمد حسام الدين: مدينة القاهرة ٣٥٣.

[3] نفســه ٦: ١٤١؛ نفســه ٣٥٣-٣٥٤.

[4] نفســه ٦: ٣٦٩؛ نفســه ٣٥٥.

٣ ـ إسْمَاعِيلُ وحُلْمُ التَّغْرِيب

كانت سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م سَنَةً مُهِمَّةً في تاريخ القَاهِرَة، فهي السَّنَة التي تولَّىٰ فيها إسْماعيل باشا بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا حُكْمَ مصر (١٢٧٩ـ١٢٩٨هـ/١٨٦٣ـ١٨٧٩م). وهو أوَّلُ حاكم منذ تِسْعَة قُرُون يتَبَنَّىٰ مَشْرُوعًا شَامِلًا لتَنْمِيَة المَدِينَة، وقامَ مَشْرُوعُه في الأسَاسِ على مُحاكاة الأنْمُوذَج الغَرْبي لتَنْمِيَّة المُدُن. ففي خِلالِ فَتْرَة حُكْمه وبناءً على مُبَادَرَةٍ مُباشِرَةٍ منه عَرَفَت القاهرةُ تَحَوُّلات بَعِيدَة؛ ففَور اعْتِلائه العَرْش ارْتَبَطَ بمَشْرُوعٍ وَاسِعٍ لتَحْدِيث مصر من أجْلِ أنْ يُثْبِتَ للعالم «أنَّ بِلادَه ليست من أفْرِيقيا وإنَّما هي من الآن فصَاعِدًا قِطْعَةٌ من أوروبا»، وقرَّرَ أنْ يَجْعَلَ القاهرة مَقَرَّ حكمه الدَّائِم بَدَلًا من القَلْعَة، وبأنْ يُحَوِّلَ المَدِينة لتكون «على غِرَار باريس» ليَجْعَل منها عاصِمَةً جَدِيرَةً بمصر.

ومَنَحَت الدَّفْعَةُ القَوِيَّةُ التي أعْطِيَت لاسْتكمالِ حَفْرِ قَنَاةِ السُّوَيس (التي ستُفْتَتَح سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م) إضَافَةً إلى القُوَّة الاقْتِصادية النَّاتِجة عن ارْتِفَاع أسْعَارِ القُطْن المفاجئ، مَنَحَت مصر مَكانَةً ومَوَارِد اسْتَفَادَ منها الحاكِمُ الطَّمُوح سياسيًّا عندما مَنَحَ نفسه اسْتِقلالًا مُتَزَايِدًا مع حُصُولِه من السُّلْطان عبد العَزِيز العُثْماني في ٣ صَفَر سنة ١٢٨٤هـ/ ٨ يونية سنة ١٨٦٧م، على فَرَمَانٍ بمَنْحِه لَقَب «خِدِيو»[١].

تَزَامَنَ ذلك مع تَلَقِّي إسْمَاعِيل باشا دَعْوَةً من الإمبراطور نابليون الثَّالِث Napoleon III لزيارَة مَعْرَض باريس الدَّوْلي، في نِهَايَة هذا الشَّهْر، الذي كان

---

١ A. Raymond, *op. cit.*, p.306.

فُرْصَةً يُوَجِّهُ من خِلالِها الدَّعْوَة للملوكِ وأمَرَاءِ أوروبا لحُضُور مُنَاسَبَةِ افْتِتَاحِ قَنَاةِ السُّوَيس في سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م. وقامَ بعد ذلك بِرِحْلَةٍ ثانيةٍ إلى أوروبا على ظَهْر الباخِرَة المحْرُوسَة بدأها من الإسكندرية في ١٧ مايو سنة ١٨٦٨م للغَرَضِ نفسه زَارَ خلالها البُنْدُقية وڤيينا وبرْلِين وباريس ولَنْدَن وتَجَاهَل فيها دَعْوَة السُّلْطان العُثْماني.

وكان لابدّ أنْ يَسْتَقْبِل هذا الحَشْد من الشَّخْصيات المُهِمَّة الذي سيَجْتَمِع في مصر لأوَّلِ مَرَّة اسْتِقبالًا حَافِلًا يَلِيقُ بالمَقَام. كان من أهَمّ ما واجَه إسْماعيل باشا في هذا الصَّدَد القُدْرَة على إيواء هؤلاء الضُّيُوف، فقد كان عَدَدُ القُصُور المُتَاحَة غير كبير ومن شَأنِه أنْ يُحَدِّدَ عَدَدَ المَدْعوِّين، كما أنَّ الاسْتِقْبالَ اللائِق يعني كذلك إتاحَة أنْشِطَةٍ ثَقافِيَّةٍ للضُّيُوف ووُجُود أماكِنَ لإحْيَاءِ مُناسَباتٍ اجْتِماعِيَّة لا تَقِلّ عن تلك التي اعْتَادُوا عليها.

كانت باريس Paris، العَاصِمَة الفِرِنْسِيَّة التي أقامَ فيها إسماعيلُ في شَبَابِه الباكِر والتي شَهِدَت خِلالَ العِشْرين عَامًا الأخِيرة تَحَوُّلًا كَبِيرًا، هي الأُنْمُوذَجَ الذي وَضَعَهُ إسْماعيلُ باشا نُصْبَ عَيْنَيْه لتحقيق طُمُوحاته؛ ولم تكن القَاهِرةُ بعد كلِّ التَّعْدِيلات التي شَهِدَتها في النِّصْفِ الأوَّل للقَرْنِ التَّاسِع عَشْر قد خَرَجَت كَثيرًا عن الحُدُودِ التي سَجَّلَها كتابُ «وَصْف مصر»، فخَرِيطَةُ القاهِرَة الملحقة بالكتاب تُظْهِرُ أنَّ حُدُودَ المَدِينة تَقِفُ في الغَرْبِ عند مُسْتَوَىٰ بِرْكَة الأزْبَكِيَّة ويَفْصِلُها عن بُولاق أرَاضٍ زِرَاعِيَّة. كانت القاهرةُ ما تَزَالُ تَحْتَفِظُ حتى سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م، بحُدُودها ومِسَاحَتِها والمَظْهَرِ العام الذي كانت عليه في القَرْن الثَّامِن عَشْر فلا يُوجَد بها شَارِعٌ عَرِيضٌ مُظَلَّل Boulevard أو مَقْهَىٰ كَبِير أو مَسْرَحٌ أو دارُ أوبرا أو سِيرْك أو مَيْدانُ سِباق للخَيْل Hippodrome، وكان من الصَّعْبِ تَهْيِئَة مثل هذه المُنْشآت، التي تَتَواجَد بشَكْلٍ طَبِيعي في العَوَاصِم الأوروبية الكَبيرة، دَاخِل نَسِيج عُمْراني غير مُنْتَظِم ومُتَقَطِّع كالذي كانت عليه القَاهِرَةُ القَدِيمَة. لذلك لم يكن

يكفي مُجَرَّد تَشْييد المَباني التي تَفْتَقِرُ إليها القَاهِرَةُ لتَحْويلها إلى مَدِينَةٍ مثل باريس أو لندن ، ولكن كان لابدّ من إيجادِ الإطار الذي يَسْتَوْعِب هذه المُنْشآت ، فكان من الحَتْمِيّ إيجادُ مِسَاحَةٍ مَدِينية جَدِيدَة تَصْلُحُ لإقامَة مَبَانٍ من نَوْعٍ لم تَعْرِفْه مصر من قَبْل [١]. هكذا ظَهَرَ إلى الوُجود مَدِينَةٌ جَدِيدَةٌ أُلْصِقَت بالجانِب الغربي للمَدِينَة القديمة في النِّصْف الثَّاني من القَرْنِ التَّاسِع عَشْر .

تَوَافَقَ وُجودُ الخِدِيو في باريس مع بُرُوز الأُنْمُوذَج الذي أضْفَتْهُ الأعْمالُ الأخِيرَةُ لعُمْدَة باريس Préfet de la Seine البارون جورج أُوجِن هوسْمان LE BARON GEORGES EUGENE HAUSSMANN (١٨٠٩-١٨٩١م) على تلك المَدِينَة ، فاسْتَدْعاهُ إسْماعِيلُ باشا لِلِقائه والإفادَة من خِبْرَته للقِيام بمَشْرُوعٍ مُمَاثِلٍ في القاهِرَة ، فرَشَّحَ له لتَحقيق هَدَفِه كُلًّا من JEAN-PIERRE BARILLET-DESCHAMPS (١٨٢٤-١٨٧٥م) الذي أنْشَأ غابَة بُولُونْيا Bois de Bologne غَرْبِيّ باريس والذي عَهَدَ إليه بتَصْمِيم حَدِيقَة الأزْبَكِيَّة بالقَاهِرَة ، وبيير جران بك PIERRE-LOUIS GRAND BEY (١٨٣٩-١٩١٨م) الذي عَهَدَ إليه فيما بعد بإدَارَة مَصْلَحَة الطُّرُق والكَبارِي سنة ١٨٧١م ووَضْع خَرِيطَةٍ جَدِيدَةٍ للقَاهِرَة سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م .

وبعد عَوْدَته إلى القَاهِرَة بدأ نَشَاطٌ مُكَثَّفٌ للاسْتِعْدَاد لهذه المناسَبَة ، وكان الحَلّ المناسِب هو إنْشَاء مَدِينَةٍ جديدةٍ أو حَيٍّ كَبير على الجَانِب الغربي للخَلِيج في المَنْطِقَة الوَاقِعَة بين الأزْبَكِيَّة والنِّيل عُرِفَ بـ « حَيّ الإسْمَاعِيلِيَّة » : في بِدَاية الأمْر فَشَلَت المحاولةُ الأولىٰ لتَنْمِيَة هذا الحَيّ بسَبَبِ نَقْصِ المُتَعَامِلين ، وبَدَلًا من بَيْع الأراضي المُخَصَّصَة لامْتِدَادات المَدينة قَرَّرَ الخِدِيو مَنْحَها لكلِّ مَنْ يَلْتَزِم بالبِنَاء عليها ، الأمر

---

[١] JEAN-LUC ARNAUD, *Le Caire mise en place d'une ville moderne 1867-1907*, Paris 1998, pp.47-48; ID., «Le Caire-Paris à la fin des années 1860» in D. PANZAC et A. RAYMOND (éd.), *La France & l'Égypte à l'époque des vice-rois 1805-1882*, pp.279-87.

الذي يَدُلُّ على مَحْدُودِيَّة السُّوق العقارِيَّة القَاهِرية في هذا الوَقْت [١].

كان الذي يتولَّى هذا الأمْر في البِدَايَة وَزَارَة (نَظَارَة) الأشْغَال العُمُومِيَّة التي أنْشَأها إسْماعِيل في سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م لتكون الأسَاس لتنْفِيذ سياسته الحَضَرِيَّة. وابتداءً من هذا التَّأريخ أُدْخِلَت مُبْتكرات حَضَرِيَّة مُذْهِلَةٌ إلى القَاهِرَة حيث حَصَلَت شَرِكَةُ لِيبُون LEBON على امْتِيازِ تَزْوِيد القَاهِرَة وضَاحِيتيها بُولاق ومصر القَدِيمَة بغَاز الاسْتِصْبَاح، فاسْتَفَادَ منها في أوَّلِ الأمر أحْيَاءٌ مثل باب الحَدِيد والأزْبَكِيَّة والإسْمَاعيلية وقُصُور الخِدِيو، وفي العام نفسه مُنِحَ امْتِيَازُ ضَخِّ المِيَاه وتَزْوِيد المَدِينَة بالمِيَاه العَذْبَة إلى JEAN-ANTOINE CORDIER وأقِيمَت مَحَطَّةٌ لضَخِّ المِيَاه بالقُرْبِ من القَصْرِ العَيْنِي عند فَم الخَلِيج [٢]، ومُدَّت مَوَاسِيرُ المياه داخِل المدينة، وحتى عام ١٨٩١م لم يكن هناك من المُشْتَرِكين إلَّا ٤٢٠٠ مُشْتَرِك أدْخَلُوا المياه إلى مَنَازلهم. واقْتَصَرَ الأمْرُ لمُدَّةٍ طويلة على جَلْبِ المياه إلى قَلْبِ المدينة عن طريق شَبَكَةٍ من الحَنَفِيَّات العامَّة حَلَّتْ تَدْرِيجيًّا مَحَلَّ الأسْبِلَة، وعَيَّنَت الشَّرِكَةُ صَاحِبَة الامْتِياز على هذه الحَنَفِيَّات مُوَظَّفِين مهمَّتهم الإشْرَاف على تَوْزيع المياه وتَحْصِيل الثَّمَن من المُسْتَهْلِكين.

وأمامَ الصُّعوبات التي وَاجَهَت تَنْمِيَة هذا الحَيّ الجَدِيد اضْطُرَّ الخِدِيو أنْ يَعْهَد، في سنة ١٢٨٥هـ/١٨٦٨م بتَنْفِيذ المَشْرُوع إلى شَرِكَة مياه القَاهرة CORDIER، وكان الإجْرَاءُ الذي اتَّبَعَه بَسِيطًا، ففي أوَّل الأمْر أعْفَى دِيوانَه الخاصّ من مُهِمَّة إقامَة المَرَافِق العامَّة، ثم عَهِدَ إليه بعد ذلك بتَشْييد المَبَاني مثل: دار الأوبرا والمَسْرَح بمنطقة الأزْبَكِيَّة ومَيْدان السِّباق (في المَوْقِع الذي يخْترقه الآن شارع جَوَاد حُسْني). وكان يتم تَوْزيع الالْتِزَامات على المُنْتَفِعين الذين يُعَيِّنهم الخِدِيو عن طريق

---

[١] JEAN-LUC ARNAUD, *op. cit.*, p.49. JOMIER, *EI*² art. *al-Kâhira*, IV, p.462.

[٢] علي مبارك: الخطط التوفيقية ١: ٢٠٨؛ J.

شركة مِيَاه القَاهِرة التي كانت تَتَولَّىٰ كذلك أعْمَال شَقّ الشَّوَارع في الحَيّ من خِلال مُقاولِين خاصِّين على نَفَقَة الخِدِيو . واعتبارًا من شهر مارس سنة ١٨٦٨م سَلَّمَ كورديه CORDIER، المسئول عن شَرِكة المياه ، إلى الخِدِيو أوَّلَ مُقَايَسَةٍ لتَهْيِئَة الأَزْبَكِيَّة ، وتَمَّ تكليفه بعد عِدَّة شُهُور بإعْدادِ تَخْطِيطٍ أكثر تَوَسُّعًا عن سَابِقه لحَيّ الإسْماعِيلِيَّة . وبعد أنْ تَمَّ حَصْرٌ للأراضي دَرَسَ مسؤول شَرِكة المياه مَشْرُوعًا لا يرمي فقط إلى اخْتِطاطِ الطُّرُق وتَقْسِيم القِطَع وإنَّما كذلك وَضْع المباني العامَّة الرَّئيسَة وتَفْصِيل إقامتها مع تَخْطِيط التَّنْظِيم ، بحيث ينتهي مَنْظُورُ الشَّوَارع ببنايَات عامَّة تكون مُتَوَافِقَةً مع الإطَار الذي يَشْغَلُه كلٌّ منها وتَخْضَع للتأثير الذي يتَعَيَّنُ أنْ يُحْدِثه مَوْقِعُها من المَنْظور المَطْلُوب منها أنْ تَضَعَ نهايَةً له [١].

وعند وُصُولِ المَدْعِوين لحُضُور حَفْلِ افتِتاحِ القَنَاة في بداية شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩م ، كان من المُفْتَرَض أنْ تكون المباني المرتَقَبَة في مرحلة الانْتِهاء، ولكن ضِيق الوَقْت المُتاح لم يَسْمَح إلَّا بتخطِيط طُرُقِ هذا الحَيّ ، بعكس المُنْشآت التي جَرَت فيها الاحْتفالاتُ فقد تم الانْتِهاءُ من تَشْييدها في وَقْتٍ قِياسِيّ (دار الأوبرا المصرية ـ سَرَاي الجَزِيرَة ـ سَرَاي الجِيزَة ...) .

كان أحَدُ المُسَاعِدِين الرَّئيسيين للخِدِيو إسْماعِيل في تَنْفيذ مَشْرُوعه الطَّمُوح وَاحِدًا من أعْظَم رِجالات تارِيخ مصر الحَدِيث هو علي باشا مُبارَك (١٢٣٩ـ١٣١١هـ/ ١٨٢٤ـ١٨٩٣م) ، الذي صَحِبَ الخِدِيو في بِعْثَة الأنْجال إلى فَرَنسا ، وأسْنَدَ إليه بعد تَوَلِّيه الحكم وزارتي الأشْغال العُمُومِيَّة والمَعَارِف . وقام علي مُبَارَك بإعْدَادِ مَشْرُوعِ لائِحَةٍ مُكَوَّنَةٍ من ٣٤ مادَّة تَضَعُ إطارًا لمَشْرُوعات إسْمَاعِيل العُمْرَانية . ورَغْم عَدَم صُدُورِ هذه اللائِحَة المُؤَرَّخَة مُسَوَّدتُها في ٨ يولية سنة ١٨٦٨م (١٢٨٥هـ) ، إلَّا أنَّ دراستها تَدُلُّ على التَّصَوُّر البَعِيد لعلي مُبَارَك

---

١ JEAN-LUC ARNAUD, *op. cit.*, pp.50-51, 141-42.

لإعَادَة تَنْظيم المَدِينَة ووَضْع تَقسيم إداريٍّ جَدِيدٍ لها . كان مَشْرُوعُ هذه اللائِحَة بمَثَابَة التَّمْهِيد الذي اعتمدَ عليه بيير جران بك PIERRE GRAND BEY عندما كَلَّفَه إسْماعيل بوَضْعِ خَرِيطَةٍ جَدِيدَةٍ للقَاهِرَة سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م، اسْتَوْحَىٰ خُطُوطَها كذلك من أفكارِ وحُلُول HAUSSMANN [١].

كان تولِّي بيير جران بك PIERRE-GRAND BEY رئاسَة مَصْلَحة الطُّرُق في عام ١٢٨٨هـ/١٨٧١م مَرْحَلَةً مهمَّةً في العِلاقَة بين التَّوَسُّعات الجَدِيدَة في البَرِّ الغَرْبيّ للخَلِيج والنَّسِيج المَوْرُوث للمَدِينَة القَدِيمَة ، فاقْتَرَحَ في أوَّلِ الأمْر حُلُولًا للرَّبْط بينهما ، إلَّا أنَّ تَوَجُّهات الخِدِيو وتَخَلِّيه عن شَقِّ الطُّرُق التي كانت ستُوَحِّد المدينتين وتَرْكيز كل جُهُوده في تَنمِية الحيّ الجَدِيد وكذلك القيام بمَشْرُوعات مهمَّة على الضِّفَّة اليُسْرىٰ للنِّيل في الجِيزَة ، أوْقَفَت هذه الحُـلُول التي لم تُنَفَذ ، وإنْ ظَهَرَت آثارُها على خَرِيطَة جران بك [٢].

وبَدَلًا من إدْماجِ مُخْتَلَفِ مُكوّنات المَدِينَة في بِنْيَةٍ واحِدَةٍ ، اتَّجَه إسْماعيلُ إلى التَّوَسُّع المُفْرِط في إنْشَاء الأحْيَاء الحَدِيثَة وبِنَاء القُصُور تارِكًا المَدِينَة القَديمة لمَصِيرِها بَدَلًا من إصْلاحِها وإدْخالِ تَحْسِينَات عليها ، واقْتَصَرَ الأمْرُ على لَصْقِ وَاجِهَةٍ أوروبية على الحُدُودِ الغَرْبِيَّة للمَدينة القَدِيمَة لتَوْليد انْطباعٍ إيجابي لدى ضُيُوف القاهِرَة الكبار المدعوين لحُضُور حَفلات افْتِتَاح القَنَاة . هكذا تَحَدَّدَ طابَع مَشْرُوع إسْمَاعيل وحُدودَه . كان فَتْحُ شَارِع محمد علي سنة ١٢٩١هـ/١٨٧٤م الشَّيءَ الوَحِيد الذي كَسَرَ عُزْلَة الأحْيَاء القَدِيمة وأوْجَدَ تَوَاصُلًا بين النَّسِيجين المُخْتلفين [٣].

---

[١] GH. ALLEAUME, «Politiques urbaines et controle de l'entreprise: Une loi inédite de ʿAlî Mubârak sur les corporations des bâtiments», *An. Isl* XXI (1985), pp.147-88.

[٢] JEAN-LUC ARNAUD, *op. cit.*, p.145.

[٣] *Ibid.*, p.146.

شَهِدَت القَاهِرَةُ في عَهْد إسْمَاعيل دون شك تَطَوُّرًا مُهِمًّا ونَقْلَةً نَوْعِيَّةً لم تَعْرِفها من قَبْل وتضاعَفَت مِساحَتُها وضَمَّت أحْياءَ عمرانية ذَات مُوَاصَفَات جَدِيدَة يَدُلُّ عليها أحْيَاءُ الأزْبَكِيَّة والإسْماعيلية والنَّاصِريَّة غَرْبيّ الخَلِيج . كان تَخْطِيطُ هذا الحَيّ الجَدِيد مُسْتَوْحًى من أفْكار وحُلُول HAUSSMANN، فهو يَشْتَمِل على شَبَكة من الشَّوَارِع المُسْتَقِيمَة والمُتَعَامِدَة الوَاسِعَة تَرْبِطُ بين اثْني عشر مَيْدَانًا ، إلَّا أنَّ ضِيقَ الوَقْت وقِلَّة المَوَارِد جَعَلَتْهم يَكْتَفُون فقط بمَدْيَنَة المَنْطِقَة الوَاقِعَة في شَمال غربي المَدِينَة القَدِيمة المَحْصُورَة بين بولاق وباب اللُّوق من ناحية وبين طريق مصر القديمة (شارع القَصْر العَيْني الآن) وضَفَّة النِّيل ، أي على مِسَاحَة تَبْلُغ نحو ٦١٧ فَدَّانًا . وكان ممَّا سَهَّلَ العَمَل في هذه المَنْطقة ما قامَ به إبراهيم باشا من قَبْل من تَمْهِيدٍ لهذه الأراضي سَاعَدَ على تفادِي عمليَّات نَزْعِ الملكية وتَسْوِيَة وتَمْهِيد الأرْض التي قد تَسْتَغْرِق وَقْتًا طويلًا .

وفَوْرَ الفَرَاغ من تَخْطِيط المكان مَنَحَ الخِدِيو الأرْضَ لمن سيتَولَّى تَعْمِيرها على أنْ لا تَقِلّ تَكْلِفَةُ العِمَارَة عن ألْفيّ جنيه . وبَلَغَت المِسَاحَةُ المَبْنِيَّة في عام ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م ، ٢٥٧ فَدَّانًا احْتَلَّت شَبَكةُ الطُّرُق فيها ٣٠٪ من المِسَاحَة وشَغَلَت المَبَاني ١٣٪ بينما احْتَلَّت بَقِيَّةَ المِسَاحَة حَدَائِقُ ومُتَنَزَّهاتٌ شاسِعَة تُمَثِّلُ احْتياطِ للتَّوَسُّع العُمْرَاني مُسْتَقْبلًا . ومع نِهَايَة عَهْدِ إسْماعيل لم يكن يُوجَدُ بالمكان سوى بِضْع مئات من العِمَارات فقط كان أغْلَبُها في شكل ڤيللات Villas مُنْفَرِدَة عن بعضها [١] .

وفي الوَقْت الذي بدأت تَظْهر فيه في الأزْبكية مبانيها الأولىٰ تَطَلَّعَ إسْماعيل إلى مَدْيَنَة مِئات الأفْدِنَة من الأراضي المُحِيطة بالمَدِينَة القَدِيمة ، فمَنَحَ أرْضًا للإخْوَة الفرير Les Frères لإقامة مَدْرَسَة الراعي الصَّالح Bon Pasteur في شُبْرا وأخرىٰ

---

[١] A. RAYMOND, *op. cit.*, pp.311-12.

لإقامَة مَدْرَسَة القِدِّيس يُوسُف St. Joseph في الخُرُنْفُش، وأهْدَىٰ أرْضًا أخرى لإقامَة المُسْتَشْفى الأوروبي في العبَّاسِيَّة، في الوَقْت نفسه أمر بإعْدَاد تَخْطيطِ لحُلْوان جَنُوبيّ القَاهِرة حيث وَزَّعَ كذلك أراضِ للبِنَاء، وأمر أخِيرًا، في عام ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م، بتَمْهيد أراضي حَيّ الفَجَّالَة بغَرَضِ تَقْسيمه[١].

ومع ما شَهِدَته أحْياءُ القَاهِرَة الجَدِيدَة من تَغْيير جِذْري في أنْماط البِنَاء بَدَأت في التَّعَرُّف على الفَنَادِق والبَنْسيونات مع افتتاح فروعٍ للبُنُوك الكَبيرة. فكانت أغْلَبُ الفَنَادِق، اعتبارًا من عقد السَّبْعينيات، تَقَعُ غَربي الخَليج بين حَديقَة الأزْبكية ومَحَطَّة السِّكك الحَدِيدِيَّة وكذلك في حَيّ المُوسكي ولكن بقَدْرٍ أقَلّ. ومع نِهَاية القَرْن التَّاسِع عَشْر كان تَمَرْكزها ما يَزَال شَدِيدًا في شمال الأزْبَكِيَّة (شارعي كلوت بك وقَنْطَرَة الدِّكَّة) ولكنها اخْتَفَت من الموسْكي ليَظْهر العَديدُ منها في حيّ الإسْمَاعيلية حيث بَدَأت تتركَّزُ فيه الأنْشِطَةُ المالية والخَدَمِيَّة والسِّياحِيَّة ومباني القُنْصُلِيَّات الأجْنَبِيَّة.

وفي غُضُونِ بضع سَنَوَات امْتَدّ نُمُوّ المَدِينَة إلى الجَانِب الغربيّ للنِّيل حيث نَمَت في آنٍ وَاحِد أحْيَاءُ الزَّمالِك والرَّوْضَة والجِيزَة. وساعدت شَرِكَةُ تَرَام القَاهِرَة في تَشْجِيع هذا النمو وافْتَتَحَت في سنة ١٣١٧هـ/١٨٩٩م خَطًّا جَديدًا في طَريق الأهْرامات.

وشَهِدَت سُوقُ البِنَاء في القَاهِرَة نُمُوًّا غير مَسْبُوق مع بِدَايَة تِسْعِينيات القَرْنِ التَّاسِع عَشْر لم تَلْبَث أنْ تضاعَفَت في العُقُود الأولىٰ للقَرْن العِشْرين وأدْخَلَت طُرُزَ بِنَاءٍ جَديدة مع الاستعانة بالمهندسين والمعماريين الإيطاليين والفِرِنْسيين.

---

[١] J.-Luc Arnaud, *op. cit.*, p.151.

مَشْرُوعَاتُ إسْمَاعِيل

حَيُّ الإِسْمَاعِيلِيَّة (وَسَطُ المَدِينَة الآن)

يَقُولُ علي مُبَارَك :

« ظَهَرَت هذه الخِطَّة في زَمَنِ الخِدِيو إسْماعيل ونُسِبَت إليه ، لأنَّه هو الآمِرُ بإنْشَائِها . وتَمْتَدُّ بين جِسْر السَّبْتِيَّة ـ أعني الطَّريق المُوَصِّل من مصر إلى بولاق [شارع ٢٦ يولية الآن] ـ وهو حَدُّها البَحْري ، وحَدُّها الغَرْبي تِرْعَة الإسْماعيلية الآخِذَة من قَصْرِ النِّيل وسَاحِل النِّيل إلى القَصْر العيني ، وحَدُّها القِبْليّ شارع القَصْرِ العالي والخَلِيج المصري ، وحَدُّها الشَّرْقيّ سُور البَلَد القَدِيم وكان عِبَارَة عن خَطٍّ مُنْكَسِر به بُرُوزٌ ودُخُولٌ على غير انْتِظام .

ومن يُمْعِن النَّظَر فيما كتبناه في خِطَطِنا على الأحْكار والميادين وأرْضِ اللُّوق يجد أنَّ أغْلَبَ مِسَاحَة هذه الخِطَّة هي أرْض اللُّوق وأكثر الأحْكار التي ذكرها المَقْريزي ومَيْدَانيّ الصَّالِح نَجْم الدِّين والنَّاصِر محمد بن قلاوون وبعض بَسَاتين منها البُسْتان المعروف قديمًا بِبُسْتان الفاضِل .

[وصارَت أغْلَبُ هذه المَوَاضِع في العَصْرِ العُثْماني] عِبَارَةً عن كُثْبان أتْرِبَة وبِرَك مِيَاه وأراضي سِبَاخ إلى أن قَيَّضَ الله للحكومة المصرية الخِدِيو إسْماعيل فأبْدَلَ وَحْشَتَها أُنْسًا ونَظَّمها على هذا الرَّوْنَق الجَمِيل وجَعَلَ في تَخْطِيطِها جَمِيع شَوَارعها وحاراتها على خُطُوطٍ مُسْتَقِيمَة أغْلَبُها مُتَقَاطِع على زوايا قائمة وجُعِلَت منازلها مُنْفَرِدَة عن بَعْضِها ، ودُكَّت أرْضُ شَوَارعها وحاراتها بالدَّقْشُوم وجُعِلَ في جانبي كلِّ شَارِع وحَارَة اسْتِطْرَاق للمُشَاة ، وجَعَلَ الوَسَط للعَرَبَات والحَيَوانات ، ومُدَّت في جَمِيعها مَوَاسِيرُ الماء لرَشِّ أرْضِها وسَقْي بساتينها ،

ونُصِبَت بها مَنارَاتُ الغَاز لإضاءتها وتَنْويرها. فأصْبَحَت من أبْهَج أخْطاط القاهِرَة وأعْمَرِها وسَكَنَها الأمَرَاء والأعْيان من المُسْلِمين وغيرهم»[1].

ويَشْمَلُ هذا التَّقْسيم الأحْيَاء المعروفة بالتَّوفِيقِيَّة وباب اللُّوق والدَّوَاوِين والحَوَاياتي والقَاصِد والإنْشَا والمُنِيرَة. وأهَمُّ الشَّوَارِع التي اخْتُطَّت في حَيّ الإسْماعيلية الكبير عند إنْشَائِه: شَارِعُ بُولاق (شَارِع فؤاد الأوَّل/ ٢٦ يولية الآن) وشَارِعُ المَغْرَبي (شَارِعُ عَدْلي الآن) وشَارِعُ المَنَاخ (شَارِعُ عبد الخالِق ثَرْوت الآن) وشَارِعُ قَصْر النِّيل (لم يَتَغَيَّر اسْمُه) وشَارِع عِمَاد الدِّين (احْتَفَظ باسْمه وعُرِفَ امْتِدَادُه جَنُوبًا بشَارِع محمد فريد) وشَارِعُ المَدَابغ (شَارِعَ شَرِيف باشا الآن) وشَارِعُ مصر العَتِيقة (شَارِعُ طَلْعَت حَرْب وامْتِدَاده إلى مَيْدَان التَّحْرير إلى شَارِع القَصْر العَيْني إلى مصر القَدِيمَة الآن).

*
* *

كان الطِّرَازُ الذي تَمَّت عليه المباني المُنْشأة في هذه الأحْيَاء الجَدِيدَة هو طِرَازَ المباني الأوروبية، أو حَسَب تَعْبير علي مبارَك «المباني الرُّومِيَّة الفَخِيمَة» وهَجَرَ النَّاسُ نهائيًّا الأسْلُوبَ القديم. وانْتَشَرَت هذه المباني على الأخَصّ في أحْيَاء الإسْماعيلية والفَجَّالَة وشُبْرَا.

وأشارَ علي مبارك إلى الفَرْقِ بين خَصَائِص التَّصْمِيم العربي الإسلامي السَّائِد وخَصَائِص التَّصْمِيم الأوروبي الوَافِد بأنَّ شَكْلَ المَحَلَّات (الغُرَف) في الأسْلوب الجَدِيد إمَّا مُرَبَّعٌ أو مُسْتَطِيلٌ بخلاف القديم فإنَّ القاعَة الواحدة كانت تَشْغَل أكثر

---

[1] علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٣: ٤٠٤-٤٠٥؛ وانظر كذلك G. Dovin, *Histoire du règne du khédive Ismail, en premières années du règne 1863-1867*, Rome 1933.

أرْض الدَّار ولوازمها يَعْسُر معها الانْتِظَام ، وأكثر محلَّاتها قليلة النُّور والهَوَاء وقَلَّ أنْ تَخْلُو من الرُّطوبة . أمَّا الأسْلُوب الجَدِيد فقد اسْتُعيض فيه عن المَشْرَبيَّات المصنوعة من خَشَبِ الخَرْط بشَبابِيك مستطيلة عليها ألْواحُ الزُّجَاج ، واسْتُخْدِمَ في الطَّوَابق الأرضية شبابيكٌ من الحديد مختلفة الأشْكال ، واسْتُعِيضَت خُرْدَة الرُّخام التي كانت تُجْعَل في الدُّرْقَاعات والحمَّامات بترابيع الرُّخَام الأبيض والأسْوَد ، واسْتُغْني عن السُّقُوف البَلَدِيَّة ذوات الكرادي والمُقَرْنَصات التي كانت تُجْعَلُ تحت الإزار ويَسْتَغْرِقُ عملها وَقْتًا طويلًا ، بالسُّقوف المُسْتَوِيَة التي يتوسَّطُها صُرَّة مُفَرَّغَة ثم تُطْلَى مع الحَوَائِط بالزَّيْت . وتَغَيَّرَت كذلك وَاجِهاتُ البيوت التي كانت تُعْمَل كيفما اتَّفَق على غير قانونٍ هَنْدَسِيّ بحيث تكون لا فَرْق بينها وبين وَاجِهات جِيشان الأمْوَات ، حَسَب تعبير علي مبارك ، فجُعِلَت على قانونٍ هندسي مُنَظَّم ، كما اسْتَوَيَت محلاتُ (غُرَف) المَنَازِل وكانت من قبل على مستويات مختلفة ، وأعِيد تَوْزِيعُ السَّلالم وجُعِلَت دَرَجَاتُها بهَيْئة لا تُتْعِب الصَّاعِد ويَصِل إليها الضَّوءُ الكافي [1].

ولتَحْقِيق ذلك تَمَّ إنْشَاءُ إدَارَةٍ لعُمُوم المُدُن والمباني مُلْحَقَة بوَزَارَة الأشْغَال العُمُوميَّة في ١٨٨٣/٩/٨م ، ووُضِعَت قواعدُ للشُّرُوط التي يجب أخْذُها على كلِّ من أرَادَ من أرْبابِ الأمْلاك بناءَ مَسَاكِن دَاخِل المُدُن ، تَنُصُّ على : ضَرُورَة أخْذ رُخْصَةٍ للبِنَاء وأنْ يكون طَلَبُ الرُّخْصَة مَصْحوبًا برَسْم الأرْض المُخَصَّصَة للبناء المُصَمَّم عليها بمقياس ١/٢٠٠ تُبَيَّن فيه حُدُودُ الأمْلاك المجاورة للأرْض وأنْواعها وأسْمَاء أرْبابها (دار الوثائق القومية ـ المحفظة ٢/٦/أ أشغال عمومية) وهو تَطَوُّر مُهِمّ نحو تَقْنِين وتَوحِيد أساليب البِنَاء داخِل مُدُنِ الإقليم المصري .

---

[1] علي مبارك : الخطط التوفيقية ١:٢١٤ـ ٢١٦.

حَدِيقَةُ الأَزْبَكِيَّة

أشَرْتُ فيما سَبَق إلى أنَّ الطَّبَقَة الوُسْطَىٰ العُلْيَا القَاهرية بدأت منذ أواخِر العَصْر المملوكي في إقامَة قصورها ودُورها الكَبِيرة خارج نِطاقِ القاهِرَة الفاطِمِيَّة وعلى الأَخَصّ على ضِفافِ البِرَك الكَبِيرة : بِرْكة الفِيل خارج باب زَوِيلَة وبِرْكة الأَزْبَكِيَّة على البَرّ الغربي للخَلِيج .

ويَرْجِعُ ظُهُورُ حيّ الأزْبَكِيَّة إلى عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م ويُنْسَبُ هذا الحَيّ إلى الأمير أزْبَك من طُطُخ أوَّل من عَمَّرَ في هذا المكان [١] . وكان مَيْدَانُ الأزْبَكِيَّة المُحِيط بالبِرْكة في نهاية القرن الثَّامِن عَشَر أكبر مَيادين القاهِرَة ، ووَصَفَهُ جومار JOMARD ـ أحَدُ عُلَمَاء الحَمْلَة ـ « بأنَّ مِساحَته ثلاثَة أضْعاف مِساحَة مَيْدان لويس الخامِس عَشَر في باريس (ميدان الكونكورد الآن) وكانت البِرْكة تمتلئ بالمياه في زَمَنِ الفَيَضَان فتَصْبح حَوْضًا واسِعًا تُغَطِّيه المَرَاكِبُ التي تُضَاءُ في أثْنَاء اللَّيْل وتُضْفي على المكان مَنْظَرًا مُثِيرًا للإعْجَاب » [٢] . ويَحفُّ بهذا المَيْدَان قُصُورُ البَكَوات ومَنازِلُ الطَّبَقَة الوُسْطَىٰ العُلْيا من كبار المشائخ والتُّجَّار مثل الشَّيْخ عبد الله الشَّبْرَاوي والشَّيْخ عبد الله الشَّرْقاوي وآل البَكْري الصِّدِّيقي ، وكانت أسْرَةُ التَّاجِر المعروف بالدَّادَة الشَّرَايبي تمتلكُ مَقَرًّا وَصَفَهُ الجَبَرتي بأنَّه « يَشْتَمِل على اثْني عَشْر مَسْكنًا وكل مَسْكَن بَيْت مُتَّسع على حِدَتِه » . وابْتِدَاءً من مُنْتصف القَرْن الثَّامِن عَشْر بدأ نموّ حَرَكَة التَّعْمِير والبِنَاء حول بِرْكَة الأزْبَكِيَّة وعلى الأخَصّ عندما أنْشَأ الأميرُ رِضْوَان كَتْخُدَا الجَلْفي دَارَه هناك وهي في الأصْل بَيْت الدَّادَة الشَّرَايبي وجَعَلَها تُحْفَةً مِعْمارية رائعة سنة ١١٦٠هـ/١٧٤٧م [٣] .

---

[١] انظر فيما تقدم ٢٥٠ـ ٢٥١.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ٧٨ـ ٧٩.

[٣] أوليا جلبي : سياحتنامه مصر ٣٧٣؛ الجبرتي : عجائب الآثار ١: ٣٢٥.

وفي سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م كانت تُوجَدُ على ضِفَافِ بِرْكَة الأَزْبَكِيَّة عِشْرُون دَارًا من بين المائة والثَّلاثين دَارًا التي ذكرها كتابُ « وَصْف مصر » ، كان يُقِيمُ فيها وفي المناطق المحيطة بها نحو نِصْف عَدَدِ أُمَرَاء القاهِرَة . ويمكننا أنْ نُكَوِّن فكرةً دَقِيقةً عن فَخَامَة واتِّساع هذه الدُّور ـ التي أزِيلَت في أعْقاب تَحْدِيث مَنْطِقتيّ بِرْكة الفِيل وبِرْكة الأَزْبَكِيَّة ـ من الرُّسُومات الدَّقِيقة GRAVURES التي سَجَلَّها كتابُ « وَصْف مصر » لحُوش وحَدِيقَة قَصْر قاسِم بك والمَقْعَد ذي العُقُود الخَمْس لقَصْرِ عثمان بك [١].

كان آخِر ما بُنِيَ حَوْل البِرْكة من القُصُور الفَخْمَة القَصْرُ الذي فَرَغَ من بِنَائِه بخُطِّ السَّاكِت على ضَفَّة البِرْكة الغربية عَشِيَّة قُدُوم الحَمْلَة الفرنسية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م محمد بك الأَلْفي ، فاتَّخَذْته الحَمْلَةُ مَقَرًّا لقِيادتها مثلما حَدَثَ مع بَيْت حَسَن كاشِف جَرْكس بالنَّاصِرِيَّة الذي حُوِّلَ إلى مَقَرّ للمعهد المصري Institut d'Égypte [٢]. كما أقامَ محمد علي باشا بَعْضَ الوَقْت في قَصْرِ الأَلْفي قَبْل انْتِقَالِه للإقامة في القَلْعَة ، ثم هَدَمَه وأعادَ بناءَه وأهْدَاه لكريمته زيْنَب هانم وأُطْلِقَ عليه « سَرَاي الأَزْبَكِيَّة » [٣].

وفي عام ١٢٨١هـ/١٨٦٤م تَمَّ رَدْمُ البِرْكة نِهائِيًّا[٤] وتَحْوِيلها في مَشْرُوع تَطْوير القاهِرَة الذي تَبَنَّاهُ إسماعيل باشا إلى حَدِيقَةٍ كبيرة تَقَعُ عند نُقْطَة الاتِّصال بين النَّسِيج العُمْرَاني للمَدِينَة القديمة وشَبَكَة الشَّوَارع المُسْتَحْدَثَة في حيّ الإسماعيلية ، وعُهِدَ بتَنظِيمها إلى المهندس الفرنسي BARILLET DESCHAMPS ـ الذي أنْشأَ غابَة

---

[١] A. RAYMOND, *Le Caire* p.275-76. الخطط التوفيقية ٣: ٣٦٢-٣٦٣.

[٢] جومار : وصف مدينة القاهرة ٧٣.

[٣] الجبرتي : عجائب الآثار ٣: ١٥؛ عبد الحميد نافع : ذيل خطط المقريزي ١٢٠؛ علي مبارك :

[٤] انظر كذلك عبد الحميد نافع : ذيل خطط المقريزي ١٣١-١٣٢.

بولُونْيا Bois de Bologne غَرْبي باريس - على نَمَطِ حَدِيقَة مُونْصُو MONCEAU وحَدَائِق ريڤولي ، وكانت عند إحْدَاثها نَمَطًا جَدِيدًا لم تَعْرِفه مصر من قَبْل . كانت الحَدِيقَةُ مُزَوَّدَةً بِبُحَيْرات وجَبَلاية صِنَاعِيَّة وقَناطِر على جَدَاوِل صَغِيرَة وتَمَّ افْتِتاحُها سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م بحضُور الخِدِيو ، ووُفِّرَت بها أماكِنُ للتَّسْلِيَّة واللَّهْو مثل : الحَوَانِيت ومَعْمَل للتَّصْوِير ومِنَصَّة لبَيْع التَّبْغ وأُخْرىٰ للرِّمَايَة ومَطاعم ومَقَاهٍ أوروبية وشَرْقِيَّة ويونانية ومَقْصُورَة صِينِيَّة ومَرَاكِب للنُّزْهَة تَسِيرُ بالبَدَّال ، وتوجَدُ بها يوميًّا فِرْقَةٌ موسيقيةٌ مُكَوَّنَةٌ من الأتْرَاك والأوروبيين تَعْزِفُ مُوسيقىٰ عسكرية ومُوسيقىٰ مَحَلِّيَّة . وكانت الموسيقىٰ الأوروبية التي تُعْزَف في المقاهي الأوروبية الطِّرَاز لا تَجْذِب إطلاقًا الجمهور المصري الذي فَضَّلَ التَّرَدُّد على المقاهي الشَّرْقِيَّة التي يُعْزَف بها طوال اللَّيل الموسيقىٰ العَرَبية »[1].

ومن المحتمل أنْ يكون إعْدَادُ هذه الحَدِيقَة كي تَصْبَح وَسَط المَدِينَة الجَدِيد ، الأمْر الذي يَدُلُّ عليه مَوْقِعُ دار الأوبْرا التي شُيِّدَت بسُرْعَةٍ هائِلة لتكون مُعَدَّةً لاحْتِفالات افْتِتاح قَنَاة السُّوَيْس ، والتِّمْثالُ الذي أمَرَ بعَمَله الخِدِيو إسْمَاعيل لوالده إبراهيم باشا وهو على صَهْوَة جَوَادِه ، وهو أوَّلُ تِمْثال يقامُ في القاهِرَة (سَبَقَ أنْ أقامَ الخِدِيو إسْماعيل تمثالًا مُماثِلًا لجِدِّه محمد علي باشا بمَيْدَان المَنْشِيَّة بالإسْكَنْدَرِيَّة) .

احتِفالاتُ افْتِتاح قَنَاةِ السُّوَيْس

كان عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م الذي شَهِدَ احْتِفالات افْتِتاح قَنَاة السُّوَيس هو ذُرْوَة عَهْدِ إسْمَاعيل باشا وسَارَ فيه العَمَلُ بإيقاعٍ سَرِيع حيث بُنِيَت « دَارُ الأوبْرا » وفُرِغَ من تَشْييدها في ظَرْفِ خمسة أشْهُر فقط وتَكَلَّفَ بناؤها ١٦٠ ألْف جنيه ،

[1] D. BEHRENS-ABOUSEIF, *Azbakiyya*, pp.92-95.

[2] انظر : « مذكرة الأشغال بشأن تياترو الأوبرا » محفوظة بدار الوثائق القومية نظارة =

وَوَضَعَ تَصْمِيمَها المعماري الإيطالي PIETTO AVOSCANI[٢] على مِثال أوبرا ميلانو La Scala، وكان أسَاسُها من الأحْجَار أمَّا بَقِيَّةُ المبنىٰ فكان من الخَشَب المَجْلُوب من لبنان والمُغَطَّى بالجَصّ. ومُثِّلَت فيها مساء أوَّل نوفمبر سنة ١٨٦٩م أوبرا ريجوليتو Regoletto بحُضُور ضيوف الخِدِيو وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجيني EUGENIE زَوْجَة نابليون الثَّالِث. ومُثِّلَت فيها بعد نحو عامين أوَّلُ أوبرا مصرية « عَايْدَة » من تأليف الموسيقار الإيطالي فيردي FERDI عن نَصٍّ لعالم الآثار الفرنسي ماريت باشا MERIETTE وكان أوَّلُ عَرْضٍ لها في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٧١م[١]. وقد احْتَرَقَت هذه الدَّار للأسَف بعد ذلك بمائة عام في أكتوبر سنة ١٩٧١م.

وكان قد افْتُتِح قَبْل ذلك بأكثر من عام، في الرَّابع من يناير سنة ١٨٦٨م، مَسْرَحُ الكوميديا La Comédie بحديقة الأزْبَكِيَّة الذي تَمَّ بناؤه في شهرٍ واثْنيّ عَشر يَوْمًا، وكذلك مَيْدَان السِّباق في المَنْطِقَة التي يَخْترقُها الآن شارعُ جَوَاد حُسْني، والسِّيرْك وإنْ كان قد تَمّ تَفْكيكه بعد ذلك سنة ١٨٧٢م، وحَلَّت مَحَلَّه بعد ذلك عِمَارَةُ ماتَتْيا في نِهَايَة القَرْن التَّاسِع عَشْر.

واسْتَلْزَمَت هذه الاحْتِفالات تَمْهِيدَ شَارِع الأهْرَام، في أقَلّ من سِتَّة أسابيع، ليصل منه الخِدِيو بصُحْبَة ضُيُوفه إلى أهْرَام الجيزَة، وزُرِعَت على جانبَيْه الأشْجَار.

سَرَاي الجَزِيرَة وكوبري قَصْر النِّيل

وشُيِّدَ في الجَزِيرَة الوُسْطىٰ « سَرَاي الجَزِيرَة » التي أعِدَّت لإقامَة الإمبراطورة أوجيني EUGÉNIE، وقام بتَصْميمها سنة ١٨٦٣م يوليوس فرانس JULIUS FRANZ،

= الأشغال محفظة رقم ١/ ٢.

١ A. RAYMOND, *op. cit.*, p.312، وراجع كذلك J.-M. HUMBERT, «Les Expositions universelles de 1867 et 1878 et la création d'Aïda: L'image de l'Égypte transmise par Auguste Mariette» in D. PANZAC et A. RAYMOND, in *La France & l'Égypte à l'époque des vice-rois 1805-1882*, pp.289-309.

مُهَنْدِس البلاط الخِدِيوي ، على غِرَار قَصْر الحَمْرَاء بغَرْنَاطَة ، وكانت تحتوي في الأَصْل على سَراي للحَرِيم وأخرىٰ برَسْم سَلامْلِك كبير ، ثم سَلامْلِك صَغِير في غربيّ السَّلامْلِك الكبير ، وجُعِلَ في خارج السَّلامْلِك الكبير بَلَكونات وبواكي من الحَدِيد جُلِبَت من أوروبا (وهو تَقْلِيدٌ جَدِيدٌ لم يُعْرَف من قَبْل في مصر) . كانت السَّرَاي وما يحيطُ بها من بساتين وأشْجار وبِرَك وقَناطِر وجَبَلايات تمتدُّ على مِسَاحَة ستين فَدَّانًا ، ووُزِّعَت في أرْجَائها فوانِيسُ الغاز لإضَاءَة أرْجائها ليْلًا . وفي سنة ١٨٧٩م اشْتَرَت شركة بِهْلَر Baehler العالمية للفَنَادِق السَّلامْلِك الكبير للسَّرَاي وحَوَّلَتْه إلى « فُنْدُق الجَزِيرَة » ، ثم آل الفُنْدُق إلى أسْرَة آل لُطْف الله اللُّبْنانية إلى أنْ اسْتَرَدَّته الحكومة المصرية وحَوَّلته إلى « فُنْدُق عُمَر الخَيَّام » سنة ١٩٦١م ، ثم أضِيفَ إليه بُرْجان كبيران في ثمانينيات القرن العِشْرين وأصْبَح أحد فَنَادِق سلسلة مارْيُوت Marriote العالمية .

وقام Barillet-Deschamps بوَضْع التَّصْمِيمات لعَمَل مُنْتَزَة كَبِير في الجَزِيرَة في المَوْضِع الذي أصْبَح فيما بعد نادي الجَزِيرَة الرِّياضي ، وأقِيمَ على نَهْر النِّيل كوبري مَعْدَني ليَصِل بين قَصْرِ النِّيل والطَّرَفِ الجَنُوبي للجَزِيرَة ، واسْتُكْمِل هذا الكوبري سنة ١٢٨٨هـ/١٨٧١م ، وعُهِدَ بتَنْفِيذِه إلى شَرِكَة Fives-Lille الفرنسية ، ويُعَدُّ بذلك أوَّل كوبري يتمّ إنْشَاؤه على النِّيل لرَبْط ضَفَّة النِّيل الشَّرقية بالضَّفَّة الغربية ، بَعْدَ أنْ كان العُبُورُ من شاطئ إلى شاطئ يَتِمّ قَبْل ذلك على صَفٍّ من المراكِب المَرْبُوطة إلى بعضها يَمْتَدُّ عليها أَلْوَاحٌ من الخَشَب ، وقد اسْتُبْدِلَ هذا الكُوبري بكوبري آخَر حَلَّ محلَّه وافْتُتِح في ٥ مارس سنة ١٩٣٣م في عَهْدِ الملك فؤاد الأوَّل عُرِفَ بـ « كوبري الخِدِيو إسْمَاعيل » (كوبري قَصْر النِّيل الآن) يَبْلُغُ طولُه ٣٨٢ مترًا وعَرْضُه عشرين مترًا خُصِّصَت منها خمسة أمْتار لإفْرِيزَيْن على جَانبيه عَرْضُ كلٍّ منهما مِتْران ونِصْف ، وأقِيمَت عند كلٍّ من مَدْخَلَيْه منارَتان من حَجَرِ الجرانيت في رأس كلّ مَنَارَة مِصْبَاحُ إنارَة وأمَامَها وَاحِدٌ من الأُسُود الأرْبَعَة

البرونْزِيَّة التي كانت قائمةً على مَدْخَلِ الكُوبري القَدِيم والتي صُنِعَت في إيطاليا. ورَبَط الخِدِيْو إسْماعيل ما بين الجَزِيرَة والجِيزَة بكوبري آخَر أُنْشِئ، سنة ١٨٧٢م، على فَرْعِ النِّيل المعروف بالبَحْر الأعْمَىٰ من تَصْمِيم المهندسين SHAW ET THOMPSON، اسْتُبْدِل في سنة ١٩١٤م بكوبري آخر أنْشَأه الإنجليز وقامَت بتَنْفِيذه شركة كليفلند Cleveland طُولُه ١٤٥ مترًا وعَرْضُه ١٩ مترًا منها ثَلاثَة أمْتَار ونِصْف لكلِّ إفْرِيز (كوبري الجَلَاء الآن)[1].

قَصْرُ القُبَّة

شَرَع في بِنَاء هذا القَصْر إبراهيم باشا بن محمد علي بجوار قُبَّة الأمير يَشْبَك من مَهْدي، فنُسِبَ إليها، ثم آلَ من بعده إلى ابنه مصطفى فاضل باشا فزَادَ في مبانيه وزَخْرَفه، ثم اشْتَرَاهُ الخِديو إسْماعيل سنة ١٨٦٦م وأعَادَ بِنَاءَه سنة ١٨٦٩م ووَهَبَه لابنه ووَلِيّ عَهْدِه محمد توفيق. ويقوم القَصْر على مِسَاحَة ثمانين فَدَّانًا ويَنْقسم إلى قِسْمَيْن: حَرَمْلِك وسلامْلِك، ويَبْلُغُ عَدَدُ غُرَفه أرْبع مائة غُرْفَة وتُحيط به بَسَاتين مقامة على ١٣٠ فَدَّانًا، ويُحيطُ به سُورٌ ضَخْمٌ أقيم في عَهْد الملك فؤاد سنة ١٩٣٠م تَفْتح فيه بَوَّابَةٌ ضخمة يَبْلُغ طول ضِلْعِه الشّمالي والجنوبي أربع مائة مترًا وكل من الضِّلْعَيْن الشَّرْقي والغربي ألْف وثمان مائة مترًا. وللقَصْر مَحَطَّةُ سِكّك حَدِيدية خاصَّة وحَظيرة لعَرَبات القِطار الملكي[2].

وبعد قِيامَ حَرَكة الجَيْش سنة ١٩٥٢م اتُّخِذَ هذا القَصْرُ مَقرًّا رَسْمِيًا لرئاسة الجمهورية (١٩٥٦-١٩٧٠م).

---

[1] علي مبارك: الخطط التوفيقية ١:١١١-٢١١؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ١: ٢١١؛ ٢١٣؛ فؤاد فرج: القاهرة ٣:٥٣٩-٥٤١. فؤاد فرج: القاهرة ٣: ٥٢١.

[2] عبد الحميد نافع: ذيل خطط المقريزي

سَرَاي الجِيزَة وحَدِيقَة الأورْمان

كانت في الأَصْل قَصْرًا صغيرًا وحَمَّامًا بناهما سَعِيد باشا، ثم اشْتَرَاهما الخِدِيو إسْماعيل مع الأراضي التَّابعة لهما، وهي نحو ثلاثين فَدَّانًا، من ابنه طُوسُون باشا وهَدَمهما وأعادَ بناءَهما على نظامٍ جديد وأحْضَرَ لها أحَدَ القَلْفاوات المعروفين من إستانبول لعمل تَصْميمها كما اسْتَدْعى لها أسْطاوات من إستانبول لتَنْظِيم بساتينها وفَرْش طُرُقاتها ومماشيها بالزَّلْط المُلَوَّن الذي جَلَبَه من جَزِيرَة رُودس، وجَعَلوا بها جَبَلايات وبِرَك مُتَّسِعَة وجَدَاول عليها قناطِر وأكشاك للجُلُوس، وأوْصَلَ إليها الماء من النِّيل برَفعه بوابور مخْصُوص ووَزَّعَ فَوَانيس الغاز في أرْجائها. ثم أضافَ إليها سَلامْلِكًا من الحَجَر النَحِيت عَهِدَ بتَنْفِيذه إلى المهندس Ambroise Baudry (يَدُلُّ عليها مَبْنى مَجْلِس الدَّوْلَة على النِّيل الآن)، وأنْشَأ في بَحْريه بُسْتَانًا كبيرًا سمَّاه «الأوْرْمان» بعد أنْ رَدَمَ أرْضَه بطَمْي النِّيل إلى قريب مترين، وبَلَغَ ما رُدِمَ من الأراضي المُتَّصِلَة نحو ثَلاث مائة فَدَّان، وكَلَّفَ بتَنْظيم هذه الحَدَائق والبَساتين Barillet Deschamps الذي صَمَّم من قَبْل حَدِيقَة الأزْبَكِيَّة [1].

قَصْرُ الزَّعْفرَان

شَيَّدَهُ الخِدِيو إسْماعيل سنة ١٨٧٠م، على أنْقاضِ قَصْرِ الحَصْوَة الذي شَيَّدَه محمد علي، وعَهِدَ بتنفيذه إلى مهندسٍ يُدْعى مغربي بك سَعْد وجَاءَ تَصْمِيمُه على غِرار قَصْر فِرْسَاي Versaille في فرنسا، ويَقَعُ في حي العَبَّاسية الذي أنْشَأه عَبَّاس باشا الأوَّل. وأهْدَاهُ فَوْرَ الانْتِهاء منه إلى وَالدته خُوَشْيار هانم، وكانت تُحِيطُ به حَدِيقَةٌ كبيرةٌ مَزْرُوعة بنَبَات الزَّعْفرَان، ومن هنا جاءَ اسْمُه.

---

[1] علي مبارك: الخطط التوفيقية ١:٢١٢-٢١٣؛ N. S. Tamraz, *Nineteenth Century Cairene Houses and Palaces*, pp.30-31.

وشَهِدَ هذا القَصْرُ أحْدَاثًا مُهِمَّةً عَبْر تاريخه ، فقد اسْتُخْدِمَ كمقَرٍّ لإدَارَة الجامِعَة المصرية عند تأسِيسِها سنة ١٩٢٥م ، واسْتَخْدَمَتْهُ وَزَارَةُ الخارِجيَّة كدارٍ للضِّيَافَة لكبار الزُّوَّار ؛ ثم شَهِدَ في عام ١٩٣٦م مَرَاسِمَ تَوْقِيع المُعَاهَدَة المصرية البريطانية التي وَقَّعَها عن مصر مصطفىٰ النَّحَّاس باشا . ومنذ عام ١٩٥٢ أصْبَحَ هذا القَصْرُ ، التي جاءَت قاعاتُه وغُرَفُه الرَّئيسة على الطِّرَاز القُوطي وطِرَاز الباروك ، مَقَرًّا لإدَارَة جامِعَة عَيْنْ شَمْس .

قَصْرُ عابِدين

لَعَلَّ أحَدَ أهَمّ مُنْجَزَات عَصْر إسْماعيل هو إنْشَاءُ « قَصْر عابِدين » ، فبَعْد أنْ كانت قَلْعَةُ الجبَل هي المَقَرّ الرَّسْمي للحكم في مصر منذ العَصْر الأيُّوبي وأقامَ بها محمد علي باشا وخُلَفاؤه في قَصْرِ الجَوْهَرَة الذي شَيَّدَه سنة ١٢٣١هـ/١٨١٤م ، أصْبَح قَصْرُ عابدين الذي بَنَاهُ إسْماعيل باشا على طِرازٍ حَديث في وَسَطِ القاهرة الجَديدة التي ألْصَقَها بالمَدِينَة التَّاريخية هو المَقَرّ الرَّسْمي الجديد للحُكْم في مِصر وظَلَّ كذلك حتى عام ١٩٥٢م .

بدئَ في بِنَاءِ القَصْر سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٣م ، في العام نفسه الذي تولَّىٰ فيه إسْماعيلُ مَقاليدَ الحُكْم ، واسْتَمَرَّ العَمَلُ فيه عَشْرَة أعْوَام وافْتِتِح رَسْمِيًّا سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م . أقيمَ القَصْرُ على أطْلالِ مَنْزِلِ أحد الأمَرَاء الأتْرَاك يُعْرف بعابِدين بك ضُمَّت إليه مِسَاحاتٌ كَبِيرةٌ من الأماكِن المجاوِرَة له فبني على مِسَاحَة خَمْسَة وعشرين فَدَّانًا ، وشَارَكَ في بِنَائِه عَدَدٌ كَبِيرٌ من المُهَنْدِسين والفَنِّيين من الإيطاليين والفِرِنْسيين والمصريين والأتْرَاك ووَضَعَ تَصْمِيمَه المُهَنْدِسُ الفرنسي ROUSSEAU. وجُعِلَ أمامَه مَيْدَانٌ رَحْب بَلَغَت مِساحَته تسعة أفْدِنَة . وشُيِّدَ القَصْر بفَخَامَةٍ بالِغَةٍ على طِرازِ القُصُور الأوروبية . وشُيِّدَ في غَرْبِيِّه ثُكْناتٌ للحَرَس (تَشْغَلُها الآن محافَظَةُ

القاهِرَة) ، وفُتِحَت طُرُقٌ جَدِيدَة تُؤَدِّي إليه : شَارِع عبد العَزيز من مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء وشارع إبراهيم باشا (الجمهورية الآن) من مَحَطَّة مصر [١].

شَارِعُ السِّكَّة الجَدِيدَة

هذا الشَّارِعُ أَوَّلُ شَارِع عَرْضي تَعْرِفُه القاهِرَة بدئ في فَتْحِه في عَهْدِ محمد علي باشَا سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م واسْتَفْتى العُلَمَاءَ في فَتْحِه وكيفية عَرْضِه ، فأفْتُوه بأنْ يجعله بحيث يَمُرُّ فيه جَمَلان حَامِلان من غير مَشَقَّة ، وقُدِّرَ ذلك بثمانية أمْتار ، وهو يَرْبط شَارِعَ المُوسكي غَرْبًا من عند قَنْطَرَة المُوسْكي بتُرَبِ الغَرِيب شَرْقًا . وكان السَّبَبُ في فَتْحِه اتِّساعُ نِطاق التِّجارَة نتيجةً لإقامَة كثيرٍ من الفِرِنْج بأحْيَاء الموسْكى والأزْبكية وكثْرَة العَرَبات وتَعَسُّر السَّيْر دَاخِل الأزِقَّة القديمة وتِكرَار شكوىٰ التُّجَّار وغيرهم من ضِيق الحارات المؤدِّي إلى تَعْطِيل حَرَكة التِّجارَة والمُرُور . فأصْدَرَ محمد علي أمْرًا بشِرَاء الأمْلاك التي تَعْتَرِضُ الشَّارِع الجَدِيد في مُرُوره ووَضَعَ تَخْطِيطَه قلمُ الهَنْدَسَة التَّابع لديوان المَدَارس ، ولكنَّه لم يتمّ منه في أوَّلِ الأمْر إلَّا مَسَافَةٌ صغيرة تنتهي بالقُرْب من قَنْطَرَة الموسْكي ، ووَصَلَ إلى شَارِع النَّحَّاسِين (المُعِزّ لدين الله الآن) في عَهْدِ عَبَّاس الأوَّل ، واسْتكمِل إلى جِهَة الغَرِيب في عَهْدِ إسماعيل باشا ثم أضِيفَ له رَصِيفٌ في كلِّ جَانِبٍ في عَهْدِ الخِدِيو تَوْفِيق .

ويبدأ شَارِعُ المُوسْكي من آخِر شَارِع السِّكَّة الجَدِيدَة من عند قَنْطَرَة الموسْكي وينتهي عند شَارِع العَتَبَة الخَضْرَاء [٢].

---

[١] راجع عن القَصْر والتَّعْديلات والإضافات التي طَرَأت عليه كتاب : قَصْر عابِدِين ـ جَوْهَرَة قاهِرَة القرن التَّاسع عشر ، القاهرة ـ مركز توثيق التراث الحضاري والطبيعي ٢٠٠٨م .

[٢] علي مبارك : الخطط التوفيقية ٣: ٣٠٤.

ولَعَلَّ أحَد أهَمّ أسْباب فَتْح هذه الشَّوَارِع الجَدِيدَة هو عَدَم انْتظام شَبَكة شَوَارِع المَدِينَة القَدِيمَة التي كانت أحَدَ العَقَبَات أمامَ تحديث المَدِينَة، فقد بدأ ظُهُورُ العَرَبات التي تجُرُّها الخُيُول في القاهرة ابتداءً من سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٤م، وهو العام الذي أهْدَت فيه الحكومةُ الفرنسيةُ أوّل عَرَبَةٍ من هذا النَّوْع إلى محمد علي باشا، ثم تَضَاعَفَ عَدَدُ هذه العَرَبات حتى بَلَغَ ثلاثين عَرَبَة في سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، ولم يكن يُمْكِنُها السَّيْر إلّا خارج المَدِينَة وعلى الأخَصّ في الطَّرِيق الجَدِيد المُؤَدِّي إلى قَصْر شُبْرَا [١].

شَارِعُ بَيْت القاضِي

فُتِحَ هذا الشَّارع بعد سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٤م ليَصِل شارِع النَّحَّاسِين (قِسْم من شارع المُعِزّ لدين الله الآن) أمام مَجْمُوعَة قلاوون برَحْبَة باب العِيد عند المَدْرَسَة الحجازية، واسْتَلْزَمَ فَتْحُ هذا الشَّارع، الذي يُوجَدُ في آخِره مَقْعَدُ الأمير ماماي، إزَالَة المَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة بَيْبَرْس التي يَرْجِعُ تأريخها إلى سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م ولم يَبْقَ منها إلّا جزءٌ صَغِيرٌ على يمين الدَّاخِل إلى الشَّارع [٢] (مُسَجَّل بالآثار برقم ٣٧)، كما نُقِلَ باب المَدْرَسَة المُكَفَّت ليكون بابًا للسِّفَارَة الفرنسية بشارع مُرَاد بالجيزَة.

---

[١] G. Wiet, *op. cit.*, pp.91-104; A. Raymond, *Le Caire*, p.300.

[٢] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٢: ٩٠.

شَارِعَا كلوت بك ومحمد علي

افْتُتِح هذان الشَّارِعَان سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م بغَرَضِ تَيْسِيرِ وُصُولِ الجُيُوش في طَرِيقٍ مُسْتَقِيم من مَحَطَّة السِّكَك الحديدية رأسًا إلى قَلْعَةِ الجَبَل.

يَبْدَأ شَارِعُ كلوت بك (نسبةً إلى ANTOINE CLOT مُؤَسِّس أوَّل مَدْرَسَةٍ للطِّبّ في مصر)، الذي تَقَرَّرَ فَتْحُه في بِدَاية عام ١٨٧٠م، من مَيْدَان باب الحَدِيد إلى مَيْدَان الخَازِنْدَار (الذي يطلّ عليه الآن محلّات صِيدْناوي وسِنْتْرَال الأوبْرا). أمَّا شَارِعُ محمد علي فيَبْدَأ من مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء ويَنْتَهي إلى جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن في سَفْحِ قَلْعَةِ الجَبَل وطوله نحو كيلو مترين. وكان يَقَعُ بأوَّله المَقَابِرُ المعروفة بتُرَبِ الأَزْبَكِيَّة وتُرَبِ المَنَاصْرَة وكانت المنازِلُ تُحِيطُ بها من جِهَاتها الأرْبَع، وكان جَامِعُ أَزْبَك والحَمَّامُ المُجَاوِرُ له، المعروف بحَمَّام العَتَبَة الخَضْرَاء، يُشْرِفان على هذه المَقَابِر من جِهَة الغَرْب، واسْتَدْعَى فَتْحُ الشَّارِع إزالَة هذه المَقَابِر وهَدْم الجَامِع والحَمَّام، ونُقِل مِنْبَرُ الجَامِع إلى المَشْهَد الحُسَيْني، وكان مَحَلُّ الجَامِع قريبًا من مَحَلِّ تِمثال إبراهيم باشا من الجِهَة الشَّرْقِيَّة، أمَّا عِظامُ المَوْتَىٰ فنُقِلَت إلى قَرَافَة الإمام الشَّافِعِيّ والبَعْضُ الآخر عُمِلَ له صِهْرِيجٌ ودُفِنَ به وبُني عليه مَسْجِدٌ عُرِفَ بمَسْجِد العِظام[1].

وفي سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م قُسِّمَت أرْضُ هذا المكان وبِيعَ نِصْفُها الكائِن على يَسَار المارّ بالشَّارع إلى العَتَبَة الخَضْرَاء بـ ١٦ ألْف جنيهًا، وشَرَعَ أصْحَابُها في بنائِها فبُنِيَت دَكاكِين وبيوتًا يَفْصِلُها شَوَارِعُ كَبيرة وأصْبَحَت من أعْمَرِ الأخْطاطِ لقُرْبها من الموسْكي والأَزْبَكِيَّة.

---

[1] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣: ٣٨٣.

وبفَتْح هذا الشَّارع تمَّ رَبْطُ المَدِينَة القَدِيمة بالمَدينة الجَدِيدَة وأصْبَحَت الجِهَاتُ التي يَمُرّ بها الشَّارِعُ عالية القِيمَة مَرْغُوبَة السُّكْنى فبُنِيَت على جَانِبَيْه عَمائِرُ كَبِيرة وحَوَانِيتُ مُتَّسِعَة [١].

وأقِيمَت وَاجِهَاتُ مباني شَارِع كلوت بك وشَارِع محمد عليّ فوق بواكي تُظَلِّل السَّائرين على الأرْصِفَة وتَقِيهُم مِيَاه الأمْطار على النَّمَطِ الذي بُنِيَت عليه المَبَاني الوَاقِعَة في شَارِع ريفولي Rue Rivoli في باريس.

أدَّىٰ فَتْحُ شَارِع محمد عليّ إلى هَدْمِ نحو أرْبَع مائة مَبْنَى فيها أرْبَعَةُ مَسَاجِد كانت تَعْترِضُه أهَمّها قِسْمٌ كبيرٌ من جَامِع قُوصُون، وهو جَامِع ضَخْم يَرْجِعُ تأريخه إلى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. وعُمِلَت في امْتداده قَنْطَرَةٌ على الخَلِيج عِوَضًا عن قَنْطَرَة باب الخَرْق القَدِيمة التي أُزِيلَت سنة ١٨٩٦م عند رَدْم الخَلِيج، ودُكَّت أرْضُه بالرَّمْل والدَّقْشُوم ونُصِبَ في جانِبَيْه فنارَاتُ الغاز.

وكان من المُفْتَرَض أنْ ينتهي الشَّارِعُ بمَيْدانٍ عند جَامِع السُّلْطان حَسَن يَظْهر أثَرُه في خَرِيطَة جران بك ولكنَّه لم يُنَفَّذ أبَدًا كما لم يُسْتَكْمَل البِنَاءُ على جانبيه إلَّا مع نِهايَة القَرْن التَّاسِع عَشْر [٢].

المَيَادِينُ المُسْتَجَدَّة

بما أنَّ التَّخْطِيطَ الجَدِيد للمَنْطقة الوَاقِعة غَرْبي حَديقَة الأزبكية قد اسْتُوحي من أفْكار وحُلُول المهندس الفرنسي Haussmann، فقد اسْتَلْزَم ذلك إنْشَاء عَدَدٍ من الميادِين تَتَفَرَّعُ منها شَبَكَةُ الطُّرُق الجديدة، جُمِّلَت الميادين الرَّئِيسَة منها بنَوَافِير للمياه وتماثيل كُلِّفَ بتَنْفِيذها المَثَّالَيْن الفرنسيين Alfred Jaquemart

---

[١] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣: ٢٤٨، ٢٥١.

[٢] نفسه ٣: ٢٥٤، ٢٥٥.

(١٨٢٤-١٨٩٦م) و CHARLES CORDIER (١٨٢٧-١٩٠٥م) : تماثيل إبراهيم باشا ومحمد لاظ أوغلي وسليمان باشا ، وأهَمُّ هذه الميادِين : مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء ومَيْدَان التِيَاتْرو (مَيْدَان إبراهيم باشا ثم مَيْدَان الأوبْرا الآن) ومَيْدَان عابدين تجاه قَصْر عابدين ، وإلى اليَسَار منها مَيْدَان سَوَارِس (مَيْدَان مصطفىٰ كامِل الآن) ومَيْدَان سليمان باشا (طَلْعَت حَرْب الآن) ومَيْدَان باب اللُّوق ومَيْدَان الكوبري تِجَاه كوبري قَصْر النِّيل وسَرَاي الإسْماعيلية (قِسْمٌ من مَيْدَان التَّحْرير الآن) ومَيْدَان الدَّوَاوين (مَيْدَان لاظُوغْلي الآن) ، إضافَةً إلى مَيْدَان بابِ الخَرْق (باب الخَلْق) في نَسِيج المَدِينَة القَدِيم يَتَوَسَّط شارعيّ محمد علي والخَلِيج المصري (مَيْدَان أحمد ماهر الآن)[1] ومَيْدان محمد علي (القَلْعَة الآن) عند سَفْحِ القَلْعَة ، والطَّرِيق الوَاصِل بينه وبين مَيْدَان قَرَامِيدَان جَنُوبًا . وأصْبَحَ يَحِدُّ هذا المَيْدَان من جِهَة الغَرْب جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن الضَّخْمَة وجَامِع الرِّفاعي المُمَاثِل له في الحَجْم والذي فُرِغَ من بِنَائِه سنة ١٩١٢م .

شَارِعُ الفَجَّـالَة

فُتِحَ هذا الشَّارع في مَوْضِع الأرْض التي عُرِفَت منذ العَصْر الفاطِمِيّ بـ « أرْض الطَّبَّالَة » ، وفي نِهَاية القَرْن الثَّامِن عَشْر كانت أرْضًا صَعْبَة يَتَعَذَّرُ المرور فيها يُزْرَع في قِسْمٍ منها الفِجْل ، فمَهَّدتها الحَمْلَةُ الفَرنسية وجعلتها طريقًا مُمْتَدًّا من قَنْطَرَة باب الحَدِيد إلى قَنْطَرَة العَدَوِي على الخَلِيج ، وكان السَّالِكُ في هذا الطَّرِيق من جِهَة باب الشِّعْرِيَّة يجد عن يمينه القرية المعروفة بـ « كوم الرِّيش » التي صارَت بعد نَقْلِها تِلالًا عالية أُزِيلَت في زَمَنِ الخِدِيو إسْماعيل وتولِّي علي باشا مبارك دِيَوان الأشْغَال ، كما رُدِمَ في ذَاتِ الوَقْت بِرْكة الرَّطْلي المتاخِمَة للمكان ، فانْتَظَمَت بذلك هذه

---

[1] علي مبارك : الخطط التوفيقية ١: ٢١٠ ؛ دراسات في التطور العمراني لمدينة القاهرة ، القاهرة وراجع لمزيد من التفاصيل ، فتحي حافظ الحديدي : ٢٠٠٩م ، ٧-٢٤٨.

الخِطَّة وتَمّ بَيْعُ أرَاضيها فشُيِّدَت بها مَبانٍ هائِلَة وقُصُور تُحِيط بها البَسَاتين، وانْقَسَمَت إلى حَارات مُنْتَظِمَة وشَوَارِع مُعْتَدِلَة وارْتَفَعَت قيمة أراضِيها [١].

ويَرْجِعُ إلى حَبِيب سكاكيني الفَضْلُ في إنْشَاءِ ضَاحِيَةٍ جَدِيدَة شَمال شَرْقيّ الفَجَّالة عُرِفَت باسْمِه، عندما أنْشَأ سنة ١٨٩٧م قَصْرَه الذي تَفَرَّع عنه شَوَارِعُ على شَكْل نِجْمة سُدَاسِيَّة. وهذا القَصْرُ من أوَائِل مباني القاهِرَة التي أُلْحِقَ بها مِصْعَدٌ كهربائي Ascenseur [٢].

تَطَوُّرُ حَيِّ شُبْرَا

نَتِيجَةً لِبنَاء محمد علي لقَصْرِ شُبْرَا وتَمْهِيدِ الطَّرِيق المُؤَدِّي إليه من جِهَة كوبري اللَّيْمُون انْتَشَرَت على جَانبيّ هذا الطَّرِيق بَعْضُ القُصُور الكَبيرة والحَدَائِق نَتِيجَةً لشَقِّ التُّرْعَة البُولاقِيَّة وخَلِيج الزَّعْفَرَاني وتَطَوُّر نِظام تَوْزيع المياه.

أنْشَأ محمد علي في الوَقْتِ نفسه قَصْرًا خَصَّصَه لابْنَته زَيْنَب هانم شماليّ سِكَّة شُبْرَا وقَصْرًا آخَر لنَجْلِه حَلِيم باشا. وفي عام ١٨٥٨م أنْشَأ سَعِيد باشا «قَصْر النُّزْهَة» وشَيَّدَت زَوْجَتُه إنْجي هانم، سنة ١٨٦٥م، قَصْرًا ومَسْجِدًا بجَزِيرَة بَدْرَان، كما شَيَّدَ رَجُلُ الأعْمال الإيطالي شيكولاني Ciccolani قَصْرَه سنة ١٨٧٣م.

وشَهِدَ حَيُّ شُبْرَا نُمُوًّا عُمْرَانِيًّا مُتَزَايِدًا في عَهْدِ الخِدِيو إسْماعيل، فجَعَلَ «قَصْرَ النُّزْهَة» دَارَ ضِيَافَةٍ للحكومة عِوَضًا عن «المُسَافِرْخَانَة»، وفي عَهْدِ الخِدِيو تَوْفِيق نُقِلَت مَدْرَسَةُ المُعَلِّمِين من مكانها بدَرْبِ الجَنِينَة، قُرْب الموسْكي، إلى هذا القَصْر الذي تَشْغَل مبانيه الآن المَدْرَسَةُ التَّوْفِيقِيَّة الثَّانوية بشُبْرَا.

---

[١] علي مبارك: الخطط التوفيقية ٣: ٢٥٩.

[٢] Gh. Alleaume & M. Volait, *L'âge des mutations les XIX^e et XX^e siècle*, p.397.

وشَيَّدَ الأمير طُوسُون بن محمد سعيد باشا (والد الأمير عُمَر طُوسُون) قَصْرًا بملاصَقَة مَصْنَع المَبْيَضَة الذي أنْشأه محمد علي باشا (وتَشْغَلُ مبانيه الآن مَدْرَسَةُ شُبْرَا الثَّانوية).

وتَوَالىٰ بعد ذلك تَشْييدُ الأمَرَاء وبعض كبار رجال الدَّوْلَة والأعْيَان والتُّجَّار للقُصُور والبَسَاتين على جانبيّ شارع شُبْرَا حتَّى شاطئ النِّيل، وأصْبَح هذا الحَيُّ الجَدِيد مكان نُزْهَةِ أهْل القاهِرَة ورياضتهم وانْتَشَرَت به المقاهِي وأماكِن التَّسْلِيَة. وتَمَّ تَمْهِيدُ شَارِع شُبْرَا بالحَجَر الجِيرِي سنة ١٨٨١م وأنِيرَ بالغَاز في العام التَّالي [١].

وأدَّت الأعمالُ الهَنْدِسِيَّة التي أجْرِيت في مجرىٰ النِّيل بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٥م إلى ظُهُورِ أرْضِ طَرْحِ بَحْرٍ جَدِيد، هي الأرْض التي عليها الآن رُوض الفَرَج وسَاحِل رُوض الفَرَج جَنُوبي شُبْرَا [٢].

حُـلْوَان

يَرْجِعُ الاهْتمامُ بضاحِيَة حُلْوَان إلى فَتْرَةٍ مُبَكِّرَةٍ من التَّاريخ الإسْلامي، فقد أقامَ بها لبعض الوَقْت الوالي الأُمَوي عبد العَزِيز بن مَرْوَان (٦٥-٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م) وبَنَى بها الدُّور والمَسَاجِد عِمَارَةً حَسَنَةً [٣].

ولم تَلْق هذه الضَّاحِيَةُ، الواقِعَةُ إلى الجَنُوب من القاهِرَة، اهْتمامًا بعد ذلك إلَّا مع النِّصْف الثَّاني من القرن التَّاسع عَشْر بسَبَب التَّعَرُّف على مِياهِها الكِبْرِيتية وفَوَائِدِها العِلاجِية ابْتِدَاءً من عام ١٨٥٠م. وأُنْشِئَت حَمَّاماتُ حُلْوان والفُنْدُقُ المُلْحَق بها سنة ١٢٨٢هـ/١٨٧١م، ثم أمَرَ الخِدِيو إسْماعيل بوَضْعِ تَخْطيطٍ شامِلٍ

---

[١] راجع لمزيد من التفاصيل رسالة محمد أبو العَمَائم: حيّ شُبْرَا منذ بداية القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العِشرين ـ دراسة أثرية عمرانية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار جامعة القاهرة ٢٠٠٧م.

[٢] فؤاد فرج: القاهرة ٣: ٥٢٩، وكذلك محمد رمزي: «شبرا وروض الفَرَج»، مجلة العلوم ٥/٣ (١٩٤٢)، ٣٢٢-٣٣٦.

[٣] الكندي: ولاة مصر ٧١.

للضَّاحِيَة الجَدِيدَة تُحِيطُ بعُيُون المياه المُكْتَشَفَة سنة ١٢٨٥هـ/١٨٧٤م وشَجَّعَ على إقامَة مَبَانٍ جَدِيدَة بها ، وأنْشَأ هو قَصْرًا فَخْمًا شَمَال غربيّ الضَّاحِيَة بالقُرْب من النِّيل لتُقِيمُ فيه والدتُه عُرِف بـ « قَصْر الوَالِدَة » تَوَلَّىٰ بناءَه خَلِيل أغا سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧٧م ، ثم اسْتُخْدِمَت أنْقاضُه بعد ذلك في بناء كازينو حُلْوَان ، ثم تَوَالىٰ بناءُ القُصُور .

وكان الخِديو إسْماعيل قد أمَرَ في سنة ١٢٨٤هـ/١٨٧٣م بمَدّ خَطٍّ حَدِيديّ من مَيْدَان المَنْشِيَّة أسْفَل قَلْعَة الجَبَل إلى حُلْوَان مُرُورًا بقَرْيَة البَسَاتين ، افْتُتِح في مَطْلَع عام ١٨٧٧م .

ولمَّا تَوَلَّىٰ الخِدِيو محمد توفيق ، بَعْد عَزْلِ والده ، كان يُفَضِّلُ الإقامَة في حُلْوَان لطِيب هَوَائها ، وشَيَّدَ بها قَصْرًا لإقامته في طَرَفِ الضَّاحِيَة الشَّمالي الغربي ، تَحَوَّلَ فَتْرَةً إلى فُنْدُقٍ ثم شَغَلَتْه بعد ذلك مَدْرَسَةُ حُلْوان الثَّانوية . وعَهِدَ تَوْفِيق إدَارَة خَطّ حُلْوان الحَدِيدِي إلى شركة يمتلكها فيلكس سوارس قامَت بتَنْظِيم طُرُق مُوَاصَلات الضَّاحِيَة ومَدَّت خَطًّا جَدِيدًا من طُرَا إلى باب اللُّوق ليكون قريبًا من وَسَطِ المَدِينَة ، كان من المُفْتَرَض أنْ يَتَّصِل بعد ذلك بمحطَّة مصر . وأنْشَئ في الوَقْت نفسه فُنْدُقٌ كبيرٌ Grand Hotel ومُنْتَزَهًا وحَلْبَةُ سِباق[1] .

نِهَايَةُ إسْماعيل

أدَّى إفْلاسُ مصر وإخْضَاعُها التَّدْريجي للسَّيْطَرَة الأَجْنَبِية نَتِيجَةً للطُّمُوحات العَالية التي تَطَلَّعَ إليها إسْماعيل إلى التَّباطؤ في تَنْفِيذ مَشْرُوعه الطَّمُوح ثم إلى تَوَقُّفه . فقد وَصَلَت مصر إلى الإفْلاس بسَبَبِ القُرُوضِ ذات الفَوَائِد الكَبِيرة التي

[1] فؤاد فرج : القاهرة ١:١١٩ـ ١٥٠ ، وانظر كذلك محمد رمزي : حلوان ، مجلة العلوم (١٩٤٤) .

حَصَلَت عليها من أوروبا ابتداءً من عام ١٨٦٣م، واضْطُرَّ إسْماعيل أنْ يَبِيعَ أسْهُمَه في قناة السُّوَيس، سنة ١٨٧٥م، إلى الحكومة البريطانية فحَقَّقَت بذلك صَفْقَةً تجاريةً رَائِعَة واستثمارًا سياسيًّا مهمًّا. وتَمَّ تَشْكيلُ لَجْنَة إشْرَافٍ دَوْلية على شُئون مصر سنة ١٨٧٦م (صَنْدُوق الدَّين)، وفي عام ١٨٧٨م عُيِّنَ وَزيرَان أجنبيَّان في الحكومة المصرية أحَدُهما إنجليزي للمالية والآخَر فرنسي للأشْغَال العُمُومِيَّة. وبسَبَب ضَغْط بريطانيا وفَرَنْسا أصْدَرَ السُّلْطانُ عبد الحَمِيد العُثْماني فَرَمَانًا بعَزْلِ إسْمَاعِيل وتَوْلِيَة ابْنِه محمد تَوْفيق في مَكانِه في ٦ رَجَب سنة ١٢٩٦هـ/ ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩م[1]. فقد جَذَب افْتِتَاحُ قَناة السُّويس انْتِباه العالَم كلِّه إلى مِصْر وأضْحَىٰ التَّحَكُّم في هذه المَنْطِقَة من العالَم الوَرَقَة الرَّابِحَة في الصِّرَاع من أجْل الهَيْمَنَة العالمية، حيث كانت المَرْحَلَة الأولىٰ للتَّدَخُّل بحجَّة دِيُون الخِدِيو والتي أدَّت بعد ذلك إلى الاحْتِلال البريطاني سنة ١٨٨٢م.

لاشَكَّ أنَّ الخِدِيو إسْماعيل قد وَضَعَ الأُسُسَ الحَقيقية التي تقومُ عليها الآن القاهِرَة الحَدِيثَة، ونحن مَدينين لهذا الرَّجُل الذي كانت لديه رُؤْيَةٌ متكاملةٌ لتَطْوير مَدِينَة القاهِرَة ونَقْلِها من نهايات العُصُور الوسْطَىٰ إلى مَصَافِّ العَوَاصِم العالمية، ووَقَفَت مَحْدُودِيَّةُ الإمْكانات والضُّغُوطُ الأجْنَبِيَّة أمَامَ تَحقيق حُلْمه وانْتَهَىٰ الأمْرُ بالإطَاحَة به ونَفْيه خارج البلاد حتى وَفَاته في إستانبول في الثَّاني من مارس سنة ١٨٩٥م، ودُفِنَ جُثْمانُه في مَدَافِن الأسْرَة المَالكة المِصرية في جَامِع الرِّفاعي.

*
* *

بالرَّغْم من هذه الخاتِمَة الكَارِثِيَّة التي أنْهَت عَهْدَ إسْمَاعيل، فإنَّ المَشْرُوعَات

---

[1] راجع إلياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل باشا من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٩، ١-٢، القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤١هـ/١٩٢٣م؛ بيير كراببنيس: إسماعيل المفترى عليه، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة ١٩٣٧؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، ١-٢، القاهرة - دار المعارف ١٩٨٢.

الطُّمُوحَة التي بَدَأها أثَّرت بشِدَّة على التَّغَيُّرات اللَّاحِقَة التي أدْخَلَها الوُجُودُ البريطاني في مصر الذي تَوَاجَدَ مُؤَقَّتًا بناءً على دَعْوَة الخِدِيو توفيق في مُوَاجَهَة الحَرَكة العُرابِيَّة، سنة ١٨٨٢م، ولكنَّه اسْتَمَرَّ حتى سنة ١٩٥٤م. فبَعْدَ فترةٍ طَوِيلَةٍ من الرُّكُود بَدَأ عَدَدُ السُّكَّان في الازْدِياد السَّرِيع، فارْتَفَعَ عَدَدُ سُكَّان القاهِرَة من ٣٠٥ ألْف نَسَمَة سنة ١٨٦٣م إلى ٣٧٤ ألْف نَسَمَة سنة ١٨٨٢م بَيْنهم ١٩ ألْف أجْنَبي، وازْدَادَت مِسَاحَةُ المَدِينَة التي لم يَطْرَأ عليها تَحَوُّلٌ كَبِير في الفَتْرَة ما بين ١٧٩٨م و١٨٦٣م إلى أكثر من ضِعْفِ مِسَاحَتها سنة ١٨٨٢م وبَلَغَت ٣١١٢ فَدَّانًا، وتَضَاعَفَت أطْوَالُ الشَّوَارِع أرْبَعَة مَرَّات فبَلَغَت ٢٠٨ كيلومترًا بعدما كانت ٥٨ كيلومترًا، وتَمَّ إدْخَالُ عَنَاصِر تَحْدِيثٍ أساسِيَّة مثل تَزْوِيد المَدِينَة بالمياه عَبْرَ شَرِكة مِيَاه القاهِرَة وإنَارَة الشَّوَارِع بالغَاز[١].

ومن النَّاحِيَة النَّوْعِيَّة، فإنَّ تَخْطِيطَ الأحْيَاء الجَدِيدَة التي ازْدَادَت نُمُوًّا خِلال فَتْرَة الوُجُود البريطاني خَلَقَ مَوْقِفًا جَدِيدًا، فأصبح هناك مدينتان متجاورتان: قاهِرَةٌ قديمةٌ يَرْجِعُ تاريخُها إلى تِسْعة قُرُون، وقاهِرَةٌ حَدِيثَةٌ اسْتَحْدَثَت طُرُزًا وتَخْطِيطًا مُغَايِرًا تمامًا أصْبَحَ الطِّرازَ والتَخطِيطَ الشَّائع بعد ذلك في جَمِيع امْتِدَادَات المَدِينَة الجَدِيدَة. وشَهِدَت المَدِينَةُ القَدِيمَةُ كذلك تَغْيِيرات مُهِمَّة، فتَمَّ شَغْلُ المِسَاحات الخالِيَة فيها ورَدْمُ البِرَك القَدِيمَة وتَقْسِيم أرْضِها مثل بِرْكَة الفِيل وبِرْكة الرَّطْلي، وإنْ لم تُؤَثِّر هذه التَّغْيِيرات بطريقةٍ جِذْرِيَّةٍ على مَظْهَرِ المَدِينَة القَدِيمَة التي ظَلَّت مُحْتَفِظَةً بخَصَائِصها يَقْطُنُها السُّكَّانُ المَحَلِّيُّون، بينما تَمَيَّزَت الأحْيَاءُ المُسْتَجَدَّة بتَنْظِيمها الأوروبي وإقامَة عَدَدٍ ضَخْم من الأجَانِب بها، مِمَّا أوْجَد تَبَايُنًا شَدِيدًا بين طَبِيعَة الأنْشِطَة الممارَسَة في كلٍّ منهما[٢].

---

[١] A. RAYMOND, *Le Caire*, p.315.

[٢] *Ibid*, p.315.

٤ ـ عَبَّاس حِلْمِي الثَّاني

والاهْتِمَامُ بالقاهِرَة التَّاريخية

إذَا كان المَشْرُوعُ الذي تَبَنَّاهُ الخِدِيو إسْماعيل قد نَجَحَ في إنْشَاء مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ على النَّمَط الأوروبي أُلْصِقَت بالجانِب الغربي للمدينة القديمة ، فإنَّه أثَّرَ سَلْبًا على المَدينَة التَّاريخِيَّة الواقعة شَرْقيّ الخَليج المِصْري (شارع بورسعيد الآن) . وغَيَّرَت من النَّسيج العُمْراني للمَدينَة المحاوَلاتُ المُتَكَرِّرَة لفَتْحِ طُرُقٍ عَرْضية تَرْبِطُ غَرْبَ المَدينَة على الخَليج بشَرْقِها عند صَحْراء المماليك والتي بَدَأت منذ الرُّبْع الأخير للقَرْنِ التاسع عَشْر . فالتَّخْطيطُ الأصْلي لمَدينَة القاهِرَة الفاطِمية وظَواهِرِها الجنوبية والشَّمالية بُنِيَ على أسَاسِ وُجُودِ شَوارِعَ رَئيسَة بالمَدينَة تَمْتَدُّ في اتِّجاهِ الشَّمَال مُوازِيَةً للخَليج : الشَّارِعُ الأعْظَم (شارِعُ المُعِزّ لدين الله الآن وامْتداداتُه الجنوبية حتى شارع السُّيُوفِيَّة والْتِقائِه بصَليبَة ابن طُولُون) ، والشَّارِعُ المُمْتَدُّ من رَحْبَةِ بابِ العيد حتى بابِ النَّصْر (شارع الجَمَالية الآن) ، ولم تَعْرِف إطْلاقًا الطُّرُقَ أو الشَّوارِعَ العَرْضية التي تَرْبِطُ شَرْقَ المَدينَة بغَرْبِها . كان الشَّارعُ الرَّئيس الذي أضِيف إلى هذين الشَّارعين هو شَارِعُ الدَّرْب الأحْمَر خارج باب زَويلة جنوبي المَدِينَة الذي يَصِل المَدِينَة بقَلْعَة الجَبَل عَبْر التَّبَّانَة وباب الوَزير . فأدَّى فَتْحُ شَوارِع مثل السِّكَّة الجَديدَة وشَارع بَيْتِ القاضي وشارع محمد علي ، في أواخِر القَرْنِ التاسع عشر ، ثم شَارِع الأزْهَر في سنة ١٩٣٠ ، إلى تَغْيير النَّسيج العُمْراني للمَدينَة القَديمَة وإزَالَة العَديدِ من نِقاطِ الاسْتِدْلالِ والآثارِ المملوكية بصِفَةٍ خاصَّة التي كانت تَعْتَرِضُ مَسيرَ هذه الشَّوارِع الجَديدَة .

ونَحْو سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م أدْرَكَ بَعْضُ الفرنسيين المُقيمين في مصر ومن بينهم Arthur Rhoni (١٨٣٦-١٩١٠م) و Gabriell Charmes (١٨٥٠-١٨٨٦م) و Ambroise Baudry (١٨٣٨-١٩٠٦م) أهَمِيَّة وُجُودِ مُؤَسَّسَةٍ عُلْيا

تَتَمَتَّع بدَفْعٍ مُسْتَمِرّ حتى يمكن القيامُ بجُهْدٍ حقيقي للمُحافَظَة على المَدينَة القَديمَة . فأعْلَنُوا عن ضَرُورَة إنْشَاءِ لَجْنَةٍ تُعْنَى بالآثار التاريخية تَتَوَافَر لها السُّلْطَةُ اللازِمَة لتَتَوازَن مع سُلْطاتِ وَزارَة الأشْغال العُمُومية التي تَتَوَلّى أمْرَ المَدينَة الأوروبية الجَديدَة . وقد وَجَدَ إنْشاءُ هذه اللَّجْنَة مُقاوَمَةً في البِداية ، ولكنَّهم نَجَحُوا أخيرًا في اسْتِصْدارِ مَرْسُومٍ من الخِديو تَوْفيق في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١م (١٢٩٨هـ) بإنْشَاءِ اللَّجْنَة على أن تكون مُلْحَقَةً بوَزارَةِ الأوْقاف المَسْؤولَة حينئذٍ عن الآثار الإسلامية في مصر . وعَقَدَت اللَّجْنَةُ أوَّلَ اجْتماعٍ لها في وَزارَة الأوْقاف في الأوَّل من فِبْراير سنة ١٨٨٢م (١٢٩٩هـ) برئاسة محمد زكي باشا ـ ناظِر الأوْقاف حينئذٍ ـ وضَمَّت في عُضْويتها عَدَدًا من الشَّخْصيات المَعْنِيَّةِ بالآثار من المصريين والأجانب تمَّ اخْتيارُهم بعناية . كان الواجِبُ الأوَّلُ المَنُوط باللَّجْنَة ـ والواضِحُ من اسْمها ـ هو حِفْظ هذه الآثار لا تَجْديدها .

وظَهَرَ الجُهْدُ الأكبرُ لهذه اللَّجْنَة على الأخَصّ في عَهْدِ الخِدِيو عَبَّاس حلمي الثَّاني (١٣١٠-١٣٣٣هـ/١٨٩٢-١٩١٤م) حيث بَذَلَت اللَّجْنَةُ جُهْدًا كبيرًا لضَمانِ تَسْجيل وحِمايَة الآثار الإسلامية والقِبْطِيَّة بالقاهِرَة ثم تَرْميم وصِيانَة القِسْم الأكبر منها ، ففي سنة ١٩١٨م كان أكثرُ من ٦٥ أثَرًا من بين ٥٢٠ أثَرًا سَجَّلَتها اللَّجْنَةُ مَوْضُوعَ تَرْميم كامِلٍ أهَمّها : جَامِع ابن طُولُون وجَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن ومجموعة قلاوون وجَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان بَرْقُوق .

ويَقْتضي مِنَّا إرْجَاعُ الفَضْلِ إلى أهْلِه أن نَمْتَدِحَ بدون تَحَفُّظ ما تحمَّلَته هذه اللَّجْنَة لتحقيق هذه الغايَة . وستَظَلُّ أسْماءٌ مثل Julius Franz Pacha (١٨٣١-١٩١٥م) و Max Herz Pacha (١٨٥٦-١٩١٩م) ثم Achille Patricolo و Edmond Pauty مُهَنْدسي اللَّجْنَة ، وعلي بك بهجت (١٨٥٨-١٩٢٤م) ومحمود باشا أحمد (١٨٨٠-١٩٤٢م) ومحمد بك رمزي (١٨٧١-١٩٤٥م) خُبَرَاء اللَّجْنَة مُرْتَبِطَةً بالنَّتائج الرائعة التي تمَّ التَّوَصُّل إليها ، عِلْمًا بأنَّ العَدَدَ الهائل لهذه الآثار والحالة السَّيِّئَة لبَعْضِها جَعَلَ مُهِمَّة اللَّجْنَة من الصُّعُوبَة بمكان . ولا شَكَّ أنَّ إعْجابَنا

الآن بآثارِ القاهِرَة الإسْلامية يَرْجِعُ الفَضْلُ فيه إلى الإرادَة القَوِيَّة لأعْضَاءِ هذه اللَّجْنَة الذين أخَذُوا على عاتِقِهم ضَرورَة اسْتِمْرارِ هذه الآثار وبَقائِها، فلَوْلا تَدَخُّلِ اللَّجْنَة في الوَقْتِ المناسِبِ لضَاعَت مُعْظَمُ هذه الآثار.

وبالمِثْلِ فقد قامَت اللَّجْنَةُ بصِيانَة وتَرْميم عَدَدٍ هَائِلٍ من المَنْقُولاتِ الأثرية وحِفْظِها في حالَةٍ جَيِّدَةٍ كان نَواةً لـ«دارِ الآثار العربية» التي تَحَوَّلَت الآن إلى «مَتْحَف الفَنّ الإسْلامي»؛ بحيث نستطيع أن نُؤَكِّدَ أنَّه بدون هذه العِنايَة المُثابِرَة للَّجْنَة فإنَّ وَثائِقَ نادِرَة عن الفَنّ الإسلامي وعن تاريخ الآثار الإسلامية لم نكن لنَصِلَ إليها. فهذه المَعالِمُ القائمة والآثار المنقولة الأخرىٰ هي خَيْر شَاهِدٍ على ماضٍ فَنِّي رائع، وتَقْتَضي مِنَّا المحافَظة الدَّائِمَة عليها، فهي لن تُقاوِم الخَرابَ والبِلَىٰ إلّا إذا دُعِّمت بعنايةٍ ويَقَظةٍ دائمتين، الأمْرُ الذي يُؤَكِّدُ أهَمِيَّة التَّرْميم السَّليم لها مع ضَرورَة إحاطَتِها بنِظامِ حِمايَةٍ قوي يَمْنَع أعْمالَ التَّعَدّي عليها أو تَهْديدها.

وتُمَثِّلُ مَحاضِرُ لَجْنَة حِفْظِ الآثار العربية بما تَضُمُّه من تقارير ودِراساتٍ أثَرِيَّة وهَنْدَسية وتَوْثيقٍ لأعْمالِ الصِّيانَة والتَّرْميم التي قامَت بها، مَصْدَرًا من أهَمِّ مَصَادِرِ دِرَاسَة العِمارَة الإسلامية، فقد رَفَعَت جَميعَ الآثارِ الإسلامية، سواء بالقاهِرة أو الأقاليم، وأَخَذَت لها صُوَرًا فوتوغرافيةً نادِرَةً أوَّلًا لحالَة الأثَر كما وَجَدَتْه، ثم للأثر بعد أعْمالِ التَّرْميم والصِّيانَة التي أجْرَتْها به، فَخَلَّفَت لنا بذلك أرْشيفًا نادِرًا من الصُّوَرِ الفوتوغرافية لآثارِ القاهِرَة الإسلامية كان يقوم بالْتِقاطِها مُصَوِّرون مُحْتَرِفون. ونَشَرَت اللَّجْنَةُ هذه المَحاضِر في كرّاساتٍ سنوية باللُّغة الفرنسية بَلَغَت، منذ ظُهُورِ عَدَدِها الأوَّل سنة ١٨٨٤ وحتى سنة ١٩٥١، أربعين كُرّاسَةً تَخَلَّلَها بعضُ التَّوَقُّف في فترة الحَرْبيْن العالميتين، كما ظَهَرَت تَرْجمةٌ عربيةٌ للسِّتّ والعشرين كرّاسةً الأولى منها فقط وجاري الآن اسْتِكْمالُ ترجمة الأجزاء الباقية[1].

---

[1] انظر كذلك، ستانلي لين بول: سيرة القاهرة، ٢٥٣-٢٦٢ (تقرير مهم عن أعمال اللجنة)؛ A. EL-HABASHI, N. WARNER, «Recording the Monuments of Cairo:

*

* *

كان من نتيجة هذا الاهْتمام بإحْيَاء الآثار الإسلامية تَوْجِيه العِنايَة إلى إحْيَاء وإذَاعَة الطِّرَاز المملوكي في البِنَاء الذي يمكن أنْ نَعُدَّه طِرَازًا وَطَنِيًّا إسْلامِيًّا حَقِيقِيًّا. اتَّضَحَ ذلك في العَدِيد من المُنْشآت التي أقيمَت في القاهِرَة في نهاية القَرْن التَّاسِع عَشْر والعُقُود الأولىٰ من القَرْن العِشْرين على الطِّرَاز المملوكي الجَدِيد néomamlouke : محطَّة السِّكك الحَدِيدِيَّة (١٨٩١-١٨٩٣م)، والكُتُبْخانَة الخِدِيوية ودَار الآثار العربية [دار الكتب المصرية ومَتْحَف الفَنّ الإسلام الآن] (١٨٩٨-١٩٠٤م)، ومَبْنَى وَزَارَة الأَوْقاف (١٨٩٩هـ)، وقَصْر المَنْيَل الذي أنْشَأه بين سنتي ١٨٩٩-١٩٢٩م الأمير محمد علي توفيق، أحَد كبار هُوَاة الفَنّ الإسْلامي وعُشَّاقه، ومَبْنَىٰ جَمْعِيَّة المُهَنْدِسين المصرية بشارع رَمْسِيس (١٩٢٠م)، ومَبْنَى بَنْك مصر بشارع محمد فريد (١٩٢٥-١٩٢٧م) ومَعْهَد فؤاد الأَوَّل للموسيقىٰ بشارع رَمْسيس الآن (١٩٢٩م) والذي وَضَعَ تَصْمِيمَه ERNESTO

An Introduction and Overview», *An.Is.* XXXII (1998), pp. 81-82. وعن فلسفة لجنة حِفظ الآثار وأسلوبها في الحِفْظ انظر ALAA EL-HABASHI, *Cairo of the Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe: A Study on the Preservation of the Arab Monuments and the Protection of Arab Architecture from 1881 to 1961*, Ph. D. dissertation. School of Finr Arts, University of Pennsylvania 1998; M. VOLAIT, «Amateur françis et dynamique patrimoniale: aux origines du Comité de conservation des monuments de l'art arabe» in D. PANZAC, A. RAYMOND (ed.), *La France & l'Égypte à l'époque des vice-roi 1805-1882* (*CAI* 22), 2002, pp.311-25. كما يُعِدُّ الباحِثُ الجزائري كريم بديك KARIM BEDDEK رسالة دكتوراه في جامعة باريس رقم ٤ (La Sorbonne) بإشراف الأستاذة MARIANNE BARRUCAND حول كراسات لجنة حِفظ الآثار العربية، وراجع أيضًا PH. SPEISER, *Die Geschichte der Erhaltung Arabischer Budenkmäler in Ägypten*, Heidelberg 2001, pp. 47-94.

VIRRUCCI كبير مُهَنْدسي الملك فؤاد طوال فَتْرَة حُكْمِه ، ومَبْنَى دار الحكمة بشارع القَصْر العَيْني (١٩٤١م) ، إضَافَةً إلى عَدَدٍ من المَسَاجِد الكبيرة مثل : جَامِع أوْلاد عِنان (١٨٩٤-١٨٩٦م) وجَامع السَّيِّدَة نَفِيسَة (١٨٩٧م) والرِّواق العَبَّاسِي المُلْحَق بالجامِع الأزْهَر (١٨٩٤م) ، وجَامِع السُّلْطان حُسَيْن كامِل بمصر الجديدة ، وجَامِع السَّيِّدَة زَيْنَب (١٩٤٠م) ، وكذلك قَصْر نستور جناكليس NESTOR GIANACLIS (الجامِعَة الأمريكية الآن بميدان التَّحْرير)[١] ، وقَصْر كونت زُغيب COMTE PATRICE DE ZOGHEB في شارع قَصْر النِّيل من جِهَة مَيْدَان التحْرير الذي هُدِمَ سنة ١٩٦٣م ، وقَصْر الأمير عمرو إبراهيم بالزمالك (١٩٢٤م) .

وشَجَّعَ على إذَاعَة هذا الطِّراز الخِدِيو عَبَّاس حلمي الثَّاني عندما أنْشَأ ضَريحَ وَالِدِه محمّد توفيق على الطِّراز نفسه (١٨٩٤م) .

واسْتَمَرَّ تَبَنِّي هذا الطِّراز في العَدِيد من المَسَاجِد التي وَضَعَ تَصْمِيمها MARIO ROSSI ، كبير مهندسي وزارة الأوقاف بين سنتي ١٩٢٩-١٩٥٥م : جَامِع عُمَر مكرم وجَامِع الزَّمالِك وجَامِع الطَّبَّاخ وجَامِع صَلاح الدِّين بالمَنْيل[٢] .

ولكن بعد انْدِلاع ثَوْرَة سَنَة ١٩١٩م ظَهَرَ ، إلى جانِب ذلك ، مَيْلٌ جَدِيدٌ إلى إحْيَاء الطِّرَاز المصري الفِرْعَوْني ، باعْتِبارِه مُعَبِّرًا عن الرُّوح المصرية الأصِيلَة ، وتَمَثَّلَ ذلك في العَدِيد من المباني العامَّة التي أنْشِئَت في هذا الوَقْت ولَدَى كبار المَثَّالين كما يُعَبِّر عنه تِمْثال « نَهْضَة مصر » (١٩٢٠-١٩٢٨م) للمَثَّال محمود مختار .

---

[١] N. RABBAT, «The Formation of the Neo-Mamluk Style in Modern Egypt» in M. POLLIACK (ed.), *The Education of the Architect*, Cambridge, Mass., 1997, pp.363-86; I. ORMOS, *Max Herz Pasha (1856-1919). His Life and Career*, Le Caire-IFAO 2009, II, pp.372-400.

[٢] A. SIDKY, *L'œuvre de Mario Rossi au Ministère des waqfs. Une réinterprétation italienne de l'architecture islamique*, pp.65-74.

ثم جَاء « ضَرِيحُ الزَعيم سَعْد زَغْلُول باشا » ، الذي أُنْشِئ ليكون بمثابة مَقْبَرَةٍ للعُظَماء على غِرار الـ Pantheon في باريس لولا اعْتِرَاض السَّيِّدَة صَفِيَّة زَغْلُول ، والذي صَمَّمه مصطفى فهمي (١٩٢٨-١٩٣١م) ليُعَبِّر بوُضُوح عن هذه الرُّوح ، ثم « قَصْر عُثمان محرَّم » (١٩٣٢م) ومَحَطَّة سِكَك حَدِيد الجِيزَة (١٩٣٥م) ونادي الرِّماية بالهَرَم (١٩٤٢-١٩٤٦م) [١] ، وقد تجدَّدَ هذا الطِّرازُ مُؤَخَّرًا في تَصْميم « المحكمة الدُّسْتُورِيَّة العُلْيا » على كورنيش النِّيل بالمعادي (١٩٩٩م) .

كان المُسَاهِمُون في هذه النَّهْضَة المعمارية ، إلى جانب المِعماريين الأجانِب ، مجموعةً من الآباء المُؤَسِّسين لِمِهْنَة العِمَارة الحَدِيثَة في مصر يُمَثِّلهم : محمود فهمي المِعْماري (١٨٥٦-١٩٢٤م) ووَلَده مصطفى فهمي (١٨٨٦-١٩٧٢م) ومن قبلهما صَابِر صَبْري باشا ، المتوفَّى سنة ١٩١٦م ، رئيس مَصْلَحَة الأَوْقاف (١٨٩٢-١٩٠٦م) ومُصَمِّم العَدِيد من مَسَاجِد القاهِرَة على الطِّرَاز المملوكي الجَدِيد .

جَامِعُ الرِّفاعِي

إذا كان جَامِعُ محمد علي باشا بالقَلْعَة يُمَثِّلُ نَمَطًا مُتفَرِّدًا في عِمَارَة المَسَاجِد في مصر ، حَيْث نَقَلَ إلى مصر الطِّرَازَ العُثْماني في بِنَاء المَسَاجِد المُسْتَخْدَم في إستانْبُول والأناضُول دون تَغْيير ، فإنَّ بِنَاءَ « جَامِع الرِّفاعِي » المَوَاجِه لجَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن بمَيْدَان الرُّمَيْلَة أسْفَل القَلْعَة يُمَثِّلُ تَخْطِيطُه الدَّاخِلي مَزْجًا بين عِمَارَة المَسَاجِد المملوكية والمَسَاجِد العُثْمانية . وقد أغْرَىٰ جَامِعُ السُّلْطان حَسَن بضَخَامَته المُهَنْدِس الذي وَضَعَ تَصْمِيمَ جَامِع الرِّفاعِي بمُجَارَاته

---

[١] G. Alleaume & M. Volait, *L'âge des mutations: Les XIX et XX siècles,* pp.426-28.

في العَظَمَة والارْتفاع بحَيْث أصْبَح من أهَمّ الجَوَامِع التي اكْتَمَلَ بناؤها في مَطْلَع القَرْن العِشرين وأحْفَلَها زُخْرُفًا وأتْقَنَها صِنَاعَةً، وهو آخِر المَسَاجِد التي اسْتُخْدِمَت الحِجَارَةُ في بنائها بالكامِل.

وأمَرَت ببِنَاء هذا الجَامِع خُوشْيار هانم وَالِدَة الخِدِيو إسْماعيل، سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، ليكون جَامِعًا كبيرًا في مَوْضِع زَاوِيَة الرِّفاعي التي نُسِبَ إليها الجامِعُ وعُرِفَ بها رَغْم أنَّ الشَّيْخ العارِف بالله أحمد بن علي أبي الحَسَن الرِّفاعي لم يُدْفَن بمصر وإنَّما تُوفِّي ودُفِنَ بقَرْيَة أمّ عُبَيْدَة من أعمال وَاسِط بالعِرَاق سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، وإنَّما المَدْفُون بالزَّاوية أحَد أفْرَاد ذُرِّيته الشَّيْخ على أبي شِبَّاك.

وقامَت السَّيِّدَة خُوشْيار هَانم بشِرَاء الأماكِن المجاوِرَة للزَّاوِيَة وهَدَمَتْها وعَهِدَت إلى حُسَيْن باشا فهمي، وكيل دِيوَان الأوْقاف حينئذٍ، بإعْدَاد مَشْرُوع بناء مَسْجِدٍ كبيرٍ يُلْصَقُ به مَدَافِنُ لها ولأُسْرَتِها وقُبَّتان للشَّيْخَيْن على أبي شِبَّاك ويحيىٰ الأنْصَارِي المَدْفُونين بالزَّاوية. فقد كانت مَدَافِنُ أسْرَة محمد علي قبل ذلك بجوار قُبَّة الإمام الشَّافِعِي وتُعْرَفُ بـ« حُوش الباشا »، وهو مَوْضِعٌ اخْتارَه محمد علي في أعْقاب الوَفاة الفجائية لابْنِه طُوسُون سنة ١٨١٦م، وهو المكان نفسه الذي دُفِنَ فيه الملك فاروق الأوَّل عند وُصُول جُثمانه إلى مصر سنة ١٩٦٥م قَبْل نَقْله إلى جَامِع الرِّفاعي سنة ١٩٧٢م[١].

وبعد مُوَافَقَتها على المَشْرُوع المُقْتَرَح باشَرَ تَنْفِيذه خَلِيل أغَا، ولكن أثْناء سَيْر العَمَل اكْتُشِفَ بعضُ الأخْطاء وحُدُوث تَصَدُّع في عُمُدِه وجُدْرانه تَطَلَّبَ إجْرَاءَ تَعْديلات ممَّا أدَّى إلى تَوَقُّف العَمَل سنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، ثم جَاءَت وَفاةُ

---

[١] الجبرتي: عجائب الآثار ٤: ٤١١-٤١٢؛ G. Wiet, *op. cit.*, pp.259-64; Sh. Johnston, *Egyptian Palaces and Villa, 1808-1960*, pp. 29-33.

المُنْشِئَة، سنة ١٣٠٣هـ/١٨٨٥م، لتُطيل من أمَدِ هذا التَّوَقُّف نحو رُبْع قَرْن، إلى أنْ عَهِدَ الخِدِيو عبَّاس حِلْمي الثَّاني سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م إلى أحمد خيري باشا ناظِر الأوْقاف الخُصُوصِيَّة بإتْمام الجامِع، فكَلَّفَ ماكس هرتس باشا MAX HERZ PACHA باشْمُهَنْدِس الآثار العربية بإعْدَاد مَشْرُوعٍ جديدٍ لإصْلاح الجامِع وإكمال بِنَائِه استَلْزَمَ إدْخَال بعض التَّحْوير في المَشْرُوع القديم تَطَلَّبَ مَجْهودًا جَبَّارًا للمحافَظَة على الوَضْع الذي أرَادَهُ له حُسَيْنْ باشا فهمي. وفي الوقت نفسه تَمَّتَ الاسْتفادَةُ من التَّجْهيزات التي سَبَق إعْدَادُها لبناء الجامِع. فتَمَّ الانْتِفاعُ بالذَّهَب المُسْتَوْرَد من إستانبول وبأعْمال النِّجَارَة المُنَفَّذَة وببعض الكتابات التي أعَدَّها الخَطَّاطُ المعروف عبد الله بك زُهْدِي والتي قامَ بإتْمامها وتَغْيير التَّالِف منها الشَّيخ مصطفى الحَرِيري خَطَّاط السَّرَاي الخِدِيوي.

وبَلَغَت تَكاليفُ إنْشَاء الجامع ٦٣٢,٥٠٠ ألْف جنيه، وتَبْلُغ مِسَاحَتُه ٦٥٠٠ مترًا، الجزء المُخَصَّص منها للصَّلاة ١٧٦٧ مترًا وشَغَلَت المَدَافِنُ ومُلْحَقاتُها بَقِيَّة المِسَاحَة، وافْتُتِح الجامِعُ لصَلاةِ الجُمُعَة في غُرَّة المحَرَّم سنة ١٣٣٠هـ/٢٢ ديسمبر سنة ١٩١١م[١].

---

[١] علي مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٤: ٢٣٧-٢٤٥؛ M. HERZ, *La mosquée el-Rifai au Caire*, Milan 1911؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المَسَاجد الأثرية ١: ٣٦٣-٣٧١؛ MOH. AL-ASAD, «The Mosque of al-Rifâ'i in Cairo», *Muqarnas* X (1993), pp.108-24; I. ORMOS, *Max Herz Pacha (1856-1919). His Life and Career*, II, pp.430-56.

ثانيًا ـ القاهِرَةُ الحَدِيثَة

كان اخْتِرَاعُ وَسَائِل النَّقْل الحَدِيثَة وظُهُورُ السَّيَّارَة (الأُوتُومُوبِيل بمُسَمَّيات العَصْر) ، في عام ١٩٠٣م ، سَبَبًا رَئِيسًا في الإسْرَاع إلى تَغْيير شَبَكَة شَوَارِع الأَحْيَاء الجَديدة وزيادَة مِسَاحَة الشَّوَارع المكْسُوَة بالحَجَر الجامِد وإلى نُمُوّ ضَوَاحِي المَدِينَة . كما أنَّ بَعْضَ الأحْيَاء التي أصْبَحَت وَاقِعَةً في وَسَطِ المَدِينَة مثل حَيّ التَّوْفِيقِيَّة والفَجَّالَة أو الأحْيَاء السَّكَنِيَّة مثل جَارِدْن سِيتي ، أمْكَنَ تَعْمِيرُها بمَعْزِلٍ عن السِّكَكِ الحَدِيدِيَّة والتِّرَام . ولكن ضَوَاحٍ مثل الزَّيْتُون والمَطَرِيَّة في شَمَالِ المَدِينَة لم تَنْطَلِق إلَّا بَعْد إنْشَاءِ خَطِّ سِكَّة حَدِيد كُوبْري اللَّيْمُون ـ المَطَرِيَّة المَرْج (١٣٠٧ـ١٣٠٨هـ/ ١٨٨٩ـ ٩٠م) الذي رَبَطَها بمَيْدَان المَحَطَّة . وتكرَّرَت الظَّاهِرَةُ نَفْسُها مع التِّرَام الذي أُدْخِلَ عام (١٣١٤هـ/١٨٩٦م) ورَبَطَ العَتَبَة الخَضْراء بالعَبَّاسِيَّة ثم بمَنْطِقَة شُبْرَا في عام (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) . وفي عام (١٣١٧هـ/١٨٩٩م) تَمَّ رَدْمُ الخَلِيج المِصْري ليَحِلّ مَحَلَّه خَطُّ تِرَام يَرْبِط حَيَّ الظَّاهِر بالسَّيِّدة زَيْنَب [١] .

وحتَّى نَحْو عام ١٣١٩هـ/١٩٠٠م لم تَتَغَيَّر المَدِينَةُ إلَّا بِبُطْء وبَدَأت المَنْطِقَةُ الوَاقِعَة غَرْبِيّ الأَزْبَكِيَّة تَزْخَرُ بالمَبَاني التُّجَارِيَّة والمَالِيَّة ، وانْتَقَلَ وَسَطُ المَدِينَة التُّجَاري إلى هذه المَنْطِقَة . وإلى الجَنُوب قَليلًا أُقِيمَت الوَزَارَاتُ والمَبَاني الحُكُومِيَّة شَرْقِيّ شَارِع القَصْر العَيْني : وَزَارَة الأشْغَال ومباني الجَمْعِيَة الجُغْرافية والمَجْمَع العِلْمي المصري ، وتَحَوَّلَت أغْلَبُ قُصُور هذه المَنْطِقَة إلى مَقَارٍ للوَزَارَات والإدَارات الحكومية النَّاشِئَة . وفي هذه الفَتْرَة أيضًا بَدَأ نُمُوُّ حَيّ الفَجَّالَة وحَيّ التَّوْفِيقِيَّة الوَاقِعَيْن بين المَدِينَة القَدِيمَة وتِرْعَة الإسْمَاعِيلِيَّة التي رُدِمَت سنة ١٩١٢م .

---

[١] J. Jomier, *EI*² art. *al-Kâhira*, IV, p.462.

وعُهِدَ إلى بَعْض الشَّرِكات الأَجْنبية تَنْفِيذ الأَعْمال التي انْتَقَلَت بالقاهِرَة إلى العَصْر الحَدِيث مثل : الغَاز والكَهْرُباء والمياه والبَرِيد والتِّلِغْرَاف والتِّرَام والتِّليفونات ، وظَلَّ الأمْرُ بأيْدِي هذه الشَّرِكات إلى أنْ استعادَت الحكومَةُ المصريةُ ، نحو عام ١٩٦٠م ، هذه الامْتِيازَات وأَمَّمَت بعض هذه الشَّركات أو عَهِدَت بأنْشِطَتها إلى شَرِكات وَطَنِيَّة .

واسْتَمَرَّت عَمَلِيَّةُ تَحْدِيث القاهِرَة عن طريق إنْشَاء كِبارٍ مَعْدِنية جَدِيدَة على النِّيل في العَقْد الأوَّل للقَرْن العِشْرين : كوبري الرَّوْضَة (١٩٠٤-١٩١٠م) عن طريق شَرِكة Arrol وكوبري بولاق أبي العلاء (١٩٠٨-١٩١٢م) الذي شَيَّدَته شركة Fives-Lille وكوبري الزَّمَالِك (١٩١٢م) ، وحَلَّ كوبري جَدِيد مَحَلّ كوبري البَحْر الأعْمى المعروف كذلك بكوبري الإنجليز (كوبري الجَلاء الآن) نَفَّذته سنة ١٩١٤م شركة كليفلاند Cleveland، ومُدَّ كوبري عَبَّاس بين الجِيزَة والرَّوْضَة سنة ١٩٠٧م (أُعِيدَ بناؤه بين عامَيّ ١٩٦٦-١٩٧٠م) ، وكوْبري الملك الصَّالِح بين الرَّوْضَة ومصر القديمة الذي حَلَّ محَلّ جِسْر المراكِب القَدِيم ، واسْتُبْدِل كوبري الخِدِيو إسْمَاعيل بكوبري جَديد سنة ١٩٣٢م (كوبري قَصْر النِّيل الآن) [١].

واسْتُكْمِلَت هذه العمليَّة بتَنْفِيذ شَبَكة مُمْتَدَّة للصَّرْفِ الصِّحِّي افْتُتِحَ أوَّل مائة كيلومترٍ منها سنة ١٩١٥م ، اعْتِمادًا على مَشْرُوعٍ وَضَعَه قبل ذلك بثمانية أعْوَام Charles Carkeet James الذي نَجَحَ في حَلِّ العَدِيد من المَشَاكِل التِّقْنِيَّة التي فَرَضَتها طُبُوغْرافيةُ القاهرة واسْتِهْلاكُ سُكَّانها الضَّعِيف للمياه الذي أدَّىٰ إلى تأجِيل تَنْفِيذ هذه الأعْمال حتَّى ذلك الوَقْت بالرَّغْم من الدِّراسات المتتالية التي أُجْرِيَت في أعْوَام ١٨٨٢ و١٨٨٥ و١٨٩٠ و١٨٩٣م [٢].

---

[١] فتحي حافظ الحديدي : المرجع السابق ٢٤٩-٢٦٧.

[٢] Jean-Luc Arnaud, *op. cit.*, p.397.

جَارْدِن سيتي GARDEN CITY

بَدَأ حَيّ « جَارْدِن سِيتِي » في الظُّهُور في عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م ، بعد أنْ بَدَأ تَقْسِيمُ الأَرَاضِي وبَيْعها في مَنْطِقَة قَصْر الدُّوبَارة على أثر إقَامَة القُنْصُلية البريطانية التي تَضُمُّ مَجْمُوعَةً من الدُّور المُطِلَّة على النِّيلِ مُبَاشَرَةً ، حيث شُيِّدَت العَدِيدُ من الدُّور الجَمِيلَة وَسَطَ الحَدَائِق على طُول شَوَارِع ذات تَصْمِيم مُسْتَدِير على النَّمَطِ الإنْجليزي .

كان يَشْغَلُ هذه المَنْطِقَة ، المعروفة بِبُسْتَان الخَشَّاب والمَحْصُورَة بين شاطئ النِّيل غَرْبًا والطَّرِيق الوَاصِل بين بُولاق ومِصْر القَدِيمَة شَرْقًا (شَارِع القَصْر العَيْني الآن) ، قَصْرٌ بَنَاهُ في الأَصْل إبراهيم باشا بن محمد علي ، عَقِبَ عَوْدَته من حَرْبِ الشَّام ، أمامَ الطَّرفِ الشَّمَالي لجَزِيرَة الرَّوْضَة تجاه مَضْرِب النَّشَّاب يُعْرَفُ بـ « القَصْـر العالي » ، وهو بذلك أوَّل مَنْ فَكَّرَ في الإقامَة على شاطئ نيل القاهرة بعد إزَالَة تَلّ العَقَارِب المتاخِم له من جِهَة الجَنُوب . وبعد وَفَاة إبراهيم باشا سنة ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م آلَ هذا القَصْر إلى إسْماعيل بن إبراهيم باشا « فغَيَّرَ أكْثَر رُسُومِه الأَصْلِيَّة وَوَضَعَه في قالَبٍ عَجِيبٍ مُزَخْرَف ونَقَشَ حِيطانَه وسُقُوفَه بالذَّهَب المُصَنَّع ، وعَلَّقَ فيه النَّجَف البِلَّوْر المُثَمَّن ووَضَعَ في حِيطانِه الشَّمْعِدَانات البِلَّوْر ، وفَرَشَهُ بأَنْوَاع الفَرْشِ الحَرِير المُقَصَّبَة ثم باعَه إلى والي مصر سَعِيد باشا سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م فزَادَ في زَخْرَفَتِه وبَنَى له فِنَاءً أَمَامَه من الجِهَة الشَّرْقِيَّة وأَوْصَل فَرْعًا من التِّلِغْرَاف إليه » [١].

اسْتَرَدَّ إسْماعيلُ هذا القَصْر بعد تَوَلِّيه السُّلْطَة ووَهَبَه لوَالِدَته خُوشْيَار هانم مع الأَراضي المحيطة بما فيها من المباني ومَصْنَع السُّكَّر سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م ، وأعادَ إسْماعيلُ تَجْدِيدَ القَصْر بعد حُصُولِه على لَقَب « خِدِيو » ونَقَشَ عليه الحَرْفان

---

[١] عبد الحميد نافع : ذيل خطط المقريزي ١٠٥.

الأوَّلان من اسمه KI، كما تَمَّت فيه مَرَاسِمُ أفْرَاحِ الأنْجَال (محمد تَوفيق وحُسَيْن وحَسَن والأميرة فاطمة هانم) بعد ذلك سنة ١٨٧٣م.

ظَلَّ القَصْرُ بيد خُوشْيار هانم، وعُرِفَ لذلك بـ «قَصْر الوالدة باشا»، إلى أنْ عَادَ إلى ملكية الحكومة سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨٠م.

وفي سنة ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م قامَت الدَّائِرَةُ السَّنِيَّةُ ببَيْع القَصْر إلى شَرِكَة شارل باكوس Charles Bacos فقامَت بهَدْمِه وقَسَّمَت أراضِيه وباعَت أنْقَاضَه وأثَاثَه الفاخِر وتُحَفَه الثَّمِينَة إلى كبار الأعْيان، أمَّا وَاجِهَةُ القَصْر فقد نُقِلَت بالكامِل إلى حُوش عائِلَة الوَقَّاد بقَرَافَة المماليك، وما تَزَالُ عليها الأحْرُفُ الأولى من اسْم الخِدِيو KI. وأخَذَت السِّفَارَةُ البريطانيةُ المَوْضِعَ الواقِع على النِّيل مُبَاشَرَةً المعروف بقَصْر الدُّوبارَة وأقامَت مَقَرَّها عليه.

وأُقِيمَ في العام نفسه على مَدْخَل كوبري الإسْماعيلية القديم (كوبري قَصْر النِّيل الآن) «فُنْدُقُ سَمِيراميس» القَدِيم Samiramis Hotel، وهو بذلك أوَّل فُنْدُقٍ يُقَامُ على نِيل القاهِرَة، فقد كانت فَنَادِقُ القاهِرَة الكبرى قَبْل ذلك مثل Le Nationale و Savoy و Grand Continental و Angleterre وفُنْدُق شِبَرْد القديم Shepheard تَقَعُ في مَيْدَان الأوبرا أو عند أطْرَافِ حَدِيقَة الأزْبَكِيَّة أو في مَيْدَان سليمان باشا، وتَوَلَّى تَشْييدَه المهندس السويسري Bucher-Durrer الذي أنْشأ بعد ذلك الشَّرِكَة السُّويسرية المصرية للفَنَادِق.

وتَوَالَى بعد ذلك إنْشَاءُ القُصُور والفيلَّلات في حَيّ جارْدِن سيتي Garden City وما حَوْلَه، التي تَحَوَّل العَدِيدُ منها خِلال القَرْن العِشْرين إلى مَبَانٍ للوَزَارَات أو مَبَانٍ للإدَارَات الحكومِيَّة المُهِمَّة، مثل: قَصْر الأمير كمال الدِّين حسين (متحف وزارة الخارجية الآن أمام جامِعَة الدُّوَل العربية) وقَصْر الأميرة نِعْمَت تَوفيق الذي آل بعد ذلك إلى قُوت القُلُوب هانم الدِّمِرْداشِيَّة وأزيلَ عند حَفْرِ نَفَق كمال الدِّين صَلاح أمام كوبري قَصْر النِّيل سنة ١٩٦٤م، وقَصْر الأميرة عِفَّت حَسَن الذي آلَ إلى

الأميرة شويكار إبراهيم وزَوْجِها سَيْف الله يُسْرِي باشا، وشَغَلَتْه لفَتْرَةٍ قَصِيرَة السِّفَارَة التُّرْكِيَّة (١٩٢٦-١٩٤٠م) قبل أنْ يَتَحَوَّل في سنة ١٩٤٩م إلى مَقَرٍّ لرئاسَة مجلس الوُزَرَاء (بشارع مَجْلِس الشَّعْب الآن)، وتَحَوَّلَ قَصْرُ الأميرة تَوْحِيدَة ابْنَة الخِدِيو إسْماعيل وزَوْجِها مَنْصُور باشا يكن، المعروف بقَصْر الإنْشَا (بشارع إسْماعيل أباظَة في مُوَاجَهَة الوَاجِهَة الجَنُوبية لضَرِيح سَعْد زَغْلُول باشا) ليكون أوَّلًا مَقَرًّا لوزَارة الحَرْبِيَّة ثم اعْتبارًا من عام ١٩٦٤م مَقَرًّا لوَزَارَة الإنْتاج الحَرْبي، وأصْبَحَ قَصْرُ الأميرة فايْقَة ابنة إسْماعيل بالتَّبَنِّي المواجِه له بشارع الفلكي مَقَرًّا لوَزَارَة المَعَارِف العُمُومِيَّة منذ سنة ١٩٣١م (التَّرْبِيَّة والتَّعْليم الآن)، وقصر الأميرة جَمِيلَة إسْمَاعيل الواقِع إلى الغَرب من قَصْر الأميرة فايقة الذي أصْبَحَ مَقَرًّا لوزارة الإسْكان، وهذه القُصُورُ الثلاثة أعِيدَ بناؤها سنة ١٩٠٠م. واتُّخِذَ قَصْرُ الأميرة مُنِيرَة هَانم (بشارع علي يُوسُف الآن) مَقَرًّا للمعهد العِلْمِي الفِرنْسي للآثار الشَّرْقية منذ عام ١٩٠٧. وكان يَطُلُّ على مَيْدَان الإسْماعيلية (القِسْم الجَنُوبي من مَيْدَان التَّحْرير الآن) سَرَاي الإسْماعيلية التي شَيَّدَها إسْماعيل باشا سنة ١٨٧٧م، وأصْبَحَت بعد ذلك مَقَرَّ إقامَة الغازي أحمد مُخْتار باشا المَنْدُوب العُثْماني في مصر (١٨٨٣-١٩٠٩م)، وحَلَّ مَحَلَّها بين سنتي ١٩٥٠-١٩٥٢م مَبْنَى «مُجَمَّع التَّحْرير».

وكان إلى الجَنُوب الغَرْبي من سَرَاي الإسْماعيلية ڤيللا تُعْرَفُ بڤيللا القازْدَاغْلي، بُنيَت في مَطْلَع القَرْن العِشْرين رُبَّما لحساب فيلكس سوارِس ثم آلَت بعد وفاته سنة ١٩٠٩م إلى شَخْصٍ إنجليزي يُدْعَى إيمانويل قازدَاغلي Emanuel Casdagli. وشَغَلت هذه الفيللا بعد ذلك السِّفَارَةُ الأمريكية حتى الحَرْب العالمية الثَّانية، ثم تَحَوَّلَت عند منتصف القرن العشرين إلى مَدْرَسَةٍ تُعْرَفُ بـ «مَدْرَسَة علي عبد اللَّطيف الابتدائية». وتَحَوَّلَ قَصْرُ إسماعيل صِدِّيق المُفَتِّش، ناظِر المالية، المُطِلّ على مَيْدَان لاظُوغْلي وشارع نوبار وشارع مَنْصُور وهو عبارَة عن ثلاثة قُصور مُتدَاخِلَة على الطِّرَاز الفرنسي يتخلّلها حَدَائق، أوَّلًا إلى مَقَرّ لدَواوين المالية

والدَّاخلية والحَقَّانية ، ثم مَقرًا لوزارتي المالية والاقْتِصَاد حتى سنة ١٩٨٥م . أمَّا ملحقات القَصْر الواقعة إلى الجنوب منه فتَشغلها الإدارات التَّابعة لوزارة المالية [١].

ومن قُصُور جاردن سيتي المُهِمَّة كذلك « قَصْر عَدْلي باشا يكن » الذي آل بعد ذلك إلى شريف صَبْري باشا شقِيق الملكة نازلي ، وحَلَّ محلَّه بعد هَدْمِه في مَطْلَع القَرن الحادِي والعِشْرين فُنْدُق The Four Seasons Hotel.

الزَّمَالِكُ والرَّوْضَة

لم يَبْدَأ حَيُّ « الزَّمَالِك » في الإعْمَار إلَّا نَحْو عام ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م عندما اشْتَرَت شَرِكَةُ بِهْلَر Baehler المَنْطقة الشَّمَالِيَّة من الجَزِيرَة وحَوَّلَتْها إلى حَيٍّ رَاقٍ ، فأحَدُ الخَرَائِط التي تَرْجِعُ إلى عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م مُثْبَتٌ عليها شَبَكَةُ الطُّرُق المَوْجُودَة الآن في الزَّمَالِك . وتَمَّ رَبْطُ الزَّمَالِك بجَزِيرَة بُولاق بوَاسِطَة كُوْبري أبي العِلا عام ١٣٣٢هـ/١٩١٢م وبالجِيزة بوَاسِطة كوبري الزَّمَالِك في العام نفسه (وقد أزيلَ هذان الكوبريان الآن وحَلَّ مَحَلَّهما كوبري عُلْوي يُعْرَفُ بكوبري ١٥ مايو يصل كوبري أكتوبر بمَيْدان لُبْنان) .

وتَخْتَلِفُ تَقْسِيماتُ هذه الأحْيَاء الجَدِيدَة عن التقْسِيمات التي تَمَّت في شَمال القاهرة ، فكثافَتُها السُّكَّانية أقلّ وتَتَمَتَّع بشَبَكَة مَرَافِق مَوْرُوثَةٍ عن الحَدَائِق الكبيرة التي أنْشَأها الخِدِيو إسْماعِيل ، وهي أحْسَنُ تَنْسِيقًا حيث زُوِّدَت بشَوَارع عَرِيضَة ومُسْتَقِيمَة تُكَوِّنُ مُجَاوَرات مُقَسَّمَة إلى قِطَع أراضٍ كبيرة تَتَرَاوَحُ مِسَاحَتُها بين ٦٠٠ و ٤٥٠٠ مترًا مربَّعًا ، الأمْرُ الذي سَاعَدَ على انْتِقاء نَوْعِيَّة المُشْترين والسُّكَّان ، فمنذ تأسيس هذه الأحْيَاء لم يُقِم بها سوىٰ أفْرَاد الأرِسْتُقْرَاطية المصرية الذين فَصَلَهُم عن المَدِينَة التَّقْليدية نَهْرُ النِّيل ، كما كان بإمكانهم قَضَاء أوْقاتِ

---

[١] محمد حسام الدين إسماعيل : مدينة القاهرة ٣٢٩ـ ٣٣٤، ٣٣٧ـ ٣٣٩.

فَرَاغِهم على الضَّفَّة اليُسْرَىٰ للنَّهر في الجِيزَة حيث تُوجَدُ منذ عَصْرِ إسْماعيل حَدَائِقُ الأورْمان والحَيَوان ، في الوَقْت نفسه الذي أنْشِئ فيه جَنُوبيّ الزَّمَالِك نادِي الجَزِيرَة الرِّياضي منذ سنة ١٨٨٤م ، وهو نادٍ لا يَرْتادُه سوىٰ الخاصَّة تَشْغلُ مِساحَتُه نحو نِصْف الجَزِيرَة [١].

وبَدَأ في الجَنُوب إعْمارُ جَزِيرَة الرَّوْضَة الذي شَيَّدَ فيها في طَرَفِها الجَنُوبي فؤاد باشا المانِسْتِرْلي ، سنة ١٨٥٥م ، القَصْر المعروف به حَوْل المِقْياس في مَحَلِّ قَصْر الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب وجَامِع أمير الجُيُوش بَدْر الجمالي (مَتْحَف أمّ كلثوم الآن) . كما بَدَأ الأمير محمَّد علي تَوفيق (وَلِيّ عَهْد المملكة المصرية في عَهْدِ الملك فاروق) في تَشْييد قَصْرٍ كبيرٍ على مِسَاحَة ثلاثين فَدَّانًا في الطَّرَفِ الشَّمالي للجَزيرَة سنة ١٨٩٩م افْتُتِحَ سنة ١٩٠٣م وظَلَّ يزيد فيه حتى سنة ١٩٢٩م ، ووَضَع تَصْمِيمَه المهندس المصري محمود فهمي باشا (مَتْحَف قَصْر المَنْيَل الآن) .

وفي الوَقْتِ نفسه بَدَأت تَرْتَسِمُ في غَرْبيّ النِّيل الخُطُوطُ الأولىٰ لإعْمَار إمْبابَة والجِيزَة ، والتي كانت قد بَدَأت منذ عَهْدِ الخِدِيو إسْماعيل بإنْشَاءِ سَرَاي الجِيزَة وحَدَائِق الأورْمان وحَدَائِق الحَيَوان وتَمْهِيد طَرِيق الأهْرَام وبِنَاء قَصْر بولاقِ التَّكْرُور (المَتْحَف الزِّراعي الآن) وفُنْدُق مينا هاوس ثم قَصْر السُّلطان حسين كامل (قَبْل أنْ يتولَّى السَّلْطَنَة) والمُتَبَقي منه فقط الإسْطَبْلات التي تَشْغَلها الآن كليةُ الفُنُون التَّطْبيقية . وكانت الإضَافَةُ المُهِمَّةُ في هذه المَنْطِقَة هي تَشْييد مباني الجَامِعَة المصرية (بين سنتي ١٩٢٨-١٩٣٨) في عَهْد الملك فؤاد الأوَّل .

---

[١] J.-L. ARNAUD, *Le Caire* pp.312-314؛ وانظر كذلك CHAFIKA SOLIMAN HAMAMSY, *Zamalek - The Changing Life of Cairo Elite 1850-1945*, Cairo-AUC 2005؛ فتحي حافظ الحديدي : المرجع السابق ٢٦٩-٢٨٧.

مِصْرُ الجَدِيدَة Heliopolis

وفي الصَّحْرَاءِ الشَّمَالِيَّة الشَّرْقِيَّة للقَاهِرَة بَدَأت ضَاحِيَةُ « مِصْر الجَدِيدَة » Heliopolis في الظُّهُور منذ عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م في أعْقَابِ امْتِيَازٍ مُنِحَ في سنة ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م إلى شَرِكَة بِلْجِيكية يَرْأسها رَجُلُ أعْمَالٍ بِلْجِيكي هو البارُون إدْوارْد امْبَان Le Baron Edouard Empain (١٨٥٢-١٩٢٩م)، حيث باعَت الحُكُومَة المصرية للشَّرِكَة خَمْسَة آلاف و ٩٥٢ فَدَّانًا صَحْرَاوِيًا بسِعْر رَمْزِيّ جُنَيْه وَاحِد للفَدَّان وأنْشأ لهذا الغَرَض في العام التَّالي مع بوغوص أرتين باشا شركة Heliopolis Oases Company لتولّي أعمال تَعْمِير الضَّاحِيَة الجديدة . وفي عام ١٣٢٨هـ/١٩١٠م ازْدَادَت مِسَاحَةُ الامْتِيَاز بِمِقْدَار اثني عَشْر فَدَّانًا إضَافِيَّة . وأنْشِئ خَطُّ تَرَام سَرِيع أُطْلِقَ عليه «المِتْرُو» رَبَطَ الضَّاحِيَة الجَدِيدَة بوَسَطِ المَدِينَة . وكان تَصْمِيمُ المَدِينَة نَفْسه مُسْتَوْحًى من «المُدُن ـ الحَدَائِق» التي شُيِّدَت في أوروبا في نِهَايَة القَرْنِ التَّاسِع عَشْر ومَطْلع القَرْنِ العِشْرِين [١] .

ورَغْم أنَّ بِدَايَة المَشْرُوع سَارَت بِبُطْءٍ في أوَّلِ الأمْر بسبَبِ الأزْمَة التي مَرَّت بها مصر سنة ١٩٠٧م، إلَّا أنَّ حَرَكَة التَّعْمِير أخَذَت في التَّسَارُع وتَمَّ بِنَاءُ ألْفَيّ مَسْكَنٍ خلال خمسة عَشْر عامًا، سنة ١٩٢١م، وألْفَين آخرين حتى سنة ١٩٢٨م، وألْفَين وثلاث مائة مَسْكَن في ثلاث سَنَوات تنتهي سَنة ١٩٣١م. وبَلَغ عَدَدُ سُكَّانِ مصر الجديدة في ذلك الوَقْت ٢٨ ألف و ٥٤٤ نَسَمَة والمِسَاحَة المَبْنِيَّة ثلاثة ملايين مترًا مربَّعًا وَصَلُوا إلى خمسين ألف نَسَمَة سنة ١٩٤٧م، وقامَ المِتْرُو والتَّرَام بنَقْلِ أكثر من عَشْرَة ملايين رَاكِب سنة ١٩٢٥م.

ووَفَّرَت الشَّرِكَة منذ البِدَايَة البِنْيَة الأساسِيَّة الضَّرُورية (المياه والصَّرْف الصِّحّي والكَهْرُباء) وأماكِنَ للعِبَادَة : كَنِيسَة البازِيليك وعِدَّة مَسَاجِد أهمّها جَامِع السُّلْطان

---

[١] R. Ilbert, *Heliopolis. Le Caire 1905-1922. Genèse d'une ville,* Paris 1981؛ وانظر كذلك كتاب : ضاحِيَةُ مصر الجديدة، ماضيها ومستقبلها، القاهرة ١٩٦٩.

حُسَيْنُ كامِل (جَامِع النُّوْرَة الآن) على الطراز المملوكي الجَدِيد ، وعَدَدًا من الفَنَادِق من أهَمِّها جراند بالاس هوتيل Grand Palace Hotel (قَصْر الاتِّحادِيَّة الآن) ومَيْدانًا لسِباق الخَيْل Hippodrome (المريلاند الآن) ونادٍ رياضي Sporting Club ومَلاهِي وملاعِبَ للجُولف وَضَعَ تَصْمِيمَها خَبِيرٌ إنجليزي [١]، وبالطَّبْع مَنازِلَ للإيجار نُفِّذَت تَبَعًا لأنْماطٍ متنوِّعَةٍ ذات طِرَازٍ مُوَحَّدٍ تُناسِبُ الطَّبَقات الاجتماعية المختلفة : فيلَّلات مُنْعَزِلَة ومُتَّصِلَة ، عِمَارَات سكنية ... إلخ. هكذا أصْبَحَت مصر الجديدة (هليوبوليس) بعمارتها المُتَمَيِّزَة أوَّلَ محاولةٍ على مُسْتوى كبير لإشَاعَة ما عُرِف بـ « الطِّرَاز العَرَبِي الجَدِيد » وأيضًا « الطِّرَاز المُورِسكِي » وحَدَّدَ الـ Grand Palace Hotel (قَصْر الاتِّحادِيَّة الحالي) ، الذي تَمَّ بناؤه سنة ١٩١١م بناءً على تَصْمِيم وَضَعَهُ Ernest Jaspar (١٨٧٦-١٩٤٠م) وصَمَّمَ زخَارِفَه على الطِّرَاز المملوكي الجَدِيد Alexandre Marcel، وأيْضًا قَصْر بُوغُوص نوبار باشا الواقع الآن في شارع العروبة المِعْيَار الذي تَمَّ الأخْذُ به .

وإذا كان البارون امبان Le Baron Empain فَرَضَ هذا الشَّكل الجمالي على العَدِيد من مُنْشآت مصر الجديدة الأولىٰ مثل المباني الضَّخْمَة ذات البَوَائك أو المآذِن التي أخَذَت تُمَيِّزُ مصر الجَدِيدَة ، فإنَّه فَضَّلَ أنْ يَبْني مَقَرَّ إقامَتِه المُتَمَيِّز المُشْرِف على الضَّاحِيَة على الطِّرَاز الهِنْدِي (١٩٠٧-١٩١٠م) ، وكنيسَة البازليك ، الواقِعَة في وَسَط سَاحَتِها الرَّئيسَة ، على الطِّرَاز البِيزَنْطِي الجَدِيد (١٩١٣م) . ووَضَع تَصْمِيم هذين البنائَيْن كذلك المعماري الفرنسي Alexandre Marcel [٢].

---

[١] A. Raymond, *Le Caire*, p.322.

[٢] G. Alleaume & M. Volait, *L'âge des mutations: les XIX^e et XX^e siècle*, p.399; A. Van Loo, *Ernest Jaspar à Héliopolis 1906-1916*, p.130؛ وانظر كذلك أجنيسكا دوبروفولسكا : هليوبوليس مدينة الشمس تولد من جديد ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م .

المَعَــادِي

وفي اتِّجَاه الجَنُوبِ نَحْو حُلْوَان ، التي تَبْعُد عن القَاهِرَة ٢٧ كم ، مُنِحَت إحْدَىٰ الشَّرِكَات حَقّ تَقْسِيم الأراضِي على بُعْدِ ١١ كم جَنُوبيّ القَاهِرَة سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م حيث نَشَأت ضَاحِيَةُ « المَعَــادِي » . ولم يَبْق ثابتًا دون تَغْيير سوى حُلْوَان في أقْصَىٰ الجَنُوب التي لم يَتَغَيَّر وَضْعُها إلَّا بَعْد قِيَام ثَوْرَة يولية ١٩٥٢م فحَوَّلَتْها إلى مَرْكَزٍ صِنَاعِي لصِنَاعَة الحَدِيد والصُّلْب والصِّنَاعَات الحَرْبِيَّة [١] .

الأحْيَاءُ القِبْطِيَّة واليهودِيَّة

إذا كَنَّا نَجِدُ المسلمين مُنْتَشِرين في كلِّ أحْيَاء المَدِينة ، فعلى العكس من ذلك تُوجَدُ أحْيَاءٌ بكاملها لا يتواجَدُ فيها نهائيًّا المَسِيحِيُّون الذين اسْتَقَرُّوا في مَنَاطِق تَجَمُّع ثَلاث في الأحْيَاء الجَدِيدَة . كانت أعْلى نِسْبَة تَجَمُّع لهم في هذا الوَقْت في شُبْرَا ، شَمَال خَطّ السِّكك الحديدية المُتَّجه إلى الوَجْه القِبْلي ، حَوْل شارع جَزِيرَة بَدْرَان ، ففي سنة ١٨٩٢م كانت الأراضي الواقِعَة على جانبيّ هذا الشَّارع يمتلكها مَسِيحِيُّون (ولا يُوجَدُ بها أيّ يَهُود) بالرَّغْم من أنَّه لم يكن يُوجَد في جَزِيرَة بَدْرَان ، حتَّى هذا الوَقْت ، أيَّةُ مُنْشآتٍ دينية مسيحية خاصَّة . وكان يُوجَدُ في بولاق ، على الجانِب الآخر من السِّكك الحديدية مَنْطِقَةٌ بها أغْلَبِيَّةٌ مسيحيةٌ من صِغار المُلَّاك المسيحيين الذين تَجَمَّعُوا حَوْل مَدْرَسَةٍ بروتوستاتِينِيَّة أمريكية الأصْل . أمَّا مَرْكَزُ التَّجَمُّع الثَّالِث فكان حَيّ الفَجَّالَة وحيّ الظَّاهِر شَرْقي محطَّة السِّكك الحَدِيدِيَّة على مِسَاحَةٍ أرْحَب تَشْتَمِلُ على العَدِيد من المُنَشآت الدِّينية الطَّائفية : كنائِس وبَطْرَير كيات

---

[١] SAMIR W. RAAFAT, *Maadi 1904-1962, Society & History in Cairo Supurb,* Cairo-Palm Press 1994.

ومَدَارِس إرْسالية كاثوليكية وبروتستانتية وسوريانية ويَسُوعية ... إلخ .

وابتداءً من عام ١٩١٠م بَدَأت تستقرُّ في الأحْيَاء الشَّمالية الجَدِيدَة للمَدِينَة مؤسَّسَاتٌ طائِفِيَّةٌ مسيحية ، وهذه الأحْيَاء ، التي اسْتوعَبَت الأقلِّيَّات الدِّينية ، غير بعيدة من المناطِق ذات الكثافَة المرتفعة في المدينة القديمة . وهكذا امتدَادًا للوَضْع الذي كان قائمًا من قَبْل انْتظم من الشَّرْق إلى الغَرْب أحْيَاءُ اليُونَان واليَهُود والفِرِنْج والأقْباط بين القَصَبَة والأزْبَكِيَّة ، ويَخْتَرِقُ هذه المناطِق شارعا المُوسْكي وكلوت بك المؤدِّي إلى محطَّة السِّكك الحديدية [١].

تَطَوُّرُ حَيِّ الإِسْماعِيلِيَّة

كان التَّغْييرُ الذي شَهِدَه حَيُّ الإسْماعيلية وحَيُّ التَّوْفِيقية في النِّصْف الأوَّل للقَرْن العِشْرين ، تَغْيِيرًا مُتلاحِقًا ، بحيث احْتَفَظَ فقط بالتَّخْطِيط المُسْتمدّ من أفْكار هوسْمان HAUSSMANN والذي تَدُلُّ عليه خَرِيطَة القاهرة التي وَضَعَها جران بك GRAND BEY سنة ١٨٧٤م .

كان الغالِبُ على المباني المُنْتشِرَة بحِيّ الإسْماعيلية حتى سنة ١٨٩٥م الفيلَّلات المُنْعَزِلَة ، بينما أقِيمَت مباني حَيّ التَّوْفيقية ، الواقِع شَمال الطَّريق المُؤَدِّي من الأزبكية إلى بولاق (شارع ٢٦ يولية الآن) والذي قُسِّمَت أراضِيه في مُنْتَصَف الثَّمانينيات ، على خَطِّ تَنْظِيم الشَّوَارِع بحيث ظَلَّت الأجْزَاءُ الخَلْفِيَّةُ للمِلْكِيَّات شَاغِرَةً ، الأمْرُ الذي أتاحَ تَوَسُّعات لاحِقَة في الجُزء الخَلْفِي من قِطع الأراضِي .

وقَبْل انْتِقال سِفارات الدُّوَل الأجْنَبِيَّة واسْتِقْرارها في أحْيَاء جارْدِن سيتي والزَّمَالِك ، كانت قُنْصُلِيَّاتُ الدُّوَل الأوروبية تَشْغَلُ بعض مباني حَيّ الإسْماعيلية

---

[١] JEAN-LUC ARNAUD, *Le Caire* pp.263-64.

ومن أهَمِّها : المُفَوَّضِيَّة الفرنسية La Légation de France التي شَغَلَت منذ سنة ١٨٨٤م فيلًا سان موريس St. Maurice التي وَضَعَ تَصْمِيمها Ambroise Baudry على ناصِيَة شارعيّ المَدَابغ (شريف) وقَصْر النّيل ، والتي أقيمَ في مَوْضِعها بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨م عِمَارَة الإيمُوبيلْيا على مِسَاحَة ٥٤٤٤ مترًا مربَّعًا .

كما كانت تَنْتَشِرُ في هذا الحَيّ أهَمُّ فَنَادِق القاهرة الكبرىٰ مثل : فُنْدُق إدِن بالاس Eden Palace بميدان الخازِنْدَار وفُنْدُق إنجلترا بشارع المغربي (شارع عَدْلي الآن) الذي تَحَوَّل إلى محلّات سنة ١٩٢٩م ، وفُنْدُق سان موريس St. Maurice بشارع قَصْر النّيل الذي هُدِمَ سنة ١٩٣٦م ، وفُنْدُق ڤيللا ڤيكتوريا الذي أقِيمَ بشارع المَدَابغ (شارع شريف الآن) سنة ١٩٠١م ، وفُنْدُق سافوي Savoy Hotel الذي اسْتُكْمِل بناؤه في مَيْدان سليمان باشا سنة ١٨٩٩م وهُدِمَ سنة ١٩٣٤م لتَحِلّ محلّه عِمارَة بَهْلَر Baehler Building من تصميم Leo Nofilyan على ناصِيَة شارعيّ قَصْر النّيل وسليمان باشا (طَلْعَت حَرْب الآن) .

ومع إنْشَاء حَيّ الإسْماعيلية أصْبَحَت العمارَةُ الأوروبية هي المَرْجِعِيَّة الإجْبارية لكلّ المُنْشآت التي أقيمَت فيه مثل قَصْر رَفائيل سَوَارِس في مَيْدَان سَوَارِس (مَيْدَان مصطفى كامل الآن) سنة ١٨٧٧م والذي أصْبَحَ شَركة الرَّهْن العقاري المصري ثم حَلَّت محلَّه في سنة ١٩٣٦ عِمارة عزيز بحري ، وقَصْر الأمير سَعِيد حَليم باشا الذي صَمَّمَه المهندسُ الإيطالي Antonio Lasciac، بشارع الأنْتكخانة (١٨٩٦-١٩٠٠م) (أصْبَح المَدْرَسَة النَّاصِريَّة فيما بعد) . وأخَذَت العَمَائِرُ الفَخْمَة على الطِّرَاز الباريسي تَحِلّ تَدْريجيًا وبخُطىً سَرِيعَة ، اعْتبارًا من عام ١٨٩٥م ، محلّ ڤيلّات حَيّ الإسْماعيلية : كلوب محمد علي (النَّادي الدِّبْلُوماسي الآن) سنة ١٨٩٩م ، وعِمَارات الخِدِيوي التي أنْشَأها الخِدِيو عبَّاس حلمي الثَّاني على نَفَقَته الخاصَّة عند نهاية شارِع عِمَاد الدِّين ، وتُعَدُّ أكبر مُجَمَّع تُجاري وسكني بهذا المِقْياس وبهذه الفَخامَة في القاهرة الحَدِيثة ، ووَضَعَ تَصْميمَها Gustave Brocher

(١٩١٠-١٩١٣م) وعِمَارَة DAVIES-BRYAN التي صَمَّمَها ROBERT WILLIAMS (١٩١١م) على ناصية شارعي محمد فريد وعبد الخالق ثروت . وتتواجَدُ العمارةُ الفرنسية كذلك بوضُوح في المحلَّات التجارية الكبرىٰ GRANDS MAGAZINS التي بَدَأت في الظُّهور في العَقد التَّالي : محلَّات OROSDI-BACK عُمَر أفَنْدي (١٩٠٨-١٩٠٩م) من تَصْمِيم RAOUL BRANDON ومحلَّات سَمْعان وسليم صيدْناوي SEDNAOUI (١٩١٣م) بمَيْدَان الخازِنْدَار ومحلَّات VICTOR TIRING في مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء (١٩١٢-١٩١٣م) من تصميم OSCAR HAROVITZ على نَمَطِ محلَّات Primtemps و Galeries Lafayette و Au Bon Marché في باريس .

ونَجِدُ كذلك تأثيرًا للعمارة النِّمْسَاوية يتَجَلَّى في إنْشَاء « المَعْبَد اليَهُودِي » Synagoge في شارع المغربي (شارع عَدْلي الآن) (١٩٠٥-١٩٠٧م) وهو من تَصْمِيم المهندس EDOUARD MATASEK.

وتَبَدَّل شَكْلُ هذا الحَيّ وطَبِيعَةُ الأنْشِطَة التي مُورِسَت فيه مع نهاية الحَرْب العالمية الأولىٰ ، حيث أصْبَحَ المركزَ التُّجارِيّ للمَدِينَة وبَدَأت المَصَارِفُ والبُنُوكُ تَتَّخِذُ مَوَاضِعَ مُهِمَّة فيه : البَنْك العقاري المصري Crédit foncier égyptien سنة ١٩٠١م (المَصْرَف العربي الدَّوْلي الآن) على ناصِية شارعَيّ محمد فريد وعبد الخالِق ثَرْوَت ، والبَنْك الأهْلِي المصري سنة ١٩٠٠م عند ناصِيَة شارعَيّ المَدَابِغ (شريف الآن) وقَصْر النِّيل وأدْخِلَت عليه تَعْدِيلاتٌ مهِمَّة وإضَافَةُ طابق سنة ١٩٤٨م (البَنْك المركزي الآن) ، وبَنْك مصر بشارع محمد فريد سنة ١٩٢٥م ، وأضِيفَت مع الوَقْت محلَّاتٌ تجارية مُهِمَّة إلى حيّ الإسْماعيلية : محلَّات شَمْلا CHEMLA وشيكوريل CICUREL وجاتِينْيُو ودَاوُد وعَدْس ، وجَمِيعُها كان يمتلكها اليَهُود ، وكذلك المقاهِي والمَطَاعِم الكبيرة Restaurant على الأسلوب الفرنسي مثل محلَّات جروبي Groppi (مَيْدَان سليمان باشا) ، ومع دُخُول فَنّ السِّينما إلى مصر بَدَأت دُورُ العَرْض السينمائي الأولىٰ تَعْرِفُ طريقَها إليها في هذا الحَيّ : سينما ديانا (١٩٣٢م) وسينما مترو Metro (١٩٣٩م) .

عَهْدُ الملك فؤاد وتَشْييدُ

المُنْشـآتُ العامَـة

لم تَبْدَأ مَباني المُنْشَآت العامَّة في الظُّهور بشَكْلٍ مُتَوَاتِر إلَّا مع دُخُولِ التَّحْدِيث إلى مصر وبِدَايَة الحَيَاة النِّيابية سنة ١٨٦٦م ونَشْأة النُّظارات (الوزارات) في سنة ١٨٧٨م، فأُنْشِئَت مَبَانٍ مُسْتَقِلَّة للوَزَارَات من أقْدَمِها مَبْنَى وَزَارَة الأشْغَال العُمُومِيَّة سنة ١٨٨٠م بشارع الشيخ رَيْحان (أُلْحِق ابتداءً من عام ١٩٩٠م بمجلس الشَّعْب)، ووَزَارَة الأوْقاف بباب اللُّوق سنة ١٨٩٩م.

وفي سنة ١٨٩٦م بدأ الاهْتمامُ بإنْشَاء مَتْحَفٍ يَضُمّ آثار مصر القديمة الضَّخْمَة، حيث أنْشئ «المَتْحَفُ المصري» القائم إلى الآن في الطَّرَفِ الشمالي لمَيْدَان الإسماعيلية (التَّحْرير الآن) بين سنتي ١٨٩٦-١٩٠٢م، وهو أوَّلُ بناءٍ في القاهِرَة أخْضِعَ تَصْميمُه لمسابَقَةٍ دَوْلِيَّة وجَاءَ على طِرَاز الفُنُون الجميلة Beaux-Arts الذي يَرْجِعُ الفَضْلُ فيه إلى Marcel Dourgnon. وفي الوقت نفسه تم تَشْييدُ مَبْنًى مستقلّ يحوي الكُتُبْخانَة الخِدِيوِيَّة ودَار الآثَار العَرَبِيَّة على الطِّراز المملوكي الجَدِيد في مَيْدَان باب الخَلْق (١٨٩٨-١٩٠٤م) انْتَقَلَت إليه الكُتُبْخانَة بعد أنْ اسْتَمَرَّت نحو ثلاثين عامًا في سَرَاي الأمير مصطفى فاضِل بدَرْبِ الجمامِيز (حَلَّ مَحَلَّها الآن المَدْرَسَةُ الخِدِيوية)، وبعد أنْ كانت دَارُ الآثار تَشْغَلُ صَحْنَ جَامِع الحاكِم عند باب الفُتُوح[1].

---

[1] راجع للمؤلِّف: دار الكتب المصرية تاريخها وتطوُّرها، بيروت - أوراق شرقية ١٩٩٦م، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٥م.

ولكن مع إعْلان إنْهَاء الحماية على مصر وخِلال فَتْرَة حُكْم الملك فؤاد (١٩٢٢-١٩٣٦م) كانت هذه الفَتْرَةُ من أغْنَى فَتَرَات التَّاريخ المصري الحدِيث في إنْشَاء المباني العامَّة ذَات الطُّرُز المتَمَيِّزَة، التي كان أوَّلها إنْشَاء مَبْنَى «البَـرْلَمان» سنة ١٩٢٣م بعد إقْرَار أوَّل دُسْتُورٍ لمصر وبَدْءِ الحياة النِّيابِيَّة في طَوْرِها الثَّاني، وهو المَبْنَى نفسه الذي تَحَوَّل اسْمُه، سنة ١٩٥٨م، إلى «مَجْلِس الأمَّة» ثم اعتبارًا من سنة ١٩٧١م إلى «مَجْلِس الشَّعْب». وفي العام نفسه أعْلِنَ عن مُسابَقَةٍ دَوْلِيَّة لتَصْمِيم مبنىٰ «المحاكِم المُـخْتَلَطَة»، التي كانت تُوجَدُ حتى هذا الوَقْت في قَصْر عبَّاس الأوَّل المُتَهالِك بالعَتَبَة الخَضْرَاء، والذي هُدِمَ أثْنَاء تَطْوير المَيْدَان وفَتْح شارع الأزْهَر (١٩٢٣-١٩٣٠م)، ومع انْتِهَاء العَمَل بالمحاكم المُخْتَلَطَة تَحَوَّلَ اسْمُ المبنى في نهاية سنة ١٩٤٩م إلى «دَار القَضَاء العالِي» وشَغَلَتْهُ محكمةُ الاسْتِئْناف ومحكمةُ النَّقْض. ويقعُ هذا المبنىٰ ذو الطِّرَاز المُتَمَيِّز في شارع فؤاد الأوَّل (شارع ٢٦ يولية الآن) عند الْتِقائِه مع شارع رَمْسيس. وأُنْشِئ بجواره في الوَقْت نفسه مَبْنًى آخَر خُصِّصَ لـ «مَصْلَحَة الشَّهْر العقارِي» سنة ١٩٢٦م، مَدْخَلُه من شارع رَمْسيس.

وفي سنة ١٩٢٨م أُنْشِئَ في شارع الملكة نازلي في مُوَاجَهَة مَصْلَحَة الشَّهْر العقاري مَبْنى «الجَمْعِيَّة الملكية المصرية للقانُون والتَّشْريع» ومَبْنَى «الجَمْعِيَّة المصرية للحَشَرات»، ثم مَبْنَى «مَصْلَحَة الكيمْياء» في سنة ١٩٣٤م.

كان أهَمُّ هذه المَشْرُوعات، دون شك، مَبْنَى «الجامِعَة المصرية» (جَامِعَة فؤاد الأوَّل ثم جامِعَة القاهِرَة الآن) والذي يَنْقَسِم إلى قِسْمَيْن: قِسْم بالجِيزَة (١٩٢٥-١٩٣٧م) يَشْمَل كُلِّيات الآدَاب والحُقُوق والعُلُوم والمكتبة المركزية والقاعَة الكبرىٰ، وقِسْم آخر في شَمَال جَزيرَة الرَّوْضَة في مُوَاجَهَة قَصْر الأمير محمد علي تَوْفيق (قَصْر المَنْيَل)، ويَشْمل كلية الطِّبّ ومستشفى القَصْر العَيْني (١٩٢٨-١٩٣٧م)، إضَافَةً إلى مَبْنَى كلية الفُنُون التَّطْبيقِية بالعَبَّاسِيَّة (١٩٢٩-١٩٣٢م) والذي تَشْغَله الآن كليةُ الهَنْدَسَة بجامِعَة عَيْنْ شَمْس.

مَيْدَانُ العَتَبَة الخَضْرَاء

مع اسْتِمْرار نُمُوِّ المَدِينَة في أعْقابِ الحَرْبِ العالَمِيَّة الأولىٰ كان لابُدَّ من تَطْوِير مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء الذي يَفْصِلُ بين المَدِينَة القَدِيمَة والمَدِينَة الحَدِيثَة، فاتُّخِذَ قَرَارٌ في عام ١٣٢٤هـ/١٩٢٣م بفَتْح طريقٍ يَرْبِطُ العَتَبَة الخَضْرَاء بالأزْهَر شَرْقًا وآخَر يَرْبِطُ العَتَبَة الخَضْرَاء بشَمَال المَدِينَة عند باب الفُتُوح والحُسَيْنِيَّة (وهُمَا مَشْرُوعان سَبَقَ التَّفْكِيرُ في الأوَّل في زَمَنِ الحَمْلَة الفرنسية، ويَظْهَرُ أثَرُ الثَّاني على خَرِيطَة جران بك) وإعَادَة تَخْطِيط مَيْدان العَتَبَة الخَضْرَاء. فتَمَّ هَدْمُ المحكمة المُخْتَلَطَة القَدِيمَة، التي كانت تَشْغَلُ قِسْمًا من سَرَاي العَتَبَة الخَضْرَاء التي أقامها عَبَّاسُ باشا الأوَّل لوَالِدَتِه، وكانت تَفْصِلُ بين مَيْدَان العَتَبَة الخَضْرَاء ومَيْدَان أزْبَك، وبعد هَدْمِها ضُمَّت أرْضُها إلى أرْض المَيْدَانين فنَتَجَ عنها «مَيْدَانُ العَتَبَة الخَضْرَاء» (أُطْلِقَ عليه لبعض الوَقْت مَيْدَانُ الملكة فَرِيدَة). وتَمَّ افْتِتاحُ شَارع الأزْهَر وشَارِع الأمير فارُوق (شَارِع الجَيْش الآن) في سنة ١٩٣٠م. وأصْبَحَ هذا المَيْدَانُ مَرْكزَ الْتِقاء خُطُوطِ تَرَام القاهِرَة ويَتَفَرَّعُ منه عَدَدٌ كبيرٌ من شَوَارِع المَدِينة الرَّئيسة: شَارِع الملكة فَرِيدَة وشَارِع عبد العَزِيز وشَارِع محمد علي وشَارِع الأزْهر وشَارِع المُوسْكي وشَارِع فاروق (شَارِع الجَيْش الآن)، وأصْبَحَت تَطِلُّ عليه مجموعةٌ من المباني المُهِمَّة: البُوسْتَة العُمُومِيَّة ومَبْنَى الضَّبْطِيَّة (١٩٠٦م) (المطافئ الرَّئيسة الآن) ومَسْرَح الأزْبكية وعِمَارَة ماتاتْيا التي أُقِيمَت خَلْف دار الأوبْرا مَوْضِع السِّيْرك في نهاية القَرْن التَّاسِع عشر (أزيلَت الآن وحَلَّ مَحَلَّها مَنْطِقَةٌ خَضْرَاء شَرْق جراج الأوبرا) إضافَةً إلى لوكانْدَة البَرْلَمان، أحَد أقْدَم فَنَادِق القاهِرَة، على ناصِية شارع الأزْهَر يَرْجِعُ تأريخها إلى سنة ١٨٩٥م. وفي الوَقْتِ نفسه، ومع فَتْح شَارع الأزْهَر، تَمَّ إيجادُ مَيْدَانٍ وَاسِعٍ بين الجامِع الأزْهَر والمَشْهَد الحُسَيْنِيّ أُقِيمَ على قِسْمٍ منه مَبْنَىٰ إدَارَة الأزْهَر قَبْل انتقاله إلى الدَّرَّاسَة في مَطْلَع القرن الحادِي والعشرين،

وأُنْشِئ على الجانِب الأيْمَن للشَّارِع شَرْقي الجامِع الأزْهَر ثلاثُ مبانٍ على الطِّرَاز المملوكي الجَدِيد شَغَلَتها لأوَّلِ مَرَّة كُلِّيَّاتُ اللُّغَة العَربيَّة والشَّرِيعَة وأُصُول الدِّين التَّابِعَة للأزْهَر، بعد أنْ كانت دُرُوسُها تُلْقىٰ دَاخِل حَرَم الجامِع الأزهر نفسه.

واتُّخِذَ قَرَارٌ، في عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، بتَوْسِيع «شارع الخَلِيج المِصْري» ليَبْلُغ عَرْضُه أرْبَعين مترًا في المَسَافَة بين السَّيِّدَة زيْنَب وباب الشَّعْرِيَّة، أدَّى إلى إزَالَة صَفٍّ المباني التي تَبَقَّى منها الآن ويَدُلُّ على مَوْقعها: جَامِعُ القاضي يحيىٰ زَيْن الدِّين (عند تقاطُعِه مع شارع الأزْهَر) وجَامِع يُوسُف الحِين في مَيْدَان باب الخَلْق، أُنْجِزَت المَرْحَلَةُ الأولىٰ الوَاقِعة بين ميدان السَّيِّدَة زيْنَب ومَيْدَان باب الخَلْق (مَيْدَان أحمد ماهِر) في العَهْدِ الملكي، ثم استكملت حكومَةُ الثَّورَة المَرْحَلَة الثانية الممتدَّة من مَيْدَان أحمد ماهر إلى غَمْرَة سنة ١٩٥٦م وأدَّت إلى إزَالَة الكثير من المباني القديمة أهَمّها سُوق بين السُّورَيْن، وجامع الحِفْني، وأُطْلق على الشَّارِع في سنة ١٩٥٧م اسْم «شارع بُورسَعِيد».

تَنْمِيَةُ الضَّفَّة الغَرْبِيَّة للنِّيل

كانت ضَفَّةُ النِّيل المُوَاجِهَة للجَزِيرَة الوُسْطىٰ مُغَطَّاة بالحُقُول الزِّراعية حتى فَتْرَة ما بين الحَرْبَيْن، ثم بَدَأت تَظْهَرُ فيها عند نهاية الحَرْب الثَّانية بعد تَقْسيم أراضيها العَدِيدُ من الأحْيَاء السَّكَنِيَّة الحَدِيثَة التي أفْرِدَت لشَرَائِح من المِهَنيين الجُدُد (المُهَنْدِسِين ـ الصَّحَفِيين ـ المُعَلِّمين) فنَمَت بذلك أحْيَاءٌ جَدِيدَة مثل الدُّقِّي والعَجُوزَة، خاصَّةً بعد إقامَة مُنْشآت مهمَّة بها مثل: وَزَارَة الزِّرَاعَة في قَصْر بولاق التَّكْرُور (١٩٣٢م) ومسْتَشْفىٰ الجَمْعِيَّة الخَيْرِيَّة الإسْلامية (مُسْتَشْفَىٰ العَجُوزَة).

ثالثًا : القاهِرَة المُعَاصِرَة

حَمَلَ شهر يناير سنة ١٩٥٢م أحْدَاثًا أَلِيمَةً للقاهِرَة ، وعلى الأَخَصّ القاهِرَة الإِسْماعيلية . ففي أعْقابِ المُوَاجَهات التي تَمَّت بين الفِدائيين المصريين والقُوَّات البريطانية في مَدِينَة الإسْماعيلية غَدَاة إلْغَاء المُعَاهَدَة المصرية البريطانية وَقَعَ « حَرِيقُ القاهِرَة » في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢م لأسْبابٍ ما تَزَالُ غامِضَة ، أحْرَقَ المُتَظَاهِرُون كلَّ ما يمثِّل الاحْتِلال الأجْنَبِي والسَّيْطَرَة الغَرْبية في وَسَطِ المَدِينَة . ففي غُضُونِ ساعات أضْرَمَ المُتَظاهِرُون النِّيران في مَيْدَان الأوبرا وشارع إبراهيم (الجمهورية الآن) وشارع فؤاد (٢٦ يولية الآن) وشارع عَدْلي وشارع عبد الخالق ثَرْوتَ وشارع قَصْر النِّيل ومَيْدَان مصطفى كامل وشارع سليمان باشا وشارع شريف وشارع عماد الدِّين وشارع البُسْتان وشارع البُورْصَة الجَدِيدَة وميدان التَّوفيقية وشارع شامبليون ومَيْدَان الإسْماعيلية (التَّحْرير الآن) ، أي أنَّ الحَرِيقَ اسْتَهْدَفَ القاهِرَة الإسْماعيلية بمبانيها البَديعَة وعمارتها الأوروبية ذات الطِّرَاز المُتَمَيِّز .

وقُدِّرَ مجموع الخَسَائِر التي خَلَّفَها الحريقُ في نَحْو سِتّ سَاعَات (١٢ ظُهْرًا - السَّادِسَة مَسَاءً) بأكثر من سَبْع مائة حَرِيق ، شَمِلَت ثَلاثَة عشر فُنْدُقًا (من بينها شِبَرْد ومتروبوليتان وفيكتوريا) وأرْبَعين دَارًا للعَرْض السينمائي (من بينها ريڤولي ومترو وراديو ودَيانا وميامي ومتروبول) وثَلاثَة وسبعين مَقْهىً (بينها الأمريكين وجروبي) وسِتَّة عَشْر نادٍ (بينها كلوب محمد علي والنَّادي اليوناني والترفّ كلوب الإنجليزي ونادي رمسيس) وأكثر من ثلاث مئة مَحَلّ تجاري (بينها سلسلة المحلَّات اليهودية آنذاك : شَمْلا وشيكوريل وداود وعَدْس ...) وثلاثين شركة كبرى و ١١٧ مكتبًا وعَشْرَة محلَّات لبَيْع السِّلاح واثنين وتسعين بارًا وثمانية مَعَارِض للسَّيّارات وبنك باركليز Barclays الإنجليزي ، الأمْر الذي شَلَّ جِهَاز

الإطْفَاء في القاهِرَة ضَعِيف الإمكانات في هذا الوَقْت، وقَصَدَ إلى تَشْتِيت جُهودِه في عَشْرَات الاتجاهات وإفْشَال مُهِمَّته حتَّى قَبْل أنْ تَبْدَأ حَيْث كانت تُقَطَّعُ خَرَاطِيمُ الحريق أثناء عَمَلِيَّة الإطْفَاء.

قُدِّرَت الخَسَائر البَشَرِيَّة للحَريق بوَفاة ستة وثلاثين شَخْصًا وإصَابة اثنين وخمسين وخمس مائة بجُرُوح وتَشْرِيد آلاف العامِلِين في المُنْشَآت المُحْتَرِقَة، أمَّا الخَسَائِرُ المادِّيةُ فقَدِّرَت بمائة مليون جنيه وهو رَقَمٌ ضَخْمٌ في هذا التأريخ [1].

أدَّىٰ هذا الحادِث الذي صَدَمَ المدينة إلى إقالَة آخر حكومَةٍ وَفْدِيَّة وعَجَّلَ بالانْقِلابِ الذي قادَه الضُّبَّاطُ الأحْرَار في ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢م وكان من نتائجه عَزْل الملك فارُوق ثم إعْلان الجمهورية في يونية سنة ١٩٥٣م والدُّسْتُور المُؤَقَّت في ديسمبر من العام نفسه، مُعْلِنين بذلك عن قِيام نِظامٍ جَدِيدٍ تمامًا أحْدَثَ تَغْيِيرات جِذْرية في النِّظَام السِّياسي والاقْتِصادِي والاجْتِماعي والتَّوَجُّهَات الرَّئيسَة للدَّوْلَة حَلَّ محلَّ النِّظَام الذي اسْتَمَرَّ قُرَابَة القَرْن ونِصْف القَرْن.

*

* *

شَهِدَت القاهِرَةُ في السَّنَوات العَشْر الأولىٰ من حكم النِّظام الجَدِيد إنْجازاتٍ مُهِمَّة في عَمَلِيَّات الإعْدَاد والإنْشَاء التي تَوَلَّتها وَزَارَةُ الشُّئون البَلَدِيَّة والقَرَوِيَّة بقيادة عبد اللَّطيف البَغْدَادي، أحد أعْضاء مجلس قيادَة الثَّوْرَة. كان أحَد أوائِل هذه الإنْجازات تَنْفِيذ مَشْرُوع «كورْنِيش النِّيل» الذي افْتُتِح في ٢٤ يولية سنة ١٩٥٦م على مَسَافَة أربعين كيلومترًا من بَشْوس شَمالًا حتى حُلْوان جَنُوبًا. وتَمّ تَنْفِيذُه على

---

[1] راجع عن هذا الحريق دراسة محمد أنيس المهمّة: حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢ على ضوء وثائق تنشر لأوّل مرّة، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢م؛ وجمال الشَّرْقاوي: أسْرَار حريق القاهرة في الوثائق البريطانية، القاهرة ـ دار شهدي للنَّشْر ١٩٧٥م.

مرحلتين: الأولىٰ من رَوْض الفَرَج إلى أثَر النَّبِي بمصر القَدِيمَة، والثَّانية من أثَر النَّبِيّ إلى حُلْوَان. وأدَّىٰ إنْشَاءُ هذا الطَّريق الجَدِيد، الذي أوْجَد مِحْوَرًا مُرُوريًّا سَرِيعًا جَدِيدًا للسَّيارات، إلى هَدْم مَبَانٍ كثيرة كانت تَعْتَرِضُ مَساره، أهمّها: المَطْبَعَة الأميرية والوِرَش الأميرية ببُولاق وقَصْر سَعِيد باشا (قَصْر النِّيل) وحَدِيقَة السِّفَارَة البريطانية بقَصْر الدُّوبارَة وصَوَامِع الغِلال بسَاحِل أثَر النَّبيّ، بحيث أصْبَحَ للقاهِرَة لأوَّل مَرَّة وَاجِهَةٌ تُطِلّ مُبَاشَرَةً على النِّيل.

وأدَّىٰ إخْلاءُ الإنْجليز لمَوَاقِعِهم على الضِّفَّة الشَّرْقية للنِّيل في ٢٨ مارس سنة ١٩٤٧م وإزالَة ثُكْنات قَصْر النِّيل إلى إنْشَاء وَاحِدٍ من أكبر وأجْمَل مَيادِين القاهِرَة حَلَّ مَحَلَّ مَيْدَان الإسْماعيلية القديم، أُطْلِقَ عليه منذ عام ١٩٥٣م «مَيْدَان التَّحْــرير»، أقِيمَت حَوْله مُنْشَآتٌ دَوْلِيَّة وحكوميَّة مهمَّة: فُنْدُق هِيلْتُون النِّيل (١٩٥٥-١٩٥٩م)، وجَامِعَة الدُّوَل العربية (١٩٥٥-١٩٦٠م)، إضَافَةً إلى المباني القائِمة بالفِعْل: المَتْحَف المِصْري (١٩٠٢م) ومُجَمَّع المَصَالِح الحكومية (١٩٥٠-١٩٥٢م) ومَبْنَى وَزَارَة الخارِجيَّة (قَصْر الأميرة نِعْمَت كمال الدِّين حسين) ومَبْنَى الجامعة الأمريكية (قَصْر نِسْتُور جاناكليس).

كانت تَتَوَسَّط المَيْدَان من جهته الجنوبية، في مُوَاجَهَة كوبري قَصْر النِّيل، قاعِدَةٌ لتمثال أقامها الملك فاروق كان سيعتليها تِمْثَالٌ لجَدِّه الخِدِيو إسْمَاعيل - الذي كان يُنْسَبُ إليه المَيْدَان - وكانت ستقامُ في مُوَاجَهَته عند مَيْدَان عابدين قاعِدَةٌ أخرىٰ تُخَصَّصُ لتمثالٍ لوَالِدِه الملك فؤاد. وظَلَّت قاعِدَةُ مَيْدَان التَّحْرير شَاغِرَة حتى أزيلَت بعد اكتمال تَنْفِيذ المَرْحَلَة الأولىٰ من مَشْرُوع مترو الأنْفاق سنَة ١٩٨٧م وإعَادَة تَخْطِيط المَيْدَان.

ووَجَّهَت حكومَةُ النِّظام الجَدِيد اهْتِمامَها كذلك إلى تَطْوير سَائِر مَيادِين القاهِرَة، وعلى الأخَصّ «مَيْدَان المَحَطَّة»، فهَدَمَت العَدِيدَ من الأبْنِيَة الواقِعَة في غَرْبي المَيْدَانِ ونَقَلَت حَلْقَة السَّمَك، التي كانت تُجاوِرُ مَبْنَىٰ هَنْدَسَة السِّكَّة

الحَدِيد ، إلى مكانٍ جَدِيد في مَنْطِقَة غَمْرَة (نُقِلَ الآن إلى مَدِينَة العُبُور) ممَّا زَادَ في مِسَاحَة المَيْدَان ، ومُدَّ في وَسَطِه مُتَنَزَّهًا تتوَسَّطُه نافُورَةُ مياه ، كما نُقِلَ إليه تِمْثالُ رَمْسِيس الثَّاني من البَدْرَشِين ليَحِلَّ مَحَلَّ تمثال نَهْضَة مصر الذي اتَّخَذَ مَوْقِعًا جَدِيدًا أمامَ جَامِعَة القاهِرَة في الجِيزَة ، وعُرِفَ المَيْدَانُ منذ هذا التأريخ بـ «مَيْدَان رَمْسِيس» وأُطْلِقَ على الشَّارع الذي يَمُرُّ به «شَارع رَمْسِيس» بَدَلًا من «شارع الملكة نازْلي» (تَمَّ رَفْعُ التِّمثال سنة ٢٠٠٧م ونُقِلَ إلى مَوْقِع المَتْحَف المصري الكبير في أوَّل طريق الفَيُّوم) .

ولتَيْسير حَرَكة التَّنَقُّل في حَيّ الإسْماعيلية (وَسَط البَلَد الحالي) تَمَّ نَزْعُ قُضْبَان خُطُوط التَّرَام التي كانت تَخْتَرِقُ شارع فؤاد وشارع عماد الدِّين ، ومُدَّ شارعُ فؤاد (شارع ٢٦ يولية) من جهة الشَّرْق ليَخْتَرِق حَدِيقَة الأزْبَكيَّة ويَتَّصِلُ بمَيْدَان العَتَبَة ، كما أقِيمَ على أرْضِ قِسْمٍ من الحَدِيقَة مَبْنَىٰ سِنْترال الأوبْرا المُطِلّ على مَيْدَان الخازِنْدَار .

وفي سنة ١٩٥٨م تَمَّ فَتْحُ طريقٍ جَدِيدٍ شَرْقي المَدِينَة يَصِلُ ضَاحِيَة مصر الجَدِيدَة بمَنْطِقَة القَلْعَة عُرِفَ بـ «طَرِيق صَلاح سَالِم» ليَتَّصِلَ بطريقٍ آخَر يَصِلُ بين فَمِ الخَلِيج ومَنْطِقَة السَّيِّدَة عائِشَة في حَيّ الخَلِيفَة ، ومُدَّ كوبري جَدِيد يَصِلُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بين شَارِع القَصْر العَيْني والمَنْيَل وجَامِعَة القَاهِرَة على الضَّفَّة الغربية للنِّيل ، جاء أطْولَ كباري القاهِرَة إذْ يَبْلُغُ طُولُه ثمان مائة مترًا وعَرْضه ثلاثين مترًا أُطْلِقَ عليه «كوبْري الجامِعَة» .

وشُيِّدَ بمَنْطِقة ماسْبِيرُو على كورْنيش النِّيل «مَبْنَىٰ التِّلِيفِزْيُون» المصري ، فأصْبَحَت مصر بذلك أوَّلَ دَوْلَةٍ أفريقِيَّة تُدْخِلُ هذا الجِهَاز الإعْلامي الجَدِيد ، وشَهِدَ هذا المَبْنَىٰ ، الذي افْتُتِحَ في يولية سنة ١٩٦٠م ، إضافات كثيرة وعلى الأخَصّ في العشرين عامًا الأخيرة ، كما نُقِلَت إليه الإذَاعَةُ المصرية بعد أنْ ظَلَّت قابِعَةً في شارع الشَّرِيفين في وَسَطِ المدينة أكثر من أربعين عامًا .

وفي سنة ١٩٦١م أصْبَح للقاهِرَة بُرْجٌ يُشْرِفُ على أنْحَاء المَدِينة ، حَيْث شُيِّدَ في أرْض الجَزِيرَة «بُرْجُ القاهِرَة» بارتفاع ١٨٧ مترًا ، وهو من تَصْمِيم المهندس نَعُوم

شَبيب الذي سَبَق له بناء أوَّل ناطِحَة سِحاب في القاهِرَة سنة ١٩٥٨م ، «عِمَارَة بلْمُونت» بارتفاع ٣١ طابقًا على كورْنيش النِّيل بجاردن سيتي [١].

وبُدِئ قَبْل ذلك بثَلاثَة أعْوَام بتَنْفِيذ مُجَمَّع سَكَني ذي كَثَافَةٍ محدودة على «هَضَبَة المُقَطَّم» ، شَرْقيّ القاهِرَة ، التي لم يَسْبِق اسْتِغلالُها من قَبْل ، وتَمّ التَّوَسُّع فيها بعد ذلك حتى أضْحَت مَدِينَةً مستقلَّةً بخَدَماتها تَتَّصِلُ بالبَسَاتين والمَعَادِي جَنُوبًا وبالقَطَّامية ومَدِينَة نَصْر شَمالًا .

وأدَّى اكتظاظُ المَدِينَة بالسُّكَّان وتَضَاعُف عَدَدهم إلى خَلْقِ مَنَاطِق سكنية جديدَة ، كان أوَّلها «مَدِينَة نَصْــر» التي أنْشئت أوَّلًا في الفَرَاغ الواقِع بين العَبَّاسِيَّة ومصر الجَدِيدَة بمُناسَبَة إنْشَاء مدينة رياضية أوليمبية ، سنة ١٩٦١م ، يتوسَّطها اسْتادٌ رِياضي يَتَّسع لثمانين ألْف مُشَاهِد عُرِف بـ «اسْتَاد القاهِرَة» . أنْشِئَت مَدِينَةُ نَصْر في أوَّلِ الأمْر كمنطقة عمارات مختلفة الأحْجَام تتولَّى إنْشَاءها شَرِكَةٌ عَامَّةٌ هي «شَرِكة مَدِينَة نَصْر» على نحوٍ مُشابِه لمَشْرُوعات الإسْكان اليُوجُوسْلافي آنَذَاك . وتَرَكَّزَت هذه الأبْنِيَة في المَنْطِقة الأولى والثانية على مِسَاحَة ٦٦٦٧ فَدَّانًا ، ثم تُرِكت بَقِيَّة المناطق (الأحْيَاء) التي بَلَغَت حتى الآن عَشْرَة مَنَاطِق تجاه الشَّرْق لمُبَادَرات القِطاع الخاصّ .

ومع بَدْء تَطْبيق النِّظام الاشْتراكي وسِياسات التأميم ، سنة ١٩٦١م ، اتُّخِذت إجْرَاءاتٌ حاسِمَة بغَرَض تَوْفير أماكِن لمحدودي الدَّخْل وعلى الأخَصّ طَبَقَتي العُمَّال والفَلَّاحين الذين مَثَّلُوا القاعِدَة الجَدِيدَة التي اعْتَمَدَ عليها النِّظامُ ، فيما أطْلِقَ عليه «المَسَاكِن الشَّعْبِيَّة» ، وهو نَمَطٌ من الإسْكان الجماعي قَلِيل التَّكْلِفة يَفْتَقِدُ إلى أي مَلامِح جمالية بَدَأ يسُودُ في مَنَاطِق زينْهُم وعَيْن الصِّيرَة والأمِيريَّة وحِلْمِيَّة الزَّيْتُون وجَنُوبًا في حُلْوَان .

---

[١] GH. ALLEAUME & M. VOLAIT, *L'âge des mutations*, p.442.

ووُجِّهَت العِنَايَةُ كذلك إلى الإسْكان المُتَوَسِّط حيث أُنْشِئَ في المَنْطِقة الواقِعة بين الزَّيْتُون ومصر الجَدِيدَة حيٌّ مُسْتَقِلّ (١٩٦٠ـ١٩٦٥م) عُرِف بـ« الأَلْف مَسْكَن» في إطارِ مَشْرُوعٍ مُوَجَّه إلى الطَّبَقَة المُتَوَسِّطَة التي تَكَوَّن منها رِجالُ النِّظام الجَدِيد، بَدَأ في الانْتِشَار والذُّيُوع في أَغْلَب أحْيَاء المَدِينَة.

وكان من نتيجَة تَجْمِيد الإيجارات الذي بَدَأ في سنة ١٩٤٤م، ثم التَّخْفيضات المتتالية على القِيَم الإيجارية للوَحْدَات السَّكَنِيَّة، في عامَي ١٩٥٨ و ١٩٦٥م، أنْ تَرَاجَعَ دَوْرُ الدَّوْلَة ودَوْرُ القِطاع الخاصّ في مجال الاسْتِثْمَار العَقَارِي. وصَاحَبَ ذلك هِجْرَةٌ داخِلِيَّةٌ مُتَزَايِدَةٌ غير محكومة من الرِّيف إلى القاهِرَة لا يَتِم استيعابها بالقَدْر الكافي نَتَجَ عنها انْتِشَارُ أنْماطٍ مُتَعَدِّدَةٍ من السَّكَنِ العَشْوَائي حَوْل المُدُن، أغْمَضَت الدَّوْلَةُ الطَّرْفَ عنها مِمَّا أدَّى إلى اسْتِفْحال الظَّاهِرَة، أضِفْ إلى ذلك ما أُطْلِق عليه نَمَطُ الإيوَاء السَّرِيع في أعْقابِ الكوارِث الطَّبيعيَّة، والذي خَلَقَ نَوْعًا من السَّكَن المُؤَقَّت أصْبَحَ بمُضِيّ الوَقْت سَكَنًا دائمًا.

وسَادَ في الوَقْتِ نفسه نَمَطٌ آخَر من السَّكَنِ هو الإقامَة في المَقَابِر، وعَشْوائية هذا النَّوْع ليست عَشْوائِيةٌ مادِّية وإنَّما عَشْوَائية الممارِسين لهذا السَّكَن. فالمقابِرُ القاهرية مَنَاطِقُ مُخَطَّطَة داخِل التَّنْظِيم ومُخَصَّصَة كمَدِينَةٍ للأمْوَات، فلا يمكن لأحَدٍ بِنَاء مَقْبَرَةٍ دون تَرْخِيص. ونَظَرًا لأنَّ بَعْضَ اللحَّادِين وحُرَّاس المقابر كانوا يقيمون إلى جوارها ثم اسْتَمَرَّ الأمْرُ مع أبْنَائِهم وأسَرِهم، وسَاعَدَ على ذلك أنَّ المقابِرَ القاهرية ذات أحْوَاشٍ كبيرة تشتمل على غُرْفَةٍ أو أكثر مُعَدَّة لاسْتِقبال أفْرَاد الأسْرَة عند زيارتهم لمقابر ذَوِيهم في المناسَبَات. ومع تَرَاجُع هذا التَّقْليد مع الوَقت خَلَت هذه الغُرَف من أصْحابها الأصْليين وأصْبَحَت جاذِبَةً للسَّكن الدَّائِم مع تَوافُر التَّخطيط بها ومَدِّها بالماء والكهرباء وأحْيَانًا التِّليفونات [1].

---

[1] محمد رياض: القاهرة ـ نسيج النَّاس في المكان والزمان ٦٩.

*
* *

كان من نَتِيجَة هذا الاكتِظاظ الذي شَهِدَته العاصِمَةُ ووُفُود مُهَجَّرين جُدُد إليها من مُدُنِ القَنَاة في أعْقابِ كارِثة حَرْب سنة ١٩٦٧م ، ثم التَّحَوُّل الذي عَرَفَتْه مصر بعد نَصْرِ أكتوبر سنة ١٩٧٣م وتَبَنِّي سِيَاسَةٍ جَدِيدَةٍ عُرِفَت بـ « الانْفِتَاح الاقْتِصَادي » أنْ أعْلَنَ الرَّئيسُ أنْوَر السَّادات (١٩٧٠-١٩٨١م) عن برنامجٍ طَمُوح لإنْشَاء ١٣ مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ في الصَّحْرَاء المحيطة بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٧٤م احْتِفالًا بنَصْرِ أكتوبر الذي مَنَحَ اسْمَه لثَلاثَةٍ من هذه المُدُن الجَدِيدَة : العَاشِر من رَمَضَان والسَّادِس من أكتوبر والعُبُور .

كان الهَدَفُ هو جَذْب نحو مليونيّ قاهِري خارج الوَادِي بواقع ١٥٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ ألْف ساكن مع كلِّ عَمَلِيَّة ، ولكن العَائِد كان مُتَوَاضِعًا فلم يتمّ سوى حَجْز ثُلْث المَسَاكِن المُتَوَقَّعَة في البِدَايَة ، وحتى مَطْلَع الألْفِيَّة الثَّالِثَة لم تَسْتَوْعِب هذه المُدُن سوى ١٪ فقط من السُّكَّان (نحو ١٥٠٠٠٠ من ١١ مليون قاهِري) . كما أنَّها لم تَسْتَوْعِب أحَدًا من عَوَامّ النَّاس وبُسَطائهم ، فالقِسْمُ الأكبر من عمليَّات الإنْشَاء العقاري التي نُفِّذَت بها ذات مستوى فوق المُتَوَسِّط وحتَّى من الإسْكان الفاخِر : دريم لانْد - جرين لانْد - بيفرلي هيلز (مجموعات من الفيلَّات ذات حَدَائِق وأحْيانًا حَمَّامات سِباحَة وتَتَمتَّع بخَدَمات عامَّة في شكل مُجَمَّعات Compound) . وتكَرَّرَ هذا النَّمَطُ بعد ذلك في المُدُن الجَدِيدَة الأخرىٰ : القاهِرَة الجَدِيدَة والتَّجَمُّع الخامِس ، في الوَقْتِ الذي أصْبَح فيه الاسْتِثمارُ العقاري أحَدَ أهَمّ قطاعات الاسْتِثْمار في مصر ، وعلى الأخَصّ في المُدُن الجَدِيدَة ، حيث زُوِّدَت سُوق العقارات بأكثر من مليون وحْدَة ، لا تُتَاحُ إلَّا لطبقات رجال الأعْمال والـ nouveau riche والعائِدين من العَمَل في دُوَلِ الخليج بعد سَنَوات طَوِيلَة من الغُرْبَة!

واسْتُغِلَّتْ أراضي ثُكْنات الجَيْش المصري الواقِعَة في المَنْطِقَة الممتدَّة بين مَيْدَان العَبَّاسِية ومَنْشِيَّة البَكْري، بعد انْتِقالِ هذه الثُّكْنات إلى مَوَاضِع أخرىٰ أرْحَب، في تَشْييد سِلْسِلَةٍ من العِمَارات السَّكَنِيَّة الضَّخْمَة تَطِلّ على طَرِيق صَلاح سَالم عُرِفَت بـ «عِمَارَات العُبُور»، خُصِّصَت في البِدَايَة لأفْرَاد القُوَّات المُسَلَّحَة ثم اسْتَوْعَبَت بعد ذلك سَائِر الطَّوَائِف الأخرىٰ.

*
* *

وتَمَيَّزت العُقُودُ الثَّلاثَة الأخيرة، والتي تَوَلَّى فيها الرئيسُ محمد حسني مُبارَك (١٩٨١ـ٢٠١١م)، بتوجِيه الاهْتمام إلى إعَادَة تأهِيل البِنْيَة الأسَاسِيَّة للمَدِينَة التي كانت قد أصَابَها التَّرَهُّل: الاتِّصَالات السِّلْكية واللَّاسِلْكية وشَبَكات المياه والصَّرْف الصِّحِّي والكهرباء، كما زُوِّدَت المَدِينة بشَبَكَةٍ كبيرةٍ من الكبارِي العُلْوِيَّة أهمّها «كوبري أكتوبر» الذي بُدِئ في تَنْفيذه في مَطْلَع سَبْعِينيات القَرْن العِشْرين ليَصِل القاهِرَة بالجِيزَة من مَدِينَة نَصْر شَرْقًا وحتى المَتْحَف الزِّراعِي في الضَّفَّة الغربية للنِّيل، انْتَهَت مَرْحلتُه الأخيرة عند مَدِينَة نَصْر سنة ١٩٩٩م، وشَبَكَة أخرىٰ من الأنْفَاق أهمُّها «نَفَقُ الأزْهَر» (٢٠٠٢م) الذي يَسَّرَ الانْتِقالَ من شَرْقِ المَدِينَة القديمة في شارع صَلاح سَالِم إلى الأزْبَكِيَّة في غَرْبِ المَدِينَة عند مَيْدَان الأوبرا.

وبعد دِرَاسَات مُطَوَّلَة أصْبَحَت القاهِرَةُ أخيرًا أوَّلَ مَدينَةٍ في أفْريقيا تُدْخِلُ «مِتْرُو الأنْفَاق» في ثَلاثَةِ خُطُوطٍ إقْلِيمية منذ عام ١٩٨٧م، وجاري تَنْفيذ خَطٍّ رَابع يَصِلُ العَتَبَة بمطار القاهِرَة.

وتَمَّ كذلك إنْجازٌ آخَر ذو دَلالَة هو إعَادَة تأهِيل أرْض المَعَارِض القَدِيمَة بالجَزِيرَة، بعد أنْ تَمَّ نَقْلُ المعارِضَ إلى مَوْضِعٍ جَديدٍ أكثر رَحَابَة بطريق العُرُوبَة بمَدينَة نَصْر، وتَحْويلها إلى مَكانٍ ثَقَافي، فتَمَّ إعَادَةُ تأهِيل أجْنِحَته لاسْتِخْدامات جَدِيدَة (مَتحَف

الفَنّ الحَدِيث ـ مَتْحَف الجَزِيرَة) وتَمّ تَشْيِيدُ مَبْنَىٰ جَدِيد، بالتَّعَاوُن مع الحكومة اليابانية، ليكون «دَارًا جَدِيدَةً للأوبرا» افْتُتِح سنة ١٩٨٧م عِوَضًا عن الدَّار التي احْتَرَقَت سنة ١٩٧١م وحَلَّ محلَّها جَرَاجٌ مُتَعَدِّد الطَّوَابِق!.

كما دَعَمَت الحكومة الصِّينِيَّة تَشْيِيد «مَرْكَزٍ دَوْلِيٍّ للمُؤْتَمَرَات» بطَرِيق النَّصْر بمدينة نَصْر سنة ١٩٨٩م.

وشَهِدَ العَقْدان الأخِيران من القرن العِشْرين تَشْيِيد بعض المَسَاجِد الضَّخْمَة: جَامِع الفَتْح بمَيْدَان رَمْسِيس وجَامِع النُّور بمَيْدَان العباسِيَّة وجامِع الرَّحْمَن الرَّحيم بطريق صَلاح سالم، وكذلك تَشْيِيد عَدَدٍ كبيرٍ من الفَنَادِق الكبرىٰ تَطِلّ على نِيل القاهِرَة: فُنْدُق سَمِيرَاميس الجَدِيد (١٩٨٢ـ١٩٨٤م)، وفُنْدُق هيلْتُون رَمْسِيس (١٩٨٧م)، وفُنْدُق مارْيُوت (١٩٨٩م) وفُنْدُق كونْراد (٢٠٠١م) وفُنْدُق الفور سيزون (٢٠٠٥م)، إضَافَةً إلى المَبْنىٰ الجَدِيد لوَزَارَة الخارجية (١٩٩٣م)، وكذلك مباني مركز التجارة العالمي وإدَارَة البَنْك الأهْلي المصري برَمْلَة بولاق والبَنْك المركزي بشارع الجمهورية.

وكان من نَتِيجة الزِّلْزَال المُدَمِّر الذي ضَرَب مَدِينَة القاهِرَة في ١٢ أكتوبر سنة ١٩٩٢م وتأثَّرت به الكثيرُ من آثارها الإسْلامية، أنْ تَبَنَّت وَزارَةُ الثَّقَافَة مَشْرُوعًا كبيرًا لـ «إحْيَاء القاهِرَة التاريخية» تَمَّ خلاله تَرْميم العَدِيد من المَسَاجِد والمَدَارِس والخانْقاوات والبيوت التاريخية والأسْوَار والأبْوَاب وإعادَتها إلى سابق عَهْدِها وتَمَّت إنارتها وإظْهار تفاصيلها، ويَقَعُ القِسْمُ الأكبر من هذه الأعْمَال في شارع المُعِزّ لدين الله الذي بُلِّطت أرْضِيته بالحَجَر وخُصِّص فقط للمُشَاة، وكان قد تَمَّ قَبْل ذلك في عَقْدِ الثَّمانينيات مَشْرُوعٌ آخَر لتَطْوير مَنْطِقَة القَلْعَة وتَخْصِيص حَرَمٍ للمَنْطِقَة التي يَقَعُ فيها جَامِعُ الرِّفاعِي وجَامِعُ ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن بمَيْدَان الرُّمَيْلَة (مَيْدان صلاح الدِّين).

*
* *

هكذا ، فبَعْد أكثر من أَلْف عامٍ من تأسِيس مَدِينَة القاهِرَة ، لم يَبْق من المَدِينَة التَّاريخية التي شَهِدَت أحْدَاثَ التَّاريخ الفاطمي والأيُّوبي والمملوكي والعُثْماني ، قَبْل التَّعْدِيلات الجِذْرِيَّة التي ضَاعَفَت من مساحتها وبَدَّلَت مَظْهَرَها منذ النِّصْف الثَّاني للقرن التَّاسِع عَشْر ، إلَّا نَوَاةٌ صَغِيرَة لا تزيد مِسَاحتُها على ٩٦٠ فَدَّانًا دَاخِل المَدِينَة الضَّخْمَة التي تَعَدَّت مِسَاحَتُها الآن ٧٢ أَلْف فَدَّان . الأمْرُ الذي يَسْتَوْجِب تَوْجِيه الاهْتِمام لصِيَانَة القاهِرَة التَّاريخية ووَقْفِ مَظاهِر التَّطَوُّر العَصْرِي التي تَزْحَفُ عليها لخَلْقِ مَدِينَة ـ مَتْحَف تُحافِظُ على ما تَبَقَّى من تُرَاثِ هذه العُصُور المتتالية في ظِلِّ الاخْتِفَاء المُتَلاحِق للكثير من هذا التُّرَاث ، فزَائِرُ القاهِرَة القَدِيمَة الذي يَخْتَرِقُ العَدِيدَ من الأزِقَّة ليَكْتَشِفَ في النِّهايَة أثَرًا قديمًا يكون مُعَدًّا للإعْجَاب بجماليَّاته الفَنِّيَّة وهو مُحَاطٌ بمنازل قَدِيمَة بحيث تَصْبَح نِسَبُ المَدَاخِل والمآذِن مُبَرَّرَةً وتأخُذُ العلاقات بينها معناها الحَقِيقي ، وفي هذه الحالَة كم هي كثيرَةٌ ومُوَزَّعَةٌ الجَوَامِع والمَدَارِس والقُصُور والأسْبِلَة في القاهِرَة التاريخية . إنَّ فَتْحَ طَرِيقٍ جَدِيدٍ في المَدِينَة التَّاريخية أو بِنَاءَ دُور على الطُّرُز الحَدِيثَة من شَأنه أنْ يُدَمِّرَ نهائيًّا كلَّ هذا الانْسِجام والتَّنَاغُم في العلاقات ، الأمْرُ الذي يجب أنْ يُحْظَرَ فيه نهائيًّا أيَّةُ مُحاوَلَةٍ للمَسَاس بخُطُوط التَّنْظِيم الأصْلِيَّة للمَدِينَة القديمة . إنَّ هذه الهَيْئَة لِمَدِينَة القاهِرَة التَّاريخية هي ما يَوَدُّ العُلَماءُ والباحِثُون والزَّائِرُون المحافَظَة عليه .

خُلاصَةُ القَوْل : إنَّ الأثَرَ التَّاريخي الأوَّل للقاهِرَة هو ـ بلا جِدَال ـ المَدِينَة القديمة نفسها التي تَمْتَدُّ على هَيْئَة مُسْتَطِيلٍ يرتكزُ ضِلْعُهُ الغَرْبِيّ على المَدِينَة الحَدِيثَة (العَتَبَة والأزْبَكِيَّة وباب اللُّوق وعابدين) ، ويَطُلّ ضِلْعُهُ الشَّرْقِيّ على قَرَافَة المماليك وسَفْح المُقَطَّم ، ويحدُّه شمالاً أحْياءُ الحُسَينِيَّة والظَّاهِر والعَبَّاسِيَّة ، وجَنُوبًا حَيُّ السَّيِّدَة زَيْنَب . وعلى ذلك فهذا الاعْتِبار الأساسي ، وهو الحِفَاظ على هَيْئَة المَدِينَة

المَوْرُوثَة ، لا يجب أنْ يَغِيبَ أبَدًا عن نَظَر مَنْ يُعْهَد إليهم المُحَافَظَة على المَدِينَة القديمة ، ولا أقولُ تَطْوير المَدِينَة القَدِيمَة ، الأمْرُ الذي يَتَطَلَّبُ وُجُودَ قانُونٍ عام لحماية المواقِع والآثار يَمْنَعُ فوضَىٰ الإسَاءَات المتفرِّقَة التي من شأنها تَشْوِيه شَكْل المَدِينَة القديمة وتَغْيير هَيْئَتِها ، وأنْ يُعْهَدَ بتَنْفِيذ ذلك إلى أهْلِ الاخْتِصَاص .

أمْرٌ آخَر هو ضَرُورَة زِيَادَة الوعْي الآثارِي لَدَىٰ القاطِنين بهذه الأماكن ، فبَعْد العَدِيد من الزِّيارَات والجَوَلات المَيْدانية بالقاهِرَة التاريخية لم أجِد أيَّة مَعْلُومَةٍ صَحِيحةٍ عن هذه الآثار لَدَىٰ المُحِيطِين بها ، سواء من السُّكَّان أو العامِلين بالمُنْشآت التُّجارية والحِرَفِيَّة المُلاصِقَة لها .

ببليوجرافيا مختارة عن مصادر ومراجع تاريخ القاهرة

١ ـ المصادر العربية

الإدْريسي (الشَّريفُ أبو جَعْفَر محمد بن عبد العزيز الحُسَيْني) المتوفَّى سنة ٦٤٩هـ/١٢٥١م.

«أنوارُ عُلْوِيّ الأجْرام في الكَشْفِ عن أسْرارِ الأهْرام»، حَقَّقَه وَقَدَّم له أُلريش هارمان، سلسلة نصوص ودراسات ـ ٣٨، بيروت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٩١م.

الإدْريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد) المتوفَّى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م.

«نُزْهَةُ المُشْتاق في اخْتِراقِ الآفاق»، ١ ـ ٩، بعناية مجموعة من العلماء، روما ـ نابُولي: المعهد الجامعي الشَّرْقي بنابولي والمعهد الإيطالي للشَّرْقين الأوْسَط والأقْصَى بروما ١٩٧١-١٩٨٤م.

أُسَامَةُ بن مُنْقِذ (مُؤَيَّدُ الدَّوْلَة المُظَفَّر أُسَامَة بن مُرْشِد الشَّيْزَري) المتوفَّى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م.

«الاعْتِبَــار»، تحقيق وتقديم قاسِم السَّامَرَّائي، الرياض ـ دار الأصالة ١٩٨٧م.

أُمَيَّةُ بن عبد العَزيز، أبو الصَّلْت الدَّاني، المتوفَّى سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م.

«الرِّسَالَةُ المصرية»، تحقيق عبد السَّلام هارون في سلسلة نوادر المخطوطات، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١هـ/١٩٥١م، ١: ٣ ـ ٥٦.

أَوْليا چلبي (محمد ظلي بن درويش) المتوفَّى سنة ١٠٩٤هـ/١٦٨٢م.

«سِياحَتْنامَه مصر»، ترجمة محمد علي عوني، تحقيق عبد الوهاب عَزّام وأحمد السَّعيد سليمان، تقديم ومراجعة أحمد فؤاد متولي، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

ابنُ إياس (أبو البَرَكات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) المتوفَّى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م.

«بَدائِعُ الزُّهور في وَقائِع الدهور»، ١ ـ ٥، تحقيق محمد مصطفى، النشرات الإسلامية ـ ٥، القاهرة ـ فيسبادن ١٩٦١-١٩٧٥م.

ابنُ أَيْبَك الدَّواداري (أبو بَكْر عبد الله بن أيْبَك) المتوفَّى بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م.

«كَنْزُ الدُّرَر وجَامِعُ الغُرَر» ـ الجزء الخامس المسمى «الدُّرَّة السَّنِيَّة في أخْبارِ الدَّوْلَة العَبَّاسية»، تحقيق دوروتيا كراڤولسكي، بيروت ـ ١٩٩٢، الجزء السَّادس المسمى «الدُّرَّة المُضِيئَة في أخبارِ الدَّوْلَة الفاطِمية»، تحقيق صلاح

الدين المنجد، الجزء السابع المسمى «الدُر المَطْلوب في أَخبار مُلوك بني أَيُّوب» تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الثامن المسمى «الدُرّة الزَكِيَّة في أخبارِ الدَوْلَة التُركية»، تحقيق أولرخ هارمان، الجزء التاسع المسمى «الدُرّ الفَاخِر في سِيرَةِ الملك النَاصر» تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ـ المعهد الألماني للآثار ١٩٦٠ ـ ١٩٧٢م.

ابنُ بطُوطَة (شَمْسُ الدّين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللُّواتي الطَّنْجي) المتوفَّى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م.

«رِحْلَةُ ابن بَطُّوطَة»، المُسَمَّاة «تُحْفَة النُظَّار في غَرائِب الأمْصَار وعَجائِب الأسْفَار»، ١ ـ ٥، قَدَّمَ له وحَقَّقَه ووَضَعَ خرائِطَه وفَهارِسَه عبد الهادي التَازي، الرِّباط ـ أكاديمية المملكة المغربية ١٤١٧هـ/١٩٩٧م. وأيضًا نشرة أحمد العَوَامِري بك ومحمد أحمد جَاد المَوْلَى بك، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٤م.

البَكْري (أبو عُبَيْد عبد الله بن عبد العزيز) المتوفَّى سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

«جُغْرافيةُ مِصْر من كِتابِ الممالِك والمسالِك»، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم، الكويت ـ مكتبة دار العروبة ١٩٨٠م.

البَلَوي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن عُمَيْر بن مَحْفُوظ المديني) من علماء القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.

«سِيرَةُ أحمد بن طُولُون»، حَقَّقَها وعَلَّقَ عليها محمد كُرْدعلي، دمشق ـ مطبعة الترقي ١٣٥٨هـ.

بَيْبَرْس الدَّوادار (رُكْنُ الدّين بَيْبَرْس بن عبد الله المَنْصُوري النَّاصري الدَّوادار)، المتوفَّى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م.

«زُبْدَةُ الفِكْرَة في تاريخِ الهِجْرَة»، تحقيق دونالد س. ريتشاردز، بيروت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٩٨م.

التُّجيبي (القاسم بن يُوسُف السَّبتي) المتوفَّى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م.

«مُسْتَفَادُ الرِّحْلَة والاغْتِراب»، تحقيق وإعْداد عبد الحفيظ مَنْصُور، تونس ـ الدار العربية للكتاب ١٩٧٥م.

ابنُ تَغْري بِرْدِي = أبو المحاسِن

الجَبَرْتي (عبد الرَّحمن بن حَسَن) المتوفَّى سنة ١٢٣٧هـ/١٢٢م.

«عَجَائِبُ الآثارِ في التَّراجِمِ والأَخْبَار»، ١ ـ ٤، تحقيق عبد الرَّحيم عبد الرحمن عبد الرَّحيم، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٧ـ١٩٩٨م.

ابنُ جُبَيْر (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني) المتوفَّى سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م.

* «الرِّحْـــلَة»، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٧م.

ابنُ الجَيْعان (شَرَفُ الدِّين أبو زكريا يحيى بن شاكِر بن عبد الغَني) المتوفَّى سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م.

«التُّحْفَةُ السَّنِيَّة بأسْماءِ البِلادِ المصرية»، تحقيق برنارد موريتس، مطبوعات الكتبخانة الخديوية، القاهرة ـ المطبعة الأهلية ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

أبو حَامِد المَقْدِسي (محمد بن عبد الرحمن المصري الشّافِعي) المتوفَّى نحو سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م .

«الفَوائِدُ النَّفيسَة الباهِرَة في بَيَانِ حُكْمِ شَوارِعِ القاهِرَة في مَذَاهِب الأَئِمَّة الأربعة الزَّاهِرَة» ، تحقيق آمال العمَري ، القاهرة ـ هيئة الآثار المصرية ١٩٨٨م .

«حُجَّةُ وَقْفِ الأَشْرَف بَرْسباي» ، نَشَرَها وقَدَّمَ لها أحمد دَرَّاج ، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٦٣م .

«حُجَّةُ وَقْفِ السُّلْطانِ النَّاصِر فَرَج بن بَرْقُوق» = Lamei Mostafa, S., *Moschee des Farag ibn Barqûq in Kairo*.

«حُجَّةُ وَقْفِ القاضي فَتْح الدِّين فَتْح الله بن مُسْتَعْصِم» - Behrens - Abouseif, D., *Fath Allâh and Abû Zakariyya*.

ابنُ حَجَر العَسْقَلاني (شِهَابُ الدِّين أبو الفضل أحمد بن علي) المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م .

«رَفْعُ الإِصْرِ عن قُضَاةِ مصر» ، تحقيق علي محمد عمر ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٩٨م .

ابنُ حَوْقَل (أبو القاسِم محمد بن علي) المتوفَّى بعد سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م .

«صُورَةُ الأَرْض» ، نشرة كريمرز ، ليدن ١٩٣٨م .

ابنُ خُرداذْبَه (أبو القاسِم عُبَيْد الله بن أحمد) المتوفَّى نحو سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م .

«المَسَالِكُ والممالِكُ» ، بعناية دي خويه (الجزء السادس من المكتبة الجغرافية) ، ليدن ـ بريل ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م .

ابنُ خَلْدُون (وليُّ الدِّين أبو زَيْد عبد الرَّحمَن بن محمد بن محمد الحَضْرَمي الإشبيلي) المتوفَّى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م .

«التَّعْريفُ بابن خَلْدُون ورِحْلَتِه غَرْبًا وشَرْقًا» ، عارَضَة بأصُوله وعَلَّقَ حَواشيه محمد بن تاويت الطُّنْجي ، راجعه وأعَدَّه للنَّشْر إبراهيم شَبُّوح ، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦م .

«العِبَرُ وديوانُ المبتدأ والخَبَر في تاريخ العَرَب والعَجَم والبَرْبَر» ، ١ ـ ٢ ، ٤ ، ٨ ـ ٩ ، تحقيق وإشْراف إبراهيم شَبُّوح ، تونس ـ دار القيروان ٢٠٠٦ـ٢٠٠٩م .

ابنُ خَلِّكان (شَمْسُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن محمد) المتوفَّى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م .

«وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ وأَنْبَاءُ أَبْنَاءِ الزَّمان» ، ١ ـ ٨ ، تحقيق إحسان عَبَّاس ، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٩ـ١٩٧٢م .

ابنُ دُقْمَاق (صَارِمُ الدِّين إبراهيم بن محمد بن أَيْدَمُر العَلائي) المتوفَّى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦م .

«الانْتِصَارُ لواسِطَةِ عِقْدِ الأَمْصَار» ، ٤ ـ ٥ ، نشره فولرز القاهرة ١٨٩٤م .

ابنُ رَضْوان (أبو الحَسَن علي بن رَضْوان بن علي بن جَعْفَر الطَّبيب المصري) المتوفَّى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م .

«دَفْعُ مَضَارِّ الأَبْدَانِ بأَرْضِ مصر» ، دراسة وتحقيق عبد المجيد دياب ، الكويت ـ مكتبة ابن قتيبة ١٩٩٥م .

ابنُ زُولاق (أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين اللَّيثي) المتوفَّى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م.
«أَخبَارُ سِيبَوَيْه المصري»، نشره محمد إبراهيم سعد وحسين الذّيب، القاهرة ١٩٣٣م.
«فَضَائِلُ مِصْر وأَخبارُها وخَوَاصُّها»، تحقيق علي محمد عمر، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ٢٠٠٠م.
ابنُ الزَّيَّاتِ (شَمْسُ الدِّين أبو عبد الله محمد الأنصارى) المتوفَّى سنة ٨١٤هـ/١٤١١م.
«الكَواكِبُ السَّيَّارَة في تَرْتِيبِ الزِّيارَة»، نَشَرَه أحمد تيمور باشا، بولاق ١٣٢٥هـ.

سَاوِيرُس بن المُقَفَّع، أُسْقُفُ الأُشْمونين، عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي.
«تاريخُ بَطَارِكَة الكَنِيسَة المصرية» المعروف بـ «سِيَر البِيْعَة المُقَدَّسَة» (المنسوب إلى)، نَشَرَ الجزء الأوَّل، من القديس مُرْقُس حتى البطرك السادس عشر ثاونا B. EVETTS, THEONAS بعنوان *History of the Patriachs of the Coptic Church of Alexandria* في مجلة *Patr. Or.* I (1970), pp. 101-214.، ونشر الأجزاء من الثاني إلى الرابع يَسّي عبد المسيح وعزيز سوريال عطية وأزولد بورمستر وأنطون خاطر، القاهرة ـ جمعية الآثار القبطية ١٩٥٩-١٩٧٤م.
السُّبْكي (تاجُ الدِّين أبو نصر عبد الوهَّاب بن علي) المتوفَّى سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م.
«طَبَقَاتُ الشَّافِعِية الكبرى »، ١ ـ ١١، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة ـ هَجَر للطباعة والنشر ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
«مُعِيدُ النِّعَم ومُبِيدُ النِّقَم»، حَقَّقَه وضَبَطَه وعَلَّق عليه محمد علي النَّجّار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، القاهرة ـ دار الكتاب العربي بمصر ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م.
السَّخَاوي (نُورُ الدِّين أبو الحسن علي بن أحمد) المتوفَّى بعد سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م.
«تُحْفَةُ الأَحْبابِ وبُغْيَةُ الطُّلابِ في الخِطَطِ والمزاراتِ والتَّراجِم والبِقاعِ المبارَكَات»، نشره محمود ربيع وحسن قاسم، القاهرة ١٩٣٧م.
ابنُ أبي السُّرُور (شَمْسُ الدِّين أبو عبد الله محمد بن محمد البَكْري الصِّدِّيقي) المتوفَّى سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م.
«قَطْفُ الأَزْهَارِ من الخِطَطِ والآثار»، نُسْخَة مكتبة جامعة ليدن رقم Or. 974.
ابنُ سَعيد (عليّ بن سعيد المغربي) المتوفَّى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م.
«المُغْرِبُ في حُلَى المَغْرِب»، القسم الخاص بالفُسْطَاط، حَقَّقَه زكي محمد حسن وآخرون، القاهرة ـ جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣م.
«النُّجُومُ الزَّاهِرَة في حُلَى حَضْرَةِ القاهِرَة»، تحقيق حسين نَصّار، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية ١٩٧٢م.
السُّيُوطي (جَلالُ الدِّين أبو الفَضْل عبد الرَّحْمن بن أبي بكر بن محمد) المتوفَّى سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م.
«حُسْنُ المحاضَرَة في تاريخِ مِصْر والقاهِرَة»، ١ ـ ٢، حَقَّقَه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٧م.

«كَوْكَبُ الرَّوْضَة في تاريخ النِّيلِ وجَزيرَةِ الرَّوْضَة» ، تحقيق محمد الشَّشتاوي ، القاهرة ـ دار الآفاق العربية ٢٠٠١م .

شَافِعُ بن علي (ناصِرُ الدِّين شَافِعُ بن علي بن عَبَّاس بن عبد الظَّاهِر السَّعْدي) المتوفَّى سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م .
«الفَضْلُ المأثورُ من سِيرَةِ السُّلْطانِ الملك المَنْصُور» ، تحقيق عمر عبد السَّلام تَدْمُري ، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٩٩٨م .

أبو شامَة (شِهابُ الدِّين عبد الرَّحمن بن إسماعيل المَقْدِسي) المتوفَّى سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م .
«كِتابُ الرَّوْضَتين في أخْبَارِ الدَّوْلَتين» ، الجزء الأول في قسمين ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد ، القاهرة ١٩٥٦-١٩٦٢م ، والجزء الثاني للمحقق نفسه ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٩٨م .

الشُّجَاعي (شَمْسُ الدِّين ...؟) المتوفَّى في نهاية القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .
«تاريخُ المَلِكِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون الصَّالِحِي وأوْلادِه» ، حَقَّقَه وترجمته إلى الألمانية بربارة شيفر ، القاهرة ـ المعهد الألماني للآثار ١٩٧٨م .

ابنُ شَدَّاد (بَهَاءُ الدِّين أبو المحاسِن يُوسُف بن رافِع بن تَميم) المتوفَّى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٩م .
«النَّوادِرُ السُّلْطانية والمَحَاسِنُ اليُوسُفية» أو «سِيرَةُ صَلاحِ الدِّين» ، تحقيق جمال الدين الشَّيَّال ، القاهرة ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٤م .

أبو صَالِح الأرْمَنِي = أبو المكارِم سَعْد الله .

ابنُ الطُّوَيْر (أبو محمد المُرْتَضَى عبد السَّلام بن الحسن القَيْسراني) المتوفَّى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م .
«نُزْهَةُ المُقْلَتَيْن في أخْبَارِ الدَّوْلَتين» ، أعَادَ بِناءه وحَقَّقَه وقَدَّمَ له أيمن فؤاد سيد ، النشرات الإسلامية ـ ٣٩ ، شتوتغارت ـ دار النشر فرانتس شتاينر ١٩٩٢م .

ابنُ ظَافِر (جَمالُ الدِّين أبو الحسن علي بن أبي مَنْصُور ظَافِر الأزْدي) المتوفَّى سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م .
«أخْبَارُ الدُّوَلِ المُنْقَطِعَة» ، دراسة تحليلية للقسم الخاص بالفاطميين مع مقدِّمة وتعقيب أندريه فريه ، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٢م ، والقسم الخاص بالطُّولُونيين والإخشيديين ، تحقيق علي محمد عمر ، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٧م .

الظَّاهِري (غَرْسُ الدِّين خَليل بن شَاهِين) المتوفَّى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م .
«زُبْدَةُ كَشْفِ الممالِك وبَيَانُ الطُّرُقِ والمسالِك» ، اعتنى بتصحيحه بول رافيس ، باريس ١٨٩٤م .

ابنُ ظَهيرَة (بُرْهانُ الدِّين أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد؟) المتوفَّى سنة ٨٩١هـ/١٤٨٦م .
«الفَضَائِلُ الباهِرَة في مَحَاسِنِ مصر والقاهِرَة» ، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس ، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٦٩م .

عبد الحميد بك نافع، المتوفَّى بعد سنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م.

«ذَيْل خِطَط المقْريزي»، تحقيق خالد عزب ومحمد السَّيِّد حمدي، القاهرة - مكتبة الدار العربية للكتاب ٢٠٠٦م.

ابنُ عبد الحكَم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القُرَشي المصري) المتوفَّى سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م.

«فُتوحُ مِصْر وأَخْبارُها»، تحقيق شارلس توري، نيوهافن ١٩٢٢م.

ابنُ عبد الظَّاهِر (القاضي مُحْيي الدِّين أبو الفَضْل عبد الله بن رَشيد الدِّين عبد الظَّاهِر بن نَشْوان السَّعْدي المصري) المتوفَّى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.

«تَشْريفُ الأَيَّام والعُصُور في سِيرَةِ الملك المَنْصُور»، حقَّقه مراد كامل وراجعه محمد علي النجَّار، القاهرة - تراثنا ١٩٦١م.

«الرَّوْضُ الزَّاهِر في سِيرَة الملك الظَّاهِر»، تحقيق ونَشْر عبد العزيز الخويطر، الرياض - بيروت ١٩٧٦م.

«الرَّوْضَةُ البَهِيَّةُ الزَّاهِرَة في خِطَطِ المُعِزِّيَّة القاهِرَة»، حَقَّقه وقدَّم له وعَلَّق عليه أيمن فؤاد سيد، بيروت - أوراق شرقية ١٩٩٦م.

«الأَلْطافُ الخَفِيَّة من السِّيرَة الشَّرِيفَة السُّلْطانية الملكية الأَشْرَفِية»، نَشَرَها موبرج Moberg في ليبتسج سنة ١٩٠٢م.

عبدُ اللَّطيف البَغْدادي (مُوَفَّقُ الدِّين عبد اللَّطيف بن يُوسُف بن محمد بن علي) المتوفَّى سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م.

«الإِفَادَةُ والاعْتِبارُ في الأُمُورِ المُشَاهَدَةِ والحَوادِثِ المُعايَنَةِ بأَرْضِ مصر»، تحقيق أحمد غسَّان سبانو، دمشق - دار ابن قُتَيْبَة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

أبو عُبَيْد البَكْري = البَكْري.

علي مُبارَك (بن سليمان الرُّوجي) المتوفَّى سنة ١٣١١هـ/١٨٩٣م.

«الخِطَطُ التَّوْفِيقية الجَديدَة لمصر والقاهرة ومُدُنِها وبلادِها القَديمَة والشَّهيرَة»، ١-٢٠، بولاق ١٣٠٤هـ؛ وصَدَرَت عن مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية طبعةٌ ثانية ظَهَرَ منها إلى الآن خمسة عشر جزءًا ١٩٦٩ - ٢٠٠٢م.

عُمارَة اليَمَني (نَجْم الدِّين أبو محمد عُمارَة بن أبي الحسن علي الحكَمي) المتوفَّى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م. «تاريخُ اليَمَن»، نشره حسن سليمان محمود، القاهرة - مكتبة مصر ١٩٥٧م.

«النُّكَتُ العَصْرية في أَخْبارِ الوَزارَةِ المصرية»، تحقيق هرتويج درنبرغ، شالون ١٨٩٧م.

العَيْني (بَدْرُ الدِّين أبو محمد محمود بن أحمد بن مُوسَىٰ بن أحمد) المتوفَّى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م.

«الرَّوْضُ الزَّاهِر في سِيرَة الملك الظَّاهِر «طَطَر»»، تحقيق هانس أرنست، القاهرة - دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢م.

«السَّيْفُ المُهَنَّدُ في سِيرَةِ الملك المُؤَيَّد» ، حَقَّقه وقَدَّمَ له فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م .

«عِقْدُ الجُمان في تاريخ أهْلِ الزَّمان ـ العَصْر الأَيُّوبي» ، الجزء الأوَّل ٥٦٥ـ٥٧٨هـ/١١٦٨ـ١١٨٢م ، تحقيق ودراسة محمود رزق محمود ، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م .

«عِقْدُ الجُمَانِ في تاريخ أهْلِ الزَّمان ـ عَصْرُ سلاطين المماليك» ، ١ ـ ٤ ، حَقَّقَه ووَضَعَ حواشيه محمد محمد أمين ، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٨٧ـ١٩٩٢م .

«عِقْدُ الجُمَان في تاريخ أهْلِ الزَّمان ـ حَوادِث وتَراجم» ، تحقيق وتَعْليق عبد الرَّازق الطَّنْطاوي القَرْمُوط ، القاهرة ـ الزَّهراء للإعْلام العربي ١٩٨٩م .

ابنُ الفُرات (ناصِرُ الدِّين محمد بن عبد الرَّحيم بن علي الحَنَفي) المتوفَّى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م .

«تاريخُ الدُّوَلِ والمُلوك» ، ٤ ـ ٥ ، بتحقيق حسن الشَّمَّاع ، البصرة ١٩٦٧ ـ ١٩٧٠ ؛ ٧ ـ ٩ ، تحقيق قسطنطين زُرَيق ونجلاء عِزّ الدِّين ، بيروت ـ الجامعة الأمريكية ١٩٣٦ـ١٩٤٢م .

ابنُ فَضْل الله العُمَري (شِهابُ الدِّين أحمد بن يحيى) المتوفَّى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م .

«التَّعْريفُ بالمُصْطَلَح الشَّريف» ، عُنِيَ بتحقيقه وضَبْطِه محمد حسين شَمْس الدِّين ، بيروت ـ دار الكتب العلمية ١٩٨٨م .

«مَسالِكُ الأَبْصارِ في ممالِكِ الأَمْصَارِ» ، الجزء الأوَّل ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، و«ممالك مصر والشام والحجاز واليمن» ، حَقَّقَها وكَتَبَ مُقَدِّمَتَها وحواشيها ووَضَعَ فهارسها أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨٥م .

القَلْقَشَنْدي (شِهَابُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن علي) المتوفَّى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م .

«صُبْحُ الأَعْشَى في صِنَاعَة الإنْشَا» ، ١ ـ ١٤ ، طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩١٢ـ١٩٣٨م .

«كِتابُ وَقْفِ السُّلْـطانِ النَّاصِر حَسَن بن محمد بن قَلاوون على مَدْرَسَتِه بالرُّمَيْلَة» ، حَقَّقته وعَلَّقَت عليه هُوَيْدا الحارثي ، النشرات الإسلامية ـ ٤٥ ، بيروت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ٢٠٠١م .

الكِنْدي (أبو عُمَر محمد بن يُوسُف) المتوفَّى بعد سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م .

«وُلاةُ مِصْر» ، تحقيق حسين نَصَّار ، بيروت ـ دار صادر ١٩٥٩م .

ابنُ الكِنْدي (عُمَرَ بن محمد بن يُوسُف) من علماء النِّصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .

«فَضَائِلُ مصر المَحْرُوسَة» ، تحقيق علي محمد عمر ، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٩٧م .

ليون الأفريقي (الحَسَن بن محمَّد الوَزَّان الزَّيَّاتي) المتوفَّى بعد عام ٩٤٤هـ/١٥٢٩م.

«وَصْفُ أفريقيا»، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن حميدة وراجعه علي عبد الواحد وافي، الرياض ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٩٧٩م.

وترجمه عن الفرنسية أيضًا محمد حَجِّي ومحمد الأخضر، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٣م.

ابنُ المأمُون (الأميرُ جَمالُ الدِّين أبو علي مُوسَىٰ) المتوفَّى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م.

«أخبَارُ مصر ـ نُصُوصٌ من»، حَقَّقَها وكَتَبَ مُقَدِّمَتَها أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨٣م.

أبو المحَاسِن (جمالُ الدِّين يُوسُف بن تَغْري بِرْدي) المتوفَّى ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

«حَوادِثُ الدُّهُور في مَدَى الأيَّام والشُّهُور»، الجزء الأول، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٠م.

«مُنْتَخَباتٌ من حَوادِث الدُّهور في مَدَى الأيَّام والشُّهُور»، ١ـ ٤، بعناية وليم بوبر W. POPPER، بركلي ـ جامعة كاليفورنيا ١٩٣١-١٩٤٢م.

«الدَّليلُ الشَّافي على المَنْهَلِ الصَّافي»، ١ـ ٢، تقديم وتحقيق فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة ـ مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٩٨٣م.

«المَنْهَلُ الصَّافي والمُسْتَوْفي بعد الوَافي»، ١ـ ١٠، تحقيق محمد محمد أمين ونبيل عبد العزيز، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٨٤-٢٠٠٣م.

«النُّجُومُ الزَّاهِرَة في مُلُوكِ مِصْر والقاهِرَة»، ١ـ ١٢، بتعليقات محمد رمزي بك، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٩-١٩٥٦م، ١٣ـ ١٦، تحقيق فهيم محمد شلتوت وجمال محمد محرز وإبراهيم علي طرخان وجمال الدين الشيال، القاهرة ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٠-١٩٧٢م.

المُسَبِّحي (الأميرُ المُخْتار عِزُّ المُلْك محمد بن عبيد الله بن أحمد) المتوفَّى سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م.

«أخبارُ مِصْر»، الجزء الأربعون (القِسْم التَّاريخي)، حَقَّقَه أيمن فؤاد سيد وتياري بيانكي، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٧٨م.

«نُصُوصٌ ضائعة من أخْبَار مصر»، اعتنى بجمعها أيمن فؤاد سيد *An. Isl.* XII (1981), pp. 1-54.

المَسْعُودي (أبو الحَسَن علي بن الحسين) المتوفَّى سنة ٣٤٦هـ/٩٥٦م.

«التَّنْبيه والإشْراف»، عناية M.J. DE GOEJE، ليدن ـ بريل ١٨٩٤م.

«مُرُوجُ الذَّهَب ومَعادِنُ الجَوْهَر»، ١ـ ٧، طبعة بربيه دي منار وبافيه دي كرتاي، عني بتحقيقها وتصحيحها شارل بِلا، بيروت ـ الجامعة اللبنانية ١٩٧٠-١٩٨٠م.

المَقْدِسي (محمد بن أحمد البشّاري) المتوفّى بعد سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م.

«أَحْسَنُ التَّقاسيم في مَعْرِفَة الأقاليم»، نشر M.J. De Goeje، ليدن - بريل ١٩٠٦م.

المَقْريزي (تَقِيُّ الدِّين أبو العبّاس أحمد بن علي بن عبد القادر) المتوفّى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.

«اتِّعاظُ الحُنَفَا بأخْبارِ الأئِمَّة الخُلَفَا»، ١-٤، قابله على أصوله وعلّق عليه وقدّم له أيمن فؤاد سيد، لندن - معهد الدراسات الإسماعيلية ودمشق - المعهد الفرنسي للشرق الأدنى ٢٠١٠م.

«إغاثَةُ الأُمَّة بكَشْفِ الغُمَّة»، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدّين الشّيّال، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م. وتُوجَدُ للكِتابِ تَرْجَمَتان مع تَعْليقاتٍ وشُرُوحٍ مُهِمَّة إحْداهُما بالفرنسية G. Wiet, «Le traité des famines de Maqrīzī», *JESHO* V (1961), pp. 1-90، والأخرى بالإنجليزية A. Allouche, *Mamluk Economics: A Study and Translation on al-Maqrizi's Ighâthah*, Salt Lake City 1994.

«الخِطَط» = «المَواعِظ والاعْتِبار».

«دُرَرُ العُقُودِ الفَريدَة في تَراجِم الأَعْيانِ المُفيدَة»، ١-٤، حقّقه وعلّق عليه محمود الجليلي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ٢٠٠٢م.

«الذَّهَبُ المَسْبوكِ في ذِكْرِ من حَجَّ من الخُلَفَاءِ والمُلُوك»، نشره لأوّل مرّة جمالُ الدّين الشّيّال، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥م.

«السُّلُوكُ لمَعْرِفَة دُوَلِ المُلوك»، ١-٤، الأوّل والثاني في ستة أقسام بتحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤-١٩٥٨م، الثالث والرابع في ستة أقسام بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة - مركز تحقيق التراث ١٩٧٠-١٩٧٣م.

«شُذُورُ العُقُودِ في ذِكْرِ النُّقُود» نشره أنستاس ماري الكرملي بعنوان «النُّقُودِ القَديمَة الإسلامية» في كتابه «النُّقُود العَرَبية الإسلامية وعِلْم النُّمِّيات»، بيروت د. ت، ٢٥ - ٨٠.

«مُسَوَّدَةُ كِتابِ المَواعِظِ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»، حَقَّقَها وكَتَبَ مُقَدِّمَتَها ووَضَعَ فهارسها أيمن فؤاد سيد، لندن - مؤسّسة الفُرْقان للتُّراث الإسلامي ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

«المُقَفَّى الكبير - كِتاب»، ١-٨، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت - دار الغرب الإسلامي ١٩٩١م.

«المَواعِظُ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»، ١-٥، حَقَّقَه وكَتَبَ مُقَدِّمته وحَواشِيه ووَضَعَ فهارِسَه أيمن فؤاد سَيِّد، لندن - مؤسّسة الفُرْقان للتُّراث الإسْلامي ٢٠٠١-٢٠٠٤م.

أبو المَكارِم (المُؤْتَمَن أبو المكارم سَعْد الله بن جِرْجِس بن مسعود) عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

«تاريخُ الكَنائِس والأَدْيِرَة»، ١-٤، إعداد وتعليق الراهب صموئيل السُّرياني، القاهرة ٢٠٠٠م.

ابنُ مَمّاتي (أبو المكارِم الأسْعَدُ بن مُهَذَّب الخَطير أبو سعيد مينا) المتوفّى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م.

«قَوانِينُ الدَّواوين»، جَمَعَه وحَقَّقَه عزيز سوريال عطية، القاهرة - الجمعية الملكية الزراعية ١٩٤٣م.

ابنُ مَنْظور (جمالُ الدِّين أبو الفَضْل محمد بن مَكْرَم بن علي الأنْصاري الإفريقي) المتوفَّى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م.

«لِسانُ العَرَب»، ١ـ ٢٠، بيروت ـ دار صادر ١٩٦٠م.

المُوَفَّقُ بن عُثْمان (مُوَفَّقُ الدِّين أبو محمد بن عبد الرَّحمن بن أبي الحَرَمَ مَكّي بن عُثْمان الشّارِعي الشّافِعي) المتوفَّى سنة ٦١٥هـ/١٢١٧م.

«مُرْشِدُ الزُّوَّار إلى قُبُورِ الأَبْرار» المُسَمَّى «الدُّرُّ المُنَظَّم في زيارَة الجَبَلِ المُقَطَّم»، حَقَّقَه وعَلَّقَ عليه ووَضَعَ فَهارِسَه وذَيَّلَه محمد فتحي أبو بكر، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٥م.

ابنُ مُيَسَّر (تاجُ الدِّين محمد بن علي بن يُوسُف بن جَلَب راغِب) المتوفَّى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م.

«أَخْبَارُ مصر ـ المُنْتَقَي من» انْتَقاه تقيّ الدِّين المَقْريزي، حَقَّقَه وكَتَبَ مُقَدِّمَته وحواشيه ووَضَعَ فهارِسَه أيمن فؤاد سَيِّد، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١م.

النَّابُلُسي (عَبْدُ الغَني بن إسماعيل بن أحمد) المتوفَّى سنة ١١٤٣هـ/١٧٣١م.

«الحَقيقَةُ والمَجَازُ في رِحْلَةِ بِلادِ الشَّام ومصر والحِجَاز»، تقديم وإعْداد أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٨٦م.

ناصِرُ خِسْرُو قام برحلته بين سنتي ٤٣٧ـ٤٤٢هـ/١٠٤٥ـ١٠٥٢م.

«سَفَـرْنامَة» رِحْلَةُ ناصِر خُسْرُو إلى لُبْنان وفِلَسْطين ومصر والجَزيرة العربية في القرن الخامس الهجري، نقلها إلى العربية يحيى الخَشّاب، بيروت ـ دار الكتاب الجديد ١٩٧٠م.

النُّعَيْمي (محيي الدِّين أبو المفاخِر عبد القادِر بن محمد) المتوفَّى سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م.

«الدَّارِسُ في تاريخِ المدارِس»، ١ـ٢، عُنِيَ بنَشْرِه وتحقيقه جَعْفَر الحَسَني، دمشق ـ المجمع العلمي العربي ١٣٦٧ـ١٣٧٠هـ/١٩٤٨ـ١٩٥٠م.

النُّوَيْري (شِهَابُ الدِّين أحمد بن عبد الوَهَّاب البَكْري الشّافِعي) المتوفَّى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م.

«نِهايَةُ الأَرَبِ في فُنُونِ الأَدَب»، ١ـ٣٣، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٣ـ١٩٩٧م.

ابنُ واصِل (جمالُ الدِّين محمد بن سَالِم الحَمَوي) المتوفَّى سنة ٦٩٧هـ/١٢١٧م.

«مُفَرِّجُ الكُرُوب في أَخْبَارِ بني أَيُّوب»، ١ـ٣، تحقيق جمال الدِّين الشَّيَّال، القاهرة ١٩٥٣ـ ١٩٦٠؛ ٤ـ٥، تحقيق حسنين محمد ربيع، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٧٢، ١٩٧٧م. ونُسْخَةُ بارس رقم ar. 1703.

«وَثَائِقُ وَقْفِ السُّلْطان قَلاوون على البيمارِسْتان المَنْصُوري»، دِراسَةُ ونَشْرُ وتحقيق محمد محمد أمين في نهاية الجزء الأوَّل من كِتابِ ابن حَبيب: تَذْكِرَة النَّبيه في أيَّام المَنْصُور وبنيه، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٧٦، ٢٩٥ ـ ٣٩٦.

«وَثَائِقُ وَقْفِ السُّلْطانِ الملك النَّاصِر حَسَن بن محمد بن قَلاوون على مَصَالِح القُبَّة والمَسْجِد الجَامِع والمدارِس ومَكْتَب السَّبيل بالقاهـرة (الشُّروط ـ الوَظائف ـ المَصَارِف)» ، دِراسَةُ ونَشْرُ وتحقيق محمد محمد أمين في نهاية الجزء الثَّالِث من كِتاب ابن حَبيب : تَذْكِرَة النَّبِيه في أيَّام المَنْصُور وبنيه ، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

«وَثَائِقُ وَقْفِ السُّلْطانِ النَّاصِر محمد بن قَلاوون» ، دِراسَةُ ونَشْرُ وتحقيق محمد محمد أمين في نهاية الجزء الثَّاني من كِتاب ابن حَبيب : تَذْكِرَة النَّبِيه في أيَّام المَنْصُور وبنيه ، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٨٢م .

«وَقْفِيَّةُ الصَّالِح طَلائِع» - CAHEN, CL., RAGHIA, Y., et TAHER, M.A., *L'achat et le waqf d'un grand domaine égyptien* ...

وليم الصُّوري .

«الحُرُوبُ الصَّليبية» ، ١ ـ ٤ ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (سلسلة تاريخ المصريين ٤٥ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٧) ١٩٩١ ـ ١٩٩٥م .

ياقُوتُ الحَمَوي (شِهابُ الدِّين أبو عبد الله ياقُوت بن عبد الله) المتوفَّى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م .

«مُعْجَمُ البُلْدان» ، ١ـ٧ ، بيروت ـ دار صادر ١٩٩٥م .

اليَعْقُوبي (أحمد بن إسْحاق بن جَعْفَر بن وَهْب بن واضِح) المتوفَّى بعد سنة ٢٩٢هـ/٩٠٥م .

«البُلْدَان» ، نَشَرَه دي خويه بذيل كِتابِ «الأعْلاق النَّفيسَة» لابن رُسْتَه ، ليدن ١٨٨٣م .

٢ـ المَراجِعُ العَرَبِيَّةُ والمُعَرَّبَة

آمالُ العِمَري .

«أحْواضُ سَقْي الدَّواب بالقاهرة في العَصْرَيْن المملوكي والعُثْماني» ، دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية ، ١:٥٥ ـ ٨٦.

«أضْواءٌ جَديدَة على تاريخ خان الزَّراكِشَة» ، مجلة كلية الآداب ـ سوهاج ١/٩ (١٩٩٠) ، ٢٧٩ ـ ٢٩٤.

«إعادَةُ استعمال الرُّخام في العصر المملوكي» ، دراسات آثارية إسلامية ١ (١٩٧٨) ، ٢٥٥ ـ ٢٨١.

«بِرْكَةُ الحاجّ خِلال العَصْرَيْن المملوكي والعثماني» ، القاهرة ـ دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٧م .

«دِراسَةٌ جَديدَة على ضَريح المَنْصُور قَلاوون بالنَّحّاسين (٦٨٣ـ٦٨٤هـ/١٢٨٤ـ١٢٨٥م)» ، دراسات آثارية إسلامية ٣ (١٩٨٨) ، ٤٧ـ ٦١.

«دراسَةٌ لزَخارِف على لَوْح من الرُّخام عُثِرَ عليه في مَدْرَسَة صَرْغَتْمُش» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١ (١٩٧٥) ، ١٤٣ـ١٧٦.

«قاعَةُ قَصْر بَشْتاك» ، مجلة كلية الآداب ـ سوهاج ١/٩ (١٩٩٠)، ٢٩٥ ـ ٣٢٤.

«مَدْرَسَةُ قُطْلُوبُغا الذَّهَبي ٧٤٨هـ/١٣٤٧م بشارع سُوقِ السِّلاح بالقاهرة» ، دراسات آثارية إسلامية ٣ (١٩٨٨)، ١٧ـ٤٥.

«مَوارِدُ المياه وتَوْزيعُها في بعض المُنْشآت الدِّينية السُّلْطانية بمَدينَة القاهِرَة» ، مجلة كلية الآداب ـ سوهاج ٧ (١٩٨٨).

آمال العِمَري ، علي الطَّايِش .

«العِمارَةُ في مصر الإسلامية (العصران الفاطمي والأيُّوبي)، ديرب نجم شرقية ـ مكتبة الصفا والمروة ٢٠٠٠م.

«أبْحَاثُ النَّدْوَة الدَّوْلية لتاريخ القاهرة ، مارس ـ أبريل ١٩٦٩» ، ١ ـ ٣، القاهرة ـ وزارة الثقافة (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٩٧٠ ـ ١٩٧١م.

إبراهيم شَبُّوح .

«من رَوائِع العِمارَة بالقاهِرَة المملوكية : جَامِعُ الملك المُؤَيَّد (٨١٨-٨٢٢هـ/١٤١٥-١٤١٩م)» ، بحثٌ غير منشور مقدَّم إلى النَّدْوَة الدَّوْلية لألفية القاهرة ١٩٦٩م.

إبراهيم صُبْحي .

« فَنُّ النَّحْت على عَمَائر القاهِرَة منذ سنة ١٨٧٥م وحتى سنة ١٩٣٠م» ، مشكاه ـ المجلة المصرية للآثار الإسلامية ٢ (٢٠٠٧م)، ٣٩ـ٦٦.

إبراهيم بن محمد الحمد المزَيْني .

«المساكِنُ الدَّاخلية في المدارِس الإسلامية» ، مجلة المؤرخ العربي ٦ (مارس ١٩٩٨)، ٣٠٥ ـ ٣٢٢.

أجنيسكا دوبروڤولسكا وياروسلاف دوبروڤولسكي

«هِلْيُوبُوليس مَدِينَةُ الشَّمْس تُولَدُ من جَدِيد» ، ترجمة محمد عناني ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٨م.

أحمد راغب .

«الأعْمال التي قامت بها وَزَارَةُ الأشْغَال حَوْلَ مِقْياس النِّيل الأثري بالرَّوْضَة» ، مجلة الهندسة ع ١٥ (أكتوبر ١٩٣٥م)، ٣٢١ـ ٣٣٠.

أحمد السَّيِّد دَرَّاج ، المتوفَّى سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

«جاسْتُون ڤييت وأعْمالُه العِلْمِيَّة» ، المجلة التاريخية المصرية ١٩ (١٩٧٢)، ٨٩ ـ ١١٠.

«الحِسْبَةُ وأثَرُها على الحياة الاقتصادية في مصر المملوكية» ، المجلة التاريخية المصرية ١٤ (١٩٦٨)، ١٠٩ـ١٤١.

أحمد السَّيِّد الصَّاوي .

«مجاعاتُ مِصْر الفاطِمية ـ أسْبابٌ ونَتائِج» ، بيروت ـ دار التضامن ١٩٨٨م .

أحمد عادل كمال .

«أطْلَس تاريخ القاهِرَة» ، القاهرة ـ دار السّلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .

أحمد عبد الرازق أحمد .

«العِمارَةُ الإسْلاميةُ في مصر منذ الفَتْح العَرَبي حتى نهاية العَصْر المملوكي (٢١-٩٢٣هـ/ ٦٤١-١٥١٧م)» ، القاهرة ـ دار الفكر العربي ٢٠٠٩م .

أحمد عبد المجيد هَريدي .

«فهرست خِطَط مصر ـ فهرس تحليلي لكتابي ابن دُقْماق والمَقْريزي عن مصر (كتاب الانْتِصار ، كتاب الخِطَط)» ، ١-٣، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨٣-١٩٨٤م .

أحمد عزت عبد الكريم ، المتوفَّىٰ سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

«حَرَكَة التَّحَوُّل في بِنَاء المجْتَمع القاهِري في النِّصْف الأَوَّل من القَرْن التَّاسع عَشْر» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٤٥-١٥٩.

أحمد عيسىٰ بك ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

«تاريخُ البيمارِسْتانات في الإسلام» ، القاهرة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م . «مُعْجَمُ الأطِبّاء من سنة ٦٥٠هـ إلى يومنا هذا ـ ذَيل عُيُون الأنباء في طبقات الأطِبّاء لابن أبي أُصَيْبِعَة» ، كلية الطب ـ جامعة فؤاد الأوَّل ١٩٤٢م ، وبيروت ـ دار الرائد العربي ١٩٨١م .

أحمد فِكْري ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م .

«خَصَائِصُ عِمَارَة القاهِرَة في العَصْرِ الأَيُّوبي» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠-١٩٧١م ، ١:١٦١-١٩٢.

«مَساجِدُ القاهِرَة ومَدارِسُها» ، المَدْخَل ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦١م؛ الجزء الأول ـ العَصْرُ الفاطِمي ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٥م؛ الجزء الثاني ـ العَصْرُ الأَيُّوبي ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦٩م .

أحمد فؤاد سَيِّد ، المتوفَّىٰ سنة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

«تاريخُ مِصْر الإسلامية زَمَن سَلاطِين بني أَيُّوب (٥٦٧-٦٤٨هـ)» ، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م .

«مَصَادِرُ تاريخ مصر الإسلامية في العَصْر الأيُّوبي ، ٥٦٧هـ ـ ٦٤٨هـ ـ دراسةٌ مُقارَنَةٌ بمَصَادِرِ تاريخ مصر الإسلامية في العَصْرِ المماليكي» ، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

أحمد مُخْتار العَبَّادي .

«قِيامُ دَوْلَة المماليك الأولى في مصر والشَّام» ، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٦٩م .

أحمد ممدوح حمدي.

«عَوَاصِمُنا الإِسْلامية قَبْل القاهِرَة»، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ١٩٣-١٠٤.

أحمد النَّكْلاوي.

«القاهِرَة - دِرَاسَة في عِلْم الاجْتِمَاع الحَضَرِي»، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٧٣م.

أحمد يُوسُف.

«قَلْعَةُ القاهِرَة»، القاهرة - دار الفكر العربي ١٩٥٨م.

إدَارَةُ حِفْظ الآثار العَرَبِيَّة.

«نُبْذَة تاريخِيَّة عن مَنْطِقَة القَلْعَة وما بها من آثار لمناسبة زِيَارَة ضُيُوف مِصْر في اليُوبيل الفِضِّي لجامِعَة فؤاد الأوَّل»، القاهرة - المطبعة الأميرية ١٩٥٠م.

إدْوارْد وَلْيم لين = لين، إدْوارد وِلْيم.

إرنست ج. جروبيه.

بَوَاكِيرُ النُّقُوش في القاهِرَة الإِسْلامية (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٢١٣-٢١٤.

أرْنُو، جان - لوك.

«القاهِرَة - إقامَة مَدِينَة جَدِيدَة ١٨٦٧-١٩٠٧ من تَدَابِير الخِدِيوي إلى الشَّرِكات الخاصَّة»، ترجمة حليم طوسون وفؤاد الدَّهَان، القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢م.

«إسْماعِيل بمناسبة مُرُور خمسين عَامًا على وَفَاتِه»، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٤٥م.

أماني عويس.

«أوقَاف الأمير سليمان أغَا السِّلِحْدَار بخان الخَلِيلي»، الخان الخليلي وما حَوْلَه، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١:١٢٧-١٤٢.

أمين سَامِي، المتوفَّىٰ سنة ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.

«تَقْوِيمُ النِّيل وأسْمَاءُ من تَوَلَّوا أمْرَ مِصْر ومُدَّة حُكْمِهم عليها»، الأوَّل المطبعة الأميرية ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، ٢-٤، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٢٦-١٩٣٦م.

أمينة أحمد الشُّوربجي.

«رُؤْيَةُ الرَّحَّالَة المسلمين للأحْوال المالية والاقتصادية لمصر في العَصْرِ الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ - ١١٧١م)»، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٧٢) ١٩٩٤م.

أندريه ريمون.

«التَّاريخ الاجْتِمَاعِي للقَاهِرَة العُثْمانِيَّة»، ترجمة زهير الشَّايب، القاهرة - مكتبة مدبولي د. ت.

«الحِرَفِيُّون والتُّجَّار في القاهرة في القرن الثَّامِن عَشَر»، ١-٢، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم وباتسي جمال الدِّين، القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٥م.

«فُصُولٌ من التّاريخ الاجْتماعي للقاهِرَة العثمانية»، ترجمة زهير الشّايب، القاهرة ـ مكتبة مدبولي د. ت.
«القَاهِرَة تاريخٌ حَاضِرَة»، ترجمة لطيف فرج، القاهرة ـ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ١٩٩٤م.
«القاهِرَةُ العُثْمانية بوَصْفِها مَدِينَة ـ شُئون البَلَدِيَّات ومُشْكِلات المَرَافِق»، ترجمة زهير الشايب، المجلة التاريخية المصرية ٢٠ (١٩٧٣)، ٢١٣.
«مَدِينَةُ القاهِرَة ومَشَاكِلها في القَرْنَيْنِ السَّابع عَشَر والثَّامِن عَشَر» (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٢٤٥-٢٤٦.

أنْوَر لُوقا، المتوفَّىٰ سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
«علي بَهْجَت ـ رائِدُ البَحْث في الآثار العربية بمصر من رسائله (١٨٨٧-١٩١٩) لتلميذه السويسري وانْبرخم»، القاهرة ـ كتاب الهلال ٢٠٠٣م.

إيرا لابيدوس.
«السِّياسةُ الدِّينيةُ في عَهْدِ الأيُّوبيين وتَطَوُّر المذاهب الشَّرْعية في القاهرة» (ملخَّص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ٢٥٣ـ ٢٥٥.

أيمن فؤاد سَيِّد.
«أندريه ريمون عاشِقُ القاهِرَة»، في كتاب المُجْتَمَع المصري في العَصْرين المملوكي والعثماني، تحرير عُبادَة كُحيلة، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م، ١٧ـ ٢٦.
«تَحَوُّلُ القاهِرَة إلى مَرْكَزٍ اقْتِصَادي في أواخِر العَصْرِ الفاطِمي وفي العَصْرِ الأيُّوبي»، في كِتاب الخان الخليلي وما حوله، مركز تجاري وحرفي للقاهرة من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٩٩م، ١٥٧ـ ١٦٠.
«التَّطَوُّرُ العُمْراني لِمَدِينَةِ القاهِرَة منذ نَشْأتِها وحتى الآن»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م.
«تَنْظِيمُ العاصِمَة المصرية وإدارَتُها في زَمَنِ الفاطِميين»، حوليات إسلامية *An.Isl.* ٢٤ (١٩٨٨)، ١ـ ١٣.
«التَّنْظِيمُ المَدِيني والإدَاري للعَاصِمَة المصرية بين العَصْرَيْن الفاطِمي والمملوكي»، في كتاب صَفَحات من تاريخ دِمَشْق ودِرَاسَات أخرىٰ، تحرير محمد عدنان البخيت، لندن ـ مؤسَّسة الفُرْقان للتراث الإسلامي ٢٠٠٦م، ١٦٣ـ ١٩٨.
«جَامِعُ المِقْياس بجَزيرَة الرَّوْضَة»، دراساتٌ وبحوثٌ في الآثار والحضارة الإسلامية ٢:٩ـ ١٨.
«خِزَانَةُ كُتُبِ الفاطِميين هل بقي منها شيء؟»، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤٢/١ (١٩٩٨)، ٧ـ ٣٢.
«دَوْرُ عُلَماءِ الحملة الفرنسية في دِراسَة خِطَطِ القاهرة»، المجلة التاريخية المصرية ٤٠ (١٩٩٧-١٩٩٩)، ٣٢٣ـ ٣٣٦.
«الدَّوْلَةُ الفاطِمِيَّة في مصر ـ تَفْسيرٌ جديد»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٠م.
«المَدارِسُ في مِصْر قَبْلَ العَصْرِ الأيُّوبي» في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ٨٧ـ ١٣٦.

«المَدينَةُ الإسلامية والدِّراسات الحَديثَة التي تناوَلتها»، المجلة التاريخية المصرية ٤٠ (١٩٩٧-١٩٩٩)، ٤٥-٦٣.

بدرام ميكال.

«الآثارُ اليهودية في مصر»، ترجمة الضوي يونس وعمرو زكريا، القاهرة - دار الفكر الحديث ١٩٩٦م.

«تَاريخُ المَدَارِس في مصر الإسلامية»، أبحاثُ نَدْوَة «المدارِس في مصر الإسلامية، التي أَعَدَّتها لجنةُ التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثُّقافَة وعُقِدَت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢-٢٥ أبريل ١٩٩١م، أعَدَّها للنَّشر عبد العظيم رمضان، سلسلة تاريخ المصريين ٥١، القاهرة - الهيئة المصرية العامّة للكتاب ١٩٩٢م.

توسان كانيري.

«مَدِينَةُ مصر، حاضِرُها ومُستَقْبَلُها - بَحْثٌ في إنْشَاء بَلَدِيَّة لها»، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي للعاديات الشَّرقية ١٩٠٥م.

تَوْفيق إسْكارُوس، المتوفَّى سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.

«علي بَهْجَت بك وفَضْلُه على عِلْم الآثار العربية في مصر»، الهلال ٣٢/٨ (مايو ١٩٢٤)، ٨٥٦- ٨٦١.

«ماكْس هِرْتز باشا وفَضْلُه في حِفْظِ الآثارِ العربية»، الهلال ٢٧ (يونية ١٩١٩)، ٩٢١-٩٢٨.

جَمَال حَمْدَان، المتوفَّى سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

«جُغْرَافِيَة المُدُن»، القاهرة - مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٦٠م.

«شَخْصِيَّة مصر»، ١-٤، القاهرة - عالم الكتب ١٩٧٧-١٩٨٧م.

«القَاهِرَة»، كتاب الهلال ١٩٩٣م.

«القاهِرَةُ الكبرى - دراسة في جغرافية المُدُن»، القاهرة ١٩٦٩م.

«نُمُوّ وتَوْزِيع السُّكّان في مصر»، القاهرة ١٩٥٩م.

جَمال الشَّرْقاوي.

«أسْرَار حريق القاهرة في الوثائق البريطانية»، القاهرة - دار شهدي للنَّشر ١٩٧٥م.

جَمال عبد الرَّحيم إبراهيم.

«أعْمالُ الأمير يَشْبَك المِعْمارية والفَنِّيَّة»، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ٨ (١٩٩٧)، ٥٢١- ٥٤٤.

جمال محمّد مِحْرِز، المتوفَّى سنة ١٣٩١هـ/١٩٧٢م.

«مَنَازِلُ الفُسْطَاط كما تَكْشِف عنها حَفَائِرُ الفُسْطَاط»، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٣٢٣- ٣٥١.

جومار، إدْم فرنسوا، المتوفَّى سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م.

«وَصْفُ مَدينَةِ القاهِرَة وقَلْعَةِ الجَبَل - مع مُقَدِّمَة عن التَّطَوُّرِ العُمْراني لمَدينَة القاهرة منذ إنْشائها وحتى سنة ١٨٠٠م»، نقله عن الفرنسية وقَدَّمَ له وعَلَّق عليه أيمن فؤاد سَيِّد، القاهرة - مكتبة الخانجي ١٩٨٨م.

جون وليامز .

«مَبَانِي القَاهِرَة العُثْمانِيَّة» (ملخص) ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٣٦٩- ٣٧٠.

حسن الباشا ، المتوفَّى سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

«دِراسَةٌ جَديدَةٌ في نَشْأة الطِّرازِ المعماري للمَدْرَسَة المصرية ذات التَّخْطيط المُتعامِد» ، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ٣ (١٩٨٩) ، ٤٣- ٨٠.

«الفُنُونُ الإسلامية والوَظائِفُ على الآثار العربية» ، ١- ٣، القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٥-١٩٦٦م .

«القَاهِرَة - تاريخُها ، فنونُها ، آثارُها» ، (مراجعة) ، القاهرة - مؤسسة الأهرام ١٩٧٠م .

«مَوْسُوعَةُ العِمارَة والآثار والفُنُون الإسلامية» ، ١ - ٥، بيروت - أوراق شرقية ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

حسن عبد الوَهَّاب ، المتوفَّى سنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .

«الآثارُ المَنْقُولَة والمُنْتَحَلَة في العِمارَة الإسلامية» ، *BIE* XXXVIII/1 (1955-56), pp.243-83.

«الأَطْلَسُ التَّاريخي ، القاهرة بين المُعِزّ لدين الله والفاروق» ، المجلة التاريخية المصرية ١ (١٩٤٨) ، ٤٤٥- ٤٥٥.

«تاريخُ المَساجِد الأثرية التي صَلَّى فيها فَرِيضَة الجُمُعَة حَضْرَة صَاحِب الجَلالَة الملك الصَّالِح فاروق الأوَّل» ، ١- ٢، القاهرة - مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦م .

«تَخطيطُ القاهِرَة وتَنْظيمُها منذ نَشْأتها» ، *BIE* XXVVII/2 (1954-55), pp. 1-45.

«تَوْقيعاتُ الصُّنَّاع على آثار مصر الإسلامية» ، مجلة المجمع العلمي المصري *BIE* ٣٦ (١٩٥٣-١٩٥٤) ، ٥٣٣-٥٥٨.

«جَامِعُ آقْ سُنْقُر ، مَسْجِد الإمام الشَّافِعِي ، مَسْجِد الإمام اللَّيْث ، مَدْرَسَة وقُبَّة وبيمارسْتان المَنْصُور قَلاوون خَانْقاه بَيْبَرْس الجاشْنَكِير ، مَدْرَسَةُ السُّلْطان حَسَن» ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٩٤- ١٢٠.

«جامِع أحمد بن طُولُون» ، العربي ، عدد ٢٠، أكتوبر ١٩٦٠ ص ١٠١-١٠٧.

«حَوْلَ دَار المَقْرِيزي» بحثٌ في كتاب «دراسات عن المَقْريزي - مجموعة أبحاث» ، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١، ٧٥- ٧٩.

«خانْقاه فَرَج بن بَرْقُوق وما حَوْلَها» ، المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية - فاس ١٩٥٩، القاهرة - جامعة الدول العربية ١٩٦١م ، ٢٨٣- ٣٠٥.

«رباطُ أحمد بن سليمان» ، مجلة الهندسة ١٧ (١٩٣٧) ، ١٥٤- ١٥٩.

«العِمَارَةُ في العَصْر الأيُّوبي» ، العمارة ، مجلد ٢ عدد ٧-٨ ص ٣٩٢-٤٠٧ (٣١ صورة) ، عام ١٩٤٠م .

«العِمَارَةُ في العَصْر الفاطِمِي» ، العمارة مجلد ٢ عدد ٥-٦ ص ٣١٠-٣٢٤ (٢٣ صورة) ، عام ١٩٤٠م .

«العِمَارَةُ في عَصْر محمَّد علي» ، العمارة ، عام ١٩٤١م قصر الجوهرة والحرم بالقلعة ص ٢٨- ٣٨، دار المحفوظات ، ودار الضرب ص ٥٠، ٥١.

«العِمَارَةُ في عَصْر المماليك البَحْريَّة» ، العمارة ، مجلد ، عدد ٩ـ ١٠، ص ٤٦٨ـ٤٨٠ (٢٠ صورة) .
«العِمَارَةُ في عَصْر المماليك الشَّرَاكِسَة» ، العمارة مجلد ٥ عدد ١ ص ٣٢ـ٣٧، مجلد ٦ عدد ٣، ٤ ص ٥٦ـ٦٣ عام ١٩٤٥، ١٩٤٦: بقية المقال السابق، العمارة مجلد ٩، عدد ١، ٢ ص ٤٧ـ٥٣، عام ١٩٤٩م .
«العِمَارَةُ في عَصْر المَنْصُور قَلاوون» ، العمارة ، مجلد ٣ ص ٨٥ـ٩٢ (١٢ صورة) .
«مَدْرَسَةُ أبو بكر مُزْهِر» ، مجلة الهندسة ص ١٧ـ ٢٣.
«مَسْجِدُ ابن طُولُون» ، مجلة العمارة مجلد ٢، ص ١٠٥ـ ١١٢، عام ١٩٤٠م .
«مَسْجد عُقْبَة بن عامِر ـ مَسْجِد الرِّفاعِي ـ مَسْجِد أبي العَلاء ، مَسْجِد قاني باى الرَّماح ، مَدْرَسَة قايتْباي ، مَدْرَسَة قِجْمَاس الإسْحاقي» ، كتاب الشعب رقم ٧٨ ص ١٣١ـ ١٤٩.
«مِقْيَاسُ النِّيل بالرَّوْضَة» ، كتاب الشعب رقم ٤٩ ص ٢٨٥ـ ٢٩١.
«نَشْأةُ المَسَاجِد ورِسَالَتها» ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٣ـ ٦.
حَسَن فَتْحي ، المتوفَّى سنة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .
«القَاعَة العَرَبيَّة في المَنَازِل القاهِرِية» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٣٨٥ـ ٤٢٧.
حَسَن قاسم ، المتوفَّى سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م .
«المَزاراتُ المصرية والآثارُ الإسلامية في مصر والقاهِرَة المُعِزِّيَّة» ، ١ـ ٦، القاهرة ـ مجلة هدي الإسلام ١٩٤٠ـ١٩٤٥م .
حَسَن محمَّد الهَوَّاري .
«أقْدَم دَار إسْلامية في مِصْر» ، مجلة الهندسة عدد ٨، ٩، ١٠، أكتوبر ١٩٣٥ السنة ١٥ ص ٢٨٩ـ ٣١٥.
حُسْني محمد نُوَيْصِر .
«دِرَاسَةٌ عن بعض دِكَكَ المُؤَذِّنين في العَصْرَيْن المملوكي الجركسي والعُثْماني بمَدِينَة القاهِرَة» ، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٢٥ (١٩٩١) ، ١١ـ ٤٨.
«دِراسَةٌ لأجزاءِ هامَّة من بقايا مَدْرَسَة الظَّاهِر بَيْبَرْس البُنْدُقْداري بالقاهِرَة» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٧ (١٩٩٦) ، ١ـ ٤٠.
«العِمارَةُ الإسلامية في مصر : عَصْرُ الأيُّوبيين والمماليك» ، القاهرة ـ مكتبة زَهْراء الشَّرْق ١٩٩٦م .
«عَوامِلُ مُؤَثِّرَة في تَخْطيط المَدْرَسَة المملوكية» ، في كتاب تاريخ المدارِس في مصر الإسلامية ، ٢٢٧ـ ٢٦٧.
«مَدْرَسَةٌ جَرْكَسية على نَمَطِ المساجِدِ الجامعة ـ مَدْرَسَةُ الأمير سُودون من زاده بسُوقِ السِّلاح» ، القاهرة ـ مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٥م .
«مَضَامينُ شَرِيفَة بنصُوصِ تأسِيس المَدْرَسَة الأشْرَفِيَّة بَرْسباي بالقاهِرَة ـ دِراسَةٌ معمارية حضارية» ، المؤرخ المصري ٥ (يناير ١٩٩٠) ، ٢١٧ ـ ٢٩١.

«مِئْذَنَةٌ بلا مَسْجِد»، المؤرِّخ المصري ١ (١٩٨٨م)، ٥٣ـ ٩٤.

«مُنْشأةُ الأمير فَيْرُوز السَّاقي بالقاهرة»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٦ (١٩٩٥)، ١ ـ ٥.

حكيم أمين عبد السَّيِّد.

«قِيامُ دَوْلَةِ المماليك الثَّانية»، القاهرة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م.

أبو الحَمْد محمُود فَرْغَلي.

«الدَّليلُ المُوَجزُ لأهَمِّ الآثار الإسْلامية والقِبْطِيَّة في القاهِرَة»، القاهرة ـ الدار المصرية للبنانية ١٩٩١م.

حمدي أبو جليل.

«القاهرة ـ شوارع وحكايات»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١١م.

خَالِد عَزَب.

«أسْوَارُ قَلْعَة صَلاح الدِّين»، القاهِرَة ـ زَهْراء الشَّرْق ٢٠٠٦م.

«فِقْهُ العُمْران ـ العمارةُ والمجتمعُ والدولةُ في الحضارة الإسلامية»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٣م.

خالِد محمد هيبة.

«عُمْرَانُ القاهِرَة»، البحرين ـ جامعة المملكة ٢٠١٠م.

«الخَانُ الخَليلي وما حَوْلَه. مركز تُجاري وحِرَفي للقاهرة من القَرْن الثَّالِث عَشْر إلى القَرْن العشرين»، ١ـ ٢، تحت إشْراف سيلفي دونوا وجان شارل ديبول وميشيل توشيرير، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٩٩م.

«دِراساتٌ عن المَقْريزي ـ مجموعَةُ أبحاث»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م.

«دِراساتٌ وبُحُوثٌ في الآثار والحَضَارة الإسلامية»، الكِتابُ التَّذْكاري للأثاري عبد الرَّحمن عبد التَّوَّاب، ١ـ ٢، القاهرة ـ المجلس الأعلى للآثار ٢٠٠٠ـ٢٠٠١م.

«دَليلُ الآثار الإسْلامية بمدينة القاهِرَة»، القاهرة ـ مركز المعلومات ودَعْم اتخاذ القرار والمجلس الأعلى للآثار ٢٠٠٠م.

دَوْلَت عبد الكريم عبد الله.

«مَعَاهِدُ تَزْكية النُّفُوس في مصر في العَصْرِ الأيُّوبي والمملوكي»، القاهرة ـ مطبعة حَسَّان ١٩٨٠م.

«ذَاكِرَةُ القاهِرَة الفُوتُوغْرافِيَّة»، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٩م.

رَبيع حامِد خَليفَة، المتوفَّى سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

«فُنونُ القاهِرَة في العَهْدِ العُثْماني (١٥١٧ـ١٨٠٥م)»، القاهرة ـ مكتبة نهضة الشرق ١٩٨٤م.

رِفْعَت موسى محمَّد.

«الوَكَالاتُ والبُيُوتُ الإسْلامية في مِصْر العُثْمانِيَّة»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣م.

روبيرتو روبيناتشي .
«مَدِينَةُ القَاهِرَة كما يَصِفُها العالِم الجُغْرَافي الإدْرِيسي» (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٤٩٩-٥٠٠.

روجر أوين .
«صِنَاعَة البِنَاء في القاهِرَة وازْدِهَار العُمْرَان في الفَتْرَة ما بين ١٨٩٧-١٩٠٧» (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٥٠٩-٥١٢.

رَؤُوف حَبيب .
«المُوجَزُ التاريخي عن الكنائِسِ القِبْطِيَّة القَدِيمَة بالقاهرة»، القاهرة ١٩٧٩م .

ريجيس بلاشير .
«نَظْرَةٌ عامَّة للآثار السِّياسِيَّة والثَّقافِيَّة المترتِّبة على تأسِيس القاهِرَة عام ٩٦٩م» (مُلَخَّص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٥١٥-٥١٦.

ريمون، أندريه = أندريه ريمون .

زبيدة محمد عَطَا .
«مَكْتَبَاتُ المدارِس «خِزانَة الكُتُب» في العَصْرَيْن الأيُّوبي والمملوكي»، في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ٢٠١-٢٢٦.

زكي محمد حسن، المتوفَّى سنة ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م .
«الرَّحَّالَة المُسْلِمُون في العُصُور الوُسْطَى»، القاهرة - دار المعارف ١٩٤٥م .
«الفَنُّ الإسلامي في مصر»، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٥م .
«كُنُوزُ الفاطِميين»، القاهرة - دار الآثار العربية ١٩٣٧م .

زكي محمَّد حَسَن وعبد الرحمن زَكِي .
«في مِصْر الإسْلامية»، القاهرة - مطبعة المقتطف ١٩٣٧م .

زَيْنَب الغَنَّام .
«الأَسْوَاقُ في العَصْر العُثْماني»، الخَان الخَلِيلي وما حَوْلَه، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١:٩٩-١١١.

سَامِح عبد الرحمن فهمي، المتوفَّى سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .
«جَامِعُ الظَّاهِر بَيْبَرس - دراسة معمارية وفنية»، دراسات آثارية إسلامية ٣ (١٩٨٨)، ٩٩-١٥٩.

سامي عبد الحليم ، المتوفَّى سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .
«الخَطُّ الكوفي الهندسي المُرَبَّع حِلْيَة كتابية بمُنْشآتِ المماليك في القاهرة» ، الإسكندرية ـ مؤسسة شباب الجامعة ١٤١٢هـ/١٩٩١م .
«الحَجَرُ المُشَهَّر ، حِلْيَة معمارية بمُنْشآت المماليك في القاهرة» ، القاهرة ١٩٨٤م .
«مَسْجِدُ الأمير آقْسُنْقُر النَّاصِري» ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة المنصورة ٣ـ٤ (مايو ١٩٨٢) ، ٢٦١ـ ٣٤٩.
سامي محمد نَوَّار .
«دِراسَةٌ تحليلية لسُورِ القاهرة بالجزء الممتدّ من بابِ النَّصْرِ إلى بابِ البَرْقِيَّة» ، دراساتٌ وبحوثٌ في الآثار والحَضارَة الإسلامية ، ١:١٨٣ ـ ١٩٨.
ستانلي لين ـ بول ، المتوفَّى سنة ١٣١٣هـ/١٨٩٥م .
«سِيرَة القَاهِرَة» ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعلي إبراهيم حسن وإدوار حليم ، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠م .
سِتيوَارْت ، ديزمُوْند .
«القَاهِرَة» ، ترجمة يحيىٰ حقي وتقديم جمال حَمْدَان ، القاهِرَة ـ كتاب الهلال ١٩٦٩م .
سُعَادُ ماهِر محمد ، المتوفَّاة سنة ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .
«أَثَرُ الفُنُون التَّشْكيلِيَّة الوَطَنِيَّة القَدِيمَة على فَنّ القاهِرَة في العَصْر الفاطِمِي» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٥١٩ـ ٥٥١.
«تَطَوُّرُ العَمائِر الدِّينية الإسلامية بتطَوُّر وَظَائفها» ، المجلة التاريخية المصرية ١٨ (١٩٧١) ، ٥٨ـ ٦٣.
«الجَامِعُ الأَزْهَر بين ماضِيه وحاضِرِه» ، القاهرة ـ مطبعة المعرفة ١٩٦٠م .
«حَفَائِرُ كُلِّيَّة الآثار بظَاهِر مَدِينَة الفُسْطاط» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١ (١٩٧٦م) ، ٥٩ـ ١٢٦.
«القاهِرَةُ القَدِيمَة وأَحْيَاؤها» ، القاهرة ـ سلسلة المكتبة الثقافية ، ١٩٦٢م .
«مَجْرَى مِياه فَمّ الخَلِيج» ، المجلة التاريخية المصرية ٧ (١٩٥٨) ، ١٣٤ـ ١٥٧.
«مَسَاجِدُ مصر وأَوْلِياؤها الصَّالِحُون» ، ١ـ ٥، القاهرة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧١ـ١٩٨٣م .
سعيد عبد الفَتَّاح عاشُور ، المتوفَّىٰ سنة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م .
«نِسَاءُ القَاهِرَة في عَصْر سَلاطِين المماليك» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٥٦٥ـ ٥٧٥.
سليمان مصطفىٰ زبيس .
«إِلْمَامَةٌ عن أحْوَال القاهِرَة الاقْتِصادية وعِلاقَتها مع الخارِج في عَهْدِ الفاطِميين» ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٥٧٧ـ ٥٩٧.
سمير عمر إبراهيم .
«الحياةُ الاجتماعيةُ في مدينة القاهرة خلال النِّصْف الأَوَّل من القرن التَّاسِع عَشَر» ، القاهرة ١٩٩٢م .

سُهير زكي حَوَّاس.

«القاهِرَةُ الخِدِيوِيَّة : رَصْد وتَوْثِيق عِمارَة وعُمْران منطقة وَسَط المدينة»، القاهرة ٢٠٠٢م.

سَوْسَن سليمان يحيى.

«ألْقابُ السُّلْطان بَيْبَرْس على الآثار، نُصُوصُها ودلالتها»، مجلة كلية الآثار - جامعة القاهرة ٧ (١٩٩٦)، ٢٧١ - ٣٢٠.

السَّيِّدُ السَّيِّد النَّشَّار.

«تاريخُ المكتبات في مصر - العَصْر المملوكي»، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

السَّيِّد عبد العزيز سالم، المتوفَّى سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

«المآذِنُ المصرية - نَظْرَةٌ عامَّةٌ عن أصْلِها وتَطَوُّرها من الفَتْحِ العربي حتى الفَتْح العُثْماني»، الإسكندرية د.ت.

سيِّد كريم.

«قَاهِرَةُ إسْماعيل في مِيزَان التَّاريخ المِعْمَارِي»، مجلة العمارة، مجلد ٥، عدد ٦، ٧، (١٩٤٥م)، ١٧-٢٦.

«القاهِرَةُ كمدينة - تَخْطيطها، تَطَوُّرها، توسُّعها»، مجلة العمارة ١-٢ (١٩٥٢م)، ٣-٩.

شابْرُول، ج. دي.

«دِرَاسَةٌ في عادات وتقاليد سُكَّان مصر المحْدَثين»، ترجمة زهير الشَّايب، القاهرة - مكتبة مدبولي ١٩٧٩م.

شادِّية الدسوقي.

«الأخشابُ في العمائر الدِّينية في القاهرة العثمانية»، القاهرة - زهراء الشرق ٢٠٠٣م.

شِحَاتَة عيسىٰ إبراهيم.

«القاهِرَة»، القاهرة - دار الهلال ١٩٥٩م، والهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م.

شَلَبي إبراهيم الجِعِيدي.

«العَامَّةُ في مصر في العَصْرِ الأيُّوبي (٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)»، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٢١٢) ٢٠٠١م.

صَالِحُ أحمد العَلي، المتوفَّى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

«أهْلُ الفُسْطاط - دِراسَةٌ في تَرْكيبهم القَبَلي ومَرَاكِز إدارَتهم»، بيروت - شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ٢٠٠٠م.

صَالِح لمعي مصطفى.

«التُّراثُ المِعْماري الإسلامي في مصر»، بيروت - دار النهضة العربية ١٩٨٤م.

«الوَثائِقُ والعِمارَةُ ـ دراسة في العمارة الإسلامية في العصر المملوكي الجركسي : الجامع الأبيض بالحوش السُّلْطاني بقلعة القاهرة»، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٨٠م.

صَمُوئيل ستيرن، المتوفَّى سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

«القاهِرَة كمرْكَز للحَرَكَة الإسْماعيلية» (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٦٠١ـ٦٠٣.

صَمُوئيل السُّرياني (الأنبا)، المتوفَّى سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، وبديع حبيب جرجس.

«دَليلُ الكنائِس والأَدْيِرَة في مصر»، القاهرة ٢٠٠٢م.

عاصِم محمد رِزْق.

«أَطْلَسُ العِمارَة الإسلامية والقِبْطِيَّة بالقاهرة»، ١ـ ٥، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م.

«خانْقاوات الصُّوفِيَّة في مصر في العَصْرَيْن الأيُّوبي والمملوكي»، ١ـ ٢، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٧م.

«دِراساتٌ في العِمارَة الإسلامية ـ مجموعةُ ابن مُزْهِر المعمارية بالقاهرة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، دراسةٌ أثريةٌ معمارية»، القاهرة ـ المجلس الأعلى للآثار ١٩٩٥م.

«المَحاريبُ الفاطِمية في أضْرِحَة القاهرة ومَشاهِدِها»، مجلة كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ٢/١١ (١٩٨٤).

«مَدْرَسَةُ القاضي أبي بكر بن مُزْهِر بالقاهرة ٨٨٤ـ٨٨٥هـ/١٤٧٩ـ١٤٨٠م»، دراسات آثارية إسلامية ٢ (١٩٨٠)، ٦٩ـ ٩١.

«مُعْجَمُ مُصْطَلَحاتِ العِمارَة والفُنُون الإسلامية»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٠م.

عَبَّاس حلمي كامل.

«المدارِسُ الإسلامية ودُورُ العِلْم وعِمارَتُها الأثرية ـ نَشْأتُها وتاريخُها وتَخْطِيطُ عمائرها»، مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة ٣ (١٣٩٧ـ١٣٩٨هـ/١٩٧٦ـ١٩٧٧م)، ١٣٧ـ١٥٩.

عَبَّاس الطَّرابيلي.

«أَحْياءُ القاهِرَة المَحْرُوسَة»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٣م.

«شَوَارِعُ لها تاريخ ـ سِياحَة في عَقْل الأُمَّة»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م.

عبد الباقي إبراهيم وصالح لمعي مصطفى.

«أُسُسُ التَّصْميم المعماري والتَّخْطيط الحَضَري في العُصُور الإسلامية المختلفة. دراسةٌ تحليلية على العاصمة القاهرة»، جدة ـ منظمة العواصم والمدن الإسلامية ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

عبد الرَّحمن زكي، المتوفَّى سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

«آثارُ مصر والقاهِرَة في النُّجُوم الزَّاهِرَة»، في كتاب المُؤَرِّخ ابن تَغْري بِرْدي، جمال الدِّين أبو المحاسن يُوسُف، ١٥٥ ـ ١٨٠.

«إبْرَاهيم السّنَارِي وبَعْض دُور القاهِرَة في أوَاخِر القَرْن الثَّامِن عَشْر» ، مجلة الكتاب ، مجلد ٤، عدد ١١ نوفمبر ١٩٤٧، ص ١٧١٩- ١٧٣٠.

«أبْوَابُ القاهِرَة» ، السياسة الأسبوعية ، السنة السادسة ، عدد ١٧ مايو ١٩٣٧.

«الأزْهَرُ وما حَوْلُه من الآثار» ، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المكتبة العربية ١٩٧٠م.

«أسْوارُ القاهِرَة وأبْوابُها من جَوْهَر القائد إلى النَّاصِر صَلاح الدِّين» ، المجلة ٥١ (مارس ١٩٦١)، ٣٢ - ٤١.

«الأسْبِلَةُ الأثَرِيَّة في مَدِينَة القاهرة» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢ (١٩٧٧).

«امِتْدادُ القاهرة من عَصْرِ الفاطميين إلى عَصْرِ المماليك (٩٦٩-١٥١٧م) » ، أبحاثُ النَّدْوَة الدُّولية لتاريخ القاهرة ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١م، ٦١٧-٦٤٣.

«خِطَطُ الفُسْطَاط فيما كَتَبَه عبد الرَّحْمَن بن عبد الحَكَم» ، دراسات عن ابن عبد الحكم ، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المكتبة العربية ١٩٧٥، ٤٥-٧٣.

«خِطَطُ القاهِرَة في أيَّام الجَبَرْتي» ، بحثٌ في كِتابِ عبد الرَّحمن الجَبَرْتي ـ دراساتٌ وبُحُوثٌ ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م ، ٤٦٧-٥١٤.

«الدَّارُ الإسْلامية في مِصْر» ، المقتطف ، مجلد ٩٩، جـ ٢ ص ١٠٥-١١٢، يوليو ١٩٤١.

«الفُنُونُ الإسْلامية في القاهِرَة الفاطِمِية» ، مجلة الهندسة ، السنة ١٧، عدد ١١، ١٢ ديسمبر ١٩٣٧، ص ٤٠٢-٤٠٩.

«القاهِرَة» ، ١-٢، القاهرة ـ مطبعة حجازي ١٩٣٢-١٩٣٤م.

«القاهِرَة من المُعِزّ إلى العَصْرِ الحَدِيث» ، القاهرة ـ مطبعة المستقبل ١٩٤٢م.

«القَاهِرَة مَنَارَة الحَضَارَة الإسْلامية» ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

«قَاهِرَةُ إسْمَاعيل» ، مجلة العمارة ، مجلد ٥ عدد ٦، ٧، ص ٢٧-٣٣، عام ١٩٤٥.

«قَلْعَةُ صَلاحِ الدِّين الأيُّوبي وما حَوْلَها من الآثار» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

«قَلْعَة صَلاح الدِّين وقِلاع إسْلامِيَّة مُعَاصِرَة» ، القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر ١٩٦٠م.

«قَلْعَةُ مصر من السُّلْطانِ صَلاح الدِّين إلى فاروق الأوَّل» ، القاهرة ـ مطبوعات المتحف الحربي ١٩٥٠م.

«مَرَاجِعُ تاريخ القاهِرَة منذ إنْشَائِها إلى اليوم» ، القاهرة ـ الجمعية الجغرافية المصرية ١٩٦٤م.

«مَسَاجِد القَاهِرَة في القَرْن الخامِس عَشْر» ، منبر الإسلام عدد ١، ص ٨٨-٩٣، يونيو ١٩٦٠م.

«مَوْسُوعَة مَدِينَة القاهِرَة في ألْف عام» ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ١٩٦٩م.

«نَشْأةُ القاهِرَة وامْتِدادُها في أيَّام الأيُّوبيين» ، المجلة التاريخية المصرية ١٨ (١٩٧١) ، ١١١-١٦٠.

عبد الرحمن عبد التَّوَّاب .

«قَلْعَةُ صَلاح الدِّين» ، المجلة ، عدد ٦٨، ص ٦٨ـ ٧٤، سبتمبر ١٩٦٢م .

عبد الرحمن فهمي ، المتوفَّى سنة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

«بين أدَب المَقَامَة وفَنّ العمارَة بالمَدْرَسَة السَّعْدية (قُبَّة حسن صَدَقَة)» ، مجلة المجمع العلمي المصري BIE ٥٢ (١٩٧٠ ـ ١٩٧١)، ٣٩ ـ ٦٣.

عبد الرَّحيم عبد الرَّحْمن عبد الرَّحيم ، المتوفَّى سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٦م .

«الحياةُ الاجتماعية في مدينة القاهرة إبَّان العصر العثماني» ، مجلة كلية الدراسات الإنسانية ـ جامعة الأزهر ٤ (١٩٨٦م) .

عبد الرَّحيم غالِب .

«مَوْسُوعَةُ العِمارَة الإسلامية» ، بيروت ـ جروس برس ١٩٨٨م .

عبد العال عبد المنعم الشَّامي .

«مُدُن مِصْر وقُرَاها في القَرْن الثَّامِن الهِجْرِي ـ قَلْعَةُ الجَبَل والقَاهِرَة ومِصْر الفُسْطَاط» ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة المنيل ، المجلد ٩، ١٩٩١م .

عبد العزيز محمد الشِّنَّاوي ، المتوفَّى سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

«الأَزْهَرُ جَامِعًا وجَامِعَة» ، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٣م .

عبد الله فَوَّاز .

مَجْمُوعة أسْمَاء طُرُق مَدِينَة القاهِرَة ، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٣٢٩هـ .

عبدُ اللَّطيف إبراهيم ، المتوفَّى سنة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

«دِراساتٌ في الكُتُب والمكتبات الإسلامية» ، القاهرة ـ دار مطابع الشعب ١٩٦٢م .

«نَصَّان جَديدان من وَثيقَة الأمير صَرْغَتْمُش» ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ٢٧ـ٢٨ (١٩٦٥ ـ ١٩٦٦)، ١٢١ـ١٥٨، ١٤٣ـ٢١٠.

«الوَثائِقُ في خِدْمَةِ الآثار (العَصْرُ المملوكي)» ، المُؤتمر الثَّاني للآثار في البلاد العربية ـ بغداد ١٩٥٧، القاهرة ـ جامعة الدول العربية ١٩٥٨م، ٢٠٥ـ٢٨٧.

«وَقْفِيَّةُ ابن تَغْري بِرْدي» في كتاب المُؤَرِّخ ابن تَغْري بِرْدي ، جمال الدِّين أبو المحاسِن يُوسُف ، ١٨١ ـ ٢٢٢.

عبد المُنْصِف سالم نَجْم .

«قُصُورُ الأُمَرَاء والباشَوَات في مَدِينَة القاهِرَة في القَرْنِ التَّاسِع عَشَر»، ١ ـ ٢، القاهرة ـ مكتبة زهراء الشَّرق ٢٠٠٢م .

عبد المنعم إبراهيم الجِميعي .

«الخِديو إسْماعيل وبناء القاهِرَة الحَدِيثَة (مَشْرُوع باريس الشَّرْق)» ، المجلة التاريخية المصرية ٤١ (٢٠٠١-٢٠٠٢م) ، ٨٩-١٠٩.

عَدْنان محمد الحارثي .

«عِمارَةُ المَدْرَسَة في مصر والحجاز (في القرن ٩هـ/١٥م) دراسة ومُقارَنَة» ، مكة المكرمة - جامعة أم القرى ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

«عُمْرانُ القاهِرَة وخِطَطُها في عَهْدِ صَلاحِ الدِّين الأيُّوبي ٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٨-١١١٩م» ، القاهرة - مكتبة زَهْراء الشَّرق ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

عَرَفَة عَبْدُه عَلي .

«رِحْلَة في زَمَانِ القَاهِرَة» ، القاهرة - مكتبة مدبولي ١٩٩٠م .

«القاهِرَة في عَصْر إسْماعيل» ، القاهرة - الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٨م .

«وَصْفُ مِصْر بالصُّورَة - صُوَر فوتوغرافية نادِرَة ١٨٥٠-١٨٩٠» ، القاهرة - بيروت ، دار الشروق ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

عَفَاف سَيِّد محمد صَبْرَة .

«المدارِسُ في العَصْرِ الأيُّوبي» ، في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، ١٣٧-٢٠٠.

عَلاء طَه رِزْق .

«السُّجُونُ والعُقُوباتُ في مصر عَصْر سلاطين المماليك» ، القاهرة - عين للدِّراسات والبُحُوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٢م .

«عامَّةُ القاهِرَة في عَصْرِ سلاطين المماليك» ، القاهرة - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

علي بك بَهْجَت ، المتوفَّى سنة ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م .

«حَفْرِياتُ الفُسْطاط» ، القاهرة - لجنة حفظ الآثار العربية - دار الآثار العربية ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م .

علي بَيُّومي .

«قِيامُ الدَّوْلَة الأيُّوبيَّة في مِصْر» ، القاهرة - دار الفكر الحديث ١٩٥٢م .

عِماد بَدْر الدِّين أبو غازي .

«مَنازِلُ الأُمَرَاء في أواخِرِ عَصْرِ المماليك الجراكسة في ضوء وثائق الأشرف طومان باي» ، مجلة حوليات إسلامية *An. Isl.* ٣٤ (٢٠٠٠) ، ١-٢١.

غَزْوان مصطفى ياغي.
«مَنازِلُ القاهِرَة ومقاعِدُها في العَصْرَيْن المملوكي والعُثْماني ـ دراسَةٌ أثريةٌ حضارية» ، القاهِرَة ـ زهراء الشرق ٢٠٠٤م.

فائِزَة الوَكيل.
«دِراسَةٌ لِمَدْرَسَة السُّلْطان جَقْمَق بدَرْبِ سَعَادَة في ضَوْءِ المُنْشآت المملوكية ونَشْر وَثيقَة جديدة لها لم يَسْبق نَشْرُها» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٨ (١٩٩٧)، ٢٨٧ ـ ٣٩٥.

فَتْحِي حافِظ أحمد الحَدِيدِي.
«الأُصُولُ التَّاريخيةُ لِمؤَسَّسات الدَّوْلَة والمرافِق العامَّة بمدينة القاهرة» ، القاهرة ـ دار المعارف ٢٠٠٧م.
«دِراساتٌ في التَّطَوُّر العُمْراني لِمَدِينَة القاهِرَة» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م.
«دِرَاسَاتٌ في مَدِينَة القاهِرَة ـ مَنْطِقَة قِسْمَيّ الجَمَالِيَّة ومُنْشأة نَاصِر بين الماضِي والحاضِر» ، القاهرة ١٩٨١م.

فَتْحِي محمَّد مِصِيلْحِي.
«تَطَوُّرُ العَاصِمَة المِصْرِيَّة والقَاهِرَة الكُبْرى (تَجْرِبَة التَّعْمِير المصرية من ٤٠٠٠ق. م ـ ٢٠٠٠م)» ، القاهرة ١٩٨٨م.

فَرَج حسين فَرَج الحسيني.
«النُّقُوشُ الكتابية الفاطمية على العَمَائِر في مصر» ، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٧م.

فرنشيسكو جابرييللي.
«قَاهِرَةُ النَّاصِر خُسْرُو» (ملخص)، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ٨٥٣ـ ٨٥٥.

فَريد شافعي، المتوفَّى سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
«العِمَارَةُ العربية في مصر الإسلامية، عَصْر الوُلاة» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامَّة للتأليف والنشر ١٩٧٠م.
«مِئْذَنَةُ مَسْجِد ابن طُولُون : رأيٌ في تكوينها المعماري» ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٤ (مايو ١٩٥٢)، ١٦٧ـ ١٨٤.

فِهْرِسُ الآثار الإسْلامية بمَدِينَة القَاهِرَة مُرَتَّبَة حَسَبَ أرْقامِها وعصُورِها التَّارِيخِيَّة، مصلحة المساحة ١٩٥١م (مرفق بها خريطة).

فَهْمي عبد العليم.
«جَامِعُ المُؤَيَّد شَيْخ» ، القاهرة ـ هيئة الآثار المصرية ١٩٩٤م.
«العِمارَةُ الإسلامية في عَصْرِ المماليك الجراكسة (عَصْرُ السُّلْطان المُؤَيَّد شَيْخ)» ، القاهرة ـ المجلس الأعلى للآثار ٢٠٠٣م.

فؤاد سزكين .
«دِراسَاتٌ حَوْلَ تَقيِّ الدِّين المَقْرِيزي (توفي ٨٤٥هـ)» ، جَمْعُ وإعادَةُ طبْع ، فرانكفورت ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٤١٣هـ/١٩٩٢م . «مُساهَمَةُ الجُغْرافِيين العَرَب والمسلمين في صُنْع خَريطَةِ العالم» ، فرانكفورت ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ١٩٨٧م .

فؤاد فَرَج .
«القاهِرَة» ، ثلاثة أجزاء ، يشمل الأول تاريخ العواصم المصرية القديمة في العصر الفرعوني ، ويشمل الجزء الثاني تاريخ العواصم الإسلامية قبل إنشاء القاهرة ، ويشمل الجزء الثالث تاريخ القاهرة منذ أيام الفواطم إلى عام ١٩٤٥م ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٤٦م .

فولكف ، أولج .
«القاهِرَة مَدِينَة أَلْف لَيْلَة ولَيْلَة (٩٦٩-١٩٦٩م)» ، ترجمة أحمد صليحة ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (الألف كتاب الثاني ١٢) ، ١٩٨٦م .

ڤييت ، جاستون ، المتوفَّى سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .
«المُوَاصَلات في مِصْر في العُصُور الوُسْطَى» ، ترجمة محمد وَهْبي ، انظر في مصر الإسلامية ، ص ٣٢- ٥٤.
«القاهِرَة مَدِينَة الفَنّ والتِّجَارَة» ، ترجمة مصطفى العبادي ، بيروت ـ مكتبة لبنان ١٩٦٨م ، القاهرة ـ كتاب اليوم ٣٠٨، مايو ١٩٩٠م .

قاسم عبده قاسم .
«أَسْواقُ مصر في عَصْرِ سلاطين المماليك» ، القاهرة ١٩٧٨م .
«أَهْلُ الذِّمَّة في مصر العُصُورِ الوُسْطَى ـ دراسة وثائقية» ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٧م .
«دراساتٌ في تاريخ مصر الاجتماعي ـ عَصْر سلاطين المماليك» ، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٩م .
«عَصْرُ سلاطين المماليك ـ التاريخ السياسي والاجتماعي» ، القاهرة ـ عين للنشر ١٩٩٨م .
«قَصْرُ عابِدين جَوْهَرَةُ قاهِرَة القَرْن التَّاسِع عشر» ، الإسكندرية ـ مكتبة الإسكندرية ٢٠٠٨م .

كازانوفا ، بول ، المتوفَّى سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م .
«تاريخُ ووَصْفُ قَلْعَة القاهِرَة» ، ترجمة وتقديم أحمد دَرَّاج ومراجعة جمال محمد محرز ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامَّة للكتاب ١٩٧٤م .

كريزْويل ، ك . ا . س ، المتوفَّى سنة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م .
«تَشْييد مَدِينَة القَاهِرَة» (ملخص) ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٨٦١- ٨٦٣.
«العِمارَةُ الإسْلامية في مصر ـ الإخْشيديُّون والفاطِمِيُّون (٩٣٩-١١٧١م)» ، المجلد الأول ، ترجمة عبد الوهاب عَلُّوب ، راجعه واسْتَخْرَجَ نُصوصَه وقَدَّمَ له وعَلَّقَ عليه محمد حمزة إسماعيل الحدَّاد ، القاهرة ـ مكتبة زهراء الشرق ٢٠٠٤م .

«وَصْفُ قَلْعَةِ الجَبَل» ، ترجمة جمال محمد محرز ومراجعة عبد الرحمن زكي ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

كريستل كيسلر .

«عِمَارَة الأَضْرِحَة في دَاخِل مَدِينَة القَاهِرَة» (ملخص) ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٨٦٥ـ ٨٧٨.

كليليا سارنلي ، المتوفَّاة سنة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

«زِيَارَة الرَّحَّالة العَرَبي الأَنْدَلُسي «الشِّهَاب أحمد الحَجَري» لمَدِينَة القاهِرَة في القَرْن السَّابِعَ عَشَر» (ملخص) ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ٨٧٣ـ ٨٧٥.

كمالُ الدِّين سَامِح .

«تَطَوُّرُ القُبَّة في العِمارَة الإسلامية» ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٢ (مايو ١٩٥٠) ، ١ ـ ٣٦.

«العِمارَةُ الإسلامية في مصر» ، القاهرة ١٩٧٠، ١٩٨٣م .

كوهن ، مارك .

«المُجْتَمَعُ اليَهُودي في مِصْر الإسْلامية في العُصُورِ الوُسْطَى» ، جامعة تل أبيب ١٩٨٧م .

لين ، إدوارد وليم ، المتوفَّى سنة ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م .

«المِصْرِيُّون المُحْدَثُون ، شَمَائِلُهم وعَادَاتُهم» ، ترجمة عَدْلي طاهِر نُور ، القاهِرَة ـ الرسالة ١٩٥٠م ودار النشر للجامعات ١٩٧٥م .

لين بول ، ستانْلي = ستانْلي لين بول .

ماريِيت ، أوجيست

«دَلِيلُ رِحْلَة ضُيُوف الخديو إسماعيل لزيارة آثار مصر بمناسبة احْتِفالات افْتِتاح قناة السويس ١٨٦٩م» ، ترجمة عبَّاس أبو غزالة ومراجعة وتعليق عبد الحليم نور الدين ، القاهرة ـ المركز القومي للترجمة ٢٠٠٧م .

ماكِنْزي ، نيل دي .

«القاهِرَةُ الأَيُّوبِيَّة ـ دِرَاسَة طُبُوغْرافِيَّة» ، ترجمة عُثْمان مصطفى عُثْمان ، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٧م .

مَحاسِنُ محمد الوَقَّاد .

«الطَّبَقاتُ الشَّعْبِيَّة في القاهرة المملوكية (٦٤٨ـ٩٢٣هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م)» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ١٥٢) ١٩٩٩م .

«اليَهُودُ في مصر المملوكية في ضَوْء وثائق الجَنِيزَة (٦٤٨ـ٩٢٣هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م)» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ١٣٥) ١٩٩٩م .

محمد أنيس، المتوفَّى سنة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

«حَرِيقُ القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢» على ضوء وثائق تنشر لأوَّل مرَّة، بيروت ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢م.

محمد الجُهَيْني.

«أحْيَاءُ القاهِرَة القَدِيمَة وآثارُها الإسْلامية (حَيّ باب البَحْر)»، القاهرة ـ دار نهضة الشرق ٢٠٠٠م.

محمد الحبيب بن الخوجه.

«الحَيَاةُ الثَّقافِيَّة بمصر والقاهِرَة والإسْكَنْدَرِيَّة في سنة ٦٨٤ و ٦٨٥هـ من خِلالِ رِحْلة ابن رُشَيْد»، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ١٠٢٥ـ١٠٣٩.

محمد حُسَام الدِّين إسْماعيل.

«إدَارَةُ الأوْقاف في العَصْر المملوكي»، الخان الخليلي وما حَوْلَه، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١: ٤٥ـ٥٣.

«أرْبَعَةُ بُيُوتٍ مملوكية من الوَثائِق العُثْمانية»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٢٤ (١٩٨٨)، ٤٩ـ١٠٢.

«الأصُولُ المملوكية للعَمائِر العُثْمانية»، الإسكندرية ـ دار الوفاء ٢٠٠٢م.

«بَعْضُ المُلاحَظَات على العِلاقَة بين مُرُور المواكِب ووَضْع المباني الآثارية في شَوَارِع مَدِينَة القاهِرَة»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٢٥ (١٩٩١م)، ١ـ١٠.

«مَدِينَةُ القاهِرَة من وِلايَة محمد علي إلى إسْماعيل ١٨٠٥ـ١٨٧٩م»، القاهرة ـ دار الآفاق العربية ١٩٩٩م.

محمد حَمْزَة إسْماعيل الحَدَّاد.

«السُّلْطانُ المَنْصُورُ قَلاوون (تاريخ ـ أحْوال مصر في عَهْدِه ـ مُنْشآته المعمارية)»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٣م.

«العِلاقَةُ بين النَّصّ التأسيسي والوَظيفَة والتَّخْطيط المعماري للمَدْرَسَة في العَصْرِ المملوكي»، في كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، ٢٦٩ـ٣٨٦.

«عَمَائِرُ القاهِرَة الدِّينِيَّة في العَصْرِ العُثْماني (٩٢٣ـ١٢١٣هـ/١٥١٧ـ١٧٩٨م) دِرَاسَة تَحْليلية مُقَارِنَة للتَّخْطيط وأصُولِه المِعْمَارِيَّة، المجلة التاريخية المصرية ٣٧ (١٩٩٠).

«القِبابُ في العِمارَة المصرية الإسلامية»، القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٣م.

«قَرَافَةُ القاهِرَة من الفَتْح الإسْلامِي إلى نهاية العَصْر المملوكي»، القاهرة ـ زهراء الشرق ٢٠٠٦م.

«مُصَلَّى المُؤْمني بالقاهرة»، دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية، ١: ٤٣٥ـ٤٥٤.

«مُصَلَّيات الجَنَائِز في العمارة المصرية الإسلامية ـ دِرَاسَةٌ أثارية (تَحْليلية مُقارنَة) وثائِقِية تاريخية»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٨ (١٩٩٧)، ١٤٥ ـ ٢٤٤.

«مَوْسُوعَة العِمَارَة الإسْلامية في مصر من الفَتْح العُثْماني حتى عَهْد محمد علي ٩٢٣-١٢٦٥هـ/ ١٥١٧-١٨٤٨م»، ١-٢، القاهرة، مكتبة زهراء الشَّرْق ١٩٩٨-٢٠٠٠م.

محمد رَمْزي بك، المتوفَّىٰ سنة ١٣٦٥هـ/١٩٤٥م.

«الجُغْرافيا التاريخية لمَدِينَة القاهرة»: ١ - «غواصِمُ مصر الإسلامية: الفُسْطاط والعَسْكَر والقَطائِع»، مجلة العلوم ٢/٥ (١٩٤٢)، ٦٤١-٦٦١؛ ٢ - «شاطِئا النِّيل تجاه مصر القَديمَة والقاهِرَة وما طَرَأ عليهما من التَّحَوُّلات من الفَتْح العربي لمصر إلى اليوم» مجلة العلوم ٣/٤ (١٩٤٢)، ٤٩٧-٥٢٣؛ ٣ - «شُبْرا ورَوْضُ الفَرَج»، مجلة العلوم ٣/٥ (مايو - يونيو ١٩٤٢)، ٣٢٢-٣٣٦.

«القامُوسُ الجُغْرافي للبِلادِ المصرية من عَهْدِ قُدَماء المِصْريين إلى سنة ١٩٤٥»، ١-٥، دار الكتب المصرية ١٩٥٣-١٩٦٨م.

«مُذَكِّرَةٌ ببَيانِ الأَغْلاطِ التي وَقَعَت من مَصْلَحَة التَّنْظيم في تسمية الشَّوارِع والطُّرُق بمَدينَة القاهرة وضَواحيها، مُقَدَّمَة إلى وَزير الأشْغال العمومية يوم ٥ مايو سنة ١٩٢٥»، القاهرة - دار الكُتُب المصرية ١٩٢٥م.

محمد رياض.

«القاهِرَة - نَسِيجُ النَّاس في المكان والزَّمَان ومشكلاتها في الحاضر والمُسْتَقْبَل»، القاهرة - دار الشروق ٢٠٠١م.

محمد سيِّد كيلاني.

«ترامُ القاهرة»، القاهرة - دار العرب للبستاني ١٩٥٦م.

«في ربوع الأزبكية»، القاهرة - دار العرب للبستاني ١٩٥٩م.

محمد سَيْف النَّصْر أبو الفُتُوح، المتوفَّىٰ سنة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

«الحَمَّاماتُ بمَنْطِقَة بين القَصْرَيْن وخان الخليلي من العصر الفاطمي حتى نهاية العَصْر المملوكي»، الخان الخَليل وما حَوْلَه، القاهرة - المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١: ٧٥-٩٧.

«مَدْرَسَةُ السُّلْطان المَنْصُور قَلاوون - دراسة أثرية في ضَوْءِ وَثيقَةٍ جديدة»، مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء (١٩٨٤)، ٧٧-١١٦.

«وَصْفُ قاهِرَة القَرْن العَاشِر الهجري/ السَّادِس عَشْر الميلادي في كتاب الرَّحَّالَة التركي مصطفى علي (حالات القاهرة من العادات الظَّاهِرَة)»، المجلة التاريخية المصرية ٣٨ (١٩٩١-١٩٩٥م)، ١٥٩-١٧٣.

محمد شاكر.

«اللَّوْحَةُ التَّاريخية للجَامِع الأنْوَر»، سورت - دائرة الطَّبْع والنَّشْر بالجامعة الشيفيّة ٢٠٠٣م.

محمد الشَّشْتاوي.

«مُتَنَزَّهاتُ القاهِرَة في العَصْرَيْن المملوكي والعُثْماني»، القاهرة - دار الآفاق العربية ١٩٩٩م.

«مَيادينُ القاهِرَة في العَصْرِ المملوكي»، القاهرة ـ دار الآفاق العربية ١٩٩٩م.
محمد عباس أحمد عبد الرحمن.
«القُصُور الملكية في مصر: تاريخ وحضَارَة ١٨٠٥-١٩٥٢»، الجيزة ـ الدار العالمية للنشر والتوزيع ٢٠٠٥م.
محمد عبد الجَوَّاد الأَصْمَعِي، المتوفَّى بعد سنة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
«قَلْعَة محمَّد علي لا قَلْعَة نابِلْيون»، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٣٤٢هـ/١٩٢٤م.
محمد عبد السَّتَّار عثمان.
«الجامِعُ الأَقْمَر ـ دراسةٌ أثريةٌ مذهبيةٌ»، الإسكندرية ـ دار الوفاء ٢٠١٢م.
«العِمَارَة الفاطِمِيَّة (الحَرْبِيَّة ـ المَدَنِيَّة ـ الدِّينِيَّة)»، القاهرة ـ دار القاهرة ٢٠٠٦م.
«عِمَارَة المَشَاهِد والقِباب في العَصْر الفاطِمي»، القاهرة ـ دار القاهرة ٢٠٠٦م.
«المَدِينَةُ الإسْلامِيَّة»، عالم المعرفة ١٢٨، الكويت ١٩٨٨م.
«نَظَرِيَّةُ الوَظِيفِيَّة بالعَمائر الدِّينية المملوكية الباقية بمَدِينَة القاهرة»، الإسكندرية ـ دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ٢٠٠٠م.
«وَثيقَةُ وَقْفِ جَمال الدِّين يُوسُف الأُسْتادَّار ـ دراسة تاريخية أثرية وثائقية»، القاهرة ١٩٨٣م.
محمد عبد العزيز مَرْزُوق، المتوفَّى سنة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.
«جَامِعُ الظَّاهِر بَيْبَرْس البُنْدُقْداري»، المجلة التاريخية المصرية ٣/١ (١٩٥٠)، ٩١-١٠٢.
«مَسَاجِدُ القاهِرَة قَبْل عَصْرِ المماليك»، القاهرة ١٩٤٦م.
محمد عبد الله عِنان، المتوفَّى سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
«تاريخُ الجَامِع الأَزْهَر»، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٥٨م.
«خِطَطُ المَقْريزي بين الأَصَالَة والنَّقْل» بَحْثٌ في كتاب «دراسات عن المَقْريزي ـ مجموعة أبحاث»، ٣٩ ـ ٤٨.
«مِصْرُ الإسلامية وتاريخُ الخِطَطِ المصرية»، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٦٩م.
«مُؤَرِّخو مصر الإسلامية ومَصَادِرُ التاريخ المصري»، القاهرة ـ مكتبة الخانجي ١٩٦٩.
محمد عَفيفي.
«الخِطَطُ والحياة الاقْتِصادية في حارَة اليهود في القاهِرَة في العَصْر العُثْماني»، المؤرِّخ المصري ١٠ (يناير ١٩٩٣م).
«الرِّباع في العَصْر العُثْماني»، الخان الخليلي وما حَوْلَه، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١:١١٣-١٢٦.
محمد أبو العمايم.
«آثارُ القاهِرَة الإسْلامية في العَصْر العُثْماني»، المجلد الأوَّل ـ المَسَاجِدُ والمَدَارِسُ والزَّوايا، والمجلد الثاني ـ

الأشبِلَة، إشْراف وتَقديم أكمل الدِّين إحْسَان أوغْلي، إستانبول ـ مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ٢٠٠٣م، ٢٠١٢م.

«أسْوارُ مَدينَةِ القاهِرَة وخِطَطُها: سُورُ جَوْهَر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٣٦ (٢٠٠٢)، ٢٣ـ٩٤.

«دَرْبُ مُلُوخْيا والمنطقة شرقي القصر الكبير»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٣٤ (٢٠٠٠)، ٤٥ـ٨٩.

«المِئْذَنَةُ القِبْلِيَّة وما حَوْلَها من الآثار خارج بابِ القَرافَة بالقاهِرَة»، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٣٤ (٢٠٠٠)، ٤٥ـ٨٩.

محمد أبو الفَرَج العُشّ، المتوفَّى سنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

«مِصْرُ، القاهرة على النُّقُودِ العربية الإسلامية»، أبحاثُ الندوة الدولية لألفية القاهرة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧١م، ٩٠٥ ـ ٩٩٥.

محمَّد كمال السَّيِّد محمَّد.

«أسْمَاء ومُسَمَّيَات من مِصْر القاهِرَة»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م.

محمد محمد أمين.

«الأوْقافُ والحَيَاةُ الاجْتماعية في مِصْر ٦٤٨ـ٩٢٣هـ/١٢٥٠ـ١٥١٧م دراسة تاريخية وثائقية»، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٨٠.

«فِهْرِسْتُ وَثَائِق القاهرة حتى نهاية عَصْر سَلاطين المماليك (٢٣٩ـ٩٢٢هـ/٨٥٣ـ١٥١٦م) مع نَشْرِ وتَحْقيقِ تسعة نماذج»، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ١٩٨١م.

محمد محمد أمين وليلى علي إبراهيم، المتوفَّاة سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

«المُصْطَلَحاتُ المِعْمارية في الوَثائِق المملوكية»، القاهرة ـ الجامعة الأمريكية ١٩٩٠م.

محمَّد محمَّد الكحْلاوي.

«آثارُ مِصْر الإسْلامية في كِتابَات الرَّحَّالَة المَغَارِبَة والأنْدَلُسِيين»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤م.

«أثرُ مُراعاة اتِّجاه القِبْلَة وخَطّ تَنْظيم الطَّريق على مُخَطَّطاتِ العَمائِر الدِّينية المملوكية بمَدينَة القاهِرَة»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٧ (١٩٩٦)، ٧٧ـ ١٨٧.

محمد مصطفى زيادة، المتوفَّى سنة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

«بَعْضُ ملاحَظَاتٍ جَديدَة في تاريخ دَوْلَة المماليك بمصر»، مجلة كلية الآداب ـ الجامعة المصرية ٤ (مايو ١٩٣٦)، ٧١ـ٨٨.

«حَرَكَةُ البِنَاءِ والتَّعْمير في عَصْرِ النَّاصِر»، المجلة التاريخية المصرية ٩ـ١٠ (١٩٦٢)، ٢٤١ـ ٢٥٠.

«المُؤَرِّخُون في مصر في القَرْنِ الخامس عشر الميلادي (القرن التاسع الهجري)»، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م.

«نِهَايَةُ السَّلاطين المماليك في مصر»، المجلة التاريخية المصرية ١/٤ (١٩٥١)، ١٩٧ ـ ٢٢٨.
محمد مصطفى نجيب = مصطفى نجيب.
محمود أحمد، المتوفى سنة ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.
«بَيانٌ تاريخي عن الجَامِع الطُّولُوني وشَرْحُ مُمَيِّزاته الفَنِّيَّة»، القاهرة ١٩٣٥م.
«بيانٌ تاريخي عن مَسْجِد عَمْرو بن العَاص وشَرْح مُمَيِّزاته الفَنِّيَّة»، القاهرة ١٩٣٥م.
«بَيَانٌ تاريخي عن مَشْهَد الإمام الشَّافِعِي والإمام اللَّيْث»، القاهرة ـ وزارة الأوقاف ١٣٥٤هـ/١٩٣٥م.
«تَارِيخُ العِمَارَة الإسْلامية بمصر، منْشَؤُها وتَطَوُّرها وارْتِقَاؤُها»، انظر كتاب في مصر الإسلامية، ص ٥٦ـ٩٦.
«تَارِيخُ العِمَارَة الإسْلامية بمصر»، مجلة الهندسة ٨، ٩، ١٠، أكتوبر ١٩٣١، السنة ١٦ ص ٢٦٢ـ ٢٨٢.
«تارِيخُ ووَصْف مَسْجد محمَّد علي باشا بالقَلْعَة بمُنَاسَبَة إتْمَام إصْلاحِه»، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٣٩م.
«تأْسِيسُ القاهِرَة»، مجلة الهندسة، عدد ٨، ٩، ١٠، أكتوبر ١٩٣٤، السنة ١٤، ص ٣٢٢ـ٣٥، ص ٣٠٦ـ٤٠٩.
«دَلِيل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهِرَة»، بولاق ١٩٣٨م.
«جَامِعُ عَمْرو بن العَاص بالفُسْطاطِ من النَّاحيتين التَّاريخية والأَثَرية»، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٣٨م.
«مُوجَز تارِيخ جَوَامِع أحمد بن طُولُون والسُّلْطان حَسَن والسُّلْطان المؤَيَّد»، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٣٩م.
محمود حامِد الحُسَيْني.
«الأَسْبِلَة العُثْمانية بمدينة القاهرة (١٥١٧ـ١٧٩٨م)»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٨٨م.
محمود الحديدي.
«القَصْرُ الأبْلَق ـ قَصْرُ النَّاصِر محمد بن قَلاوون بالقَلْعَة»، في كتاب دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية ـ الكتاب التقديري للآثاري عبد الرحمن عبد التَّوَّاب، القاهرة ـ المجلس الأعلى للآثار ٢٠٠٠، ١:٤٧١ـ ٤٨١.
محمود الحديدي وفهمي عبد العليم.
«أعمالُ ترميم القَصْرِ الأبْلَق بقَلْعَةِ صَلاحِ الدِّين»، مجلة عالم البناء ٢٦ (أبريل ١٩٨٦)، ٤ـ ١٦.
محمود عَكُّوش.
«تاريخُ ووَصْفُ الجَامِع الطُّولُوني»، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٧م.
محمود محمد الجوهري.
«قُصُورٌ وتُحَفٌ من محمد علي إلى فاروق»، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٥٤م.

محمود وَصْفِي .
«مَجَارِي القاهرة» ، محاضرة أُلْقِيَت بجمعية المهندسين المصرية ، القاهرة ـ مطبعة الاعتماد . د. ت.
مِدْحت المِنَبّاوي .
«اللَّوْحَةُ التأسيسية لسَبيل المَدْرَسَة الطَّيْبَرْسية الملحقة بالجامع الأَزْهَر ٧٠٩هـ/١٣٠٩م» ، دراساتٌ وبحوثٌ في الآثار والحَضَارَة الإسلامية ، ١: ٤٢٥ـ ٤٣٣ .
«المَدِينَةُ الإِسْلامية» ، أشرف على النشر ر.ب. سرجنت ، ترجمة أحمد محمد تعلب ، باريس ـ اليونسكو ١٩٨٣م .
«المَدِينَةُ الإِسْلامية» عددٌ خاصّ من مجلة عالم الفكر ـ الكويت (أبريل ١٩٨٠م) .
مِرْفَت محمود عِيسَىٰ .
«دِراسَةٌ في وَثائِق السُّلْطان الملك الأَشْرَف شَعْبان بن حسين» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٦ (١٩٩٥) ، ٤٧١ـ ٥١٢.
«دِراسَةٌ في وَثائِق السُّلْطان الملك الأَشْرَف شَعْبان بن حسين : المُنْشآتُ التجارية وأَضْواءٌ جديدة على التَّخْطيط المعماري للفَنادِق والرِّباع في العَصْر المملوكي» ، المؤرخ المصري ٢١ (يناير ١٩٩٩) ، ١٢٩ ـ ٢٠٢.
مُرْقُس عَزيز خَليل .
«أهَمّ الكنائِس القِبْطِيَّة بمنطقة مصر القَديمَة : حِصْنُ بابِلْيون والمَعْبَدُ اليهودي» ، القاهرة ١٩٨٥م .
مِصْر في عَدَسَات القَرْن التَّاسِع عَشْر» ، إعداد أكمل الدِّين إحْسَان أوغلي وأحمد محمد عيسى ومحمد أبو العمايم وإبراهيم النَّوَاوي ، إستانبول ـ إرسيكا ٢٠٠١م .
مصطفى عبد الله شِيحَة ، المتوفَّىٰ سنة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .
«الآثارُ الإسْلامية في مصر من الفَتْح العربي حتى نهاية العَصْر الأَيُّوبي» ، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٩٢م .
«دراساتٌ في العمارة والفنون القِبْطِيَّة» ، مشروع الألف كتاب ـ ١١ ، القاهرة ـ هيئة الآثار المصرية ١٩٨٨م .
«العِمارَةُ القِبْطية بمصر » ، المجلة التاريخية المصرية ٣٨ (١٩٩١ ـ ٩٥) ، ٦٧ ـ ١٠٣.
مصطفى علي إبراهيم دويدار .
«جَزيرَةُ الرَّوْضَة منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية حكم المماليك (٢٠ـ٩٢٣هـ/٦٤٠ـ١٥١٧م)» ، الإسكندرية ـ دار الوفاء ٢٠١١م .
مصطفى فهمي ، المتوفَّىٰ سنة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .
«الآثار المِعْمارِيَّة الباقية من عَهْد المغفور له الخِدِيو إسْماعيل» ، مجلة العمارة ٥ (١٩٤٥م) .
«عَصْر إسْماعيل : القُصُور والمُنْشآت العامَّة والمُتَنَزهات» ، مجلة العمارة ٥ (١٩٤٥م) .

مصطفى منير أدْهَم .

«القاهِرَةُ في القَرْنِ الخامِس عشر الميلادي كما رواه المَقْريزي» ، مجلة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية *BSRGE* ١٣ (١٩٢٥) ، ١٣١ـ ١٨٠.

«مُوَفَّق الدِّين عبد اللَّطِيف البَغْدَادي ورِحْلَتُه إلى مِصْر ومَا شَاهَدَهُ فيها» ، مجلة الجمعية الجغرافية المصرية ، مجلد ١٦، ص ٣٨ـ ٧٨، عام ١٩٢٨م .

مصطفى نجيب .

«المَزْمَلَة كَمْورِدٍ لمياه الشُّرْبِ بمُنْشآتِ القاهِرَة في العَصْرِ المملوكي» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢ (١٩٧٧) ، ١٥١ـ ١٥٦.

«نَظْرَةٌ جَديدَةٌ على النِّظام المعماري للمدارِس المتعامِدَة وتَطَوُّره خِلال العَصْرِ المملوكي الجركسي» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ، الكتاب الذَّهَبي ٢ (١٩٧٨) ، ١٩ـ ٣٠.

منى محمد بَدْر ، المتوفَّاة سنة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

«انْعِكاساتُ الحملة الفرنسية على الآثار الإسلامية بمَدينَة القاهرة» ، المؤرخ المصري ٢١ (يناير ١٩٩٩) ، ٢٠٣ ـ ٢٧٤.

«المُؤَرِّخ ابن تَغْري بِرْدي ، جمالُ الدِّين أبو المحاسِن يُوسُف ٨١٣ـ٨٧٤هـ ، مجموعة أبْحاث» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م .

مورو بيرجر .

«القاهِرَة في نَظَرِ الرَّحَّالَة الأمْريكي في القَرْن التَّاسِع عَشَر» (ملخص) ، الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ١٢٩٥ـ١٢٩٦.

ناصِرُ الرَّبَّاط .

«الإيوانُ : مَغْناهُ الفَراغي ومَدْلُولُه التَّذْكاري» ، *BEO* XLIX (1997), pp. 249-67.

«القَصْرُ ودَلالاتُ الأُبَّهَة في العِمارَة المملوكية» ، *BEO* LIII-LIV (2002-3), pp.539-58.

«المَدينَةُ والتَّاريخُ والسُّلْطَةُ : المَقْريزي وكِتابُه الرَّائِد «المَواعِظ والاعْتبار بذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»» ، حوليات إسلامية *An. Isl.* ٣٥ (٢٠٠١) ، ٧٧ـ ١٠٠.

نبيل السَّيِّد الطُّوخي .

«طَوَائِفُ الحِـرَف في مَدينَة القاهِرَة في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسِع عشر ١٨٤١ـ١٨٩٠م» ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م .

نَجْوى كمال كِيرَه ، المتوفاة سنة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م .

«حَيَاةُ العامَّة في مصر في العَصْر الفاطمي ٣٥٨ـ٥٦٧هـ/٩٦٩ـ١١٧١م» ، القاهرة ـ زهراء الشَّرْق ٢٠٠٤م .

«النَّدْوَةُ الدَّوْلِيَّة لأَلْفِيَّة القاهرة»، ١ـ٣، القاهرة ـ دار الكتب المصرية.

نِزارُ الصَّيَّاد.

«المُدُنُ والعُمْرانُ في صَدْرِ الإسلام»، المنامة ـ بيت القرآن ١٩٩٦م.

نِعْمَت محمد أبو بكر.

«مِنْبَرُ جَامِع السِّتّ تاتار الحجازية»، دراسات آثارية إسلامية ١ (١٩٧٨)، ١٤٣ـ١٦٩.

نِلّلي حَنّا.

«بُيُوتُ القاهِرَة في القَرْنَيْنِ السَّابع عَشْر والثَّامِن عَشْر ـ دِرَاسَة اجْتِمَاعِيَّة مِعْمَارِيَّة»، ترجمة سليم طوسون، القاهرة ـ العربي للنشر والتوزيع ١٩٩٣م.

«تُجَّارُ القاهِرَة في العَصْر العُثْماني ـ سيرة أبي طاقية شاهْبَنْدَر التُّجَّار»، ترجمة وتقديم رءوف عبّاس، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م.

«ثَقَافَةُ الطَّبَقَة الوسْطى في مصر العثمانية (ق ١٦م ـ ق ١٨م)»، ترجمة رءوف عبّاس، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٣م.

«شَارِعُ خَان أبي طاقِية»، الخَان الخَلِيلي وما حَوْلَه، القاهرة ـ المعهد العلمي الفرنسي ١٩٩٩م، ١:١٦٣ـ١٧٣.

«مصرُ أمُّ الدُّنْيا ـ قِصَّةُ القاهرة في ١٣٠٠ عام»، القاهرة ـ دار الفتى العربي ١٩٩٢م.

هدى جابر.

«البَشَرُ والحَجَرُ ـ القاهرةُ في القرن السادس عشر»، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٠م.

هرتس بك، ماكس، المتوفى سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م.

«جَامِعُ السُّلْطان حَسَن»، ترجمة علي بك بهجت، القاهرة ـ المطبعة الأهلية ١٣١٩هـ/١٩٠٢م.

والْتَرْز، ك. ك.

«الأَدْيِرَةُ الأثرية في مصر»، ترجمة إبراهيم سلامة إبراهيم، القاهرة ـ المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٢م.

وَصْفُ مصر بالصُّورَة ـ صُوَر فوتوغرافية نادرة ١٨٥٠ـ ١٨٩٠، إعداد عرفة عبده علي، القاهرة ـ دار الشُّرُوق ١٩٩٣م.

ولفرد جوزن.

«العِمَارَة العربية بمصر وشَرْح المُمَيِّزات البِنَائِيَّة الرَّئيسِيَّة للطِّرَاز العَرَبي في القرنين ١٤ و ١٥»، ترجمة محمود أحمد، القاهرة ـ المطبعة الأميرية ١٩٢٣م.

٣ - المُخْتَصَرات

ABREVIATIONS

ADAIK	= *Abhandlungen des Deutschen Arch?ologischen Instituts Kairo.*
An.Isl.	= *Annales islamologiques* (Le Caire).
AUC	= *The American University in Cairo.*
BEO	= *Bulletin d'Etudes Orientales* (Damas).
BFA-Cairo	= *Bulletin of the Faculty of Arts* (Cairo)
BIE	= *Bulletin de l'Institut d'Égypte* (Le Caire).
BIFAO	= *Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire).
BSRGE	= *Bulletin de la Société (Royale) de Géographie de l'Égypte* (Le Caire).
CIA	= *Corpus Inscriptionum Arabicarum.*
CIHC	= *Colloque International sur l'Histoire du Caire*, DDR 1973.
CNRS	= *Centre National de la Recherche Scienti?que* (Paris).
CR	= *Comptes Rendus* .
EI^{1}	= *Encyclopédie de l'Islam* (1re édition).
EI^{2}	= *Encyclopédie de l'Islam* (2ème édition).
EMA	= *Early Muslim Architecture* (Oxford).
IFAO	= *Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire)
IF(EA)D	= *Institut Français (d'Etudes Arabes) de Damas* (Damas).
IJMES	= *International Journal of Middle Eastern Studies* (Cambridge, Massachusetts).
JA	= *Journal Asiatique* (Paris).
JESHO	= *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (Leiden).
JRAS	= *Journal of the Royal Asiatic Society* (London).
MAE	= *Muslim Architecture of Egypt* (Oxford).
MDAIK	= *Mitteilungen des Deutschen Arch?ologischen Instituts*, Abteilung Kairo (Cairo).
MEJ	= *The Middle East Journal.*
MIE	= *Mémoire de l'Institut d'Égypte* (Le Caire).
MIFAO	= *Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale* (Le Caire).
MMAFC	= *Mémoires publiés par les membres de la Mission archéologique Française au Caire* (Le Caire).
MSR	= *Mamluk Studies Review* (Chicago).
MW	= *Muslim World* (Harvard, Connecticut).
RCEA	= *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe.*
RSO	= *Rivista degli Studi Orientali* (Rome).

٤ - المَراجِعُ الأجْنَبِيّة

'ABDEL-GAWAD, A., *Enter in Peace: The Doorways of Cairo Homes, 1872-1950*, Cairo-AUC 2008.

'ABD AL-RAZIQ, A., «Un collège féminin dans l'Égypte mamluke», *JEA* III (1978), pp. 15-25.

— , «Trois fondations féminines dans l'Égypte mamelouke», *REI* 41 (1973), pp. 95-126.

'ABD El-RAZEQ, M., «Aly Bey Bahgat (1858-1924). Sa vie et ses œuvres», *BIE* VI (1923-24), pp. 93-113.

ABBATE, W., «Les origines du Caire. Esquisse historique sur Babylone et Fostat», *BIE* 3[e] série I (1890), pp. 5-18.

ABU-LUGHOD, J.L., *Cairo : 1001 Years of the City Victorious*, Princeton University Press - Princeton, New Jersey 1971.

AHMAD ZEKI PACHA, «Les nouveaux égouts du Caire et les passages souterrains des Khalifes fatimides», *BIE* 5[e] série, VI (1912), pp. 1-9, 195-197.

AHMED ISA BEY, *Histoire des Bimaristans (hospitals) à l'époque islamique*, Cairo 1928.

ALLEAUME, GH., «Hygiène Publique et travaux publics: Les ingenieurs et l'assainissement du Caire (1882-1907), *An. Isl.*, XX (1984), pp.151-82.

— , «Politiques urbaines et contrôle de l'entreprise Une loi inédite de 'Alî Mubârak», *An. Isl.*, XXI (1985), pp. 147-88.

ALLEAUME, GH. & VOLAIT, M., «L'Age des mutations. les XIX[e] et XX[e] siècles», in ANDRÉ RAYMOND (ed.), *Le Caire*, Paris - Edition Citadelles & Mazemod 2000, pp.363-464.

ANTONIOU, J., *The Conservation of the Old City of Cairo*, London - UNESCO 1979-80.

— , *Historic Cairo. A Walk through the Islamic City*, Cairo-AUC 2009.

ARNAUD, JEAN-LUC, *Le Caire. Mise en place d'une ville moderne 1867-1907*, Paris-Sindbad Actes Sud 1998.

— , «Le Caire-Paris à la fin des anneés 1860» in DANIEL PANZAC et ANDRÉ RAYMOND (eds.), *La France & l'Égypte à l'époque du vice-rois 1805-1882*, Le Caire-IFAO 2002, pp.279-87.

ARTIN-BEY, J., «Bab Zoueyleh et la mosquée d'el-Moeyed. Notice historique et anectodique», *BIE* 2[e] série IV (1883), pp. 127-152.

ASFOUR, KH., «The Domestication of Knowledge: Cairo at the Turn of the Century», *Muqarnas X (1993), pp.125-37.*

— , «Réformes de la tradition et architecture domestique au Caire au tournant du siècle» in MERCEDES VOLAIT (ed.), *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.23-33.

AL-ASAD, MOH, «The Mosque of Muhammad 'Alî in Cairo», *Muqarnas* IX (1992), pp. 39-55.

— , «The Mosque of al-Rifâ'î in Cairo», *Muqarnas* X (1993), pp.108-24.

ATIYA, A.S., «Some Egyptian Monasteries according to the Unpublished Ms. of al-Shâbushtî's Kitâb al-Diyârât», *BSAC* V (1939), pp. 1-28.

AYALON, D., «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamluks and its Backgroud», in *Itinéraires d'Orient -Hommage à Claude Cahen, Res Orientales* VI (1994), pp. 15-19.

BAHGAT, 'A., «Les fouilles d'al-Foustat», *Syria* (1923), pp. 59-65.

BAHGAT, 'A. et GABRIEL, A., *Les fouilles d'al-Foustat*, Le Caire - Paris 1921.

BAREKET, E., *Fustat on the Nile. The Jewish Elite in Medieval Egypt*, Leiden - E. J. Brill 1999.

BACHARACH, J. L. (ed.), *The Restoration and Conservation of Islamic Monuments in Cairo*, Cairo - AUC 1995.

BARILLARI, D., «les bâtiments de la compagnie des Assicurazioni Generali au Caire», in *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.35-48.

BÉCHARD, E., *Album des jardins du palais de Guézireh*, Paris 1874.

BEHRENS-ABOUSEIF, D., «The 'Abd al-Rahmâm Katkhudâ Style in 18th century Cairo», *An.Isl.* XXVI (1992), pp. 117-126.

— , *Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ismâ'il, 1476-1879, SAI* no 6 (1985).

— , *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture*, Cairo - AUC 2007.

— , «Change in Function and Form of Mamluk Religious Institutions», *An.Isl.* XXI (1985), pp.73-93.

— , «The Citadel of Cairo: Stage for Mamluk Ceremonial», *An.Isl.* XXIV (1988), pp.25-79.

— , *Egypt's Adjustment to Ottoman Rule. Institutions, Waqf and Architecture in Cairo 16th* and 17th Centuries), Leiden-E. J. Brill 1994.

— , «The Façade of al-Aqmar Mosque in the Context of Fatimid Ceremonial», *Muqarnas* IX (1992), pp.29-38.

— , *Fath Allâh and Abû Zakariya: Physicians under the Mamluks, SAI* no 9 (1987).

— , «Four Domes of the Late Mamluk Kairo», *An.Isl.* XVII (1985), pp.191-201.

— , *Islamic Architecture in Cairo, an introduction*, Cairo AUC 1989.

— , «Locations of Non-Muslim Quarters in Medieval Cairo», *An.Isl.* XXII (1986), pp.117-132.

— , «The Lost Minaret of Shajarat al-Durr at the Complex in the Cemetery of Sayyida Nafisa», *MDAIK* XXXIX (1983), pp.3-20.

— , «The Mahmal Tradition and the Pilgrimage of the Ladies of the Mamluk Court», *MSR* I (1997), pp.87-96.

— , *The Minarets of Cairo*, Cairo-AUC 1985.

— , *The Minarets of Cairo. Islamic Architecture from the Arab Conquest to the End of the Ottoman Period*, Cairo-AUC 2010.

— , «Muhandis, Shâd, Mu'allim-Note on the Building craft in the Mamluk Period», *Der Islam* 72 (1995), pp.293-309.

— , «Al-Nâsir Muhammad and al-Ashraf Qâyitbây - Patrons of Urbanism» in *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, I, pp.267-284.

— , «The North-Eastern Extension of Cairo under the Mamluk», *An.Isl.* XVII (1981), pp.157-190.

— , «Patterns of Urban Patronage in Cairo: A Comparaison between the Mamluk and the Ottoman Periods» in *The Mamluks in Egyptian Politics and Society*, TH. PHILIPP and U. HAARMANN (eds.), Cambridge 1988, pp.224-234.

— , «Qaytbây's Investments in the City of Cairo: Waqf and Power», *An. Isl* 32 (1998), pp. 29-40.

— , «The Qubba, an Aristocratic Type of Zâwiya», *An.Isl.* XIX (1983), pp.1-7.

— , «Sultan al-Ghawrī and the Arts», *MSR* VI (2002), pp.71-94.

BEHRENS-ABOUSEIF, D., DENOIX, S. et GARCIN, J.-Cl., «Le Caire» dans *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, sous la direction de J.-Cl. Garcin, Rome - Ecole Française de Rome 2000, pp.177-203.

BERCHEM, MAX VAN, «La Chaire de la mosquée d'Hébron et le martyrion de la tête de Husain à Ascalon», *Festschrift Eduard Sachau zum siebzigsten Geburtstage gewidmet Freuden und Schülern*, Berlin 1915, pp.298-39.

—, *CIA* Égypte = *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*, Ire partie Égypte, *MMAFC* XIX (1894-1903).

—, «Notes d'archéologie arabe. Monuments et inscriptions fatimites», *JA* 8e série t. XVII (1891), pp.41-495 ; t. XVIII (1891), pp.46-86.

—, «Notes d'archéologie arabe. Deuxième article. Toulounides et Fatimites», *JA* 8e série t. XIX (1892), pp.377-407.

BERGER, M., «Cairo to the American Traveller of the Nineteenth Century», *CIHC*, pp.51-66.

BERKEY, J.P. «Culture and Society during the Late Middle Ages», in *The Cambridge History of Egypt*, pp.375-411.

—, *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo. A Social History of Islamic Education*, Princeton, 1992.

BERQUE, J. et AL-SHAKAA, M., «La Gamâliya depuis un siècle», *CIHC*, pp.67-93.

BIANCA, S. & JODIDIO, PH., *Cairo Revitalising a Historic Metropolis*, Turin 2004.

BLACHÈRE, R., «L'agglomération du Caire vue par quatre voyageurs arabes du Moyen Age», *An.Isl.* VIII (1969), pp.1-26.

—, «La Fondation du Caire et la renaissance de l'humanisme arabo-islamique au IVe siècle», *CIHC*, pp.95-96.

The Blackwell Dictionary of Eastern Christanity, Blackwell - Oxford 2001.

BLAIR, S.S., «Sufi Saints and Shrine Architecture in The Early Fourteenth Century», *Muqarnas* VII, (1990), pp.35-49.

BLANC, B., DENOIX, S., GARCIN, J.-Cl., GORDIANI, R., «A propos de la Carte du Caire de Matheo Pagano», *An.Isl.* XVII (1981), pp.203-285.

BLOOM, J. M., *Arts of the City Victorious: Islamic Art and Architecture in Fatimid North Africa and Egypt*, Cairo - AUC 2007.

—, «Creswell and the Origins of the Minarets», *Muqarnas* VIII (1991), pp.55-58.

—, «The Introduction of the Muqarnas into Egypt», *Muqarnas* V (1988), pp.21-88.

—, «Mamluk Art and Architectural History: A Review Article», *MSR* III (1999), pp.31-58.

—, *Minaret : Symbol of Islam*, Oxford 1989.

—, «The Mosque of Baybars al-Bunduqdârî in Cairo», *An.Isl.* XVIII (1982), pp.45-78.

—, «The Mosque of al-Hâkim in Cairo», *Muqarnas* I (1983), pp.15-36.

—, «The Mosque of Qarâfa in Cairo», *Muqarnas* IV (1987), pp.7-20.

—, «Paper in Fatimid Egypt», in *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, Marriane Barrucand (ed.), pp.395-401.

BRIGGS, M.S., «The Fatimite Architecture of Cairo (A.D. 969-1171)», *Burlington Magazine* XXXVII (1929), pp.137-147, 190-195.

—, *Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine*, Oxford 1924.

BURMESTER, O.H.E., *A Guide of the Ancient Coptic Church of Cairo*, Le Caire - SAC 1955.

BUTLER, A.J., *The Ancient Coptic Churches of Egypt*, I-II, Oxford 1884.

— , *The Arab conquest of Egypt and the Last Thirty Years of Roman Dominion*, Oxford 1902, 1978.

— , *Babylon of Egypt, a Study in the History of Old Cairo*, Oxford 1914.

CAHEN, CL., «Les marchands étrangers au Caire sous les Fâtimides et les Ayyoubides», *CIHC*, pp.91-97.

Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes = VOLAIT, MERCEDES

The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim, Doris Behrens-Abouseif (ed.), Cairo - AUC 2000.

The Cambridge History of Egypt, vol. I: Islamic Egypt 640-1517, CARL F. PETRY (ed.), vol. II: Modern Egypt from 1517 to the End of 20th Century, M. W. DALY (ed.), Cambridge 1998.

CASANOVA, P., *Essai de reconstitution topographique de la ville dal-Foustât ou Misr, MIFAO* XXXV, Le Caire 1913-1919.

— , *Histoire et Description de la Citadelle du Caire, MMAFC* VI (1891-1892), pp.509-781.

CHABROL, M. DE, «Essai sur les mœurs des habitants modernes de l'Égypte», *Description de l'Égypte* - État moderne II-2, Paris 1822.

CHAPOUTOT-REMADI, M., «Une grande crise à la fin du XII^e siècle en Égypte» *JESHO* XXVI (1983), pp.216-245.

CHIPMAN, L., *The World of Pharmacy and Pharmacists in Mamluk Cairo*, E.J. Brill 2010.

«Cirque du Caire», *Revue génerale de l'aschitecture et des travaus publics* XXVII (1869), pp.276-77.

CLERGET, M., *Le Caire : Etude de géographie urbaine et d'histoire économique*, I-II, Le Caire 1934.

Colloque international sur l'Histoire du Caire, DDR 1973.

COMBE, E., SAUVAGET, J., WIET, G., *RCEA* = *Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe*, I-XVI, Le Caire, IFAO 1931-1964 : T. XVII-XVIII par Ludwig Kalus, Le Caire, IFAO, 1982-1991.

COQUIN, Ch., *Les édifices chrétiens du Vieux-Caire*, I - *Bibliographie et topographie historique*, Le Caire, IFAO 1974.

CORTEGGIANI, J.-P., «Le Site des origines à l'arrivée des Arabes», in ANDRÉ RAYMOND (ed.), *Le Caire*, Paris - Edition Citadelles & Mazemod 2000, pp.15-55.

CORBETT, E.R., " The History of the Mosque of 'Amr at Old Cairo ", *JRAS* XVII (1890), pp.759-800.

— , «The Life and works of Ahmed ibn Tulun», *JRAS* XVIII (1891), pp.527-562.

COSTE, P., *Architecture Arabe ou Monuments du Kaire*, Paris 1837-1839.

CR du comité = *Comité de conservation des monuments de l'art arabe. Procès-verbaux des séances - Rapport de la deuxième commission*, I-XL Le Caire 1883-1952.

GRABAR, O., «The Earliest Islamic Commemorative Structures», *Ars Orientalis* VI (1966), pp.

CRESWELL, K.A.C., «Archeological Researchs at the Citadel of Cairo», *BIFAO* XXII (1924), pp.39-167.

— , *A Bibliography of the Muslim Architecture of Egypt*, Le Caire *IFAO* 1955.

—, «A Brief Chronology of the Muhammadan Monuments of Egypt to A.D. 1517», *BIFAO* XVI (1919), pp.39-164.

—, «Coptic Influences on Early Muslim Architecture», *BSAC* V (1939), pp.29-42.

—, *EMA = Early Muslim Architecture: Umayyads, Early 'Abbasids & Tulunids*, I-II Oxford 1932-1940.

—, «The Evolution of the Minaret with special reference to Egypt», *The Burlington Magazine* XLVIII (1926), pp.134-140, 252-258, 290-298.

—, «Fortification in Islam before A.D. 1520», in *Proceedings of the British Academy* 1952, London 1952.

—, «The Foundation of Cairo», *Bull. of the Fac. of Arts, Univ. of Egypt* I (1933), pp.258-281.

—, «The Founding of Cairo», *CIHC*, pp.125-130.

—, «The Great Salients of the Mosque of al-Hakim at Cairo», *JRAS* (1923), pp.573-584.

—, «La Mosquée de 'Amru» traduit de l'anglais par M[me] R.L. Devonshire, *BIFAO* XXXII (1932), pp.121-166.

—, *MAE = The Muslim Architecture of Egypt* I. Ikhshids and Fatimids, Oxford 1952; II. Ayyubids and Early Mamluks, Oxford 1958.

—, «The Origin of the Cruciform Plan of Cairene Madrasas», *BIFAO* XXI (1922), pp.1-54.

—, «The Works of Sultan Bibars al-Bunduqdârî in Egypt», *BIFAO* XXVI (1926), pp.129-193.

CYRAN, M., «Re-discovered carved panels of the Fatimid Palaces», in *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, M. Barrucand (ed.), Paris 1999, pp.658-663.

DARRAG, A., *L'Égypte sous le règne de Barsbay 825-841/1422-1439*, Damas - IFD 1961.

DE SMET, D., «La translation du Ra's al-Husayn au Caire fatimide» dans *Egypt and Syria in Fatimid, Ayyubbid and Mamluk Eras*, II, pp.29-44.

DEN HEIJER, J., «The Composition of the History of the Churches and Monasteries of Egypt : Some Preliminary Remarks» in *Acts of the Fifth International Congress of Coptic Studies*, S.D.W. Johnson (ed.), Roma 1993, II/2, pp.209-219.

—, «Considérations sur les communautés chrétiennes en Égypte fatimide : l'État et l'Église sous le vizirat de Badr al-Jamâlî (974-994)» dans *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, M. Barrucand (ed.), Paris, 1999, pp.569-578.

DENOIX, S., *Décrire le Caire : Fustât-Misr d'après Ibn Duqmâq et Maqrîzî. L'histoire d'une partie de la ville du Caire d'après deux historiens égyptiens des XIV[e-] XV[e]* siècles, Le Caire - IFAO 1992.

—, «Histoire et formes urbaines (éléments de méthode)» dans Décobert, Chr. (ed.), *Itinéraires d'Égypte*, Le Caire IFAO 1992, pp.45-70.

—, «Les premiers siècles arabes de la conquête aux califes fatimides chiites (641 à 1171)», in ANDRÉ RAYMOND (ed.), *Le Caire*, Paris - Edition Citadelles & Mazemod 2000, pp.57-127.

—, «A Mamluk Institution for Urbanization : The *Waqf*» in Doris Behrens-Abouseif (ed.), *The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim*, Cairo - AUC 2000, pp.191-202.

—, «Pour une exploitation d'ensemble d'un corpus. Les Waqfs mamelouks du Caire», dans *Le waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique*, Randi Deguilhem (ed.), Damas 1995, pp.29-44.

Descriptions de l'Égypte ou recueil des observations et des recherches qui ont été faites en Égypte pendant l'expédition de l'armée française - édition Panckoucke, 26 vol., Paris 1821-1829.

DEVONSHIRE, R.L., *L'Égypte musulmane et les fondateurs de ses monuments*, Paris - Maisonneuve 1926.

— , *Rambles in Cairo*, Cairo 1931.

DOBROWOLSKA, A., *The Building Crafts of Cairo: A Living Tradition*, Cairo-AUC 2005.

— , *Heliopolis: Rebirth of the City of the Sun*, Cairo-AUC 2007.

— , KH. FAHMI, *Muhammad 'Alî Pache and his Sabils*, Cairo-AUC 2000.

DONZEL, C., *En Egypt - La magie du photochrone*, Paris - De Manza Editeur 2007.

DOVIN, G., *Histoire du règne du Khédive Ismail, les premières années du règne 1863-1867*, Rome 1933.

L'Égypte fatimide son art et son histoire, MARIANNE BARRUCAND (ed.), Paris - Presses de l'Université de Paris - Sorbonne 1999.

FAHMY 'ABD AL-'ALIM, «Mosque of the Mamluk Sultan Muayyad Sheikh», *IAS* II (1980), pp.147-81.

FANFONI, G., «Il complesso architectorico dei dervisci mewlewi in Cairo», *RSO* LVII (1983), pp.77-92.

— , «The foundation and Organization of the Cairo Mawlawiyya», *QSA* 17 (1999), pp.95-222.

— , La Madrasa di Sunqur Sa'di e il Museo Mevlevi, Il Cairo - Instituto italiano di cultura 2002.

FATHI, H., «The Qâ'a of the Cairene Arab House, its development and some new usages for its design concepts», *CIHC*, pp.135-54.

FATTAL, A., *La Mosquée d'Ibn Tulun au Caire*, Beyrouth 1960.

FERNANDES, L., «Between Qadis and Muftis: To Whom Does the Mamluk Sultan Listen ?», *MSR* VI (2002), pp.95-98.

— , «On Conducting the Affairs of the State: A Guideline of the Fourteenth Century». *An.Isl.* XXIV (1988), pp.81-91.

— , *The Evolution of a Sûfî Institutions in Mamluk Egypt: The Khânqâh* , Berlin, 1988.

— , «The Foundation of Baybars al-Jashankir: Its Waqf, History and Architecture», *Muqarnas* IV (1987), pp.21-42.

— , «Istibdal: The Game of Exchange and its Impact on the Urbanization of Mamluk Cairo» in *The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim*, Doris Behrens-Abouseif (ed.), Cairo - AUC 2000, pp.203-22.

— , «Mamluk Architecture and the Question of Patronage», *MSR* I (1997), pp.97-120.

— , «Some Aspects of the Zâwiya in Egypt at the Eve of the Ottoman Conquest», *An.Isl.* XIX (1983), pp.9-17.

— , «Three Sûfî Foundations in a 15th century Waqfiyya», *An.Isl.* XVII (1981), pp.141-56.

— , «The Zâwiya in Cairo», *An.Isl.* XVIII (1982), pp.116-21.

FITZHERBERT, T., «The Creswell Photographic Archive at the Ashmolean Museum, Oxford», *Muqarnas* VIII (1991), pp.125-127.

FLURY, S., «Le décor épigraphique des monuments fatimides du Caire», *Syria* XVII (1936), pp.365-376.

— , *Die Ornamente der Hakim- und Azhar-Moschee.* Materialien zur Geschichte der ?lteren Kunst des Islam, Heidelberg 1912.

La France & l'Égypte à l'époque des vice-rois 1805-1882, édité par DANIEL PANZAC et ANDRÉ RAYMOND, Le Caire - IFAO 2002.

FU'ÂD SAYYID, A., «L'Art du livre» dans *Dossiers d'Archéologie* 233 (May 1998): Égypte, L'Âge d'or des Fatimides, pp.80-83.

— , *La capitale de l'Égypte jusqu'à l'époque fatimide (al-Qâhira et al-Fustât) - Essai de reconstitution topographique*, Beirut, BTS 48, 1998.

— , «L'évolution de la composition du genre des Khitat en Égypte musulmane», dans *The Histriography of Islamic Egypt (c. 950-1800)*, HUGH KENNEDY (ed.), Leiden - E. J. Brill 2001, pp.77-92.

— , «Le grand palais fatimide au Caire», dans *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, MARIANNE BARRUCAND (ed.), pp.117-25.

— , «The Historical Development of Cairo, 20-923/642-1517: an Overview», in *Living in Historic Cairo*, pp.14-27.

— , «Lumières nouvelles sur quelques sources de l'histoire fatimide en Égypte», *An.Isl.* XIII (1977), pp.1-41.

— , «Que reste-t-il de la bibliothèque des Fatimides ?», *Des Alexandries II. Les métamorphoses du lecteur*, Paris BNF 2003, pp.113-123.

— , «Remarques sur la composition des *Hitat* de Maqrîzî d'après un manuscrit autographe», *Hommage à la mémoire de Serge Sauneron, IFAO*, Le Caire II (1979), pp.231-258.

FU'AD SAYYID, A. & GAYRAUD, P.R., «Fustât - Le Caire à l'époque fatimide», dans *Grandes villes méditerranéennes du monde musulman médiéval*, sous la direction de J.-CL. GARCIN, Rome - Ecole française de Rome 2000, pp.135-156.

GABRIEL, A., *Les fouilles d'al-Foustat et les origines de la maison arabe en Égypte*, Paris 1921.

GABRIELI, F., «Le Caire de Nâsirî Khusrev», *CIHC*, pp.155-158.

GARCIN, J.-Cl., «Une carte du Caire vers la fin du sultanat de Qaytbay», *An.Isl.* XVII (1981), pp.272-285.

— , «Le Caire et l'évolution urbaine des pays musulmans», *An.Isl.* XXV (1991), pp.289-304.

— , «Le Caire des Ayyoubides et des Mamelouks 1174-1517», in ANDRÉ RAYMOND (ed.), *Le Caire*, Paris - Edition Citadelles & Mazemod 2000, pp.147-276.

— , «Le Caire et la province : construction au Caire et à Qûs sous les Mameluks Baharides», *An.Isl.* VIII (1969), pp.47-61.

— , *Espaces, pouvoirs et idéologies de l'Égypte médiévale*, London - Variorum Reprints 1987.

— , «Habitat médiéval et histoire urbaine à Fustat et au Caire», dans *Palais et Maisons du Caire* I. Epoque mamelouke, *CNRS*, Paris 1982, pp.145-217.

— , «al-Maqrîzî (1364-1442), un historien encyclopédique du monde afro-oriental», dans Ch.-A. Julien (ed.), *Les Africains* IX (1978), pp.197-223.

— , «La "Méditerranéisation" de l'empire mamelouke sous les sultans bahrides», *RSO* XLVIII (1973-1974), pp.99-116.

— , «La mosquée al-Lamatî à Minya», *An. Isl.* XIII (1977), pp.91-11.

— , «Pour un recours à l'histoire de l'espace vécu dans l'étude de l'Égypte arabe», *Annales ESC* 35 (1980), pp.436-51.

— , «Toponymie et topographie urbaines médiévales à Foustat et au Caire», *JESHO* XXVII (1984), pp.113-155.

GARCIN, J.-Cl. & TAHER, M.A., «Les waqfs d'une *Madrasa* du Caire au XV^e siècle. Les propriétés urbaines de Gawhar al-Lâlâ», dans *Le waqf dans l'espace islamique outil de pouvoir socio-politique*, RANDI DEGUILHEM (ed.), Damas-IFEAD 1995, pp.151-186.

GARRET, P., «Le passage à l'échelle urbaine Héliopolis et ses mythes», in MERCEDES VOLAIT (ed.), *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.109-19.

GAYRAUD, R.-P., «Céramiques trouvées lors de la restauration de la madrasa Tatar al-Higaziyya (Le Caire)», *An.Isl.* XXII (1986), pp.35-49.

— , «Fostat: Évolution d'une capitale arabe du VII^e au XII^e siècle d'après les fouilles d'Istable 'Antar» in R.-P. GAYRAUD (ed.), *Colloque international d'archéologie islamique*, Le Caire-IFAO 1998, pp.435-60.

— , «Istabl 'Antar (Fostat) 1986-1994 - Rapport des fouilles», *An.Isl* XXII (1985) - XXIX (1995).

— , «Le Qarâfa al-Kubrâ, dernière demeure des Fatimides» dans *L'Égypte fatimide, son art et son histoire*, M. Barrucand (ed.), pp.443-464.

GEOFFROY, E., *Le soufisme en Égypte et en Syrie sous les derniers Mamelouks et les premiers Ottomans. Orientations spirituelles et enjeux culturels*, Damas IFEAD 1995.

GHALEB, K.O., *Le Mikyâs ou Nilomètre de l'Ile de Rodah, MIE* t. LIV (1951).

GIL, M., *Documents of the Jewish Pious Foundations from the Cairo Geniza*, Leiden - E. J. Brill 1976.

— , «Maintenance, Building Operations and Repairs in the Houses of the Qodesh in Fustat. A Geniza Study», *JESHO* XIV (1971), pp.136-195.

The Glory of Cairo: An Illustrated History, edited by ANDRÉ RAYMOND, Cairo - AUC 2002.

GODARD, A., «L'origine de la madrasa, de la mosquée et du caravansérail à quatre iwans», *Ars Islamica* XV-XVI (1968), pp.1-9.

GOITEIN, S.D., «Cairo: An Islamic City in the Light of the Geniza Documents», in: Lapidus, I.M., (ed.), *Middle Eastern Cities*, University of California 1969, pp.80-96.

— , «From the Mediterranean to India. Documents on the Trade to India, South Arabia and East Africa from the Eleventh and Twelfth Centuries», *Speculum - A Journal of medieval studies* XXIX (April 1954), pp.18 1-197.

— , *A Mediterranean Society - The Jewish Communities of the Arab World as Portrayed in the Documents of the Cairo Geniza.*

vol. I. Economic Foundations, Berkeley 1967.

vol. II. The Community, Berkeley 1971.

vol. III. The Family, Berkeley 1979.

vol. IV. Daily Life, Berkeley 1983.

vol. V. The Individual, Berkeley 1988.

vol. VI. (and Paula Sanders). Cumulative Indices, Berkeley 1993.

— , «Urban Housing in Fatimid and Ayyubid Times (as illustrated by the Cairo Geniza Documents)», *SI* XLVII (1978), pp.5-23.

GOLB, N., «The Topography of the Jews of Medieval Egypt: Inductive Studies Based Primarly upon Documents from Cairo Geniza», *JNES* 24 (1967), pp.251-270, 32 (1974), pp.116-149.

GOLVIN, L., *La Madrasa médiévale*, Paris - Edisud 1995.

— , «Mahdiya à la période fatimide», *ROMM* XXVII (1979), pp.75-98.

GOTTHEIL. R., «A Door from the Madrasah of Barkuk», *JAOS* 30 (1909-9), pp.58-60.

GRABAR, O., «K.A.C. Creswell and his Work», *Muqarnas* VIII (1991), pp.1-3.

— , «The Earliest Islamic Commemorative Structures; Notes and Documents», *Ars Orientalis* VI (1966), pp.7-46.

— , «The Inscriptions of the Madrasah - Mausoleum of Qaytbay» in *Near - Eastern Numismatics: Iconography, Epigraphy and History, Studies in Honor of George C. Miles.* Beirut 1974, pp.465-68.

Grandes villes méditerranéennes du monde musulmane médiéval, sous la direction de Jean-Claude Garcin, Rome - École française de Rome 2000.

GROHMANN, A., «Die Bauinschrift des Moschee des Ahmad Ibn Tûlûn (265/879)», in *Studies Islamic Arts and Architecture in Honor of Professor K.A.C. Creswell*, Cairo-Auc 1965, pp.84-94.

GUEST, A.R., «Cairene topography : el-Qarafa according to Ibn ez-Zayyat», *JRAS* 1926, pp.57-61.

— , «The Foundation of Fustat and the Khittahs of that Town», *JRAS*(1907), pp.49-83.

— , «A List of Writers, Books, and other Authorities mentioned by al-Maqrizi in his Khitat», *JRAS* (1902), pp.93-125.

GUEST, R., & RICHMOND, E.T., «Misr in the Fifteenth Century», *JRAS* (1903), pp.791-816.

HABASHI (al.)., 'A & WARNER, N., «Recording the Monuments of Cairo : an Introduction and Overview», *An.Isl.* XXXII (1998), pp.81-99.

HALM, H., «Learning and Science in Historic Cairo», in *Living in Historic Cairo*, pp.79-85.

HAMAMSY, CHAFIKA S., *Zamalek - The Changing Life of Cairo Elite 1850-1945*, Cairo - AUC 2005.

HAMID, AH., *Hassan Fathy and continuity in Islamic Arts and Architecture - The Birth of A New Modern, Cairo - AUC 2010.*

HAMMER-PURGSTALL, BARON VON, «Inscription coufique de la mosquée de Hakim bi Emrillah», *JA* 3e série V (1838), pp.388-391.

HAMPIKIAN, N., «Recent Discoveries Concerning the Fatimid Palaces Uncovered During the Conservation Works on Parts of al-Sâlihiyya Complex», dans *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, M. Barrucand (ed.), pp.649-657.

— , «Restoration of the Mausoleum of al-Sâlih Najm al-Dîn Ayyb», in *The Restoration and Conservation of Islamic Monuments in Egypt*, Jere Bacharach (ed.), Cairo, 1995, pp.46-58.

— , «Restoration of the Minaret of al-Salihiyya madrasa in Cairo», *Erhalten historisch bedeutsamer Bauwerke 14*, Universit?t Karlsruhe (1996), pp.175-180.

— , *Al-Sâlihiyya Complex through Time*, Heidelberg 2004.

HAMZA, H., *The Northern Cemetery of Cairo*, Cairo - AUC 2001.

— , «The Turbah of Tankizbughâ», *MSR* X/2 (2006), pp.163-83.

HANNA, N., «Bûlaq. An Endangered Historic Area of Cairo», in M. MEINECKE (ed.), *Islamic Cairo*, London 1980, pp.19-20.

—, *Construction Work in Ottoman Cairo*, Le Caire - IFAO 1984.

—, *Hobiter au Caire au XVII^{e} et XVIII^{e} siècles*, Le Caire - IFAO 1991.

—, *An Urban History of Bûlâq in the Mamluk and Ottoman Periods*, SAI cahier n^{o} 3, Le Caire - IFAO 1983.

HARITHY (AL-), H., «The Complex of Sultan Hasan in Cairo. Reading between the Lines», *Muqarnas* 13 (1996), pp.68-79.

—, «The Concept of Space in Mamluk Architecture», *Muqarnas* XVIII (2001), pp.73-93.

—, «The Four Madrasahs in the Complex of Sultan Hasan (1356-61): The Complex Survey», *MSR* XU/2 (2007), pp.49-76.

—, «The Patronage of al-Nâsir Muhammad ibn Qalâwûn, 139-1341», *MSR* IV (2000), pp.219-244.

—, «Turbat al-Sitt: An Identification» in Doris Behrens-Abouseif (ed.), *The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim*, Cairo - AUC 2000, pp.93-122.

HASSAN, Z. M., *Les Tulunides, étude de l'Égypte musulmane à la fin du IX^{e} siècle (868-905)*, Paris 1933.

HASSID, S., *The Sultan's Turrets. A Study of the Origin and Evolution of the Minaret in Cairo*, Cairo 1939.

HASWELL, C.J.R., «Cairo : Origin and Development. Some Notes on the Influence of the River Nile and its Changes», *BSRGE* XI (1923), pp.171-176.

HAUTECŒUR, L., & WIET, G., *Les Mosquées du Caire*, I-II, Paris 1932.

HAWARI (EL-), H.M., «Une maison de l'époque toulounide», *BIE* XV (1932-1933), pp.79-87.

HAY, R., *Illustrations of Cairo*, Drawn on Stone by J.C. Bourne, London 1840.

HERZ, M., «Un bassin en mosaïque de marbre en Maristan al-Mansouri (Kalaoun)», *CR de comité* XXVIII (199), pp.141-147.

—, *Die Baugruppe des Sultans Qalaun in Kairo*, Abhandlungen des Hamburgischen Kolonialinstituts, Bd. XXXXII, Hamburg 1919.

—, «Boiseries fatimides aux sculptures figurales», *Orientalisches Archiv* III (1913), pp.169-174.

—, *La Mosquée al-Rifâ'î au Caire*, Paru à la consécration de la mosquée, Milan 1912.

—, *La mosquée du Sultan Hassan au Caire*, Le Caire 1899.

—, «Mosquée et tombeau du Sultan Saleh Negm el-Din Ayyoub», *BIE* 4^{e} série V (1904), pp.25-31.

HOAG, J.D. & BERGER-LEYRAULT, *Architecture Islamique*, Paris 1982.

HOAG, MICHAEL, *Cairo Illustrated*, Cairo-AUC 2006.

HOMERIN, Th. E., «The Domed Shrine of Ibn al-Fârid», *An.Isl.* XXV (1991), pp.133-138.

HOURANI, A.H., «The Islamic City in the Light of Recent Research», in *The Islamic City*, (A.H. Hourani & S.M. Stern (eds.), Oxford 1970, pp.9-24.

HOURANI, A.H. & STERN, SM., *The Islamic City*, Oxford 1970.

HUMPHREYS, R.S., «The Expressive Intent of the Mamluk Architecture of Cairo : A Preliminary Essay», *SI* XXXV (1972), pp.69-119.

IBRAHIM, L. A., «The Great Hanqâh of the Emir Qawsûn in Cairo», with two Appendices by J.M. Rogers, *MDAIK* XXX (1974), pp.37-64.

— , *Mamluk Monuments of Cairo,* Cairo - AUC 1976.

— , «Residential Architecture in Mamluk Cairo», *Murqarnas* II (1984), pp.49-75.

— , «The Transitional Zone of Domes in Cairene Architecture», *Kunst des Orients* X (1975), pp.5-23.

— , «The Zâwiya of Shaykh Zain ad-Dîn in Cairo», *MDAIK* 34 (1978), pp.79-19.

ILBERT, R., *Heliopolis: Le caire 1905-1922. Genèse d'une ville,* Paris - CNRS 1981.

IBRAHIM, L.A. & O'KANE, B., «The Madrasa of Badr al-Dîn al-'Aynî and its Tiled Mihrâb», *An.Isl.* XXIV (1988), pp.253-268.

ISCARUS, T., «Un nouveau manuscrit sur les églises et les monastères de l'Égypte au XII[e] siècle» dans *Actes du congrès International de géographie,* Avril 1925, Le caire 1926, pp.207-208.

The Islamic City, R.B. SERJEANT (ed.), Paris - UNESCO 1980.

The Islamic City, A. HOURAN & S.M. STERN (eds.), London 1970.

IVERSON, B. & TAMRAZ, N., *Comparative Views of Egypt: Cairo One Hundred Years Later,* Zeitoune 1994.

JOHESTON, SHIRLEY, *Egyptian Palaces and Villas 1808-1960,* Cairo - AUC 2000.

JOMARD, M., «Description de la ville et de la Citadelle du Caire», dans *Description de l'Égypte - Etat moderne,* II[e] partie, t. XVIII, éd. Panckoucke, Paris 1829, pp.113-552.

JOMIER, J., *EI*[2] art. *al-Kâhira* IV, pp. 454-62.

Al-KADI, GALILA, *Architecture for the Dead Cairo's Medieval Necropolis,* Cairo - AUC 2007.

— , *L'Urbanisation spontanée au Cairo,* Tours 1987.

KALUS, L., *RCEA = Répertoire chronologique d'épigraphie arabe,* XVII-XVIII, Le Caire - IFAO 1982, 1991.

KARIM, CH. F. «The Mosque of Amîr Qawsûn (730/1330)», in *Historians in Cairo. Essays in honor of George Scanlon,* Jill Edwards (ed.), Cairo-AUC 2000, pp.29-48.

— , «The Mosque of Aslam al-Bahâ'î al Silahdâr (746/1345)», *An.Isl.* XXIV (1988), pp.233-252.

— , «The Mosque of Ulmâs al-Hâjib», *The Cairo Heritage in Honor of Laila 'Ali Ibrahim,* in Doris Behrens-Abouseif (ed.), Cairo-AUC 2000, pp.123-147.

KARNOUK, G., «Form and Ornament of the Cairene Bahri Minbar», *An.Isl* XVII (1981), pp.113-140.

— , «The Creswell Library : A Legacy», *Muqarnas* VIII (1991), pp.117-124.

KASSEM, K.A., «The Economy of Historic Cairo: A Case Study of the Markets of Mamluk Cairo», in *Living Hsitoric Cairo,* pp.42-51.

KAY, H.C., «Arabic Inscriptions in Egypt», *JRAS* (1895), pp.827-838; (1986), pp.137-148.

— , «Inscriptions at Cairo and the Burju-z Zafar», *JRAS* XVIII (1886), pp.82-88.

— , «Al-Kâhirah and its Gates», *JRAS* XIV (1882), pp.229-245.

KESSLER, CHR., «The Carved Masonry Domes of Mediaeval Cairo», Cairo AUC, 1976.

— , «Funerary Architecture Within the City», *CIHC,* pp.257-26.

— , «Mecca-Oriented Architecture and Urban Growth of Cairo», in *Atti del Terzo Congresso di Studi Arabi e Islamici,* Ravello-Napoli 1967, pp.425.

— , «Mecca-Oriented Urban Architecture in Mamluk Cairo: The Madrasa-Mausoleum of Sultan Sha'bân II», *in Quest of an Islamic Humanism: Arab and Islamic Studies in*

Memory of Mohamed Nowaihi, Arnold H. Green (ed.), Cairo - AUC 1982, pp.97-98.

KHACHAB, Y. AL., «Description de l'Égypte d'après le *Safarnameh* de Nasir-e Khosraw», *CIHC*, pp.277-278.

Le Khan al-Khalili et ses environs. Un centre commercial et artisanal au Caire du XIII[e] *au XX*[e] *siècle*, I-II, Sylvie Denoix, Jean-Charles Depaule et Michel Tuchscherer (eds.), Le Caire - IFAO 1999.

KORN, L., «The Façade of as-Salih Ayyûb's Madrasa and the Style of Ayyûbid Architecture in Cairo", in *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, III, pp.91-121.

— , «Tradition und Innovation in der ayyubidischen Architektur in Agypten» *MDAIK* 55 (1999), pp.265-292.

KUBIAK, W., «The Burning of Misr al-Fustât in 1168. A Reconsideration of Historical Evidence», *Africana Bulletin* XXV (1976), pp.51-64.

— , «The Circulation Tracks of al-Fustât. One aspect of the Physionomy of a Mediaeval Arab City», *Africana Bulletin* XXVIII (1979), pp.7-28.

— , *Al-Fustat. Its Foundation and its Early Urban Development*, Cairo AUC 1987.

KUBIAK, W. & SCANLON, G. T., *Fustât Expedition Final Report, II, Fustat C*, Winona Lake, Indiana 1989.

LABABIDI, L., *Cairo's Street Stories: Exploring the City's Status Squares, Bridge, Gardens and Sidewalk Cafés*, Cairo-AUC 2009.

LAMEI MUSTAFA, S., *Kloster und Mausoleum des Farag Ibn Barqûq in Kairo, ADAIK* - Islamiche Reihe, Band 2, Glückstadt, 1968.

— , *Madrasa, Hanqâh und Mausoleum des Barqûq in Kairo, ADAIK* - Islamiche Reihe, Band 4, Glückstadt, 1982.

— , *Moschee des Farag Ibn Barqûq in Kairo, ADAIK* - Islamiche Reihe, Band 3, Glückstadt, 1972.

— , «Sabil : Form and Meaning», *Muqarnas* VI (1989), pp.33-42.

LANE, ED. W., *Cairo Fifty Years Ago*, edited by Stanley Lane - Poole, London 1895.

— , *Manners and Customs of the Modern Egyptians*, London 1954.

LANE-POOLE, S., *Cairo: Sketches of its History, Monuments and Social Life*, London 1898.

— , *The Story of Cairo*, London 1902, 1924.

LAPIDUS, I.M., «Ayyûbid Religious Policy and the Development of the Schools of Law in Cairo», *CIHC*, pp.279-286.

— , «Mamluk Patronage and the Arts in Egypt : Concluding Remarks», *Muqarnas* II (1984), pp.173-181.

LECOMTE, M.- L.C. & VOLAIT, M., *L'Égypte d'un architecte: Ambroise Baudry (1838-1906)*, Paris 1998.

LEISER, G., «The Madrasa and the Islamization of the Middle East. The Case of Egypt», *JARCE* XII (1985), pp.29-47.

— , «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), pp.3-27.

LEISTEN, Th., «Dynastic Tomb or Private Mausolea : Observations on the Concept of Funerary Structures of the Fâtimid and 'Abbâsid Caliph», in M. Barrucand (ed.) *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, Paris 1999, pp.473-79.

LEROY, L., «Les couvents des Chrétiens. Traduction de l'arabe d'al-Makrizi», *ROC* 13 (1908), pp.33-46 ; 192-204.

— , «Les églises des Chrétiens. Traduction de l'arabe d'al-Makrizi», *ROC* 12 (1907), pp.190-208 ; 269-270.

— , «Les synagogues des Juifs (Moïse et Elite d'après les traditions arabes)», *ROC* 11 (1906), pp.149-162 ; 371-402.

LEZINE, A., «Persistance de tradition pré-islamique dans l'architecture domestique de l'Égypte musulmane», *An.Isl.* XI (1972), pp.1-22.

— , «Les salles nobles des palais mamelouks», *An.Isl.* X (1972), pp.63-148.

— , *Trois Palais d'époque ottomane au Caire*, Le Caire-IFAO 1972.

LI GUO, «Mamluk Historiographic Studies : The State of the Art», *MSR* I (1997), pp.15-43.

Living in Historic Cairo - Past and Present in an Islamic City, edited by FARHAD DAFTARY, ELIZABETH FERNIA and AZIM NANJI, London - The Institut of Ismaili Studies 2010.

LIBAY, L., *Egypte. Scènes de voyage en Orient*, Vienne 1857.

LITTLE, D.P., «Coptic Conversion to Islam under the Bahri Mamluks, 692-755/1293-1354», *BSOAS* XXXIX (1978), pp.552-569.

— , «Coptic Converts to Islam during the Bahri Mamluk Period» in *Conversion Christian Communities in Islamic Land, Eighth to Eighteenth Centuries, Toronto 1991*, pp.263-288.

— , «The Nature of *Khânqâhs*, *Ribats* and *Zâwiyas* under the Mamlûks», in *Islamic Studies presented to Charles J. Adams*, edited by Wael B. Hallaq and Donald P. Little, Leiden-E.J. Brill 1991, pp.91-95.

— , «Notes on Mamluk Madrasahs», *MSR* VI (2002), pp.9-20.

LOISEAU, J., «L'émir en sa maison. Parcours politiques et patrimoine urbain au Caire, d'après les biographies du *Manhal al-Sâfî* », *An.Isl.* XXXVI (2002), pp.117-137.

— , *Reconstruire la maison du Sultan 1350-1450. Ruine et recomposition de l'ordre urbain au Caire*, Le Caire - IFAO 2010.

LOUKIANOFF, E., «La forteresse romaine du Vieux-Caire», *BIE* XXXIII (1950-1951), pp.285-293.

MACKENZIE, N.D., *Ayyubid Cairo. A Topographical Study*, Cairo - AUC 1992.

MAKDISI, G., «Madrasa and University in the Middle Ages», *SI* XXXII (1970), pp.255-264.

— , «Muslim Institution of Learning in Eleventh Century Baghdad», *BSOAS* XXIV (1961), pp.1-56.

— , *The Rise of Colleges, Institutions of Learning in Islam and the West*, Edinburgh 1981.

Making Cairo Medieval (Transnational Perspectives on Space and Place), N. AL-SAYYAD, I.A. BIERMANN, N. RABBAT (ed.), London 2005.

MANTRAN, R., «Etudes d'histoire et d'archéologie urbaines en vue de la sauvegarde du Caire islamique».

MARÇAIS, G., «Les échanges artistiques entre l'Égypte et les pays musulmans occidentaux», *Hésperis* XIX (1934), pp.1-12.

— , «Les figures d'hommes et de bêtes dans les bois sculptés d'époque fatimide conservées au Musée du Caire», dans *Mélanges Maspero*, Le Caire *IFAO* 1940, III, pp.241-257.

MARCEL, J.J., «Inscriptions, monnaies et médailles», dans *Description de l'Égypte - Etat moderne*, Planches, t. II, Paris 1817.

— , «Mémoire sur le Meqyâs de l'île de Roudah», dans *Description de l'Égypte - Etat moderne*, t. XV, Paris 1826, pp.1-135, 387-582.

—, «Mémoire sur la mosquée de Toulon et les inscriptions qu'elle renferme, comprenant un précis de la dynastie des Toulonides», *Description de l'Égypte* t. XVIII, 3[e] partie, Etat Moderne, Paris, 1830, pp.1-34.

MARIETTE, A., *Itinéraire des invités aux fêtes d'inauguration du canal de suez qui s'éjournent au Cairo et font le voyage du Nil*, publié par ordre de S.A. le Khédive, Le Caire - Octobre 1869.

MASPERO, J., Wiet, G., *Matériaux pour servir à la géographie de l'Égypte*, Le Caire - IFAO 1914, 1919.

MASSIGNON, L., «La Cité des morts au Caire (Qarâfa - Darb al-Ahmar)», *BIFAO* LVII (1958), pp.25-79.

—, «Les corps de métiers et la cité islamique», *Opera Minora*, Paris, I, pp.

MAYER, L., *The Building of Qaitbai as described in his endowment deed*, London 1938.

MAZAHIRI, A., *La vie quotidiènne des musulmans au moyen âge X au XIII siècles*, Paris 1951.

MEHREN, A.F., «Revue des monuments funéraires de Kerafat ou de la ville des morts hors du Caire», dans *Bulletin de l'Académie impériale des Sciences de St-Pétersbourg* XVI (1871), pp.494-526 ; *Mélanges asiatiques* VI (1972), pp.524-569.

—, «Tableau général des monuments religieux du Caire», *Bulletin de l'Académie impériale des Sciences de St-Pétersbourg* XV (1871), pp.530-563 ; *Mélanges asiatiques* VI (1872), pp.296-309.

MEINECKE, M., «Die Bedeutung des mamlukischen Heraldik für die Kunstgeschichte», *ZDMG*, Supplement 2 (1974), pp.213-240.

—, *Die Madrasa des Amirs Mitqâl in Kairo*, Mainz 1976.

—, *Die Mamlukische Architektur in Ägypten und Syrien (648/ 1250 Bis 923/ 1517)* Teil I: Genese, Entwicklung und Auswirkungen der Mamlukischen Architektur. Gluckstadt 1992.

—, «Das Mausoleum des Qalâ'un in Kairo Untersuchungen zur Genese der mamlukischen Architekturdekoration» *MDIK* XXVII (1971), pp.47-80.

—, «Die Moschee des Amîrs Âqsunqur an Nâsirî in Kairo», *MDAIK* 29 (1973), pp.9-38.

—, «*Die Restaurierung der Madrasa des Amîrs Sâbiq ad-Din Mitqâl al-Anûki und die Sanierung des Darb Qirmiz in Kairo*», Mainz a. Rhein 1980.

—, «Zur mamlukischen Heraldik», *MDAIK* XXVIII (1972), pp.213-287.

MEINECKE-BERG, V., «Die Osmanische Fliesendekoration der Âqsunqur-Moschee in Kairo. Zur Entwicklung der Iznik-Fliesen des 17 Jahrhunderts» *MDAIK* 29 (1973), pp.39-61.

—, «Outline of the Urban Development of Cairo», *Islamic Cairo*, Kairo 1980. pp.8-13.

—, «Quellen zu Topographie und Baugesehichte in Kairo unter Sultan an-Nâsir b-Qalâ'ûn», *ZDMG*, supp.3 (1977), pp.538-55.

—, «Eine Stadtanisicht des Mamlukischen Kairo aus dem 16 Jahrhundert», *MDAIK* XXXII (1976), pp.113-32.

MESSIRI (AL-), NADIM, N., «The Concept of the Hâra - A Historical and Sociological Study of al-Sukkariyya», *An.Isl.* XV (1979), pp.313-348.

MEUNIER, P., *The Last Hammams of Cairo: A Disappearing Bath hous Culture*, Cairo-AUC 2009.

MEYERHOF, M., «Climate and Health in Old Cairo according to 'Ali Ibn Ridwân (XI Century A.D.)», in *Congrès International de médicine tropicale et hygienne, Comptes rendues, Histoire de la médicine*, Le Caire 1929, pp.211-235.

MIANO, GIUSSEPPE, «F. Di Fausto, M. Bega et la Regia Legazione d'Italia au Caire», in MERCEDES VOLAIT (ed.), *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.57-63.

Ministry of Wakfs, *The Mosques of Egypt, from 21 H. (641) to 1365 H. (1916)*, I-II, with Plates. Survey of Egypt. Cairo 1949.

MIQUEL, A., «L'Égypte vue par un géographe arabe du IV^e /IX^e siècle : Al-Muqaddasî», *An.Isl.* X (1971), pp.99-39.

The Mosque. History, Architectural Development & Regional Diversity, Martin Frishman and Hasan - Uddin Khan (eds.), London - Thames & Hudson 1994.

MUHAMMAD, R., «The Minaret of Ibn Tûlûn», *Sumer* XXIII (1967), pp.83-96.

MORGAN, IHAB, *Kairo, Die Entwicklung des modernen Stadtzentrums im 19. und frühen 20 Jahr humdert*, Bern 1999.

MULDER, ST., «The Mausoleum of Imâm al-Shâfi'i», *Muqarnas* XXIII (2006), pp.15-46.

MYNTTI, C., *Paris along the Nile: Architecture in Cairo from the Belle Époque*, Cairo - AUC 1999.

O'KANE, B., *Creswell Photographs Re-examined. New Perspectives on Islamic Architecture.* (edited by), Cairo - AUC 2009.

—, «Monumentality in Mamluk and Mongol Art and Architecture», *Ars Orientalis* 23 (1993), pp.201-218.

— , «The Ziyâda of the Mosque of al-Hâkim and the Development of the Ziyâda in Islamic Architecture», in *L'Égypte fatimide son art et son histoire*, M. BARRUCAND (ed.), Paris 1999, pp.141-158.

OHTOSHI, T., «Cairene Cemetries as Public Loci in Mamluk Egypt», *MSR* XII (2006), pp.83-116.

— , «Copts and Muslims as Reflected in the *Ziyâra* Books and *Qarâfas*», in *Islam in the Middle Eastern Studies : Muslims and Minorities*, USUKI AKIRA and KATO HIROSHI (eds.), Osaka - Japan 2003, pp.27-51.

ORMOS, I., «Max Herz (1825-1919): His Life and Activities in Egypt» in *MERCEDES VOLAIT (ed.), Le Caire Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.161-77.

— , *Max Herz Pasha 1856-1919. His Life and Career*, Le Caire - IFAO 2009,.

— , «Preservation and Restoration : The Methods of Max Herz Pasha, Chief Architect of the Comité de Conservation des Monuments de l'Art Arabe, 1890-1914» in *Historians in Cairo. Essays in Honor of George Scanlon*, Jill Edwards (ed.), Cairo-AUC 2002, pp.123-153.

OWEN, R., «The Cairo Building Industry and the Building Boom of 1887 to 1907», *CIHC*, pp. 337-350.

Palais et Maisons du Caire I. Epoque mamelouke, GARCIN J.-CL. & J. REVAULT (eds.), Paris - CNRS 1982.

Palais et Maisons du Caire II. Epoque ottomane, A. RAYMOND & J. REVAULT (eds.), Paris - CNRC 1983.

PAREIT, I., «The Contribution of al-Maqrizi to the Description of the Burning of Misr al-Fustat», *al-Masaq* 11 (1999), pp.69-98.

PAUTY, ED., *«L'Architecture au Caire depuis la conquête ottomane: Vue d'ensemble», BIFAO* XXXVI (1936), pp.1-69.

— , «La défense de l'ancienne ville du Caire et de ses monuments», *BIFAO* XXXI (1931), pp.135-176.

— , «Un dispositif du plafond fatimide», *BIE* XV (1932-1933), pp.99-97.

— , *Les hammams du Caire, MIFAO* LXIV, Le Caire 1933.

— , *La mosquée d'Ibn Toulon et ses environs,* Le Caire 1936.

— , *Les palais et les maisons d'époque musulmane au Caire, MIFAO* LXII, Le Caire 1932.

— , «Le pavillon du Nilomètre de l'île de Rôdah au Vieux-Caire», *BIFAO* XXXI (1931), pp.113-120.

— , «Le plan de la mosquée d'as-Salih Talayi'», *BSRGE* XVII (1929-1931), pp.277-292.

PEDERSEN, I. &. MAKDISI, G., *EI*^{2}., art. *Madrasa* V, pp.1119-1144.

PERHO, I., «Al-Maqrîzî and Ibn Taghrî Birdî as Historians of Contemporary Events», in *The Historiography of Islamic Egypt (c. 950-1800),* pp.97-120.

PETRY, C.F., *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Age,* Princeton 1981.

The Photographic Memory of Cairo, Alexandria - Bibliotheca Alexandrina 2009.

POPPER, W., *The Cairo Nilometer,* University of California Press-Berkeley and Los Angeles 1951.

PRADINES, S., MICHAUDEL, B. et MONCHAMP, J., «La muraille ayyoubide du Caire : les fouilles archéologiques de Bâb al-Barqiyya et Bâb al-Mahrûq», *An.Isl* 36 (2002), pp.287-337.

PRISSE D'AVENNES, *L'Art Arabe d'après les monuments du Caire depuis le VII*^{e} *siècle jusqu'à la fin du VIII*^{e}, 2^{e} edit. Paris 1869-1877.

— , *Islamic Art in Cairo from the 7th to the 18th Centuries,* Cairo-AUC 2009.

RAAFAT, SAMIR, «Setting off the Building Boom: Cairo New Suburbs 1906-1914», in *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950,* Le Caire - IFAO 2001, pp.105-.

— , *Cairo, The Glory Years. Who Built What, Why and for Whom,* Alexandria 2003.

— , *Maadi 1904-1962. Society & History in Cairo Supurb,* Cairo Palm Press 1994

RABBAT, N., «Al-Azhar Mosque : An Architectural Chronicle of Cairo's History», *Muqarnas* XIII (1996), pp.45-67.

— , *The Citadel of Cairo. A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture,* Leiden-E. J. Brill, 1995.

— , «The Formation of the Néo-Mamluk Style in Modern Egypt» in M. POLLIACK (ed.), *The Education of the Architect: Historiography, Urbanism and the Growth of Architectural Knowledge,* Cambridge, Mass, 1997, pp.363-86.

— , *Mamluk History through Architecture - Monuments, Culture, and Politics in Medieval Egypt and Syria,* Cairo-AUC 2010.

— , «Mamluk Throne Halls: Qubba or Iwân?», *Ars Orientalis* XXIII (1993), pp.201-18.

— , «Perception of Architecture in Mamluk Sources», *MSR* VI (2000), pp.155-76.

— , «Al-Maqrizi's Khitat, an Egyptian *Lieu de Mémoire* » in Doris Behrens-Abouseif (ed.), *The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim,* Cairo - AUC 2000, pp.17-30.

— , «The Urban charactar of al-Darb al-Ahmar», in *Living in Historic Cairo,* pp.28-35.

RAGIB, Y., «Une description arabe du mausolée d'al-Sayyida Nafîsa au Caire», *Arabica* XXIII (1976), pp.37-41.

— , «Deux monuments fatimides au pied du Muqattam», *REI* XLVI (1978), pp.91-118.

— , «Essai d'inventaire chronologique des guides à l'usage des pèlerins du Caire», *REI* XLI (1973), pp.259-280.

— , «Les Mausolées fatimides du quartier d'al-Masâhid», *An.Isl.* XVII (1981), pp.1-30.

— , «Le Mausolée de Yûnus al-Sa'dî est-il celui de Badr al-Gamâlî ?», *Arabica* XX (1973), pp.305-307.

— , «La mosquée d'al-Qarâfa et Jonathan M. Bloom», *Arabica* XLI (1994), pp.419-421.

— , «Un oratoire fatimide au sommet du Muqattam», *SI* LXV (1987), pp.51-67.

— , «Les Sanctuaires des Gens de la famille dans la cité des morts du Caire», *RSO* LI (1977), pp.47-76.

— , «Al-Sayyida Nafisa, sa légende, son culte et son cimetière», *SI* XLIV (1976), pp.61-86 ; XLV (1977), pp.27-55.

— , «Le site du Muqattam», *An.Isl.* XXXIII (1999), pp.159-184.

— , «Sur deux monuments funéraires du cimetière d'al-Qarâfa al-Kubrâ au Caire», *An.Isl.* XII (1974), pp.67-83.

— , «Sur un groupe de mausolées du cimetière du Caire», *REI* XL/1 (1972), pp.189-195.

RAVAISSE, P., *Essai sur l'histoire et sur la topographie du Caire d'après Makrîzî, MMAFC* I(1889), pp.409-480 ; III (1891), pp.33-114.

RAYMOND, A., «L'activité architecturale au Caire à l'époque ottomane (1517-1798)», *An. Isl.* XXV (1990), pp.

— , *Artisans et commerçants au Caire au XVIII^e^ siècle*, I-II, Damas 1974.

— , «Ahmad ibn 'Abd al-Salâm. Un Sâhbandar des tuggâr au Caire à la fin du XVIII^e^ siècle», *An.Isl.* VII (1967), pp.91-95.

— , «Les bains publics au Caire à la fin du XVIII^e^ siècle». *An.Isl.* VIII (1969), pp.129-150.

— , *Le Caire*, Paris - Fayard 1993.

— , «Le Caire sous les Ottomans 1517-1798», in ANDRÉ RAYMOND (ed.), *Le Caire*, Paris - Edition Citadelles & Mazemod 2000, pp.277-362.

— , *Le Caire*, ouvrage réalisé sous la direction de, Paris. Edition Citadelles & Mazenod 2000. English Translation : *The Glory of Cairo - An Illustrated History*, Cairo - AUC 2002.

— , *Le Caire des Janissaires. L'apogée de la ville ottomane sous 'Abd al-Rahmân Katkhudâ*, Paris - CNRS Editions 1995.

— , «Cairo's Area and Population in the Early Fifteenth Century», *Muqarnas* II (1984), pp.21-31.

— , *Cairo: Cuty of History*, translated by WILLARD WOOD, Cairo - AUC 2007.

— , «Les Constructions de l'Emir 'Abd al-Rahmân Katkhudâ au Caire», *An.Isl.* XI (1972). pp.235- 251.

— , *Égyptiens et Français au Caire 1798-1801*, Le Caire - IFAO 1998.

— , «Essai de géographie des quartiers de résidence aristocratique au Caire au XVIII^e^ siècle», *JESHO* VI (1963), pp.58-93.

— , «Une famille de grands négociants en café au Caire dans la première moitié du XVIII^e^ siècle: Les Sharâybi», in M. TUCHSCHERER (ed.), *Le commerce du Café avant l'ère des plantations coloniales*, Le Caire - IFAO 2001, pp.111-24.

— , «La géographie des *hâra* du Caire au XVIII^e^ siècle», *Livre du Centenarie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale*. Le Caire 1980, pp.415-431.

— , «La localisation des bains publics au Caire au XV^e^ siècle d'après les Hitat de Maqrîzî», *BEO* XXX (1978), pp.347-260.

— , «Al-Maqrîzî's *Khitat* and the Urban Structure of Mamluk Cairo», *MSR* VII/2 (2003), pp.145-167.

— , «La population du Caire, de Maqrîzî à la *Description de l'Égypte*», *BEO* XXVIII (1975), pp.201-215.

— , «Le *rab'*, un habitat collectif au Caire à l'époque ottomane», *MUSJ* L/3 (1984), pp.531-51.

— , «The Residential Districts of Cairo's Elite in the Mamluk and Ottoman Periods (Fourteenth to Eighteeth Centuries)» in TH. PHILIP. and U. HAARMANN, (eds.), *The Mamluks in Egyptian Politics and Society*, Cambridge 1998, pp.207-223.

RAYMOND A. & WIET, G., *Les marchés du Caire*, Le Caire *IFAO* 1979.

The Restoration and Conservation of Islamic Monuments in Egypt, JERE BACHARACH (ed.), Cairo-AUC 1995.

REVAULT, J., «L'Architecture domestique du Caire à l'époque mamelouke (XIII^e^ -XVI^e^ siècle)», dans *Palais et Maisons du Caire* I. Epoque mamelouke, *CNRS*, Paris 1982, pp.19-142.

REVAULT, J. & RAYMOND, A., *Palais et Maisons du Caire* II. Epoque ottomane, Paris - CNRS 1983.

REVAULT, J. & GARCIN, J. Cl., *Palais et Maisons du Caire* I. Epoque mamelouke, Paris - CNRS 1982.

REVAULT, J. & MAURY, B., *Palais et Maisons du Caire du XIV^e^ -XVIII^e^ siècle*, I-IV, *IFAO*, Le Caire 1975-1982.

RHONÉ AR., *L'Égypte à petites journées. Le Caire d'autrefois*, Paris 1909.

RICHMOND, E., «The Significance of Cairo», *JRAS* (1913), pp.23-40.

RITTA, C.F., «The Early Fatimid Mosque of al-Hâkim», *Orient Art* XXVII (1981), pp.302-315.

ROBERTS, D., *Egypt & Nubia from drawings made as the spot* by, historical descriptions by William Brockedon F.R.S., I-II, London 1848, reprinted by the AUC 1999.

RODENBECK, MAX, *Cairo the City Victorious*, Cairo-AUC 1998.

— , «Cairo. Preservation and Restoration of Islamic Monuments», *Arts of the Islamic World* I/2 (1983), pp.17-25.

ROGERS. J. M., «Seljuk influence in the Monuments of Cairo», *Kunst des Orients* VII (1970-1971), pp.40-68.

— , EI^2., art. *al-Kâhira* IV, pp.453-454.

RUBINACCI, R., «La ville du Caire dans la géographie d'al-Idrisi», *CIHC*, pp.405-411.

RUSSEL, D., «Are There any Remains of the Fatimid Palaces of Cairo?» *JARCE* 3 (1964), pp.115-21.

— , *Mediaeval Cairo and the Monasteries of the Wadi al-Natrun. A Historical Guide*, London, 1962.

— , «A Note on the Cemetry of the Abbasid Caliphs of Cairo and the Shrine of Sayyida Nafisa», *Ars Islamica* 6 (1939), pp.168-174.

SAIFUDDIN, J.M., *Al-Aqmar. A Living Testimony to the Fatimiyeen*, London - Graphico Printing Ltd 2000.

— , *Al-Juyushi. A Vision of the Fatemiyeen*, London - Graphico Printing Ltd 2002.

SALMON, G., *Etudes sur la topographie du Caire - La Kal'at al-Kabch et la Birkat al-Fil, MIFAO* VII, Le Caire 1902.

SANDERS, P., *Creating Medieval Cairo: Empire, Religion and Architectural Preservation in Nineteenth Century Egypt*, Cairo - AUC 2008.

— , «From Court Ceremony to Urban Language : Ceremonial in Fatimid Cairo and Fustât» in *The Islamic World from Classical to Modern Times (Essay in Honor of Bernard Lewis)*, Princeton NJ ; Darwin Press 1989, pp.311-21.

— , *Ritual, Politics, and the City in Fatimid Cairo*, State University of New York Press, Albany 1994.

SAKR, TAREK M.R., *Early Twenthieth-Century Islamic Architecture én Cairo*, Cairo-AUC 1993.

SANDERS, P., *Creating Medieval Cairo: Empire, Religion and Architectural Preservation in Nineteenth-Century Egypt*, Cairo-AUC 2002.

SAYED, HAZEM I., «The Development of the Cairene *Qâ'a* : Some Considerations», *An.Isl.* XXIII (1987), pp.31-53.

SAYYAD (AL-), N., *Streets of Islamic Cairo - A Configuration of Urban Themes and Patterns*, The Aga Khan Program for Islamic Architecture at Harvard University and the Massachusetts Institute of Technology Studies in Islamic Architecture n° 2, 1981.

— , *Cairo Histories of a City*, Harvard University 2011.

— , «Virtual Cairo: An Urban Historians View of Computer Simulation», *Leonardo* (The MIT Press), 32/2 (1999), pp.93-100.

SAYYID, A.F. = FU'ÂD SAYYID, A.

SCANLON, G., «Fustat : Archaeological Reconsiderations», *CIHC*, pp.415-428.

— , «Housing and Sanitation : Some Aspects of Medieval Islamic Public Service», in *Islamic City* (ed. A.M. Hourani & S.M. Stern), Oxford 1970, pp.181-194.

— , «Preliminary Report : Excavations at Fustat», *JARCE* IV (1965), pp.7-30 ; V (1966), pp.83-112 ; VI (1967), pp.65-85 ; X (1973), pp.11-25 ; XI (1974), pp.81-91 ; XIII (1976), pp.69-80 ; XVI (1979), pp.93-124 ; XVIII (1981), pp.57-84.

SCHARABI, M., *Kairo-Stadt und Architektur im Zeitalter des Europaischen Kolonialismus*, Tubingen 1989.

SERJEANT, R.B., (ed.), *The Islamic City*, Paris *UNESCO* 1980.

SHAFE'I, F., «An Early Fatimid Mihrab in the Mosque of Ibn Tulun», *Bull. Fac. of Arts, Cairo Univ.* XV (1953), pp.67-81.

— , «The Mashhad al-Juyûshî. Archaeological Notes and Studies», in *Studies in Islamic Art and Architecture in honor of Professor K.A.C. Creswell*, American University in Cairo 1965, pp.237-252.

SHEEHAN, P., *Babylon of Egypt. The Archeology of Old Cairo and the Origins of the City*, Cairo-AUC 2010.

SHOSHAN, B., *Popular Culture in Medieval Cairo*, Cambridge 1993.

SIDKY, AHMAD, «L'œuvre de Mario Rossi, au ministère des waqfs. Une réinterprétation italienne de l'architecture islamique» in MERCEDES VOLAIT (ed.), *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.65-74.

— , *Living with Heritage in Cairo. Area Conservation in the Arab Islamic City,* Cairo-AUC 2009.

SIMS, D., *Understanding Cairo - The Login of a City Out of Control,* Cairo-AUC 2010.

SPEISER, Ph., «The 'Comité de conservation des monuments de l'art arabe'; its First 25 Years (1881-1906)», دراسات وبحوث في الآثار والحضارة الإسلامية II, pp.202-222.

— , «The Egyptian - German Restoration of the Darb al-Qirmiz, Cairo» in *The Restoration and Conversation of Islamic Monuments in Egypt,* pp.22-45.

— , *Die Geschichte der Erhaltung Arabischer Baudenkmäler in Ägypten, ADAIK,* Islamische Reihe-Band 8, Heidelberger Orientuerlag 2001.

— , «Recherches archéologiques dans le Caire fatimide: les elements d'un Puzzle», *Colloque international d'Archéologie islamique,* R.-P. Gayraud (ed.), Le Caire - IFAO, 1998, pp.423-426.

— , «La restauration du palais Bachtak» dans *l'Habitat traditionnel dans les pays musulams autour de la Méditerranée,* Le Caire, IFAO, 1991, III pp.809-826.

— , «Restaurierungsarbeiten in der islamischen Altstadt Kairos», *MDAIK* 38 (1982), pp.363-378.

— , «Restaurierungsarbeiten in der islamischen Kairo», *MDAIK* 38 (1982), pp.365-373.

STAFFA, S.J., *Conquest and Fusion - The Social Evolution of Cairo AD. 642-1850,* Leiden-Brill 1977.

STERN, S.M., «Cairo as the Center of the Isma'ili Movement», *CIHC,* pp.437-450.

STIERLIN, H., *Masterworks of Islamic Architecture: From Damascus to Granada, from Cairo to Istanbul,* Cairo - AUC 2005.

STILMANN, N.A., «The Jewish Presence in Medieval Cairo», in *Living in Historic Cairo,* pp.93-103.

Studies on Taqiyaddîn al-Maqrîzî (d. 1442), collected and Reprinted, I-II, edited by FUAT SEZGIN in collaboration with MAZEN AMAWI, CARL EHRIG-EGGERT, ECKHARD NEUBAUER, Islamic Geography volumes 57-58, Frankfurt - Institute for the History of Arabic-Islamic Science 1992.

SWELIM, N.T., «An Interpretation of the Mosque of Sinan Pacha in Cairo», *Muqarnas* X (1993), pp.98-107.

— , «The Minaret of Ibn Tulun Reconsidered» in Doris Behrens-Abouseif (ed.), *The Cairo Heritage. Essays in Honor of Laila 'Ali Ibrahim,* Cairo - AUC 2000, pp.77-92.

TAMRAZ, N., *Nineteenth - Century Cairene Houses and Palaces,* Cairo - AUC 1998.

TAYLOR, CH. S., «Reevaluating the Shi'i Role in the Development of Monumental Islamic Funerary Architecture : The Case of Egypt», *Muqarnas* IX (1992), pp.1-9.

— , *In the Vicinty of the Righteous. Ziyara and the Veneration of Muslim Saints in Late Medieval Egypt,* Leiden - Brill 1999.

— , «Sacred History and the Cult of the Muslim Saints in Late Medieval Egypt», *MW* 80 (1990), pp.72-80.

TELMISSANY, M. & CANDOSSI, E., *The Last Hammams of Cairo - A Disappearing Bathhouse Culture,* Cairo - AUC 2008.

TOUSSAINT CANNERI, A., *La ville du Caire, son préent et son avenir - Essai sur la création d'une municipalité,* Le Caire - IFAO 1905.

VAN BERCHEM, M. = BERCHEM.

VAN LOO, A., «Ernest Jaspar à Héliopolis 1905-1916», in MERCEDES VOLAIT (ed.), *Le Caire - Alexandrie. Architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001, pp.121-37.

VAN REETH, J., «La barque de l'Imâm al-Shâfi'î», dans *Egypt and Syria in the Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras*, II, pp.249-263.

VOLKOFF, O. V., *Le Caire 969-1969: Histoire de la ville des «mille et une nuit»*, Le Caire - IFAO 1971.

VOLAIT, MERCEDES, *L'architecture moderne en Egypte et la revue Al-'Imara (1939-1959)*, Le Caire - CEDEJ 1988.

—, *Le Caire - Alexandrie, architectures européennes 1850-1950*, Le Caire - IFAO 2001.

—, *Fous du Caire - Excentriques, architectes & amateurs d'art en Egypte 1867-1914*, Paris - L'Archange Minotavure 2009.

—, *Maisons de France au Caire. Le remploi de grands décors mamelouks et ottomans dans une architecture moderne*, Le Caire - IFAO 2012.

WARNER, N., «The Fatimid and Ayyubid Eastern Walls of Cairo: Missing Fragments», *An.Isl.* XXXIII (1999), pp.283-305.

—, *The Monuments of Historic Cairo. A Map and Descriptive Catalogue*, Cairo AUC 2004.

—, «Taking the Plunge. The Development and Use of Cairene Bathhouse» in *Historians in Cairo. Essays in Honor of George Scanlon*, JILL EDWARDS (ed.), Cairo AUC 2002, pp.49-79.

—, *The True Description of Cairo. A Sixteenth Century Venetian View*, 1-3, London - Oxford 2006.

WASTON, C.M., «The Mosque of Sultan Nasir Mohammed Ebn Kalaoun in the Citadel of Cairo», *JARS* (1886), pp.477-483.

WEILL, J.D., *Les bois à épigraphes jusqu'à l'époque mamelouke* (Catalogue général du Musée arabe du Caire), Le Caire *IFAO* 1931.

WHITCOMB, D., «Mamluk Archeological Studies: A Review», *MSR* I (1997), pp.97-96.

WIET, G., *Cairo. City of Art and Commerce*, University Oklahoma Press 1964.

—, *CIA* = *Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum*. 1re partie - Égypte, t. II, *MIFAO* LII, Le Caire 1929-1930.

—, *L'Égypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane*, dans *Histoire de la nation égyptienne*, publiée sous la direction de G. HANOTAUX, t. IV, Paris 1937.

—, *Inscriptions historiques sur pierre.* (Catalogue général du Musée de l'art islamique du Caire), *IFAO*, Le Caire 1971.

—, «Les inscriptions du Mausolée de Shâfi'î», *BIE* XV (1932-1933), pp.167-185.

—, *Mohammed Ali et les Beaux-Arts*, Le Caire - Société Royale d'Études Historique 1950.

—, *«La mosquée de Kâfûr au Caire», in Studies in Islamic Art and Architecture in Honor of Professor K.A.C. Creswell*, Cairo - AUC 1965, pp.260-269.

—, «Nouvelles inscriptions fatimides», *BIE* XXIV (1941-1942), pp.145-158.

—, «Une inscription d'un vizir d'Ikhsidites», *Der Islam* V (1928), pp.171-172.

—, «Une nouvelle inscription fatimide au Caire», *JA* CCXLIX (1961), pp.13-20.

—, «Une restauration du Niolmètre de l'Ile de Rawda sous Mutawakkil (247/861)», *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres* (1924), pp.202-206.

WIET, G.; COMBE, E.; SAUVAGET, J., *RCEA = Répertoire chronologique d'épigraphie arabe*, I-XVI, Le Caire *IFAO* 1931-1964.

WILLIAMS, C., «The Cult of 'Alid Saints in the Fatimid Monuments of Cairo».
Part I: «The Mosque of al-Aqmar», *Muqarnas* I (1983), pp.37-52 ;
Part II: «The Mausolea». *Muqarnas* III (1985), pp.39-60.

—, «Islamic Cairo : Endangered Legacy», *MEJ* 39 (1985), pp.231-46.

—, *Islamic Monuments in Cairo*, Cairo AUC Press 1985.

—, «The Mosque of Sitt Hadaq», *Muqarnas* XI (1994), pp.55-64.

—, «The Qur'anic Inscriptions on the Tabut of al-Husayn in Cairo», *Islamic Art* I (1987), pp.3-26.

WILLIAMS, J.A., «The Khânqâh of Siryâqus: A Mamluk Royal Religious Foundation» in *In Quest of an Islamic Humanism: Arabic and Islamic Studies in Memory of Muhamed al-Nowaihi*, pp.98-119.

—, «The Monuments of Ottoman Cairo», *CIHC*, pp.453-63.

—, «Urbanisation and Monument Construction in Mamluk Cairo», *Muqarnas* II (1984), pp.33-45.

YEOMANS, R., *The Art and Architecture of Islamic Cairo*, London - Garnet Publishing 2006.

ZAKARIYA, M., *Deux Palais du Caire médiévale : Waqfs et architecture*, Paris-CNRS 1983.

—, «Le rab' de tabbâna», *An.Isl.* XVI (1980), pp.274-97.

ZANETTI, U., «Abul Makârim et Abu Sâlih», *BSAC* XXXIV (1995), pp.85-138.

ZIVIE, A., «La région de Memphis et d'Héliopolis carrefour religieux», *Bulletin de la Société Ennest-Renan* XXX (1981), pp.239-40.

ZIYADA, M.M., «The Fall of the Mamluks 1516-1517», *BIA Cairo University* VI (May 1942), pp.135-47.

٥ - الرّسَائل غير المَنْشُورَة

أ - الرسائل العربيّة

آمال أحمد العِمَري .

«المُنْشآتُ التُّجارية في القاهِرَة في العَصْرِ المملوكي» ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٤م .

إبراهيم صُبْحي السَّيِّد غُنْدُر .

«أعْمالُ المنافِع العامَّة بالقاهرة في القرن التَّاسِع عشر» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ٢٠٠٥م .

أحمد سَعيد .

«التَّطَوُّرُ المِعْمارِي والعُمْراني بالقاهرة من عَهْد محمد علي إلى إسْماعيل» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٩م .

أحمد محمد أحمد .

«مُنْشآتُ الأمير أيتَمُش البِجَاسي ببابِ الوَزير - دراسة معمارية أثرية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٤م .

أُسامَة طَلْعَت عبد النَّعيم .

«أسْوارُ صَلاحِ الدِّين وأثَرُها في امْتِدادِ القاهِرَة حتى عَصْرِ المماليك» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٢م .

أسْمَاء محمد إسماعيل .

«أمْنُ المدينة الإسْلامية - دراسةٌ تَطْبيقيةٌ على مدينة القاهرة وعمارتها منذ نشأتها حتى نهاية العصر المملوكي» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ٢٠٠٧م .

أمَل أحمد المصري .

«حَيُّ الحُسَيْنِيَّة في العَصْرَيْن المملوكي والعُثْماني - دراسة حضارية أثرية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٠م .

أيمن شاهين سَلَّام .

«المَدَارِسُ الإسْلامية في مصر في العَصْر الأيُّوبي ودَوْرُها في نَشْر المَذْهَب السُّنِّي» رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة طنطا ١٩٩٠م .

بَهيجَة السَّيِّد حسن.
«دِرَاسَةٌ أثرية عمرانية لسُوقِ السِّلاح بالقاهِرَة»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٨م.
«الظَّاهِرُ الجنوبي للقاهرة: الرُّمَيْلَة منذ النَّشْأة إلى نهاية القرن التَّاسِع عشر الميلادي ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٧م.

جَمالُ عبد الرَّحيم إبراهيم.
«الحِلْياتُ المِعماريَّةُ الزُّخْرفية على عَمائِر القاهرة في العَصْرِ المملوكي الجركسي ـ دراسة أثرية فنية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩١م.
«الزَّخارِفُ الجَصِّيَّة في عَمائِر القاهِرَة الدِّينية الباقية في العَصْرِ المملوكي البَحْري»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦م.
جمال عبد الرَّءوف عبد العزيز.
«عَمَائِرُ رِضْوَان بك بالقاهرة، القرن ١١هـ/١٧م ـ دراسةٌ أثريةٌ معمارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٠م.

حَسَن سَيِّد جُودَة القَصَّاص.
«المَدْرَسَةُ الصَّرْغَتْمُشِيَّة ـ دراسةٌ أثرية معمارية»، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٣م.
«مَساجِدُ الأُمَرَاء في عَصْرِ السُّلْطان سَيْف الدِّين جَقْمَق: قَرَاقَجا الحَسَني، الجمالي يوسف، لاجين السَّيْفي ـ دراسةٌ أثريةٌ معمارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م.
حسني محمد نويصر.
«مجموعةُ سُبُل السُّلْطان قايتْباي بالقاهرة»، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٠م.
«مُنْشآتُ السُّلْطان قايتْباي الدِّينية بمَدينَة القاهرة»، رسالة دكتوراة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥م.
حسين مصطفى رَمَضَان.
«المحاريبُ الرُّخامِيَّة في قاهِرَة المماليك البَحْرية ـ دراسة أثرية فنية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢م.
حَمْزَة عبد العَزيز.
«أنماطُ المَدْفَن والضَّرِيح في القاهرة العُثْمانية»، رسالة دكتوراة بكلية الآداب ـ جامعة أسيوط ١٩٨٩م.

خالِد محمد مصطفى عَزَب.
«التَّحَوُّلاتُ السِّياسية وأَثَرُها على العمارة بمدينة القاهرة من العَصْر الأيُّوبي حتى عَصْر الخديو

إسماعيل ٥٦٧-١٢٩٦هـ/ ١١٧١-١٨٧٩م»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ٢٠٠٢م.

رَبيع حامِد خَليفَة.

«البلاطاتُ الخَزَفِيَّة في عَمَائِر القاهِرَة العُثْمانية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٧م.

رِفْعَت موسى محمد.

«العَمَائِر السَّكَنِيَّة الباقية بمدينة القاهرة في العَصْر العُثْماني - دِرَاسَة أثرية وثائقية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٥م.

سامي أحمد حسن.

«السُّلْطانُ إينال وآثارُه المعمارية في القاهرة»، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٦م.

سامي أحمد عبد الحليم.

«آثارُ الأمير قاني قَرَا الرَّمَّاح بالقاهرة - دراسة معمارية»، رسالة دكتوراة بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥م.

«الأميرُ يَشْبَك من مَهْدي وأعمالُه المعمارية بالقاهرة»، رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٠م.

سامي محمد نَوَّار.

«الأعْمالُ المعمارية للقاضي زَيْن الدِّين عبد الباسِط، دراسةٌ أثريةٌ معمارية»، رسالة ماجستير بكلية آداب سوهاج - جامعة أسيوط ١٩٨٠م.

سمير عبد المنعم خُضَري.

«الأرْبِطَةُ الباقية بالقاهِرَة خِلالِ العَصْرِ المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)»، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

سُعَاد محمد حسنين.

«أعْمالُ الأمير شَيْخُو العُمَري النَّاصِري المعمارية بالقاهرة»، رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٦م.

«الحَمَّاماتُ في مصر الإسلامية - دراسة معمارية أثرية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٤م.

سُهير جميل إبراهيم.

«الآثارُ الباقية بالحَطَّابَة في مَدينَة القاهرة»، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٢م.

سَوْسَن سَعْد الشَّامي.

«دِراسَةٌ أثريةٌ معمارية لظاهِرَة إلْحَاقِ المدارِس بالجامِع الأزْهَر في العَصْرِ المملوكي»، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٤م.

سَوْسَن سليمان يحيى .

«عَمَائِرُ المرأة في مصر في العَصْر العُثْماني» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٨م .

«مُنْشأةُ الأمير قِجْماس الإسحاقي» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٥م .

شادية الدّسُوقي .

«أشْغالُ الخَشَب في العَمَائِر الدِّينية العثمانية بمَدِينَة القاهرة ـ دراسة أثرية فنّية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٤م .

شاهِنْده فهمي كريم .

«جَوامِعُ ومَساجِدُ أُمَرَاءِ السُّلْطان النّاصر محمد بن قلاوون» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م .

شفيقَة قُرَني أبو نصير .

«خِطَطُ القاهِرَة في ظاهِرِها الغربي : النّاصِرية والحَنَفي وعابدين ، دراسة أثرية حضارية» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٨م .

«دِراسَةٌ أثرية عُمْرانية لشارع الصَّلِيبَة بالقاهرة حتى العَصْرِ الجَرْكَسي» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٣م .

صَادِق محمد طه .

«دِرَاسَةٌ معمارية تحليلية لقَلْعَة الجَبَل بالقَاهرة» ، رسالة ماجستير بكلية الفنون الجميلة ـ جامعة حلوان ١٩٨٣م .

ضِيَاء محمد جاد .

«المُنْشَآتُ التُّجارية بمدينة القاهرة في القرن التّاسِع عشر الميلادي (١٣هـ/١٩م) ـ دراسة أثرية حضارية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٧م .

طارِق محمد المُرْسي .

«الزَّوايا في العَصْرِ المملوكي في القاهِرَة ـ دراسة أثرية حضارية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٠م .

طه عبد القادر يوسف .

«العَنَاصِرُ الزُّخْرُفية المستخدمة في عمارة مَسَاجِد القاهرة في العَصْر العُثْماني» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٨م .

عادل شحاته طايع.

«حَيُّ بُولاق ثَغْر القاهرة منذ نشأته وحتى نهاية العَصْر العُثْماني ـ دراسة اثرية حضارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٧م.

«شارعُ الخَليفَة وامْتِدادُه (الأشْراف ـ الرُّكَبيَّة)، منذ نشأته وحتى نهاية العَصْرِ العثماني: عمرانه وآثاره»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٩م.

عادل شريف عَلَّام.

«اللَّوْحاتُ التأسيسية على العَمَائِر الدِّينية المملوكية الباقية بمَدينَة القاهرة، دراسةٌ مقارنةٌ في ضَوْء التَّخْطيط وما جَاءَ بالوَثائِق والمراجِع»، رسالة دكتوراه بكلية آداب سوهاج ـ جامعة أسيوط ١٩٨٢م.

عاطِف عبد الدَّايم عبد الخالِق.

«شَارِعُ تَحْتِ الرَّبْع منذ نشأته وحتى نهاية القَرْن الثالث عشر الهجري (١٣-١٩) ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٧م.

عَبَّاس حلمي كامل.

«تَطَوُّرُ المَسْكَنِ المصري بأنْواعِه منذ الفَتْحِ العربي إلى العَصْرِ التُّرْكِي»، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٦٩م.

عبد اللَّطيف إبراهيم.

«دِرساتٌ تاريخية وأثرية في وَثائِق من عَصْرِ الغُوري»، رسالة دكتوراة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٥٦م.

عبد الله كامل مُوسَىٰ.

«تَطَوُّرُ المِئْذَنَة المصرية بمَدينَة القاهِرَة من الفَتْح العربي وحتى نهاية العَصْرِ المملوكي ـ دراسة معمارية زُخْرفية مقارنة مع مآذِن العالم الإسلامي»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٤م.

العَرَبي أحمد رَجَب.

«شَارع محمد علي بمدينة القاهرة ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م.

عِصَام عَرَفَة محمود.

«تَطَوُّرُ أساليب التكوين في الزَّخارِف الجدارية بمَساجِد القاهرة في عصر المماليك البحرية»، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

«مَسْجِدُ أَلْطَنْبُغا المارْداني بالقاهرة»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨١م.

علي أحمد الطَّايش.

«العَمـائِرُ الجَرْكَسِيَّة الباقية بشارعي الخيامية والسُّرُوجية ـ دراسة أثرية معمارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٠م.

علي حسن زَغْلول.

«مَدْرَسَةُ السُّلْطان حسن (٧٥٧ـ٧٦٤هـ/١٣٥٦ـ١٣٥٦م)»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م.

علي ماهر متولي.

«أُسُسُ التَّصْميم للعَمائِر الدِّينية في العَصْرِ المملوكي البَحْري بالقاهرة ـ دراسة أثرية معمارية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٥م.

«أسُسُ تَصْمِيم العمائر السَّكنية في القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م.

علي محمود سليمان المليجي.

«الطِّرازُ العُثْماني في عمائر القاهرة الدِّينية»، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ـ جامعة أسيوط ١٩٨٠م.

«عَمائِرُ النَّاصِر محمد الدِّينية في مصر»، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٦م.

عِمَاد عبد الرَّءوف محمد.

«دُورُ العِلاج بالقاهرة من الفَتْح العثماني حتى أواخر القرن التَّاسِع عشر الميلادي ـ دراسة أثرية وثائقية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٧م.

غَزوان مصطفى ياغي.

«العَمَائِرُ السَّكَنِيَّة الباقية بمدينة القاهرة في العَصْر المملوكي ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٥م.

فايزة محمود الوكيل.

«آثاثُ المُصْحَف في مصر في عصر المماليك»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢م.

فتحي عثمان إسماعيل عيد.

«حَيُّ مصر القديمة منذ نشأتها وحتى نهاية القرن التَّاسِع عشر ـ دراسة أثرية حضارية»، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٤م.

«دَرْبُ سَعادَة ـ دراسة حضارية أثرية منذ نشأته حتى نهاية العَصْرِ العثماني»، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٥م.

كمال الدِّين سامِح .
«آثارُ الأُمير عبد الرحمن كَتْخُدَا» ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٤٧م .

ليلى كامل الشَّافعي .
«مَدْرَسَةُ الأَمير جَوْهَر اللَّالا سنة ٨٣٣ هـ - دراسة أثرية معمارية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٧٧م .
«مُنْشآتُ القاضي يحيى زَيْن الدِّين بالقاهرة - دراسة آثارية معمارية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٢م .

مايْسَة محمود داود .
«النَّوافِذُ وأساليبُ تَغْطيتها في عَمائِر سلاطِين المماليك بمَدينَة القاهرة - دراسة معمارية فنية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٦م .

محمد حُسَام الدِّين إسماعيل .
«مِنْطِقَةُ الدَّرْبِ الأحمر ، دراسة للقسم الثالث من ظَاهِر القاهِرَة القِبْلي» ، رسالة ماجستير بكلية آداب سوهاج - جامعة أسيوط ١٩٨٦م .

محمد حمزة إسماعيل الحَدَّاد .
«الطِّرَازُ المصري لعمائِر القاهرة الدِّينية خلال العَصْر العُثْماني» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٩٠م .
«قَرَافَةُ القاهِرَة في عَصْرِ سَلاطِينِ المماليك - دراسة حضارية أثرية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٦م .

محمد سَيْف النَّصْر أبو الفُتُوح .
«مَدَاخِلُ العَمائِر المملوكية الدِّينية والمَدَنِيَّة بالقاهرة من ١٢٥٠-١٣٨٢هـ» ، رسالة ماجستير بكلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥م .
«مُنْشآتُ الرِّعاية الاجتماعية بالقاهرة حتى نهاية عَصْرِ المماليك» ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب - جامعة أسيوط ١٩٨٠م .

محمد الشَّشْتاوي سَنَد رفاعِي .
«مُنْشآتُ رعاية الحَيَوان في العصرين المملوكي والعثماني - دراسة أثرية حضارية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار - جامعة القاهرة ٢٠٠١م .

محمد عبد الرحمن فهمي .
«أعْمالُ جاني بك المعمارية - دراسة أثرية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار - جامعة القاهرة ١٩٨٨م .

محمد عبد السَّتَّار عبد المقصود .
«الآثارُ المعمارية للسُّلْطان الأَشْرَف بَرْسباي بِمَدينَة القاهرة» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م .
محمد عبد العزيز حسين .
«جَزيرَةُ الرَّوْضَة وآثارُها الباقية إلى نهاية العَصْرِ المملوكي» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٩م .
محمد أبو العمائم .
«حَيّ شُبْرَا منذ بِدَاية القرن التَّاسِع عَشْر إلى أوائل القرن العشرين» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٧م .
محمد فهيم محمد .
«مَدْرَسَةُ السُّلْطان قانْصُوه الغوري» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م .
محمد محمد الكَحْلاوي .
«مُنْشَأةُ الأمير عبد الغَني الفَخْري (جامِع البَنَات) بشارع بورسعيد ـ دراسة معمارية فنية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨١م .
محمد محمود علي الجُهَيْني .
«خِطَطُ القاهِرَة في جَنُوبها الغربي : الجَوْذَرِيَّة ـ الميشطاح ـ المحمودية ، منذ نشأتها حتى نهاية النصف الأَوَّل من القرن التاسع عشر» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٢م .
محمد مصطفى نجيب .
«مَدْرَسَةُ الأمير كبير قُرْقُماس ومُلْحقاتُها ـ دراسةٌ معمارية وأثرية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥م .
«مَدْرَسَةُ خَاير بك بباب الوزير» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٦٨م .
محمود حامِد الحُسَيْني .
«التَّطَوُّرُ العُمْراني لعَواصِم مصر الإسْلامية حتى نهاية العَصْرِ الفاطمي» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م .
محمود محمد فَتْحِي الأَلْفي .
«العِمَارَةُ الإسْلامية في مصر خلال القرن التَّاسِع عشر ، أُسْرَة محمد علي بالقاهرة ١٨٠٥ـ ١٨٩٩م» ، رسالة دكتوراة بكلية الهَنْدَسَة ـ جامعة القاهرة ١٩٨٥م .
مُخْتار حسين أحمد الكسباني .
«تَطَوُّرُ نُظُم العِمَارَة في أعمال محمد علي الباقية بِمَدِينَة القاهرة ـ دِرَاسَة للقُصُور الملكية» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٣م .

«جامِعُ الأمير تمراز الأحمدي» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦م .

مِدْحَت مُسْعَد الجَمَّال .

«مَدْرَسَةُ ومَسْجِدُ أُلْجاي اليُوسُفي ـ دراسة معمارية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩١م .

مِرْفَت محمود عيسىٰ حسنين .

«مَدْرَسَةُ أمِّ السُّلْطان شَعْبان ـ دراسة أثرية فنيه» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م .

«الطِّرَازُ العُثْماني في مُنْشآت التَّعْليم بالقاهرة» ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م .

مصطفى بركات حسن .

«النُّقُوشُ الكتابية على عمائِر مَدِينَة القاهِرَة في القرن التَّاسع عشر» ، دراسة فنية أثرية ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩١م .

مُنَى محمد الغزَّاوي .

«خِطَطُ القاهِرَة شَمال شَرْق المَشْهَدِ الحُسَيْني : شارع أمّ الغُلام والقَزَّازين وقَصْر الشُّوق ـ دراسة أثرية حضارية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٦م .

نِعْمَت محمد أبو بكر .

«المَنَابِرُ الخَشَبِيَّة في مصر حتى نهاية العَصْرِ المملوكي» ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٦٨م .

«المَنَابِرُ في مصر في العَصْرَيْن المملوكي والتركي ـ دراسة أثرية فنية» ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٦م .

هاني محمد حَمْزَة .

«التُّرَبُ المملوكية بمَدينَة القاهرة (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م) » ، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٣م .

هِبَةُ الله محمد فتحي .

«الأَرْبُعُ والمنازِلُ الشَّعْبية في القاهرة في العَصْرَيْن المملوكي والعثماني » ، رسالة دكتوراة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٩٦م .

هِبَة مُسْعَد إبراهيم عبد الله .

«قَصْرُ الأميرة سَمِيحَة كامِل ـ دراسة معمارية فنية أثرية» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٩م .

هِدَايت عِلْوي تَيْمور .

«جامِعُ الملكة صَفِيَّة» ، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٧٧م .

ب - الرّسائل الأجنبيّة

'ABDEL- RAZIK, D., *The Circassian Mamluk Monumental Entrances of Cairo*, Thesis AUC 1990.

El-AMROUSI, M. M., *Selected Religions Buildings from the Period of 'Abbās Hilmi II (1892-1914)*, M. A. dissertation AUC 1994.

AUDI, R., *The Architectural Works of al-Ashraf Barsbay (Ashrafiya : Mausoleum, Khanneqah)*, Thesis AUC 1966.

EBEID, S., *Early Sabils and their Standardization*, Thesis AUC 1976.

FERNANDES, L., *The Madrasa of Umm al-Sultan Sha'bân*, Thesis AUC 1976.

GHLI, D.N., *The Saliba Street : A Topographical and Architectural Analysis*, Thesis AUC 1994.

HABASHI (EL-), 'A., *Cairo of the Comité de Conversation des Monuments de l'Art Arabe : A Study on the Preservation of the Arab Monuments and the Protection of Arab Architecture from 1881 to 1961*, Ph. D. dissertation, School of Fine Arts, University of Pensylvania 1998.

El-HAMAMSY, M. A., *The Religious Monuments of the Period of Ismâ'îl (1862-1879)*, M. A. dissertation AUC 1992.

HAMPIKIAN, N., *The Bimaristan of al-Mu'ayyad Shaykh and the Area Around*, Thesis AUC 1991.

—, *«Complex of al-Salihiyya: Transformations Through Time and a Proposal for the Future»*, Ph. D. dissertation - University of California - Los Angeles 1997.

HARITHY (AL-), HOWAYDA N., *Urban Form and Meaning in Bahri Mamluk Architecture*, Ph. D. dissertation, Harvard University 1992.

JAKEMAN, JANE, *Abstract Art and Communication in Mamluk Architecture*, Ph. D. dissertation, Oxford University 1993.

KARNOUK, G., *Cairene Bahri Mamluk Minbars with a Provisional Typology and Catalogue*, Thesis AUC 1977.

KURAYYIM, CH., *The Mosque of Aslam al-Silahdâr*, Thesis AUC 1977.

MONTASSER, D.M.H., *Monumental Quranic Inscriptions on Cairenne Religious Monuments*, Thesis AUC 2001.

Al-MORSY, T. M., *Les Zawiyas du Caire des origines jusqu'à la fin du XVIII^e siècle*, thèse pour le doctorat nouveau régime, Universiti Aix-Masseille I, 2008.

NADIM, HEND ASAAD, *The Building of the American University in Cairo. An Example of Mamluk Revival Style*, M. A. dissertation AUC 1992.

RAGIB, Y., *Le Cimetière de Misr de la conquête arabe à la conquête fatimide 20/640-358/969*, thèse pour le doctorat du 3^e cycle, Université de Paris III, 1972.

REDA, J.I., *The Manzara : its Form and Function in Fatimid Egpyt*, Thesis AUC 1998.

ROE, H., *The Bahri Mamluk Monumental Entrances of Cairo*, Thesis AUC 1979.

SABRY, A.M., *The Urban Evolution of Roda Island*, Thesis AUC 1994.

SAYYED, HAZEM I., *The Rab' in Cairo : A Window on Mamluk Architecture and Urbanism*, Ph. D. dissertation, Massachusetts Institute of Technology 1987.

SEDKY, A. M., *The Modern Mosques in Egypt: The Mosques of Mario Rossi for the Awqaf*, Thesis AUC 1998.

SHAMS EL-DIN, H.A., *Maqrîzî and Khitat. A Verification of the Section on Dârs*, Thesis AUC 2001.

SHERIF, ABDEL AZIM, *Layers of Meaning : An Interpretive Analysis of Three Early Mamluk Buildings*, Ph. D. dissertation, University of Michigan 1988.

SWELIM, T., *The Complex of Sultan al-Mu'ayyad Shaykh of Bâb Zuwayla*, Thesis AUC 1986.

— , *The Mosque of Ibn Tûlûn*, Ph. D. dissertation, Harvard University 1994.

TAMRAZ, N. S., *Nineteeth - Century Domestic Architecture in Cairo with 'Abbasiyya as a Case Study*, M. A. dessertation AUC 1991.

WARDANI, J., *Bahri Mamluk Wooden Ceilings*, Thesis AUC 2001.

WASTON, L.S., *The Developpment of the Darb al-Ahmar, Cairo 969-1517*, Thesis AUC 2000.

ج ـ الرَّسَائِلُ المُسَجَّلَة

أحمد إسماعيل فَتْح الله .

«مَسَاجِدُ شُبْرا منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين (١٢٩٧-١٣٤٦هـ/ ١٨٨٠-١٩٢٦م) ـ دراسة أثرية وثائقية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٨م .

أحمد محمد يوسف .

«عِمَارَةُ الأَحْوَاش في القاهرة من العَصْر المملوكي إلى نهاية عَصْر الأُسْرَة العَلَوِيَّة ـ دراسة حضارية أثرية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م .

أمَل حسين علي نافع .

«التَّطَوُّرُ العُمْراني لمنطقة باب اللُّوق منذ نشأتها حتى منتصف القرن ١٤هـ/٢٠م ـ دراسة حضارية أثرية» ، رِسَالَةُ دكتوراه مسجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م .

تامر مصطفى محمد الحسيني .

«الأَسْبِلَةُ المملوكية الباقية بمدينة القاهرة ـ دِرَاسَة أثرية فنية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٩م .

جمال محمد مصطفى عبده .

«دِرَاسَةٌ أثريةٌ معماريةٌ للسَّوَاقي الملحقة ببعض المُنشآت المملوكية بمدينة القاهرة في ضوء المكتشفات الأثرية الحديثة» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٣م .

زَيْنَب إسماعيل موسى طُلْبَة .
«الآثارُ الباقية في شارع رَمْسِيس بالقاهرة منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م .
سهير أحمد إبراهيم سُلْطان .
«جَامِعُ مَسِيح باشا المعروف حاليًا بجامع المُسَبِّح ـ دراسة أثرية معمارية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠١م .
شيرين فوزي عبد الرحمن .
«قَصْرُ الأمير محمد علي وملحقاتُه بجزيرة الرَّوْضَة ـ دراسة أثرية معمارية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٠م .
شَيْماء عبد الفَتَّاح محمد .
«حَيُّ المُنِيرة والإنْشَا بالقاهرة منذ نشأته وحتى النِّصْف الأوَّل من القرن العِشْرين ـ دراسة أثرية حضارية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م .
كريم أحمد حَمَّاد حسن .
«قَصْرُ السُّلْطانَة مَلَك بالقاهرة ـ دراسة أثرية فنية مقارنة» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٤م .
محمد أحمد عبد الرحمن .
«عَمَائِرُ الأميرَة شيوه كار الباقية بمدينة القاهرة ـ دِرَاسَة أثرية فنية مقارنة» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٨م .
محمد زَيْن الدِّين محمد .
«أبْنِيَةُ السِّكَّة الحديد في مصر خلال عَصْر الأُسْرَة العَلَوِيَّة» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٤م .
مِدْحَت مسعد محمد الجَمَّال .
«أعْمالُ السُّلْطان بيبرس الجاشَنْكير في القاهرة من خلال وثائقه ـ دراسة أثرية معمارية» ، رِسَالَةُ دكتوراه مسجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٢م .
مصطفى عبد الحليم عبد الحسيب .
«التَّطَوُّرُ العُمْراني لجزيرة الزَّمالِك منذ بداية القرن التَّاسع عشر الميلادي وحتى أوائل القرن العشرين ـ دراسة أثرية حضارية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٦م .
مصطفى فوزي محمد .
«الأسْوَاقُ التُّجارية المُشَيَّده بمدينة القاهرة خلال الرُّبْع الأوَّل من القرن العشرين ـ دراسة حضارية معمارية» ، رِسَالَةُ ماجستير مُسَجَّلَة بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢٠٠٩م .

الكشافات التحليلية

خطط القاهرة والفسطاط

خ

ر

ز

ص

ك

الأماكنُ والبُلدانُ

المُصطلحاتُ والوظائفُ والجماعاتُ

ب

خ

د

غ

ف

الأعلام

ف

ق

ك

ل

م

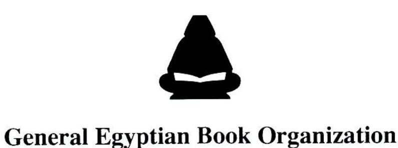
المؤلفون

أسماء الكتب

The Topography and Urban Evolution *of* CAIRO

The Topography and Urban Evolution *of* CAIRO

Ayman Fu'ād Sayyid



General Egyptian Book Organization

THE HISTORICAL DEVELOPMENT OF CAIRO, 20-923/642-1517: an Overview

Cairo is the capital of the Arab Republic of Egypt and one of the most important religious, cultural and political centres in the Islamic world. Ever since its foundation over a thousand years ago, Cairo has been considered the main centre of the Arabo-Islamic civilisation. Furthermore, it is regarded as a unique city in the Islamic world due to the diversity and abundance of its antiquities and buildings of historical interest, since we do not find such an accumulation of religious and secular monuments in any other place. The various styles of these monuments enable us to study the development of Islamic architecture.

The origins of Cairo, 20-567/642-1171

Cairo occupies a unique place at the apex of the Delta triangle, the point of its conjunction with the southern part of the Nile Valley (the north-south axis). This unique site is determined by the nature of the Egyptian land and the historical process. Capitals were founded in this general location at different sites (Memphis, Oun ['Ayn Shams, which the Greeks called Heliopolis] and Babylon - Babalyun). They were never established anywhere else, except for limited periods and at exceptional times in Egyptian history.

When the Arabs conquered Egypt in 20/642, *al-Fusṭāṭ* was built as the first Muslim city in Egypt near the Roman fortress of Babylon. After nearly a century, a quarter was added to it in the north-east to house the official residence of the 'Abbasid amirs and their military encampment, beginning in 132/750. Because of this, the quarter was called *al-'Askar* (the camp). Again in the north-east a new district or small city was laid out by Aḥmad b. Ṭūlūn, the first Muslim ruler to control Egypt independently of the 'Abbasid caliphate, in 254/868. This city was

called *al-Qaṭā'i'* because it was divided into separate quarters which were granted to detachments of the army. These three separate cities soon became virtually one city, with *al-Fusṭāṭ* as its commercial, social and industrial centre.

The fourth step in the evolution of this city was yet another expansion to the north-east. This time a large area was left between the city and *al-Qaṭā'i'* - which had been largely destroyed - so that there would be security and privacy for the Fatimid caliphs in whose name the fourth city, which was the actual *al-Qāhira*, was built. However, it consisted only of the palace, barracks for the soldiery and the offices of the administration (dāral-wazara). *al-Fusṭāṭ* remained the market for the sale of goods and a centre for culture and business.

Al-Qāhira did not become the metropolis and ruling centre of Muslim Egypt until after *al-Fusṭāṭ* had been deliberately set on fire in 564/1168. The walls of Ṣalāh al-Dīn were built to incorporate every thing into a properly unified capital, since they were designed not simply to surround *al-Qāhira* but also to include the Citadel and what was left of *al-Fusṭāṭ* and *al-Qaṭā'i'*.

This site, of which *al-Qāhira* was an expansion nearly three centuries later, contained all the right conditions for the founding of cities and for guaranteeing their continuity. The choice of site was a success in every regard. The city was defended from attack in three directions: by the line of hills to the east, the Nile to the west, and the conjunction of the hills and the Nile to the south. The area opened up only to the north where the city was provided with space to expand. It was there that al-'Askar, *al-Qaṭā'i'*, *al-Qāhira* and its present suburbs, were subsequently built. Moreover, the eastern hills provided stone which was valuable raw building material, and the river provided the raw materials of clay and water for making bricks.

The second Islamic capital of Egypt, *al-'Askar*, was erected by the troops of the 'Abbasid commander Ṣāliḥ b. 'Awn in 132/750 in the place which was known in early Islamic times as *al-Ḥamrā' al-Quṣwā*. It was located north-east of *al-Fuṣṭāṭ* in the area which is now bordered

on the south by Qanāṭir Majrā al-'Uyūn and on the north by Maydān al-Sayyida Zaynab. This city was planned in a manner similar to the layout of other centres of regional government (*al-mudun al-amiriyya*) in order to be the permanent capital of the 'Abbasid governors in Egypt. Its congregational mosque *(al-masjid al-jāmi')* - of which we have lost all trace - was built by al-Faḍl b. Ṣāliḥ in 169/786.

Aḥmad b. Ṭūlūn ruled Egypt independently from 254/868 and he built the new capital known as *al-Qaṭā'i'* to the north-east of al-'Askar.

It lay in the area between Jabal Yashkur in the south and the foot of Jabal al-Muqaṭṭam in the east - where the Citadel is now situated - and between al-Rumayla - below the Citadel where the mosque of Sultan Ḥassan is now - and the mosque of Zayn al-'Abidīn in Tilāl Zinhum (an area of about a square mile).The new governor's city contained a *maydān (Hypodrome),* a mosque and a hospital.

Furthermore, each division of the troops was assigned a quarter *(qaṭi'a)* all of which made up the city of *al-Qaṭā'i'* ('the quarters'). The name of the city seems to reflect the Administrif *iqṭā'* system which dominated this period. Furthermore, it was the first capital in Islamic Egypt that was planned following aesthetic criteria for the laying out and building of cities. Indeed, the city was greatly influenced by the plan of the 'Abbasid capital of Sāmarra' in Irāq. However, the monument which has actually perpetuated Ibn Ṭūlūn's name is his mosque, which was the only monument that was left after the city was sacked by the 'Abbasid soldiery and its subsequent decay due to neglect. It was in Ramadan 265/May 879 that the mosque was completed and could be used for prayer. This mosque is held to be the oldest mosque in Egypt that still retains its original architectural detail and structure. It was built to imitate the style of the Great Mosque at Samarra' in Irāq with its unique minaret. The mosque became the model which influenced the design and building of mosques in Egypt from then on until the construction of the mosque of al-Mu'ayyad Shaykh in 818/1415.

The Fatimids and the founding of Cairo, 358-567/969-1171

The arrival of the Fatimids in the middle of the 4th/10th century was regarded as a serious development and a unique transformation of the contemporary political and religious map of the Islamic world. For the first time, power in Islamic world was to be the object of a real contest between two caliphates seeking domination at the same time; each of them, that is to say the 'Abbasid caliphate in Baghdād and the Fatimid caliphate in Cairo, considered itself the rightful ruler of this world.

As soon as Jawhar al-Ṣaqlabī - the commander (*qā'id*) of the army of the Fatimid caliph al-Mu'izz li-Dīn Allāh - arrived in Egypt in 358/969, he began executing his master's orders to build a city which would stand in relation to *al-Fusṭāṭ* as, in Ifriqiya, al-Manṣūriyya did to Qayrawān. So on the night of 17 Sha'bān 358/6 July 969, Jawhar crossed with his troops from Gīza to *al-Fusṭāṭ* and camped on the sandy plain to the north of *al-Qaṭā'i'*.

Jawhar built the first wall of the city with baked mud bricks and arranged in a square, each side measuring 1,080 metres. So *al-Qāhira*, at its foundation, covered an area of 1,166,400 square metres; 240,141 square metres solely for the palace, 120,050 square metres for the Garden of Kāfūr (al-bustān al kāfūrī) and a similar amount of land for the *maydāns*. On the remaining land, which was some 686,000 square metres, the districts of the city were set out. However, part of the land was left undeveloped for further expansion. A large part of the eastern side of the walls was apparently still in existence at the time of the historian al-Maqrīzī (d. 845/1442) and it ran behind the walls of Ṣalāḥ al al-Dīn for about 50 cubits (*dhirā'*) (92,890 metres) between Bāb al-Barqiyya and Darb Baṭṭūt, which was pulled down in 803/1400.

There were nine gates in the wall, two in the northern wall: Bāb al-Naṣr and bāb al-Futūḥ, two in the eastern wall: Bāb al-Barqiyya and Bāb al-Qarrāṭīn, three in the southern wall: two of which being Bāb Zowila and Bāb al-Faraj; and two in the western wall: Bāb al-Qanṭara and Bāb Sa'āda. A third gate called Bāb al-Khūkha was later added

to these last gates. There now is no trace left of these gates although al-Maqrīzī refers to the fact that he saw the remains of the arches of some of them.

At first, Jawhar thought that if he called the new city al-Manṣūriyya - (meaning 'the Triumphant' or 'the Victorious') in imitation of the capital of the Fatimids established in Ifriqiya by al-Manṣūr the father of al-Mu'izz - he would curry favour with his master, al-Mu'izz. However on his arrival in Egypt four years later, al-Mu'izz changed its name to *al-Qāhira* particularly because he gave an order to Jawhar - at his leave-taking in Ifriqiya - to build a city and call it *al-Qāhira* ('the Vanquisher') because it would vanquish the world. (See also the report about its name, *al-Qāhira*, in relation to the planet Mars, the Vanquisher, which was in the ascendant, when the city's foundations were laid.)

At first, the plan of *al-Qāhira* took the shape of a square, and then 120 years later its shape was changed to a rectangle when the Fatimid vizier Badr al-Jamālī widened the southern and northern walls and moved them to where the surviving gates now indicate their positions. A principal thoroughfare cut through *al-Qāhira* from Bāb Zawila the south to Bāb al-Futūh in the north parallel to al-Khalīj. It was called al-Shāri' al-A'ẓam or Qaṣabat *al-Qāhira* and it divided the city into two equal halves. However, throughout the Islamic period there were no streets running offal-Shāri' al-A'ẓam. There was also a road parallel to it - nowadays Shāri' al-Jamāliyya indicates where it ran - which used to lead from Bāb al-'Id, one of the doorways of the great Fatimid palace, to Bāb al-Naṣr. This street played an important role in the caliph's public acts since his processions used to pass down it in order to go, for example, to the *muṣallā* (place of prayer) located outside the northern wall.

Jawhar asked each of the ethnic groups that had accompanied him on the conquest of Egypt to choose a place to inhabit, and each of these was known as a ḥāra. At that time ḥāra did not refer to an alleyway between houses as it does now. Rather, it meant a part of the totality of the city's buildings which constituted an entire quarter penetrated

by streets where communities, markets and mosques were located. *Al-Qāhira* first had about ten *ḥāras* and they began to increase with the expansion of the city and the arrival of new communities. Each ḥāra had a gate that was closed after the night prayer and opened before the dawn prayer with the knowledge of the night watchman (*mutawalli al-tawfi laylan*) or patrol men (*aṣḥāb al-'asas*).

At first, the name *al-Qāhira* used to refer to everything that was surrounded by Jawhar's mud-brick wall, and later to what was surrounded by the stone wall built by Badr al-Jamali. As for what lay outside these walls and which was augmented with the city's regular expansion, it was called Ẓāhir *al-Qāhira* (*al-Qāhira* extra-muros).

At the beginning of its life, there was nothing outside the city's walls except the Muṣallā al-'Idayn, or Muṣallā *al-Qāhira*, which was laid out by Jawhar outside the northern wall near Bāb al-Naṣr.

The tombs of the inhabitants of *al-Qāhira* were outside the southern wall to the left of Bāb Zawila the land that extends from there as far as the foot of Jabal al-Muqaṭṭam. This space was occupied later by the mosques of al-Ṣāliḥ Ṭalā'i' and al-Maridānī, in the area now called al-Tabbāna and shāri' al-Darb al-Aḥmar as far as Bāb al-Wazīr.

If, in general, *al-masjid al-jāmi'* (congregational mosque) should be the key for the topographical and historical study of any Islamic city rather than the residence of the ruler, then the situation viz-a-viz *al-Qāhira* is different, since the Fatimid palace was the heart of the city, occupying some seventeen acres, that is to say nearly a fifth of the city's total area. It is true that the mosque of *al-Qāhira* was the centre on which the Fatimids depended for spreading Fatimid intellectual culture and the Ismā'ili *da'wa*. However, the palace shared this function with the mosque since the chief missionary (*dā'i al-du'āt*) used to hold meetings for the Ismā'ili faithful in a part of the palace called al-Muḥawwil, and the Fatimid caliph himself would occasionally be present at them.

As soon as the caliph al-Mu'izz arrived in *al-Qāhira*, he ordered a place of burial to be laid out in the south-western corner of the palace for the interment of the coffins of his forebears, which he had brought with him from Ifriqiya, and for the burial of future Fatimid caliphs, their families and children. The construction was known thereafter as Turbat al-za'farān (the Saffron Mausoleum).

The palace had nine doorways: in the west facade there was Bāb al-Zuhūma, Bāb al-Dhahab, and Bāb al-Baḥr, and in the north facade there was Bāb al-Rīh. In the east facade there was Bāb al-'Id, Bāb al-Zumurrud, and Bāb Qaṣr al-Shawk, and finally in the south facade there was Bāb al-Daylam and Bāb Turbat al-za'farān.

This description does not include half the magnificent foyers and halls described by William of Tyre and al-Maqrīzī. They consisted of a group of buildings, small palaces or pavilions, audience halls and porticoed courtyards, all of which made up the palace or the Luminous Palaces (al-Quṣūr al-Zāhira). Unfortunately, we are ignorant of everything concerning the architecture since all traces of them have vanished and were replaced by the *madrasas* (colleges) built during the Ayyūbid and Mamluk periods as well as by Khān al-Khalīlī and the quarter of al-Jamāliyya. Our source of information for the palace is what al-Maqrīzī says in his *al-Khitat*, that is either material transmitted from the Ayyūbid sources or based on what he himself saw of its ruins.

These ruins were demolished in 811/1408, during Jamāl al-Dīn Yūsuf al-Ustaddār's despotic vizierate. Thanks to the pieces of information provided by al-Maqrīzī, through studies undertaken separately by Ravaisse and the author of this paper, it has been possible to reconstruct the great Fatimid palace.

The most ancient of *al-Qāhira*'s mosques is gāmi' *al-Qāhira* which was later known as al-Jāmi' al-Azhar, whose foundations were laid by Jawhar on 14 Rabi' 359/25 January 970 and which was inaugurated in Ramadān 361/July 972. It was built on the exemplar of the mosque at al-Mahdiyya in Ifriqiya and its ground plan, when it was first built, consisted of three *iwāns* (porticos) disposed around a courtyard: the

east *iwān* was made up of five colonnades (sing. *riwāq),* and in the other two sides there were three *riwāqs.* The part of these *riwāqs* that overhung the courtyard was supported by buttresses. The west side had no *riwāqs* and in its centre was the main entrance, over which was the minaret, and it is possible that the entrance projected from the facade as was the case with the mosque at al-Mahdiyya. Thus, little of the mosque now standing is the original Fatimid mosque, but rather it consists of a group of monuments which were added onto it in later times. Of the Fatimid mosque there is only the *majāz* (aisle) that leads to the Fatimid *miḥrāb* and its arches, which are all that remains of the original arches.

As for what is now known as the mosque of al-Hākim, the caliph al-'Aziz bi'llāh started building it outside the old Bāb al-Futūḥ in 380/990 and called it Jāmi' al-Khuṭba. Then the works on it stopped for a number of years until his son, al-Hākim bi-Amr Allāh, finished them in 393/1003. However, it was not officially inaugurated until 403/1012-1013. In its design the mosque brings together both North African and Egyptian elements. It undoubtedly follows the plan of the Ibn Ṭūlūn Mosque which was built after the style of the Great Mosque of Sāmarrā'. The main portal, however, opens in the centre of the mosque's rear wall directly facing the *miḥrāb*, like the portal of the mosque at al-Mahdiyya. It projects from the line of the rear wall and it takes the form of two towers with a passage between them leading to an entrance. As a result, its design resembles a vernacular gateway or arch set in wall. Previously, it had been usual for the main entrances of mosques to be opened in the two lateral walls rather than facing Mecca and in the rear wall. This approach was repeated, however, in the mosque of al-Aqmar (519/1125) and in the mosque of al-Ẓāhir Baybars (665/1267), but with different dimensions. Both minarets of the mosque have a design unique among minarets in Egypt. They were built of stone in the form of a cylindrical core surrounded by a square mass: one in the north-west corner of the mosque and the other in the north-east corner. The ornamentation of geometric and vegetal forms found on the base of these minarets and on the mosque's main entrance represents a conclusive stage in the formation of Islamic ornamentation. Stone

did not appear in Fatimid architecture before the mosque of al-Ḥākim. So it was now possible to dispense with plaster wash for covering and dressing mural surfaces. Sculpted stone ornamentation gave value to the facades of Fatimid mosques, and it is distinctly apparent in the mosques of al-Aqmar and al-Ṣāliḥ Ṭalā'i'.

After the mosque of al-Hākim, there was no further mosque building in *al-Qāhira* for about a hundred years. The first to be built afterwards was the mosque of al-Aqmar in 515/1121 during the reign of al-Āmir bi-Aḥkām Allāh and the vizierate of al-Ma'mūn al-Baṭā'iḥī and it was inaugurated in 519/1125. The walls and the facade were built of stone. This was the first time care was taken to construct and ornament the facade of a mosque in *al-Qāhira*. This ornamentation was not merely confined to the portal but covered the entire facade of the mosque at the opposite end to the *qibla* wall. The facade of the mosque included a pair of analogous wings, to the right and left of the entrance and, for the first time in the architecture of *al-Qāhira*, *muqarnas* was deployed as ornamentation. All trace of the mosque of al-afkhar,built by the caliph al-Ẓāfir in 543/1148 has vanished; it was replaced by a new mosque in 1149/1736 which was built by Amir Aḥmad Katkhudā Mustaḥfāẓān.

The mosque of al-Ṣālih Ṭalā'i', built by the vizier al-Malik al-Ṣālih. Ṭalā'i' outside Bāb Zawila 555/1160, is regarded as the last of the congregational masques to be built by the Fatimids in *al-Qāhira*. It was a raised mosque *(masājid mu'allaqa)* built over an underground floor which was used for shops and warehouses. The mosque experienced many upheavals and was much repaired until it was restored and rebuilt by the *Comité de conservation des monuments arabes* in the second decade of the last century.

It can be observed that the area of individual mosques built in the Fatimid period after the mosque of al-Ḥākim began to decrease due to an increase in the number of congregational mosques. It can also be observed that in the planning of Fatimid mosques there is a widening of the nave *(uskūb)* of the *miḥrāb* and its pavement. This occurred in order to create a square base for the dome which was erected in front of the

miḥrāb at the intersection of the nave and the pavement of the *miḥrāb*. The square base of the dome meant that its sides were equal and thus it became a new element in the design of mosques.

In the Fatimid era another kind of religious construction, the mosque with ashrine or *mashhad*, became known in Egypt. These are shrines that were built in order to commemorate the Family of the Prophet *(Ahl al-Bayt)*. Most of them were sites where visions had been experienced and most of them are in the place known as al-Mashāhid, between *al-Qāhira* and *al-Fusṭāṭ*. Their dating is by and large uncertain.

However, based on the study of their architectural and ornamental elements, it is likely that they belong to the Fatimid period. Usually the *mashhad*, or the mosque used as a shrine, retains all the design elements of a mosque. The most important of these *mashhads* are: Mashhad al-Sayyida Sukayna, Mashhad 'Ātika, and al-Ja'farī, Mashhad al-Sayyida Ruqayya, Mashhad Ikhwat Yūsuf, Mashhad al-Lu'lu'a, al-Mashāhid al-Tis'a and al-Qibāb al-Sab' in al-Qarāfa. We can add to these the Mashad al-Juyūshī which was erected by Badr al-Jamālī on Jabal al-Muqaṭṭam in 478/1085, perhaps as his own mausoleum. He was the first person of note in the Fatimid period who had a commemorative inscription made carrying the term *mashhad*.

What remains of the walls and gates of *al-Qāhira* built by the general Badr al-Jamālī between 480/1087 and 485/1092 are a part of the northern wall and three gates: Bāb al-Naṣr and Bāb al-Futūh in the northern wall and Bāb zawila in the southern wall, as well as Bāb al-Barqiyya which was opened in the eastern wall. The gates were built of stone and they were huge constructions, in the area that each of them occupied, in their height which exceeded twenty metres, and in the amount of stone used in their construction. Two great salients or towers precede each gate, projecting from the line of the wall, with the exception of Bāb al-Barqiyya. On Bawwābat al-Naṣr is displayed the oldest example of assembled interlocking stone elements, or joggled voussoirs, on a flat lintel to be found in the history of Cairene architecture, if not in the history of architecture as a whole.

The influence of Armenian architecture is evident in the gates. Al-Maqrīzī says that the three brothers, the builders, came from Edessa and it was they who built the first three gates, whereas Abu'l-Makārim Sa'dallāh (Abu Ṣāliḥ al-Armannī) says that the engineer for the walls and gates of *al-Qāhira* was a man called Yuhanna al-Rāhib.

Throughout the first period of the Fanimid caliphate, *al-Qāhira* remained a secluded royal city; the people who lived in *al-Fusṭāṭ* - country's commercial and industrial capital - were not allowed to enter it except by special permission and for the purpose of serving the people of the Fatimid caliph's retinue *(khawass)*, his ministers and the military.

Although *al-Qāhira* was not basically established in order to be - literally in the proper sense - a residential city, residential areas began to spread outside its walls in an imperceptible and unorganised way. This expansion was the reason the city collapsed so rapidly when confronted with its first financial and political crises.

The first expansion of *al-Qāhira* occurred beyond the northern and southern walls built by Jawhar. The expansion evidently happened at the beginning of the 5th/11th century when a large *ḥāra* was chosen and marked out beyond the Bāb al-Futūh and it was called *al-ḥāra al-Ḥusayniyya* after the commander-in-chief, al-Ḥusayn b. Jawhar.

Moreover, the caliph al-Ḥākim also completed building the mosque of al-Anwar which his father had begun outside the northern wall in 404/1013. This phenomenon was repeated outside the southern wall where several *ḥāras* were established for the Sudani, Maṣāmida, Yānisiyya, Hilaliyya and Manjabiyya troops. Furthermore, the caliph al-Ḥākim built a new gate beyond Bāb Zawila - at a date not specified in the sources - in order to define the furthest limits of the land that had been granted to them.

The severe economic crisis and the political anarchy that Egypt endured in the middle of the 5th/11th century put a stop to *al-Qāhira*'s first period of expansion. The effect of the crisis was clearly evident especially in *al-Fusṭāṭ*, It had a brutal impact on the ancient 'Abbasid

and Ṭūlūnid quarters of al-'Askar and *al-Qaṭā'i'* to the north of *al-Fusṭāṭ* where a large number of the houses were destroyed during the troubles.

This crisis, in addition to the administrative and political anarchy under which the country deteriorated and the bloody conflict between the Turkish and Sudanese soldiery, were the reasons that impelled the caliph al-Muṣtanṣir bi'llāh - powerless himself - to seek the help of the governor of 'Akkā (Acre), the *amir al-juyūsh,* Badr al-Jamāli, to restore order and stability in the country. One of the most important reforms which the *amir al-juyūsh* carried out - after subduing these rebellions and hunting down corrupt individuals - was to permit whoever was capable of constructing something in *al-Qāhira* to choose a piece of land for themselves inside the Fatimid walls (most of which, however, were now in ruins). He exploited the stone and other remains of buildings which had been destroyed during the upheavals. Thus, al-Maqrīzī says, 'that was the first time that ordinary people acquired land inside *al-Qāhira*'. As a result, *al-Qāhira* temporarily lost its position as a royal city; however, Badr al-Jamālī corrected that afterwards, preserving the city's shape and special character when he strengthened its defences, rebuilt its gates and walls, and expanded it to the north and south between 480/1087 and 485/1092.

If the system of Badr al-Jamālī and his successors restored the youth of the Fatimid state and delayed its fall for another one hundred years, Fatimid *al-Qāhira* reached the height of its efflorescence at the beginning of the 6th/12th century during the time of the caliph al-Āmir bi-Aḥkām Allāh (495-524/1101-1130) and the vizierate of al-Ma'mun al-Baṭā'iḥī (515-519/1121-1125). During al-Baṭā'iḥī's vizierate, construction expanded into the southern area between Bāb Zawila and al-Mashad al-Nafīsī. Baṭā'iḥī also ordered his *wakīl,* Abu al-Barakāt b. 'Uthmān, to restore and repair the *mashhads* located on the edge of the district.

As for the region on the west bank of al-Khalij, it was built up only very slowly, notably after the Fatimids established an arsenal for the construction and repair of ships (*dār al-ṣinā'a*) in al-Maqs area (now Maydān Ramsis and its surroundings). However, the shipyard could

not have been in use for long since the histories do not mention it after the 5th/11th century. Furthermore, construction reached the west bank of al-Khalīj after the caliph al-Hākim built a mosque, which became known as al-Maqs Mosque, in this district. In the middle of the 5th/11th century, the caliph al-Mustanşir granted the land south of al-Maqs between the Khalīj (the canal) and the Nile and to the north of the Birka (pond) of Baṭn al-Baqara (which afterwards became known as Birkat al-Azbakiyya) to a female musician and performer, known as the Drummer of the Caliph, and her descendants, after she had sung in his presence lauding Arslān al-Basāsiri's victories over the 'Abbasids and Saljuqs in Iraq. Thus it became known as 'Arḍ al-Ṭabbāla (Land of the drummer-girl), and is nowadays the district of Qanṭarat al-Dikka. A number of houses were built there and were, according to Ibn 'Abd al-Ẓāhir, 'among the beauties and splendours of *al-Qāhira*'. These places were abandoned as a result of the hardship in al-Muṣtanṣir's reign, so that the gang, called al-Farḥiyya, chose a *ḥāra* which became known as Ḥārat al-Luṣūṣ (of thieves) because they, along with others, preyed on whoever passed through this district or on the people of the neighbouring districts. The *ḥāras* were not clearly laid out on the west bank of the Khalīj and no real settled population was established there until the beginning of the 6th/12th century. Stability and security were restored in the reign of al-Āmir bi-Aḥkām Allāh, when Ibn al-Tabbān, the *ra'is al-marakib* (lit. 'the chief of the ships'), built a mosque, garden and a house in front of al-Kharq and to the west of the Khalīj. And so, this selected piece of land *(al-khiṭṭa),* was known as Barr al-Tabbān, after Ibn al-Tabbān. Construction continued until the situation required the appointment of a governor solely for al-Jamakiyya, independent of the governor of *al-Qāhira*, to oversee the west bank of the Khalīj.

Throughout the Fatimid period, *al-Fusṭāṭ* was the principal city of Egypt and the centre of its economic, industrial and scientific activity. In contrast, *al-Qāhira* was the residence of the Fatimid government, the administrative and political centre of the state and the seat of the Ismā'ili *da'wa* or missionary organisation. The two cities together form the Egyptian capital in the Fatimid era.

Towards the end of Fatimid rule, in 564/1168, a fire which had been started deliberately on the orders of the vizier Shawar devastated *al-Fusṭāṭ* during the Crusader invasion of Egypt. The conflagration continued for over fifty-four days and destroyed most of the buildings around the mosque of 'Amr and in the north-western district known as *al-Ḥamrawat* (the areas to the cast had been in ruins since the crisis of the mid 5th/11th century). The people of *al-Fusṭāṭ* fled to *al-Qāhira*: initially to seek protection there and then to protect it from attack by Amalric I, the king of the Frankish state of Jerusalem. Amalric was later compelled to lift the siege of *al-Qāhira* when he learnt of the arrival of the armies of Nur al-Dīn under the leadership of Shirkūh and Ṣalāh al-Dīn (Saladin in Crusader sources), founder of the Ayyūbid dynasty and nephew of the former, and their threat to his possessions in Palestine. Later, Shirkūh managed to defeat Shawar and eliminate his power base (as vizier of the caliph al-'Āḍid). He also managed to convince the people of *al-Fusṭāṭ* to return to their homes and rebuild their city. It seems that the rebuilding process was actually carried out during 572/1176 and Abul-Makārim Sa'dallāh (Abu Ṣāliḥ al-Armanni) regarded this year as the start of the reconstruction of many of the churches in *al-Fusṭāṭ*. Furthermore, Ibn Jubayr, who visited Egypt nearly five years later, says that most of the city had been renovated and that construction was going on at the time of his visit.

Cairo in the Ayyūbid era, 567-648/1171-1250

When Ṣalāh al-Dīn achieved control over Egypt in 567/1171, his primary concern was to leave Cairo and return north to Syna. Therefore, he thought of building a well-fortified citadel which would be defensible and which would overlook both *al-Qāhira* and *al-Fusṭāṭ*.

This desire has already been observed in the ruling families who built the cities of al-'Askar, *al-Qaṭā'i'* and *al-Qāhira*. Ṣalāh al-Dīn chose the lower slopes of Jabal al-Muqaṭṭam on which to build the Citadel. The Citadel thereafter became the residence of the Mamluk sultans and then Ottoman pashas. In 572/1176-1177, Ṣalāh al-Dīn entrusted Bahā'

al-Dīn Qarāqūsh with building the Citadel and the stone walls that enclosed *al-Qāhira*, the Citadel and *al-Fusṭāṭ*. By 579/1183, Qarāqūsh had completed most of it, after demolishing numerous small pyramids scattered around Gīza in order to use the stone for this purpose.

Although scholars have differed on the reason behind the building of the Citadel, it is most probable that when Ṣalāḥ al-Dīn built it he was following the common traditions of his homeland, Syria, where each city had its own citadel or fortress. Past experience had demonstrated that when a city fell into enemy hands, its citadel remained invincible and hence it was possible to regain the city.

During the short periods which Ṣalāh al-Dīn spent in Cairo, he did not reside in the Citadel permanently. Rather, he, together with his son al-Malik al-'Azīz 'Uthmān and his brother al-Malik al-'Ādil Abū Bakr, used to move frequently between the fortress and the *dār al-wuzāra*, the administrative centre. Al-Malik al-Kāmil Muḥammad was the first to move permanently from the *dar al-wuzāra* to the Citadel, in 604/1207. Thus, *al-Qāhira* lost its prestige as a ruling centre, and commercial and artisan activities moved into it and spread out over the site of the Fatimid palaces around al-Shāri' al-A'ẓam or Qaṣabat *al-Qāhira*.

Nevertheless, *al-Fusṭāṭ* remained - despite the horrors it had endured - an overpopulated city, since the general public and the poor went back to live there.

Paul Casanova, Keppel A. C. Creswell and Nasser Rabbat have all described the Citadel and Ṣalāh al-Dīn's wall in detail, following the literary sources and the archeological investigation of the site.

Nowadays, there is no mosque in Cairo that dates from the Ayyūbid era. Furthermore, no Ayyūbid archeological inscriptions have been found indicating the restoration or maintenance of the mosques of 'Amr and Ibn Ṭūlūn by the Ayyūbids. These two mosques and the Ḥākim Mosque to the north of *al-Qāhira* are those in which the Ayyūbid rulers permitted the Friday sermon to be delivered, and this was done to

undermine the importance of al-Azhar which had been the centre of the Fatimid *da'wa.* Thus Ṣalāḥ al-Dīn abrogated the delivery of the Friday sermon in it and this remained the case until the Mamluk sui tan al-ẓāhir Baybars reintroduced it in 665/1267.

In general, the Ayyūbids directed their concerns to the establishing of *madrasas;* Ṣalāḥ al-Dīn built a large number of them in *al-Fusṭāṭ.*

What is more, his successors followed him in building *madrasas* in *al-Qāhira* in order to complete the Sunni reform he had undertaken and to combat the activities of the Fatimid *da'wa.* The Ayyūbids established some twenty-three *madrasas* in *al-Qāhira* and *al-Fusṭāṭ.* However, they did not survive the passage of time, though some of their remains can still be found, including those of al-Madrasa al-Kamiliyya and al-Madāris al-Ṣāliḥiyya, not to mention the mausoleum *(qubba)* of al-Imām al-Shāfi'i, the mausoleums of the 'Abbasid caliphs, the mausoleum of al-Ṣāliḥ Najm al-Dīn Ayyūb, the mausoleum of Queen Shajar al-Durr and the mansion of al-Tha'āliba.

Excluding the military constructions which the Ayyūbids built in Egypt (the Citadel and the wall around Cairo), there is no extant public construction dating from the Ayyūbid era. The Ayyūbid elements of the aqueduct which used to supply the Citadel with water were incorporated in the works carried out by al-Nāṣir Muḥammad b. Qalāwūn and al-Ashraf Qanṣūh al-Ghawrī. However, there are still the remains of two bridges to Gīza on which there arc inscriptions in the name of Qarāqūsh dating from the reign of Ṣalāḥ al-Dīn. There are also other inscriptions which indicate the restoration works that were carried out by al-Naṣir Muḥammad b. Qalāwūn, al-Ashraf Qaytbāy and Husayn Pāsha.

Towards the end of the Ayyūbid period, the seat of government moved temporarily from the Citadel to another fortified site at the western edge of the capital. This fortress was built by al-Malik al-Ṣāliḥ Najm al-Dīn Ayyūb on the island of al-Rawḍa, using a large number of Crusader captives as labollr. Al-Malik al-Ṣāliḥ had the palace surrounded by a wall fitted with sixty towers. He moved into it with

his court and his family in 638/1240-1241. Al-Ṣāliḥ also established a regiment of Mamluks, whom he had brought up and trained in the citadel of al-Rawḍa. It was they who succeeded the Ayyūbids under the name of the Baḥrī Mamluks. An audience hall *(qā'a)* from al-Malik Ṣāliḥ's palace survived until the end of the 18th century when Jean-Joseph Marcel, one of the scholars of Napoleon's expedition, presented a detailed description and an accurate plan of it in the section of *La Description de l'Égypte* devoted to the study of the island of al-Rawḍa and the Nilometre *(al-miqyās).*

The last years of the 6th/12th century witnessed an acute economic crisis, more severe than that which had hit Egypt in the middle of the 5th/11th century. 'Abd al-Laṭīf al-Baghdādī described this crisis in detail in his *Kitāb al-ifāda.* As before, the people of *al-Fusṭāṭ* were more affected than the inhabitants of *al-Qāhira.*

The expansion of Cairo in the Mamluk era, 648-923/1250-1517

When the Mamluks attained supreme political authority in Egypt, the expansion and growth of Cairo took on a new shape. After the fall of Baghdād to the Mongols in 656/1258 and the transfer of the 'Abbasid caliphate to Cairo, the Islamic east came under this formal religious authority established from then on in the Egyptian capital. An increase of the population of Egypt resulted from these events: First, because of the migration of a large number of refugees who fled to Egypt from the east in the face of the Mongol invasion. They settled especially on both sides of al-Khalīj, around Birkat al-Fīl and in the district of al-Ḥusayniyya to the north of Fatimid *al-Qāhira* where Sultān al-Ẓāhir Baybars established his Great Mosque in 665/1266.

Second, after the flight of part of the army of the Mongol Hulagu to Egypt in 660/1262, al-Ẓāhir Baybars lodged them in 'houses which he had built for them in the land of al-Lūq', on the west bank of al-Khalīj.

Then, later on, Mongol immigrants called *wāfidiyya,* or the newcomers, arrived and settled in Ḥikr Āqbughā, the area furthest

north of *al-Fusṭāṭ* where al-Sab' Siqāyāt was and near Qanāṭir al-Sibā'. This bridge, which was built by al-Ẓāhir Baybars (and is now in the district of al-Sayyida Zaynab) in order to link the banks of the Khalīj , brought about the revival this quarter. There were also Mongol refugees known as Oirats who fled to Egypt after the Mongol invasion during the reign of al-'Ādil Katbughā (694/1294-1295) and settled in the district of al-Ḥusayniyya to the north of *al-Qāhira*.

Mamluk Cairo reached its greatest recorded level of growth during the third reign of al-Nāṣir Muḥammad b. Qālawūn (709-741/1310-1341), which is considered to be an important turning point in the city's history. The growth was basically concentrated outside Bāb Zawila and in the district below the Citadel *(qal'at al-jabal)* where the Mamluk amirs erected a large number of new constructions at the sultān's behest. This included - in addition to houses and palaces - building a number of congregational mosques. Thus, up to 718/1318, the opinion which stated that the Friday sermon should be delivered in only one mosque of a city had prevailed (and this was the opinion of the Shāfi'ī school of law which had been followed by the Ayyūbids). Therefore, there now was in Cairo: al-Azhar in the south, the mosque of al-Ḥākim to the north and the congregational mosque *(al-masjid al-jāmi')* of 'Amr in *al-Fusṭāṭ*. Furthermore, Sultan al-Manṣūr Lājīn had restored the mosque of Ibn Ṭūlūn in 696/1296-1297 to serve the area south of Bāb Zawila, and then the Citadel had its own mosque which was built by al-Nāṣir Muḥammad b. Qalāwūn in 718/1318. However, between 730/1329 and 740/1339 four new congregational mosques were built between Bāb zawila and the Citadel. These mosques were Jāmi' 'Ulmās al-Ḥājīb in Shāri' al-Ḥilmiyya (730/1329-1330), Jāmi' Qūsūn in Shāri' al-Qal'a (formerly Muḥammad 'Alī Street) (730/1329-1330), the Bashtak Mosque in Shāri' Darb al-Jamāmīz (736/1336), and Alṭunbughā al-Māridini Mosque in Shāri' al-Tabbāna (739/1338-1339) which was the largest and most magnificent of them.

In addition, there were a number of mosques and *madrasas* built elsewhere in the city, such as Madrasa Mughulṭāy al-Jamālī (730/1329), al-Khaṭīrī Mosque (737/1337) and al-Sitt Ḥadaq Mosque (740/1339).

After the death of al-Nāṣir Muḥammad in 741/1341, his amirs continued building in this district which became that of the Mamluk aristocracy. Thus, three new mosques were built: Jāmi' Aṣlam al-Silihdār al-Bahā'ī in Darb ShugLān (746/1345), Aqsunqur al-Nāsirī Mosque in Shāri' Bāb al-Wazīr (747/1346), which was restored by Ibrāhīm Aghā Mustaḥfaẓān in 1061/1651 and became known as al-Jāmi' al-Azraq, and Jāmi' Shaykhu al-'Umarī in Shāri' Shaykhūn in al-Ṣalība (750/1349).

The flourishing state of this southern district of Cairo outside Bāb Zawila had a negative impact upon the development of the northern quarter outside Bāb al-Futūh where al-Ḥāra al-Ḥusayniyya was located. This was particularly the case after the Black Death when the area was abandoned. Then its buildings were pulled down and it was completely destroyed after the privations of the year 806/1402. Nevertheless the Black Death could not stop the process of construction outside Bāb Zawila so the Jāmi' Shaykhu was built during this period, Dār Ṣarghatmash in the region of Bi'r al-Waṭāwīṭ (753/13521353), the palace of Amir Tāẓ in Shāri' al-Suyūfiyya (755/1354) and the mausoleum and *khānqāh* of Shaykhu (757/1356). However, the most important of these constructions was the mosque and *madrasa* of Sulṭān Ḥasan (757-764/1356-1363). It is one of the greatest *madrasa* mosques and it cost over twenty million dirhams, which makes it the most expensive building ever erected in Cairo. In order to build it two of Cairo's most luxurious palaces were pulled down, Yalbughā al-Yahyāwi Palace and Qaṣr Altunbughā al-Maridāni.

The building of these mosques and *madrasas* does not - as one might think - indicate an increase in population. On the contrary, the population of Egypt decreased at the time as a result of the Plague. However, the large number of deaths led to an increase in inheritance tax *(al-mawārīth)* and *al-mawārīth al-ḥashriyya*, that is to say property left without inheritors which was appropriated by the state, and this therefore permitted the rulers and powerful amirs to implement an ambitious construction policy.

During the Mamluk period, Cairo was not a fortified city; the Fatimid wall had disappeared among the quarters of the Mamluk city. What is more al-Qaṣaba, or al-Shāri' al-A'ẓam, was not only the commercial artery of the city, but also the route for processions and the place where the sultans would parade past the people. These celebrations bring to mind Cairo's Fatimid inheritance which could still be perceived, even at that time. As al-Shāri' al-A'ẓam had been regarded as the main political and spiritual centre of Fatimid *al-Qāhira*, so in the Mamluk era it became a sort of university city. All along al-Qaṣaba specially around Bayn al-Qaṣrayn - were laid out a series of *madrasas*, Dar al-Hadith al-Kamiliyya (622/1225), al-Madaris al-Ṣāliḥiyya (641/1243-1244), al-Madrasa al-Ẓāhiriyya Baybars (660-662/1262-1263), the mausoleum and *madrasa* of al-Manṣūr Qalāwūn (673-684/1274-1285), al-Madrasa al-Naṣiriyya Muḥammad b. Qalāwūn (695-703/1295-1304), al-Madrasa al-Zāhiriyya Barqūq (786-788/1384-1386) and al-Madrasa al-Ashrafiyya Barsbāy (829/1425). Slightly to the south there is the last mosque of the Circassian Mamluks: Jāmi' al-Ashraf Qansūh al-Ghawrī and near it there was a new complex: a mausoleum, a fountain and a *kuttāb* or Qur'anic school (909-910/ 1504-1505), then the mosque and *madrasa* of al-Mu'ayyad Shaykh al-Maḥmūdī (818-823/ 1415-1420), near Bāb Zawila the south of the Fatimid city.

On both sides of al-Qaṣaba and the streets parallel to it there were also a large number of religious buildings: the *khanqāh* of Baybars al-Jāshankīr (706-709/1306-1310) and al-Madrasa al-Qarāsunquriyya (700/13001301), which was next to the *khanqāh* to the south of Shāri' al-Jamāliyya. Jāmi' Sābiq al-Dīn Mithqāl (763/1361-1362) was in Shāri' Darb Hurmiz, the *madrasa* of Jamāl al-Dīn al-Ustaddār (811/1408-1409) was in Shāri' al-Tumbakshiyya and the mosque of Abū Bakr b. Muzhir (884/1479) was in Ḥārat Barjawān. The *qādi's* court was held in Bayn al-Qaṣrayn in al-Ṣāliḥiyya al-Najmiyya *madrasa*. There was also al-Māristān al-Manṣūrī, which was the medical centre of Egypt until the 19th century.

To these can also be added the foregoing: Madrasa Umm al-Sultān Sha'bān (770/1369) in Shāri' Bāb al-Wazīr, Madrasat al-Ashraf Sha'bān

(777/1376) on the rise in front of Bāb al-Qal'a, and Jāmi' Aytamush al-Bijāsī (785/1383) in Shāri' Bāb al-Wazīr. Thus the greater part of the Islamic monuments of Cairo came to be concentrated inside the limits of Mamluk Cairo where the districts of al-Jamāliyya, al-Darb al-Aḥmar and al-Khalīfa as far as Shāri' Ṣalība and the Ibn Ṭūlūn Mosque to the south now indicate its existence. As for the houses and palaces built in the Mamluk era, of which al-Maqrīzī in his *Khiṭaṭ* mentions sixty-one, most of them were erected in the 8th/14th century. However, only four palaces have come down to us, three of them outside Bāb Zawila to the south of *al-Qāhira*.

Oaṣr Alin Āq in Shāri' Bāb al-Wazīr, Qaṣr Qūṣūn Yashbak behind the mosque and *madrasa* of Sulṭān Ḥassan, and the palace of Amīr Tāẓ In Shāri' al-Suyūfiyya. The fourth palace, Qaṣr Bashtāk, lay inside the limits of Fatimid *al-Qāhira* in the district of *Bayn al-Qaṣrayn*.

Thus there is still an immense amount of Mamluk heritage in Cairo; and thanks to these surviving buildings, it is still possible to imagine the shape of Cairo in this age; and we can picture it full of mosques, *madrasas, khānqāhs* (sufi centres), *sabīls*, houses, places, commercial and artisanal complexes and *wakālas* (complexes for foreign merchants), so many of which have now vanished.

The mausoleums and cemeteries of medieval Cairo (al-Qarāfa)

A final note should be made on the subject of the cemeteries and mausoleums of Cairo. Up until the middle of the 5th/11th century the cemetery for *al-Fusṭāṭ* was situated east of the city. Its oldest sections lay between Masjid al-Fath and the foot of the Muqaṭṭam hills.

The cemetery included the quarters known today as Baṭn al-Baqara, al-Basatin, 'Uqba b. 'Āmir and al-Tunsī, and it is now called al-Qarāfa al-Kubrā, 'the great cemetery'. The area bounded by the mausoleum of Imām al-Shāfi'ī and the foot of Jabal al-Muqaṭṭam did not contain a burial ground until, in 608/1211-1212, the Ayyūbid al-Malik al-Kāmil Muḥammad buried his son near the tomb of Imān al-Shāfi'ī land erected

the great cupola, which can still be seen, for the imam's mausoleum. As a result, people moved their tombs from al-Qarāfa al-Kubrā to this area and built tombs there and so it was known as al-Qarāfa al-Sughrā (the small cemetery). During the reign of al-Nāṣir Muḥammad Qalāwūn, the Mamluk amirs built new mausoleums between the shrine of Imām al-Shāfi'ī land Bāb al-Qarāfa until construction became continuous from *Birkat al-Habash* in the south to Bāb al-Qarāfa in the north.

There is another cemetery whose origins go back to the 2nd/8th century. It was located at the northern edge of *al-Fusṭāṭ* al-Miṣr and it used to cover the region south-west of Bāb al-Qarāfa as far as 'Ayn al-Ṣīra. At the beginning of the 3rd/9th century, a third cemetery was established at the foot of Jabal al-Muqaṭṭam where the shrine of 'Umar b. al-Fāriḍ now is. The district used to be known as the Graveyard of Maḥmud.

Finally, perhaps at the start of the 4th/10th century, a new phenomenon occurred in this quarter of architectural development. The quarter got its name from Banū Qarāfa, one of the clans of the tribe of al-Ma'āfir. All of Cairo's cemeteries, all known as *al-Qarāfa*, are named after this tribe. Ibn Jubayr and Ibn Sa'īd both say that they spent several nights in al-Qarāfa. Ibn Sa'īd adds that there are 'tombs which have attached to them buildings which are maintained and several graveyards which have religious endowments (sing. *waqf*) for reciters of the Qur'ān and a great *madrasa* for the Shāfi'īs. Furthermore, there is always singing, especially on moonlit nights, and it is where most of Egypt's social gatherings take place and is their most famous park.'

After the Fatimid conquest, new cemeteries were established first in the south-east of *al-Qāhira* and then expanding to Bāb Zawila in the area now occupied by Jāmi' al-Ṣaliḥ Ṭalā'i', Shāri' al-Darb al-Aḥmar, Shāri' al-Tabbāna, Shāri' Bāb al-Wazīr and the streets that lead off from them. After the death of the *amīr al-juyūsh*, Badr al-Jamālī, in 487/1094, another cemetery was established outside Bāb al-Naṣr to the north of Cairo and the *amīr al-juyūsh* was the first to be buried in it. The site is

at present occupied by Qarāfa Bāb al-Naṣr which lies between Hayy (quarter) Ḥusayniyya and Shāri' al-Manṣuriyya.

As for the Qarāfa of the Marnluks which is located in the Shāri' al-Mamālīk to the east of the road known as Ṭarīq Ṣalāh Sālim, it was only established in the Circassian Mamluk period at the end of the 8th/14th century when the Mamluk sultans and amirs began erecting mosques and *khānqāhs* in the area and adding their tombs onto them. By the end of the 9th/15th century, this had become a unique assemblage of religious constructions and mausoleums all gathered together in one place. Among the Circassian Mamluk sultans, the one who devoted his attention to building in this area was al-Malik al-Sulṭān al-Ashraf Abul-Naṣr Qāyitbāy (872-901/1468-1496), and so it is known in the sources as 'the Graveyard of Qāyitbāy" Turab Qāyitbāy.

AYMAN FU'ĀD SAYYID